

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أبو الخير تراسون كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة
الأطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تخصص العقيدة
عنوان الأطروحة : " التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء الأربعة منه " .

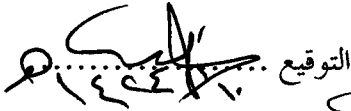
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:
فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ
٢٨ / ١٠ / ١٤٢٣ هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة
توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه .

والله الموفق ،،

أعضاء اللجنة

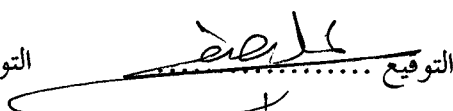
المناقش الخارجي

الاسم : د/ سالم محمد القرني

التوقيع : 

المناقش الداخلي

الاسم : د/ علي بن نفيح العلياني

التوقيع : 

المشرف


الاسم : د/ عبد العزيز المرشدي

التوقيع : 

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د/ عبد العزيز بن أحمد الحميدي

التوقيع : 

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .



٢٠١٠٢٠٠٠٠٠٤٤٠٨

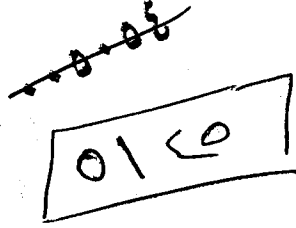
المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

مكة المكرمة



التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء الأربعة منه

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في قسم العقيدة

إعداد الطالب

أبو الخير تراسون

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد العزيز بن عبد اللطيف المرشدي

١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص الرسالة

موضوع البحث : التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء الأربعة منه .

قد اخترت هذا الموضوع لأنه متصل بإحدى الاتجاهات الموجودة في عصر الفقهاء الأربعة ، وأعني بذلك الاتجاه الصوفي المنحرف عن طريق الإسلام الصحيح ، وما آل إليه من تشويه تعاليمه الطيبة في بعض النفوس هذه ناحية ؛ ومن ناحية أخرى كان الهدف من هذا البحث هو الإسهام في التوضيح لحياة الأئمة الأربعة ، وزهدهم في هذه الحياة ، والمشاركة في الدفاع عنهم في قضايا عقدية وسلوكية لم تعرف عنهم .

وقد احتوت الرسالة على مقدمة وبابين وخاتمة ، وبينت في المقدمة أهم الدوافع التي دفعتني إلى الكتابة .

أما الباب الأول فقد عقدته للتصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وتحتة ثلاثة فصول ، تحدث الفصل الأول عن مفهوم التصوف ونشأته ومصادره وآثاره ، وتحدث الثاني عن مراحل تطور التصوف حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، وتحدث الثالث عن أهم قضايا التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين كمعرفة الله ، والحب الإلهي، والولاية والكرامة ، والفناء ، والشرعية والحقيقة ، والسماع ، والأحوال والمقامات وأما الباب الثاني فقد خصصته لموقف الفقهاء الأربعة من التصوف ، وتحتة أربعة فصول ، تكلم الفصل الأول عن الإمام أبي حنيفة وموضوعات التصوف ، وتحدث الثاني عن الإمام مالك وموضوعات التصوف ، وتحدث الثالث عن الإمام الشافعي وموضوعات التصوف، أما الرابع فتحدث عن الإمام أحمد بن حنبل وموضوعات التصوف ، وكشفت المباحث تحت هذا الباب عن بطلان ما نسب إلى الأئمة الأربعة في التصوف .

أما النتائج التي توصلت إليها فأهمها ما يلي :

١- إن مفهوم التصوف الذي صدر من بعض الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين أخذ جانبا من جوانب حسن الخلق ، وتركيزية النفوس ، والزهد والتقشف ، وإن كان في مفهومهم بعض المآخذ والانحرافات .

٢- إن الهدف من التصوف في القرن الثالث الهجري هو الاتصال بالله ﷻ ، كما أن الحب الإلهي أصبح معلما وطريقا اتجه إليه أهل التصوف .

٣- إن زهد الأئمة الأربعة كان زهدا إيجابيا ، حيث كانوا لا يقعدون عن الكسب والعمل ، أو يهجرون المال والعيال ..

٤- لقد أنكر الأئمة الأربعة التعبير ، لأنه سماع منهى عنه ، كما حرصوا - رحمهم الله - وأتباعه على حماية التوحيد من كل شائبة .

٥- إن كثيرا من الروايات والأعمال المنسوبة إلى الفقهاء الأربعة في التصوف لا تصح ، لأنهم لم يأمرؤا باقتداء طريق أهل التصوف ، وإنما عثر عنهم تمسكهم بالكتاب والسنة ، وأمرؤا بالاعراض عن أقوالهم إذا خالفت الأحاديث الصحيحة.

Abstract

Title : Sufism in the second and third centuries after hijrah and the stand of the four Imaams regarding it.

This topic was chosen by me because this is related to one of the beliefs during the time of the four scholars. What I mean is that the direction that the people practicing Sufism took during that time were diverted away from the right path of Islam. And the result of this was the distortion of the teaching of Islam to some people. The purpose of this dissertation was to contribute in the explanations regarding the life of the four scholars and the ascetic lives they have lived in this world. This is also intended to help clarify the issues regarding the faith and practices which were attributed to the four scholars, but were not known to them and were not practiced by them.

This dissertation contains an Introduction, a body which was divided into Two Sections, and a conclusion. The First section talked about Sufism in the second and third centuries. There are three Chapters under this section. The First Chapter discussed about the concept of Sufism, its roots, sources, and influences. The Second Chapter discussed how Sufism developed and progressed until the end of the third century. The Third Chapter discussed about the significant issues concerning the lives and practices of the people of Sufism in the second and third centuries, i.e: The Recognition of Allah, The Love for Allah, ect.

The Second Section talked about the four Scholars and their stands on Tasawwuf. This section was divided into four chapters, Each Chapter talked about each Imaam and the subjects on Tasawwuf: Chapter One, of Imaam Abu Haneefah; Chapter Two, of Imaam Maalik ; Chapter Three of Imaam Shafi'ie; and Chapter Four, of Imaam Ahmad ibn Hanbal. It was found out under these four chapters that the most of the things ascribed to these four Imaams regarding Tasawwuf were not true.

The Conclusion enumerated the important findings and the most important were:

- The certainty that the concept of Tasawwuf came from scholars of Sufism in the second and third centuries taking some of the good concepts regarding behaviorism, purification of the soul, and the living of the ascetic life, even though they were found to be erroneous practices and have diverted away from the right path;
- The purpose of Tasawwuf in the third century, which was to establish a direct relationship with Allah and to have love for Allah, served as a milestone for all the Sufis during that time;
- The ascetic lives of the four Scholars were found to be positively good and in consonance with the sunnah because they didn't just sit down, waited and left their families rather they have endeavored to find work, etc;
- The four scholars have denied music because this is forbidden in Islam, and they were strict including their followers and they have adhered to the principles of Islamic Monotheism and shun away from anything that destroys it;
- Most of the stories and acts referred to the four Imaams regarding Tasawwuf were found to be not true because they have not commanded to follow the ways of the Sufis. Rather, as what have been seen of them and what they have taught, they have been strict in the implementation of Kitaab and Sunnah and they ordered the nonrecognition of their teachings whenever these were found to be against the authentic hadeeths of the Prophet Mohammad sallallaahu 'alaihi wasallam.

Aboulkhair S. Tarason

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ^(٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ^(٣) .

أما بعد : فإن الله ﷻ قد بعث نبيه محمدا ﷺ برسالة الإسلام الخالدة ، وأكمل به الدين كما قال ﷻ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ^(٤) .

لقد بين النبي ﷺ تعاليم الإسلام السمحة خير بيان ، وبلغ الدعوة إلى الناس كافة ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ووفق الله - لإجابة دعوته المباركة - من شرح الله صدره للإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وظل المسلمون على عقيدة صحيحة - بفضل الله ﷻ - كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وبهذه الصورة المشرقة عاش المسلمون الأوائل في ظل الدين الحنيف سعداء متحابين ، وسجلوا أروع الأمثلة في المجالات كلها ، إلا أن مجريات التاريخ أحدثت أمورا تسبب بها تفكك الأمة وتفرقها حينما ظهرت - بعد مقتل عثمان بن عفان ﷺ وما تلاه من حروب - بدعتان متقابلتان : بدعة الخوارج المكفرين لعلي بن أبي طالب ﷺ وبعض الصحابة ، وبدعة الرافضة المدعين لإمامته وعصمته ، أو نبوته أو إلهيته ، ثم تتابع خروج الفرق بعد

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٠٢) .

(٢) سورة النساء ، الآية (١) .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان (٧٠ - ٧١) .

(٤) سورة المائدة ، الآية (٣) .

ذلك ، حيث حدثت بدعة المرجئة والقدرية في خلافة عبد الملك بن مروان ، ثم تبعها بدعة الجهمية المعطلة والمشبهة المثلة في أواخر الخلافة الأموية ، فكانت هذه الفرق هي أصول أهل البدع التي تفرعت عنها باقي الفرق الأخرى .

ومع مطلع القرن الثاني الهجري لدعوة الإسلام بدا في الأفق ما ينذر بظهور جيل من المسلمين اختلط ببيئات أخرى لها معتقداتها وشرائعها وحضاراتها ، وهذا لا يعني أن الجيل الأول كانوا بمعزل عن المدينيات والثقافات السابقة ؛ لكنهم كانوا مكتفين بما لديهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، إذ الاعتصام بهما كفيل بتحقيق هدايتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة .

غير أن الفترة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين كانت مختلفة ، إذ بعد أن أقبلت الدنيا على المسلمين وفتح الله لهم الأمصار ، ونشطت الحركة الثقافية ، وكثرت الترجمات ، وطفعت الحياة المادية على الحياة الروحية ، حدثت ردة فعل عنيفة عند كثير من المسلمين ، فأتجهوا إلى الزهد والتقشف ، وحب العزلة والانقطاع للعبادة ، والبعد عن هذه الحياة الزائفة الملهية ، محاولين التمسك بتعاليم الكتاب والسنة .

لكن هذا الاتجاه الجديد ؛ وفي منتصف القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين ما لبث أن انحرف عن طريقه الصحيح ، حيث امتزجت الثقافات الإسلامية بغيرها من الثقافات الدخيلة ، فظهرت نظريات دينية ابتعدت قليلا أو كثيرا عن تعاليم الإسلام السمحة ، وتبلور ذلك في تيارات فكرية متعددة ، كان من بينها الاتجاه الصوفي .

هذا الاتجاه له أثره البالغ في مجرى الحياة الإسلامية ، ونعني به الاتجاه الصوفي المنحرف عن طريق الإسلام الصحيح ، وما آل إليه من تشويه تعاليمه الطيبة في بعض النفوس ، وأثره السيئ على الأمة الإسلامية ، وخاصة بعد القرون الأولى المفضلة .. وهذا من الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع ، علما بأن حال الأمة الإسلامية لا يكون ميؤوسا منها ، بحسب ما نرجو من الله العلي القدير ونتضرع إليه ، ما دام في المسلمين أناس مخلصون ، يعملون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولا يبتغون إلا رضوان الله فأولئك هم الصادقون في إيمانهم وعملهم ، وهم مناط رجاء هذه الأمة ومحط أملها في خطوات الخير في تصحيح معتقدات الناس الفاسدة ، وتحقيق وحدة المسلمين وجمع كلمتهم هذه ناحية .

ومن ناحية أخرى كان الهدف من هذا البحث هو الإسهام في التوضيح لحياة الأئمة الأربعة ، وزهدهم في هذه الدنيا ، الذي يعطي تصورا واضحا نحو التعامل مع الحياة ، والاستفادة من النعم التي سخرها الله ﷻ لعباده المؤمنين ، ثم المشاركة في الدفاع عنهم - رحمهم الله - في قضايا عقدية وسلوكية لم تعرف عنهم .

ومن المعلوم أن الأئمة الأربعة - رحمهم الله - قد اشتهروا بالتمسك بالكتاب والسنة والتحلي بالخلق الحسن ، إلا أن هناك أفكارا وأعمالا نسبت إليهم تقتضي البحث والتحقيق ، بل إن فئة من الكتاب من ينسب إليهم الفكر الصوفي المنحرف ، مع أن مواقفهم مخالفة لأفكار المتصوفين الذين حادوا عن المنهج الصحيح .

ولهذا ، لا بد من البحث في هذا الموضوع ليزول اللبس والخلط بين المفاهيم في أعمال القلوب والزهد في هذه الحياة من جهة ، وبين التصوف بنظرياته وأحواله ومقاماته من جهة ثانية ، ثم المقارنة - ما أمكن - في بعض المفاهيم عند الفقهاء الأربعة والمتصوفة .

لذلك استعنت بالله العليّ القدير على جمع مادة هذا البحث ، والدخول في خضم موضوعه ، ولا أقول إنني قد جمعت جميع أطرافه ، فإنه في رأيي أكبر وأوسع من ذلك ؛ لأنه موضوع كبير ومتصل بالأعلام الكبار ، ولكن بذلت قدر استطاعتي في جمع ما يسره الله تعالى لي جمعه من موضوعات التصوف ، ثم القيام بقراءتها ، وترتيب موادها ، وتوزيعها على فصول الرسالة التي هي بعنوان :

" التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء الأربعة منه "

وقد سرت في هذه الرسالة على النحو الآتي :

١- جمعت المادة العلمية من الكتب التي هي مظنة وجود تلك المواد في أهم موضوعات التصوف .

٢- أوردت بعض موضوعات التصوف على حدة لأحد الأئمة ابتداء بالإمام أبي حنيفة ، ثم الإمام مالك ، ثم الإمام الشافعي ، ثم الإمام أحمد بن حنبل - رحمهم الله - ثم أبطلت ونفيت كل ما نسب إلى أحدهم من الفكر الصوفي .

٣- أكثرت من نقل الأقوال وخاصة أقوال الصوفية لبيان الموضوع ، كما أكثرت من إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

٤- ترجمت لبعض الأعلام في الهامش ، وقد أعدت توضيح الشخصية لبعض أعلام التصوف في متن الرسالة .

٥- عزوت الآيات القرآنية الواردة في الرسالة بذكر رقمها ، واسم السورة في

الحاشية .

٦- خرجت الأحاديث والآثار الواردة في البحث .

٧- وضحت بعض المصطلحات والكلمات الغريبة .

٨- عملت الفهارس للآيات القرآنية ، وللأحاديث النبوية والآثار، والمصطلحات

والكلمات الغريبة وللأعلام المترجم لهم ، وللمصادر والمراجع ، وللموضوعات .

وقد جاءت الرسالة مشتملة على مقدمة وباين وخاتمة .

أما المقدمة : فقد بينت فيها أهم الدوافع التي دفعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع ،

والمنهج الذي سرت عليه .

وأما الباب الأول : فقد عقدته للتصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

وقسمته إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : مفهوم التصوف ، ونشأته ، ومصادره ، وآثاره ويحتوي على

خمسة مباحث

البحث الأول : تعريف التصوف

البحث الثاني : نشأة التصوف

البحث الثالث : عوامل نشأة التصوف

البحث الرابع : مصادر التصوف

البحث الخامس : آثار التصوف

الفصل الثاني : مراحل تطور التصوف حتى نهاية القرن الثالث الهجري

وتحتة أربعة مباحث :

البحث الأول : الزهد في المفهوم الشرعي وصلته بالتصوف

البحث الثاني : خاصية تصوف القرن الثالث الهجري

البحث الثالث : ظهور التدوين في التصوف في القرن الثالث الهجري

البحث الرابع : أهم رجال التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

الفصل الثالث : أهم قضايا التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

ويشتمل على ثمانية مباحث :

المبحث الأول : معرفة الله تعالى

المبحث الثاني : الحب الإلهي

المبحث الثالث : الولاية

المبحث الرابع : الكرامة

المبحث الخامس : الفناء ووحدة الشهود

المبحث السادس : الشريعة والحقيقة

المبحث السابع : السماع

المبحث الثامن : الأحوال والمقامات

وأما الباب الثاني : فقد خصصته لموقف الفقهاء الأربعة من التصوف

ورتبته على أربعة فصول :

الفصل الأول : الإمام أبو حنيفة والتصوف ، وتحتة أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام أبي حنيفة وحياته

المبحث الثاني : الإمام أبو حنيفة وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إلى الإمام أبي حنيفة في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

الفصل الثاني : الإمام مالك بن أنس والتصوف ، وتحتة أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام مالك وحياته

المبحث الثاني : الإمام مالك وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إلى الإمام مالك في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

الفصل الثالث : الإمام الشافعي والتصوف ، ويحتوي على أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام الشافعي وحياته

المبحث الثاني : الإمام الشافعي وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إلى الإمام الشافعي في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

الفصل الرابع : الإمام أحمد بن حنبل والتصوف ، ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام أحمد وحياته

المبحث الثاني : الإمام أحمد وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : موقفه من أعلام التصوف

المبحث الرابع : بطلان ما نسب إلى الإمام أحمد في التصوف

المبحث الخامس : موقف بعض تلامذته من التصوف .

وفي الخاتمة : ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث ، وبعد ذلك

ألحقت بالرسالة فهرس تفصيلية وتشمل : فهرس الآيات القرآنية ، وفهرس

الأحاديث النبوية ، وفهرس الآثار ، وفهرس المصطلحات والكلمات الغريبة ، وفهرس

الأعلام المترجم لهم في الحاشية ، وفهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات .

هذا هو جهدي المتواضع ، ذلك أنني مهما بذلت واجتهدت وتوصلت به إلى هذا

المستوى ، فإنني أعترف أنه لم يبلغ حد الكمال ولا قاربه لأنه موضوع كبير ، ثم إن كل

عمل بشري يعتره النقص ، - والكمال لله وحده - وكل ما أرجوه من الله ﷻ أن

أكون قد وفقت في عرض الموضوع ، وأتيت ببعض النماذج الموضحة للحالة الدينية التي

يعيشها بعض الجيل في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وأبطلت ما نسب إلى الفقهاء

الأربعة في موضوع من موضوعات التصوف .

وقبل أن أختم أرى من الواجب أن أقدم شكري وتقديري إلى حكومة المملكة

العربية السعودية ، وجميع القائمين على جامعة أم القرى وعلى رأسهم معالي مدير الجامعة

الأستاذ الدكتور ناصر بن عبد الله الصالح ، وسعادة عميد كلية الدعوة وأصول الدين ،

الأستاذ الدكتور عبد الله بن عمر الدميحي ، وسعادة رئيس قسم العقيدة الدكتور عبد

العزیز بن أحمد الحميدي ، وكافة الأساتذة والإداريين لما يبذلونه من نفس ونفيس لخدمة

أبناء المسلمين في أنحاء العالم ، ولما يقدمون لهم من علوم ونصائح وخدمات جليلة في خدمة

الإسلام والمسلمين ، فبارك الله لهم في مساعيهم ، وسدد خطاهم ، وجزاهم خير الجزاء .

كما لا أنسى أن أقدم شكري وتقديري لشيخ الفاضل / سعادة الأستاذ الدكتور

عبد العزيز بن عبد اللطيف المرشدي ، الذي قام بالإشراف على هذه الرسالة ، فقد كان

أستاذًا محبًا لي ، وصابرًا لمتابعة سيرتي في هذا البحث ، فلم يدخر وسعًا في تقديم توجيهاته

وإرشاداته القيمة لي ، وأسأل الله ﷻ أن يجزيه خير الجزاء ، وأن يجعل عمله في موازين
حسناته يوم القيامة .

وختاما : أسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يهدينا إلى سواء
السيبل ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الطالب / أبو الخير تراسون
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

الباب الأول

التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

وتحتة ثلاثة فصول

الفصل الأول : مفهوم التصوف، ونشأته، ومصادره، وأثاره

الفصل الثاني : مراحل تطور التصوف حتى نهاية القرن الثالث الهجري

الفصل الثالث : أهم قضايا التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

الفصل الأول

مفهوم التصوف، ونشأته، ومصادره، وآثاره

وتحتة خمسة مباحث

المبحث الأول : تعريف التصوف

المبحث الثاني : نشأة التصوف

المبحث الثالث : عوامل نشأة التصوف

المبحث الرابع : مصادر التصوف

المبحث الخامس : آثار التصوف

المبحث الأول

تعريف التصوف

قبل أن نتعرض لتعريف التصوف في اللغة والاصطلاح ، فلا بد أن نبحث أولاً عن أصل اشتقاق كلمته أو كلمة الصوفي .

لم تتفق كلمة الباحثين على الأصل الذي أخذت منه لفظة الصوفي من ناحية الاشتقاق ، وظلت أقوالهم متباينة في ذلك ، حيث من الصعوبة بمكان أن يحددوا مصدراً معيناً لهذه الكلمة - حتى وإن كانوا من الصوفية أنفسهم - ، إلا أنهم ذكروا لنا عدة آراء لتوضيح المصدر الذي قد تصاغ الكلمة منه .

فالرأي الأول : أن هذه الكلمة " التصوف " نسبة إلى الصفاء ^(١) ، لأن الصوفية - في رأيهم - قوم صفت نفوسهم من كدورات الدنيا وعلاقتها . هذا الرأي وإن كان مقبولاً من حيث المعنى إلا أن الكلاباذي ^(٢) والقشيري ^(٣) وشيخ الإسلام ابن تيمية رفضوا هذا الاشتقاق لعدم ملاءمته مع قواعد اللغة ، إذ لو صح لغوياً لحق أن يقال صفائية أو صفوية ^(٤) في النسبة إليه .

الرأي الثاني : أن تكون منسوبة إلى " صوفة " وهو اسم رجل قد انفرد بخدمة الله ﷺ عند بيته الحرام ، واسمه (الغوث بن مر) ، سمي بذلك لأن أمه نذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ، ولتجعلنه ريبط الكعبة ، ففعلت ، ف قيل له : " صوفة " ولولده من بعده ،

(١) انظر : الرسالة القشيرية ، لأبي القاسم عبد الكريم القشيري ، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد الطبعة الثانية ، دار الخير ، (بيروت ، عام ١٤١٦ هـ) ص ٢٧٩ .
والتعرف لمذهب أهل التصوف ، لأبي بكر محمد الكلاباذي (مكتبة الكليات الأزهرية) ص ٢٨ .
وفي التصوف الإسلامي وتاريخه ، لرينولد نيكولسون ترجمة أبي العلا عفيفي (طبعة القاهرة ١٣٨٨ هـ) ص ٦٦ .

(٢) هو محمد بن إبراهيم الكلاباذي البخاري ، أبو بكر ، شارك في بعض العلوم ، من آثاره : التعرف لمذهب أهل التصوف (ت ٣٨٠ هـ) ، انظر : الأعلام للزركلي ، ط ٩ بيروت (دار العلم للملايين) ٢٩٥/٥ .

(٣) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري الصوفي ، صاحب كتاب الرسالة ، ولطائف الإشارات في التصوف ، وهو من شيوخ التصوف في خراسان (ت ٤٦٥ هـ) ، انظر : سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ط ١١ ، بيروت (مؤسسة الرسالة ١٤١٩ هـ) ٢٢٧/١٨ ، والأعلام ٥٧/٤ ، وطبقات الشافعية للسبكي ، تحقيق محمود الطناحي وغيره ، (مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣ هـ) ٢٤٣/٣ .

(٤) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن النجدي ، ١٠ / ٣٦٩ .

فانتسب إليه قوم في الجاهلية فسموا صوفية ، وقد انقطعوا إلى الله ﷻ للعبادة في المسجد الحرام ، فمن تشبه بهم فهم الصوفية ^(١) .

وهذا الرأي وإن كان لا يعارض اللغة إلا أنه يفهم منه أن المتصوفة ينتسبون إلى أناس لم يعرفوا الإسلام ، وإن سلمت هذه النسبة فإن هؤلاء القوم قد حكموا على أنفسهم بأنهم منتمون إلى أقوام في الجاهلية ^(٢) ، وبالإضافة إلى ذلك أن الصوفية الذين خدموا الكعبة لم يكونوا معروفين ، وإلا كان لأحرى أن ينسب إليهم زهاد النبوة ، ولكن لم يثبت أنهم سموا بذلك ! .

الرأي الثالث : أن تكون منسوبة إلى أهل الصُّفة الذين كانوا يقعدون في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ ، ^(٣) حيث آوى إليها في أول الإسلام جماعة من المهاجرين الفقراء الذين لا ملاجئ لهم ، فأذن لهم النبي ﷺ بالإقامة فيها ريثما يجدون ما يكفيهم .

وقد رأى بعض المتصوفة - ومن نحاً نحوهم - أن التصوف منسوب إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، وهم يريدون بذلك إرجاع التصوف إلى عصور تاريخية متقدمة ؛ بل يستهدفون ربطه بعصر النبوة زاعمين في الوقت نفسه أن الرسول ﷺ قد أقرّ طريقتهم على منهج الفقر والعزلة والتواكل .

ومن أجل التدليل على هذا الرأي المذكور يقول السهروردي ^(٤) : إن أهل الصفة " قد اجتمعوا بمسجد المدينة كما يجتمع الصوفية قديماً وحديثاً في الزوايا والربط لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة ، وكان رسول الله ﷺ يحث الناس على مواساتهم ، ويجالسهم ويأكل معهم " ^(٥) .

(١) انظر : تلبيس إبليس ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق د. السيد الجميلي . الطبعة الثانية ، بيروت (دار الكتاب العربي ١٤١٥ هـ) ص ٢٠٠ .

(٢) انظر : الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تقديم د. محمد جميل غازي ، القاهرة (مطبعة المدني) ص ١٢ .

(٣) انظر : اللمع ، لأبي نصر السراج الطوسي ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور ، مصر (دار الكتب الحديثة ١٣٨٠ هـ) ، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٨ .

(٤) هو عمر بن محمد بن عبد الله أبو حفص شهاب الدين البكري السهروردي ، من كبار الصوفية وله كتب في التصوف مثل : عوارف المعارف (ت ٦٣٢ هـ) ، انظر : الأعلام ٢٢٣/٥ .

(٥) عوارف المعارف ، الطبعة الأولى ، بيروت (دار الكتاب العربي ١٩٦٦ م) ص ٦١ - ٦٢ .

وهذا القول قد يكون مخالفا للصواب لأن أهل الصفة لم يكونوا منقطعين عن الناس من أجل الزهد الصوفي ؛ بل كانوا مداومين لمجلس رسول الله ﷺ يتلقون منه العلم والفقه في الدين، ويكتسبون إذا ما وجدوا فرصة العمل الطيب ، كما يخرجون مع المجاهدين للجهاد في سبيل الله إذا دعا الأمر إلى ذلك . وقال ابن الجوزي^(١) عنهم : "وهؤلاء القوم إنما قعدوا في المسجد ضرورة ، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة ، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن ذلك الحال وخرجوا " ^(٢) .

ويكفي في إبطال هذا الرأي أيضا^(٣) أنه لا يساير أوضاع اللغة الصحيحة ، هذا ما أيده القشيري حيث لا يسلم بصحة هذه النسبة فيقول : " فالنسبة إلى الصُّفَّة لا تجيء على نحو الصوفي " ^(٤) كما أن ابن الجوزي رفض هذا الرأي فيقول : " إن نسبة الصوفي إلى أهل الصُّفَّة غلط لأنه لو كان كذلك لقليل صُفِّي " ^(٥) . ولكن مع ذلك لا يمكن إلغاء أثر سلوك أهل الصفة وزهدهم في سير الحياة عند الصوفية في القرنين الثاني و الثالث الهجريين ، بل ربما كانت حياتهم القائمة على الجهاد في سبيل الله والزهد نموذجا لمن أتى بعدهم .

الرأي الرابع : أن تكون منسوبة إلى الصف الأول لما لهم من سابقة وتقدم في العبادة، " لأنهم في الصف الأول بين يدي الله ﷻ بارتفاع همهم ، وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بين يديه " ^(٦) . وحاولوا إيجاد علاقة بين هذه التسمية والتي قبلها من جهة ، وبين حالهم من جهة أخرى فقالوا : " والصفاء يؤدي إلى الصف فمن صفت قلوبهم لله تعالى يكرمهم الله ﷻ ويصطفئهم ، فيصبحون في الصف الأول عنده يقدمهم على سواهم " ^(٧)

(١) الإمام العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي الحنبلي ، صاحب التصانيف الكثيرة

(ت ٥٩٧ هـ) انظر : سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٦٥ ، والأعلام ٣ / ٣١٦ - ٣١٧ .

(٢) تليس إبليس ، ص ٢٠١ .

(٣) انظر : كتاب " أبو حامد الغزالي والتصوف " لعبد الرحمن الدمشقي ، حيث أبطل هذه النسبة من عدة

وجوه ، الطبعة الأولى ، الرياض (دار طيبة ١٤١٦ هـ) ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ .

(٥) تليس إبليس ص ٢٠١ .

(٦) عوارف المعارف ص ٦١ .

(٧) التصوف منشؤه ومصطلحاته ، سعد السحمراني ، ط ١ بيروت (دار النفائس ١٤٠٧ هـ) ص ١٩ .

فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة ؛ ^(١) إذ لو كانت النسبة صحيحة لكان حقها أن يقال صَفِيَّة .

الرأي الخامس : أن تكون نسبة هذه الكلمة إلى صوفانة ، وهي بقلة زغباء قصيرة ، ونسبوا إليها لاكتفائهم بالقليل من الطعام ولو بنبات الصحراء ، وأيضا هذا لا يصح لغويا لأنه لو كان كذلك لقليل للواحد منهم صوفاني لا صوفي ^(٢) .

الرأي السادس : أن تكون مشتقة من كلمة سوفيا اليونانية ، ^(٣) وقد قال به أبوالريحان البيروني ^(٤) ، وكلمة سوفيا باليونان هي الحكمة في العربية ، وبها سمي الفيلسوف فيلسوفا أي محب الحكمة ، فيكون الصوفية عندهم قد لقبوا بذلك الاسم ، وقال بهذا القول أيضا جماعة من المستشرقين وغيرهم . إلا أن (نولدكه) ^(٥) استبعد هذه الصلة لأسباب لغوية يونانية حيث إن حرف السين اليوناني يمثل في العصور المتأخرة بحرف السين العربي في جميع ما عرب من كلمات يونانية لا بحرف الصاد ، فلو كانت مشتقة من أصل يوناني لكان بقاء الصاد في أولها خروجاً على القياس على أقل تقدير ^(٦) .

ثم إن العرب - كما يقول الدكتور زكي مبارك - : " كانوا مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ولو كان التصوف من سوفيا اليونانية لنصوا عليه في كثير من مؤلفاتهم ؛ فلم يبق إلا أن يكون ورودها في كلام البيروني ضرباً من الاغراب ، استهوى المفتونين في عصرنا بتراث الأجانب مما حملهم على رد كل كلمة عربية إلى أجنبي حين يرون لها مشابهة في لغة أجنبية " ^(٧) .

(١) انظر : الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ .

(٢) انظر : تلبس إبليس ص ٢٠١ .

(٣) انظر : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، للدكتور علي سامي النشار، الطبعة السابعة ، مصر (دار المعارف

١٩٧٨ م) ٣ / ٤٢ .

(٤) هو محمد بن أحمد أبوالريحان البيروني الخوارزمي ، فيلسوف رياضي مؤرخ (ت ٤٤٠ هـ) انظر : الأعلام

٣١٤ / ٥ .

(٥) نولدكه (ثيودور) ولد في هبورغ ، (ت ١٩٣٠ م) من مشاهير المستشرقين الألمان ، اشتغل خصوصاً في اللغات

السريانية والعربية والفارسية. انظر : الأعلام ٩٦ / ٢ .

(٦) مجلة المستشرقين الألمان ٤٨ / ٤٥ (١٨٩١) نقلاً عن دائرة معارف الدين والأخلاق ، مادة : الصوفية.

(٧) التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق ، للدكتور زكي مبارك ، بيروت (دار الجيل) ١ / ٦٦ .

الرأي السابع : أن تكون منسوبة إلى الصِّفة وتكون كلمة التصوف عند من سلك هذا الاتجاه تعني الاتصاف بالصفات الحميدة ، وترك الخصال المذمومة ^(١) ، وقريب من هذا المعنى فإن هناك من ينسبها إلى الصفة والمصافاة والاستصفاء ... وكل ذلك وغيرها من الاحتمالات الضعيفة فضلا عن عدم استقامتها على قواعد اللغة العربية.

الرأي الثامن : أن تكون نسبة هذه الكلمة إلى الصوف لأنه كان لباس الزهاد والنسك والعباد ، ولباس الرسل والأنبياء ^(٢) . ويقول الطوسي ^(٣) : - وهو من المؤرخين القدماء للتصوف ورجالاته - " الصوفية عندي نسبوا إلى ظاهر اللباس ، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، وشعار المساكين المنتسكين " ^(٤) ويؤكد ذلك بأن الصوفية يتخلقون بكل الأخلاق الفاضلة ، ويتسمون بكل الأحوال الشريفة ، وهم معدن جميع العلوم ، ومحل جميع الأحوال المحمودة .. فلا محل لتمييزهم بحال دون حال ، ولا بخلق دون خلق ، ولا بعلم دون علم ، فكانت هذه اللبسة اسما مجملا عاما مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال المحمودة . كما نسب الله طائفة من خواص أصحاب عيسى ^(عليه السلام) إلى ظاهر اللبسة فيقال لهم : الحواريون إذ كانوا قوما يلبسون البياض ، ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال " ^(٥) .

ورأى الكلاباذي " أن من جعل مأخذه من الصوف استقام له اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة ، وصوفي على وزن عوفي أن عافاه الله فعوفي " ^(٦) .

كما أن السهروردي اختار هذا الرأي فقال : " إنه يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق ، يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، فنسبوا إلى ظاهر اللبسة ، وكان ذلك أبين في الإشارة وأدعى إلى حصر وصفهم ، لأن لبس الصوف

(١) انظر : نشأة التصوف الإسلامي، د. إبراهيم بسيوني. مصر (دار المعارف ١٩٦٩ م) ص ٢٤ .

(٢) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ٣٠ ، والتصوف الإسلامي لركي ١/ ٤٢ .

(٣) أبو نصر ، السراج عبد الله بن علي الطوسي ، زاهد من شيوخ الصوفية (ت ٣٧٨ هـ) الأعلام ٤/ ١٠٤ .

(٤) اللمع للطوسي ص ١٤ .

(٥) المصدر نفسه ص ٤٠ - ٤١ .

(٦) التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ٣٤ .

كان غالبا على المتقدمين من سلفهم" ^(١) . فالتصوف مصدر الفعل الخماسي المصوغ من صوف للدلالة على لبس الصوف ، ومن ثم كان التجرد لحياة الصوفية يسمى صوفيا ^(٢) .

وهذا الرأي أكثر ما اطمأن إليه الباحثون لوجود نصوص كثيرة تشهد بذلك ، من ذلك أن إبراهيم بن أدهم ^(٣) كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيدا فأثار ثعلبا أو أرنباً وهو في طلبه، فهتف به هاتف يا إبراهيم أ لهذا خلقت؟ أم بهذا أمرت؟ ثم هتف به أيضا من قربوس ^(٤) سرجه والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، فترل عن دابته وصادف راعيا لأبيه، فأخذ جبة الراعي من صوف ولبسها ، وأعطاه فرسه وما معه ثم دخل البادية ^(٥) .

فالتصوف من لباس الرعاة ، وابن أدهم حين جاءه النداء ترك فرسه وما معه وتصوف. وهو ما تحدث عنه اليافعي ^(٦) : من أن لباس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلف الصوفية لكونه أقرب إلى التواضع والزهد ^(٧) . كما ذكر ذلك ابن قتيبة ^(٨) وابن سعد ^(٩) " أن الصوف كان لباس الفقراء والتائبين والمذنبين " ^(١٠) .

وقال ابن الجوزي : " كان الزهد في بواطن القلوب فصار في ظواهر الثياب ، كان الزهد حُرقة فصار اليوم خِرقة ، ويحك صوّف قلبك لا جسمك ، واصلح نيتك لا مرقعتك " ^(١١) . و الصوف في هذا الكلام علامة الزهد . وسئل أبو علي الروذباري ^(١٢) فقيل له :

(١) عوارف المعارف، ص ١٦ .

(٢) الإسلام والتصوف ، مصطفى عبد الرزاق وماسينيون. القاهرة (دارالشعب ١٣٩٩ هـ) ص ١٤ .

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم ، كان من الزهاد من أهل بلخ بخراسان (ت ١٦١ هـ) انظر: طبقة الصوفية

ص ٢٧ ، والرسالة القشيرية ص ٣٩١ ، وحلية الأولياء ٧/ ٤٢٦ ، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧ .

(٤) قربوس : حنو السرج ، أي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره ، جمع قرايس .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٣٩٢ .

(٦) هو عبد الله أسعد بن علي اليافعي ، مؤرخ باحث متصوف (ت ٧٦٨ هـ) ، الأعلام ٤/ ٧٢ .

(٧) التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق ص ٤٢ .

(٨) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت ٢٧٦ هـ) انظر : سير أعلام ١٣/ ٢٩٦ ، والأعلام ٣/ ١٣١

(٩) هو محمد بن سعد بن منيع ، أبو عبد الله البغدادي (ت ٢٣٠ هـ) انظر : سير أعلام ١٠/ ٦٦٤ .

(١٠) عيون الأخبار، لابن قتيبة ، القاهرة ، (دار الكتب ١٣٤٣ هـ) ص ١٣٦ ، وطبقات ابن سعد ، بيروت

، دار صادر ٣٤٨/ ٨ ، وعوارف المعارف، ص ٦٠ - ٦١ .

(١١) المدهش، لابن الجوزي، بيروت (المؤسسة العالمية ١٩٧٣ م) ص ٤٣٥ .

(١٢) هو أحمد بن محمد الروذباري، صاحب الجنيد وابن الجلاء (ت ٣٢٢ هـ) انظر: طبقات الصوفية ص ٣٥٤ .

"من الصوفي ؟ فقال : من لبس الصوف على الصفا . فلبس الصوف عنده علامة الزهد - أيضا - ولكنه لا يغني عن الصفاء " ^(١) .

وحكي أن أبا سليمان الداراني ^(٢) (ت ٢١٥ هـ) - وهو من الصوفية المتقدمين في القرنين الثاني والثالث الهجريين - " قال لرجل لبس الصوف إنك قد أظهرت آلة الزاهدين فماذا أورثك هذا الصوف ؟ فسكت الرجل ، فقال له : يكون ظاهره قطنيا وباطنه صوفيا " ^(٣) ، وقد انتقد لبس الصوف المبالغ فيه قائلا : " إذا رأيت الصوفي يتنوّق في لبس الصوف فليس بصوفي ، وخيار هذه الأمة أصحاب القطن أبو بكر الصديق وأصحابه " ^(٤) .

ودخل معروف الكرخي ^(٥) (ت ٢٠٠ هـ) على أبي الحسن بن بشار وعليه جبة صوف فقال له أبو الحسن : " يا أبا محمد صوفت قلبك أو جسمك صوف قلبك واللبس القوهي " ^(٦) على القوهي . وعن النضر بن شميل ^(٧) يقول : قلت لبعض الصوفية : تبيع جبتك الصوفي ؟ فقال : إذا باع الصياد شبكته بأي شيء يصطاد ؟ " ^(٨) .

فلبس الصوف - إذن - كناية عن الشطف والحرمان والفقر، وعلامة الزهد الانقطاع إلى الله ﷻ ، والتبتل في العبادة ، فنسبة الصوفية إلى الصوف هو الأصح ، لأن النسبة صحيحة من حيث اللغة والمعنى إذا اعتبرنا لباس الصوف تعبيرا رمزيا عن اتجاه المتصوفين في الزهد واختيار الحياة الخشنة وعدم الركون إلى الدنيا ونعيمها . وقد مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن خلدون ^(٩) ورجحاه.

(١) تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي ، بيروت (دار الكتاب العربي) ٣٣١/١ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عطية الداراني ، من أهل داران إحدى قرى دمشق ، (ت ٢١٥ هـ) ، انظر : طبقات الصوفية ص ٧٥ ، والرسالة القشيرية ص ٤١١ - ٤١٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٨٢/١٠

(٣) تلبس إبليس ص ٢٤٤ .

(٤) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ط ٢ ، بيروت (مكتبة المعارف ١٩٧٧ م) ٢٩٢/١٠ .

(٥) هو أبو محفوظ ، معروف بن فيروز الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) انظر : طبقات الصوفية ص ٨٣ .

(٦) القوهي : ضرب من الثياب بيض . المعجم الوسيط ٢ / ٧٦٨ .

(٧) العلامة الإمام الحافظ ، ثقة صاحب سنة (ت ٢٠٣ هـ) ، سير أعلام ٩ / ٣٢٨ ، والجرح والتعديل ٨ / ٤٧٧ .

(٨) تلبس إبليس ص ٢٤٤ .

(٩) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاثة (ت ٨٠٨ هـ) .

فقال الأول : "وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم : القراء فيدخل فيهم العلماء والنساک، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية الفقراء ، واسم الصوفية هو نسبة إلى الصوف هذا هو الصحيح" ^(١) . أما الثاني فقد دافع عن هذه النسبة من طريقين : أولهما أنه لو استعرضنا طوائف الناس كالصناع والزراع والعمال لا نجد أن طائفة منهم يغلب على أفرادها لبس الصوف كما غلب على طائفة الصوفية ، وثانيهما أن هذه الطائفة كانت تلبس الصوف زهدا وتورعا عن لباس فاخر الثياب ، أما سائر الناس من غيرهم فيلبسونه لا لهذا الغرض الذي ينشده الصوفي ، حينئذ يكون تميزهم بلبس الصوف أمرا واضحا ^(٢) . غير أن هذه الميزة قد تغيرت في هذا الزمان وأصبح من يرتديه ظاهر المظهر والملبس لا ظاهر الذل والتقشف والتواضع .

وأكد هذا الرأي كثير من العلماء المعاصرين ^(٣) وغيرهم من المستشرقين ^(٤) المتخصصين في دراسة التصوف أن هذا هو الاشتقاق الوحيد الذي تبرره اللغة ويتفق مع الواقع. يقول ماسينيون ^(٥) : " وينبغي رفض ما عدا ذلك من الأقوال التي قال بها القدماء والمحدثون في أصل الكلمة حيث كان من الثابت أن الصوفية أخذوا من اللباس كشعار للزهد والخشوع عن رهبان النصارى ونساکهم " ^(٦) . ودل على ذلك قول الجاحظ ^(٧) : " أن النصراني يلبس الصوف حين يتنسك " ^(٨) . وقول حماد بن أبي سليمان ^(٩) لما قدم

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١١ / ١٩٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، طبعة القاهرة ، (دار المصنف) ص ٣٣٤ .

(٣) أمثال: مصطفى عبد الرزاق، ود. محمد مصطفى حلمي، ود. عبد الحليم محمود، وزكي مبارك وغيرهم...

(٤) أمثال : نولدكه ، ومارغليوث ، ونيكولسون ، وما سينيون ... وغيرهم .

(٥) ماسينيون (لويس) (ت ١٩٦٢ م) مستشرق فرنسي ، وعضو في المجامع العلمية في بلدان عديدة ، اهتم بنشر

مؤلفات الحلاج ، وترك آثارا في الصوفية... انظر: الأعلام ٥ / ٢٤٧ .

(٦) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٦٦ .

(٧) هو أبو عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ، اطلع على جميع العلوم المعروفة في عصره ، وهو من شيوخ

المعتزلة (ت ٢٥٥ هـ)، انظر : الأعلام ٥ / ٧٤ .

(٨) كتاب الحيوان للجاحظ ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١ / ١٠٣ .

(٩) فقيه العراق، العلامة الإمام، روى عنه تلميذه أبو حنيفة (ت ١٢٠ هـ) ، انظر: سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٣١ .

بصرة^(١) جاءه فرقد السبخي^(٢) وعليه ثياب صوف فقال له حماد : "ضع عنك نصرانيتك هذه " ^(٣). ويراد بذلك التنسك ، فيفهم من ذلك - إذن - أن من أسباب التسمية بالتصوف هو تقليد النصاري من رهبانهم ونساكهم .

ويرى أبو نصر الطوسي " أن أهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة " ^(٤) ولكن نيكولسون^(٥) يقول : " مهما يكن من الغموض الذي يحيط بأصل كلمة التصوف فإن الظاهر قد شاع استعمالها في آخر القرن الثاني الهجري " ^(٦) بدليل أن إبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي وأبو سليمان الداراني والنضر بن شميل قد استخدموا الكلمة .

ويوضح الدكتور عبد الحليم محمود بأن هذه الكلمة " التصوف " لم توضع في الأصل للتصوف بمعناه العادي الذي نفهمه الآن ، وإنما وضعت في المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا ، إنها كانت علامة الزاهدين والمتنسكين " ^(٧) .

وأما الدكتور مصطفى حلمي فيقول : " ومهما كان الرأي في أصل الكلمة وتاريخ ظهورها ومدلولاتها فإننا لا نعرف لها أثرا في الكتاب أو السنة ، ويثبت لمن يطالع كتب التاريخ أنها ما جاءت في كلام الصحابة والتابعين ، وما عرفت في خير من القرون ، ومن ثم فهي تعرض البدع المستحدثة " ^(٨) .

وخلاصة الكلام أن كلمة التصوف محدثة لم تكن معروفة ، ولا موجودة في عهد رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ، وإن كان بعض الأعلام في القرنين الثاني والثالث الهجريين قد تحدثوا عن لبس الصوف ، ثم لابد من الإشارة إلى أن لبس الصوف ليس فيه فضيلة ولا شرف ؛ إذ لو كان في لبسه فضيلة أو سمو مكانة عند الله ﷻ لفضله رسول الله ﷺ على

(١) بصرة : مدينة عراقية تقع جنوب العراق بالقرب من التقاء نهري دجلة والفرات على بعد ١٣٠ كم من الخليج العربي . انظر : الموسوعة العربية العالمية ٤/ ٤٣٦ .

(٢) هو أبو يعقوب ، فرقد السبخي ، وصفه أبو نعيم بأنه المعرض عن الفاني الوبي، المقبل على الآتي البهي (ت ١٣١ هـ) ، انظر : حلية الأولياء ٣/ ٥٢ . وطبقات ابن سعد ٧/ ٢٤٣ ، والجرح والتعديل ٧/ ٤٦٤ .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي ٣/ ١٤٦ .

(٤) اللمع للطوسي ص ٤٢ .

(٥) نيكولسون (رينولد ألين) مستشرق انكليزي ، له دراسة نقدية في التصوف (ت ١٩٤٥ م) الأعلام ٣/ ٣٩ .

(٦) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٦٨ .

(٧) أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي، د. عبد الحليم محمود، ط ٢ القاهرة (١٣٩٤ هـ) ص ١٧٥

(٨) التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث، د. مصطفى حلمي ، الإسكندرية (دار الدعوة) ص ١١ .

غيره من اللباس ، والذي ثبت عنده أنه كان يفضل لباس الحبرة المصنوعة من القطن ، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه "كان أحب الثياب إلى النبي ﷺ أن يلبسها الحبرة" متفق عليه ^(١) . بل ورد عنه ﷺ ما يدل على كراهيته لبس الصوف نظرا لحبث رائحته كما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : "جعلت للنبي ﷺ بردة سوداء ، فلبسها فلما عرق وجد ريح الصوف فقذفها ، وكان تعجبه الريح الطيبة" ^(٢) .

وكان من الأفضل في هذا المقام استعمال الكلمات التي عبر بها الأوائل واستمدوها من مصادرهما ومنابعهما ، كألفاظ التزكية ، والإحسان ، والإقتداء بالسلوك التي كانت تلازم رسول الله ﷺ في حياته كلها ، والتي يمكن التعبير عنها بأعمال القلوب ، أو إخلاص السنوايا ، ذلك أن التزكية والإحسان وإخلاص النية والخشوع والتواضع وتقوى الله ﷻ ومراقبته ومحبته ﷺ .. حقائق شرعية علمية دينية ثابتة في الكتاب والسنة .

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ، في اللباس ، باب (١٨) ٤٥٢/١١ (ح ٥٨١٣) . ومسلم في اللباس ، باب فضل لباس الحبرة ١٦٤٨/٣ (ح ٢٠٧٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس ، باب في السواد ٣٣٩/٤ (ح ٤٠٧٤) ، وأحمد في المسند ٦/١٣٢ ، ١٤٤ ، ٢١٩ ، ٢٤٩ ، وأورده الألباني في " سلسلة الأحاديث الصحيحة " (رقم ٢١٣٦) .

تعريفه في اللغة والاصطلاح

أولاً : تعريفه في اللغة :

قال الجوهري : " الصوف للشاة ، والصوفة أخص منه ، وصوفة أي حي من مضر وهو الغوث بن مر بن أدين بن طابخة بن الياس بن مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ، ويجيزون الحجاج أي يغيضون بهم . ومنه قول الشاعر: حتى يقال أجزوا آل صوفانا . وكبش صاف أي كثير الصوف . وصاف السهم عن الهدف يصوف ويصيف عدل عنه . ومنه قولهم : صاف عني شر فلان وأصاف الله عني شره " (١).

نفهم من خلال هذه التعريفات اللغوية المتقدمة أن كلمة صوف تأتي بمعنى الصوف المعروف للشاة ونحوها ، أو بمعنى الميل إلى شيء والعدل عنه .

ورأى ابن فارس أن الباب كله يرجع إلى الصوف المعروف ، وفي ذلك يقول : " الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح وهو الصوف المعروف ، يقال : كبش أصوف وصوف صائف وصاف كل هذا يكون في كثير الصوف ، ويقولون : أخذ بصوفة قفاه إذا أخذ بالشعر السائل في نقرته (٢) " (٣) .

وذهب أحمد المقري إلى أن كلمة صوفية كلمة مولدة لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في اللغة (٤) . وإلى هذا مال القشيري من الصوفية ، وقال في رسالته : " والأظهر أنها كاللقب ، (٥) وكذلك ابن خلدون حيث قال في مقدمته : إنه إن قيل بالاشتقاق فإنها مشتقة من الصوف لأنهم في الغالب مختصون بلبسه (٦) .

وأما محمد الصادق عرجون فرأى أنه لقب منقول تعريفاً من لغة غير عربية ، فهو حادث مع حدوث الألفاظ الدخيلة التي وفدت على العربية مع الأفكار والمعاني والمذاهب

(١) الصحاح ، لإسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت (دار العلم والملايين ١٣٩٩ هـ) ١٣٨٨/٤ - ١٣٨٩ .

(٢) نقرة : جمع نُقَرَّ ونقار ، وهي ثقب القفا في الرأس .

(٣) معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسن أحمد بن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ثانية (١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م) ٣٢٢/٣ .

(٤) المصباح المنير ، لأحمد المقري ، ط أولى بيروت (دار الكتب العلمية ١٤١٤ هـ) ٣٥٢/١ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ .

(٦) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٦٧ .

والآراء في القرن الثاني من الهجرة ، ولم يعرف معرفة لقبية لطائفة من الناس بعينها قبل ذلك في تاريخ الإسلام ، وقد يكون عرض له شيء من التصرف اللساني لصقله تخفيفا كما عرض لكثير من الألفاظ الوافدة ^(١).

ثانيا : تعريفه في الاصطلاح :

إذا كان الكتاب لم يتفقوا على أصل كلمة التصوف واشتقاقه فإنهم كذلك مختلفون في التعريف به وتعيين مفهومه ، حيث أوردوا له تعاريف كثيرة ومتباينة ، وهي لا تعطي معنى دقيقا له ، والذي يليق به تسميته بصفة التصوف أو ماهيته ^(٢)؛ إذ من العسير أن نعتمد على ما جاءت إلينا من تعاريف لا تفي بالمعنى المطلوب ، لخروجها عما ألفناه في التعاريف الجامعة المانعة .

وقد أدرك هذه الحقيقة المتصوفة أنفسهم حتى قال الدكتور عبد الحليم محمود في هذا الصدد : " لم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعد " ^(٣) . بل ذكر السراج الطوسي عن بعض أئمة التصوف أنه لما سئل عن حده فأجاب بأكثر من مائة جواب ، وجمع في كتابه نحو من ثلاثين تعريفا ^(٤)، وجمع قريبا من ذلك الكلاباذي ^(٥) ، بينما جمع القشيري نحو من ستين تعريفا ^(٦) ، أما السهروردي فقد بالغ في ذلك فيقول : " وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول ؛ بل ذكروا أن الأقوال الماثورة في حد التصوف زهاء الألفين " ^(٧) . وفيما يلي نماذج من التعريفات ، فنأخذ أولا من تعاريف التصوف لدى الصوفية أنفسهم منها :

١ - ما قاله معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) : " التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق " ^(٨) ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف " ^(٩).

(١) التصوف في الإسلام منابعه وأطواره ، محمد الصادق عرجون ، (مكتبة الكليات الأزهرية) ص ٦٣ .

(٢) كما عبر بذلك ابن الجوزي في كتابه تلبس إبليس ص ٢٠٢ .

(٣) أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي ص ١٥٣ .

(٤) انظر: اللمع للطوسي ص ٤٥-٤٨ .

(٥) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٣٤-٣٥ .

(٦) انظر: الرسالة القشيرية ٢٧٩-٢٨٣ .

(٧) انظر: عوارف المعارف ص ٥٣-٥٨ .

(٨) الرسالة القشيرية ص ٢٨٠ .

(٩) عوارف المعارف ص ٥٣ .

- ٢ - قول أبي سليمان الداراني (ت ٢١٥ هـ) : " التصوف أن تجري على الصوفي أعمال لا يعلمها إلا الحق ، وأن يكون دائما مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو " ^(١) .
- ٣ - وقول بشر الحافي ^(٢) (٢٢٧ هـ) : " الصوفي من صفا قلبه لله " ^(٣) .
- ٤ - وما عرفه به ذو النون المصري ^(٤) (٢٤٥ هـ) : " الصوفي هو من إذا نطق كان كلامه عين حاله ، فهو لا ينطق بشيء إلا إذا كان هو ذلك الشيء ، وإذا أمسك عن الكلام عبرت معاملته عن حاله ، وكانت ناطقة بقطع علائقه (الدنيوية) عن حاله " ^(٥) .
- ٥ - وقول سهل التستري ^(٦) (ت ٢٨٣ هـ) : " الصوفي من صفا من الكدر، وامتلاء من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر " ^(٧) .
- ٦ - وقول الجنيد ^(٨) (ت ٢٩٧ هـ) : " التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة " ^(٩) وقوله : " التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، و مجانبة الدواعي النفسانية ، ومنازلة الصفات الربانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واتباع الرسول في الشريعة " ^(١٠) .

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٢٨ .

(٢) هو بشر بن الحارث الحافي بن عبد الرحمن المشهور بالحافي ، الإمام الزاهد ، كان ذا شأن في المجاهدة، قال عنه إبراهيم الحربي: ما أخرجت بغداد أتم عقلا منه ولا أحفظ للسانه ، انظر: الرسالة القشيرية ص ٤٠٤ ، وطبقات الصوفية ص ٣٩ ، وسير أعلام ٤٦٩/١٠ .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٨ .

(٤) أبو الفيض ذوالنون المصري، شيخ الديار المصرية ، كان لا يتقن الحديث ، وكان واعظا فصيحاً.. وقد رمي بالزندقة، واعتبر أول من تكلم في معرفة الأحوال والمقامات.. انظر: طبقات الصوفية ص ١٥ ، وطبقات الشعراي ٥٩/١ ، والرسالة القشيرية ص ٤٣٣ ، وسير أعلام ٥٣٢/١١ .

(٥) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٢٨-٢٩ .

(٦) سهل بن عبد الله التستري، شيخ العارفين الصوفي الزاهد، انظر: طبقات الصوفية ص ٢٠٦ .

(٧) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٣٤ .

(٨) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد، سمع الحديث ، ودرس الفقه ، وصحب السري السقطي حتى صار شيخ زمانه وسيد الطائفة في التصوف، ومذهبه في التصوف مبني على الكتاب والسنة، حيث نقل الذهبي عنه قوله : " علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به انظر: الرسالة القشيرية ص ٤٢٠ ، وطبقات الشعراي ٧٢/١ ، وطبقات الصوفية ص ١٥٥ ، وسير أعلام ٦٦/١٤ .

(٩) اللمع للطوسي ص ٤٥ ، والرسالة القشيرية ص ٢٨٠ ، وعوارف المعارف ص ٥٤ .

(١٠) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٣٤ .

- ٧ - وتعريف أبي الحسين النوري^(١) (ت ٢٩٥ هـ) : " التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها " وأن " التصوف ترك كل حظ للنفس " ^(٢) .
- ٨ - أما سمنون المحب^(٣) (ت ٢٩٧ هـ) فقد عرف بأن " التصوف هو أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء " ^(٤) .

هذه نماذج من تعريفات الصوفية المتقدمين في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وهي في الحقيقة لا تعطي معنى دقيقاً للتصوف ، ومع ذلك يمكننا أن نلاحظ - من خلال التعريفات السابقة - الرغبة القوية من قبل الصوفية في التوجه إلى الله ﷻ ، وإن كان التطبيق والممارسات إثر ذلك شيئاً آخر يخالف تلك المقاصد السامية.

كما لو أمعنا النظر في التعاريف فإننا نرى في ثناياها الألفاظ الغامضة المبهمة ، التي تحتاج إلى بيان وتوضيح ، فمثلاً معروف الكرخي قد عرف التصوف بأن معناه هو الأخذ بالحقائق ، فكلمة الحقائق تحتمل عدة احتمالات ، ولا ندري ماذا يقصد بها ، ولعله يعني بذلك العلم الصوفي الذي يقولون عنه علم الحقيقة ، وكذلك اليأس مما في أيدي الخلائق فيه إيهام وغموض، فنحتاج إلى بيان المراد؛ إذ من المحتمل أن يكون عدم الفرح بموجود في هذه الدنيا ، وترك جميع ما في أيدي الناس.. وهذا قريب مما يقصده سمنون حين عرف التصوف بأنه التجرد عن كل الأملاك ، والتحرر من أي أحد أن يملكك .

ولاشك أن هذا مخالف لتعاليم الإسلام الخفيف ؛ لأنه لم يأمرنا بالتجرد من أملاكنا كلية، بل حث علينا أن نعطي كل شيء حقه دون إفراط أو تفريط ، أو غلو أو تنطع ، أو إهمال جانب على حساب جانب آخر . كما أن الإسلام لم يأمرنا بتعذيب الجسد ، ولا بلباس معين ؛ بل أباح لنا أن نأكل من الطيبات وحرم علينا الخبائث فقال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٥) وقال

(١) أبو الحسين أحمد بن محمد النوري ، كان من أقران الجنيد، كبير الشأن حسن المعاملة واللسان . انظر : طبقات الصوفية ص ١٦٤ ، والرسالة القشيرية ص ٤٣٨ ، وطبقات الأولياء ص ٧٢ ، وسير أعلام ٧٠/١٤ .

(٢) طبقات الصوفية ص ١٦٦ .

(٣) سمنون بن حمزة المحب ، سكن بغداد ، ومات قبل الجنيد ، وكان أكثر كلامه في المحبة . الرسالة القشيرية ص ٤٠٧ ، وطبقات الصوفية ص ١٩٥ ، وحلية الأولياء ٣٢٩/١٠ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٨٠ .

(٥) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١) وقال ﷺ أيضا: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ..﴾ (٢) وقد أخبرنا الرسول ﷺ بأن خير الطعام هو الطعام الذي يأكله الإنسان من عمل يده فقال: "ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده" (٣).

وأما الجنيد فقد عرف التصوف بأن يكون الإنسان مع الله بلا علاقة ، إن كان يريد بذلك أن يقطع الإنسان جميع علاقاته عن بني جنسه ، فهذه دعوة باطلة ؛ لأننا لسنا مأمورين بالهرب عن البشر والاختفاء عنهم في الأربطة والزوايا كما يفعل بعض المتصوفة المتأخرين ، وأما تعريفه بأن التصوف تصفية القلب عن موافقة الخليفة والابتعاد عن الأخلاق الطبيعية التي فطر الإنسان عليها والسعي إلى التخلص من الصفات البشرية وعدم إعطاء النفس حقها مما تطلبه وأن يكون متعلقا بعلوم الحقيقة ومتبعا الرسول في الشريعة فهو شبيه بتعريف بشر الحافي ، أو بتعريف الداراني وذي النون المصري وسهل بن عبد الله التستري . وهذه كلها مبالغة في الأمر المشروع ؛ بل تكليف للإنسان فوق وسعه وطبيعته البشرية ، وبلا شك أن نوعا من هذه التزكية والمجاهدة حتى وإن عبرت عن الرغبة الأكيدة في الإقبال على الله ﷻ ، والزهد في الدنيا وترك دواعي الشهوة ، والميل إلى التواضع فإنها منافية لما جاء به الرسول ﷺ من عند العليم الخبير ، لأن الإنسان سيظل بشرا مهما عبد الله تبارك وتعالى ، وتقرب إليه بألوان من الطاعات والعبادات لله ﷻ .

"وأما ما عرفه به أبو الحسين النوري فهو تعريف قاصر مخل بالمعنى المطلوب فإن عبارته : ترك نصيب النفس جملة عامة في كل ما يصلح أن يكون نصيبا للنفس من خير أو شر في الدنيا والآخرة ، ولم يحدد الشيء الذي يتركه الصوفي والذي لا يتركه ، أما إذا قصد ترك كل الحظوظ على إطلاقها فهذا لا يعتبر مبدأ إسلاميا ؛ إذ ليس من الإسلام أن يترفع

(١) سورة الأعراف ، الآية (٣١) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٥٧) .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، ٥/ ٢٢ (ح ٢٠٧٢)

المرء عن طلب رضا الله ﷻ ومحبته ونحو ذلك ، وهذه من حظوظ النفس إذ فيها غاية السعادة لها " (١) .

أضف إلى ذلك أن الرسول ﷺ بعث بالحنيفية السمحة ، ولهذا لما جاءه الناس واستأذنوا بالتفرغ الكامل والزهد والاعتكاف والجهاد في سبيل الله كل أيامهم فنهاهم الرسول ﷺ عن ذلك التوجه ، أو هذا التشدد والانطواء حين كان رسول الله ﷺ يقول لهم : "ولكني بعثت بالحنيفية السمحة" (٢) ، وحين يقول أيضا : "إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه" (٣) وحين يقول لسعد ﷺ : "إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكفون الناس" (٤) وهكذا تبين لنا أن أي باحث لا يستطيع أن يظفر بتعريف جامع مانع للتصوف " ذلك لأن التصوف لم يكن له في يوم من الأيام طريقة منظمة محددة أو معينة من الناحية النظرية أو العملية؛ بل كان له في كل عصر مفهوم خاص " (٥) .

ف نجد العلماء والباحثين اختلفت مواقفهم ، فالبعض يعرف التصوف ببداية الطريق ، والآخر يعرفه بالغاية والهدف أو ما يصطلحون على تسميته بنهاية الطريق ، ورأينا البعض يتحدث بلسان الحال الذي ينفع به ، أو المقام الذي يستقر فيه في وقته .

فلو أخذنا مثلا بعض أقوال الصوفية أنفسهم فإننا سنعثر على عدة عبارات بعضها صريح المعنى ، والبعض الآخر مبهم غامض كقول الجريري : (٦) " التصوف هو الدخول في كل خلق سني ، والخروج من خلق دني " (٧) وهو يعبر بأحوال البداية . وعبر الجنيد بأحوال النهاية بقوله : "هو أن يميّتك الحق عنك ويحييك به " (٨) . وأشار أبو حمزة

(١) موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ، للدكتور أحمد محمد البناي ، ط أولى جدة (دار العلم للطباعة ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م) ص ٧٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٦٦/٥ من حديث أبي أمامة ، وحسنه السخاوي في المقاصد ٢١٤ .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الصيام ، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ٧٢٦/٤ (ح ١٩٦٨) .

(٤) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الوصايا ، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يكفوا الناس ٦/١٢ (ح ٢٧٤٢) ، ومسلم في الوصية ، باب الوصية بالثلث ١٢٥٠/٣ (ح ١٦٢٨) .

(٥) تاريخ التصوف في الإسلام ، د. قاسم غني ، مكتبة النهضة المصرية (١٩٧٠م) ص ٢٦٩ .

(٦) أبو محمد الجريري ، كان من كبار أصحاب الجنيد (ت ٣١١هـ) ، طبقات الصوفية ص ٢٥٩ .

(٧) الرسالة القشيرية ص ٢٨٠ ، وعوارف المعارف ص ٥٥ .

(٨) عوارف المعارف ص ٥٦ .

البغدادي^(١) إلى أن علامة التصوف الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، ويدل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الصوفي الكاذب العكس^(٢) .

وأما تعريفه بأصوله ومبانيه فلعل قول رويم^(٣) معبر عن ذلك حينما بين التصوف بأنه " مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار " ^(٤) .

ومن العبارات السابقة تتضح أن كل واحد من الصوفية يعبر عما وجد في نفسه من معان ودلالات ، كما أن تعريفاتهم يكتنفها الغموض ، ولا تخلو من ملحوظات لا يفهمها إلا المتمرس بأساليبهم ومناهجهم؛ ولكن لا بد من التنويه بأن هذه التعاريف المتنوعة لا يطلقها المتصوفة جزافا من دون قصد منهم أو هدف ، أولا علاقة بمعتقداتهم أو تأييد مذهبهم وسلوكهم .

لذا ، لا بد من التنبيه والتوضيح إذا تحدثنا عن هذه الكلمة " التصوف " أن هناك من المستدعين من يتستر وراءها قاصدين لذلك نشر معتقداتهم، وتوطيد طرائقهم، وبليلة أفكار الناس ، ولا يعني بذلك رفض الجانب الأخلاقي فيه الموافق للكتاب والسنة ، حيث إن البعض يتجه في تعريفه إلى هذا الجانب كما حدد أبو الحسين النوري بأنه "خلق" وقال : "ليس التصوف رسما ولا علما ولكنه خلق" ^(٥) ثم علل ذلك بقوله : لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعليم ...

هذا الاتجاه الأخلاقي شائع في الزمن القديم والحديث ، ومع ذلك فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيرا دقيقا ، هذا ما أشار إليه الدكتور عبد الحليم محمود فقال : "والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو، وفي الجانب الأخلاقي الكريم، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشعاراً ، فإننا نجد أنهم أشخاصا

(١) أبو حمزة البغدادي البزاز، كان من أقران الجنيد، فقيها عالما بالقراءات ، (ت ٢٨٩هـ) انظر : طبقات الصوفية ص ٢٩٥ ، والرسالة القشيرية ص ٣٩٥ وتاريخ بغداد ١/ ٣٩٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٨٠ .

(٣) أبو محمد رويم بن أحمد ، من جلة المشايخ ، مقرئ فقيه كبير الشأن (ت ٣٠٣هـ) طبقات الأولياء ص ١٨١ ، والرسالة القشيرية ص ٢٩٠ ، وطبقات الصوفية ص ١٨٠ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٨٠ .

(٥) طبقات الصوفية ص ١٦٧ .

مثالين في المحيط الأخلاقي وفي المجتمع، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا محالة من الصوفية " (١)
وأضاف قائلاً : " وهذا الحسن البصري (٢) (ت ١١٠ هـ) من أروع وأجمل الشخصيات
الأخلاقية العالية ، ولقد كان مثلاً صادقاً للشعور الأخلاقي في طهره وصفائه ، وكان ينشر
الفضيلة بوعظه المؤثر ومنطقه القوي وسلوكه المثالي ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصري
صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة صوفي " (٣) .

تعريف التصوف عند علماء الإسلام

١ - يقول ابن الجوزي : عبر الصوفية عن صفة التصوف بعبارات كثيرة ،
وحاصلها : أن التصوف عندهم رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع ، برده عن الأخلاق الرذيلة
وحمله على الأخلاق الجميلة (٤) .

٢ - ويعرف شيخ الإسلام ابن تيمية التصوف بأنه " نوع من الصديقية فهو أي
الصوفي الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه ، فكان الصديق
من أهل هذه الطريق ، كما يقال صديقو العلماء وصديقو الأمراء فهو أخص من الصديق
المطلق ، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم " (٥)

ويوضح الدكتور أحمد البناي هذا التعريف فقال : بأن " (الصديقية) وهي الدرجة
العالية التي تجيء بعد (النبوة) في الترتيب ، هذه الدرجة يطلبها الصوفية كما يطلبها بقية
أفراد المجتمع المسلم من علماء أو صناع وأمراء ونحوهم ، كل بما اختص به من طريق يطلب
به مرضاة الله ، ولا يصح أن يقتصر الوصول إلى درجة الصديقية على سلوك طريق التصوف
وحده ، وهذا يعني أن للتصوف معنى محددًا في ذهن الشيخ وإن كان لم يشرحه في عبارة
واضحة محددة " (٦) .

(١) أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي ص ١٧٧ .

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن البصري ، الفقيه الزاهد ، المتشمر العابد ، الواعظ ، كثير العلم .. انظر : طبقات

ابن سعد ١٥٦/٧ ، وحلية الأولياء ١٥٣/٢ ، وسير أعلام ٥٦٣/٤

(٣) أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي ص ١٧٧ .

(٤) انظر : تلبس إبليس ص ٢٠٢ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٧/١١ .

(٦) موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٧٧ .

٣- ويعرفه ابن خلدون بأنه " العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ﷻ والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد للخلوة في العبادة " (١) .

٤- ويعرفه الجرجاني (٢) بأنه " الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال " (٣) .

٥- أما الدكتور مقداد يالجن فيعرفه بأنه " اتجاه روحي - نظريا وعمليا - في الحياة للوصول إلى الله تعالى والفوز برضاه " (٤) .

نفهم من تعريفاتهم السابقة أن كلمة " التصوف " لها دلالات أخلاقية سامية ؛ حينما استخرجوا منها المثل العليا ، والقيم الفاضلة ، والخلق الحسن .. وكأنهم يتوجهون نحو السلوك وتركيز النفوس ، ووصف التصوف بأنه تجريد العمل لله ﷻ ، والزهد في الدنيا ، وترك دواعي الشهرة ، والعدل إلى التواضع والإحسان .

وقد يصح هذا المفهوم إذا ارتبط بالصوفية في عهدها الأول ، أي قبل أن تتعرض لفكر الوافد ، وقبل أن تدخل عليها تحريفات الطرائق والرسوم ، والبدع والفلسفات والشركيات والانحرافات .

ولهذا فهم شيخ الإسلام ابن تيمية بأن الكلمة لا تدم على الإطلاق، وأن اختلاف الأسماء لا يعنيه بقدر ما يهتم بمدى اتفاقها مع الشرع ، مهما اختلفت أسماؤهم : قراء أو زهادا أو نساكا أو صوفية ماداموا يسرون في طريق شرع الله ووفق ما شرعه الله ﷻ ، وبلغه إلينا رسوله الكريم ﷺ . وهذا ما جعله يدخل بعض شيوخ الصوفية المتقدمين ضمن دائرة ما يسميه بالتصوف الشرعي (٥) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧ .

(٢) هو علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني ، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية (ت ٨١٦هـ) انظر : الأعلام ٧/٥ .

(٣) كتاب التعريفات ، للجرجاني ، ط أولى بيروت (دار الفكر ، ١٤١٨هـ) ص ٤٤ .

(٤) فلسفة الحياة الروحية ، د. مقداد يالجن ، ط ثانية الرياض (دار عالم الكتب ، ١٤١٠هـ) ص ٧٣ .

(٥) انظر: ابن تيمية والتصوف ، د. مصطفى حلمي ، ط ثانية الإسكندرية (دار الدعوة ، ١٩٨٢م) ص ٣٧ ومجموعة

الرسائل والمسائل لابن تيمية ٨٣/٥ ، ومجموع فتاواه ١١ / ٢٠-٢٢ ، ٢٧-٢٨ .

وأيده بذلك الإمام الشاطبي^(١) حيث قال : " وأما الكلام في دقائق التصوف فليس ببدعة على الإطلاق ، ولا هو مما صح بالدليل بإطلاق ؛ بل الأمر ينقسم ، ولفظ التصوف لا بد من شرحه أولاً حتى يقع الحكم على أمر مفهوم ، لأنه أمر يحمل عند هؤلاء المتأخرين " (٢) ثم ذكر - رحمه الله - المعاني الصحيحة والفاصلة في التصوف^(٣) .

وقال عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف : " وإن كان ثمة ألفاظ مجملة - التي لم ترد في الكتاب والسنة بنفي ولا إثبات - في باب الاعتقاد ، كالخيز والجوهر والجسم .. الخ فكذا في باب السلوك توجد ألفاظ مجملة كالصوف والفناء والفقر ونحوه .

وقد تقرر أن موقف السلف الصالح من الألفاظ المائلة في الاعتقاد هو التفصيل ، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بُيِّنَ ، ما أثبت بها فهو ثابت ، وما نفي بها فهو منفي ، فهم ينظرون في مقصود قائلها فإن كان معنى صحيحاً قُبِلَ ؛ لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص الشرعية دون الألفاظ المائلة ، إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة ، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها " (٤) .

ثم استدلل بموقف شيخ الإسلام ابن تيمية الصحيح من هذه الألفاظ حيث كان يقول : " وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها ، فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده ، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به ، وإن أراد معنى يخالف خبر الرسول أنكره ، ثم التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها أو بين مراده بها ، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي ، فإن كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعانٍ مشتبهة " (٥) .

وقال محمود النووي : " وإنما الذي يعيننا أن نركز عليه ونوجه إليه ما تدل عليه هذه الكلمة من أوصاف ترجع كلها إلى مراقبة الله ﷻ ، وإيثار ذكره بالليل والنهار في السر

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، الفقيه الأصولي اللغوي المفسر . (ت ٧٩٠ هـ) ، الأعلام ٢٢٣/١ .

(٢) الاعتصام ، للشاطبي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط أولى بيروت (دار الكتاب العربي ١٤١٧ هـ) ١٥٨/١ .

(٣) المصدر نفسه ١٥٨/١ - ١٦٠ .

(٤) معالم السلوك وتركيب النفوس ، لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف ، ط أولى الرياض (دار الوطن ١٤١٤ هـ) .

ضمن رسائل ودراسات في منهج أهل السنة (٤٦) ص ٣١ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١١٤/١٢ .

والعلن، والضراعة إليه ﷺ في كل شيء ، والاستغناء به عن الخلق والزهد في الدنيا لا على كراهيتها ورفضها بالكلية كما يتوهم كثير.. ولكن على معنى عدم حبها والمنافسة في طلبها ، وإيثارها على جوانب البر ، ومن هذه المعاني كلها يحصل للنفس تهذيب ، ويتكون فيها خلق رفيع " (١) .

ولعل هذا ما دفع الإمام ابن القيم إلى القول في كتابه " مدارج السالكين " ناقلا عن صاحب (٢) منازل السائرين : " واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق " (٣) . وهو ما جعل بعض الصوفية يتجهون نحو الجانب الأخلاقي للدين ، ويهتمون به أيما اهتمام ، قائلين بأن أي علم من العلوم لا يقترن بالخشية من الله ﷻ والمعرفة به فلا جدوى منه .. فما أكثر ما تجد من العلوم في الكتب بحيث يسهل عليك تحصيله ، أما الأخلاق فتحصيلها عسير لأنها تكون ثمرة ممارسة شاقة ، وصراع بين الإنسان ونفسه الأمارة بالسوء ليلزمها جادة الصواب .

ومع ذلك فالأجدر أن نعبر بالتعبير الشرعي الواضح مثل التزكية والإحسان والإخلاص وتقوى الله ومراقبته ﷻ وحسن الخلق... لأنها حقائق شرعية وثابتة في الكتاب والسنة ، فلنأخذ ما جاءنا من كتاب ربنا ﷻ وسنة نبينا محمد ﷺ وهدى سلفنا الصالح حتى لا نقع فيما وقع به من قبلنا كما حكى الله ﷻ لنا عن أهل الكتاب فقال ﷻ : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ يَنِينَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِّن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

(١) مقدمته في كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٧ .

(٢) وهو: عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي ، مصنف كتاب ذم الكلام أيضا (ت ٤٨١ هـ) انظر : سير أعلام

النبلاء ٥٠٣/١٨ ، ومعجم المؤلفين ، للكحالة ١٣٣/٦ .

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم الجوزية ، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي ، ط رابعة بيروت (دار الكتاب

العربي ١٤١٧ هـ) ٣٠١/٢ .

(٤) سورة الجاثية ، الآيتان (١٧ - ١٨) .

المبحث الثاني

نشأة التصوف

تعددت آراء العلماء والباحثين حول نشأة التصوف ، والبيئة التي نبتت فيها بذرته الأولى ، وهم لا يجمعون في ذلك على رأي؛ بل كل ذهب وجهة خاصة ، وأخذ يستدل عليها ويؤكد صحتها ، وتتلخص تلك الآراء في ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول : أن التصوف إسلامي النشأة والمنبت ، وأن أصوله العقدية والسلوكية مستمدة من الكتاب والسنة ، وفعل السلف الصالح ، وأن هذا الاسم قد وجد منذ القرن الأول الهجري ، ويتزعم أصحاب هذا الرأي أبو نصر السراج الطوسي وابن خلدون . وقد استدل السراج على هذا الرأي بروايتين أوردتهما في كتابه " اللمع " .

الرواية الأولى : أن الحسن البصري - رحمه الله - كان يعرف هذا الاسم ، حيث أدرك جماعة من الصحابة ، ورأى صوفيا في الطواف فأعطاه شيئا فلم يأخذه .

والرواية الثانية : أن سفيان الثوري^(١) - رحمه الله - قال : لولا أبو هاشم الصوفي^(٢) ما عرفت دقيق الرياء^(٣) . غير أن أبا نصر لم يوضح وجه الدلالة في هذه الرواية على أن التصوف وجد في عهد مبكر في الإسلام ؛ بل هي دليل على خلاف ما أورده ، لأن سفيان الثوري ولد في عام (٩٧ هـ) ، وهذا يشير إشارة واضحة إلى أن التقاءه بأبي هاشم

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق ، إمام الحفاظ سيد العلماء العاملين في زمانه ، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد (ت ١٦١ هـ) ، انظر : سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧ .

(٢) أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفي الصوفي (ت ١٥٠ هـ) ، وقد جاء في حلية الأولياء ١١٢/١٠ إن سفيان الثوري جلس إليه فحمد طريقته وملازمته للصفاء والوفاء ، ثم قال : مازلت أرائي ، وأنا لا أشعر إلى أن جالست أبا هاشم فأخذت منه ترك الرياء ، ولعل هذا ما يجعل الكتاب يذهبون إلى أن أبا هاشم أحق أن يكون أول من سمي (صوفيا) . ويؤيد ذلك ما قرره كامل الشيباني في كتابه " الصلة بين التصوف والتشيع " ٢٩١/٢ من أن الشيعة يسمون أبا هاشم مخترع الصوفية . ويقول نيكولسون في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٣ " إنه تقدمه رجال كان لهم قدم في الزهد والورع وحسن التوكل وفي طريق المحبة ، ولكنه أول من تسمى بالصوفي " . وقد اختلف الباحثون في أمره ، فيرى الدكتور النشار في نشأة الفكر ٢٧٨/٣ أنه سني المذهب ؛ بينما يرى إحسان إلهي في التصوف (المنشأ والمصادر) ص ١٤٥ أن أبا هاشم زنديق دهرري ، حيث كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كفعل الرهبان ، ويقول بالحلول والاتحاد مثل النصاري ، وقيل : إنه كان أمويا وجيريا في الظاهر ، وباطنيا ودهريا في الباطن ، وكان مراده من وضع هذا المذهب أن يثير الاضطراب في الإسلام ، وعلى كل فهو متهم بالزندقة والدهرية .

(٣) اللمع للطوسي ص ٤٢-٤٣ .

الصوفي لم يتم في القرن الأول الهجري ، ذلك أن أبا هاشم الصوفي توفي عام (١٥٠هـ) ، فلا بد أن يكون لقاءهما كان في أثناء المائة الثانية للهجرة ^(١) ، لأن أبا هاشم في أواخر المائة الأولى لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات ؛ إذن لم يكن اسم التصوف معروفا في القرن الأول الهجري ، وإنما ظهر هذا الاسم في القرن الثاني ، وقد مال إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية حينما قال : " في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك - أي الزهد - بلفظ " الصوفي " لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد " ^(٢) .

وأما ابن خلدون فقد برر رأيه في نشأة التصوف حيث يقول : " هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك في الصحابة والسلف ، فلما فشي الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة " ^(٣) . ومنذ ذلك الحين غلبت التسمية على هذه الطائفة من الزهاد فيقال : رجل صوفي وللجماعة الصوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له المتصوف وللجماعة المتصوفة ^(٤) .

نفهم من ذلك أن سلوك بعض العباد المسلمين في صدر الإسلام ، والذي كان يتمثل في الزهد والتقشف وكثرة العبادة والتقرب إلى الله ﷻ بالأعمال الصالحة ؛ هذا السلوك هو الأساس التاريخي لظاهرة التصوف التي انتشرت في ذلك العصر وهذا غير صحيح ، لأن هذه الظاهرة كانت بطريقة مشروعة ، وكان الهدف منها تهذيباً للنفس وتزكية للروح ، ولم تكن تحت لواء الصوفية المنحرفين ، فكل ما يفعله السلف الصالح من الزهد وكثرة التعبد والاجتهاد في تزكية النفس أمر مطلوب لأنه داخل في تعاليم ديننا الحنيف ^(٥) .

(١) انظر : موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٨٣ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٩/١١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧ .

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ .

(٥) انظر : الصوفية معتقداً ومسلماً ، د. صابر طعيمة ، ط أولى الرياض (دار عالم الكتب ١٤٠٥هـ) ص ٤٥ .

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية أشار إلى الذين اجتهدوا في سبيل تربية النفس وتهذيب السلوك وكانوا مبتعدين عن البدع والشرك والخرافة بأنهم مجتهدون في طاعة الله ﷻ ، و متمسكون بسنة رسول الله ﷺ ويقول في شأن هؤلاء : " والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد ويخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه ، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج^(١) - مثلاً - فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق المستقيم مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره .. فهذا هو أصل التصوف " (٢) .

" ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع ، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم ، فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم .
وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف - أي المستفيدين من دخل الأوقاف الموقفة على الصوفية فحسب - فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز .. ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط : أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم ، والثاني : التأدب بالآداب الشرعية في غالب الأوقات ، والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا ، فأما من كان جماعا للمال ، أو كان غير متخلق بالأخلاق الحمودة ، ولا يتأدب بالآداب الشرعية ، أو كان فاسقا فإنه لا يستحق ذلك " .

وأما صوفية الرسم فهم المقتصرون على النسبة، فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم " (٣) .

(١) الحسين بن منصور الصوفي ، كان جده مجوسيا ، صحب سهل التستري و الجنيد ، وقد تراء منه سائر الصوفية والمشايخ لسوء سيرته، ونسبوه إلى الحلول والزندقة ، قتل مصلوبا بعد أن قطعت يداه ورجلاه وضرب ألف سوط وأحرقت جثته ونثر رماده في نهر دجلة سنة ٣٠٩هـ. انظر: طبقات الصوفية ص ٣٠٧ ، وسير أعلام النبلاء ٣١٣/١٤ ، وطبقات الشعرا ٩٢/١ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٨/١١ .

(٣) المصدر السابق ١٨/١١ - ٢٠ .

أما ما يراه ابن خلدون من أن التصوف هو الزهد وأن أصوله التي بني عليها موجودة في مسالك الصحابة والتابعين فهذا الرأي مخالف للصواب ؛ ذلك أن التصوف غير الزهد كما هو واضح من كلام الطوسي نفسه بأن الصوفية لا تنفرد بنوع من العلم حتى تنسب إليه كالفقهاء إلى الفقه أو الزهاد إلى الزهد^(١) .

وهذا السهروردي صرح بذلك قائلا : التصوف غير الزهد والزهد غير الفقر ، فالتصوف اسم لمعاني الفقر والزهد مع مزيد أوصاف أو إضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهدا أو فقيرا^(٢) ، كما صرح به أيضا الدكتور عبد الحلیم محمود فيقول : إن الصوفي لا يتعلق قلبه بالدنيا غير أن الزهد في الدنيا شيء والتصوف شيء آخر ، وإن الصوفي كثير العبادة ولكنك قد تجد أشخاصا كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ويكثرون من النوافل ، ويدأومون على العبادة ، ولا يعني ذلك أنهم من الصوفية .. وإن الأخلاق الكريمة ملازمة للمتصوف وللصوفي ، ولكن ليس معنى ذلك إنها هي التصوف^(٣) .

والجدير بالذكر أن ابن الجوزي مع اعترافه بأن الصوفية من جملة الزهاد إلا أنه قرر أنهم انفردوا عن هؤلاء الزهاد بصفات وأحوال وتوسموا بسمات ، ولهذا بحث الزهد في فصل والتصوف في فصل آخر^(٤) .

صحيح أن رسول الله ﷺ أزهّد خلق الله ﷻ في الدنيا وزخارفها ، وتبعه في ذلك أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - إلا أن جل اهتمامهم ابتغاء مرضاة الله ﷻ ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، آخذين من الدنيا ما أباح الله لهم ، ومتتهين عما نهى عنهم ، سالكين منهج الاعتدال دون إفراط أو تفريط، وإسراف أو تقتير وكانوا بين ذلك قواما، لأنهم أدركوا دعوة القرآن الكريم التي تهتم بمراعاة التوازن بين متطلبات الدين من جهة ، ومطالب الحياة من جهة أخرى .

ولهذا كان الرسول ﷺ ينهى بعض أصحابه عن الغلو في العبادة ، وقد رد رسول الله ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون ﷺ ولو أذن له لا اختصى^(٥) ، وأنكر ﷺ نفرا من

(١) انظر : اللمع للطوسي ص ٤٠ .

(٢) انظر : عوارف المعارف ص ٥٤ .

(٣) أبحاث في التصوف ص ١٧٩-١٨٠ .

(٤) انظر : تلبس إبليس ص ١٦١ .

(٥) أخرجه البخاري مع الفتح ١٠/١٤٦ في كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء ، ح (٥٠٧٣) .

الصحابة حينما عزموا ترك النكاح ، والامتناع عن أكل اللحوم والنوم ، كما روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه : أنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا ، وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني ^(١) » ، وفي ذلك قال الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٢) .

الإسلام دين الحياة والحركة والعمل والجد والاجتهاد ، فكان مما يستعيز منه صلى الله عليه وسلم في أدعيته قوله : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل » ^(٣) أما المتصوفة المنحرفون فكان زهدهم عبارة عن الهروب من الحياة ، ونموذجا من فتور الهمة في العمل والكسب .

وأما ما يقوله ابن خلدون من أن زهد الصحابة والتابعين كان بالانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وأن ذلك كان عاما في الصحابة والسلف ؛ إن كان ابن خلدون يريد بذلك المفهوم المنحرف للزهد كما يفهمه الصوفية الآن فليس بصحيح ، بل كان مناقضا لأعمال الصحابة والتابعين ، لأن حياتهم كانت مليئة بالعمل والدعوة والجهاد في سبيل الله ، فلو كانوا منعزلين عن الخلق غير عاملين لما عز الإسلام في أيديهم ، ولما دانت للإسلام دولة الفرس والروم ، ولما أقاموا ميزان العدل بين الناس ، فهؤلاء ليسوا منفردين عن الخلق في الخلوات للعبادة ، وإنما كانوا يضربون في الأرض ويتغون من فضل الله ، ممثلين لأوامر الله حين قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ١٠/١٣٠ في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ح (٥٠٦٣) .

(٢) سورة المائدة ، الآيتان (٨٧-٨٨) .

(٣) أخرجه مسلم، في كتاب الذكر والدعاء...باب التعوذ من العجز والكسل ٤/٢٠٧٩ ح (٢٧٠٦) .

كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١﴾ وحينما قال ﷺ أيضا : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢﴾ .

الاتجاه الثاني : أن التصوف ليس إسلامي النشأة على الإطلاق ، ويرى أصحاب

هذا الرأي بأن التصوف وفد على البيئة الإسلامية مع ما جاء إليها من عادات وتقاليد الأجناس الأخرى نتيجة توسع رقعة الفتوحات الإسلامية ، واختلاط الشعوب المختلفة في عقائدها ولغاتها ، إذ من الممكن أن يتأثر المسلمون بالعقائد التي كانت سائدة هناك خاصة وأن التصوف كان معروفا - كما يزعمون - قبل الإسلام في الأمم الماضية ، " وهؤلاء يرون أن التصوف فارسي النشأة أو هندي أو يوناني أو يهودي أو نصراني أو أنه مزيج من هذا كله ، وعلى رأس هذا الفريق جماعة كثيرة من المستشرقين " (٣) .

ويستدلون بأن علماء الصوفية نشأوا في بلاد فارس ونحوها ، وأن ثمة تشابه بين الصوفية وبين أهل البلدان الأخرى في طرقهم واعتقاداتهم وعباداتهم وخاصة في عقائد الرمز والظاهر والباطن ومناهج التأويل وغيرها ، ويؤيد هذا الرأي مذهب إليه أبو نصر الطوسي من أن منشأ التصوف كان في الجاهلية قبل الإسلام (٤) .

وإذا نظرنا في الرأيين السابقين المذكورين لوجدنا أن المبالغة قد طغت على أصحاب كل اتجاه ، لأن أصحاب الاتجاه الأول بالغوا فيه حين جعلوا التصوف إسلامي النشأة وأدرجوا جميع الصحابة في الصوفية . وأما أصحاب الاتجاه الثاني فقد غلوا أيضا حين أرجعوا أصول التصوف إلى الديانات القديمة وإلى المذاهب والفلسفات اليونانية ، حتى وإن كانوا على حق إذا ما أرادوا به التصوف المنحرف الذي وصل بأصحابه إلى القول بالنظريات الصوفية كالحلول (٥) والاتحاد (٦) وغير ذلك من النظريات الدخيلة على الإسلام .

(١) سورة الجمعة ، الآية (١٠) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١٠٥) .

(٣) انظر : الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٤٨ .

(٤) انظر : اللمع للطوسي ص ٤٢-٤٣ .

(٥) أي أن الله ﷻ عما يصفون خلق الخلق ، وحل فيه ، كما يحل الإنسان في الثوب الذي يلبسه ، أو كما يحل

الماء في التراب عند مزجه فيكونان بذلك اثنين متماسين . انظر : الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٢٥٩ .

(٦) أي أن الله ﷻ خلق الخلق واتحد به ، مع أن هذا هو حلول في حقيقته وليس اتحادا انظر : الكشف ص ٢٥٩

الاتجاه الثالث : أكثر الآراء قوة وأعدلها حكماً على التصوف ، وهو ما ذكره

شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ذهب إلى أن بداية نشأته كانت في أوائل القرن الثاني الهجري ؛ لكنه لم يشتهر إلا في القرن الثالث فقال : " أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية أصحاب عبد الواحد بن زيد ^(١) ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية " ^(٢) وذلك بسبب ما حكى عنهم من المبالغة في هذا الباب " كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر ﴿ فَإِذَا تُقْرِفُ فِي النَّاقُورِ ﴾ ^(٣) فخر ميتا ، وكقصة أبي جهير الأعمى ، الذي قرأ عليه صالح المري ^(٤) فمات ، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته ، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ولم يكن في الصحابة من هذا حاله ، فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين ..

ثم قال شيخ الإسلام : " والمنكرون لهم مأخذان : منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال : ما بينا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط فإن خرّ فهو صادق ، ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفا لما عرف من هدي الصحابة .. " ^(٥) .

ونقل إلينا ابن الجوزي نبذة مختصرة عن نشأة التصوف فقال : " والتصوف طريقة كان ابتداءؤها الزهد الكلي ، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص ، فمال إليهم طلاب

(١) عابد من أكبر عباد البصرة ، شيخ الصوفية وواعظهم ، كان ممن غلب عليه العبادة ، حتى غفل عن الاتقان ، فكثر المناكير في حديثه ، حتى قال عنه النسائي : متروك الحديث ، أصيب بالفالج فدعا الله أن يطلقه وقت الوضوء ، فكان إذا أراد أن يتوضأ انطلق ، فإذا رجع سريه فليج ، وكان ذا وعظ مؤثر لدرجة أن بعض الجالسين في مواعظه يموتون ، قال عنه الذهبي : رمي بالقدر (ت ١٧٧هـ) ، انظر : حلية الأولياء ١٦٧/٦ ، وسير أعلام النبلاء ٣٤٩/٨ ، وميزان الاعتدال ٤١٥/٣-٤١٦ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/١١-٧ .

(٣) سورة المدثر ، الآية (٨) .

(٤) أبو بشر بن بشير القاص ، الزاهد الخاشع ، واعظ أهل البصرة ، كان الغالب عليه كثرة الذكر ، والقراءة

بالتحزين ، ومات جماعة سمعوا قراءته (ت ١٧٢هـ) ، انظر : سير أعلام النبلاء ٤٦/٨-٤٧ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/١١-٨ .

الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب .. " (١) .

إلى أن قال : " وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين (من الهجرة) ، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق ، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة .. " (٢) .

" وعلى هذا كان أوائل القوم فلبس إبليس عليهم في أشياء ، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم ، كلما مضى قرن زاد طعمه في القرن الثاني ، فزاد تلييسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن . وكان أصل تلييسه عليهم أنه صدهم عن العلم ، وأراهم أن المقصود العمل ، فلما انطفأ مصباح العلم عندهم تحبطوا في الظلمات ، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة ، فرفضوا ما يصلح أبدانهم ، وشبهوا المال بالعقارب ، ونسوا أنه خلق للمصالح ، وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع ، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة ؛ غير أنهم على غير الجادة ، وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري " (٣) .

نفهم من خلال عبارات ابن الجوزي أن التصوف بدأ أولاً في شكل زهد وعبادة قبل أن يضيف إليه المنتسبون الأشياء المستحدثة ، وكان عند الصدر الأول منهم في شكل مجاهدة النفس للاستقامة تقويماً لها وحملها على التحلي بالأخلاق الحميدة .

لاشك أن هذه الطريقة لا غبار عليها في سبيل تركية النفوس وتطهيرها من كدورات الصفات المذمومة عندما كانت بطريقة ارتضاها الله ﷻ ورسوله ﷺ ، لا بطريقة مبتدعة أو صادرة عن هوى وجهل بأمور الدين ، ولا ريب كذلك أننا مأمورون بأن نزهد في متاع الدنيا ونحذر من الاغترار بها ، ولكن مع ذلك لم يحثنا الإسلام على أن نبتعد عن الدنيا جملة ونهمل نصيبنا منها حيث قال الله ﷻ : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ

(١) تلييس إبليس ص ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ ، وأمرنا الله ﷻ به أيضا أن نربي أنفسنا تربية إسلامية وذلك عن طريق تقوية الإيمان بالله ﷻ واليوم الآخر.. وبجميع ما يجب الإيمان به والعمل بمقتضى شرعه ، في حدود وسع الإنسان الذي يأتي بالواجبات ويتعد عن المحرمات .

هذا ، بالإضافة إلى ذلك أن الله ﷻ أحل لنا أن نأكل من الطيبات ، ونلبس ونتزوج وننام ، وكل ذلك دون إسراف ونسيان للآخرة قال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٢) وقال ﷻ أيضا : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَطَيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وأما ما يسلكه بعض المتصوفة من رفض ما يصلح الأبدان ، والمبالغة في الحمل على النفوس ، والابتعاد عن هذه الحياة ، وجعل الناس لا قيمة له في هذا الوجود فهذا محض المخالفة لتعاليم الإسلام .

وحول الحديث عن نشأة التصوف قال الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل : في القرن الثاني الهجري " بدأت بذور الصوفية ، وبدأت طلائعها قبل ظهور الفرق ، ويتمثل ذلك في ظهور الرهبانية، والتشدد في العبادة ، ومخالفة السنة في بعض الأمور " (٤) . والأخذ بالزهد والتقشف ، ويمثل هذا العصر الدور الأول للتصوف (٥) .

" وأما في القرن الثالث الهجري " بدأت في هذه المرحلة طلائع الصوفية الضالة الطرقية ، والحلولية (كالحلاج) ، وعظمت الشطحات الصوفية وأحوالها البدعية مثل : الوجد ، والذوق ، والكشف ، والسماع ، والتفريق بين الحقيقة والشرعية، ودعاوى العلم

(١) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

(٤) دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف الإسلام منها ، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، ط ١ ،

الرياض ، (دار أشبيليا ١٤١٨هـ) ص ١٦٩ .

(٥) ويجعل هذا الدور الدكتور أبو العلا عفيفي إلى نهاية القرن الثاني الهجري . راجع : التصوف الثورة الروحية

في الإسلام ، ص ٩٠ ، وكذلك الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه : دراسات في التصوف الإسلامي

اللدني ، والتلقي عن غير الشرع ، والفناء ، والحلول والاتحاد ، واختلاط التصوف بالفلسفة " (١) .

والخلاصة في نشأة التصوف أنه في بداية أمره - في القرن الثاني الهجري - عبارة عن الزهد في الدنيا ، والتفرغ للعبادة ، ومجاهدة النفس .. وهؤلاء بمثابة المجتهدين ، ثم جاء أقوام تكلموا في الجوع والفقر والوساوس .. ثم جاء قوم آخرون فميزوه بصفات كلبس المرقعة والسماع والوجد والتصفيق ، ثم مازالوا كذلك حتى سموه علم الباطن ، وعلم الشريعة علم الظاهر ، ثم تفرقوا بعد ذلك فمنهم من أدى به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق ، ومنهم من قال بالحلول ، ومنهم من قال بالاتحاد ، وهؤلاء مترددون بين الكفر والبدعة .

ثم جاء بعد هؤلاء أقوام اختلفت مشاربهم ، فمنهم من أخذ التصوف بمعنى الزهد والعبادة والانقطاع عن الدنيا .. ، ومنهم من أخذ حركات ومظاهر فمارس كثيرا من البدع والمنكرات المخالفة لتعاليم الإسلام .

وبهذا يتبين لنا أن خط الانحراف انطلق من زاوية ضيقة ، ثم أخذ بالاتساع حتى وصل إلى ما وصلت إليه الصوفية من القول بالحلول والاتحاد .. وهكذا كل انحراف فإنه يبدأ ضيقا محدودا ، ثم لا يزال يتسع حتى يصل بأصحابه إلى طرق خطيرة ومهلكة .

(١) دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف الإسلام منها ، ص ١٦٩ .

المبحث الثالث

عوامل نشأة التصوف

إن لعوامل نشأة التصوف آراء كثيرة أدت إلى تعدد الأوجه والاتجاهات ، فقد عين البعض أن نشأته راجعة إلى باعث داخلي ، حيث انبعثت منه الرغبة الشديدة في التوجه إلى الله ﷻ وكثرة التعبد له ﷻ ، والابتعاد عن الاغترار بمباهج الدنيا وزينتها ، أو أنها نتيجة التأمل العميق في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ . ورد الآخر نشأته إلى حركة الزهد المفرطة التي ظهرت تحت التأثيرات الخارجية ، أو تأثرت بعوامل أجنبية وافدة إلى المجتمع الإسلامي ، وخاصة أن الثقافات المختلفة والوثنيات الجاهلية لم تزل آثارها باقية في القرنين الثاني والثالث الهجريين بين الأمم المختلفة والبلاد العربية .

وبناء على ذلك يمكننا أن نقول بأن العوامل لنشأة التصوف عائدة إلى عوامل وأسباب عدة ، منها :

١ - المبالغة في التمسك والتعبد .

قلنا إن الرسول ﷺ كان أزهد خلق الله ﷻ في الدنيا وزخارفها ، وانتهج أصحابه الكرام منهجه السليم ، وسلكوا في ذلك معتدلين ، واعتبروا الدنيا وما فيها لها ولعبا ، لقوله ﷺ : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ ^(١) وقوله ﷻ : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴾ ^(٢) ولكنهم يدركون بهذه النصوص وغيرها ويفهمون أن الله ﷻ خلقهم لعبادته وحده ، وجعلهم خلفاء في الأرض ، وخلق حياتهم وموتهم ليلوهم أيهم أحسن عملا ، ولهذا سلكوا مسلك الاعتدال والتوازن في هذه الحياة .

ومع هذا المنهج الرباني فإن هناك فئة من الناس يريدون المبالغة والتشدد في الدين مع أن الرسول ﷺ حذرهم من ذلك ، وبين أن لكل شيء حقه ، فيجب إعطاء كل شيء نصيبه ، وأرشد أمته إلى أن الدنيا ليست شرا على الإطلاق وإنما على الإنسان أن يأخذ هذا ويدع هذا فقد ورد في الأثر عن الأعمش قال : أن حذيفة ﷺ كان يقول " ليس خيركم الذين يتركون الدنيا للآخرة ، ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا ، ولكن الذين يتناولون من

(١) سورة الحديد ، الآية (٢٠)

(٢) سورة الكهف ، الآية (٤٦)

كل " (١) . إذن فالمبالغة في التنسك وادعاء التفرغ الكامل للعبادة والتشدد المفرط في انتفاع ما أباح الله لنا في هذه الدنيا يعتبر عاملا من عوامل نشأة التصوف ، مع اعترافنا بأن التصوف اسم غريب عن الإسلام .

ولكن إذا أخذنا في الاعتبار بمفهومه العام وهو السير في طريق الزهد والابتعاد عن زينة الحياة وزخرفها ؛ وأخذ النفس بأسلوب التقشف وأنواع العبادة ، والتأدب بالأخلاق الحميدة ، ولم يكن مقاطعة تامة للحياة الدنيوية، ولا متناقضا مع روح الحياة في المجتمع الذي يدعو إلى الجد والعمل والإنتاج في هذه المعمورة فإن ذلك أمرا مطلوباً ومرغوباً في ديننا الحنيف .

٢- عامل نزعة الزهد في الإسلام .

يرى نيكولسون بأن التصوف الإسلامي نشأ أولا عن نزعة الزهد الشديد التي سادت في القرن الأول الهجري في المجتمع الإسلامي لعاملين هما : المبالغة في الشعور بالخطيئة ، والخوف الشديد من العقاب في الآخرة ، وعلى ذلك تكون نشأة التصوف لدى المسلمين في رأيه راجعة إلى الإسلام نفسه في البداية ، (٢) وإن تأثر هذا التصوف فيما بعد بالعناصر الأجنبية المختلفة ، ولهذا نجد يقول هنا : " وأما في القرن الثالث الهجري فقد ظهر التصوف في صورة جديدة تختلف تمام الاختلاف عن سابقتها وهي لا يمكن تفسيرها بأنها نتيجة تطور لعوامل روحية من صميم الإسلام نفسه " (٣) .

ومن يؤيد وجهة النظر هذه من الدارسين الإسلاميين ابن خلدون قديما (٤) والدكتور محمد مصطفى حلمي حديثا ، (٥) ثم إن المتصوفين أنفسهم يؤيدون هذا الاتجاه (٦) وذلك لما عرف من حياة الرسول ﷺ الخاصة من زهد وتقشف ، ولما وردت من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو إلى الزهد والحياة مع الله ﷻ ، وتدعو إلى الإيمان بالحياة الآخرة

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/٣٤٧ في ترجمة حذيفة بن اليمان رقم ٩٣٩ .

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامي ، د/ أبو الوفاء التفتازاني ، ط ٣ القاهرة (دار الثقافة ١٩٨٣ هـ) ص ٣ .

(٣) المرجع نفسه ص ٤ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٣ .

(٥) الحياة الروحية في الإسلام، د. محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للنشر (١٩٧٠م) ص ٢٧ .

(٦) انظر: تاريخ التصوف الإسلامي منذ البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري د/ عبد الرحمن بدوي ، الكويت ،

ونعيمها... وبالإضافة إلى ذلك أن ديننا الحنيف تجدد في تعاليمه الخوف والرجاء والترغيب والترهيب ، ولهذا كان الخوف أهم عامل في حياة المسلم الدينية في القرن الأول الهجري ؛ الخوف من المعصية ومن الموت ، ومن حساب يوم القيامة ومن نار جهنم .. (١) .

فالإنسان يستطيع من خلال التدبر في آيات كتاب الله العزيز أن يعرف حقيقة دوره ومكانه في هذه الحياة ، ويدرك مدى التحذير من خطورة الانسياق إلى الدنيا بحيث تصبح غاية منقطعة بما يورث التنافس على الحطام والاغترار بالعرض الزائل ، ثم إن الأحاديث النبوية لتأتي مؤكدة بإيجاءاتها وتوجيهاتها نحو موقف الإنسان من الدنيا والآخرة.. وإلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بالعقيدة والسلوك .

ولا شك أن وجود أي إنسان في مثل هذا الجو الإيماني إذا تأمل وتدبر في بعض الآيات القرآنية التي تدعو إلى الزهد وتوقظ الوجدان وترقق القلوب فلا بد أن تدفعه الرغبة الأكيدة إلى التمسك بما اعتقده في قرارة نفسه وإظهار هذه الظاهرة في بيئته وفي من حوله من الناس .

٣- العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

إن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي سيطرت على الحياة العامة كانت لها دور كبير في دفع الناس إلى التصوف؛ وهذه الظروف قد تدفع الإنسان إلى أن يلقي بنفسه في الحياة الروحية ، ولكنها تختلف قوة وضعفا من حين إلى آخر .

ومعلوم أن المسلمين في صدر الإسلام عاشوا عيشة القناعة والرضا ، منعمين بروح الإيمان العميق ، دائمي الصلة بالله ﷻ ، وكانت حياتهم حياة معتدلة خالية من التكلف والإسراف ، ولما فتحت الممالك المجاورة أدى ذلك الفتح إلى وقوع ثروات طائلة في يد هؤلاء القوم الفقراء لكونهم من سكان البادية ، ثم اتصلوا بمدنيات مكتظة بأسباب الرفاهية والترف ، واتسعت رقعة المجتمع الإسلامي نتيجة هذه الفتوحات؛ حيث امتدت حدوده من الجزيرة العربية إلى أقطار الدنيا المتحضرة في ذلك الوقت (٢) .

وبلا شك فإن ظهور الأجواء لهؤلاء الفئة من الناس سببت تحولا مفاجئا لحياتهم، فأصبح المتعبدون المتدينون يحتملون هذه التغيرات التي لم تخطر ببالهم ، وقد يعانون ذلك

(١) انظر: تاريخ التصوف في الإسلام، د. قاسم غني ، القاهرة (مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م) ص ٢٤ .

(٢) انظر : تاريخ التصوف في الإسلام لقاسم غني ، ص ٣٦ .

بمشقة ومرارة ، ومن ثم نتجت عن هذه الظاهرة الآثار التي تسوق أفكارهم إلى الزهد والمبالغة فيه ؛ كرد فعل لهذه الظاهرة حفظا لتعاليم دينهم وقيمهم "وقد اجتاحت هذه التغييرات العالم الإسلامي في أثر الفتوحات الإسلامية ودخول عدد كثير ممن لم يكن على صلة بالنبوة ، أو يعيش في ظلها في الإسلام" ^(١) .

ثم ساعدت الظروف السياسية المضطربة والفتن الداخلية المقلقة التي بدأت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ؓ وقيام الحروب الأهلية بين أنصار علي ومعاوية - رضي الله عنهم - ، وكانت هذه الأوضاع عملا دافعا لبعض الناس وخاصة المتدينين إلى أن يفروا بدينهم من الفتنة ، فاضطر هؤلاء إلى أن يتركوا تلك الحياة الفاتنة ، وأن يتعبدوا لله ﷻ خارج هذا المجتمع ، أو في الأماكن الخفية وذلك اتباعا لقول الرسول ﷺ "ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به" ^(٢) ولهذا يرى بعض الدارسين أن تلك الفتنة كانت عاملا من عوامل نشأة التصوف ^(٣) .

٤- عامل التشيع .

لقد كان للتشيع المغالي دور في نشأة التصوف وذلك عن طريق إسنادهم إلى الإمام علي ؓ الإمامة الروحية ، واعتقادهم فيه بأنه مستودع العلم اللدني ، وإليه تعود الأسرار الإلهية الكاملة ، حتى أدى الأمر عندهم إلى تأليهه ، ويقول بعض الدارسين إن أول من دعا إلى ألوهيته هو عبد الله بن سبأ ^(٤) وأنصاره ^(٥) . وعلى العموم كانت عقائد الشيعة في الإمام علي ؓ تترجح بين كونه وصيا ووليا وإماما ومهديا ونبيا وإلها .

ومهما كان اختلاف الشيعة في عقائدهم في الإمام علي فإن التشيع كان عاملا من عوامل نشأة التصوف ، وذلك بالرغم من اختلاف الدارسين في مدى الدور الذي لعبته

(١) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين "الخوارج والشيعة" ، د. أحمد جلي ، ط ثانية (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٠٨هـ) ص ٤١ .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب الفتن ، باب نزول الفتن كمواقع القطر ٢٢١٢/٤ (ح ٢٨٨٦) .

(٣) انظر : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص ٤٥-٤٦ .

(٤) عبد الله بن سبأ ، رأس الطائفة السبئية ، كانت تقول بألوهية علي ؓ ، أصله من اليمن ، قيل كان يهوديا وأظهر الإسلام (ت نحو ٤٠هـ) انظر : الأعلام ٨٨/٤ .

(٥) انظر : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ١٤/٢ ، ٢٩ .

الشيعة في نشأة التصوف وتطوره يقول الدكتور عبد القادر محمود : " لقد ظهر الشيعة في الكوفة التي كانت مكان حزب المعارضة منذ أيام الدولة الأموية ، ومنها انتشرت في سائر العراق ، ولهذا ظهر التصوف المتطور عن الزهد مباشرة أول ما ظهر في الكوفة المتشعبة ، وكان زهاد الكوفة أول من لبس الصوف كرد فعل للأمويين اللابسي الحرير وتقليد للرهبان النصاري " (١) .

وبعد أن أثبت تعلم بعض الرجال المتصوفين على يد أئمة الشيعة مثل سري السقطي (٢) (ت ٢٥٧هـ) الذي تتلمذ على معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ) وهو مولى علي بن موسى الرضا ، ويقول أيضا : " ومعنى هذا أن التصوف قد أفرخ في بيئة التشيع وكان التشيع مدخل التطور إلى النظريات الفلسفية المنحرفة ... وكانت الولاية الصوفية هي الإمامة الشيعية ، وتطور الموقف مع الصوفية حتى أصبحت الولاية أخص من النبوة ؛ بل كانت جوهر النبوة وحتى صار الولي أسمى من النبي بالتبعية - حسب زعمهم - " (٣) .

٥- دخول النظريات الفلسفية والدينية الأخرى .

لقد كان هناك نظريات فلسفية ودينية انتقلت إلى العالم الإسلامي ، وكانت لها دور كبير في نشأة التصوف وتطوره ، وهي بمثابة الأفكار الدخيلة ذات تأثير كبير في المعتقدات الصوفية ، التي سوف نتكلم عنها حين نتحدث عن مصادر التصوف في المبحث الرابع القادم .

(١) الفلسفة الصوفية في الإسلام ، للدكتور عبد القادر محمود ط ١ (١٩٦٧م) ص ٦٠ .

(٢) هو سري بن المغلس السقطي ، خال الجنيد وأستاذه ، صاحب معروفا الكرخي ، قال عنه السلمي : هو أول

من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته ، انظر :

طبقات الصوفية ص ٤٨ ، والرسالة القشيرية ص ٤٦٧ ، وكشف المحجوب ١/ ٣٢٣ .

(٣) الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص ٦٣ .

المبحث الرابع

مصادر التصوف

اختلف الكتاب والباحثون في تحديد مصادر التصوف ومنابعه ، لأن أمر التصوف أمر مختلف فيه ، وأن طريقته مركبة معقدة ، ولهذا لا يزال موضعه ميدانا للباحثين ، ومثارا للجدل والخلاف، كما أن الفكر الصوفي ظل باقيا وموجودا إلى عصرنا الحاضر.

لذا ، رأى البعض أن التصوف قد تأثر بالديانات المختلفة ، سواء أكانت هذه الديانات وثنية في الأصل كالبودية ، أم كانت رسالات سماوية في الأصل كاليهودية والنصرانية ، أو تأثرت بالأفكار اليونانية . ورأى الآخرون أنه في نشأته الأولى قد ارتوى من منابع إسلامية أصيلة ، ثم تطور ودخلت عليه أفكار وافدة . وذهب غيرهم إلى أنه لا علاقة له بالإسلام سواء في اليوم الذي نشأ فيه أو فيما حصل له - بعد ذلك - من تطورات وتغييرات .

ولكي يتضح الأمر لا بد أن نعرض أهم ما قيل بهذا الصدد من آراء وأفكار مع بيانها - إن أمكن - وخاصة إذا كانت المصادر التي اقتبست منها الصوفية تصطدم اصطداما صريحا مع العقيدة الإسلامية الصافية .

١- المصدر الأول : أديان الهند الوثنية .

إن كل من يقرأ في كتب المتصوفة بإمعان ويفهمها جيدا سيدرك بأن المتصوفة قد تأثروا إلى حد كبير بأديان الهند القديمة في تعاليمهم وعقائدهم وأورادهم وأذكارهم وطرق تعبدهم ورياضاتهم^(١) ، وقد لاحظ هذا الأمر أبو الريحان البيروني حينما عقد مقارنات في المذاهب ، وكشف عن وجه الشبه بين مذاهب الهند " كالفيدانتا^(٢) " وبين مذاهب

(١) انظر : أضواء على التصوف ، د/ طلعت غنام ، القاهرة (عالم الكتب) ص ٦٩ .

(٢) فيدانيت : كتاب يتحدث عن الفلسفة الهندوكية في وحدة الوجود ، ويجمع الآلهة في إله واحد .

الصوفية ، وبين نصوص كتاب " بيتنجل " وبين أقوال البسطامي ^(١) والحلاج والشبلي ^(٢) " ، كما لاحظته أيضا جماعة من المستشرقين الذين قاموا بالبحث في هذا المجال .

ولا شك أن ما أدركوا به لا يمكن إغفاله وبخاصة الذين اطلعوا على كتب المتصوفة ، وقارنوا بما في الأفكار الهندية من عقائد وشعائر وتقاليد ، فلا بد أن يروا أثر الفكر الهندي الواضح ، وهذا الأمر قد لاحظته الكثيرون حتى المتصوفون أنفسهم أقرّوا بوجود الأثر الهندي في الفكر الصوفي . ومن الأشياء التي أبانها البيروني وغيره من الباحثين من أن هناك أوجه التقارب بين الأفكار المتصوفة والهنود الوثنيين ما يلي :

أولا : الحلول ووحدة الوجود ^(٤) .

إن الاعتقاد بالحلول مأخوذ من العقائد الهندية الوثنية ، فالهنود قد قالوا بالحلول في كتبهم التي كتبها لهم الكهنة والسحرة ، قال البيروني بهذا الصدد : " وإلى طريق بيتنجل ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق " ، ثم ذكر أمثلة لذلك من أقوال الصوفية أنفسهم ، ومن الأدلة التي ذكرها قول الصوفية الآتي : " ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بإخفائها عنك فلا يبقى مشير ولا إشارة " ، ويبيّن في كلامهم ما يدل على القول بالاتحاد ، كجواب أحدهم عن الحق ، " وكيف لا أتحقق من هو أنا بالإنيّة ، ولا لأينية ؟ إن عدت بالعودة فرقتُ ، وإن أهملت فبالإهمال خففت وبالاتحاد ألفت " ، ومن الأدلة التي ذكرها البيروني على قول الصوفية بالحلول متأثرين بأقوال الهند القديمة قول الشبلي : " اخلع الكل تصل إلينا بالكلية ، فتكون ولا تكون أخبارك عنا وفعلك فعلنا " ، وكجواب أبي

(١) هو أبو يزيد ، طيفور بن عيسى بن سروشان ، وكان جده مجوسيا فأسلم ، وهو من أهل بسطام (ت ٢٦١ هـ) انظر : طبقات الصوفية ص ٦٧ .

(٢) هو أبو بكر ، دلف بن جحدر الشبلي ، بغدادى المولد والمنشأ ، صاحب الجنيّد ومن في عصره من المشايخ ، (ت ٣٤٣ هـ) انظر : طبقات الصوفية ص ٣٣٧ .

(٣) تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثانى الهجرى ، ص ٣٥ . وأبو حامد الغزالي والتصوف ، ص ١٤٠-١٤١ .

(٤) تعني أنه ليس في الوجود إلا واحد هو الله ، وكل ما نرى هو أجزاء منه تتعين بأشكال مختلفة ، بما في ذلك أنا وأنت وهو وهي وهما وهم وهن ، والأرض والشمس والقمر والنجوم والملائكة والجن ، بما في ذلك الشياطين والحيوانات - تعالى الله عما يقولون - انظر : الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٢٥٩ .

يزيد البسطامي حينما سئل : بم نلت ما نلت؟ فقال : " إني انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها ، ثم نظرت إلى ذاتي فإذا أنا هو " ^(١) .

نفهم من هذه النصوص التي نقلها عنهم البيروني أن هناك تشابها بين عقائد المتصوفة الذين يؤمنون بنظرية الحلول وبين العقائد الهندية الوثنية الإلحادية ، وأن هناك تطابقا بين الفناء الصوفي الذي يسعى أصحابها للحلول وبين الفناء الهندي الذي يعبر عنه "بالنرفانا" ، التي تكون من جملة معانيها الحلول ^(٢) . والحق أن البيروني قد تحدث عن وصف فلسفة الهند الدينية ، ومذاهبهم في الله ، والموجودات الحسية والعقلية ، وتعلق النفس بالمادة ، وتناسخ الأرواح التي لعبت دورا هاما في التصوف ، وما تؤدي إليه من مذهب في الحلول . أما ما يتعلق بالقول بوحدة الوجود فيقول عنه ول ديورانت : " إذا بحثنا عن أخطر نظرية أخذها الجانب الصوفي في الإسلام عن المصدر الهندي وجدنا نظرية وحدة الوجود ، إنها أساس جوهر " الفيدا " فالإله "براجاتي" هو خالق وخلق ، والعالم فيها ينشأ من العدم ، وإنما أجزاؤه أبعاض الإله " ^(٣) . ويقول الدكتور عبد القادر محمود : " ويبدو نظرية وحدة الوجود واضحة في " أوبانشاد " ^(٤) على الأخص حيث يؤكد في تعبيراته الشعرية أن الله والنفس الإنسانية شيء واحد ، فإن خيل للإنسان أنهما شيئا مختلفان فما ذاك إلا لأن إدراكه أضيق من أن يرى اتحادهما " ^(٥) .

ولقد أيد فريق من المستشرقين ما ذهب إليه البيروني ومن معه بأن هناك أوجه التشابه الظاهرة بين المذاهب الصوفية وبعض المذاهب الهندية ، وهذا ما يراه " براون " ^(٦) " ^(٧) كما قرر نيكولسون بأن البوذية - قبل الفتح الإسلامي للهند في القرن الرابع عشر - كانت لها تأثير على التصوف الإسلامي ، لأن التعاليم البوذية قد شاعت في بلاد الفرس في العصر

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ، لأبي الريحان البيروني ، ط ثانية بيروت (عالم الكتب

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص ٤٣ .

(٢) انظر : قصة الحضارة ، لول ديورانت ترجمة زكي نجيب محمود ، ط ٣ (١٩٦٨م) ٨٤/٣ .

(٣) انظر : المرجع نفسه .

(٤) كتاب من كتب الهند الوثنيين .

(٥) الفلسفة الصوفية في الإسلام ص ١١ .

(٦) إدورد غرنفيل براون ، مستشرق إنجليزي ، تخصص في الأدب الفارسي (ت ١٩٢٦م) ، الأعلام ١/ ٢٧٢ .

(٧) انظر : أضواء على التصوف ص ٧٣ .

الجاهلي، كما وجد بعض المعابد البوذية في بلخ إحدى مدن خراسان القديمة ، وهي مدينة اشتهرت بعدد من الصوفية ، وقد اتخذوها مقاما لهم " ^(١) ولهذا أكد نيكولسون مرة أخرى بأن طريق الصوفية من ناحية كونها تثقيفا خلقيا للنفس وتأملا زهديا وتحررا عقليا مدينة بالكثير للبوذية ، وأن الفكرة الصوفية في فناء النفس الذاتية في الوجود الكلي هي من أصل هندي ^(٢) .

ومع هذه الآراء من أن التصوف قد اتصل بالتراث الهندي ، وأن هذا التراث قد أثر في مجموعة من متصوفة الإسلام ، أو على الأقل قد تشابه الاثنان ؛ فإن الدكتور علي النشار أكد على " أن فكري الحلول ووحدة الوجود غريتان عن الروح الإسلامية ، وأن التصوف السني - والمعبر عن روح الإسلام - قد أنكر هاتين الفكرتين ، ومن المرجح أن يكون مأخذ هاتين الفكرتين هنديا ، ولكني أشك كل الشك في محاولة وصل الهند والتصوف في نشأتهما بالتراث الهندي ، حيث كان أمام المسلمين نماذج قرآنية وحديثية تدعو إلى الزهد كما تدعو إلى التصوف .. وعلى افتراض وجود النماذج الهندية لدى المسلمين فقد كانت بعيدة عن روح الزاهد المسلم والمتصوف المسلم ^(٣) .

ومع ذلك لا ينبغي أن ننسى هنا نقطة الاشتراك بين بعض المتصوفين المسلمين والمتصوفين البوذيين في محاولة إفناء الصفات البشرية ، وخلع الشهوات والغرائز من أساسها بالجوع والعطش والصوم الطويل للتخلص من البشرية - كما يزعمون - ، لأن الإنسان ما دام في ثيابه البشرية فلا يستطيع الالتحاق بالعالم الروحي أو الفناء فيه ، وهذا ما دفع هؤلاء إلى الانزواء الكامل والابتعاد عن الحياة والانقطاع عنها .. " ^(٤) .

(١) الصوفية في الإسلام ، لنيكولسون ، ترجمة نورالدين شريفة (مكتبة الخانجي ١٩٥١م) ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٥٢/٣ .

(٤) فلسفة الحياة الروحية ، ص ٨٧ .

وكما أن العناية بالروح والتركيز عليها والسعي إلى تحريرها من قيود الجسد المادي نجد له مثيلا عند الطائفة " الجينية " ^(١) الهندية ، التي تهتم بتطهير الروح وإطلاقها من وثائق الجسد الذي يشدها إلى الحياة ويجرمها من الراحة و الطمأنينة .

ثانيا : تعذيب النفس وحرمانها من الحياة السعيدة .

أخذت المتصوفة نظرية تعذيب النفس وتحميلها أكثر مما تطيقه وحرمانها من الأكل والشرب واللباس من الديانات الهندية القديمة وخاصة البوذية ، وقد حكى لنا ول ديورانت قصة بوذا قائلا : " وفي ظلمة الصباح الباكر خلف بوذا المدينة على ظهر جواده يصحبه سائق عربته ، وقد تعلق يائسا بذيل الجواد .. ثم قال : " ووقف عند مكان اسمه "يوروفيل" يقول : " قلت لنفسي إن هذا المكان رائع ، وإن هذه الغابة جميلة .. " وههنا في هذا الموضع أخضع نفسه لأشق أنواع التقشف ، ولبت ستة أعوام يحاول ممارسة اليوجا - أي رياضة النفس - التي كانت قد ظهرت قبل ذلك في ربوع الهند ، وعاش على الحبوب والكأ ، ومضى عليه عهد اقتات فيه بالروث ، وانتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم ، ولبس ثيابا من الوبر ، وانتزع شعر رأسه ولحيته ليتزل لنفسه العذاب ، وكان ينفق الساعات الطوال واقفا أو راقدا على الشوك ، وكان يترك التراب القذر يتجمع على جسده حتى يشبه في منظره شجرة عجوزا ، وكثيرا ما كان يرتاد مكانا تلقى فيه جثث الموتى مكشوفة ليأكلها الطير والوحش؛ فينام بين هذه الجثث العفنة " ، ثم قال بوذا : " فضمّر جسدي ضمورا شديدا ... وكان من أثر تقليل الطعام أن برزت عظام فقراتي ... " ^(٢) .

قال أحمد عبد الغفور عطار : " ولكن تعذيب الجسد والسكون التام حتى كانت الطيور تقع عليه آمنة ، وتتحرك الوحوش خلفه مطمئنة لم يصلا به إلى غايته ، بل عاقه الضعف وفقدان القوة عن الحركة ، وأدرك أن ما فعله بنفسه أعجزه عن الحركة وعطل فيه

(١) الجينية ديانة منشقة عن الهندوسية ، ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد على يد مؤسسها (مهاويرا) ، إنها مبنية على أساس الخوف من تكرار المولد ، داعية إلى التحرر من كل قيود الحياة .. وهي تقوم على رياضات

بدنية رهيبية .. انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ١٩٣ .

(٢) قصة الحضارة ، ٦٨/٣ - ٧٠ .

قوى الفكر ، وأن الإسراف في تعذيب الجسد لا ينتهي به إلى ما كان يرجو ، بل نجم نقيضه " (١) .

وإذا أخذنا نماذج من المتصوفين لوجدنا منهم الحكايات المشابهة ، التي تلمح إلى شيء من تعذيب النفس وحرمانها من الحياة السعيدة ، فإبراهيم بن أدهم - مثلاً - وهو رجل كثيراً ما تبدأ به كتب طبقات الصوفية ، وقد ذكر أنه من أبناء الملوك ، وتزوج امرأة جميلة ، ولكنه ترك الملك والزوجة والأولاد ، وكل ما كان يملكه للنداء الغيبي أو للقاء الخضر الذي لقنه ذلك حسب زعمهم (٢) .

وذكر القشيري أن أحمد النوري رأى أن التصوف ترك كل حظ للنفس ، ولهذا كان يخرج كل يوم من داره ويحمل الخبز معه ، ثم يتصدق به في الطريق ، ويدخل مسجدا يصلي فيه إلى قريب الظهر ، ثم يخرج ويفتح باب حانوته ، ويصوم فكان أهله يتوهمونه أنه يأكل في السوق ، وأهل السوق يتوهمونه أنه يأكل في البيت ، بقي على هذا في ابتداءه عشرين سنة (٣) . وأما الطوسي فقد ذكر أن الشبلي كان يكتحل بالملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم وأحيانا كان يحمي الميل فيكتحل به (٤) .

هذه بعض النصوص والأقوال التي تثبت بأن المتصوفة قد تأثر بعضهم تأثراً واضحاً بأديان الهند القديمة ؛ مثل البوذية في المجاهدات والرياضات وتعذيب النفس طلباً للنداء الغيبي أو المعرفة كما - يزعمون - ، وبذلك نستطيع أن نؤكد بأن المصادر الهندية تعد من أهم المنابع التي ارتوت منها المتصوفة المبتدعة المتفلسفة لبعض عقائدهم وسلوكهم ، لأن معظم الفرق الهندية تميل إلى حياة التقشف والزهد ، و إلى احتقار اللذات الجسدية ، مما جعلهم يتفقون مع بعض أنماط السلوك الصوفي ، مثل نظرية الفناء عند الطوائف الهندية قريبة الشبه من نظرية الفناء عند الصوفية؛ بل لنقل إنها متطابقة معها تماماً في الوسائل الموصلة إليها ، وفي الغاية أو النتيجة المنتهية إليها .

فالمجاهدة الصوفية بما فيها من زهد وتقشف وقسوة على النفس ... يظهر فيها التأثير الواضح بالطريق الهندي لدى البرهمية والجينية والبودية .

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور ، لأحمد عبد الغفور عطار، ط ١ (مكة المكرمة ١٤٠١هـ - ١٢٠/١)

(٢) انظر : التصوف المنشأ والمصادر ، ص ٥٠

(٣) الرسالة القشيرية ص ٤٣٩

(٤) اللمع للطوسي ، ص ٢٧٥

٢- المصدر الثاني : الأفكار اليونانية .

لقد أخذت المتصوفة في تدعيم مبادئهم وأفكارهم عن الأفكار اليونانية المتعددة المذاهب والطرائق ؛ ولعل من أبرزها الأفكار التالية :

أولا : الفكر الغنوصي .

إن الغنوصية كلمة يونانية ، معناها المعرفة ، ولكنها تطورت حتى أخذت معنى اصطلاحيا وهو التوصل بطريق الكشف إلى المعارف العليا ، أو تذوق المعرفة تذوقا لا يستند إلى برهنة عقلية ، وهذا موجود عند الصوفية ^(١) .

وقد ذهب بعض الباحثين الأوروبيين إلى أنه مادامت كلمة "صوفية" مستمدة من كلمة "سوفيا" اليونانية فهذا دليل على أثر الفلسفة اليونانية في رجال الصوفية ، وأن هؤلاء إنما كانوا تلامذة للأفلاطونية الحديثة - وبخاصة - غنوصها العنيف الذي استتر فيه حين نقل إلى العالم الإسلامي في كل الغنوصيات الشرقية .. ^(٢) فدخل الغنوص دوائر النظريات الفلسفية في الإسلام وشاع في النظريات الصوفية ، وكان الغنوص سببا في ظهور علم الكلام والمتكلمين وخاصة المعتزلة ؛ ^(٣) بل وفي التفسير والحديث حسبما يرى الدكتور علي النشار ، ^(٤) وعبد الرحمن دمشقية ^(٥) . وفي هذا من المبالغات مالا يخفى ، إذ المعتزلة يعتمدون العقل أساس المعرفة ، بخلاف الغنوص الذي لا يستند على البرهان العقلي كما سبق .

ثانيا : الأفلاطونية الحديثة .

تعد الأفلاطونية الحديثة من أهم المصادر التي اقتبس منها الصوفية في نظرية الكشف والشهود، لأنها أتت بالنظريات الفلسفية كالمعرفة الإشرافية ، التي تلقي إلقاء في النفس عند تحررها وتطهرها من الكدورات ، والتاسع الخامس من تاسوعات أفلوطين ^(٦) يكفي دليلا

(١) أبو حامد الغزالي والتصوف ، ص ١٤٩

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٤٥/٣

(٣) الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص ٥

(٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٤٥/٣

(٥) أبو حامد الغزالي والتصوف ، ص ١٣٩

(٦) فيلسوف مصري متصوف ، حذق الفلسفة اليونانية والهندية ، ودان بالمسيحية ، وخلطها بالسحر والأساطير

والعقائد الوثنية (ت ٢٧٠ م) . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ١/ ١٨٢ .

على ذلك حيث يقول فيه : " النفس التي تضاء بنوره تظل بغير رؤية ، فإذا استنارت فإنها تحتوي على كل ما تنشده ، فترى الأسمى بالأسمى ، ترى الأسمى الذي هو في الوقت نفسه الذي تريد رؤيته ، كما أننا نرى الشمس بنور الشمس " (١) .

ويحكي لنا أفلوطين نفسه تجربته في الحصول على الاتحاد بينه وبين هذا الأسمى بقوله : " وقد حدث مرات عديدة أن ارتفعت خارج جسدي بحيث دخلت نفسي ، كنت حينئذ أحياء وأظفر باتحاد مع الله ، يجب أن أدخل في نفسي ، ومن هنا أستيقظ ، وبهذه اليقظة أتحذ بالله ، ويجب أن أحجب نفسي عن النور الخارجي لكي أحيأ وحدي في النور الباطن " (٢) .

يقول الدكتور النشار : " وصلت هذه الأفلوطينية الحديثة خلال كتاب " أثولوجيا أرسططاليس " كما هو معلوم الآن ومقرر في تاريخ الدراسات الفلسفية الإسلامية ، ولكن الجديد - هو أن كتاب أثولوجيا ، أوتاسوعات أفلوطين - لم تصل كما هي ؛ بل أثبت البحث العلمي أن كثيرا من الآراء الغنوصية الشرقية قد اختلطت بها ، وأثر هذا المزيج الغنوصي العجيب - غنوص الأفلاطونية الحديثة ، وغنوص المذاهب الإيرانية - في العالم الإسلامي ، وأثر بالتالي في الصوفية " (٣) .

ثم إن هناك كتابا آخر يعد أيضا من مؤلفات الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، عرفها المسلمون قبل انتهاء القرن الثالث الهجري ، وهو كتاب " الإيضاح في الخير المحض " ، وترجم من نسخته العربية إلى اللغة اللاتينية ، وعرف في هذه الترجمة باسم " كتاب العلل " الذي وضع عليه توما الاكوييني (ت ١٣٤٧ هـ) شرحه المشهور (٤) . ثم ظهرت الكتابات التي كتبها كاهن سوري مجهول الاسم من تلامذة " استيفن بارصديلي " من رجال القرن الخامس الميلادي ، وعنوان الكتابات " الله المقدس " ، والمعروف أنها ترجمت فور ظهورها إلى اللغة السريانية ، ثم إلى اللغة اللاتينية على يد " سكوتس أرجينا " ، وأنه لم ينته القرن

(١) الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٤٥/٣ - ٤٦ .

(٤) التصوف بين الحق والخلق ، محمد فخر شفقة ، ط ٣ تونس (الدار السلفية ١٩٨٣ م) ص ١٧ .

التاسع الميلادي - الثالث الهجري - حتى كانت معروفة في العالم النصراني من ضفاف دجلة إلى المحيط الأطلنطي ^(١) .

وهذه الكتابات تحمل في ثناياها أن طبيعة الإنسان والطبيعة الإلهية موجودتان في كل إنسان ، وأن الحياة الدنيا - حياة البدن - ليست سوى صورة من الحياة الإلهية العليا ، وأن مصير الإنسان إلى الله ، ولا وسيلة لمعرفة الله إلا بها.. وليس الحلول على هذه النظرية سوى صورة من صور اتحاد اللاهوت بالناسوت ، كل شيء فيض من الله أو تجل له ، وليس شوق الإنسان إلى الله إلا علامة حنين النفس إلى الرجوع إليه ، فإن كل شيء منه وإليه ^(٢) .

كانت هذه تعاليم الكنيسة الشرقية المتأثرة بالفلسفة اليونانية ، وكان لها صداها في الفكر الإنساني عامة ، وفي التصوف الإسلامي خاصة ، فليس كلام الصوفية في الفيض الإلهي والتجليات وقولهم في الله ﷻ أنه الأول والآخر والظاهر والباطن - بالمعنى الفلسفي - إلا صدى لبعض المعاني السالفة الذكر . ويضاف إلى ذلك ما أشار إليه أرسطو من أن سعادة الأنفس تتحقق بمقدار تخلصها من علائق البدن واستكمالها بواسطة الإدراكات الفعلية المجردة عن المحسوسات فيقول : " إن النفوس الإنسانية إذا استكملت قوتي العلم والعمل تشبهت بالإله ﷻ ، ووصلت إلى كمالها ، وإنما هذا التشبيه بقدر الطاقة يكون إما بحسب الاستعداد وإما بحسب الاجتهاد ، فإذا فارق البدن اتصل بالروحانيين وانخرط في سلك الملائكة المقربين ، ويتم له الالتذاذ والابتهاج ، وليس كل لذة فهي جسمانية ؛ فإن تلك اللذات لذات نفسانية عقلية ، وهذه اللذة الجسمانية تنتهي إلى حد ، ويعرض للملذ سامة وكلل وضعف وقصور إن تعدى عن الحد المحدود ، بخلاف اللذات العقلية فإنها حيثما ازدادت ازداد الشوق والحرص والعشق إليها " ^(٣) .

والخلاصة التي نخرج بها هي أن الأفكار اليونانية المتمثلة بالغنوصية والأفلاطونية الحديثة تعد من أهم مصادر الفكر الصوفي الفلسفي ، فهي شبيهة بما تفعله الصوفية من أنهم يتوصلون إلى المعرفة عن طريق الكشف والشهود . وأن تركيز فلاسفة اليونان على النفس وتركيتها بالمعرفة والإدراكات الفعلية والتهديب ، وتحليلتها عن الاتصاق مع العالم الخارجي

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٤٦/٣ .

(٢) التصوف بين الحق والخلق ، ص ١٨ .

(٣) الملل والنحل ، للشهرستاني ، تحقيق : عبد العزيز محمد الوكيل ، بيروت (دار الفكر) ٣٨٩/٢ .

حتى تستطيع التحرك باتجاه الكمال - حسب زعمهم - أمر يلتقون فيه مع الصوفيين إلى حد كبير وخاصة مع ما يسمونه بأصحاب التصوف الفلسفي .

٣- المصدر الثالث : اليهودية المحرفة .

إن ظاهرة طقوس العبادة والغلو وتحريف الكلام عن مواضعه من الظواهر التي تأثر فيها المتصوفة باليهودية المحرفة .

ولقد عنون صاحب كتاب " هذه هي الصوفية " عنوانا وسط كتابه قال فيه : " ذكر الصوفية بدعة يهودية " ثم قال : جاء في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة " ليتهج بنو صهيون . ملكهم ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرغوا .. هللوا يا سبحوا الله في قدسه ، سبحوه برباب وعود ، سبحوه بدف ورقص ، سبحوه بأوتار ومزمار ، سبحوه بوضوح الهتاف " . ثم قال المؤلف : وهكذا يذكر الصوفية ، وحسبك أن ترى حانة صوفية يذكرون بها لتشهد الصلة الوثيقة بين الذكر الصوفي والبدعة الجاهلية اليهودية ... (١) .

ثم إن " الغلو الشيعي وكثرة وضع الأحاديث الملفقة الداعية إلى تقديس الأئمة ، والقول بتناسخ الجزء الإلهي في علي ﷺ ، وتقديس أبناء الأئمة من بعده ، كان وراء ذلك كله أصابع يهودية في وقوع الغلو الذي أخذه بعض المتصوفة " (٢) .

فمبدأ تقديس المشايخ لدى بعض المتصوفة وتقديم كلامهم على النصوص الشرعية وقبول سلوكهم وإلزام المريد بذلك له جذوره اليهودية أيضا ، والمتمثلة في تقديس اليهود لأحبارهم تقديسا زائدا ، وتقديس كلامهم وتقديمه على كلام التوراة واعتباره مصدرا للتشريع ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية فقال ﷻ : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) .

وأما عن تحريف الكلام عن ظاهره فأوجه الشبه بين اليهود والصوفية واضحة لما يدعيه بعض المتصوفة على الإسلام من ظاهر وباطن ، أي أن هناك ما هو ظاهر من دين الله ﷻ وهو خطاب للعوام ، وباطن اختص الله ﷻ بفهمه المصطفين من عباده وهم المتصوفة

(١) هذه هي الصوفية ، لعبد الرحمن الوكيل، ط٤ بيروت (دار الكتب العلمية ١٩٨٤م) ص ١١٥ .

(٢) أبو حامد الغزالي والتصوف ، ١٤٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٣١) .

أهل الولاية والكشف .. وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه الذي هو السمة الغالبة على اليهود ، ^(١) فكما أن اليهود ادعوا أن للتوراة ظاهرا وباطنا فكذلك الصوفية المتأثرين باليهود جعلوا للقرآن ظاهرا وباطنا ، بل جعلوا لكل شيء ظاهرا وباطنا .

وهو دليل على أن بعض الصوفية قد استفادوا وتأثروا باليهودية .

٤- المصدر الرابع : النصرانية المحرفة .

تعد النصرانية المحرفة من أهم مصادر التصوف ، لأن بعض المتصوفة دعا بعضهم إلى الخلوات المظلمة والنفور من الناس ، والعزوف عن الزواج ، وتطهير الروح عن طريق تعذيب الجسد ، ولبس الصوف والخشن من الثياب عامة ، وتجويع النفس لتزكيتها ، والسياسة في البلاد .

قال أبو حامد الغزالي ^(٢) : إن طريق الوصول إلى الله ﷻ لا يتم إلا بالتزهد عن الشهوات والكف عن اللذات ، والتجرد لله في الحركات والسكنات ، ثم بدأ يثني على انفراد رهبان النصارى عن الخلق واعتزلهم في قمم الجبال بعيدا عن الخلق وطلبوا للأنس بالله ﷻ ، وذكر أن الله ﷻ أثنى عليهم لذلك بقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ^(٣) ، ^(٤) وكتابه الإحياء به الروايات المنسوبة إلى المسيح في التعبدات والأمثال والأحكام وهو شاهد على ذلك ، ودليل على الترابط بين التصوف والنصرانية ، وأن التصوف دخله من الدين المحرف شيء كثير .

كما أن مسألة الحلول من أخطر المسائل التي تأثر فيها المتصوفة بالنصرانية المحرفة

حيث قال بعض المتصوفة بالحلول بالمعنى النصراني كالحلاج الذي يقول :

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرا في صورة الأكل والشارب

(١) انظر : التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام ، عبد الكريم الخطيب ، ط ١ (دار الفكر العربي) ص ٢٨٥ .

(٢) هو محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي ، الشافعي ، الغزالي ، حجة الإسلام ، صاحب التصانيف ، والذكاء المفرط ، من آثاره : إحياء علوم الدين (ت ٥٠٥ هـ) انظر : سير أعلام ٣٢٢/١٩ .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٨٢) .

(٤) إحياء علوم الدين ٢٦٦/١ .

حتى لقد عاينه خلقه كلفظة الحاجب بالحاجب (١) .

ففي هذه الآيات إشارة إلى ثنائية الطبيعة الإنسانية : اللاهوت والناسوت ، وهما اصطلاحان أخذهما الحلاج عن النصارى السريان الذين استعملوها للدلالة على طبيعة المسيح .

قال نيكولسون : "من هنا نرى أنه كان امتدادا (نصرانيا) ضخما في الفلسفة الصوفية الإسلامية ، لأنه على الرغم من إيمانه بقدم النور المحمدي ؛ ذلك النور الذي انبثقت منه جميع أنوار النبوة إلا أنه يجد في عيسى - ﷺ - المثال الكامل لفلسفة الولاية الصوفية التي تسمو على درجة النبي في الأنبياء ، ولأنه يجد فيه الإنسان الذي وصل إلى مقام القربى فحل فيه روح الله ، ومن هنا أراد الحلاج أن يعيشه ويحياه ويتحقق بحقيقته ، فالوحدة التي يدعو إليها الحلاج - إذن - وحدة الشهود لا وحدة الوجود" (٢) .

وبذلك نفهم بأن الحلاج ذهب مذهب النصارى الذين يقولون بإمكانية حلول الله ﷻ في المخلوقات ، حتى وإن كان بين الحلاج والنصارى من اختلاف ؛ إذ كان النصارى يؤمنون بحلول خاص ، بينما الحلاج يؤمن بحلول عام .

٥- المصدر الخامس : المصدر الشيعي

ومما يدل على أن الشيعة مصدر من مصادر التصوف هو اتفاق الفريقين في مسائل وأمور منها :

أولا : مفهوم الولاية .

لقد عقد الدكتور إبراهيم هلال مبحثا بعنوان (مفهوم الولاية عند غلاة الصوفية وصلة ذلك بمفهوم الإمامة عند غلاة الشيعة) (٣) ثم ذكر بعد ذلك " أن الشيعة بهرهم تلك الكلمة وما تنطوي عليها من معنى له فعله السحر في نفوس الناس فأطلقوا أحيانا على أئمتهم ، وعلى كبار الدعاة فيهم ، ولو كانوا على ضد ما تحمل تلك الكلمة من معنى حسب الاطلاق اللغوي .. إلى أن قال : ولم يلبث إطلاقها بهذا المعنى المخالف في الشرع أن نشأ في الأوساط الصوفية أيضا " (٤) .

(١) الطواسين ، للحلاج ، نشرة ماسينيون ، ص ١٢٩ نقلا عن التصوف بين الحق والخلق ص ١٩ .

(٢) الصوفية في الإسلام لنيكولسون ، ص ١٤٠

(٣) ولاية الله والطريق إليها ، للدكتور إبراهيم هلال ، القاهرة (دار الكتب الحديثة) ص ٧٠

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٠

فكما تأثرت الشيعة بغيرهم فهم قد أثروا في بعض الصوفية بل إن غلاة الشيعة لهم تأثير في الصوفية ، يقول الدكتور كامل الشبي : " وجاء تيار شيعي آخر من الإسماعيلية خدم الولاية الصوفية وجرأها على الظهور وزادها ثقة بنفسها.. إلى أن يقول : وبذلك أسبغت الإسماعيلية الولاية على نقبائها وارتقت بهم من الإنسانية المادية إلى الروحانية ، فاستغل الصوفية هذه السانحة أيضا وطبقوها في مجتمعهم وصبوا في قلبها مثلهم .. " (١) .

فمفهوم الولاية عند الفريقين متقارب إن لم يكن متحدا مما يدل على وجود استفادة المتصوفة من الشيعة .

ثانيا : ادعاء العلوم الخاصة :

لقد زعم الشيعة وبعض الصوفية أن لديهم علوما خاصة ، يفسرون ذلك تارة بأن لديهم قرآنا خاصا ، أو تفسيرا باطنيا ، أو علما لدنيا (٢) . واستدل بذلك عبد الرحمن عبد الخالق بقول أبي يزيد البسطامي : " خضنا بحرا ووقف الأنبياء بساحله " . وقوله : " أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علما عن الحي الذي لا يموت " (٣) . ثم قال : وهكذا تطابق عقيدة التشيع مع معتقد المتصوفة في قضية العلم الباطني حتى لكأنهما شيء واحد " (٤) .

ثالثا : ادعاء أن للدين ظاهرا وباطنا :

اتفقت أيضا كلمة التصوف مع التشيع الذي أخذ فكرة الظاهر والباطن من اليهودية في أن للدين ظاهرا وباطنا ، وأن الظاهر للعوام وهو الشريعة عندهم ، وأن الباطن للخواص وهو الحقيقة عندهم ؛ بل زعموا أن الظاهر لا يلزم الأئمة ولا الأولياء لأنهم يتمتعون بالعلم اللدني " (٥) . وهذا قريب من المظهر السابق إلا أنه أخطر منه ، فالباطنية لم يصادفهم أي إشكال حين ادعوا الظاهر والباطن ، ولم يلتزموا بلغة ولا عرف ، وفسروا النصوص على حسب أهوائهم الفاسدة .

(١) الصلة بين التصوف والتشيع ، للدكتور كامل الشبي ، ص ٣٤٩

(٢) انظر : الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، ص ٣٩١-٣٩٢

(٣) الفتوحات المكية ١/ ٣٦٥ .

(٤) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، ص ٣٩٢-٣٩٣

(٥) نفسه ، ص ٣٩٧

٦- المصدر السادس : المصدر الإسلامي

أول من قال بأن مصدر التصوف إسلامي هم الصوفية أنفسهم ؛ وقد ذهب مذهبهم فريق من المسلمين الذين ليسوا بصوفية ولكنهم يناصرون الصوفية ويعطفون عليهم كثيرا أو قليلا ، فأولئك وهؤلاء يرون أن حياة النبي ﷺ وحياة أصحابه الكرام رضوان الله عليهم ، وأن الكتاب والسنة كل أولئك هو المصدر الحقيقي لكل ما تواضع عليه الزهاد والصوفية من قواعد الرياضة والمجاهدة .. وما انكشف لبصائرهم من أنوار الحقيقة في المشاهدة ^(١) .

فمن القرآن والسنة استمد الصوفية أول ما استمدوا آراءهم في الأخلاق والسلوك ، وفي رياضاتهم العملية التي اصطنعوها من أجل تحقيق مذهبهم في الحياة الصوفية . وقد بين ذلك أبو السراج الطوسي بأن للصوفية تخصيصا بمكارم الأخلاق ، والبحث عن معالي الأحوال وفضائل الأعمال اقتداء بالنبي ﷺ وصحابته الكرام ومن تبعهم ، وهذا كله - على حد تعبيره - " موجود علمه في كتاب الله ﷻ " ^(٢) وهم يدعمون هذا المذهب بأمرين :

الأمر الأول : ما أثر عن النبي ﷺ من زهد وتعبد ونسك ، وتوبة ومجاهدة وزهد وورع وصبر وتوكل وخوف ورجاء ومحبة وشوق ورغبة ورهبة وشكر وذكر وتواضع وإحسان ..

والأمر الثاني : هو ما يستندون إليه من بعض آيات القرآن الكريم ، وعبارات الحديث القدسي وغيره من الأحاديث النبوية .. إلا أن بعض المتصوفة قد استغلوا هذين المصدرين ، كما استغلها المتكلمون والفلاسفة والشيعة وغيرهم ، واستخدم الصوفية في فهمهما طرقا متنوعة من التأويل ، وقرؤوا في نصوصهما معاني جديدة لم يسبقوا إليها ، وحملوا هذه النصوص أحيانا مالا تحتل ليحذبوا إليها الناس البسطاء ، ثم راحوا يؤولونها حسب أهوائهم وأذواقهم ^(٣) .

وبعد أن عرضنا الآراء في هذا المبحث يمكننا أن نقول بأن التصوف خليط من مصادر مختلفة لاله من جذور هندية ، وفارسية ، ويونانية ، ويهودية ، ونصرانية ، وعربية

(١) انظر : الحياة الروحية في الإسلام ص ٢٦ - ٢٧ ، وأضواء على التصوف ، ص ٤٥

(٢) اللمع للطوسي ، ص ٣٢

(٣) انظر : التصوف بين الحق والخلق ص ١٤ .

جاهلية ، وإسلامية ... ويؤيد هذا ما يقوله نيكولسون بأن إرجاع التصوف إلى أصل واحد أو إلى مصدر واحد من العبث في مجال البحث ^(١) .

وهذا الرأي وجيه لوجود آثار المصادر المذكورة وبصماتها الواضحة لمن تأمل وتدبر فيها ، إذ لو أردنا أن نأخذ المصدر الهندي - مثلا - لوجدنا أن أثره ظاهر لبعض الصوفية ، لأن أبا يزيد البسطامي اعترف بأنه قد أخذ بعض أفكاره الصوفية عن أبي علي السندي ، ووحدة الوجود كما هو معروف برهمية المترع ، والفناء الصوفي هو النرفانا البوذية ، ورأينا أن هناك تشابها بين الفناء الصوفي والنرفانا البوذي ، وبين المجاهدات والرياضات وتعذيب النفوس طلبا للمعرفة عند الأديان الهندية والصوفية المنحرفة .

أما المصدر الفارسي فأثره واضح وموجود ، وعدد من شيوخ الصوفية في القرن الثالث الهجري كانوا من أصل فارسي كأبي يزيد البسطامي ، وأما المصدر اليوناني والغنوصي والأفلاطوني الحديث فكان الأثر بارزا في التيار الفلسفي الباطن ، أو كان شبيها بما يفعله بعض الصوفية من التوصل إلى المعرفة عن طريق الكشف والشهود .

ويقول نيكولسون : إن الزهد الإسلامي وليد عوامل إسلامية في صميمها ، أما التصوف فترجع نشأته إلى عوامل خارجية عن الإسلام ، ويكون في نظره من الأفلاطونية الحديثة .. وينتهي إلى القول بأن التصوف من ناحيته النظرية مأخوذ من الأفلاطونية الحديثة ، وأما من الناحية العملية فمتأثر بالفلسفة الهندية الفارسية ^(٢) .

ولعل هذا الرأي القائل بتعدد منابع ومصادر التصوف هو أرجح الآراء بعدما عرضنا أقوال الباحثين ، حيث برزت الأقوال للعيان ، وظهرت الدلائل على مسرح الأحداث وفي أرض المتصوفة ، وأثبتت المصادر المتعددة للتصوف ، وقرر عدد من الباحثين والكتاب على هذا الرأي ، حتى الصوفية أنفسهم يعترفون بوجود هذه المصادر ، أو ينتمون إلى أحد أصحابها ؛ مما يعطينا دليلا واضحا وتأكيدا صريحا على صحة تعدد المصادر.

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، مقدمة أبو العلا عفيفي ص : د .

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ص : ز .

المبحث الخامس

آثار التصوف

بناء على ما سبق من دراستنا من أن التصوف اسم غريب عن الإسلام ؛ وأنه ظهر تحت التأثيرات الخارجية أو تأثر بعوامل أجنبية وافدة إلى المجتمع الإسلامي ؛ وارتوى من مصادر مختلفة كالديانات الهندية الوثنية والأفكار اليونانية والأديان اليهودية والنصرانية المحرفة وما إلى ذلك فإنه ترك آثارا سيئة ، نذكر أهم هذه الآثار التي نشروها في الأمة الإسلامية مايلي :

١- انتشار الوثنية والشرك .

إن ظاهرة بناء المساجد على القبور وبناء القباب على قبور الأولياء منتشرة في العالم الإسلامي انتشارا واضحا ، وأن كثيرا من أفراد الأمة الإسلامية في الماضي والحاضر قد وقع في صرف عبادات لأصحاب هذه القباب المبنية على القبور حيث توجهوا إليهم بالدعاء والاستغاثة والندور ، فصرفوا العبادات لغير الله ﷻ ، فوقع بهذه الظاهرة كثير من الأمة الإسلامية في الشرك بالله ﷻ ؛ وهو من أكبر الكبائر التي حذرنا الله ﷻ ورسوله ﷺ من الوقوع فيها .

قال إدريس محمود : " والذي نشر هذه المشاهد الوثنية من بناء القباب والمساجد على القبور ، وصرف عبادات لأصحابها من دون الله هم المتصوفة في الماضي والحاضر ، فكل من يسير في عالمنا الإسلامي الواسع يجد دعاة التصوف منتشرين في العالم الإسلامي يأمرؤن الناس ببناء القباب على قبور من يسموهم أولياء ، ويأمرؤهم ببناء المساجد على قبور الأولياء ، ثم يأمرؤهم بالتوجه إلى أصحاب هذه القبور وطلب ما يحتاجونه منهم " (١) .

ثم أضاف قائلا : " ولذا ، فالصوفية هم دعاة الشرك في العالم الإسلامي ، وهم وراء كل انحراف عقدي وخاصة في توحيد الألوهية والربوبية ، وما وقع في الأمة الإسلامية من انحرافات عقدية بسبب المتصوفة ، وقد وصفه علماء الأمة الإسلامية في مختلف العصور ، وإليك جملة من أقوالهم " (٢) ، حيث استنكروا الوثنية والأعمال الشركية وحذروا منها .

(١) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ١٠٢٥/٣

(٢) المرجع نفسه ١٠٢٦/٣ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا انتشار الوثنية والشرك في العالم الإسلامي فيقول :
" ومن هؤلاء من يرى أن زيارة قبر النبي ﷺ أفضل من الحج والعمرة إلى الكعبة ، ودعاء النبي والاستغاثة به أفضل من الاستغاثة بالله تعالى ودعائه ، وكثير من هؤلاء يخربون المساجد ويعمرون المشاهد ، فتجد المسجد الذي بني للصلوات الخمس معطلا مخربا ليس له كسوة إلا من الناس ، وكأنه خان من الخانات ، والمشهد الذي يبنى على الميت عليه الستور وزينة الذهب والفضة والرخام ، والنذور تغدو وتروح إليه ، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله تعالى وآياته ورسوله وتعظيمهم للشرك فإنهم اعتقدوا أن دعاء الميت أنفع لهم من دعاء الله تعالى " (١) .

أما تلميذه ابن القيم فقد تحدث عن المفاصد التي وقعت بسبب الغلو في الصالحين وبناء القباب والمساجد على قبورهم ودعائهم من دون الله ، ورد عليهم ردا مقنعا وبيّن بطلان معتقداتهم في كتابه " إغاثة اللهفان " فقال : " ثم إن اتخاذ القبور أعيادا من المفاصد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله تعالى وغيره على التوحيد وتمجيد وتقبيل الشرك .

فمن مفاصدها اتخاذها أعيادا للصلاة إليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها ، وتعفير الخدود على تراجمها وعبادة أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية ، وقضاء الدين ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم " (٢) .

ومن العلماء الذين ذكروا انتشار الشراكيات والوثنيات في الأمة الإسلامية بسبب بناء القباب والمساجد على القبور الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي فقد قال رحمه الله :
" ولقد عمت البلوى بذلك في كل زمان ومكان حتى في هذه الأمة لا سيما زمننا هذا ، ما من قبر ولا بقعة يذكر لها شيء من الفضائل ولو كذبنا إلا قد اعتادوا الاختلاف إليها والتبرك بها ، حتى جعلوا لها أوقاتا معلومة يفوت عيدهم بفواتها ، ويرون من أعظم الخسارات أن يفوت الرجل ذلك العيد المعلوم ، وجعلوا لها طوافا معلوما كالطواف بالبيت الحرام ، وشرعوا تقبيلها كما يقبل الحجر الأسود ، وشرعوا لها نذورا من الفرش والنقود ،

(١) الرد على البكري لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٤٩ .

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ، تحقيق محمد حامد الفقي طبعة دار العرفة (بيروت) ١٩٥/١

ووقفوا عليها الوقوف من العقارات والحرث وغيرها ، وغير ذلك من شرائعهم الشيطانية وقواعدهم الوثنية " (١) .

٢- تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة العامة .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة العمر ، وهو من أهم الواجبات ، التي يترتب عليها صلاح المجتمع وسلامته ونجاته في الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى مبينا خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

وروى جرير بن عبد الله البجلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدر أن يغفروا عليه فلا يغفروا إلا أصابهم الله بعقاب من قبل أن يموتوا " (٤) .

وهذا الحديث يدل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى عقاب شامل من الله ﷻ لجميع الأمة .

ومع وضوح هذه الأدلة إلا أن " الصوفية غلوا في الأولياء فزعموا بأنهم فوق إنكار المنكر عليهم ، زاعمين بأنهم لا يقدمون على فعل أي شيء إلا بأمر الله لهم ، وذلك انطلاقاً من عقيدتهم بأن الأولياء يتلقون علوما خاصة بهم عن الله ، وأن الذي يحرم في نظر علم الشريعة قد يحل في نظر علم الحقيقة المزعوم ، ولذا حرموا على المريدين إنكار المنكر على مشائخهم مهما ارتكبوا من محرمات ، ومهما ضيعوا من فرائض الله ، وهذا الغلو كان له ولا زال إلى الآن الأثر السيئ في الأمة الإسلامية " (٥) .

واستشهد إدريس محمود بهذا المشهد من مواقف الصوفية الكثيرة نذكر منها فقال : " ومن المتصوفة الذين تكلموا عن الآداب التي يجب أن يتحلّى بها المريد تجاه شيخه : أبو

(١) معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد الحكيم ، طبعة المطبعة السلفية ومكتبتها ٤٧٥/١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٠٤) .

(٣) سورة المائدة ، الآيتان (٧٨ - ٧٩) .

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم ، باب الأمر والنهي ٥١١/٤ (ح ٤٣٣٩) .

(٥) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ١٠٤٩/٣ .

يزيد البسطامي فقد دعا هذا الشيخ الصوفي إلى أن يطيع المريد شيخه طاعة عمياء بحيث لا ينكر عليه منكرا بل حتى لو أمره بفعل المنكر فعليه أن ينفذ أوامره بلا توقف ولا استفسار ، وإليك كلامه الذي يدل على هذا فقد قال : " إذا أمر الأستاذ التلميذ أمرا من أمور الدنيا وبعثه في إصلاحه فيقيم مؤذن في بعض طرقاته على مسجد من المساجد فيقول : أدخل أولا المسجد وأصلي ثم أكون وراء ما بعثني إليه فقد وقع في بئر لا يتبين أسفلها يعني ليس لها قعر " .

ثم علق إدريس محمود على هذا الكلام فقال : " إذا نظرنا في كلام أبي يزيد البسطامي نرى أنه دعا إلى تقديم طاعة الشيخ على طاعة الله ، وهذا منكر لا يجوز ، فإن طاعة الله ورسوله مقدمة على طاعة أي أحد مهما كانت مكانته ، ثم إن دعوة أبي يزيد للمريد السير للحصول على غرض من أغراض الدنيا الذي أرسله إلى شيخه والصلاة تقام منكر عظيم ، والذي يهمننا من إيراد هذا الكلام عن أبي يزيد هو أن المتصوفة يرون بأن طاعة الشيوخ فوق كل شيء حتى وإن أدت هذه الطاعة إلى مخالفة أوامر الله وأوامر رسوله وهذا منكر عظيم وقعوا فيه بسبب غلوهم في تقديس مشائخهم " (١) .

وبذلك نقول : بأن المتصوفة يعتبرون طاعة المشائخ فوق طاعة الله ، وأنه لا يجوز أن يخالف لهم أمر حتى ولو أمروا بمعصية الله ، وهذا غلو زائد وتعطيل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣- انتشار الأذكار والأدعية والصلوات المبتدعة

لقد أثرت الأذكار والأدعية والصلوات المبتدعة على الأمة الإسلامية ، وخاصة على الذين انضموا إلى الطرق الصوفية واعتنقوها ، أو العامة الذين لا يميزون بين الحق والباطل ، فأصبحوا يتلون هذه الأذكار ليلا ونهارا وصباحا ومساء ، معرضين عن تلاوة كتاب الله ﷻ وذكر بما شرع في كتابه وسنة رسوله ﷺ .

قال محمد فهد شقفة : " لقد حض الإسلام على الدعاء وشجع على المأثور منه ونهى عن الاعتداء فيه ، والصوفية لم يتقيدوا بكل ذلك فراحوا يتدعون أدعية من عندهم ، فيها كثير من الغلو والشرك والحلول ، فيها دعاء غير الله " .

(١) المرجع السابق ١٠٦٦/٣ .

ومن أمثلتها ما يلي :

" إلهي استهلك كليتي في كليتك ، وامدد أوليتي بأوليتك ، حتى أشهد أوليتك في أوليتي ، وآخريتك في آخريتي ، وظاهريتك في ظاهريتي ، وباطنيتك في باطني ، وقابليتك في قابليتي ، وأنت في أمني ، وهوايتك في هويتي " (١) .

إذا نظرنا في هذا الدعاء نلاحظ أنه يحتوي على الطلب من الله ﷻ أن يحل في الإنسان ، وهذا دعاء باطل وكفر بالله ﷻ ، وذلك لأن من العقائد المسلم بها عند المسلمين أن الله ﷻ بائن عن خلقه ، ولا يمكن بأي صورة من الصور أن يحل في أي شيء من مخلوقاته .
ومن صلواتهم المبتدعة على الرسول ﷺ قولهم :

" اللهم صل على محمد الذي تجسد فيه الله ، اللهم صل على نفسك التي ظهرت وتظهر في صور الكائنات ، اللهم وأسألك بجميع ما تعلم لنفسك من لا يعلمه منك غيرك أن تنفعني يا ذا الجلال والإكرام ، فمن شهود تجليات ذاتك بالعين التي لا تحجب عنها شيء في الأرض ولا في السماء ، وأفض على جميع ذاتي لذة الشهود حتى أكون كلي لذة ذاتية إلهية سارية ، وتجلى لي يا إلهي بمقام الاستواء الجامع للمراتب الخفية الإلهية " .

إذا نظرنا في هذه الصلاة والدعاء نرى أنها تحتوي على ألفاظ تدل على عقائد الصوفية الباطلة .

من هذه الاعتقادات التي تحتوي عليها قول المتصوفة بأن الرسول ﷺ تجسد فيه الله ، ومعنى ذلك أنه هو الله وهذا كفر .

ومنها اعتقادهم بأن الله ﷻ يظهر في صور الكائنات ، وهذا هو القول بوحدة الوجود تماماً وهو إحاد بالله ﷻ .. وغير ذلك من العقائد الباطلة (٢) .

فمن خلال نماذج آثار التصوف المذكورة من انتشار الوثنية والشرك ، وتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع ، وانتشار الأذكار والأدعية والصلوات المبتدعة تؤكد لنا ما قلنا سابقاً من أن مصادر التصوف خليطة من مصادر مختلفة ، تحمل في ثناياها عقائد وأعمالاً لا تتفق مع تعاليم ديننا الحنيف ، كما تبين لنا بوضوح أن المتصوفة تركوا آثاراً

(١) التصوف بين الحق والخلق ص ١٦٦ .

(٢) انظر ك مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ١١٤٩/٣ .

سيئة على الأمة الإسلامية ، فلا بد أن ينتبه إليها المسلمون المخلصون الغيورون على دينهم وأمتهم ، وأن يقوموا بالرد عليهم والكشف عن بطلان معتقداتهم .

وأقول : يجب على العلماء المتمسكين بالكتاب والسنة أن يقاوموا الزحف الصوفي بنشر العقيدة الصحيحة المأخوذة من الكتاب والسنة ، والقضاء على المظاهر التي تكون سببا في انتشار الشرك والوثنية ، والبدع والغلو في الدين ، وترك السعي والعمل ، ويجب على أهل العلم أيضا أن يبينوا للناس تعاليم الإسلام السمحة ، ويوضحوا لهم بأن لا يتركوا الدنيا نهائيا ؛ بل عليهم أن يكدوا ويعملوا ما في وسعهم حتى يقدرُوا على مواجهة الدنيا بما فيها ، ولا يتركوها لأعداء الله ﷻ وأعداء الأمة الإسلامية .

الفصل الثاني

مراحل تطور التصوف حتى نهاية القرن الثالث الهجري وتحتة أربعة مباحث :

المبحث الأول : الزهد في المفهوم الشرعي وصلته بالتصوف

المبحث الثاني : خاصية تصوف القرن الثالث الهجري

المبحث الثالث : ظهور التدوين في التصوف في القرن الثالث الهجري

المبحث الرابع : أهم رجال التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

المبحث الأول

الزهد في المفهوم الشرعي وصلته بالتصوف

أولاً : مفهوم الزهد لغة واصطلاحاً

الزهد في اللغة : زَهَدَ فيه وعنه زُهْدًا وزهادهً : أعرض عنه ، وتركه لاحتقاره أو لتحرجه منه ، أو لقلته . وزُهْدٌ في الشيء رغب عنه ، ويقال : زهد في الدنيا : ترك حلالها مخافة حسابه ، وترك حرامها مخافة عقابه .

وَتَزَهَّدَ : صار زاهداً . والزاهد : هو العابد ، جمعه زُهْدٌ وزُهَّادٌ . والزهادة في الشيء : خلاف الرغبة فيه ، والرضا باليسير مما يتعين حله ، وترك الزائد على ذلك لله تعالى ، وكذا الزهد بمعنى الزهادة ^(١) .

والزهد في الاصطلاح : قيل : هو بغض الدنيا والإعراض عنها . وقيل : هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة . وقيل : هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك ^(٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " الزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة ، وثقة القلب بما عند الله ، كما في الحديث الذي في الترمذي ، ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك ^(٣) ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لِكَيْلَا لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ^(٤) فهذا صفة القلب .

وأما في الظاهر فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك ، كما قال الإمام أحمد : إنما طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وصبر أيام قلائل " ^(٥) .

(١) القاموس المحيط، لفيروز آبادي ٣٠٨/١ ، ولسان العرب ، لابن منظور ١٩٦/٣-١٩٧ ، والمعجم الوسيط ، للدكتور إبراهيم أنيس وآخرون ٤٠٤/١ .

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١١٥ .

(٣) أخرجه الترمذي بلفظ آخر في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا ٥٧١/٤ (ح ٢٣٤٠) وأورده الألباني في ضعيف الترمذي (٤٠٥) ، وفي ضعيف ابن ماجة (٨٩٣) .

(٤) سورة الحديد ، الآية (٢٣) .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦٤١/١٠-٦٤٢ .

وقال ابن الجوزي : هو عبارة عن انصراف الرغبة من الشيء إلى ما هو خير منه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً بوجه من الوجوه ، فمن رغب عن شيء وليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه لم يُسمَّ زاهداً ؛ كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً ، وإنه ليس الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء واستمالة القلوب فحسب ؛ بل الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاة الآخرة ^(١) .

وقال ابن القيم : " والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا ، وأخذه في منازل الآخرة ، وعلى هذا صنف المتقدمون كتباً ^(٢) في الزهد " ^(٣) .

ثانياً : أقسام الزهد ومراتبه وحكمه

لقد قسم الإمام ابن القيم الزهد - باعتبار مراتبه - فيقول : الزهد أقسام : زهد في الحرام وهو فرض عين . وزهد في الشبهات ، وهو بحسب مراتب الشبهة ، فإن قويت التحق بالواجب ، وإن ضعفت كان مستحباً . وزهد في الفضول ، وفيما لا يعنى من الكلام ، والنظر والسؤال واللقاء وغيره . وزهد في النفس بحيث تهون عليه نفسه في الله ﷻ . وزهد جامع لذلك كله ، وهو الزهد فيما سوى الله ﷻ ، وفي كل ما يشغله عنه . وأفضل الزهد إخفاؤه ، وأصعبه الزهد في الحظوظ ^(٤) .

وقسمه ابن القيم - مرة أخرى - باعتبار حكمه ، وخلاصته ما يلي :

فرض على كل مسلم ، وهو الزهد في الحرام ، وهذا متى أحل به انعقد سبب العقاب .. وزهد مستحب ، وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه ؛ وهو الزهد في المكروه ، وفضول المباحات ، والتفنن في الشهوات المباحة . وزهد الداخلين في هذا الشأن ، وهم المشمرون إلى الله ﷻ وهو نوعان :

النوع الأول : الزهد في الدنيا جملة ، وليس المراد تخليها من اليد ، ولا إخراجها ، وعوده صفراً منها ؛ وإنما إخراجها من قلبه بالكلية ، فلا يلتفت إليها ، ولا يدعها تساكُن قلبه وإن كانت في يده . فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك ، وإنما الزهد

(١) انظر : مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد الله الليث الأنصاري، ط ١ بيروت، (دار المعرفة ١٤٠٩هـ) ص ٣٠٨ بتصرف .

(٢) كالزهد لعبد الله بن المبارك ، ولأحمد بن حنبل ، ولوكيع بن الجراح ، ولهناد بن السري ولغيرهم .

(٣) مدارج السالكين ١٥/٢ .

(٤) الفوائد لابن القيم ، تحقيق بشير محمد عون ، ط ١ دمشق (مكتبة دار البيان ١٤٠٧هـ) ص ٢١٥ .

أن تتركها من قلبك وهي في يدك . وهذا كحال الخلفاء الراشدين ، وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل ، مع أن خزائن الأموال تحت يده ، بل كحال سيد ولد آدم محمد ﷺ حين فتح الله ﷻ عليه من الدنيا ما فتح ولا يزيده ذلك إلا زهدا فيها ^(١) .

والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء :

أحدها : علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر ، وأنها كما قال الله ﷻ فيها : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ^(٢) . وسماها ﷻ " متاع الغرور " ونهى عن الاغترار بها ، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين ، وحذرنا عن مثل مصارعهم ، وذم من رضي بها واطمأن إليها . ثم قال ابن القيم : فما اغتر بها وسكن إليها إلا ذوهمة دنية ، وعقل حقير وقدر خسيس .

ثانيها : علمه أن وراءها دارا أعظم منها قدرا وأجل خطرا وهي دار البقاء ، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ : " ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فليَنظر بم يرجع " ^(٣) . فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له : اطرحه فلك عوضه مائة دينار مثلا ، فألقاه من يده رجاء ذلك العوض ، فالزهد فيها لكمال رغبته فيما هو أعظم منها زهد فيها .

ثالثها : معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئا كتب له منها ، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها ، فمتى تيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها ، فإنه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمونه فيها سيأتيه بقي حرصه وتعبه وكده ضائعا ، والعامل لا يرضى لنفسه بذلك ، فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها ، وتثبت قدمه في مقامه ^(٤) .

(١) انظر : طريق المحترين وباب السعادتين ، لابن القيم ، تحقيق أبو الزهراء حازم القاضي ط ١ ، مكة المكرمة

(مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤١٥هـ) ص ٣٢٨-٣٣٠ .

(٢) سورة الحديد ، الآية (٢٠) .

(٣) أخرجه مسلم ، في كتاب الجنة ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، ٢١٩٣/٤ (ح ٢٨٥٨)

و ابن حبان ، ١٧٣/١٠ (ح ٤٣٣٠) .

(٤) مختصر من طريق المحترين ، ص ٣٣٠-٣٣١ .

والنوع الثاني : الزهد في نفسك - وهو نوع من زهد المشمرين في السير إلى الله ﷻ - ، وهو أصعب الأقسام وأشقها ، وأكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يلجوه ، فإن الزاهد يسهل عليه الزهد في الحرام لسوء مغبته ، وقبح ثمرته ، وحماية لدينه وصيانة لإيمانه .. ويسهل عليه الزهد في المكروهات ، وفضول المباحات لعلمه بما يفوته بإيثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم^(١) .

ثم بين ابن القيم بأن الزهد في النفس نوعان :

أحدهما : وسيلة وبداية ، وهو أن تميّتها فلا يبقى لها عندك من القدر شيء ، فلا تغضب لها ولا ترضى لها ولا تنتصر لها ولا تنتقم لها ، قد سبّلت عرضها ليوم فقرها وفاققتها فهي أهون عليك من أن تنتصر لها أو تنتقم لها أو تجهيها إذا دعتك ، أو تكرمها إذا عصتك ، أو تغضب لها إذا ذمت ، بل عندك أحسن مما قيل فيها ..

والنوع الثاني : غاية وكمال ، وهو أن يبذلها للمحبوب جملة ، بحيث لا يستبقى منها شيئا ..^(٢) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " إن الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع ، فإن اشتغل بها عن فعل واجب أو فعل محرم كان عاصيا ، وإلا كان منقوصا عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين " ^(٣) .

ولا شك أن القارئ لو أمعن في النظر وتأمل في النصوص القرآنية المستفيضة لوجد أن القرآن العظيم قد نهج وسلك طرقا عديدة في توجيهه وإرشاده للبشرية إلى الزهد وعدم الانهماك في هذه الحياة ، والإعداد للدار الآخرة .

فقد صور الحياة الدنيا بزخرفها وسرعة فنائها ، وحذر منها كي لا يغتر الإنسان بها فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾^(٤) وقال ﷻ أيضا : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ

(١) طريق المحجرتين ، ص ٣٣١ .

(٢) انظر : المرجع نفسه ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٣) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢١/١٠ .

(٤) سورة لقمان ، الآية (٣٣) .

وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١﴾ .

ووجهه إلى عدم الانشغال بمتعها وزينتها فقال ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢) لأن العمل الصالح خير من ذلك كله فقال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٣) . والحياة الدنيا دار عمل وابتلاء واختبار فقال ﷺ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٤) . والدنيا تافهة بجوار الآخرة فقال ﷺ : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ (٥)

وأما عن بيان آثار الزهد في الدار الآخرة فقد صور القرآن الكريم الحياة في الجنة بما فيها من أنواع النعيم ، وجعل الجزاء الأوفى لمن استقام على الصراط المستقيم فقال ﷺ : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴾ (٦) . ووصفها بصفة رائعة كقوله ﷺ : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ (٧) ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . وَتَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَارٌ بِيَ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (٨) ولهذا يدعى المسلمون بالدخول إلى الجنة فيقال لهم : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ . يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٩) .

وكما صور الجنة وأنواع النعيم والحياة فيها من باب الترغيب صور كذلك النار وخوف بها المعرضين عن ذكر الله المتولين عن هديه من باب التهيب ، فقال ﷺ آمرا

(١) سورة الحديد ، الآية (٢٠) .

(٢) سورة المنافقون ، الآية (٩) .

(٣) سورة الكهف ، الآية (٤٦) .

(٤) سورة الملك ، الآية (٢) .

(٥) سورة الرعد ، الآية (٢٦) .

(٦) سورة ق ، الآيتان (٣١ - ٣٢)

(٧) سورة محمد ، الآية (١٥) .

(٨) سورة الغاشية ، الآيات (١٣ - ١٦)

(٩) سورة الزخرف ، الآيتان (٧٠ - ٧١)

المؤمنين أن ينقذوا أنفسهم وأهلهم منها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ^(١) . لأنها مثوى كثير من الجن والإنس قال ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ ﴾ ^(٢) .

كما دعا القرآن الكريم إلى العبادة ، والتبتل ، وقيام الليل ، فقال ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ ^(٣) .

وامتدح القائمين العابدين فقال ﷺ : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ^(٤) . وقال ﷺ : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥) .

ورفع القرآن الكريم من شأن العابدين الذاكرين ترغيباً لهم في العبادة ، والذكر المتواصل ، وحسن التوكل ، وتلاوة القرآن ، والإقتداء بالرسول ﷺ ، فقال ﷺ : ﴿ ..وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(٦) . وقال ﷺ : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ^(٧) . ودعا الرسول ﷺ إلى الذكر والاستغفار فقال ﷺ : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ

(١) سورة التحريم ، الآية (٦)

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٧٩)

(٣) سورة المزمل ، الآيات (١-٨)

(٤) سورة الذاريات ، الآيتان (١٧-١٨)

(٥) سورة التوبة ، الآية (١١٢)

(٦) سورة الأحزاب ، الآية (٣٥)

(٧) سورة آل عمران ، الآية (١٩١)

هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ۝^(١) . والذكر طمأنينة للقلب وعلاج ، ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝^(٢) . وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝^(٣) . وفي حسن التوكل قال الله ﷻ : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝^(٤) .

أما الأحاديث الواردة في الزهد فكثيرة أيضا ، حيث كانت حياة الرسول ﷺ مثلا حيا وصورة مطابقة للقرآن الكريم ، فكان ﷺ يلبس من الثياب ما وجد وما تيسر له ، ولقد شهدته عمر بن الخطاب ﷺ يضطجع على حصير أثر في جنبه ، فعرض عليه أن يتخذ له وطاءً ، فقال له ﷺ : « مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »^(٥) . وكان ﷺ يطوي الأيام الطوال دون أن يوقد في بيته نار ، فكان طعامه التمر والماء^(٦) ، وخرج من الدنيا - ﷺ - ولم يشبع من خبز الشعير^(٧) .

وتجلى دعوته ﷺ إلى الزهد في أحاديثه الشريفة التي تلتقي في منهجها بالقرآن الكريم .

فهو - ﷺ - يصور ضلالة الدنيا وتفاهتها ، ويدعو إلى عدم الانهماك بها ، فهي ليست دار قرار إذ « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء »^(٨) . وهي شيء قليل جدا في الآخرة ، فيقول ﷺ موضحا لذلك : « ما الدنيا في الآخرة إلا

(١) سورة الكهف ، الآية (٢٨)

(٢) سورة الرعد ، الآية (٢٨)

(٣) سورة النساء ، الآية (١١٠)

(٤) سورة التغابن ، الآية (١٣)

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، باب ما جاء في أخذ المال ٥٨٨ / ٤ (ح ٢٣٧٧) وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٣٨) ، وصحيح الترمذي له (١٩٣٦) .

(٦) أخرجه مسلم ، في كتاب الزهد والرقائق ، ٢٢٨٢ / ٤ (٢٩٧٢) .

(٧) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الأطعمة ، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون ، ٦٨٩ / ١٠ (ح ٥٤١٤) . ومسلم في كتاب الزهد والرقائق ٢٢٨٢ / ٤ (ح ٢٩٧٠) .

(٨) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ ٥٦٠ / ٤ (٢٣٢٠) . وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٨٦) و (٩٤٣) ، وصحيح الترمذي له (١٨٨٩) .

مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع^(١) ، وأن « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى ، وما والاه ، وعالم أومتعلم^(٢) .

ويصور ﷺ أوصافا للجنة للترغيب فيها ، و الإعداد لها ، كما يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ : « قال الله : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر..^(٣) . وهي حياة خالدة لا موت فيها ، وصحة وشباب ونعمة ، لا سقم ولا هرم ولا بأس معها قط ، إذ ينادي المنادي يا أهل الجنة « أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا^(٤) .

ويصف النار - كذلك - للتخويف منها فيقول ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها^(٥) . ويوضح ﷺ حال المعذبين فيقول : « منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته^(٦) » ويقول أيضا : « وإن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان^(٧) من نار يغلي منهما دماغه ، كما يغلي الرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا^(٨) .

أما إذا انتقلنا إلى أحوال الجيل الأول من المسلمين فلقد رأينا فيهم انعكاس تعاليم القرآن العظيم ، وأقوال الرسول الكريم ﷺ وحياته ، فكانوا - في الحقيقة - صورة مشرقة للحياة الإسلامية المثالية في ابتغائهم الدار الآخرة ، مع قيامهم بأمور الحياة الدنيوية .

(١) سبق تخريجه ص ٦٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، ٥٦١/٤ (ح ٢٣٢٢) وقال : هذا حديث حسن غريب . وابن ماجه (٤١١٢) ، وأورده الألباني في صحيح الترمذي (١٨٩١) .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب بدء الخلق ، باب ماجاء في صفة الجنة وأهلها مخلوقة ، ٤٦٥/٦ (ح ٣٢٤٤) .

(٤) أخرجه مسلم ، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب في صفات الجنة ، ٢١٨٢/٤ (ح ٢٨٣٧) .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب في شدة حر نار جهنم ٢١٨٢/٤ (ح ٢٨٤٢) ، والترمذي في كتاب صفة جهنم ، باب ما جاء في صفة النار ٦٠٤/٤ (ح ٢٥٧٣) .

(٦) أخرجه مسلم ، في كتاب الجنة ، باب في شدة حر نار جهنم .. ٢١٨٥/٤ (ح ٢٨٤٥) .

(٧) الشراك : أحد سيور النعل ، وهو الذي يكون على وجهها وعلى ظهر القدم .

(٨) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب أهون أهل النار عذابا ١٩٦/١ (ح ٢١٣) .

فهذا الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان غنيا ، فاستعمل ماله في سبيل نشر الإسلام ، وحين توفي - رضي الله عنه - لم يبق على غناه درهم واحد ^(١) ، لأنه أمر أن يرد ما عنده إلى بيت مال المسلمين ، وقد أدهش عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تشدد الصديق على نفسه والتزامه بالمنهج الدقيق ، وخاصة وأنه كان ضمن ما رده إلى بيت المال عند موته قطعة من القطيفة ، التي لا تساوي خمسة دراهم فقال عمر رضي الله عنه : "رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده ، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده " ^(٢) .

فأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - خير من فهم وطبق الزهد ، حيث كان ثريا فاستخدم ثرواته في سبيل إعزاز دين الله ، وكان معروفا بالتجارة فأخذ ينفق منها ^(٣) ، وحين ولي الخلافة أراد الاستمرار في كسب المعيشة عن طريق التجارة لإطعام عياله ^(٤) ، حتى فُناه عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهما - عن مزاوله تجارته لتوليته أمر المسلمين " وفرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم " ^(٥) . ولما جاء إليه زعماء العرب وملوك اليمن " وعليهم الحلل ، وبرد الوشي الثقيل بالذهب ، والتيجان والحبرة ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم " ^(٦) .

وأما الخليفة الثاني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد ضرب المثل الأعلى في العدل ، وكانت حياته على الكفاف ، وعرف بخشونة طعامه ، حتى إنه كان يأبى أن يأكل لحما بسمن ، ولا أن يشرب عسلا ، ولا أن يجمع إدامين ، وكان له ثوب واحد فيه اثنتا عشرة رقعة ، وكان يغسله بيده ^(٧) . ولم يستحل لنفسه من بيت مال المسلمين إلا بقدر الحاجة ، بالرغم من اتساع رقعة بلاد الإسلام في عهده ، وما تبعه من وفرة الغنائم ، وكان يحذر

(١) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢١٣/٣ .

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل ، ط ٢ بيروت (دار الكتب العلمية ١٤١٤ هـ) ص ١٣٧ ، والطبقات الكبرى ٣ / ١٩٦ .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى ٣ / ١٨٤ .

(٤) انظر : المصدر السابق ٣ / ١٨٤ - ١٨٥ .

(٥) تاريخ الطبري ، أبو جعفر الطبري ، ط ٢ القاهرة ، دار المعارف ٥٤/٣ .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٥ بيروت (دار الفكر ١٣٩٣ هـ) ٣٠٥/٢ .

(٧) انظر : الطبقات الكبرى ٣ / ٣١٣ ، ٣٢٨ ، وصفة الصفوة لابن الجوزي ، طبعة الهند (١٣٨٨ هـ) ١٠٨/١ .

المسلمين من ارتداء زي الأعاجم والتشبه بهم في النعيم ، فلم يكن الزهد عنده - ﷺ - مجرد سلوك عملي فحسب ؛ بل يشمل النظرة والتأمل في أمور الدنيا والآخرة حيث يقول : " نظرت في هذا الأمر فجعلت إذا أردت الدنيا أضرت بالآخرة ، وإذا أردت الآخرة أضرت بالدنيا " (١) .

وكان يصاحبه الخوف الشديد من ربه ﷻ ، حتى يتمنى أنه لم يولد وأنه كان نسيا منسيا (٢) ، فقد كان يخاطره هذا الشعور فمنعه النوم لأنه لو نام بالنهار لحيل إليه أنه سيضيع الرعية ، وإن نام بالليل أضاع نفسه عن الصلاة (٣) ، وكان يحب الصلاة في جوف الليل ، وحاسب نفسه في الدنيا قبل محاسبتها يوم القيامة .

والخليفة الثالث عثمان بن عفان - ﷺ - كذلك يأكل على غناه الخل والزيت ، ويطعم الناس طعام الإمارة ، وشهده الحسن يقيم في المسجد وهو يومئذ خليفة ، ويقوم وأثر الحصباء في جنبه ، وهو يقبل على العبادة قائما آناء الليل خائفا من المصير في الدار الآخرة ، راجيا رحمة الله ورضاه ، كما قال الله ﷻ : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (٤) . وقد فسر ابن عمر بأن المقصود بهذه الآية هو عثمان بن عفان - ﷺ - وأرضاه (٥) .

أما الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ﷺ فزاهد - أيضا - في الدنيا ، مقبل على الآخرة وقد قال : " ألا إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد دنت مقبلة ، ولهذه أبناء ، ولهذه أبناء ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا وكونوا من الزاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة .. " (٦) . ووصف الدنيا أيضا بأنها " دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود ، فيها مسجد أحباء الله ، ومهبط وحيه ، ومصلى ملائكته .. " (٧) . وقال أيضا : " إن أخوف ما أخاف عليكم اثنين طول

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) صفة الصفوة ١/ ١٠٩ .

(٣) انظر : الزهد لأحمد بن حنبل ص ١٥٢ .

(٤) سورة الزمر ، الآية (٩)

(٥) صفة الصفوة ١/ ١١٦ .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ٤٣٢/٢ .

(٧) الزهد لأحمد بن حنبل ص ١٢٢ .

الأمّل واتّباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتّباع الهوى فيصد عن الحق " (١) . ولكنه - ﷺ - لم يأمر بالانقطاع والعزلة ، وحياة الرهينة ، لأنه هو القدوة في ميدان الشجاعة والفروسية ، وقد كان الرسول ﷺ يبعثه ويعطيه الراية فلا ينصرف حتى يفتح له (٢) .

وحذيفة بن اليمان - ﷺ - كان يكتفي بما هو ضروري من مطالب الدنيا دون أن يهجرها ، وقد قال : " ليس خيركم الذين يتركون الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم الذين يتناولون من كل منهما " (٣) وهو مع حضه على أخذ النصيب من الدنيا كان يخاف الميل إلى الهوى والشهوات ، لأنها لذات آنية تعقبها الآلام في المستقبل القريب ، وكان يقول في ذلك محذراً الراغبين في الشهوات : " كم من شهوة ساعة أورثت صاحبها حزناً طويلاً " (٤) .

وأبو الدرداء - ﷺ - كتب إلى بعض إخوانه فقال أما بعد : " فإني أوصيك بتقوى الله ، والزهد في الدنيا ، والرغبة فيما عند الله ، فإنك إن فعلت ذلك أحبك الله لرغبتك فيما عنده ، وأحبك الناس لتركتك لهم دنياهم والسلام " (٥) .

فالصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا في الحقيقة مجاهدين في سبيل الله ﷻ ، أقبلت عليهم الدنيا فلم يغتروا بها ؛ بل زهدوا فيها ، واجتهدوا في العبادة والتقرب إلى الله ﷻ ، راغبين في فضله وجنته ، فقد اتصل زهدهم بتوجيه من رسول الله ﷺ ، وخاصة أنه - ﷺ - كان يعيش بين ظهرائهم ، وهو يحثهم على الزهد ، كما ورد عن سهل بن سعد الساعدي - ﷺ - قال : أتى النبي - ﷺ - رجل فقال : يا رسول الله دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبي الناس ، فقال رسول الله ﷺ : " ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما أيدي الناس يحبوك " (٦) .

(١) حلية الأولياء ١/١١٧ .

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل ص ١٦٦ .

(٣) سبق تخريجه في ص ٣٣ .

(٤) اللمع للطوسي ص ١٨٩ .

(٥) شعب الإيمان للبيهقي ٣٨١/٧ .

(٦) رواه ابن ماجه في باب الزهد في الدنيا ، (ح ٤١٠٢) وصححه الألباني ، صحيح ابن ماجه (٣٣١٠)

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة " (١) .

وعن عمرو بن عوف الأنصاري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - إلى البحرين يأتي بجزيتهما ، وكان رسول الله ﷺ - هو صالح أهل البحرين ، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدومه ، فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ - ، فلما انصرف تعرضوا له ، فتبسم رسول الله ﷺ - حين رأيهم وقال : " أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة ، وأنه جاء بشيء ، قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم " (٢) .

ولا شك أن مثل هذه التوجيهات هي من الدوافع القوية التي دفعت الزهاد والصوفية المتقدمين في القرنين الثاني والثالث الهجريين إلى الزهد في الدنيا ، والعمل من أجل الآخرة .
فهذا الزاهد الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) قال لأmir المؤمنين عمر بن عبد العزيز :
" .. إن رأس ما هو مصلحك ، ومصلح به على يدك الزهد في الدنيا " (٣) . وأوضح بأن الزهد في الدنيا ليس بتحريم الحلال ، وإضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إن أصبت بما أرغب منك فيها لو لم تصبك (٤) .

(١) أخرجه ابن ماجه في باب زيارة القبور ، (ح ١٥٧٠) واللفظ له ، وفي الزوائد إسناده حسن . وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (١٥٩٣) ، وفي مشكاة المصابيح (١٧٦٩) ، وأحكام الجنائز (١٨٠) ثم قال : وقد صح في أحاديث أخر دون جملة التزهيد ، انظر : " الصحيح " برقم (٤٨ - باب) .

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الرقاق ، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٢١/١٣ واللفظ له (ح ٦٤٢٥) . ومسلم في كتاب الزهد والرقائق ٢٢٧٣/٤ (ح ٢٩٦١) .

(٣) سيرة عمر بن عبدالعزيز ، لابن الجوزي ، طبعة بيروت ، دار الفكر ص ١٢٤ .

(٤) مدارج السالكين ١٦/٢ ، وبصائر ذوي التمييز ١٤٠/٣ .

وبين سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) الزهد في الدنيا بأنه " الزهد في الناس وأوله زهدك في نفسك " ، وفسره أيضا بقصر الأمل ، بمعنى أن يكف الإنسان نفسه عن الخوض في مشاغل الدنيا والاستغناء عنها . وسئل أيضا عن الزهد فقال بأنه سقوط المترلة ^(١) .

وقال عبد الله بن المبارك ^(٢) (ت ١٨١هـ) : الزهد هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر ، وقيل للفضيل بن عياض ^(٣) (ت ١٨٧هـ) : ما الزهد ؟ قال : القنع وهو الغنى ^(٤) . وقال علي بن فضيل بن عياض (ت ١٨٦هـ) سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبُلْغَة ؟ ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام كيف ذا ؟ قال ابن المبارك : يا أبا علي إنما أفعل لأصون به وجهي ، وأكرم به عرضي ، وأستعين به على طاعة ربي ، لا أرى لله حقا إلا سارعت إليه حتى أقوم به ، فقال له الفضيل : يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا " ^(٥) .

وأما عند سفيان بن عيينة ^(٦) (ت ١٩٨هـ) فالزهد هو " الصبر وارتقاب الموت " ^(٧) . ويفصل المعنى فيجعله فضلا عن الصبر وشكرا ، ويقول حين سئل عن الزهد في الدنيا : " من أنعم الله عليه نعمة فشكرها ، وابتلي بلية فصبر ، فذلك الزهد " ^(٨) . ويوضح معنى الزهد أيضا فيقول : الزهد فيما حرم الله ، فأما ما أحل الله فقد أبان حكمه الله ، فإن النبيين قد نكحوا وركبوا وأكلوا ، ولكن الله نهاهم عن شيء فانتهاوا عنه ، وكانوا به زهادا . فالزاهد من جانب الحرام وأخذ من حلال هذه الدنيا ومباحه ، لكن

(١) حلية الأولياء ١٦/٧ .

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح ، شيخ الإسلام ، عالم زمانه ، وأمير الأتقياء في وقته ، أبو عبد الرحمن الحنظلي ، مولاهم التركي ، ثم المروزي ، الحافظ الغازي . انظر : سير أعلام ٣٧٨/٨ - ٣٧٩ .

(٣) هو أبو علي ، الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ، الإمام القدوة الثبت ، من كبار العباد الصالحين ، مات بمكة المكرمة .. انظر : سير أعلام ٤٢١/٨ - ٤٢٢ .

(٤) حلية الأولياء ٩٤/٨ .

(٥) تاريخ بغداد ١٦٠/١٠ .

(٦) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون ، الإمام الكبير حافظ العصر ، أبو محمد الهلالي الكوفي ، ثم المكي (ت ١٩٨هـ) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨ ، وحلية الأولياء ٣٢٠/٧ .

(٧) حلية الأولياء ٣٢٢/٧ .

(٨) المصدر السابق ٣٢٢/٧ .

يوسف بن أسباط ^(١) لا يرى من انقطع عن الحرام زاهدا ، ويرى فيما أحل الله لأن ما حرم الله يعذب مرتكبه ^(٢) .

ورأى أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥ هـ) أن الزهد معان مجتمعة رآها البعض متفرقة فيقول : " اختلفوا علينا في الزهد بالعراق ، فمنهم من قال : الزهد في ترك لقاء الناس ، ومنهم من قال : في ترك الشهوات ، ومنهم من قال : في ترك الشبع ، وكلامهم قريب بعضه من بعض ، وأنا أذهب إلى أن الزهد في ترك ما يشغلك عن الله " ^(٣) . ولكنه بين بأن الزاهد حقا لا يذم الدنيا ، ولا يمدحها ، ولا ينظر إليها ، ولا يفرح إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت ^(٤) . وليس من ألقى غم الدنيا واستراح منها .. وإنما الزاهد من ألقى غمها وتعب فيها لآخرته .

وقال الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) : سمعت سريا يقول : إن الله ﷻ سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفیائه ، وأخرجها من قلوب أهل وداده ، لأنه لم يرضها لهم ، وقال : الزهد في قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ^(٥) . فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ، ولا يأسف منها على مفقود . وحينما سأل رويم بن أحمد الجنيد عن الزهد ؟ فقال : استصغار الدنيا ، ومحو آثارها من القلب ^(٦) .

ومن خلال التعريفات اللغوية السابقة ، ونصوص الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وبعض المواقف من الصحابة ، وأقوال الأعلام الزهاد والصوفية اتضح لنا بأن الزهد عبارة عن انصراف الرغبة من الشيء إلى ما هو خير منه ، أو أن يترك للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة ، أو إثثار الحياة الأخروية الباقية على الحياة الدنيا الزائلة .

(١) يوسف بن أسباط ، الزاهد من سادات المشايخ ، له مواظ وحكم ، ودفن كتبه ، وهو يغلط كثيرا وهو رجل صالح لا يحتاج بحديثه (ت ١٩٥ هـ) انظر : الجرح والتعديل ٢١٨/٩ و سير أعلام النبلاء ١٦٩/٩ وحلية الأولياء ٢٦٠/٨ .

(٢) حلية الأولياء ٢٦٠/٨ .

(٣) حلية الأولياء ٢٥٩/٩ ، ومدارج السالكين ١٣/٢ .

(٤) كتاب الزهد الكبير ، للبيهقي ، تحقيق د. تقي الدين الندوي ، ط ٢ الكويت (دار القلم ١٤٠٣ هـ) ص ٨٧

(٥) سورة الحديد ، الآية (٢٣)

(٦) مدارج السالكين ١٣/٢ .

وباتصاف الإنسان بهذه الصفة فإنه يستطيع العيش في هذه الحياة آخذاً منها نصيبه ، بقدر زاد الراكب الغريب في هذه الحياة ، فيتقلل في ملذاتها وشهواتها ، ولا يغتر بمباهجها ومفاتيحها ، ويتوكل على الحي القيوم ، ويخافه ويرجوه ، لينال المثوبة والأجر من عند الله الحليم الكريم ، كما بدا ذلك من تعريفات أعلام الزهاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين بأن مفهوم الزهد يدور حول معنى الاتجاه إلى الله ﷻ ، وعدم الانشغال بالدنيا ، والانقطاع عن الشهوات ، واعتزال الناس ، والقناعة والشكر على النعمة .

وظهر أيضاً أن الزهد يكون في الشيء الموجود مع الوسع ، والتمكن من الحصول عليه ، ذلك أن الفقير لا يستطيع أن يزهد في المال ، ويتقلل فيه لأنه لا يجده ، وهكذا العاجز عن ارتكاب محرم لأسباب لا يقال زاهداً في هذا الحرام ؛ بل الذي تجنبه مع القدرة عليه ينطبق عليه وصف الزاهد .

فالزهد ليس معناه ترك الكسب والاكتساب ، ولا ترك الأسباب وعدم الأخذ بها ، والفرار من المسؤولية ، لأن الإسلام يعتني بالحياة الدنيا اعتناء مناسباً لإبقاء المصلحة الفردية والجماعية ، فيحث المسلم على الأخذ بنصيبه من الدنيا ، قال الله ﷻ : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ^(١) . وقال النبي ﷺ لرجل رآه كثر الهيئة « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده حسناً » ^(٢) .

ونهى الرسول ﷺ سعد بن أبي وقاص أن يتصدق بماله كله أو بعضه ، وأقره على الثلث وقال : « والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس » ^(٣) . وفي هذا الحديث حث على الكسب والمحافظة على المال .

كما ورد أن كعب بن مالك قال للنبي ﷺ في توبته يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ ، فقال نبي الرحمة ﷺ : « أمسك بعض مالك فهو خير لك » ^(٤) ، وورد أيضاً قوله ﷺ : « نعم المال الصالح للمرء الصالح » ^(٥) .

(١) سورة القصص ، الآية (٧٧)

(٢) أخرجه وكيع في كتابه الزهد ، باب الأثر الحسن ٤٤٧/٢ وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ١٣١/١

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الوصايا ، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكفوا الناس ٦/٦

١٢ (ح ٢٧٤٢) ، ومسلم في الوصية ، باب الوصية بالثلث ١٢٥/٣ (ح ٢٢١٥) .

(٤) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الوصايا ، باب إذا تصدق أو أوقف بعض ماله ٤٠/٦ (ح ٢٧٥٧) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٩٧/٤ . قال الحاكم في المستدرک ٢/٢ " صحيح على شرط مسلم " .

نفهم من ذلك أن الزهد الصحيح ليس معناه هجر المال والعيال ، وتعذيب النفس والبدن بالسهر الطويل والجوع الشديد .. وإنما يراد منه التوسط فلا إفراط ولا تفريط . وقد كان الناس في عهد النبوة على هذا الفهم الصحيح من الزهد ، وكانوا - بعد أن غرست العقيدة الصحيحة في قلوبهم - يخوضون في معترك الحياة ، مؤدبين ما وجبت عليهم من حقوق الله ﷻ وحقوق الآدميين من عبادة وصلاة وزكاة وصوم وحج ، ومن تجارة وصناعة ، ونكاح وعشرة وحسن معاملة ، وغير ذلك مما أحل الله ﷻ فعله في هذه الحياة ، وفي الوقت نفسه كانوا يعالجون قضاياهم باعتدال واتزان ، وبمزيد من الحيوية والنشاط ، وبالعامل الدائب المتواصل في جميع الميادين ، راجين وراءه حسن العاقبة ومرضاة الله ﷻ .

وقد كان زهد الصحابة والتابعين - كما قلنا - على هذا النمط نابعا من العقيدة السليمة ، والفهم الصحيح للدين وقضاياه ، وبقوا على هذه العقيدة الصافية من كل شائبة ، ونهجوا على السلوك المستقيم ...

ثم حدث الانحراف في مفهوم الزهد حينما أشار بعض الأعلام الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين إلى أن الزهد هو الابتعاد عن الدنيا كلية ، وعدم الاهتمام بها ، ودعوا الناس إلى تعذيب أنفسهم بالجوع والعري والأعمال الشاقة الزائدة ، ومدحوا الفقر ودعوا إليه ، واعتبروا أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى درجة الولاية إلا إذا تجرد عن الملكية نهائيا حتى يصبح فقيرا ؛ بل حتى يعذب نفسه بشقي ألوان العذاب في هذه الحياة ، ويجرمها من كل أنواع الطيبات التي أحلها الله ﷻ لعباده .

ويتجلى هذا الانحراف في مفهوم الزهد من خلال بعض عباراتهم وتعريفاتهم ...

يقول إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـ) وهو يتحدث عن العقبات التي يجب أن يجتازها كل مريد صوفي ، إذا أراد الوصول إلى ولاية الله ﷻ :

" لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجتاز ست عقبات وهي :

أولها : أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة ، والثاني : أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل ، والثالث : أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد ، والرابع : أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر ، والخامس : أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر ، والسادس : أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت " (١) .

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٩٢ ، وطبقات الصوفية ص ٣٨ .

ويقول داود الطائي ^(١) (ت ١٦٥ هـ) : " صم عن الدنيا واجعل فطرك على الموت ، وفر عن الناس فرارك من السبع " ^(٢) .

إذا نظرنا في النصين السابقين نرى بوضوح أن إبراهيم بن أدهم دعا لكل من يريد أن يصل إلى مرتبة ولاية الله ﷻ أن يقوم بالمجاهدة الشاقة ، التي تقوم على ترك النعمة التي أباحها الله ﷻ وأحلها لعباده ، واعتماد الشدة ، والتخلي عن العز واتباع الذل ، وهجر الراحة إلى الجهد ، والنوم إلى السهر ، والركض وراء الفقر ، ونبد الأمل والاستعداد للموت ، فهي حالات خطيرة ، لو مارسها الإنسان - فعلا - لأذهبت بصيرته ، وخذلت نفسه ، وطمست على عقله ، فلا يألّف عيشا سويا ، ولا يعرف حياة طبيعية .

ولا شك أن هذا العمل مخالف لتعاليم الإسلام ، لأن ديننا الحنيف لم يأمرنا بتعذيب أنفسنا ، ولا أن نذلها ونفقرها ؛ بل بالعكس حيث أمرنا أن نهتم بهذا الجسد وأن نعتني به ، لكي يصير جسدا صحيحا معافى ، ويقوم بوظائفه على ما يرضيه الله ﷻ في هذه الحياة ، وقد بين الله ﷻ ورسوله الكريم ﷺ الأمور التي إذا فعلها الإنسان يكون وليا من أولياء الله ﷻ وهو اتباع سنة رسول الله ﷺ .

وكذلك إذا تأملنا في النص الثاني نجد أن داود الطائي قد تكلم بأمور لم يأمر بها الإسلام ، لأن ديننا الحنيف أباح الأكل من الطيبات في هذه المعمورة ، ولم يحث الناس على أن يجعل فطره الموت ، ولم يحض أيضا على الفرار من الناس والهروب منهم والابتعاد عنهم كلية ؛ بل أمر بمخالطة الناس ودعوتهم إلى الخير والهدى إن كانوا غير مسلمين ، وحتى يفهموا أمور دينهم فهما صحيحا ، ويكونوا على علم وبصيرة إن كانوا مسلمين .

ويقول السري السقطي (ت ٢٥٣ هـ) : " الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ، ويجمع هذه الحظوظ المالية والجاهية ، وحب المنزل عند الناس ، وحب المحمدة والثناء " ^(٣) .

(١) هو الإمام الفقيه ، القدوة الزاهد ، أبو سليمان ، داود بن نصير الطائي الكوفي ، كان كبير الشأن وقد ورث عشرين دينارا ، فأنفقها في عشرين سنة . انظر : الرسالة القشيرية ص ٤٢٢ ، وسير أعلام ٤٢٢/٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢٣ .

(٣) عوارف المعارف ، ص ٢٣٣ .

ويقول أبو حفص ^(١) (ت ٢٧٠هـ) : " الزهد لا يكون إلا في الحلال ، ولا حلال في الدنيا فلا زهد " ^(٢) .

ويقول الجنيد : " الزهد هو خلو اليد من الملك والقلب من التبع " ^(٣) .

وأما أبو عثمان ^(٤) (ت ٢٩٨هـ) فيقول : " الزهد أن تترك الدنيا ، ثم لا تبالي بمن أخذها " ^(٥) .

فمن خلال النصوص السابقة نلاحظ على أن مفهوم الزهد - عند هؤلاء الأعلام - قد يؤدي إلى ترك الدنيا والإعراض عنها بالكلية ، بحيث يمنع أن يهتم الإنسان بشؤون دنياه ولو بقدر ما يسده به رmqه ، وأن الزهد الحقيقي - عندهم - هو ترك القيام بالأسباب وإخلاء الأيدي من كل ما يملكه الإنسان حتى يصير فقيرا ، كما أن ادعاء بعضهم بأنه لا يوجد أي زهد ، وذلك لأنه لا يوجد شيء حلال في هذه الدنيا حسب زعمه . وهذا مناقض للقرآن الكريم لأن الله ﷻ أمرنا أن نأكل من الطيبات فقال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٦) . وقال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ^(٧) .

ويقول الجنيد في نص آخر : " أحب للمريد أن لا يشغل قلبه بالتكسب وإلا تغير حاله " . ويقول أيضا : " ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع ، وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسّنات " ^(٨) .

إذا نظرنا في النصين السابقين نجد أن شيخ الطائفة حث على المريد الذي يريد أن يصل إلى مرتبة القرب من الله ﷻ أن يتعد عن القيام بأي عمل يحصل من ورائه على رزقه الذي قسمه الله ، وحذره بأنه لو فعل ذلك ليؤدي به إلى تغير حاله إلى حال غير مرضية ،

(١) هو عمرو بن سلم ، وقيل : عمر ، وقيل : عمرو بن سلمة ، النيسابوري الزاهد . سير أعلام ٥١٠/١٢ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص ١١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

(٤) هو سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري ، صاحب شاه الكرمان ، ويحي الرازي ، ثم رحل إلى

نيسابور إلى أبي حفص ، وصحبه وأخذ عنه طريقته . طبقات الصوفية ص ١٧٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٦) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

(٧) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٨) الرسالة القشيرية ، ص ٤٣٠ ، وطبقات الصوفية ، ص ١٥٨ .

وهذا ما تعتقده المتصوفة بأن القيام بالعمل في هذه الدنيا يدل على نقصان إيمان العبد وتوكله على الله ﷻ . وهذا - بلا شك - فهم خاطئ منهم ، لأن الرسول ﷺ والصحابة الكرام كانوا متوكلين على الله ﷻ ، ولم نجد لأحد منهم الدعوة إلى ترك العمل ؛ بل الرسول ﷺ دعا إلى ذلك وكذلك أصحابه - رضوان الله عليهم - .

وقد انحرف بعض الصوفية أيضا في القرن الثالث الهجري في مفهوم الفقر ، حيث دعوا إلى ذلك ومدحوه ، ويظهر ذلك من خلال أقوالهم وعباراتهم .

فهذا الجنيد لما سئل عن الزهد فقال : " الزهد هو تخلي الأيدي من الأملاك ، وتخلي القلوب من الطمع " (١) .

وقال رويم بن أحمد (ت ٣٠٣هـ) حين سئل عن الزهد ماهو ؟ قال : " هو ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا " (٢) .

وقال يحيى بن معاذ (٣) (ت ٢٥٨هـ) : " الدنيا كالعروس ومن يطلقها ماشطتها ، والزاهد فيها يسخم وجهها ، ويتنف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف مشغل بالله لا يلتفت إليها ، والزهد يقتضي معانقة الفقر واختياره " (٤) .

وذكر عن أبي يزيد البسطامي أنه سئل بأي شيء نلقى هذه المعرفة ؟ فقال : " بطن جائع وبدن عار " (٥) .

ولا شك لو عرضنا مفهوم الصوفية هذا للزهد على الكتاب والسنة لنجده مجانباً للصواب ، ومخالفاً لتوجيهات ديننا الحنيف الذي يحث على الكسب الحلال ، ويبيح ادخار الشيء الضروري للقوت ، وينهى عن تعذيب النفس وتكليفها ما لا تطيقه ، ويأمر بلبس اللباس الجميل ، وينهى عن العري وحرمان النفس مما أحل الله ﷻ ، وتعذيبها بالتجويع حتى تضعف عن القيام بواجباتها الدينية والدنيوية ، فهذه الطريقة مناقضة للمنهج الذي جاء

(١) اللمع للطوسي ، ص ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

(٣) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي ، له لسان في الرجاء وكلام في المعرفة . انظر : طبقات الصوفية ص ١٠٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

(٥) الرسالة القشيرية ، ص ٣١٤ .

به الرسول الأمين ﷺ ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (١) .

ولقد روى أنس بن مالك - ﷺ - : أنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا ، وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأحشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٢) .

وأما فهمهم بأن الزهد الحقيقي هو ترك الكسب والادخار والتخلي عن المال ففهم يتصادم مع نصوص الكتاب والسنة التي تأمر بالسعي في مناكب الأرض ، وادخار ما يكفي الإنسان لمعاشه ، والمحافظة على المال مع إخراج الحق منه ، قال ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٣) وقال ﷺ أيضا : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) . وأخبرنا الرسول ﷺ بأن خير الطعام هو الذي يأكله الإنسان من عمل يده فقال : « ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » (٥) . وبين الرسول ﷺ أن الإكثار من المال الحلال ليس منهيا عنه ، بل هو أمر مباح ، حيث دعا الرسول ﷺ لأنس بن مالك ﷺ بأن يكثر الله ماله وولده ، ويبارك له فيه ، فقال ﷺ : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته » (٦) .

وقال ابن الجوزي - رحمه الله - في معرض رده على المتصوفة بعد أن ذكر جملة من الأحاديث التي تدل على أن التجرد من المال كلية ليس مما أمر به الإسلام ، وأن الإنسان له أن يمسك ما يكفيه وعياله قائلًا :

(١) سورة النجم ، الآيتان (٣ - ٤) .

(٢) سبق تخريجه في ص ٢٨ .

(٣) سورة الملك ، الآية (١٥)

(٤) سورة الجمعة ، الآية (١٠)

(٥) سبق تخريجه في ص ١٧ .

(٦) أخرجه مسلم ، في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أنس بن مالك ﷺ ١٩٢٨/٤ (٢٤٨٠)

" فهذه الأحاديث مخرجة في الصحاح ، وهي على خلاف ما تعتقده المتصوفة من أن

إكثار المال حجاب وعقوبة ، وأن حبسه ينافي التوكل ... "

ثم قال - رحمه الله - : " فأما كسب المال فإن اقتصر على كسب البلغة من حلها فذلك أمر لا بد منه ، وأما من قصد جمعه والإكثار منه من الحلال نظرنا في مقصوده ، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود ، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته وادخر لحوادث الزمان وقصد التوسعة على الإخوان وإعفاء الفقراء وفعل المصالح أثيب على قصده ، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات ، وقد كان نيات خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين في جمع المال سليمة لحسن مقاصدهم لجمعه ، فحرصوا عليه وسألوا زيادته ... ، وأبلغ من هذا أن يعقوب عليه السلام لما قال له بنوه : ﴿ وَتَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ ^(١) مال إلى هذا وأرسل ابنه بنيامين معهم ، وأن شعيبا عليه السلام طمع في زيادة ما يناله فقال : ﴿ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ ^(٢) ، وأن أيوب عليه السلام لما عوفي نثر عليه رجل جراد من ذهب فأخذ يحثو في ثوبه ويستكثر منه فقيل له : أما شبت ؟ قال : يا رب من يشبع من فضلك ، وهذا أمر مركوز في الطباع ، فإذا قصد به الخير كان خيرا محضاً " ^(٣) .

وقال ابن الجوزي أيضا منتقدا المفهوم الخاطئ للزهد على بعض الصوفية المتقدمين : " كان إبليس يلبس على أوائل الصوفية لصدقهم في الزهد فيريهم عيب المال ، ويخوفهم من شره ، فيتجردون من الأموال ويجلسون على بساط الفقر ، وكانت مقاصدهم حسنة صالحة ، وأفعالهم في ذلك خطأ لقلة العلم ، فأما الآن فقد كفى إبليس هذه المؤونة فإن أحدهم إن كان له مال أنفقه تبذيرا وضياعا ... وهذا الفعل لا ألوم صاحبه إذا كان يرجع إلى كفاية قد ادخرها لنفسه ، وإن كانت له صناعة يستغني بها عن الناس أو كان المال عن شبهة فتصدق به ، فأما إذا أخرج المال الحلال كله ثم احتاج إلى ما في أيدي الناس وأفقر عياله فهو إما أن يتعرض لمن الإخوان أو لصدقاتهم ، أو أن يأخذ من أرباب الظلم والشبهات فهذا هو الفعل المذموم المنهي عنه ، ولست أتعجب من المتزهدين الذين فعلوا

(١) سورة يوسف ، الآية (٦٥)

(٢) سورة القصص ، الآية (٢٧)

(٣) تلبس إبليس ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

هذا مع قلة علمهم وإنما العجب من أقوام لهم عقل وعلم كيف حثوا على هذا وأمروا به مع مصادمته للعقل والشرع .. " (١) .

ثم نقل ابن الجوزي كلاماً طويلاً للحارث المحاسبي وقال في خاتمته : " فهذا كلام الحارث المحاسبي ذكره أبو حامد .. فمن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات ، إذ أقل ما فيه اشتغالهم بإصلاحه عن ذكر الله ﷻ ، فينبغي للمريد أن يخرج من ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته فما بقي له درهم يلتفت إليه قلبه فهو محجوب عن الله ﷻ . ثم عقب ابن الجوزي قائلاً : " وهذا كله بخلاف الشرع والعقل وسوء فهم للمراد بالمال " (٢) لأن الله ﷻ أمر بحفظ المال ونهى عن تضييعه وإسرافه ، وعظم قدره لكونه قواماً للآدمي فقال ﷻ : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (٣) . ونهى الله ﷻ عن تسليم المال لغير رشيد فقال ﷻ : ﴿ فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (٤) .

كما أن الرسول ﷺ نهي عن إضاعة المال حيث قال : " إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، وواد البنات ، ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال " (٥) .

ثالثاً : صلة الزهد بالتصوف

بعد أن تحدثنا عن مبدأ من المبادئ الإسلامية في الكتاب والسنة ألا وهو الزهد ، وسقنا نماذج من التعاريف لهذا المبدأ ينبغي لنا أن نميز بين الزهد الصحيح والتصوف لما بينهما من صلة وثيقة - كما هو واضح - في دلالة كل منهما ، وذلك من خلال التعريفات التي مرت بنا ، وبعد أن رأينا أن من مفاهيم التصوف كانت تشير إلى صفاء القلب ، والمحبة الإلهية القائمة على الصلة الدائمة به ﷻ ، والسلوك إليه ، والاستغناء عن

(١) المرجع نفسه ، ص ٢١٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ .

(٣) سورة النساء ، الآية (٥)

(٤) سورة النساء ، الآية (٦)

(٥) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس ، باب ما ينهى عن

العباد ...^(١) وفي المقابل رأينا مفهوم الزهد في القرن الثاني الهجري يدور حول معنى الاتجاه إلى الله ﷻ ، وعدم الاشتغال بالدنيا ، والانقطاع من الشهوات ، واعتزال الناس ، والقناعة والغنى والشكر على النعم ..^(٢)

ثم اتضح لنا أن التصوف غاير الزهد بعد أن تبلور ونضج في أواخر القرن الثالث الهجري ، فأصبح نزعة تتخذ المجاهدة والرياضة الروحية ، وتتجاوز الظاهر الشرعي بالتعمق في الباطن ، والوصول إلى مرحلة الكشف ، بينما كان الزهد اتجاها سلوكيا ، مضمونه التقشف والإعراض عن الدنيا ومباهجها بالتزام العبادات ، وأدائها كاملة لبلوغ الجنة والنجاة من النار .

وبالتأمل والوقوف على معنى الزهد والتصوف ندرك الفرق بينهما ، فقد صار التصوف - في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث - يدعو إلى ترك العمل في الدنيا ، وتعطيل القوى الحسية ، والتحكم في النفس ... وأصبح هدفه الوصول إلى المحبة الإلهية بالتعمق في دراسة أسرار القلوب ، والبحث في باطن الشريعة ... في حين أن الزهد مبدأ إسلامي ، فالميل إلى الزهد كان أصيلا في الحياة الإسلامية ، يستمد من القرآن الكريم والأحاديث النبوية في دعوتهما إلى عدم الركون إلى الحياة الدنيا ، والترغيب في الجنة والترهيب من النار ، والسعي بالذكر والتوكل والعبادة الموصلة إلى مرضاة الله ﷻ ورحمته ، وكانت حياة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - صورة تحتذى في منهج الزهد والعمل للآخرة .

ولهذا وجدنا زهادا من أئمة السلف هم أسبق في الوجود من التصوف ذاته ، ووصلت إلينا كتب مؤلفة في الزهد لأئمة من كبار علماء السلف الأوائل ، ولئن كان أئمة الصوفية المتقدمين قد نزعوا إلى الزهد - لقرب عهدهم بزهاد السلف - ثم خلطوه بعد ذلك بالمبادئ المستوردة فليس معنى ذلك أن نرد الزهد بمعناه الصحيح المشروع إلى التصوف ، ولا أن نقول كما قال بعضهم : إن التصوف في الإسلام من أوله المسمى بالزهد ، وآخره المعروف بالتصوف ؛ إنما هو استيراد أجنبي ، من خارج الإسلام وليس من صميمه ، وأن

(١) كما عرف به معروف الكرخي ، والداراني ، وبشر الحافي ، وذوالنون المصري ...

(٢) كما عرف به سفيان الثوري ، وعبدالله بن المبارك ، والفضيل بن عياض ، وسفيان بن عيينة ، وإبراهيم بن

تسميته بالزهد في أوله إنما هي بالنسبة إلى جانب منه ^(١) ، وبالإضافة إلى ذلك أن كلمة الزهاد لم تظهر في القرن الأول الهجري ، وأوائل القرن الثاني علما على طائفة ^(٢) .

ولكن لا نعي بذلك أن الكلمة لم تستخدم على الإطلاق ، حيث وردت كلمة الزهد في الأحاديث والآثار الصحيحة من أقوال الصحابة والتابعين ، وقد قيل للحسن البصري فلان فقيه ، فقال الحسن : وهل رأيت فقيها قط ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة البصير بأمر دينه ^(٣) . فكلمة الفقيه يشمل المعاني الروحية ، كما تشمل المعاني العملية ^(٤) .

ولم ترد كلمة الزهد في القرآن الكريم إلا في موضوع واحد ، كما قال ﷺ حكاية عن نبي الله يوسف - ﷺ - : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ^(٥) ، وليس لها في هذا الموضع - كما قال الدكتور النشار - دلالة روحية ، لذلك أطلقت على أصحاب الحياة الروحية الأوائل من الصحابة أهل الصفة والفقراء ، وبعد مقتل الإمام علي ثم ابنه الحسين - رضي الله عنهما - ظهرت طائفة باسم " التوايين والبهكائين " ، ثم أسماء أخرى مثل : " النساك والعباد والسائقين والربانيين " ^(٦) .

ولقد كان الصوفية في أول الأمر يعدون في جملة الزهاد ، وعرف تصوفهم - من خلال تعريفاتهم للتصوف - بأنه يدور حول صفاء القلب ، والمحبة الإلهية القائمة على الصلة الدائمة به تعالى ، والسلوك إليه ، والتخفف من الاشتغال بالدنيا ، والميل إلى العبادة المتصلة ابتغاء الجنة ومرضاته ﷻ ، ثم صاروا يتميزون عن بقية الزهاد بصفات وأحوال ، ومع مرور الزمان بعدت المسافة بين الفريقين ، فصار التصوف يدعو إلى ترك العمل في الدنيا .. وأصبح مذهباً معروفاً ذا قواعد ومصطلحات مستحدثة ، حتى أصبح التفريق بين التصوف والزهد

(١) أضواء على التصوف ، ص ٦٧ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٦١/٣ .

(٣) اللمع للطوسي ، ص ٣٦ ،

(٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٦٢/٣ .

(٥) سورة يوسف ، الآية (٢٠)

(٦) المصدر السابق ، ٦٢/٣ .

واضحاً جلياً ، ولعل أوضح ما يدل على التمييز بينهما أن الزهد لم يذمه أحد ، بينما التصوف قد ذمّه كما يقول ابن الجوزي ^(١) - رحمه الله - .

وخلاصة القول : إن الزهد كان - في بادئ الأمر - زهداً دينياً خالصاً ، نابعاً من العقيدة الصافية ، والفهم السليم من الدين وقضاياه ، دون تجاوز وإفراط وتفريط ، ثم وفد إليه بالتدرج بعض العناصر الصوفية نتيجة الوفود والاحتكاك بأبناء البلاد التي فتحها المسلمون ، والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية ، وازدياد التراخي والاستهانة في بعض المسائل الخلقية ، وشدة ما كابده المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون إرادتهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن أخلصوا في إسلامهم ، ^(٢) ووقوع بعض الزهاد المتنسكين في الأخطاء في فهم بعض الأحوال النفسية من التوكل على الله ﷻ ، وترك الكسب والاكتساب ، وحصر الشعائر التعبدية في القيام والقعود فحسب ... وما إلى ذلك من الانحرافات الخطيرة .. حتى تحول الزهد الإسلامي المشرق الأصيل إلى الصورة التي عرفناها في التصوف من الانزواء إلى الزوايا والربط ، والرياضات الشاقة المخالفة لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، من إطالة الصوم ووصله ، والامتناع عن الطيبات ، والترهب وترك الزواج ، والسماع والغناء والرقص ، والخلوة والعزلة ، وإسقاط التكاليف المشروعة ، والفناء .. ثم الحلول .. ثم وحدة الوجود .. وادعاء الصوفية التصرف في هذا العالم وادعائهم بعلم الغيب .. وغير ذلك من العقائد الوافدة الدخيلة على الإسلام من الباطنية ، واليهودية ، والنصرانية ، والأفلاطونية ، والغنوصية ، والهندية ، والفارسية ، وما إلى ذلك ...

وهكذا أوصل بعض الزهاد المفرطين الزهد الإسلامي الخالص إلى التصوف المنحرف كالذي نراه اليوم ، مع اعترافنا بأن هذا لا يمنع من القول بأن الزهد النافع المشروع لا زال موجوداً في المجتمعات الإسلامية حتى عصرنا الحاضر .

(١) انظر : تلبيس إبليس ص ٢٠٤ .

(٢) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٤٦ ، ٧٢ .

المبحث الثاني

خاصية تصوف القرن الثالث الهجري

إذا قلنا التصوف في القرن الثالث الهجري فليس الغرض منه أن اليوم الأول من سنة مائتين للهجرة هو بدء المرحلة الثالثة للتصوف ؛ بل كان ذلك حكم تقريبي ، وتحديد منهجي اصطلاحى ، وكذلك يجب مراعاة هذا الموضوع - إذا تحدثنا عنه - في القرن الثاني الهجري ، لأن التصورات الفكرية وسير العقائد والآراء لا تتمشى بموجب القوانين العددية والأحكام الرياضية ، بل غالبا ما تسير بالتدرج دون الاعتماد على الترتيب الزمني ، ونحن نتحدث عن ذلك خدمة للبحث واتباعا للطريقة المألوفة لدى الباحثين .

والتصوف - في بداية الأمر - كان في نظر الصوفية بسيطا روحانيا ، لم يخرج عن حدود الكتاب والسنة ، والتعبد ، وتقديم الآخرة الباقية على الحياة الدنيا الزائلة ، غير أن هذا المفهوم تتخطى الزهد المشروع شيئا فشيئا حتى وصل إلى حد المبالغة والإفراط ، ثم غدته بمرور الأزمنة مواد ذوقية وجدانية ، واتسعت من جراء ذلك رقعة التصوف ، والتقطت الصوفية أعمالا من مصادر عدة وأضافوها إلى التصوف ، فتغير مفهومه بهذا السبب ، وتبدل تعريفه وتحديدته في كل عصر ، ووصفه كل شيخ من مشايخ الصوفية بنحو خاص^(١) .

وقلنا إن حركة الزهد في القرنين الأول والثاني الهجريين كانت ثمرة التدبر والتأمل العميق في التوجيهات القرآنية والأحاديث النبوية ، وصورة مشرقة من أحوال الزهاد الأوائل ؛ حيث كانوا مقبلين على العبادة والتقرب إلى الله ﷻ بالأعمال الصالحة ، وكان زهدهم يقوم أساسا على الخوف من الله ﷻ ، وهو خوف يبعث على العمل الديني الجاد من أجل الظفر بثواب الآخرة .

ولما جاء القرن الثالث الهجري برز بعض الصوفية واتجهوا إلى الكلام عن معان لم تكن معروفة من قبل ، فتحدثوا عن الأخلاق والنفس والسلوك إلى الله ﷻ ، وغلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعملهم ، فصار التصوف على أيديهم علما للأخلاق الدينية ، وكانت مباحثهم الأخلاقية تدفعهم إلى التعمق في غور الدراسة في النفس الإنسانية وأحوالها ، وتقودهم إلى الكلام في المعرفة الذوقية وأدائها ومنهجها ، بل وتدعوهم إلى التحدث عن

(١) انظر : تاريخ التصوف في الإسلام ، لقاسم غني ، ص ٧١ .

الذات الإلهية من حيث صلتها بالإنسان وعلاقة الإنسان بها . كما ظهر الكلام في الفناء الصوفي خصوصا على يد أبي يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ) ونشأ من ذلك علم للصوفية يتميز عن علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية ، له قواعده ورسومه ومصطلحاته الخاصة ، التي لا يشارك الصوفية فيها غيرهم ، ويحتاج فهم مراميها إلى جهد وعناء .. (١) ، ثم قطع التصوف أشواطاً في الاتساع العقدي حتى أصبح مدارس ومذاهب خلال هذا القرن (٢) .

أما الحديث عن خاصية تصوف القرن الثالث الهجري فيلاحظها المتأمل فيما خلفه صوفية هذا القرن من الآثار ، التي تجعل هذه الحقبة متميزة عن تصوف القرن الثاني الهجري من حيث العمق والتأثير ، لما للتصوف وقتئذ من خصائص نفسية وأخلاقية وجدانية وهي كما يلي :

١ - إن التصوف في هذا العهد يعطي للتفكير والتدبر أهمية كبرى أكثر من القيام بالرياضات الشاقة ، أو الحياة الخشنة التي يعدها صوفية القرن الثاني الهجري مناطاً للنجاة مثل إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـ) وأمثاله لا يأبه لها صوفية هذا القرن كالجنيد (ت ٢٩٧هـ) وأتباعه ، أو يعتبرونها أقل أهمية إلى جانب الزهد والعبادة والطاعة لكونها وسيلة لا غاية ، ومقدمة لبلوغ غرض أسمى وأعلى ، فهذا البسطامي لا يقول بمداومة الرياضة والزهد ، ويعتقد بأن السالك يجب أن يغض الطرف عن الدنيا والآخرة وعن نفسه ، وأن يتجه إلى أصل الموضوع والمهدف ، ويقول أبو سعيد الخراز (٣) (ت ٢٧٩هـ) الجوع قوت المرتاضين ، والتفكير قوت العارفين . فالناحية النظرية - إذن - للتصوف في هذا القرن صارت أكثر أهمية ، وتغلبت على الناحية العملية (٤) .

ولوحظ أيضاً أن حظ الخصائص الأخلاقية كان في أوائل هذه الفترة أوفر وأظهر، وهذا تأكيد على ما ذكره ابن القيم - رحمه الله - بأن كلمة الناطقين في هذا العلم قد

(١) انظر : مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص ١٧ .

(٢) الصوفية معتقداً ومسلماً ، ص ٥٣ .

(٣) هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، من أهل بغداد ، صاحب ذالنون المصري وبشر الحافي ، وغيرهم من أئمة التصوف ، وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء (ت ٢٧٩هـ) انظر : طبقات الصوفية ص ٢٢٨ .

(٤) انظر : تاريخ التصوف في الإسلام ، لقاسم غني ، ص ٨١-٨٢ .

اجتمعت على أن التصوف هو الخلق ، ^(١) و " أن هذا العلم مبني على الإرادة ، فهي أساسه وجمع بنائه ، وهو مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة ، وهي حركة القلب ، ولهذا سمي علم الباطن ، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ، ولهذا سموه علم الظاهر " ^(٢) .

وإذا لاحظنا - كما قلنا - أن الطابع الأخلاقي هو الذي يغلب على التصوف في أول تكونه العلمي فإننا نلاحظ - أيضا - أن الطابع النفسي لم يكن أقل شأنًا من الطابع الأخلاقي ، كما أن كثيرا من المسائل الصوفية التي طبعت بهذا الطابع أو ذاك قد انطوت في قرارها على كثير من المعاني للفلسفة الإلهية التي ظهرت - بادئ ذي بدء - غامضة ساذجة ، ثم أخذت تتجلى وتتكشف شيئا فشيئا حتى تهيأ لعوامل النمو ما أعانها على أن تظهر بعد ذلك ظهورا قويا عندما جاء من الصوفية المتفلسفة بعد القرن الثالث الهجري ^(٣) .

كما أن الحب كان طابعا للزهد الذي عرف عند رابعة العدوية ^(٤) (ت ١٨٥ هـ) في القرن الثاني ، وهذا الحب يعد أيضا من أخص خصائص التصوف عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فأقوال معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) على قلتها وقصرها تبين أنه قبل اللفظتين اللتين كان يدور حولهما الجدل في مدرسة بغداد ، وهما : الطمأنينة (المعرفة) والمحبة ، وقد اصطنع الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) لفظة المحبة وقال فيها كلاما يعتبره صوفية وقته خير ما قيل في تحديدها ، وكذلك استعمل ذوالنون المصري (ت ٢٤٥ هـ) هذه اللفظة في غير تردد ^(٥) .

وظل التصوف مطبوعا بطابع الحب طوال القرن الثالث الهجري حتى ترك الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩ هـ) في مسألة المحبة وما يتصل بها من فناء وبقاء واتحاد وحلول آثارا باقية ، وليس أدل على صوفية ذلك الوقت بالمحبة وما تفرع عليها من أن أحدهم وهو

(١) مدارج السالكين ، ٣٠١/٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣٥٢/٢ .

(٣) انظر : الحياة الروحية في الإسلام ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) هي رابعة بنت إسماعيل ، وهي صوفية وعابدة شهيرة ، قال مصطفى عبد الرزاق : إنها هي السابقة إلى وضع

قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف . انظر : أعلام النساء ، لعمر رضا كحالة ٤٣١/٢ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص ١٠١ .

الحارث المحاسبي^(١) (ت ٢٤٣هـ) قد وضع فيها فصلا خاصا ، هو أشبه ما يكون رسالة تحدث فيها عن أصل حب العبد للرب ، وأن هذا الحب منة إلهية أودع الله ﷻ بذرتها في قلوب محبيه ، كما تحدث عن اتحاد المحب بالمحبوب ، وكشف أسرار الوجود عن طريق هذا الاتحاد^(٢) .

ونظرتنا في (التعرف لمذهب أهل التصوف) للكلاباذي (ت ٣٨٠هـ) و (قوت القلوب) لأبي طالب المكي^(٣) (ت ٣٨٦هـ) و (كشف المحجوب) للهجويري^(٤) (ت ٤٥٦هـ) و (الرسالة القشيرية) للقشيري (ت ٤٦٥هـ) و (إحياء علوم الدين) للغزالي (ت ٥٠٥هـ) تكفي لأن نقف من خلالها على مقدار عناية المؤلفين الصوفيين بإثبات من سبقهم من صوفية القرن الثالث الهجري في المحبة الإلهية ، وكلها بمثابة المواد الأولية التي اعتمد عليها الصوفية المتأخرون فيما أسسوه من مذاهب وما ذهبوا إليه من طرائق .

٢- إن شيوع أفكار وحدة الوجود في هذا العصر أفاد أن الهدف الوحيد للصوفية هو الاتصال بالله ﷻ ، ولم تكن هذه المعتقدات مستحسنة لدى الفقهاء نظريا وعمليا ، وكانت ذات تأثير خطير فضلا عن أن الاعتقاد بوحدة الوجود كان منافيا لعقيدة التوحيد الإسلامي الخالص .

وإذا قلنا إن التصوف في هذا العهد قد بلغ مرحلة الكمال فلا نعني بذلك أن طريقة صوفية القرن الثاني الهجري قد اندرست حقا في القرن الثالث ، بل الواقع أن هناك جماعات أخرى تشابه من حيث السير والسلوك وطريقة الفكر وأسلوب القول لصوفية القرن الثاني مشابهة تامة ، بل إن بعضهم كانوا يمثلون في سلوكهم الأعلام الزهاد في صدر الإسلام ، وكل ناحية من أجواء البلاد كانت ملائمة لنمو نوع خاص من التصوف وتطوره ، فصوفية خراسان - مثلا - كانوا مفرطين نوعا ما ، وذوى أفق واسع ، وقد أخذوا بنظرية وحدة

(١) هو أبو عبد الله ، الحارث بن أسد المحاسبي ، الزاهد العارف ، شيخ الصوفية ، صاحب التصانيف الزهدية ، (ت ٢٤٣هـ) انظر : سير أعلام ١١٠/١٢ وطبقات الصوفية ص ٥٦ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

(٣) هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية ، الإمام الزاهد العارف ، شيخ الصوفية . انظر : سير أعلام ٥٣٦/١٦

(٤) هو علي بن عثمان ، من كبار أئمة الصوفية (ت ٤٩٣هـ) انظر : معجم المؤلفين ١٤٨/٧ .

الوجود بصورة ثابتة ، وكان معظمهم من أصحاب السكر ، وانطلاقهم كان أكثر من صوفية العراق وسائر الجهات ^(١) .

إن صوفية هذا القرن قد سلكوا مسلكا حزيا ، أي أصبحت لهم خصوصيات حزبية ، ومقررات ورسوم وآداب طائفية ، ودخلت كل طائفة تحت رعاية شيخ ومريد ، وكان الشيخ أو المرشد ذا سلطة على مريديه ، فيراقب أعمالهم ويحث كل شخص على اتباع أوامر المرشد والمحافظة على الأنظمة .. ^(٢) ولهذا نجد بعض الصوفية في القرن الثالث الهجري كالجنيد والسقطي وأبي سعيد الخراز وغيرهم يجمعون حولهم المريدين من أجل إرشادهم وتربيتهم ، فتكونت لأول مرة ما مهد لظهور الطرق الصوفية في الإسلام ، التي كانت آنذاك بمثابة المدارس التي يتلقى السالكون فيها آداب التصوف علما وعملا ^(٣) .

وبذلك نقول : إن عناصر التصوف في أواخر القرن الثالث الهجري قد اكتملت بمعناه الدقيق ، لأنهم تحدثوا عن الأخلاق ، والسلوك والترقي فيه ، والمعرفة الذوقية المباشرة بالله ﷻ ، والفناء في الحقيقة المطلقة (الله ﷻ) - كما يزعمون - ، والتحقق بالطمأنينة ، والمحبة الإلهية ، كما لجأوا إلى الرمزية في التعبير عن حقائق التصوف .

ولكن لا بد من التنويه بأن الخصائص المذكورة السابقة التي تنطبق على تصوف القرن الثالث الهجري بوجه عام قد لا تنطبق كلها على تصوف صوفي معين في هذه الفترة لأن بعض صوفيتها غلب عليهم - كما رأينا - الطابع النفسي الأخلاقي ، والكلام في ناحية معينة من نواحي التصوف .

وبالجملة نستطيع أن نقول بأن القرنين الثالث والرابع الهجريين قد شهدا اكتمال التصوف ، وأن صوفية القرن الثالث - كما قال الدكتور أبو العلا عفيفي - يمثلون العصر الذهبي للتصوف الإسلامي في أرقى وأصفى مراتبه - حسب قوله - وهم بلا شك رواد لكل من سيأتي بعدهم .

(١) انظر : تاريخ التصوف في الإسلام ، ص ٨٣ .

(٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٣) انظر : مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص ١٨ .

المبحث الثالث

ظهور التدوين في التصوف في القرن الثالث الهجري

بدأت الاهتمامات المبكرة بالزهد والفكر الأخلاقي منذ عهد الصحابة والتابعين في شكل وصايا ونصائح ومواعظ ، أو في شكل تفسير آيات من القرآن الكريم ..

وبرزت في القرن الثاني الهجري الأعمال العلمية المنظمة في مجال العلوم الفقهية ، التي تضمنت إشارات واضحة إلى المجال الأخلاقي ، وتمثلت هذه الجهود المباركة في أعمال الأعلام الكبار من أمثال الأئمة الأربعة - رحمهم الله ﷺ - ^(١) .

وبدأ التأليف - فعلا - في الحديث كما بدأ في العلوم الأخرى ، وكان ذلك في منتصف القرن الثاني الهجري ، فلما جاء القرن الثالث الهجري نشطت حركة الجمع والنقد ، وتميز الصحيح من الضعيف ، والحكم للرجال أو عليهم ، فكان بذلك خير العصور ، وفيه ألفت أهم كتب الحديث ..

وكما اهتم الفقهاء والمحدثون بالتصنيف فكذلك الزهاد قد اهتموا أيضا بطريقتهم ، ودونوا قواعدهم وسلوكهم ، واتجهوا نحو الاتجاه الأخلاقي العاطفي الوجداني لما رأوا الانحرافات الخلقية قد طغت على بعض الناس ، وشاهدوا انشغالهم بالملذات في هذه الحياة ، وأدركوا أن تيار الجدل كاد يجرفهم ويبعدهم عن إخلاص العمل لله ﷻ ، فكانوا يفكرون في رد الشاردين عن حظائر المعرفة إلى ساحتها ، وترشيد الحائرين إلى الجادة ، وهداية الضالين إلى الطريق القويم ، مما يدفعهم إلى النظر في نصوص الكتاب والسنة ، ووضعها في مواضعها المناسبة ، منبهين إلى معانيها وأسرارها ، موضحين طريق العمل بها ، شارحين آثارها ، مستشهدين بأحوال الصالحين السابقين تحبباً للعمل في طاعة الله ﷻ والإخلاص له ﷻ ، واستمالة في القلوب ، ولم يخرجوا في كتاباتهم ومؤلفاتهم عن الزهد ، والورع ، والإخلاص ، ومحاسبة النفس ، والخوف والرجاء ، والتواضع ، وتقوى الله ، ومراقبة الله ﷻ ، والاجتهاد في العبادة .

ومما يؤكد على ظهور هذه الأعمال ظهور بواكير الأعمال العلمية التي خصصها مؤلفوها للحديث عن موضوعات أخلاقية مثلما كتبه ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) حيث تحدث عن الطبائع والأخلاق في موسوعة " عيون الأخبار " .

(١) انظر : موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ٦٩/١ .

وأما في مجال السلوك والتصوف فقد برز في القرن الثالث الهجري عدد من العلماء ، وهم إن اختلفوا منهجا وصحة في التأليف وإيراد النصوص فإنهم يسيرون في طريقهم داعين إلى الله ﷻ ، محبين للناس ، مؤدين حق الله ﷻ في نصح عباده ، وتركية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم ، ومن أبرزهم :

١- الحارث المحاسبي الذي كان في طليعة من وطد قواعد التأليف في علوم الزهد والورع والإخلاص ومحاسبة النفس .. وكتابه " الرعايا لحقوق الله " خير دليل وشاهد على ذلك ، فهو كتاب جامع لأبواب السلوك العملي على نهج الزاهدين العابدين .
وكتبه في أغلبها الأعم إنما هي في هداية النفوس وترقيق القلوب ، وإنها في علم التصوف والسلوك ، قدرها بعضهم بمائتي مصنف حسب رواية السبكي في الطبقات الشافعية ، والمناوي في الكواكب الدرية ، والكتب بعضها قد طبعت وبعضها لا تزال مخطوطة ؛ منها :

المسائل في أعمال القلوب والجوارح - الرعاية لحقوق الله - الزهد - رسالة المسترشدين - كتاب آداب النفوس - الخلوة والتنفل في العبادة - كتاب المراقبة - كتاب أحكام التوبة - كتاب الصبر والرضا - كتاب بدء من أناب إلى الله - كتاب المكاسب والورع والشبهات - كتاب التفكير والاعتبار - شرح المعرفة - معاتبة النفوس وغيرها ..
يقول محمد الصادق عرجون : " كتب المحاسبي للأمة آداب الزهاد والنسك ، وما يجب أن يكون عليه العبد في رعاية حقوق الله ﷻ مستمدا ذلك من الكتاب والسنة وفهم الأئمة من الصحابة والتابعين ، وسلوكهم في الإخلاص والعمل ، ليجعل مما كتب نواة لجذب الناس إلى منازل الإخلاص وتصفية القلوب ، معتمدا على علمه بالشرعية .. ولم يكن للتصوف ولا للمتصوفة في عصره وجود مذهبي خالص يقصد إلى تصويره والتحدث عنه .. " (١) .

٢- وكذلك أبوسعيد الخراز كان من طليعة من ألف في هذا العهد ، وكان إماما من أئمة الزهد والورع ، وأهل المعرفة والعلم بالله ﷻ ، وهو معاصر للمحاسبي ، فكلاهما من أئمة القرن الثالث الهجري ، وكتابه " الصدق " أو " الطريق إلى الله " على صغر حجمه آية من آيات المصنفات الصوفية ، فهو يدل بقرب شبه من كتاب المحاسبي على وحدة المسلك

(١) انظر : التصوف في الإسلام ، منابعه وأطواره ص ١١٠ .

في صوغ الحقائق الصوفية مقرونة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة والتابعين كتطبيق واقعي للنصوص ^(١) غير أن المتأمل في كلام محمد عرجون لاحظ فيه مبالغة في شأن الحارث المحاسبي حيث كانت هناك مأخذ عليه فيما عرض في كتبه وخاصة في عقليته ومنهجه الكلامي الذي ذمه السلف الصالح وهجره الإمام أحمد بن حنبل .

وقد فصل أبو سعيد في كتابه " الصدق " معاني الصدق ومجالاته ، لأن " الصدق هو الخلق الأساسي الذي يعطي كل قول أو عمل ظاهر أو باطن قيمته في ميزان الله ﷻ ، بل هو المعنى الجامع للأخلاق والآداب التي دعا إليها القرآن العظيم ، والنبي الكريم ﷺ . فالصدق مع الله ﷻ يثمر : الإخلاص ، والورع ، والتوكل ، والخوف والرجاء ... والصدق مع النفس يثمر : الزهد ، والحياء ، والتواضع ، والاجتهاد في العبادة " ^(٢) .

٣- ومنصور بن عمار ^(٣) (ت ٢٢٥هـ) من الذين ألفوا في التصوف في القرن الثالث الهجري ، قال ابن النديم عن كتبه : " وما أخذ من منصور فإنما جعله مجالس ، لم يسم ذلك كتباً ، فمن ذلك مجلس في الجنين ، ومجلس في الديباج ، ومجلس في ذكر الموت ، ومجلس في حسن الظن بالله ، ومجلس في النية والدين ، ومجلس في البلى ، ومجلس السحاب على أهل النار ، ومجلس في انظرونا نقتبس من نوركم ، ومجلس في الغمة في النار ، ومجلس العرض على الله ﷻ " ^(٤) .

٤- ومحمد بن الحسين البرجلاني ، أبو جعفر ، صوفي (ت ٢٨٣هـ) وله من الكتب ككتاب الصحبة ، وكتاب الزهد والرقائق ، وكتاب الجود والكرم ، وكتاب الهمة ، وكتاب الصبر ، وكتاب الطاعة ^(٥) .

(١) المرجع نفسه ص ٨٧ .

(٢) مقدمة الدكتور عبد الوهاب عزام لكتاب الصدق ، تصحيح وتعليق حسن السماحي سويدان ، ط ١ بيروت (دار القادري ١٤١٨هـ) ص ٧ .

(٣) هو : أبو السري ، أقام بالبصرة ، وكان من أحسن الناس كلاماً في الموعظة ، بل كان إليه المنتهى في بلاغة الوعظ وترقيق القلوب ، ومن كلامه : " سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا - أوعية الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب المتوكلين أوعية الرضا " . طبقات الصوفية ص ١٣٥ ، والرسالة القشيرية ص ٤٢٣ ، وحلية الأولياء ٣٤١/٩ .

(٤) الفهرست لابن النديم ، ط ١ بيروت (دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ) ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٥) المصدر نفسه ، ومعجم المؤلفين للكحالة ٢٣٥ / ٩ .

٥- ويحي بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ (ت ٢٥٨هـ) ، كان من الزهاد

المتجهدين ، وله أصحاب ، كما له من الكتب في التصوف ، ككتاب مراد المريدين .

٦- وأبو حمزة الصوفي (ت ٢٨٩هـ) ، له من الكتب كما يقول صاحب

طبقات الصوفية عنه ، مثل كتاب المنتمين من السياح والعباد والمتصوفين ، رواه عنه رجل

من المتصوفة يقال له أحمد بن محمد الدينوري ^(١) ، ورأيت لهذا الرجل كتاب الأبدال

وكتاب مواطن العباد ، وقال الخطيب البغدادي عنه : كان أبو حمزة أستاذ البغداديين ،

وهو أول من تكلم في بغداد في هذه المذاهب من صفاء الذكر ، وجمع الهمة ، والمحبة ،

والشوق ، والقرب ، والأنس ، ولم يسبقه إلى الكلام بهذا على رؤوس الناس ببغداد

أحد .. ^(٢) .

٧- وسهل بن عبد الله بن يونس التستري (ت ٢٨٣هـ) ، كان أحد أئمة الصوفية

وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضات وغيوب الأفعال ، ^(٣) وله من الكتب :

ككتاب رقائق المحبين ، وكتاب مواعظ العارفين ، وكتاب جواب أهل اليقين ^(٤) .

٨- وأبو القاسم الجنيد بن محمد (ت ٢٩٧هـ) سيد الطائفة وإمامهم ^(٥) ، ذكره

خير الدين الزركلي بأن له رسائل مطبوعة ، منها ما كتبه إلى بعض إخوانه ، ومنها ما

هو في التوحيد والألوهية والفناء ، ومسائل أخرى ، وله دواء الأرواح مخطوطة ^(٦) .

٩- ومحمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي ^(٧) ، قال عنه الذهبي : " قال عبد

الرحمن السلمي : أخرجوا الحكيم من ترمذ وشهدوا عليه بالكفر ، وذلك بسبب تصنيفه

كتاب ختم الولاية ، وكتاب علل الشريعة ، وقالوا : إنه يقول : إن للأولياء خاتما كالأنبياء

(١) هو أبو العباس ، أحمد بن محمد ، صاحب يوسف بن الحسين ، ولقي رويما ، وهو من أفق المشايخ .. انظر :

طبقات الصوفية ص ٤٧٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٩٤/١ ، وسير أعلام النبلاء ١٦٨/١٣ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، وحلية الأولياء ١٨٩/١٠ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ٣١٩ .

(٥) طبقات الصوفية ص ١٥٠ ، والرسالة القشيرية ص ٤٣٠ .

(٦) الأعلام ١٣٢/٢ .

(٧) هو : أبو عبد الله ، من كبار الشيوخ ، وله تصانيف في علوم القوم ، صاحب أبا تراب عسكر النخشي (ت

٢٤٥هـ) وأحمد بن خضرويه (ت ٢٤٠هـ) ولقي ذا النون المصري بمكة . انظر : الرسالة القشيرية ص

٤٠٠ ، وطبقات الصوفية ص ٢١٧ .

لهم خاتم ، وإنه يفضل الولاية على النبوة " (١) . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : تكلم أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي في كتاب ختم النبوة بكلام مردود ، مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة ، حيث غلا في ذكر الولاية (٢) له مشاركة في الحديث ، ومن أشهر كتبه " نواذر الأصول في أحاديث الرسول " .

١٠- وأبو الحسن علي بن محمد بن أحمد (٣) (ت ٣٣٨ هـ) له من الكتب في الزهد كالكتاب الكبير الذي يحتوي على أربعين كتابا منها : كتاب قيام الليل ، وكتاب المتحابين ، وكتاب المراقبة ، وكتاب الصمت ، وكتاب الخوف ، وكتاب التوبة ، وكتاب الصبر ، وكتاب التواضع ، وكتاب الإخلاص ، وكتاب فضل الفقر على الغنى ، (٤) وغير ذلك من الكتب المؤلفة في الزهد والورع والرقائق ... إلا أن هذه الكتب المدونة المذكورة السابقة معظمها غير موجودة ومطبوعة .

وبعد العرض لبعض الكتب المصنفة في التصوف في القرن الثالث الهجري لا بد من التنبيه بهذه الكتب المدونة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " إن المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وضعيفه ، كما ينبغي ذلك في المعقولات والنظريات ، وكذلك في الأذواق والمواجيد والمكاشفات والمخاطبات فإن كل من صنف في هذه الأصناف الثلاثة فيها حق وباطل ، ولا بد من التمييز في هذا وهذا .

وجماع ذلك : إن وافق كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ الثابتة عنه ، وما كان عليه أصحابه فهو حق ، وما خالفه ذلك فهو باطل " (٥) .

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ١٣/٤٣٩-٤٤٢ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١١/٣٧٣ .

(٣) هو علي بن محمد بن أحمد بن الحسن ، البغدادي ، الواعظ ، المشهور بالمصري ، قال البغدادي : صنف في الزهد كتباً كثيرة ، وكان له مجلس وعظ . انظر : سير أعلام ١٥/٣٨١ .

(٤) الفهرست ص ٣٣٠-٣٣١ ، وتاريخ بغداد ١٢/٧٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٥/٣٨١ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، ١١/٥٨٢ .

المبحث الرابع

أهم رجال التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

بناء على ما سبق ذكره من أن اسم الصوفية قد ظهر في القرن الثاني الهجري ، وأن في أثناء المائة الثانية عبر بعض الناس وتحدثوا عن الزهد بلفظ الصوفي ، لأن لبس الصوف أصبح ظاهرة عند فئة من الزهاد فإننا سنعرض نماذج من الأعلام الصوفية مستنديين إلى ما كتبه كتاب تراجمهم ، حيث إننا وجدناهم - أيضا - يلمحون إلى وجود الاسم في القرن المذكور ، بل يعبرون - عن تبنيهم لهذا الرأي - تعبيرا عمليا ، حينما اعتبروا بعض الأعلام وهم ممن كانوا في أثناء القرنين الثاني والثالث الهجريين ، في الطبقة الأولى من الطبقات الصوفية .

وإذا تحدثنا عن هؤلاء الأعلام فلا بد أن لا يغيبوا عن أذهاننا أنهم من الشخصيات القريين من عهد النبوة والرسالة ، ومن الذين عاشوا في المرحلة الأولى من مراحل التصوف ، وقد كان معظمهم من طبقات العباد والزهاد ، والذي يغلب عليهم العزلة والوحدة ، أو الزهد في الدنيا مع التزامهم في الغالب بتعاليم ديننا الحنيف ، ومع التغليب عليهم جانب الخوف الشديد والبكاء الطويل .. وهم أهل الورع والتقوى والإخلاص والصدق والتواضع والمراقبة والإحسان .. ومع ذلك فإن منهم من ابتعد عن جادة الصواب ، ووقعوا في الأخطاء الواضحة والانحرافات الخطيرة .

١- إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـ)

هو الإمام العارف ، سيد الزهاد ، من أهل بلخ بخراسان ، كان من أبناء الملوك والمياسير ، ثم ترك طريقته في التزين بالدنيا ، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع ^(١) ، وكان طويل التفكير ، كثير الذكر ، مرابطا وسائحا في الأرض طلبا للحلال ، سخيا حيث أجمع الزهاد على كرمه وسخائه ^(٢) .

وقال مذكرا أصحابه ومن جاء بعده : بأن أشد الجهاد جهاد الهوى ، وأن من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها ، وكان محفوظا معافي من أذاها ، وبين أن : من

(١) انظر : طبقات الصوفية ص ٢٧ ، وسير أعلام النبلاء ٣٨٧/٧ .

(٢) انظر : حلية الأولياء ٤٤٠/٧ .

أراد أن يصل إلى درجة الصالحين فلا بد له أن يجتاز مراحل العقبات ^(١) ، والتي تشير إلى التشدد في النفس ، والمبالغة في الدين ..

وما يقوله إبراهيم بن أدهم من المجاهدة الشاقة ، له مردود لبعض الكتاب والصوفية الذين جاءوا بعده ، فهذا نيكولسون ذكر بأن اجتياز هذه العقبات ما هو إلا الوصول إلى معرفة الله ﷻ ، وأن إبراهيم قد اقترب هنا من فكرة المعرفة ، ولكنه حاول أن يوصلها بالفكرة الغنوصية ، وهي فكرة قد أثرت في بعض الصوفية في القرنين الثالث والرابع الهجريين وما بعدهما .

وقد شبه الدكتور عبد الرحمن بدوي حياة إبراهيم بن أدهم بحياة جوتاما بوذا مؤسسه الديانة البوذية ^(٢) ، غير أن هذا القول يجانب الصواب ، وإن كان في كلام إبراهيم نوع من المبالغة في تعذيب النفس ، والتشدد في العبادة ، واليأس من كل ما في هذه الدنيا من النعم التي أحلها الله ﷻ لعباده ، لأن الإسلام لم يأمر بمعاقة النفس وإذلالها ؛ بل بالعكس أمر بالاهتمام بالجسد والاعتناء به حتى يكون جسدا سليما معافى ، يستطيع أن يقوم بأداء دوره المنوط به على أتم وجه في هذه الحياة ، حيث بين الله ﷻ ورسوله ﷺ الأمور التي إذا فعلها الإنسان يصبح وليا من أوليائه ﷺ ، فلا حاجة إلى الرياضات الشاقة التي تقود الإنسان إلى الهلاك والابتعاد عن تعاليم الدين الصحيح .

وقلنا إن المقارنة بين حياة إبراهيم وجوتاما بوذا بعيدة لاختلاف الشخصيتين في الاعتقاد والعمل ؛ فإبراهيم بن أدهم شخص يؤمن بالله ﷻ ، بينما جوتاما بوذا وثني ، وحياته حياة الذل والرذيلة بعيدة عن شعيرة الآداب الإسلامية ، ويكفي في شخصية إبراهيم خيرا وصلاحا قول الحافظ ابن حجر العسقلاني : " أبو إسحاق البلخي الزاهد ، صدوق ^(٣) ، " وقول النسائي : " هو ثقة مأمون ، أحد الزهاد " ^(٤) .

وإبراهيم بن أدهم له عبارات عبر فيها عن بعض موضوعات التصوف ، فقد تحدث عن المحبة حينما قال : " لو أن العباد علموا حب الله ﷻ لقل مطعمهم ومشربهم وملبسهم وحرصهم ، وذلك أن ملائكة الله أحبوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره ، حتى إن

(١) انظر : ص ٧٦

(٢) ١ نظر : تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري ص ٢١٨ .

(٣) تقريب التهذيب ٤٦/١ - ٤٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٨٨/٧ .

منهم قائما وراكعا وساجدا منذ خلق الله الدنيا ما التفت إلى من عن يمينه وشماله اشتغالا بالله ﷻ وبخدمته " (١) .

وكذلك في التوبة حينما سئل : ما علامة التوبة ؟ فقال : " إدمان البكاء على ما سلف من الذنوب ، والخوف المقلق من الوقوع فيها ، وهجران إخوان السوء ، وملازمة أهل الخير " (٢) .

أما الزهد فيقول عنه : إن الزهد ثلاثة أصناف : فزهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة ، فالفرض هو الزهد في الحرام ، والفضل هو الزهد في الحلال ، والسلامة هو الزهد في الشبهات (٣) . ويقول : " الزاهد يكتفي من الأحاديث والقال والقليل ، وما كان وما يكون بقوله تعالى : ﴿ لَا يَؤُمُّ أَيُّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيَلُومُ الْيَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤) يوم يقال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٥) " (٦) .

ويقول في التوكل بأنه : طمأنينة القلب لموعد الله (٧) .

بينما يبين الصبر بأن " العبد لا يتم رجاءه لثواب الله تعالى حتى يحتمل نفسه على الصبر ، فقال رجل ممن كان معه وأي شيء الصبر ؟ فقال : إن أدنى منازل الصبر أن يروض العبد نفسه على احتمال مكارم الأنفس ، قال قلت : ثم مه ؟ قال : إذا كان محتملا للمكاره أورث الله قلبه نورا ، قلت : وما ذلك النور ؟ قال : سراج يكون في قلبه يفرق بين الحق والباطل " (٨) .

(١) حلية الأولياء ٣٧/٨ ، ٣٨ ، وطبقات الأولياء ص ٧-٨ .

(٢) طبقات الأولياء ص ١٤ ، وانظر : سير أعلام النبلاء ٣٨٩/٧ .

(٣) حلية الأولياء ٢٦/٨ - ٢٧ ، وانظر أيضا : ٢٠/٨ ، ٣٦ .

(٤) سورة المرسلات ، الآيات (١٢ - ١٥) .

(٥) سورة الإسراء ، الآية (١٤) .

(٦) حلية الأولياء ٧٣/٨ .

(٧) طبقات الأولياء ص ١٣ - ١٥ .

(٨) طبقات الصوفية ص ٢٢ .

٢- داود الطائي (ت ١٦٥هـ)

كان أحد الأولياء ، شغل نفسه بالعلم والفقه وغيره من العلوم ، وكان يختلف إلى الإمام أبي حنيفة ، ثم اختار العبادة والزهد ، ولزم الصمت ، وآثار الخمول ، وفر بدينه ، وأغرق كتبه في الفرات ^(١) رغبة في التزهد والتعبد .

تزهّد لما كان يمر يوما ببغداد فنحاه الناس عن الطريق بين يدي حميد الطوسي ، فالتفت داود فرأى حميدا فقال داود : أف لدينا سبقك بها حميد ، ولزم البيت وأخذ في الجهد والعبادة ^(٢) .

وقيل : إنه كان يجالس أبا حنيفة ، فقال له أبو حنيفة : يا أبا سليمان أما الأداة فقد أحكمناها ، فسأله داود : فأني شيء بقي ؟ فقال أبو حنيفة : العمل به ، ويقص هو نفسه ، فنازعني نفسي إلى العزلة والوحدة ، فقلت لنفسي : حتى تجلس معهم ولا تتكلم في مسألة ، وكانت المسألة تمر بي ، وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعا من العطشان إلى الماء البارد ، ولا أتكلم به ، ثم صار أمره إلى ما صار ^(٣) .

قال الذهبي : حرّب نفسه ودربها حتى قوي على العزلة ^(٤) .

ففي هذه الحالة وضع داود الطائي للصوفية الذين جاءوا بعده ما يسمونه طريق تصفية النفس والتخلص من الاغترار بها ، لأنه يفرض على نفسه الصمت والصوم عن الكلام ، أو يدخل نفسه فيما يسمى بمرحلة قطع العلائق كما هي عند المتصوفة .

ثم أعلن موقفه من الدنيا حينما قال أبو الربيع الواسطي له : أوصني ؟ فقال : صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت ، وفر من الناس كفرارك من الأسد ^(٥) . ولكن مع هذا الموقف الشديد تراجع عنه حينما قال : " ارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين ، كما

(١) تاريخ بغداد ٢٢١/١١ ، وطبقات الأولياء ص ٢٠٠ ، وسير أعلام النبلاء ٤٢٢/٧ ، وصفة الصفوة ١٣١/٣

(٢) طبقات الأولياء ص ٢٠٠ .

(٣) حلية الأولياء ٣٩٨/٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٢٣/٧ .

(٥) حلية الأولياء ٤٠١/٧ ، والرسالة القشيرية ص ٤٢٣ .

رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين " (١) ، " صاحبُ أهل التقوى فإنهم أيسر أهل الدنيا مؤونة عليك وأكثرهم لك معونة " (٢) .

كما وضع مصطلح المريد والزاهد حينما قال : إن من علامات المريد في الدنيا ترك كل جليس لا يريد ما يريدون (٣) ، وقد نقل إبراهيم بن أدهم عنه قولاً يبلغ في أعماق الزهد ؛ بل في أعماق التصوف حينما قال : " إن للخوف تحركات تعرف في الخائفين ، ومقامات يعرفها المحبون ، وازعاجات يفوز بها المشتاقون ، وأن أولئك هم الفائزون " (٤) .

وكان يناجي ربه في الليل فيقول : " إلهي همك عطل علي الهموم الدنيوية ، وحال بيني وبين الرقاد " (٥) . قال الدكتور علي النشار معلقاً على هذا النص : " وهذا كلام خطير في أعماق التصوف ، ولا جرم بعد ذلك أن أتاه كبار الزهاد من كل مكان ، كالفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وسفيان بن عيينة ، وسفيان الثوري ، وكان سفيان يبكي بين يديه ، كما كان له أثره الكبير في أبي سليمان الداراني .

ومن هنا نرى أنه انبثق في أعماق هذا الفقيه الخوف العارم ، وخوف مشوب بالحب الشديد .. والشوق ، فعاش حياة زاهدة قاسية لم تعرفها الكوفة فعلاً ، وقد امتلأت كتب التصوف بالأخبار التفصيلية عن تزهده " (٦) .

وبلا شك أن ما نراه منه من لزوم الصمت لفترة طويلة يعتبر تشدداً ومبالغة في الدين ، لأن الإسلام أمرنا أن نقول خيراً إلا إذا اقتضى الصمت ، قال رسول الله ﷺ : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " متفق عليه (٧) .

(١) طبقات الأولياء ص ٢٠١ .

(٢) حلية الأولياء ٤٠٢/٧ .

(٣) انظر : المصدر نفسه ٤٠٠/٧ .

(٤) المصدر نفسه ٤٠٢/٧ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٤٢٢ .

(٦) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٢٥٠/٣ .

(٧) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ١٢/

٣- الفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ)

أبرز حدث في تاريخه توبته ، فقد كان شاطرا يقطع الطريق ، ثم عشق جارية ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها ، إذ سمع تاليا يتلو ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ^(١) . فلما سمعها قال : بلى يا رب ! فقد آن ، فرجع فأواه الليل إلى خربة ، فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم : حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا ، قال : ففكرت ، وقلت : أنا أسعى بالليل في المعاصي ، وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع ، اللهم إني قد تبت إليك ، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام ^(٢) .
فهذه الحكاية ذكرها القشيري ^(٣) أيضا وابن الملقن ^(٤) وابن خلكان ^(٥) وغيرهم ، وقد ذكرها مؤرخو الصوفية عن سبب تزهد الفضيل لتدعيم طريق الزهد والتصوف ، والدعوة إلى التوبة .

وقد كان الفضيل بن عياض دائم الحزن شديد التفكير ، إذا ذكر الله وتليت آياته ظهر به الخوف والحزن ، وفاضت عيناه ، وبكى حتى يرحمه من بحضرته ، وكان إذا خرج في جنازة مع الناس لا يزال يعظ ويذكر ويكي حتى لكأنه يودع أصحابه ، حتى إذا بلغ المقبرة جلس واستغرق في الحزن والبكاء .. وكان شديدا على محاسبة نفسه وعمله في هذه الحياة ^(٦) .

أما طريقته في العبادة وكيفية قضاء وقته فكانت على النحو الذي ذكره إسحاق بن إبراهيم فقال : " ما رأيت أحدا أخوف على نفسه ولا أرجى للناس من الفضيل ، كانت قراءته شهية بطيئة مترسلة ، كأنه يخاطب إنسانا ، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة تردد فيها وسأل ، وكانت صلاته بالليل أكثر ذلك قاعدا ، يلقي له حصير في مسجده

(١) سورة الحديد ، الآية (١٦) .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٢٣/٨ .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ص ٤٢٤ .

(٤) انظر : طبقات الأولياء ص ٢٦٦ .

(٥) انظر : وفيات الأعيان ٨٧/٤ .

(٦) انظر : حلية الأولياء ٨٧/٨ - ٨٩ .

فيصلي من أول الليل ساعة حتى تغلبه عينه ، فيلقي نفسه على الحصر فينام قليلا ثم يقوم فإذا غلبه النوم نام ، ثم يقوم هكذا حتى يصبح .. " (١) .

وكان يربط بين الإيمان والزهد ربطا وثيقا ، بحيث لا يكون الإيمان إيمانا صحيحا إلا مع الزهد ، فيرى أن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة ، وحتى لا ييالي من أكل الدنيا ، وحتى لا يحب أن يحمد على عبادته لله ﷻ (٢) .

لذا ، يرى أن مفتاح الخير كله هو الزهد في الدنيا ، حيث سئل عن الزهد فيها ؟ فقال : القناعة فهي الغنى ، وسئل عن الورع ؟ فقال : اجتناب المحارم ، وسئل عن التواضع ؟ فقال : أن تخضع للحق .

أما رأيه في الحب الإلهي فيتضح عند حديثه عن صفة التزول لله ﷻ بأن الله تعالى يتزل كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عني ! أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبه ؟ هأنذا مطلع على أحبائي إذا جنهم الليل مثلت نفسي بين أعينهم فخطبوني على المشاهدة ، وكلموني على حضوري ، غدا أقر أعين أحبائي في جناتي (٣) .

٤- شقيق البلخي (ت ١٩٤هـ)

هو أبو علي ، شقيق بن إبراهيم الأزدي ، من أهل بلخ . يقول السلمي عنه : " وأظنه أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان " ، حدث عن أبي حنيفة ، وصحب إبراهيم بن أدهم ، وأخذ عنه الطريقة (٤) .

يروى شقيق أن السبب في سلوكه طريق التصوف هو أنه كان قد خرج إلى بلاد الترك لتجارة ، وهو حدث إلى قوم يقال لهم الخصوصية وهم يعبدون الأصنام ، فدخل إلى بيت أصنامهم ، وعالمهم فيه حلق رأسه ولحيته ، ولبس ثيابا حمراء أرجوانية ، فقال له شقيق : إن هذا الذي أنت فيه باطل ، وهؤلاء ولك ولهذا الخلق خالق ، فقال له الخادم : ليس يوافق قولك فعلك ، فقال له شقيق : كيف ذاك ؟ قال : زعمت أن لك خالقا رازقا قادرا على كل شيء ، وقد تغيت إلى هاهنا لطلب الرزق ولو كان كما تقول فإن الذي يرزقك هاهنا هو الذي يرزقك ثم ، فكان هذا سبب زهدي .

(١) حلية الأولياء ٨/٨٩ ، وطبقات الأولياء ص ٢٧٠ .

(٢) انظر : حلية الأولياء ٨/٩٦ ، ٩٧ .

(٣) انظر : المصدر نفسه ٨/١٠٢ .

(٤) طبقات الصوفية ص ٦١ .

ولذلك رجع وتصديق جميع ما ملك وطلب العلم^(١) .

ويقول : كنت شاعرا فرزقني الله التوبة ، وخرجت من ثلاثمائة ألف درهم ، ولبست الصوف عشرين سنة ، ولا أدري أني مرء حتى لقيت عبد العزيز بن داود فقال: ليس الشأن في أكل الشعير ولبس الصوف ، الشأن أن تعرف الله بقلبك ، ولا تشرك به شيئا ، وأن ترضى عن الله ﷻ ، وأن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في أيدي المخلوقين^(٢) .

من هنا صار محور زهد شقيق قائما على مقالة عبد العزيز بن داود " فالجنة عنده لا تنال إلا بمعرفة الله ﷻ بالقلب واللسان والسمع ، وبالثقة بما في يد الله ، والرضا بقسمة الله ﷻ ، وكذلك فالنجاة من النار مرهونة بمعرفة الله ، ومعرفة الإنسان لنفسه ، ومعرفة أمر الله ونهيه ، ومعرفة عدو الله وعدو نفسه . والاستقامة تتحقق عنده بأربعة أشياء ؛ عدم ترك أمر الله لشدة ، ولا لرخاء ، وعدم العمل بهوى النفس ، ولا هوى أحد^(٣) .

وتاج الزاهد عنده ثلاث خصال : " أن لا يميل مع الهوى ، وأن ينقطع للزهد بقلبه ، وأن يذكر كلما خلا مدخله في قبره ، والجوع والعطش والعري وطول القيامة والحساب والصراط والحساب والفضيحة .. فإذا ذكر ذلك شغله عن ذكر دار الغرور^(٤) " .

٥- معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ)

هو العابد ، المنسوب إلى كرخ^(٥) بغداد ، وكان أحد المشتهرين بالزهد والعزوف عن الدنيا ..^(٦)

يقول كتاب التراجم أن معروفا كان من أبوين نصرانيين ، فأرسلاه إلى مؤدبهم فقال له : إن الله ثالث ثلاثة ، فكان جوابه عليه بل هو الله أحد ، فضربه وأسلم على يد علي بن

(١) انظر : حلية الأولياء ٦٣/٨ ، وسير أعلام النبلاء ٣١٣/٩ .

(٢) المصدر نفسه ٦٤/٨ . وسير أعلام النبلاء ٣١٤/٩ .

(٣) انظر : المصدر السابق ٦٤/٨ - ٦٥ .

(٤) المصدر نفسه ٦٦/٨ .

(٥) كانت الكرخ أولا في وسط بغداد والمحال حولها ، فأما الآن فهي محلة وحدها ، فبين شرقها والقبلة محلة باب البصرة ، وبينهما نحو شوط فرس ، وفي جنوبها المحلة المعروفة بنهر القلائين ، وعن يسار قبلتها محلة تعرف بباب الحوّل . انظر : معجم البلدان ، لياقوت الحموي ٥٠٨/٤ .

(٦) انظر : تاريخ بغداد ١٩٩/١٣ ، وحلية الأولياء ٤٠٤/٨ ، وطبقات الحنابلة ٣٨١/١ .

موسى الرضا ورجع إلى أبويه فأسلما ^(١) . غير أن ثمة رواية أخرى تؤكد أن أباه كان صابئاً من أهل بهريان من قرى واسط .

قابل سفيان بن عيينة بعض أهل بغداد فسألهم عن معروف الكرخي ذلك الخبر الذي فيهم مؤكداً لهم أن أهل تلك المدينة لا يزالون بخير ما بقي فيهم معروف الكرخي ^(٢) ، وجاء رجل من الشام إلى معروف يسلم عليه ، وأخبره بأنه رأى في المنام قائلاً يقول له : " اذهب إلى معروف فسلم عليه ، وأخبره أنه معروف في أهل الأرض ومعروف في أهل السماء " ^(٣) لذا ، ذكره الكلاباذي ضمن رجال الصوفية ، ومن نطق بعلومهم ، وعبر عن مواجيدهم ، ونشر مقاماتهم ، ووصف أحوالهم قولاً وفعلًا بعد الصحابة رضوان الله عليهم ^(٤) .

من أقواله التي تنم عن زهده وتصوفه حثه على التوكل والعمل ، فقد قال لرجل : " توكل على الله حتى يكون هو معلمك و أ نيسك وموضع شكواك .. فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يمنعونك ولا يعطونك " ^(٥) وهذا التوكل لا يعني الكسل والخنوع ، بل يكون شغل الإنسان دائماً في الله ﷻ وفراره إليه ﷻ ، وحينما سئل معروف عن علامة الأولياء فكان جوابه على ذلك ثلاثة : أولها أن تكون همومهم لله ﷻ والأخرى أن يكون شغلهم في الله ، والثالثة أن يكون فرارهم إليه ، ويضاف إلى ذلك ما قاله معروف : " إن الله إذا أراد بعبد خيراً فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل " ^(٦) .

ويستنبط رأيه في التوكل - كذلك - من خلال أدعيته التي تدل على الثقة بالله ﷻ والالتجاء إليه ﷻ ، وهو يقول : " اللهم إن قلوبنا وجوارحنا بيدك لم تملكنا منها شيئاً ،

(١) انظر : الرسالة القشيرية ص ٤٢٧ ، وطبقات الأولياء ص ٢٨١ ، وصفة الصفوة ١٩٧/٢ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ٢٠١/١٣ ، وطبقات الحنابلة ٣٨٢/١ .

(٣) حلية الأولياء ٤٠٩/٨ - ٤١٠ .

(٤) انظر : التعرف للكلاباذي ص ١١ .

(٥) حلية الأولياء ٤٠٤/٨ ، وطبقات الصوفية ص ٨٧ .

(٦) المصدر السابق ٤١١/٨ .

إن فعلت ذلك بهما فكن أنت وليهما " (١) . ولكنه لا ينفي جانب المسؤولية الفردية ، إذ يرى أن السبب في أداء سجدي السهو كان عقابا للقلب لأنه اشتغل وغفل عن الصلاة (٢) . ويقول : " طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق " . ويقول أيضا : " إذا أراد الله بعبد خيرا فتح الله عليه باب العمل وأغلق عنه باب الفترة والكسل " (٣) .

ويؤكد هذا الاتجاه المعبر عن حب معروف للعمل ومداومته له ، حينما حدث له أن قص إنسان شارب فلم يفتر من الذكر ، قال : كيف أقص ؟ قال أنت تعمل وأنا أعمل (٤) . فالعبارات السابقة تدل على أن معروف الكرخي يحض على العمل ، ويحث على الأخذ بالأسباب ، وهو المبدأ الذي يشجع عليه الكتاب والسنة ، ويحرص على امتثاله زهاد السلف الصالح . فمعروف خير مثال يحتذى في مجال العمل ، وقد قال له بعض أصحاب داود الطائفي : " إياك أن تترك العمل فإن ذلك يقربك إلى رضا مولاك ، فقلت : وما ذلك العمل ؟ قال : داوم طاعة ربك ، وخدمة المسلمين والنصيحة لهم " (٥) .

وأما عن كرامته التي تتأيد بها ولايته وحب الله ﷻ له فقد أورد البغدادي كثيرا من هذه الكرامات وكذا أبو نعيم أنه قيل لمعروف : يا أبا محفوظ لو سألت الله أن يمطرنا وكان يوما شديد الحر ، فقال : ارفعوا إذا ثيابكم فما أن يتموا رفع ثيابهم حتى جاء المطر . وقيل له : بلغني أنك تمشي على الماء ؟ فقال : " ما مشيت قط على الماء ولكن إذا هممت بالعبور جمع لي طرفاه فأخطاها " (٦) . ولكن رغم ذلك كله كان معروف يفضل أن لا يتحدث عن الكرامات ؛ بل كان دائما يحاول إخفاءها مما كان له أثر كبير في تصوف أبي القاسم الجنيد .

وما ذكرنا من النماذج لأبرز الأعلام الصوفية في القرن الثاني الهجري ما هي إلا لمحات من حياتهم وهم - بلا شك - من زهاد السلف الصالح ، ومن أصحاب القرون

(١) طبقات الصوفية ص ٨٦ ، وتاريخ بغداد ١٣/١٩٩ .

(٢) طبقات الحنابلة ١/٣٨٢ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٨٩ .

(٤) حلية الأولياء ٨/٤٠٥ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ووفيات الأعيان ٤/٣١٩ .

(٦) تاريخ بغداد ١٣/٢٠٦ - ٢٠٧ .

الأولى ، التي شهد لهم رسول الله ﷺ حينما قال : ” خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. “^(١) . وقد آثروا الحياة الدنيا على الآخرة حيث لا يأخذون منها إلا بقدر الحاجة ، وكان لهم طابع سلوكي عملي ، عرفوا المحبة والخشية ، وتقربوا إلى الله ﷻ بالعبادات ، وذلك من خلال النظر في آيات الكتاب والاقتداء بالرسول ﷺ ، وبما أن العقائد الإيمانية قد سيطرت عليهم ، فإنهم وضعوا نصب أعينهم ضرورة الإذعان والخضوع للهيمنة الإلهية التي تحكم سلوكهم ، و يكثر من أداء العبادات للتقرب إلى الله ﷻ ، والتكشف خشية الحساب ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإقامة المجتمع المسلم الصحيح .

وقد ذكر نيكولسون هؤلاء بأنهم من المتصوفين الزهاد ، وأن تصوفهم كان - أو على الأقل من المحتمل أنه كان - وليدا لحركة الإسلام ذاته ، وأنه كان نتيجة لازمة لفكرة الإسلام عن الله ﷻ ، وهي فكرة لم يكن من الممكن أن ترضى ذوي التزعات الروحية من المسلمين ، ولكن تصوفهم لم يكن إلا تصوفا معتدلا بالرغم من أنهم ذهبوا في أساليب الزهد والرضا إلى أبعد حد ممكن ، غير أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن أحوال الجذب والوجد ، وما لزم عنهما من البحوث النظرية الجريئة التي ظهرت في التصوف في العصر المتأخر^(٢) .

وما قاله نيكولسون فيه نوع من الصحة بعد أن قرأنا صفحات من حياة هؤلاء الأعلام ، الذين من الصعوبة بمكان أن نميز بين صفاتهم كزهاد أو وعاظ ، أو سماتهم كفقهاء ومحدثين ، لأن هذه الدوائر تتداخل بحيث يتعذر إقامة الفواصل بينها ، ولأنها تتصل بالدائرة الكبرى التي تحيط بها وهي دائرة الإسلام العظيم^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة ، باب فضل أصحاب النبي ﷺ ٦/٣ (ح ٣٦٥٠) ، ومسلم

في فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ٤/١٩٦٤ (ح ٢٥٣٤) .

(٢) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٣ - ٤ .

(٣) انظر : ابن تيمية والتصوف ص ١٩٥ .

٦- أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ)

هو الإمام الكبير ، زاهد العصر ، من أهل واسط، نزح إلى الشام ، سمع الحديث الكثير ، ولقي سفيان الثوري وغيره ، ولكنه اشتغل بالتعبد عن الرواية ^(١) .

قال الخطيب البغدادي بإسناده عن جعفر بن أحمد بن أبي المثنى الموصلي يقول : رأيت أبا سليمان الداراني ببغداد سنة ثلاث ومائتين أو أربع ومائتين مخضوب اللحية ، له شعيرة في مسجد عبد الوهاب الخفاف ، ف قيل له : إن عبد الوهاب الخفاف يقول بشيء من القدر ، فترك الصلاة في مسجده ، وذهب إلى مسجد آخر . وفي هذا الخبر إن صح يعد أبو سليمان سنيا سلفيا على عقيدة السلف الصالح .

ثم أضاف الخطيب بإسناده إلى أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت أبا سليمان يقول : " ليس لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه من الأثر ، فإذا سمعه من الأثر عمل به وحمد الله حيث وافق ما في قلبه " ^(٢) . وهذا القول موافق أيضا لما كانت عليه الجماعة من أصحاب السلف الصالح .

وقد ترجم له ابن الملقن في طبقات الأولياء ^(٣) ترجمة طويلة ، وكذا أبو نعيم في الحلية ^(٤) وابن كثير في البداية والنهاية ^(٥) ، وابن الجوزي في صفة الصفوة ^(٦) ، وقد اتفقوا جميعا على صلاح الداراني واتباعه المنهج السوي .

ولأبي سليمان الداراني أقوال كثيرة في صميم التصوف النظري ، وهي المعبرة عن لغة الحب الإلهي ، وهذه اللغة التي كانت لها شأن كبير عند الصوفية ، ويتضح ذلك من خلال حديث تلميذه أحمد بن أبي الحواري قال : " دخلت على أبي سليمان الداراني وهو يبكي ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : يا أحمد ولم لا أبكي ؟ إذا جن الليل ونامت العيون ، وخلا كل حبيب بحبيبه وافتersh أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقطرت في محاريبهم ، أشرف الجليل ﷺ فنادى يا جبريل ! بعيني من تلذذ بكلامي ،

(١) انظر : طبقات الصوفية ص ٧٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٠/١٨٢ .

(٢) تاريخ بغداد ١٠/٢٤٨-٢٤٩ .

(٣) انظر : ص ٣٨٦-٣٩٧ .

(٤) انظر : ٩/٢٦٧-٢٩٢ .

(٥) انظر : ١٠/٢٢٩-٢٣٢ .

(٦) انظر : ٤/١٩٧-٢٠٨ .

واستراح إلى ذكرى ، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم ، أسمع أنينهم وأرى بكاءهم فلم لا تنادي فيهم يا جبريل : ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيبا يعذب أحباءه ؟ أم كيف يحمل بي أن آخذ قوما إذا جنهم الليل تملقوا لي ^(١) ، في حلفت أنهم إذا وردوا على القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إلي وأنظر إليهم " ^(٢) .

وقال معلنا عن تمسكه بنظرية الحب والعفو والكرم الإلهي التي تنجيه من عذاب الله ﷻ إذ يقول في دعائه : " يا رب إن طالبتني بسريري طالبتك بتوحيديك ، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك ، وإن جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بجي إياك " ^(٣) .

وقد يعاني كثيرا من المجاهدات فيرى في طاعة الله ﷻ لذة لا يجدها أهل اللهو بلهوهم ، فيقول : " لو عوض الله ﷻ أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه في قلوبهم من اللذة لكان ذلك أكبر من أعمالهم " ^(٤) .

وذكر الدكتور علي النشار أن أبا سليمان أول من استخدم مصطلح " أهل الليل " لقوله : " ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا " ^(٥) ، ولكنه مع ذلك متبع للسلف في مجاهداته فلا يقبل منها إلا ما شهد بصحته الكتاب والسنة ، ويسعى إلى رزقه أولا ليحصل على لقمة العيش ، ثم يتعبد مستكفا ممن ينتظر الطعام من إنسان آخر ، وهو يرجو عفو الله ﷻ عن خطاياهم ، ويكره الموت راجيا أن يمتد به العمر لاحتمال توبته . ولهذا تغلب عليه محبة الله ﷻ عن الخوف منه لأن الحبيب في رأيه لا يمكن أن يعذب أحباءه ^(٦) .

وأما رأيه في الزهد فيميل إلى فكرة الزهد الإيجابي ، حيث لا يترك الدنيا ويهملها وإنما يعمل فيها من أجل الآخرة ممثلا بمبدأ قطع كل علاقة تصرف العباد عن الله ﷻ ، فيقول : " وكل ما شغلك عن الله ﷻ من أهل ومال وولد فهو عليك شؤم " لأن الدنيا إذا سكنت في القلب رحلت منه الآخرة " ^(٧) . ويقول أيضا : " ليس العبادة عندنا أن تصف

(١) أي توددوا بكلام لطيف ، وتضرعوا فوق ما ينبغي .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٤١١ - ٤١٢ .

(٣) حلية الأولياء ٢٦٧/٩ .

(٤) صفة الصفوة ٢٠٢/٤ .

(٥) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٣٠٩/٣ .

(٦) انظر : صفة الصفوة ٢٠٤/٤ - ٢٠٥ .

(٧) الرسالة القشيرية ص ٤١١ .

قدميك وغيرك يفت ^(١) لك ، ولكن ابدأ برغيفك فأحرزهما ثم تعبد ^(٢) ، أي ليس معنى الزهد والانقطاع إلى العبادة أن يقصر المرء في أداء واجباته من تحصيل رزقه ورزق عياله ، بل عليه أن يسعى في الاستغناء عن حاجة الناس ، ويحافظ على عزة نفسه وأن لا يذلها في هذا الميدان .

كانت نظرة أبي سليمان الداراني إلى طبيعة العمل واضحة في حد ذاته حيث يقول : " ما أحسب عملا لا يوجد له في الدنيا لذة يكون له في الآخرة ثواب " ^(٣) مؤكدا بأن الزاهد ليس من ألقى غم الدنيا واستراح منها ؛ ولكن الزاهد من ألقى غمها وتعب في الآخرة ^(٤) .

نفهم من ذلك أن رأيه في مفهوم الدنيا موافق لما عليه السلف الصالح من أن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولكنه يقول في عبارة أخرى بأن مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع ، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، وإن الجوع عنده في خزائن مدخرة فلا يعطي إلا لمن أحب خاصة ^(٥) . ولكن مع ذلك أين هذا من قول النبي ﷺ : " اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع " ^(٦) .

وقد كثرت الكلمات التي دعا فيها أبو سليمان إلى الجوع ، وينبغي أن لا نفهم هذه الكلمات على إطلاقها ، بل علينا أن نفهمها في ضوء التزامه بالكتاب والسنة ، حيث كان المقصود منها أن لا يصل الإنسان في أكله إلى حد الشبع ، فالشبع ضرره كبير ، لأنه يثقل الإنسان عن العبادة ، ويتعذر عليه حفظ الحكمة ، وتزداد عنده الشهوات .. ولم يقصد أيضا حرمان النفس من شهواتها كلها ، بل ينبغي أن يكون الإنسان متوسطا في الأمور في التعامل مع هذا الجانب ، وفي هذا يقول :

(١) يفت لك : أي يعد لك الطعام .

(٢) حلية الأولياء ٢٧٨/٩ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) حلية الأولياء ٢٨١/٩ ، ٢٨٦ .

(٥) تاريخ بغداد ٢٤٨/١٠ - ٢٥٠ .

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب في الاستعاذة ٩١/٢ ، والنسائي ٢٦٣/٨ ، وذكره الألباني

في صحيح أبي داود (١٣٨٣) ، وصحيح ابن ماجه (٢٧٠٧) .

" إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصب منها شيئاً يسيراً ، ولا تعط نفسك منها ، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة ، وتكون قد نغصت عليها إذ لم تعطها شهوتها " ^(١) . وهذا المسلك يلتقي مع سنة الإسلام في عدم الشبع ، وقد ورد الحديث الشريف يحدد هذا الموضوع فقال النبي ﷺ " ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه " ^(٢) .

٧- بشر بن الحارث بن عبد الرحمن الحافي (ت ٢٢٧هـ)

قال عنه الخطيب البغدادي : المعروف بالحافي مروزي سكن بغداد وهو ابن عم علي ابن خشرم ^(٣) ، وكان ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد ، وتفرد بوفور العقل وأنواع الفضل ، وحسن الطريقة واستقامة المذهب ، وعزوف النفس وإسقاط الفضول ، ثم ذكر أسماء شيوخه ومن روى عنه ، ثم قال : وكان الكثير الحديث إلا أنه لم ينصب نفسه للرواية وكان يكرهها ودفن كتبه لأجل ذلك ، وكل ما سمع منه فإنما هو على سبيل المذاكرة ، واستمر الخطيب في ترجمته ، وأثنى على سيرته ^(٤) .

وقال عنه الحافظ ابن حجر : إنه الزاهد الجليل المشهور ، ثقة قدوة من العاشرة ^(٥) ، وترجم له ابن الملقن في طبقات الأولياء ، وأفاض في الحديث عنه وقال : ولقب بالحافي لأنه جاء إلى الإسكاف يطلب منه شعساً لأحد نعليه وكان قد انقطع ، فقال له الإسكاف : ما أكثر كلفتكم على الناس ؟ فألقى النعل من يده ، والأخرى من رجله وحلف بأن لا يلبس نعلاً بعدها ^(٦) .

(١) إحياء علوم الدين ٩٩/٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل ١٨/٤ (ح ٢٤٨٦) ، وذكره الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٩٩) .

(٣) علي بن خشرم بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال ، أبو الحسن المروزي ، ابن أخت نشر الحافي ، الإمام الحافظ الصدوق (ت ٢٥٧هـ) . سير أعلام ٥٥٢/١١ ، والجرح والتعديل ٥٦/٢ .

(٤) انظر : تاريخ بغداد ٦٧/٧ ، ٨٠ .

(٥) تقريب التهذيب ١٠٧/١ .

(٦) انظر : طبقات الأولياء ص ٩٩ .

لا شك أن هذا العمل فيه شدة وتعذيب للنفس ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فقد أخبرنا بقوله ﷺ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) . ومهما بلغ هؤلاء من الزهد والتقوى والورع والخوف فإنهم لا يبلغون ما بلغهم رسول الله ﷺ من ذلك أبدا ، وقد رد النبي ﷺ على مثل هؤلاء ردا قاطعا كما ورد في حديث له ﷺ حينما أجاب على ثلاثة رهط الذين جاءوا إلى بيوت أزواجه ﷺ ليسألوا عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا بما عزم أحدهم بالمداومة على القيام ، والثاني على الصيام ، والثالث على اعتزال النساء ، فرد عليهم الرسول ﷺ بأنه يصوم ويفطر ، ويصلي ويرقد ، ويتزوج النساء ، ثم قال الرسول ﷺ : « من رغب عن سنتي فليس مني » ^(٢) .

هكذا نجد في سنة رسول الله ﷺ في جميع نواحي الحياة المادية والمعنوية منهجا مباركا وسلوكا مثاليا لا يجيد عنه إلا من سفه نفسه ، وابتعد عن طريق الهدى والرشد والهداية ، ولا نقول في حق هؤلاء الزهاد مثل بشر بن الحارث الحافي أنهم حادوا الطريق السوي عنادا إلا أن اجتهادهم أدى إلى ذلك ، فالجتهد مهما كان في حاله فإنه مأجور عند الله ﷻ بأجر واحد عند الخطأ و بأجرين عند الإصابة ، فلا ينبغي لأحد أن يفضل طريق هؤلاء على منهج النبي ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

ولبشر الحافي أقوال تنم عن زهده وتصوفه حيث كان يقول : " خصلتان تقسيان القلب كثرة الكلام وكثرة الأكل " ^(٣) . وكان يقول : " الجوع يصفى الفؤاد ويورث العلم " . ويقول : " من أراد عز الدنيا وشرف الآخرة فعليه بثلاث : لا يأكل لأحد طعاما ، ولا يسأل أحدا حاجة ، ولا يذكر الناس إلا بخير " ^(٤) . ويقول أيضا : " تابعنا الأعمال فلم نجد عملا أبلغ في طلب الآخرة من الزهادة في الدنيا " ^(٥) .

(١) سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

(٢) سبق تخريجه في ص ٢٨ .

(٣) حلية الأولياء ٣٩٢/٨ .

(٤) المصدر نفسه ٣٨٦/٨ .

(٥) المصدر نفسه ٤٠٣/٨ .

٨- الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ)

كان أحد كبار الزهاد ، عرف بالمحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه ، وهو شيخ الجنيد ، له علم في الفقه والتصوف والكلام ..

قال عنه الخطيب البغدادي بأنه " أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن " . وقال أيضا : بأن له كتباً كثيرة في الزهد في أصول الديانات ، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما ، وكتبه كثيرة الفوائد جملة المنافع ^(١) .

قال الذهبي : المحاسبي الزاهد العارف ، شيخ الصوفية ، صاحب التوايف ، صدوق في نفسه ، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه " ^(٢) . ولعل السبب في ذلك هو منهجه في كتبه ومجالسه الوعظية ، أو السبب الأصيل المباشر هو كلامه وبحثه في علم الكلام وإدخاله في كتبه ، بحيث كان معارضا للفرق المنحرفة في عصره وخاصة المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج والمرجئة ، بدليل أن كتبه الصوفية لم تخل من فضح لأحوالهم ، وقد قال فيهم بأنهم : " فرقة ضالة مضلة ، لا تفتن لضلالتها لاتساعها في الحجاج ، ومعرفتها بدقائق مذاهب الكلام ، وحسن العبارة بالرد على من خالفها ، فهم عند أنفسهم من القائمين على الله ﷻ بالحق ، والرادين لكل ضلالة ، لا أحد أعلم منهم بالله ، ولا أولى به منهم ، وكل الأمم ضالة سواهم ، وأن الله ﷻ لا يضرب مثلهم ، بل لا ينحو في زمانهم غيرهم ، وغيرهم من المعتزين يدعى ذلك ويتحلله ، ويشهد عليهم بالإكفار ، فهم فرق كثيرة يكفر بعضها بعضا ، وكل فرقة منها مغترة ، لا ترى أن أحدا يقول عليه بالحق غيرها " ^(٣) .

وكتابه " فهم القرآن " هو الذي يحوي بعض آرائه الكلامية ، وعليه اعتمد شيخ الإسلام ابن تيمية في نقل أقواله ^(٤) .

منهجه في التصوف :

لقد كان سبيل النجاة عند المحاسبي وثيقة الصلة بالتمسك بتقوى الله ﷻ وأداء فرائضه ، والورع في حلاله وحرامه ، والإخلاص لله ﷻ بطاعته والتأسي برسوله ﷺ ،

(١) تاريخ بغداد ٢١١/٨ ، وطبقات الشافعية ٢٧٦/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٠/١٢ ، وميزان الاعتدال ٤٣٠/١ .

(٣) الرعاية لحقوق الله ص ٤٥٨ .

(٤) انظر : درء التعارض ٤٥/٢ ، ومجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٥٥٧/٥ .

وطريق الوصول ووسيلة البلوغ قائمة على رعاية حدود الشريعة : " فمن شرح الله صدره ووصل التصديق إلى قلبه ورغب في الوسيلة إليه لزم منهاج ذوي الألباب برعاية حدود الشريعة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة " ^(١) . ويرى من إمارات الباطن السليم تزيين الظاهر بالمجاهدة واتباع السنة ^(٢) .

وأركان التصوف وأسسها عند المحاسبي تقوم على الزهد ، والمحاسبة ، والمحبة .

فيعني الزهد عند المحاسبي بالعزوف عن الدنيا ولذاتها وشهواتها ، فتتصرف النفس ويتعزز الهم ؛ ويعني بانصراف النفس بميلها إلى ما دعا الله ﷻ إليه بنسيان ما وقع بها من طباعها ، وأما اعتزاز الهم فهو الانقطاع إلى خدمة المولى ﷻ بضم الإنسان بنفسه عن خدمة الدنيا مستحيا من الله أن يراه خادما لغيره وينقطع إلى خدمة سيده ، ويتعزز بملك ربه ، فترحل الدنيا عن قلبه ، ويعلم أن في خدمة الله ﷻ شغلا عن خدمة غيره ^(٣) .

والناس يتفاوتون في الزهد حسب نصيبهم من صحة العقل وطهارة القلب ، فأفضلهم أعقلهم وأعقلهم أفهمهم عن الله ، وأفهمهم عن الله أحسنهم قبولا عن الله ، وأحسنهم قبولا عن الله أسرعهم إلى ما دعا الله ﷻ ، وأسرعهم إلى ما دعا الله ﷻ أزهدهم في الدنيا ، وأزهدهم في الدنيا أرغبهم في الآخرة ^(٤) .

والمحاسبة تعني عند المحاسبي " النظر والتثبت بالتمييز لما كره ﷻ مما أحب " . وعرف المحاسبي بها لبلوغه فيها درجة لم يسبقه إليها أحد من أهل التصوف ..

والمحاسبة في أعمال القلوب - عند المحاسبي - تكون في أربعة مواطن .. فيما بين الإيمان والكفر ، وفيما بين الصدق والكذب ، وبين التوحيد والشرك ، وبين الإخلاص والبرياء . وهي على وجهين : في مستقبل الأعمال بالنظر قبل الزلل ليصير ما يضره مما ينفعه فيترك الأولى ويعمل بالثانية ، وفي مستدبرها حين يفرط منه الشيء فيعزم على عدم العودة ، وقد دل على الوجهين الكتاب والسنة ، وأجمع عليهما علماء الأمة ^(٥) .

(١) رسالة المسترشدين ص ٣٠ ، ٥٨ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) انظر : حلية الأولياء ٩٠/١٠ .

(٤) المصدر نفسه ٩١/١٠ .

(٥) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٥٤ - ٥٩ .

وأما المحبة فهي محبة طاعة الله ﷻ ، يقول المحاسبي : " إن أول المحبة الطاعة وهي منتزعة من حب السيد (الله ﷻ) إذ كان هو المبتدي بها ، وذلك أنه عرفهم بنفسه ، ودلهم على طاعته ، وتحبب إليهم على غناه عنهم .. " (١) ، ويفصل معنى المحبة فيجعله في إثارة تعالى وموافقته التامة ، ويقول : " المحبة ميلك إلى المحبوب بكليتك ثم إثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ثم علمك بتقصيرك في حبه " (٢) .

٩- ذوالنون المصري (ت ٢٤٥هـ - وقيل : ٢٤٨هـ)

لقد عرف بالزهد والورع والعزلة عن الناس ، وهو أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال ومقامات الأولياء ، فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم سيد فقهاء المالكية آنذاك وشاع أنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف فهجره علماء مصر، حتى رموه بالزندقة (٣) .

عاش ذوالنون في عصر حفل بكثرة من ظهر فيه من أئمة الفقهاء وعلماء الحديث ومشايخ الصوفية ، فاتصل بأولئك وهؤلاء وتأثر بهم ، فهو قد اتصل بالإمام أحمد بن حنبل واجتمع به ، كما اجتمع به غيره من مشايخ الصوفية الذين كان منهم بشر الحافي والسري السقطي ومعروف الكرخي .

وقد حفلت كتب التراجم والطبقات التي عرضت لحياة ذي النون بكثير من أقواله وأدعيته التي تصور لنا كثيرا من آرائه في مختلف المسائل الصوفية ، ولعل أبا نعيم فيما أورد في حليته من آثار ذي النون أكثر المؤلفين مادة وإيرادا للحياة التاريخية والمذهبية لذي النون ، وذلك لما يتضمنه من عناصر روحية ، لها قيمتها التصوفية والفلسفية ، فالنفس الإنسانية وتحليل خطراتها وشهواتها وأخلاقها ، ووصف أحوالها ومقاماتها من ناحية ، وعن معرفة الله ﷻ ووحديته وعلاقاته بالمخلوقات من ناحية أخرى .. وغير ذلك من رؤوس المسائل المبثوثة في كتاب الحلية (٤) .

ومن أبرز أفكاره التي تنم عن فكره الصوفي تناوله فكرة الطريق أو الوصول إلى الله ﷻ ، فكان مدار الكلام عنده في هذه الناحية يقوم على حب الجليل ، وبغض القليل،

(١) حلية الأولياء ٨٦/١٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٣٢٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٣٤/١١ .

(٤) انظر : حلية الأولياء ٣٤٥/٩ - ٣٩٩ .

واتباع التزليل ، وخوف التحويل ^(١) . وحينما سئل عن المحبة قال : " أن تحب ما أحب الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغلك عن الله ، وألا تخاف في الله لومة لائم ، مع العطف للمؤمنين ، والغلظة على الكافرين ، واتباع رسوله ﷺ في الدين " ^(٢) . فهو قد جعل من حب الله ﷻ والإعراض عن الدنيا والسير على نهج الكتاب والسنة ، والخوف أن ينكص الإنسان على عقبيه متابعة لنفسه ومسايرة لشهواتها أسسا يقوم عليها مذهبه الصوفي ، ومعالم واضحة للسالكين إلى الله ﷻ ، وقد قدم حب الجليل على غيره من الأسس لأنه كان يرى أن " من علامات المحب لله متابعة حبيب الله في أخلاقه ، وأفعاله وأمره وسننه " ^(٣) .

وهذا يعني بعبارة أخرى أن الوقوف مع النفس الأمارة بالسوء والخضوع لتزواتها هو - عند ذي النون - أكثف أنواع الحجب ، ولهذا نجده يتحدث عن الذنب ، ويرى أن سبب الذنب النظرة ، وأن من النظرة الخطرة ، وأن تدارك الخطرة هو الرجوع إلى الله ﷻ ، وإلا فإنها تمتزج بالوساوس فتتولد منها الشهوة ، وهذا كله باطن لم يظهر بعد على الجوارح هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تدارك الإنسان للشهوة ما يجعله بمأمن من غوائلها . ولا يقف ذوالنون في تحليله للنفس الإنسانية عند هذا الحد ، بل يتحدث عن أخلاق النفس ، وما ينبغي أن تتحلى به ، أو ما ينبغي أن تتخلى عنه . وقد سأله رجل فقال : يا أبا الفيض دلي على طريق الصدق والمعرفة ؟ فقال : " يا أخي أد إلى الله ﷻ صدق حالتك التي أنت عليها على موافقة الكتاب والسنة .. وإياك أن تترك ما تراه يقينا لما ترجوه شكاً " ^(٤) . وسئل أيضا : بم عرف العارفون ربهم ؟ فقال : " إن كان بشيء فقطع الطمع والإشراف منهم على اليأس مع التمسك منهم بالأحوال التي أقامهم عليها ، وبذل المجهود من أنفسهم ثم إنهم وصلوا بعد إلى الله بالله " ^(٥) .

إن طريق الوصول إلى الله ﷻ - عند ذي النون - شاق وعسير يجب أن يتدرج فيه السالك في مراحل يسلم بعضها إلى بعض ، ويستطيع السالك من خلالها أن يصفى نفسه

(١) انظر : الرسالة القشيرية ص ٤٣٣ .

(٢) طبقات الصوفية ص ١٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١ .

(٤) حلية الأولياء ٣٦٥/٩ .

(٥) المصدر نفسه ٣٦٦/٩ .

وينقي قلبه عن طريق المحبة واليقين ، والثقة بالله ﷻ ، والشكر والرضا ، والأنس والشوق ، والخوف والإخلاص ، والتوكل والصبر ، والزهد والعبادة ، والمعرفة والتقوى ، والصدق وحسن الخلق وغير ذلك مما هو موضوع رئيسي للتصوف ، ودعامة قوية لما ينبغي أن يحياه المتصوف من حياة روحية ، قوامها الإقبال على الله ﷻ ، وغايتها الظفر بالقرب من الله ﷻ

١٠- أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ - وقيل : ٢٦٤هـ)

قال عنه الإمام الذهبي : وله كلام نافع من ذلك قوله : " ما وجدت شيئا أشد علي من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت حائرا " . وعنه قال : " هذا فرحي بك وأنا أخافك ، فكيف فرحي بك إذا أمنتك ؟ ليس العجب من حي لك ، وأنا عبد فقير وإنما العجب من حبك لي ، وأنت ملك قدير " ^(١) .

كما أن له كلاما موافقا لما عليه السلف الصالح حينما قال : " لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرفع في الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجذونه عن الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة " ^(٢) .

إلى جانب هذه النصوص وغيرها نجد له نصوصا أخرى تصطدم مع العقيدة الصحيحة ، حيث صدرت عنه عبارات منحرفة حينما تحدث عن صلة الله ﷻ بالكون وخاصة الإنسان . فمن تلك العبارات قوله : " غبت عن الله ثلاثين سنة ، وكانت غيبي عنه ذكرى إياه ، فلما خنست عنه وجدته في كل حال حتى كأنه أنا " ^(٣) .

ومن أقواله الشهيرة : " سبحاني ما أعظم شأني ، حسبي من نفسي حسبي " ^(٤) ، وروى أن أبا يزيد دخل مدينة فتبعه فيها خلق كثير ، ثم صلى بهم الفجر فالتفت إليهم وقال : " إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون .. فقالوا جن أبو يزيد فتركوه " ^(٥) ، وقال أيضا : " طلقت الدنيا ثلاثا ثلاثا بتاتا لا رجعة فيها ، وصرت إلى ربي وحدي فناديت بالاستغاثة إلهي أدعوك دعاء لم يبق له غيرك ، فلما عرف صدق الدعاء من قلبي والإياس من نفسي

(١) حلية الأولياء ٣٤/١٠ ، وسير أعلام النبلاء ٨٦/١٣ .

(٢) حلية الأولياء ٤١/١٠ .

(٣) المصدر السابق ٣٥/١٠ .

(٤) شطحات الصوفية ص ١٠١ .

(٥) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

كان أول ما ورد عليّ من إجابة هذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية ، ونصب الخلائق بين يدي مع إعراضي منهم " (١) .

ومن خلال هذه النصوص تبين لنا أن البسطامي قد وضع فكرة الفناء الصوفي ، وبهذا كان يعتبر أول من يمثل مرحلة انتقال خطيرة في التصوف إلى اتجاه فلسفي خالص قائم على أساس فكرة الاتحاد والوحدة ، ولعله أخذ هذه النظرية من جذورها الهندية ، وأكد ذلك نيكولسون بأن الفكرة الصوفية في فناء الذات في الوجود الكلي هي بلا ريب من أصل هندي . لأنها تتفق مع النرفانا ، وربما كانت أشد اتصالاً بفكرة الفيدانتا وما ماثلها من الأفكار الهندية ، وربما أبو يزيد تلقاها عن شيخه أبي علي السندي (٢) ، الذي علمه الطريقة الهندية ، التي يسمونها مراقبة الأنفاس ، والتي وصفها هو بأنها عبادة العارف بالله (٣) . وسيأتي الكلام عن الفناء لاحقاً إلا أنني أريد أن أوضح هنا أن فناء أبي يزيد هو سقوط ما سوى الله ، بحيث لا يعود الصوفي مشاهداً إلا حقيقة واحدة هي الله ﷻ ؛ بل لا يعود مشاهداً لنفسه لتتلاشى نفسه في مشهوده ، وهو ما يعبر عنه بمحو الرسوم ، وفناء الهوية وغيبة الآثار ، وعندئذ يتحد بالحق اتحاداً كاملاً .

ولاشك أن عباراته " سبحاني ما أعظم شأن ، حسي من نفسي " و " إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون " عبارات منكراً ؛ بل هي كلمة شرك ، ومخالفة لما اعتقده السلف الصالح من عقيدة صافية من كل شائبة .

أما إذا واصلنا الكلام إلى بعض كلماته المنحرفة التي تصطدم مع تعاليم ديننا الحنيف فإننا نجد أنها مبثوثة في كتاب الحلية وطبقات الأولياء ، من ذلك قوله : " طلقت الدنيا ثلاثاً ثلاثاً بتاتا لا رجعة فيها .. " (٤) ، وقوله : لما سئل : بأي شيء وجدت هذه المعرفة ؟ قال بيطن جائع وبدن عار " (٥) .

فقد كانت إجابة البسطامي مخالفة صريحة لسنة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ، ذلك أن الشارع الحكيم نهى عن الغلو والتشدد على النفس فقال ﷻ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

(١) حلية الأولياء ٣٦/١٠ .

(٢) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٧٥ .

(٣) انظر : اللمع للطوسي ص ٢٣٥ .

(٤) حلية الأولياء ٣٦/١٠ .

(٥) طبقات الأولياء ص ٣٩٩ .

لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١﴾ . كما حذر الرسول ﷺ من مشابهة أهل الكتاب فقد سأل رجل النبي ﷺ فقال: إن من الطعام طعاما أخرج منه فقال: « لا يخلجن في نفسك شيئا ضارعت فيه النصرانية »^(٢) ، أي لا يدخل في قلبك ضيق وحرَج لأنك على الحنفية السهلة ، فإذا شككت وشدت على نفسك بمثل هذا شابهت فيه الرهبانية .

كما نهى النبي ﷺ عن التشدد على النفس فقال فيما رواه أنس بن مالك ﷺ « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »^(٣) . فالحديث وغيره يرد ردا قاطعا على أبي يزيد وعلى سلوكه المنحرف عن منهج الله ﷻ الذي وضعه على رسوله ﷺ .

١١- سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣هـ)

لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع ، فهو صاحب كرامات ، وكان عامة كلامه في تصفية الأعمال ، وتنقية الأحوال عن المعاييب والإعلال ، قال أبو نعيم : سمعت أبي يقول : سمعت أبا بكر الجوري يقول : سمعت أبا محمد سهل بن عبد الله يقول : " أصولنا ستة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى والافتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق " ^(٤) .

وقال : " من كان اقتداؤه بالنبي ﷺ لم يكن في قلبه اختيار لشيء من الأشياء ، ولا يجول قلبه سوى ما أحب الله ورسوله ﷺ " ^(٥) .

وهذا دليل على حرصه الشديد على التمسك بكتاب الله ﷻ ، والافتداء بسنة رسوله ﷺ ، وموافق لما دل عليه قول الله ﷻ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ^(١) .

(١) سورة المائدة ، الآية (٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة ، باب في كراهية التقدر للطعام ١٤٨/٤ (٣٧٨٤) ، والترمذي في السير ،

باب طعام المشركين (١٥٦٥) وأحمد ٢٢٦/٥ ، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٢٧٠) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ، باب الحسد ٢٠٩/٥ (٤٩٠٤) .

(٤) حلية الأولياء ١٠/١٩٨ .

(٥) حلية الأولياء ١٠/١٩٨-١٩٩ .

أما رأيه في التوكل فيتضح في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ^(٢) قال : من يتق الله في دعواه فلا يدعي الحول والقوة ويتبرأ من حوله وقوته ، بل يرجع إلى حول الله وقوته يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، قال : لا يصح التوكل إلا لمتق ، ولا تتم التقوى إلا لمتوكل لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) ، وقال : من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ومن طعن في التكسب فقد طعن في السنة . وقال أيضا : " ليس في خزائن الله أكبر من التوحيد " ^(٤) .

وهذه كلمات أخرى تبين مدى موافقة اعتقاده للكتاب والسنة ، وأنه يعظم توحيد الله ﷻ . ولهذا مدحه شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه من صوفية أهل العلم ، فهو اعتراف منه - رحمه الله - بمزله السامية ومكانته الرفيعة ، وأنه لم يخالف الشريعة كما هو واضح من كلام سهل التستري في اتباع الكتاب والسنة .

١٢- أبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٧هـ)

قال عنه السبكي : " هو سيد الطائفة ومقدم الجماعة وإمام أهل الخرقه وشيخ طريقة التصوف " ^(٥) . وحكى عن نفسه عندما كان صبيا " كنت بين يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ قلت : أن لا تعصي الله بنعمه ، فقال لي : أحشى أن يكون حظك من الله لسانك ، قال الجنيد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي " ^(٦) . وحكايته عن نفسه هذه تدل على منزلته في التصوف .

الجنيد هو أول من نادى صراحة بالتمسك بالكتاب والسنة واتباع الشريعة في ميدان التصوف فهو القائل : " الطريق إلى الله مسدود على خلق الله ﷻ إلا على المقتفين آثار

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٣٦) .

(٢) سورة الطلاق ، الآية (٢) .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٢٣) .

(٤) حلية الأولياء ١٠/٢٠٤-٢٠٥ .

(٥) طبقات الشافعية ٢/٢٦٠ .

(٦) صفة الصفوة ٢/٤١٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/٦٨ .

رسول الله ﷺ والتابعين لسنته ، كما قال الله ﷻ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (١) " (٢) .

أورد الخطيب بإسناده : أخبرنا أبو نعيم الحافظ قال : سمعت علي بن هارون الحربي ومحمد بن أحمد بن يعقوب الوراق يقولان : سمعنا أبا القاسم بن محمد غير مرة يقول : علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدي به . ثم ساق إسنادا آخر عن عبد الواحد بن علوان الرحي قال : سمعت الجنيد بن محمد يقول : علمنا هذا - يعني علم التصوف - مشبك بحديث رسول الله ﷺ (٣) وهذه النصوص تدل على صلاحه وحسن منزلته .

وقد ترجم له ابن الملتن في طبقات الأولياء (٤) ، وذكر فيها ماله وما عليه ، كما ترجم له أبو يعلى ترجمة مختصرة وجاء فيها وقال الخلدي : " رأيت الجنيد في النوم فقلت ما فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في الأسحار " (٥) .

وهذه رؤيا منامية لا يحتج على ما جاء فيها من نصرة الشريعة الإسلامية إنما نستأنس بها على أحقية الشريعة كما ثبت ذلك عن نصوص الكتاب والسنة ، ويكفي أن نقول : بأن أبا القاسم ذو علم وصلاح وتقوى من خلال قوله كما ذكره الخطيب في تاريخه وابن الملتن في طبقاته إذ قال الجنيد : " ما أخذنا التصوف عن القال والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله ﷻ ، وأصله التعزف عن الدنيا " (٦) ، ولا يعني بذلك ترك الأكل والدنيا بتاتا كما تعتقده الصوفية المنحرفة عن جادة الصواب ، ذلك أن علم الجنيد مقيد بالكتاب والسنة كما قال بذلك : علامة إعراض الله عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه ، وقال أيضا : ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

(٢) صفة الصفوة ٤١٨/٢ .

(٣) تاريخ بغداد ٢٤٣/٧ .

(٤) انظر : ص ١٢٦ - ١٣٦ .

(٥) طبقات الحنابلة ١٢٧/١ - ١٢٩ .

(٦) تاريخ بغداد ٢٤٦/٧ .

ولا شك أن هذا الكلام يوافق ما دل عليه الكتاب والسنة ، ويقطع جميع الشبهات الباطلة التي أثارها أهل التصوف من الإلحاد والزندقة ، والحلول والاتحاد وغير ذلك من الألفاظ والمعاني الكفرية البعيدة عن الحق والإنصاف خصوصا المتأخرين من الصوفية . ولكن التصوف في عصره قد اقترب من المرحلة التي أصبح فيها منهجا للمعرفة ، وبدأت معالم الكشف تتخذ أحد الصور الخطيرة بادعاء بعض الصوفية سقوط التكاليف الشرعية ، ومن هنا صرح الجنيد لشخص ذكر المعرفة فقال : " أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله ﷻ فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهذه عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها ، وإنه لأؤكد في معرفتي وأقوي في حالي " (١) .

كما اتخذ الجنيد موقف الخصومة من علم الكلام فيقول : " أقل ما في الكلام سقوط هبة الرب من القلب ، والقلب إذا عري من الهيبة بالله عري من الإيمان " (٢) . إلى جانب معارضته من إسقاط التكاليف فإنه يعارض أيضا ما يسمى بمقام المشاهدة الذي بدأ يتسرب إلى الفكر الصوفي ليتخذ منه نظرية معروفة ، وهذه الفكرة كانت تلح على المحيطين بالجنيد فيسألون عنها " هل عاينت أو شاهدت " ؟ ونعثر في إجابته على دحضه لنظرية الكشف الصوفي (٣) التي يروج لها الصوفية المتأخرون ، حيث أجابهم بهذه العبارة الناقدة " لو عاينت تزندقت ، ولو شاهدت تحيرت " (٤) .

١٣- الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ)

قال عنه الإمام الذهبي : " وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايع والعلماء من سوء سيرته ومروقه ، فمنهم من نسبته إلى الحلول ، ومنهم من نسبته إلى الزندقة ، وإلى الشعبة .. وقد

(١) طبقات الصوفية ص ١٥٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦٨/١٤ .

(٣) هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودا وشهودا . انظر : معجم

مصطلحات الصوفية للحفني ص ٢٢٥ .

(٤) شذرات الذهب ٢٢٨/٢ .

تستر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال ، وانتحلوه وروجوا به على الجهال ، نسأل الله العصمة في الدين " (١) .

قال أبو نصر السراج : صحب الحلاج عمرو بن عثمان ، وسرق منه كتباً فيها شيء من علم التصوف . (٢)

ومن خلال القراءة لأخباره يتضح أن الحلاج أول من قال بالحلول تطبيقاً لا نظرياً حيث ادعى أن الله ﷻ حل في نفسه مصرحاً بعبارته المشهورة " أنا الحق " أي أنا الحق الخالق ، فإن كلمة الحق يراد بها الخالق في مقابل كلمة الخلق أي المخلوقات أو العالم (٣) .

كما ادعى الحلاج أيضاً بأنه إله ، كما ذكر الخطيب بإسناده عن أبي بكر بن ممشاد : حضر عندنا بالدينور رجل معه مخلاة فما كان يفارقها بالليل ولا بالنهار ، ففتشوا المخلاة فوجدوا فيها كتاباً للحلاج عنوانه : من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان فوجه إلى بغداد ، فأحضر وعرض عليه ، فقال : هذا خطي وأنا كتبته ، فقالوا : كنت تدعي النبوة فصرت تدعي الربوبية ؟ فقال : ما أدعي الربوبية ولكن هذا عين الجمع عندنا ، هل الكاتب إلا الله وأنا واليد فيه آله ، فقليل : هل معك أحد ؟ فقال : نعم ابن عطاء وأبو محمد الحريري وأبو بكر الشبلي ، وأبو محمد الحريري يتستر ، والشبلي يتستر ، فإن كان فابن عطاء ، فأحضر الحريري فسئل فقال : هذا كافر يقتل من يقول هذا ، وسئل الشبلي فقال : من يقول هذا يمنع ، ثم سئل ابن عطاء عن مقالة الحلاج فقال بمقالته فكان سبب قتله " (٤) .

وقد روى الذهبي هذه القصة ولكن ذكر في نهاية القصة قلت (الذهبي) : أما أبو العباس بن عطاء فلم يقتل ، وكلم الوزير بكلام غليظ لما سأله وقال : ما أنت وهذا ، اشتغلت بظلم الناس فعززه (٥) .

فادعاء الحلاج في هذه العبارة كفر وزندقة وانحراف عن عقيدة السلف الصالح .

وقال ابن كثير : دخل الحلاج الحلول والاتحاد ، فصار من أهل الانحلال والانحراف ، وقد روي من وجه أنه تقلبت به الأحوال ، وتردد إلى البلدان ، وهو في ذلك يظهر للناس

(١) سير أعلام النبلاء ٣١٤/١٤ .

(٢) اللمع للطوسي ص ٤٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤١١ ، وفي التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٣٢ .

(٤) تاريخ بغداد ١٢٨/٨ - ١٢٩ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٣٢٨/١٤ - ٣٢٩ .

أنه من الدعاة إلى الله ﷻ ، وصرح أنه دخل إلى الهند وتعلم السحر ، ويكاتبه أهل تركستان بالمقيت ، ويكاتبه أهل خراسان بالميز ، وأهل فارس بأبي عبد الله الزاهد ، وأهل خورستان بأبي عبد الله الزاهد حلاج الأسرار ، وكان بعض البغاددة من كان عندهم يقولون له : المصطلم ، وأهل البصرة يقولون له المحير ^(١) .

وهذا ما دعا الذهبي إلى القول بأن الحسين بن منصور المقتول على الزندقة ما روى - والله الحمد - شيئا من العلم ، وكانت له بداية جيدة وتأله وتصوف ، ثم انسلخ من الدين وتعلم السحر ، وأراهم المخاريق ، أباح العلماء دمه فقتل سنة تسع وثلاثمائة ^(٢) وروى أنه وقف ذات يوم على حلقة أبي بكر الشبلي فقال : " أنا الله " فقال الشبلي : " أنت بالله ستفسد خشبة " ^(٣) . وكان يمر يوما على الجنيد فقال : " أنا الحق " فقال الجنيد : أنت بالحق خشبة تفسد " ^(٤) وهذه الكلمات لم تكن من جنس الشطحات أو الجذبات وإنما هي نظرية متكاملة في الإلهيات ، كانت من صميمها وجوهرها من وصفه نفسه . وحينما قالها الحلاج هذه الكلمة كان في تمام الوعي ، أي كان في حضور ومالكا لحاله ^(٥) .

لقد كان الحلاج في تعبيره عن أفكاره أدق وأعمق من البسطامي ، فقد صرح بالتحليل الجديد للصلة بين الله ﷻ والكون ، وخاصة الإنسان بأن الاتحاد بالله ﷻ هو غاية الكون جميعا . فكان الحلاج يمثل حلقة أخرى في سلسلة متتابعة من حركات الغلو والزندقة التي حاولت تشويه معالم العقيدة الإسلامية بما لفقت من آراء ومذاهب ومعتقدات أجنبية ، وجدها المسلمون في الأراضي المفتوحة ، والباب الذي ولج منه الحلاج هو الفناء كخطوة أولى إلى الحلول والوحدة مع الله ﷻ ، ومن هنا مضى الصوفية في مدرسة الحلاج حتى جعلوا من الإسلام مذهبا في الوحدة ^(٦) .

(١) البداية والنهاية ١٣٢/١٢ .

(٢) لسان الميزان ١٤٨/١ .

(٣) أخبار الحلاج ص ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

(٥) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٣٢ .

(٦) صلة الله بالكون في التصوف الفلسفي ، لسعيد سراج عقيل ، رسالة دكتوراه ، بجامعة أم القرى (١٤١٤ هـ)

كما كان الحلاج أول من وضع نظرية " النور المحمدي " أو الحقيقة المحمدية في الوسط الصوفي ، إذ هو يرى أن محمد ﷺ حقيقتين : الأولى قديمة تتمثل في النور الأزلي ؛ وهو النور الذي كان قبل أن تكون الأكوان ، ومنه استمد كل علم وعرفان ، ومن هذه الحقيقة القديمة استمد كل الأنبياء السابقين من محمد ﷺ ، وكذلك الأولياء اللاحقين له حسب زعمه . والحقيقة الثانية حادثة تتمثل في اعتباره كائنا محدثا ، ثم في صورته نبيا مرسلا ، وجد في زمان ومكان محددين ، وهو هنا إنما صدر عن ذلك النور الأزلي القديم ^(١) على حسب ادعائه .

يقول الحلاج : " طس سراج من نور الغيب ، وبدا وعاد ، وجاوز السراج وساد قمر تتجلى بين الأقمار ، برجه في فلك الأسرار ، سماه الحق " أميا " لجمع همته ، و " حرميا " لعظيم نعمته ، و " مكيا " لتمكينه عن قربه " ، ثم بين كيف استمدت أنوار النبوة من ذلك النور القديم ، فقال : " أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم لأنه كان من قبل الاسم ^(٢) . ووضح كيف أن العلوم كلها قطرة من بحر علمه فقال : " فوّه غمامة برقت ، وتحت لمعت وأشرقت ... وأثمرت ، والعلوم كلها قطرة من بحره ، الحكم كلها غرفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره " ^(٣) .

ثم بين مكانته من حيث القرب من الله ، فهو الأول وفي النبوة فهو الآخر ، فقال : " الحق به وبه الحقيقة ، هو الأول في الوصلة ، هو الآخر في النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة " ^(٤) .

ويترتب على القول بقديم النور المحمدي للحلاج القول بوحدة الأديان ، لأن مصدرها في هذه الحالة واحد ، وهذه الأديان قد فرضت على الناس لا اختيارا منهم ، ولكن اختيارا عليهم ، حيث تمثل نهاية منطقية تبني على تلك النظرية ، التي اعتبرت مدخلا

(١) الحياة الروحية في الإسلام ص ١٤٢ - ١٤٣ ، والفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٢) الطواسين للحلاج ص ٩ - ١١ نقلا عن الحياة الروحية في الإسلام ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٤ .

لنظريته في وحدة الأديان على صورة وحدة العبادة منطلقا من كون المعبود واحدا ، وما تكثر الأديان إلا تعبير ظاهري متعدد الصور لهذه الحقيقة .

والواقع أن فكرة الحقيقة المحمدية خرافة ومناقضة للعقيدة الصحيحة ، أتى بها غلاة المتصوفة لتشكيك المسلمين في أصول دينهم ودعائمه الأساسية ، وهي نظرية مأخوذة عن النصرانية ، ينقضها القرآن الكريم بنصوص صريحة وواضحة . قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ^(٢) ويخاطب الله ﷻ رسوله محمدا ﷺ فيقول : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ ^(٣) ، ويصف الله ﷻ محمدا ﷺ بصفة العبودية فيقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ ^(٤) ، ومحمد الإنسان الرسول ﷺ يقول : « إنما أنا بشر مثلكم وإن الظن يخطئ ويصيب ولكن ما قلت لكم قال الله ﷻ فلن أكذب على الله » ^(٥) .

وقد اعتقد الدكتور زكي مبارك بأن الحقيقة المحمدية ترجع في أصولها إلى العقائد النصرانية فيقول : والواقع أن الحقيقة المحمدية أسطورة من الأساطير ، وهي مأخوذة من النظرية النصرانية ، كما أن النظرية النصرانية مأخوذة من الفلسفة اليونانية ، التي تقسم القوى إلى عقول ^(٦) .

تلك مقتطفات لأهم رجال الصوفية البارزين في القرنين الثاني والثالث الهجريين كما ذكرهم المؤرخون وكتاب التراجم والطبقات .

وقد اتضح من خلال القراءة لتراجمهم وآرائهم أن منهم من يوافق ما يقولونه وما يذهبون إليه من أعمال القلوب مع ما في الكتاب والسنة ، كالجنيد وأبي سليمان الداراني وسهل التستري ، حتى وإن كانوا على انحراف ومبالغة في بعض الأمور ، وخاصة أن منهم

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٤٤) .

(٢) سورة الكهف ، الآية (١١٠) .

(٣) سورة الزمر ، الآيتان (٣٠ - ٣١) .

(٤) سورة الإسراء ، الآية (١) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في أبواب الأحكام ٦٨/٢ (ح ٢٤٩٥) ، وأورده الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٠٢) .

(٦) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ٢١٠/١ - ٢١١ .

من يكون له خطأ واضح ، وتشدد زائد ، وانحراف خطير ، يتضح ذلك من خلال أقوالهم وأعمالهم التي تمس العقيدة الصحيحة كما حدث للحارث المحاسبي ، وأبي يزيد البسطامي ، وابن منصور الحلاج ، مما يدعوننا إلى الحذر من ذلك ، وخاصة أن هناك ثلة من المتصوفة - بعد القرون المفضلة - من ينادون إلى الكفر والزندقة والحلول والاتحاد ، ويضللون الناس بأن أفكارهم وأعمالهم هي الأعمال المطبقة نفسها في عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، وفي عهد الأعلام الأخيار الذين جاءوا بعدهم .

ومن هنا نقول : إن لقب الصوفية لم يكن معروفا - كما هو واضح من دراستنا - في صدر الإسلام ، ولم يطلق على أحد من المسلمين ، لا في عصر الرسول ﷺ ، ولا في عصر الصحابة رضي الله عنهم ، فالتصوف اسم طارئ في الإسلام ناشئ في الأمة حادث فيها ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " كان السلف يسمون أهل الدين والعلم القراء ، فيدخل فيهم العلماء ، والنساك ، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء .. " (١) ولعله من المرجح أن لقب (الصوفي) نشأ في أواخر القرن الثاني ، وشاع في القرن الثالث الهجري . وإن كان صاحب اللمع يعلن أن هذا اللقب كان معروفا في وقت التابعي الجليل الحسن البصري (ت ١١٠هـ) ، وقد روى عنه أنه قال : رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي (٢) .

ويميز شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الصفدية بين ثلاث فئات من الصوفية ، أو ثلاثة أطوار للتصوف ، فيقول : " والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية ، وأبو القاسم القشيري في الرسالة كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة ، ومذهب أهل الحديث كالفضيل بن عياض ، والجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وعمرو بن عثمان المكي ، وأبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي وغيرهم ، وكلامهم موجود في السنة ، وصنفوا فيها الكتب ، لكن بعض المتأخرين منهم كان على طريقة أهل الكلام في بعض فروع العقائد ، ولم يكن فيهم أحد على مذهب الفلاسفة ، وإنما ظهر التصوف في المعتزلة المتأخرين ، فصارت المتصوفة تارة على طريقة صوفية أهل

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٩٥/١١ .

(٢) اللمع للطوسي ص ٤٢ .

الحديث وهم خيارهم وأعلامهم ، وتارة على اعتقاد صوفية أهل الكلام فهؤلاء دونهم ، وتارة على اعتقاد صوفية الفلاسفة كهؤلاء الملاحدة " (١) .

وفي ضوء النص السابق لشيخ الإسلام يمكننا أن نميز في تاريخ التصوف بين ثلاث مراحل متعاقبة ، ظهر في كل مرحلة طائفة من الصوفية وهذه الطوائف هي :

١- صوفية أهل الحديث ، حيث استنبطوا الزهد من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وسيرته ، وسير أصحابه الكرام ، وقد يؤخذ على بعضهم المبالغة والغلو في الزهد ولكنهم لم يقحموا في أقوالهم نظريات أجنبية دخيلة ، ويمثل هذا التصوف إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـ) ، وداود الطائي (ت ١٦٥هـ) ، والفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ) ، ومعروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ) ، وأبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ) ، وبشر الحافي (ت ٢٢٧هـ) ، وسهل التستري (ت ٢٨٣هـ) ، والجنيد بن محمد (ت ٢٩٧هـ) ، وأبو عثمان النيسابوري (ت ٢٩٨هـ) .

لم يكن هؤلاء الصوفية المتقدمون وأمثالهم فلاسفة استمدوا أفكارهم من فلسفات أجنبية ، أو أديان مخالفة ؛ وإنما استنبطوها من تعاليم الكتاب والسنة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " كان الشيوخ العارفون المستقيمون من مشايخ التصوف وغيرهم يأمرؤ أهل القلوب ، أرباب الزهد والعبادة والمعرفة والمكاشفة بلزوم الكتاب والسنة " (٢) .

وهذا واضح من كلمات هؤلاء الأعلام :

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد : " الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ . وقال أيضا : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم بعلمنا .

وقال أبو حفص : من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال .

(١) كتاب الصفدية ، تحقيق محمد رشاد سالم ٢٦٧/١ .

(٢) انظر : الرد على المنطقيين ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، لاهور (إدارة ترجمان السنة) ص ٥١٤ - ٥١٦ .

وقال أبو سليمان الداراني : ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة " . وقال أيضا : ليس لمن ألهم شيئا من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر ^(١) .

وقال سهل التستري معبرا عن أصول التصوف : " أصول طريقتنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعصية ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق " .

وقال أبو عثمان : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ^(٢) " ^(٣) .

وهذه العبارات تدل دلالة واضحة على حرصهم على التمسك بالكتاب والسنة ، ومتابعة الرسول ﷺ ، ولكن دخل في طريقتهم أقوام يبدع وفسق وانحرافات كأبي يزيد البسطامي رغم أنه تكلم بكلام متفق مع ما دعا إليه السلف الصالح ، لأن الناظر إلى شطحاته وأقواله في الحلول ووحدانية الوجود ، ودعوى المعراج الصوفي وغيرها لا يستطيع بحال من الأحوال أن يشهد للرجل بالالتزام بالكتاب والسنة وإنما لا بد من الإقرار بأن منابع فكره ممزوجة بمنابع أخرى غير إسلامية ، بل كانت فارسية وهندية ..

٢- صوفية أهل الكلام ، وهم الذين خلطوا التصوف بآراء كلامية ، حيث يأخذ أهل السنة والجماعة عليهم ما يأخذونه على المتكلمين من خلط العقيدة بالمسائل الكلامية ، وهي مصدر بدعهم فضلا عن البدع ذات المصدر الصوفي ، ويمثل هذا التصوف الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) ، ولكن تصوفه لم يكن مثل الصوفية المنحرفين في الغلو والانحراف ، بل كان كثيرا ما يشير إلى وجوب الالتزام بالكتاب والسنة ، ومتابعة الشرع .

وإذا كان الحارث المحاسبي يركز على أعمال القلوب وخطرات النفوس ، ومسائل تتعلق ببواطن الأعمال ، ومقاصد الإنسان فيها كالنية ، والمراقبة ، والتوكل ، والعجب ، والرياء ، والحسد وغيرها .. ويطيل الكلام في كل واحدة منها ما يراه من وسائل إصلاح

(١) مدارج السالكين ٤٣٤/٢ .

(٢) سورة النور ، الآية (٥٤) .

(٣) مدارج السالكين ٤٣٥/٢ .

النفس إلا أنه يأمر مع ذلك باتباع الشرع بفعل الأوامر واجتناب النواهي ، يتجلى ذلك عندما تكلم في آداب النفوس فيقول : " ثم اعلم يا أخي أن الله ﷻ ذكره قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة ، وشرع لك شرائع ، وذلك عليها ، وأمرك بها ، ووعدك على حسن أدائها جزيل الثواب ، وأوعدك على تضييعها أليم العقاب رحمة لك ، وحذرك نفسه شفقة منه عليك ، فقم يا أخي بفرائضه ، والزم شرائعه ، ووافق سنة نبيه ﷺ ، واتبع آثار أصحاب نبيه والزم سيرتهم ، وتأدب بأدابهم واسلك طريقهم ، واهتد بهداهم... " (١) .

ويقول عن أول منزلة من الرعاية لحقوق الله ﷻ أنها : " الرعاية عند الخطرات بعد اعتقاد جمل حقوق الله تعالى ، فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه إلا جعل الكتاب والسنة دليلين عليها ، فلم يقبلها باعتقاد الضمير ، ولا يتركها يسكن قلبه في مجال الفكر من التمني وغيره إلا أن يشهد له العلم أن الله ﷻ قد أمر بها وندب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ووقيتها وإرادته فيها ، فإنه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي معصية ، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر .. " (٢) .

هكذا تصوف الحارث المحاسبي كثيرا ما يدعم بما يوافق الكتاب والسنة وأقوال الصحابة على بعض الأمور التي يذكرها (٣) .

أما الحسين بن منصور الحلاج فقد ابتعد عن الكتاب والسنة ، وتمسك بالكفر والزندقة حين أعلن دعوى الحلول ، أي أن الله ﷻ حل فيه - تعالى الله علوا كبيرا - وأصر على مقولته الشنيعة ، فصار من أهل الانحلال والانحراف ، وانسلخ من الدين ، فأباح العلماء دمه ، فقتل سنة تسع وثلاثمائة .

٣- أما الطائفة الثالثة فهم صوفية الفلاسفة ، أو فلاسفة الصوفية ، وهم الذين أقاموا التصوف على دعائم من علوم اليونان ، والحكمة المشرقية القديمة ، وتعني بذلك تراث الهند وفارس ، والديانات الكتابية كاليهودية والنصرانية ، ومزجوا هذه العناصر المتباينة ، وأنشأوا منها فلسفة صوفية ظاهرها إسلامي وباطنها غير ذلك ، وذاع هذا التصوف في القرنين السادس والسابع الهجريين .

(١) آداب النفوس للحارث المحاسبي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ بيروت (مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٨ هـ)

(هـ) ص ٣٢ - ٣٣ .

(٢) الرعاية لحقوق الله ص ٩٦ .

(٣) رسالة المسترشدين ص ٣٦ .

الفصل الثالث

أهم قضايا التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

وتحته ثمانية مباحث :

المبحث الأول : معرفة الله تعالى

المبحث الثاني : الحب الإلهي

المبحث الثالث : الولاية

المبحث الرابع : الكرامة

المبحث الخامس : الفناء ووحدة الشهود

المبحث السادس : الشريعة والحقيقة

المبحث السابع : السماع

المبحث الثامن : الأحوال والمقامات

المبحث الأول

معرفة الله تعالى

إن الله ﷻ قد أودع في فطر الإنسان معرفة ببارئه ، تدفعه وتقوده إلى تحقيق العبودية لله ﷻ ، والتقرب إليه بألوان من الطاعات والقربات ، مع غاية الذل والحب والخضوع والتعظيم .

و معرفة الله في اعتقاد سلف هذه الأمة مستقرة في القلوب ؛ لأن العباد مفلطرون على معرفة خالقهم ورازقهم ، وهذه المعرفة لا تتم معرفتها أو تصحيحها إلا بمنهج الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهذا ما قرره الإسلام وأثبتته ^(١) .

ومعرفة الله ﷻ عند المتكلمين ليست فطرية بل نظرية ، أي لا توجد في القلوب معرفة بالخالق ﷻ قبل النظر في الآيات الكونية والنفسية ، ومن باب أولى لا يكون فيها ميل إلى عبادة الله ﷻ أو محبته وتعظيمه ^(٢) .

أما معرفة الله ﷻ عند الصوفية فهي الهدف الأساسي لتصوفهم ، وضعوها على أساس التأمل الباطني ، والمجاهدة الروحية ، والرياضة القلبية ، وهي ما يعبرون عنها بمعرفة الحق ^(٣) .

وقد اهتم الصوفية بهذا الجانب أيما اهتمام لاعتقادهم بأن شرف الإنسان وتفوقه على سائر المخلوقات منوط باستعداده لمعرفة الله ﷻ .

وقالوا : إن هذه المعرفة إذا اختصت بالمحسوسات فأداتها كفاية الحواس الخمس ، وإن اختصت بالمعقولات كانت أداتها كفاية الإدراك العقلي ، وإن اختصت بما وراء العقل والمعقول والحس والمحسوس كانت أداتها الإدراك البصيري ^(٤) .

وبين الهجويري : بأن " معرفة الله تعالى على نوعين : أحدهما علم ، والآخر حال ، والمعرفة العلمية هي قاعدة جميع خيرات الدنيا والآخرة " . ثم قال : " وأهم الأشياء للعبد في جميع الأوقات والأحوال معرفة الله جل جلاله مستشهدا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

(١) انظر : فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها ، د. أحمد سعد حمدان ، ط ١ الرياض (دار طيبة للنشر والتوزيع

١٤١٥هـ) ص ٢١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢ .

(٣) انظر : تاريخ التصوف في الإسلام ، د. قاسم غني ص ٥٨٥ .

(٤) جمهرة الأولياء ٢٩٢/١ .

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿١﴾ أي ليعرفون ، معللا في ذلك أن كثيرا من الخلق معرض عن هذا ، سوى من اصطفاهم الله وخلصهم من ظلمات الدنيا ، وأحيا قلوبهم بها ...
فالمعرفة حياة القلب بالحق ، وإعراض السر عما سوى الحق ، وقيمة كل امرئ بمعرفته ، ومن لا معرفة له لا قيمة له " (٢) .

غير أن الهجويري قد أخطأ حينما فسر العبادة بالمعرفة ، وهو بذلك خالف المنهج الصحيح في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ لأن تفسير هذه الآية غير ما ذكره .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي خلقتهم لآمرهم بعبادتي ، لا لاحتياجي إليهم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها ، وهذا اختيار ابن جرير " (٣) .

ثم قال الهجويري موضحا لفظ المعرفة وأنه أفضل من لفظ العلم : " فالناس من علماء وفقهاء سموا صحة العلم بالله : المعرفة ، ومشايخ هذه الطائفة سموا صحة الحال بالله : المعرفة ، ولذلك قالوا إن المعرفة أفضل من العلم ، أي لا يكون عارفا من لا يكون عالما بالحق ، ولكن يكون عالما من لا يكون عارفا .. " (٤) . ويعنون بذلك أن المعرفة تتطلب تجربة مباشرة ، بينما العلم لا يشترط التجربة ، ويقصدون بهما في نطاق التصوف معرفة الله أو العلم به (٥) .

لكن ابن القيم - رحمه الله - لم يوافق على ما ذهب إليه الهجويري وقال مبينا العلاقة بين لفظ المعرفة ولفظ العلم : " وأما لفظ العلم فهو أوسع إطلاقا من المعرفة ...
ثم قال - رحمه الله - : " واختار سبحانه لنفسه اسم " العلم " وما تصرف منه ، فوصف نفسه بأنه عالم ، وعليم ، وعَلَّام ، وَعَلِمَ ، ويعلم ، وأخبر أن له علما ، دون لفظ " المعرفة " في القرآن ، ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له

(١) سورة الذاريات ، الآية (٥٦) .

(٢) كشف المحجوب ، للهجويري ، ترجمة عربية د. سعاد عبد الهادي ، مصر (١٣٩٥هـ) ٥٠٩/٢ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٣٩ / ٤ .

(٤) كشف المحجوب ٥٠٩/٢ .

(٥) أضواء على التصوف ص ١٢٦ .

في معناه " (١) قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ما قال يعرفون ، فميزهم بالعلم ، ولو كانت المعرفة أكمل وأفضل من العلم لميزهم بها . وإنما جاء لفظ " المعرفة " في القرآن في أهل الكتاب خاصة كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٣) وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٤) .

وأضاف قائل : " وهذه الطائفة ترجح " المعرفة " على " العلم " جدا ... وأهل الاستقامة منهم أشد الناس وصية للمريدين بالعلم ، وعندهم أنه لا يكون وليا لله كامل الولاية من غير أولي العلم أبدا فما اتخذ الله ولا يتخذ وليا جاهلا ، والجهل رأس كل بدعة وضلالة ونقص ، والعلم أصل كل خير وهدى وكمال " (٥) .

ثم بين - رحمه الله - " أن المعرفة عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالما بالله ، وبالطريق الموصل إلى الله ، وبآفاتها وقواطعها ، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة ، فالعارف - عندهم - من عرف الله ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم صدق الله في معاملته ، ثم أخلص له في قصوده ونياته ، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم تطهر من أوساخه وأدرانته ومخالفاته، ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته، ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته .. " (٦) وبعد هذا ، فلو بحثنا في موضوع المعرفة بالله عند أعلام الزهد والصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين فإننا نجد منهم من يشير إلى هذا الجانب .

فهذا الزاهد عبد الله بن المبارك لما قيل له : " بماذا تعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه " (٧) .

(١) مدارج السالكين ٣/٣١٢-٣١٣ .

(٢) سورة الزمر ، الآية (٩) .

(٣) سورة المائدة ، الآيتان (٨٢ - ٨٣) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (١٤٦) .

(٥) مدارج السالكين ٣/٣١٤ .

(٦) المرجع نفسه ٣/٣١٦ .

(٧) المرجع نفسه ٣/٣١٩ .

قال ابن القيم معلقا على هذه العبارة : بأن عبد الله بن المبارك " أتى بأصل المعرفة التي لا يصح لأحد معرفة و لا إقرار بالله ﷻ إلا به ، وهو المبينة والعلو على العرش " (١) .
وما أجاب عليه عبد الله بن المبارك هو ما ذهب إليه السلف الصالح من هذه الأمة ، وهو يدل على صفة العلو لله ﷻ ، فهو سبحانه عال على خلقه لا يشبهه شيء من مخلوقاته متصف بصفات الكمال ، فله الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢) فهو المتفرد بالعظمة المتزه عن العيوب والنقصان . ويدل أيضا على أن معرفة الله ﷻ ثابتة في القلوب لأنها فطرية بحيث لا يحتاج الإنسان إلى عناء ومشقة لكي يعرف خالقه ﷻ .

أما الفضيل بن عياض فقد أشار إلى أن " أحق الناس بالرضا عن الله أهل المعرفة بالله ﷻ " (٣) ، ثم وضع بأن " أعلم الناس بالله أخوفهم له " (٤) . وقد عبر أحمد بن عاصم الأنطاكي (٥) عبارة مشابهة بذلك حينما قال : " من كان بالله أعرف كان له أخوف " (٦) ، ويدل هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٧) .
وبين إبراهيم بن أدهم أن " آية العارف هي أن يكون خاطره أكثر اشتغالا بالتفكير والعبادة ، ويكون أكثر كلامه ثناء ومدحا للحق ، وغالب عمله الطاعة ، وغالب نظره في لطائف الصنع والقدرة " (٨) . وحذر من كثرة النظر إلى الباطل لأنها تذهب بمعرفة الحق من القلب . ثم قال : " وويل لمن ذهب عمره باطلا " (٩) .

(١) مدارج السالكين ٣/٣١٩ .

(٢) سورة الشورى ، الآية (١١) .

(٣) طبقات الصوفية ص ١٠ ، وحلية الأولياء ٨/١٠٧ .

(٤) حلية الأولياء ٨/١٠٧ .

(٥) كنيته أبو عبد الله ، وهو من أقران بشر الحافي ، والسري ، والمحاسبي ، انظر : طبقات الصوفية ١٣٧ .

(٦) طبقات الأولياء ص ٦٤ .

(٧) سورة فاطر ، الآية (٢٨) .

(٨) تاريخ التصوف في الإسلام ص ٦١٧ .

(٩) حلية الأولياء ٢٢، ٢٤ .

وقال شقيق البلخي : " من لم يعرف الله بالقدره فإنه لا يعرفه ، قيل : وكيف يعرفه بالقدره ؟ فقال : يعرف أن الله قادر إذا كان معه شيء أن يأخذه منه ويعطيه غيره ، وإذا لم يكن معه شيء أن يعطيه " (١) .

أما الحارث المحاسبي فقد تحدث عن آثار المعرفة وقيمتها في سلوك الإنسان قائلا :
" إن الله ﷻ جعل نجاه العباد برحمته في المعرفة ، ثم في الإرادة ، ثم في ترك ما أمرهم بتركه ، ثم في العمل بما أمرهم به ، ثم في شكر نعمه التي أنعم بها عليهم قديما وحديثا ، ظاهرا وباطنا " (٢) .

ثم قال : " فأول ما أراد الله تعالى من العباد أن يعرفوه عن الوجوه التي تعرف إليهم منها ، فإنه قد تعرف إليهم من خلقه للخلق ، وتديره في الخلق ، ومن قدرته على الخلق ، وتكفله بأرزاق الخلق ، وإماتته الخلق ، وإحيائه الخلق ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين " .

ثم بين أحوال الناس على حسب معرفتهم بالله ﷻ فقال : " إن الناس إنما يخلصون في أعمالهم على قدر معرفتهم به ، ويتواضعون لله على قدر معرفتهم به ، ويشكرون الله على نعمه على قدر معرفتهم به ، ويرجون الله ويخافون على قدر معرفتهم به ، ويحسنون الظن على قدر معرفتهم به ، ويصبرون على طاعته وعن معصيته وعلى كتمان طاعته وعلى المصائب التي تنزل بها أحكامه على قدر معرفتهم به ، ويحبون ما أحب ويبغضون ما أبغض على قدر معرفتهم به " (٣) .

ثم قال : " فمن فاتته المعرفة بالله دخله النقص في جميع ما ذكرنا على حسب ما فاتته من المعرفة ، وعلى حسب ما رزق منها ، فكذلك حظه من الخير والشر " (٤) .

ومعرفة الله ﷻ عند أبي القاسم الجنيد معرفتان : معرفة تعرف ، ومعرفة تعريف .
ومعنى الأولى : أن يعرفهم الله ﷻ نفسه ، ويعرفهم الأشياء به ، أما الثانية فمعناها : أن يريهم آثار قدرته في الآفاق والأنفس ، ثم يحدث فيهم لطفًا ، تدلهم الأشياء أن لها صانعا ،

(١) طبقات الصوفية ص ٦٤ .

(٢) آداب النفوس للمحاسبي ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٩ .

(٤) المصدر نفسه .

وهذه معرفة عامة المؤمنين ، والأولى معرفة الخواص ، وكل لم يعرفه في الحقيقة إلا به ^(١) ، وهذا كما قال محمد بن واسع ^(٢) : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه ، وقال غيره : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله ^(٣) . ولعل محمد بن واسع أراد برؤية الله في الأشياء آثار صنعه، وهذا لا غبار عليه خاصة وأن الله ﷻ قال : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) ولكن لو كان المراد بها رؤية الله على الحقيقة فهذا هو الحلول الذي نادى به الحلاج وغيره من حلولية الصوفية .

وكذلك يتوجه الكلام إلى ما أورده الكرماني ^(٥) من أن " شغل العارف ثلاثة أشياء : بالنظر إلى معبوده ، مستأنسا به ، ملاحظا لمننه وفوائده ، وشاكرا له ، معترفا به ، ومنيبا تائبا إليه " ^(٦) . وقال : " من عرف ربه نسي كل ما دونه ، ومن جهل ربه تعلق بكل شيء دونه ، ومن اعتر بالعلم فاز ، ومن اعتر بالجهل خاب وخسر " ^(٧) . أما سهل بن عبد الله التستري فقد بين علامة العارف فيقول : " وأما العارف الذي طلب معرفة الله وقربه فإنه بذل ماله فأخرجته ، ثم نفسه فباعه ، ثم روحه فأباحه ، فلو لم تكن جنة ولا نار لما مال ولا زال ولا فتر ، فهذه علامة العارف " ^(٨) . ثم قال : " ليس لأهل المعرفة همة غير هذه الثلاثة إذا أصلحوا : الاقتداء بالنبي ﷺ ، والاستعانة بالله ﷻ ، والصبر على ذلك إلى الممات " ^(٩) .

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٧٩ .

(٢) محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس الأزدي ، أبو بكر ، أو أبو عبد الله البصري ، ثقة عابد ، كثير المناقب

(ت ١٢٣) ، انظر : التقريب ٢/٢٢٣ .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٧٩ .

(٤) سورة الروم ، الآية (٥٠) .

(٥) هو شاه بن شجاع الكرماني (ت قبل ٣٠٠هـ) ، انظر : طبقات الصوفية ص ١٩٢ .

(٦) حلية الأولياء ١٠/٢٥٣ .

(٧) طبقات الصوفية ص ١٩٢ ، ١٩٤ .

(٨) حلية الأولياء ١٠/١٩٩ .

(٩) نفسه ١٠/٢١١ .

وقال رجل ليوسف بن الحسين الرازي ^(١) : " دلي على طريق المعرفة ؟ فقال : " أر الله الصدق منك في جميع أحوالك بعد أن تكون موافقا للحق " ^(٢) .

هكذا تروى لنا كتب التصوف أقوالا لصوفية القرنين الثاني والثالث الهجريين في المعرفة على أن أبرز وأشهر من غلب عليهم الكلام في المعرفة أوائل الصوفية الثلاثة وهم : ذوالنون المصري ، وأبو يزيد البسطامي ، والحسين بن منصور الحلاج .

١ - ذوالنون المصري

لقد فرق ذوالنون المصري بين المعرفة والعلم ، و ذكر أن المعرفة الصوفية الحقيقية هي المعرفة الأسمى عن طريق المشاهدة القلبية ، ليفصل بين وسيلة وطبيعة الحقائق التي يصل إليها الصوفي ، وبين طريق علماء الظاهر والرسوم - كما يسموهم - فيقول : " إن المعرفة الحقيقية بالله ليست العلوم بوحدايته التي يؤمن بها المؤمنون جميعا ، كما أنها ليست من علوم البرهان والنظر التي هي علوم الحكماء والمتكلمين ، ولكنها معرفة الصفات الوحدانية التي هي لأولياء الله خاصة ، لأنهم هم الذين يشاهدون الله بقلوبهم حتى يظهر الحق تعالى عليهم ما لم يظهر على أحد من العالمين " ^(٣) .

إن الله ﷻ وصف نفسه بصفات ليعرف كل المؤمنين بها ، ولم يصف نفسه بصفات خاصة بأوليائه دون غيرهم ، ثم إن الناس اختلفوا في رؤية النبي ﷺ لله ﷻ الرؤية القلبية ، فهل تحقق لهم دون غيرهم من العالمين ؟ فهذا تأويل منهم مخالف للحقيقة ! .

ثم يوضح ذو النون المعرفة بأنها : هي ما يفيضه الله من نوره على قلوبنا كالشمس لا ترى إلا بنورها ، ولذا كل من زادت معرفته بالله زادت حيرته فيه ، ذلك لأن من كان أقرب إلى الشمس يكون أكثر حيرة في الشمس حتى يبلغ مرتبة لم يكن هو فيها هو ^(٤) . ويقول : إن " حقيقة المعرفة إطلاع الحق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار وأنشدوا فيه :

للعارفين قلوب يعرفون بها نور الإله بسر السر في الحجب

(١) أبو يعقوب الرازي ، شيخ الري والجهال في وقته ، كان أوحدا في طريقته في إسقاط الجاه والتصنع واستعمال الإخلاص ، صحب ذا النون المصري (ت ٣٠٤هـ) ، انظر : طبقات الصوفية ص ١٨٥ .

(٢) طبقات الصوفية ص ١٨٨ ، وحلية الأولياء ٢٥٥/١٠ .

(٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١١٥ ، وتاريخ التصوف في الإسلام ص ٦١٨ .

(٤) نفسه .

صم عن الخلق عمي عن مناظرهم بكم عن النطق في دعواه بالكذب
وسئل بعضهم : متى يعرف العبد أنه على تحقيق المعرفة ؟ فقال : إذا لم يجد في قلبه
مكانا لغير ربه " (١) .

ويقول : " إن العارف لا يلزم حالة واحدة ، وإنما يلزم ربه في الحالات كلها " (٢) ،
فالعارفون فانون عن أنفسهم ، لا قوام لهم بذواتهم ، وإنما قوامهم من حيث ذواتهم بالله ،
فهم يتحركون بأمر الله ، وينطقون عن الله بما يجريه على ألسنتهم ، وينظرون بنور الله في
أبصارهم (٣) .

وهذه العبارات تبين أن ما يسميه ذوالنون بالمعرفة هي فكرة غنوصية ، حيث يرى أن
هدف الصوفي بتصوفه هو الاتصال بالله ﷻ ، وتحصل المعرفة عنده بالمجاهدة والرياضة
الروحية ، التي تنشأ عنها حالات نفسية معينة تعرف بالأحوال والمقامات ، فيرتقي المريد في
أحواله ومقاماته من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام ، حتى يصل إلى معرفة الله تعالى
معرفة يقينية ، لا مدخل للحواس أو العقل فيها ، فيستمتع بمطالعة وجه الله تعالى ومشاهدة
جماله وجلاله (٤) - كما يزعم - ، وبذلك تعود النفس البشرية إلى حالاتها الأصلية من
الوجود في الذات الإلهية ، وأنشد فيقول :

ما هبط العارفون مذ عرجوا ولا ابتلوا بالحجاب مذ وصلوا
ليس بمرسومة ولا مخلقة ولا محدودة هو ذا الأبد (٥) .

ولكن ذا النون مازال يؤكد على ممارسة الشعائر الدينية من الفرائض والنوافل ،
إضافة إلى قهر النفس في باب التطهر من الآثام ، حتى تصبح صالحة لأن تتقبل معرفة الله ﷻ ،
كما أنه يتجه إلى ربط المعرفة بالشرعية ، حيث كان يقول : " علامة العارف ثلاثة : لا
يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينتقض عليه ظاهرا من الحكم ، ولا
تحمله كثرة نعم الله ﷻ على هتك أستار محارم الله " (٦) . ثم يصف بأن " أعرف الناس بالله

(١) روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص ٢٩ .

(٢) حلية الأولياء ٤٠٧/٩

(٣) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١١٥ ، والفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٣٠٧ .

(٤) دراسات في الفلسفة الإسلامية ، د. أبو الوفاء التفتازاني ص ١٥٣ .

(٥) علم القلوب ، لأبي طالب المكي ، تحقيق عبد القادر عطا ، (مكتبة القاهرة) ص ١٣٦ .

(٦) الرسالة القشيرية ص ٣١٧ .

﴿كَلَّا أَشَدُّهُمْ تَحِيرًا فِيهِ﴾ ^(١) . ويقول سهل التستري مثله في المعرفة بأن " المعرفة غايتها شيئان : الدهشة والحيرة " ^(٢) ، وكذلك الشبلي يؤيد هذا القول فيقول : " بداية هذا الأمر حيرة ، ونهايته دهشة كالطفل أو الطفولة ، ثم يرد إلى علم ثم يرد إلى جهل " ^(٣) .

ومن خلال هذه النصوص اتضح لنا أن هؤلاء الأعلام مدحوا الحيرة وأن أكثرهم مدحا هو ذوالنون المصري ، الذي يعتبره المتصوفة بأنه هو أكثر من تكلم في المعرفة من أئمة التصوف ، حيث عبر عن أعلى درجة يبلغها العارف بالله ﷻ هو الذي يكون أكثر تحيرا فيه .

ولكن العبارة فيها غموض ، لأن ما يريده ذوالنون - وغيره - من الحيرة ليست واضحة ، هل يريدون مدح الحيرة كما تعتقده الملاحدة ؟ أم يريدون بذلك طلب الزيادة في العلم والمعرفة ؟ فإن كانوا يمدحون الحيرة فإن الله ﷻ قد ذم الحيرة ؛ إذ كيف يكون الحائر عارفا بالله ﷻ وهو جاهل لا يعرف إلى أين يتجه لتحييره ؟ قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالًا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُزِرٌ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَظِرْنَا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٤) .

فالحيرة - إذن - تعتبر من جنس الجهل والضلال والتيه لأن الحائر هو الذي غلبه أمر من الأمور ولم يعرف إلى أين يتجه أو ماذا يفعل ، أو ماذا يعتقد ؟ فلا يمكن أن تكون الحيرة نهاية المعرفة بل هو جهل وضلال ! ، صحيح أن الإنسان يمكن أن يكون حائرا قبل معرفة الله ﷻ ، أما أن تكون الحيرة هي أقصى حد يبلغها العارف بالله ﷻ فهذا ليس بصحيح .

ونحن نعتقد اعتقادا جازما بأن الرسول ﷺ أعلم الناس بالله ﷻ على الإطلاق ، ولكننا لم نجد في القرآن الكريم ولا في السنة الصحيحة أنه كان متحيرا في الله ﷻ ، لأن الله ﷻ بعثه لهداية الإنس والجن إلى الطريق المستقيم ، ومن وصفه الله ﷻ بهداية الخلق فلا يمكن أن يكون حائرا ؛ بل هو على بينة وبرهان من ربه قال الله ﷻ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ .

(١) المصدر نفسه ص ٣١٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٤ .

(٣) روضة التعريف بالحب الشريف ، لسان الدين الخطيب ص ٤١٩ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية (٧١) .

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿١﴾ .
وقال تعالى أيضا : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي ﴾ (٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ردا على المتصوفة الذين مدحوا الحيرة نتيجة معرفة الله
ﷻ ، والتي تقودهم إلى الشكوك والجهل والانحراف قائلا : " ولم يمدح - الحيرة - أحد من
أهل العلم والإيمان ولكن مدحها طائفة من الملاحدة كصاحب الفصوص ابن عربي (٤)
وأمثاله من الملاحدة الذين هم حيارى فمدحوا الحيرة ، وجعلوها أفضل من الاستقامة " (٥) .

وأما الذين لا يريدون إلا طلب الزيد في العلم والمعرفة فإن الأمر يستلزم ذلك ، كما
وضح شيخ الإسلام - في موضع آخر - قول ذي النون " اعرف الناس بالله أشدهم فيه
تحيرا " بأن ذلك ليس مدحا في الحيرة كما تعتقده الملاحدة وغيرهم ، وإنما المراد بذلك
طلب الزيادة في العلم والمعرفة فقال شيخ الإسلام ابن تيمية : " أي أطلبهم لزيادة العلم
والمعرفة ، فإن كثرة علمه ومعرفته توجب له الشعور بأمور لم يعرفها بعد ؛ بل هو حائر
فيها طالب لمعرفتها والعلم بها ، ولا ريب أن أعلم الخلق بالله قد قال : " لا أحصي ثناء
عليك أنت كما أثنيت على نفسك " (٦) والخلق ما أوتوا من العلم إلا قليلا " (٧) ثم إن
أعلى درجة للمؤمن هو الاحسان الذي وصفه الرسول ﷺ بهذا الشعور : " أن تعبد الله
كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " .

ووضح أيضا شيخ الإسلام فيقول : " فأما الذي قال : أول المعرفة الحيرة ، وآخرها
الحيرة فقد يريد بذلك معنى صحيحا مثل أن يريد أن الطالب السالك يكون حائرا قبل
حصول المعرفة والهدى ، فإن كل طالب للعلم والهدى هو قبل حصول مطلوبه في نوع من

(١) سورة النجم ، الآيات (١ - ٤) .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية (١) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية (٥٧) .

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن عربي ، أبو بكر الملقب بالشيخ الأكبر عند الصوفية ، فيلسوف ، صوفي ، من
أئمة المتكلمين (ت ٦٣٨ هـ) انظر : سير أعلام ٤٨/٢٣ ، والأعلام ٢٨١/٦ .

(٥) انظر : مجموعة الرسائل والمسائل ٥٨/٤ .

(٦) أخرجه مسلم ، في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ٣٥٢/١ (ح ٢٢٢) .

(٧) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٣٩١/١١ .

الحيرة ، وقوله آخرها الحيرة قد يراد به أنه لا يزال طالب الهدى والعلم فهو بالنسبة إلى ما لم يصل إليه حائرا ، وليس في ذلك مدح الحيرة ، ولكن يراد به أنه لا بد أن يعترى الإنسان نوع من الحيرة التي يحتاج معها إلى العلم والهدى " (١) .

٢- أبو يزيد البسطامي .

إذا كان ذوالنون المصري لا يزال يهتم بإقامة الشعائر والعبادات الظاهرة كشرط للوصول إلى معرفة الله ﷻ فإن أبا يزيد البسطامي كان يفصل بين المعرفة والعبادة فصلا كاملا قد يؤدي إلى نتيجة خطيرة ، وهي أن المنشغلين بالعبادة بعيدون عن المعرفة وهم لا يصلحون لأن يحملوا المعرفة على الإطلاق ، فيقول : " اطلع الله على قلوب أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة " (٢) . وكما يقول : " للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه ، فلا يشاهد في يقظته ونومه غير الله " (٣) .

وكلما أراد أن يقول أنا أو أنت ناداه الجليل أنا أنا ولا أنت (٤) . وذلك لأن العارف هو الذي أوله هو وأوسطه هو وآخره هو ، وأن أدنى صفة العارف أن تجري فيه صفات الحق وجنس الربوبية (٥) ، وأعلى درجته وجود معروفه (٦) ، ثم يقول : عجبت لمن عرف الله كيف يعبد ؟ (٧) ، ويقول : كنت ثلاثين سنة أذكر الله ثم سكنت فإذا حجابي ذكري له ، وإذا كان توبة الناس من ذنوبهم فتوبته من قوله : لا إله إلا الله (٨) ، وقال لرجل سبح الله أمامه قولك سبحان الله شرك (٩) .

(١) المصدر نفسه ٣٨٦/١١ .

(٢) النور من كلمات أبي طيفور نص غير منشور في مناقب وشطحات أبي يزيد البسطامي ينسب إلى السهلجي ، ضمن كتاب شطحات الصوفية ، للدكتور عبد الرحمن بدوي ، ط ٢ الكويت ، (نشر وكالات المطبوعات ١٩٧٦م) ص ١٧٢ ، وحلية الأولياء ٣٩/١٠ وطبقات الصوفية ص ١٧ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ٣١٣ .

(٤) علم القلوب ، لأبي طالب المكي ، ط ١ مصر (مكتبة القاهرة ١٣٨٤هـ) ص ١٣٣ .

(٥) النور من كلمات أبي طيفور ص ١٠٦ ، ١٤٤ .

(٦) طبقات الصوفية ص ٦٩ .

(٧) علم القلوب ٣٣٧ .

(٨) النور من كلمات أبي طيفور ص ١٠٤ .

(٩) نفسه ص ١١٣ .

وقال لرجل صلى في المسجد : إن زعمت أن صلاتك مواصلة فهي مفاصلة ^(١) .
وقال : لا التزهد ولا التعبد ولا العلم ولا شيء من الأشياء خير للعبد ^(٢) . ولم أر من
الصلاة إلا نصب البدن ولا من الصوم إلا جوع البطن ^(٣) ، ومعنى ذلك أن طريقة المعرفة
الحقيقية ليست بكثرة العبادات والطاعات ، ولا بعمل النوافل والقربات ، ولا بالترقي إلى
الأحوال والمقامات ، ولكن وصول المعرفة بالله إنما يكون برفع الحجاب والفناء الكلي ،
وعندئذ فقط نال الإنسان الوصول والمشاهدة لذات الله ، ثم الاتحاد به فإنه قد عرف الله
بالله ^(٤) . وقال : وأشد المحجوبين ثلاثة بثلاثة : الزاهد بزهده ، والعابد بعبادته ، والعالم
بعلمه ^(٥) .

وبذلك نفهم أن أبا يزيد البسطامي قد وضع مفهوما مغايرا للمعرفة يختلف عن
مفهوم المعرفة لدى ذي النون المصري ؛ إذ المعرفة لديه هي المعرفة الأسمى عن طريق
المشاهدة القلبية الصافية القريبة من المعرفة الفطرية السليمة ، أما البسطامي فكان يهدف
بالمعرفة إلى هدف خطير وهو الكشف عن ذات الله برفع الحجاب ثم الاتحاد بها نتيجة فناء
الذات فناء كلياً .

وقد طبق ذلك فعلاً عن نفسه فصرح بكلمته المشهورة : " سبحاني سبحاني ما أعظم
شأني ، حسبي من نفسي حسبي " ^(٦) . وقال : " إن لوائي أعظم من لواء محمد ، لوائي من
نور تحته الجان والإنسان ، كلهم من النبيين ، ليس مثلي مثل في السماء يوجد ، ولا مثلي
صفة في الأرض تعرف ، لأن صفاتي غائبة في غيبه وليس للغيب صفات تعرف . " ^(٧) ..
فتراني عيون الخلق مثلهم ولو رأوني كيف صفتي في الغيب لما اتوا دهشاً " . " .. وأن بطشي

(١) . النور من كلمات أبي طيفور ص ١١٨ .

(٢) . نفسه ص ١٤٢ .

(٣) . نفسه ص ١٢١ .

(٤) . نفسه ص ١٧٠ ، والحلية ٣٧/١٠ ، وطبقات الصوفية ص ٧٧ .

(٥) . النور من كلمات أبي طيفور ص ١٥٥ ، والحلية ٣٦/١٠ .

(٦) . نفسه ص ١٠١ ، ١٤٣ .

(٧) . نفسه ص ١٤٣ .



أشد من بطش الله .." والكعبة يطوف حوله ، والملائكة يأتونه ويسألونه عن العلم ، فأصبح الملائكة تلاميذه ^(١) .

ومن خلال النصوص السابقة فلا يشك الناظر فيها من أن أبا يزيد قد تكلم بكلام الكفر وانحرف انحرفا خطيرا في مفهوم المعرفة بالله ﷻ ، كما ابتعد عن منهج المسلمين نحو التقرب إلى الله ﷻ لأنه أبعد العابد المنشغل بالعبادة عن أن يكون له عمل صالح ، وأن عبادته تكون حجابا له نحو ربه ﷻ ؛ وهذا زعم باطل ومناقض للعقيدة الصحيحة .

أضف إلى ذلك أن كلام أبي يزيد فيه استهزاء واستخفاف واضح بعباد الله المؤمنين الذين وصفهم الله ﷻ في كتابه العزيز بأنهم ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) . كما أن الخطر في كلامه يبين حينما دعا إلى الاتحاد بالله ﷻ تحقيقا للوصول إلى المعرفة به ﷻ وفضل نفسه على جميع الأنبياء والرسل - عليهم السلام - ، ولا شك أن هذا الكلام في منتهى الخطورة لا يمكن أن يخرج من إنسان فيه ذرة من الإيمان فضلا أن عن يصدر من شخص يعتبره المتصوفة من كبار أولياء الله ﷻ ، ومن الصوفية المتقدمين .

٣- الحسين بن منصور الحلاج .

أما الحلاج فقد وضع تصورا جديدا للمعرفة منطلقا من نظرية الحلول ، أي حلول اللاهوت في الناسوت ، أو تجلي الذات في الكون وظهورهما فيه تجليا كاملا ، أو بعبارة أخرى تجلي الحق من كل ما يشاهد .. وهذا ما يدفعه إلى القول ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه ^(٣) .

ورأى أن الإيمان لا قيمة له ، لأن الإيمان لا يوصل المؤمن إلى معرفة الله ، فمن التمس الحق بنور الإيمان كان كمن طلب الشمس بنور الكواكب ^(٤) . وقال أيضا : ولا قيمة للعقل إذ العقل يؤدي إلى الحيرة ، وهو عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله وأنشد قائلا :

من رامه بالعقل مسترشدا سرحه في حيرة يلهو

(١) نفسه ص ١٤٣ ، ١٤٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١١٢) .

(٣) أخبار الحلاج لماسينيون ، باريس (مطبعة العلم ١٩٣٦ م) ص ١٦ .

(٤) طبقات الصوفية ص ٣١١ .

وشاب بالتلبيس أسرارهُ يقول من حيرته هل هو ^(١) .

وكذلك العبادة لا قيمة لها عنده ، والذي ينشغل بالعبادة حجب عن المعبود ، والذي ينشغل بالمعبود لا يلاحظ شيئاً غيره ، فلا معرفة لمن يرى سواه ، فكان الحلاج مثل البسطامي يرى أن العبادة حجاب فلا ينبغي للعارف أن ينشغل بها إذ يقول : " من لاحظ الأعمال حجب عن المعمول له ، ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال " ^(٢) .
وسئل عن معنى " لا إله إلا الله " فقال : كلمة شغل بها العامة لئلا يختلطوا بأهل التوحيد ^(٣) .

ويرى الحلاج أن الحق هو المقصود بالعبادة والمقصود إليه بالطاعة ، فلا يشهد بغيره ولا يدرك بسواه ^(٤) ، ولا يجوز لمن يرى أحداً أو يذكر أحداً أن يقول : إني عرفت الأحد الذي ظهرت منه الآحاد . فإذا سئل كيف الطريق إلى حصول معرفة الحق الأحد ؟ فأجاب الحلاج قائلاً : بالجمع إليه ^(٥) . وكان مثل البسطامي يطلب من الله ﷻ أن يرفع أنيته حتى يتحد بأنيته نهائياً فينفي عن نفسه بالكلية ، ولا يكون ثمة إلا الله إذ يقول منشداً :

بيني وبينك إني يزاحمني فأرفع بإنيك إنييتي من البين ^(٦) .

أي يوجد بيني وبينك يا إلهي " إني " إنه " أنا " يعذبني ، فأتوسل إليك أن تزيل بإنيك .. تزيله من البين ، أي من بيننا نحن الإثنين ^(٧) .

فقد طلب الحلاج من الله ﷻ أن يمحو ذاته التي تشعر أنها عائقة له دون أن يصل إليه ، وإذا كان البسطامي يزعم أن الله ﷻ قد استجاب طلبه في الاتحاد به فكذلك الحلاج حيث رأى أن ذاته أصبحت تجمعها بالله ﷻ ، وتربطها رابطة شخصية حميمة ، وفي هذه

(١) أخبار الحلاج ص ٩٤ .

(٢) طبقات الصوفية ص ٣٠٨ .

(٣) أخبار الحلاج ص ٧٤ .

(٤) طبقات الصوفية ص ٣١٠ .

(٥) أخبار الحلاج ص ١١٦ .

(٦) المصدر نفسه ص ٧٦ .

(٧) كتاب شخصيات قلقة في الإسلام ، د. عبد الرحمن بدوي ، ط ٣ بيروت (دار القلم ١٩٧٨م) ص ٨٣ .

الحالة من الترابط الشخصي بين الأنا والأنت يسميها الحلاج عين الجمع . فأكد أن الله ﷻ في غصونها تتخلل جميع أفعاله وأفكاره وآماله ^(١) . ثم أنشد قائلا :

أنا عين الله في الأشياء فهل ظاهر في الكون إلا عيننا .
أنا الحق والحق للحق حق لا بس ذاته فما تم فرق ^(٢) .

فقد رفض الحلاج كل الطرق الموصلة إلى المعرفة ، من المشاهدة القلبية كما قال ذوالنون المصري ، والكشف الذاتي كما قال البسطامي . فالطريقة الوحيدة الموصلة إلى المعرفة عنده هي الجمع والحلول فقال : " العارف من رأى والمعرفة بمن بقي ، العارف مع عرفانه ، لأنه عرفانه ، وعرفانه هو ^(٣) ، وأنشد قائلا :

رأيت ربي بعين ربي فقال من أنت قلت أنت ^(٤) .

لذلك فالعارف عنده هو المشير عن الله ، فإن الخلق أشاروا إلى الله .

وقد سبق أن مر بنا أن البسطامي كان يزعم أن العبادات من الصلاة والذكر والزهد كلها حجاب - يحجب العارف عن معرفة الله - وهنا زعم الحلاج أن صلاة العاشقين العارفين يعتبر كفرا ، وإن سئل لم ذلك ؟ أجاب : " لأن ظاهر الشريعة كفر خفي ، وحقيقة الكفر معرفة جليلة " ^(٥) وأن الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم ، وأما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما ^(٦) . ثم صرح بأنه كفر بدين الله ، والكفر بالنسبة له واجب فيقول منشدا :

كفرت بدين الله والكفر واجب لدى وعند المسلمين قبيح ^(٧) .

وبذلك وجدنا الحلاج هنا كان صريحا كل الصراحة في إنكاره لما اتفق عليه المسلمون في الإيمان والعبادة بمختلف صورها ، ثم حدد مكانه في كونه لا يتبع مكة والمدينة بمفهوم الدين الإسلامي فيقول منشدا :

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية ، د. ماجد فخري ، بيروت (الدار المتحدة ١٩٨٤ م) ص ٣٣٥ .

(٢) أخبار الحلاج ص ١٠٨ .

(٣) الطواسين ص ٧٧ ، ٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٦٧ .

(٥) أخبار الحلاج ص ٦٣ .

(٦) نفسه ص ٥٣ .

(٧) نفسه ص ٩٩ .

ففي دين الصليب يكون موتي ولا البطحاء أريد ولا المدينة ^(١) .

وفي هذا البيت نرى أن الحلاج طلب أن يجعل الله موته على الصليبية ، وأكد على أنه لا يريد البطحاء التي توجد بمكة ولا المدينة أيضا ، وذلك لأن مكة والمدينة من الأماكن المقدسة عند المسلمين ، وهو قد تمني أن يكون موته على دين الصليبيين النصارى .

ولا شك أن العبارات التي صدرت من الحلاج كلمات كفرية لها خطورتها البالغة ، ذلك أن القول بحلول الله في خلقه مناقض لما اعتقد به المسلمون ، فهم يعتقدون بأن الله ﷻ مستو على عرشه بائن عن خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ^(٢) فالله ﷻ منزّه كل التنزيه أن يحل في مخلوقاته ، فقال مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ^(٣) .

وبذلك نفهم أن عقيدة الحلاج في الحلول ليست من عقيدة الإسلام ، وإنما عقيدة وثنية دخيلة كما قال الدكتور عبد القادر محمود مؤكدا بأن الحلاج أخذ هذا المعتقد الباطل من النصارى غير معتقدهم الصحيح بسبب تأثرهم بالفلسفات الوثنية فقال الدكتور : " والحلاج في واقع مذهبه ينتمي لمذهب الخلاص المسيحي الذي يؤكد أنه لا سعادة إلا في خلاص الروح من حجابيه وهو الجسد ، ولهذا سعى لتحطيم هذا الحجاب وكل حجب أخرى من الشعائر تقف حاجزا بينها وبين حقيقتها المطلقة " ^(٤) .

وأما إنكاره للإيمان والعقل والعبادة بأنها لا توصل المؤمن إلى معرفة الله ﷻ فهو محض الجهل بتعاليم ديننا الحنيف .

ولقد اتجه الصوفية المتأخرون إلى تقسيم المعرفة (العلم اللدني) بمعناها العام إلى مستويات مختلفة لكل منها اتجاهه ووسيلته ، ففي حين يذهب ابن عربي إلى أن المعرفة أو كما يسميها العلم ينقسم إلى ثلاثة أنواع يرتبها على النحو الآتي :

١- علم العقل : وهو كل علم يحصل بالضرورة أو عقب نظر في دليل .

٢- علم الأحوال : ولا سبيل إليه إلا بالذوق ، وليس إلى إيجاده أو الإقامة على

معرفته دليل .

(١) المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢) سورة الشورى ، الآية (١١) .

(٣) سورة الإخلاص ، الآيات (١ - ٤) .

(٤) الفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٣٥٥ .

٣- علم الأسرار : وهو العلم الذي فوق أطوار العقل ، وهو علم نفت روح القدس ، ويختص بالنبي أو الولي ^(١) .

وقد سماه الغزالي بالمعرفة الإشرافية : " وهي نور يقذفه الله في الصدر ، وهو مفتاح أكثر المعارف ، وهذه المعرفة هي العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم ، وهو نتيجة العلم والعمل ، وهو طريق الصوفية ^(٢) . كما هو الطريق الذي اختاره بقوله : " وما ارتضيته أخيرا من طريق التصوف " ^(٣) .

والصوفية المتقدمون لم نجد منهم كلاما صريحا في قضية العلم اللدني ، ولكن يوجد منهم من تحدث عن فكرة النور الذي هو أساس المعرفة الصوفية ، وأشار إلى العلم الرباني ، غير أن الجنيد قد اعترف بأن عليا عليه السلام قد أعطي العلم اللدني كما ذكر ذلك السراج الطوسي ^(٤) .

قال أبو سليمان الداراني : " لا يزهد في شهوات هذه الدنيا إلا من وضع الله في قلبه نورا يشغله دائما بأمور الآخرة " ^(٥) . وقد عبر الداراني هنا عن فكرة النور المعروف لدى الصوفية ، حيث إنه الطريق الموصل إلى معرفة الله ﷻ .

ولهذا ذكر الطوسي أن أبا سليمان لو علم أن بمكة رجلا يفيد في علم المعرفة لمشي على رجله ولو ألف فرسخ حتى يسمعها منه ^(٦) .

وبين الداراني بأن " أهل المعرفة دعاؤهم غير دعاء الناس ، وهمتهم غير همة الناس " ^(٧) وقال : " لو لم يكن لأهل المعرفة إلا هذه الآية الواحدة لا اكتفوا بها ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ " ^(٨) .

(١) الفتوحات المكية ٣١/١ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨٠ .

(٤) اللمع للطوسي ص ١٧٩ .

(٥) تذكرة الأولياء لفريد العطار ص ٢٣١ نقلا عن في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٦ .

(٦) اللمع للطوسي ص ٢٤٠ .

(٧) حلية الأولياء ٢٦٨/٩ .

(٨) سورة القيامة ، الآيتان (٢٢ - ٢٣) .

قال الدكتور كامل الشبي : وكان علي ﷺ نفسه قد أعطي العلم اللدني باعتراف الجنيد وروايته ^(١) ، وهذا العلم اللدني هو الذي يندمج عليه أصحاب العلم الذين " عقلوا الدين عقل وعاية ودراية لا عقل سماع ورواية " ^(٢) ، وهذا العلم الذي دخل التصوف وصار المتصوفة مندمجين عليه لأنهم " اعتبروا أنفسهم خاصة أهل الله الذين منحهم أسرار العلم الباطن المودع في القرآن والحديث " ^(٣) وذلك على قدر تفاوتهم واختصاصهم .

ثم أشار إلى أن التستري أخبر بأن الله ما استولى وليا من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن ظاهرا أو باطنا ، قيل له : إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو ؟ قال : فهمه ، وأن فهمه المراد ^(٤) . و أضاف إلى ذلك قول البسطامي : " ليس العالم من يحفظ كتابا فإذا نسي ما حفظ صار جاهلا ، بل من يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا تحفظ ولا دروس ، وهذا هو العلم الرباني " ^(٥) .

وهذه المعارف بمستوياتها المختلفة تكتسب من طريقين ، كما بين ذلك الغزالي حيث ذكر : " أن العلم الإنساني يحصل من طريقين ، أحدهما : التعليم الإنساني ، والثاني : التعليم الرباني .

فالطريق الأول : طريق معهود ، ومسلك محسوس ، يقر به جميع العقلاء .
وأما الطريق الثاني : فيكون تحصيله من خارج وهو التحصيل بالتعلم ، أو يكون من داخل وهو الاشتغال بالتفكير ، والتفكير من الباطن بمثالة التعلم في الظاهر .. ^(٦) ثم إن التعليم الرباني على وجهين :

الوجه الأول : إلقاء الوحي وهو أن النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ، ودرن الحرص والأمل الفاني ، وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها ، وتمسك بجود

(١) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٨٠ .

(٢) نهج البلاغة ، للسيد الشريف الرضي ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ٤٦٧/١ .

(٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٧٧ .

(٤) تفسير التستري ص ٧ نقلا عن الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٨٠ .

(٥) شفاء السائل في تهذيب المسائل لابن خلدون ص ٢٦ نقلا عن المرجع السابق ص ٣٨١ .

(٦) الرسالة اللدنية ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص ٦٧ .

مبدعها ، وتعتمد على إفادته وفيض نوره ، والله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالا كلياً .. وحدث هذا العلم عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .. (١) .

أما الوجه الثاني : فهو الإلهام ، والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفاتها وقبولها وقوة استعدادها ، والإلهام أثر الوحي ، لأن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي ، والإلهام هو تعريضه ، والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً ، والذي يحصل عن الإلهام يسمى علماً لدنياً ، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس والباري ، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف (٢) .
" والعلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية كما كان للحضر العلي عليه السلام حيث أخبر الله ﷻ عنه فقال : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٣) .

وقد استدلل الغزالي - على هذا العلم - بالقول المنسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : " أدخلت لساني في فمي فانفتح في قلبي ألف باب من العلم مع كل باب ألف باب ، وقال : لو وضعت لي وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم ولأهل الإنجيل بإنجيلهم ، ولأهل القرآن بقرآنهم " وأضاف الغزالي قائلاً : " وهذه مرتبة لا تنال بمجرد التعلم الإنساني ، بل يتحلى المرء بهذه المرتبة بقوة العلم اللدني " .. (٤) وأن حقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني ، و ما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيماً لأن الحكمة من مواهب الله تعالى (٥) . ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٦) ، وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدني مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلاً " (٧) .

(١) انظر : المصدر نفسه ص ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ .

(٣) سورة الكهف ، الآية (٦٥) .

(٤) الرسالة اللدنية ص ٧٠ - ٧١ .

(٥) نفسه ص ٧١ .

(٦) سورة البقرة ، الآية (٢٦٩) .

(٧) الرسالة اللدنية ص ٧١ .

واستطرد الغزالي في توضيح أهمية العلم اللدني فيقول : " الوحي إذا انقطع وباب الرسالة إذا انسد استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وتكميل الدين كما قال تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ^(١) وليس من الحكمة إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة ، فأما باب الإلهام فلا ينسد ، ومدد نور النفس الكلية لا ينقطع لدوام ضرورة النفوس وحاجتها إلى تأكيد وتذكير ، وكما أن الناس استغنوا عن الرسالة والدعوة واحتاجوا إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم في هذه الوسوس وانهماكهم في هذه الشهوات فالله تعالى أغلق باب الوحي وهو لآية العباد ، وفتح باب الإلهام رحمة ، وهياً الأمور ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب " .

أما عن حقيقة العلم اللدني وأسباب حصوله فتكون من ثلاثة أوجه :

أحدها : تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها .

والثاني : الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة ، فإن النبي ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة فقال : " من عمل بما علم أورثه الله ما لم يعلم " ^(٢) وقال ﷺ : " من أخلص لله أربعين صباحاً أظهر الله تعالى ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه " ^(٣) .

والثالث : التفكير ، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تفكر في معلوماتها بشروط الفكر يفتح عليها باب الغيب كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التصرف يفتح عليه أبواب الربح ، وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران ، فالتفكير إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الأبواب ، وتفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملاً عاقلاً ملهماً مؤيداً " ^(٤) . هذا هو العلم اللدني الذي بينه الغزالي ، وهو العلم الذي ظن بعض الصوفية أنه يمكن الاستغناء به عن العلم الكسبي .

أما الإمام ابن القيم فقد قال فيه في شرح ما جاء في كلام الهروي عنه في منازل السائرين : " العلم اللدني هو العلم الذي يقذفه الله في القلب بلا سبب من العبد ولا استدلال ، ولهذا سمي لدنيا ، قال تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ ^(٥) والله تعالى هو الذي

(١) سورة المائدة ، الآية (٣) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٣/١٠ ، قال الألباني في " الأحاديث الضعيفة " " موضوع " ٤٢٣/١ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢١٥/٥ ، قال الألباني في " الأحاديث الضعيفة " " ضعيف " ٥٥/١ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٣ - ٧٤ .

(٥) سورة الكهف ، الآية (٦٥) .

علم العباد ما لا يعلمون ، قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(١) . ولكن هذا العلم أخص من غيره ، ولذلك أضافه إليه سبحانه ، كبيتته وناقته وبلده وعبدته ونحو ذلك ، فتضمنحل العلوم المستندة إلى الأدلة والشواهد في العلم اللدني الحاصل بلا سبب ولا استدلال هذا هو مضمون كلامه .

ثم أضاف ابن القيم فقال : " ونحن نقول : إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة هو العلم الحقيقي ، وأما ما يدعي حصوله بغير شاهد ولا دليل فلا وثوق به وليس بعلم ، نعم قد يقوي العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد ، بحيث يصير المعلوم كالمشهود ، والغائب كالمعائن ، وعلم اليقين كعين اليقين ، فيكون الأمر شعورا أولا ، ثم تجويزا ، ثم ظنا ، ثم علما ، ثم معرفة ، ثم علم يقين ، ثم حق يقين ، ثم عين يقين ، ثم تضمنحل كل مرتبة في التي فوقها بحيث يصير الحكم لها دونها فهذا حق " ^(٢) .

وبذلك نقول : بأن دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال ليس بصحيح ، لأن الله ربط التعريفات بأسبابها كما ربط الكائنات بأسبابها ، ولا يحصل لبشر علم إلا بدليل يدل عليه ، وقد أيد الله سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام بأنواع الأدلة والبراهين التي تدلهم على أن ما جاءهم هو من عند الله ، ودلت أممهم على ذلك ، وكان معهم أعظم الأمثلة والبراهين .

فكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم ، والله ﷻ شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد ، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها ، وما كان كذلك لم يكن علما فضلا أن يكون لدنيا ، فالعلم اللدني ما قام الدليل الصحيح عليه أنه جاء من عند الله على لسان رسله عليهم السلام .

وقد ذم الله ﷻ بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده كما قال الله ﷻ عنهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) . وقال تعالى أيضا : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ

(١) سورة العلق ، الآية (٥) .

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٣٩٩ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (٧٨) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (٧٩) .

إِلَيْهِ شَيْءٌ» ^(١) فكل من قال هذا العلم من عند الله - وهو كاذب في هذه النسبة - فله نصيب وافر من هذا الدم ، فالله ﷻ يذم من أضاف إليه ما لا علم له به ومن قال عليه ما لا يعلم ، ولهذا رتب ﷻ المحرمات أربع مراتب وجعل أشدها القول عليه بلا علم ، فجعله آخر مراتب المحرمات التي لا تباح بحال ، بل هي محرمة في كل ملة وعلى لسان كل رسول . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) .

فالقائل " إن هذا علم لدي " لما لا يعلم أنه من عند الله ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده كاذب مفتر على الله ، وهو من أظلم الظالمين وأكذب الكاذبين " ^(٣) .

إذن فاشتراط موافقة الإلهامات أو المعارف للكتاب والسنة قائم أصلاً أن ليس لبشر غير الرسل - عليهم السلام - في هذا المجال عصمة تقيه كيد الشيطان وحيله إلا إذا عصمه الله بالتقيد بما جاء في كتابه وما ورد عن نبيه ﷺ من حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ذلك أن معرفة تلك الإلقاءات ومصدر تلك الإلهامات لا يستطيع الإنسان تحديده بعقله وحده أو شعوره وحده ؛ بل لا بد فيه من ضابط الكتاب والسنة .

أما الاعتماد المطلق على هذه المعارف والفتوحات دون تقييدها بما جاءت به النصوص الشرعية واعتبارها المصدر الأساسي للتشريع فهو خطر عظيم فتح باب به على هذه الأمة ليدخل منه كثير من العابثين والمضلين الذين يسعون إلى هدم هذا الدين الذي قد تم قبل وفاة الرسول ﷺ كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ^(٤) .

وقد تحدث عن هذا الجانب الأستاذ عبد الرحمن دمشقية فقال : " ولهذا فإنه قد فتح بالكشف باب دخل منه كثير من العابثين بهذه الأمة ، ومن الأئمة المضلين يتكلمون في فنون الكشف بما يتعارض والأدلة الشرعية ، وبقي هؤلاء العابثون يتدفقون من هذا الباب الذي بقي مفتوحاً إلى يومنا هذا ، فصارت العلوم الشرعية عند هؤلاء من المرتبة التي تلي مرتبة

(١) سورة الأنعام ، الآية (٩٣) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٣٣) .

(٣) مدارج السالكين ٣/ ٤٠٠ - ٤٠١ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ، (٣) .

الكشف ، وصار حاملو هذه العلوم الشرعية عند هؤلاء من أهل الظاهر ، الذين ختم الله على قلوبهم عن ملاحظة هذا العلم الباطن ، وعن التنعم بأسرار الكشف .

ولعل هذا الوحي الصوفي وهذه الكشوفات والتجليات هي ما أشار الله ﷻ إليه بقوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ ^(١) . ولعل هذا النوع من التزل وإلقاء السمع من الشياطين هو ما ظنه الغزالي وحيًا يحصل به سماع المريد لما سمعه موسى ، حتى دعا الخلائق إليه بالاجتهاد في تحصيله بالرياضات والتصفيات والخلوات ، ليسمعوا الكلام الذي سمعه موسى بن عمران عليه السلام " ^(٢) .

ولكن لا بد من التنبيه من أن الكشف الصوفي غير الإلهام بالحق الذي يقذفه الله في قلوب عباده المؤمنين الصادقين حتى يتبين لهم الصواب ، فإن هذا الأمر وارد ولا يمكن إنكاره ، حيث كثرت النصوص الشرعية التي تشير إلى الإلهام كوسيلة من وسائل المعرفة . ومن ذلك ما رواه أبو هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : " لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر " ^(٣) .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فإن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : " قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر " ^(٤) ، وكان عمر يقول : " اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منه ما يقولون فإنها تجلي لهم أمور صادقة " ^(٥) " ^(٦) .

(١) سورة الشعراء ، الآيات (٢٢١ - ٢٢٣) .

(٢) أبو حامد الغزالي والتصوف ص ١٩٦ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب ١٣٤٩/٣ (ح ١٣٤٩) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل عمر ١٨١٤/٤ (ح ٢٣٩٧) .

(٤) سبق تخريجه قبل قليل .

(٥) أخرج ابن أبي شيبة في معنى هذا ، عن عبد الله بن عتبة قال : قال عمر : " جالسوا التوابين فإنهم أرق شيء أفئدة " . وعن وداعة الأنصاري من قول عمر : " استشر في أمرك الذين يخشون الله " ولم أجد نص ما ذكره المؤلف . انظر : الكتاب المصنف ٢٧٢/١٣ ، ٢٧٥ ، والزهد لابن المبارك ص ٤٢ ، ٤٩ .

(٦) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٥١ .

وفي الترمذي عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ » ^(١) ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(٢) ، وقال بعض الصحابة: أظنه والله الحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم " ^(٣) .

وهذه الأحاديث وغيرها تشير إلى أن المعرفة (العلم اللدني) بمعناها الشرعي أمر ممكن عقلا ونقلا ، غير أن هناك فرقا بين العلم اللدني عند الصوفية وبين الفِرَاسَةِ ، فالفِرَاسَةُ التي تحدث عنها العلماء تحت هذا الموضوع تأتي بما يوافق الأدلة ، أما العلم اللدني الذي تحدث عنه الصوفية فإنه يأتي بأشياء جديدة ، ليست الفِرَاسَةُ التي تحدث عنها العلماء هو العلم اللدني عند الصوفية ، وحديث المكلّمين " فَإِنْ يَكُ فِي أُمِّي أَحَدٌ فَعَمْرٌ " لو قال : فَإِنْ يَكُ مِنْهُمْ أَحَدٌ فِي أُمِّي فَمِنْهُمْ عَمْرٌ ، لَكَانَ يُوحِي بِأَنْ هُنَاكَ مُحَدَّثًا فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ ، لكن النص يوحى بأنه خاص بعمر ﷺ .

أما التوسع الذي يركن إليه الصوفية في هذا الحديث فإنه توسع غير مقبول ، لأن الفِرَاسَةَ لا تأتي بأشياء جديدة — كما عند الصوفية — وإنما تأتي بما يوافق الأدلة الشرعية .

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ، باب ومن سورة الحجر ، ٢٩٨/٥ (ح ٣١٢٧) ٢٩٨/٥ ، قال : " هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد روي عن بعض أهل العلم " ، والطبراني في الكبير (٧٤٩٧) ، والبيهقي في الزهد (ص ٧٨) من طريق عبد الله بن صالح به ، وقال الهيثمي في المجمع ٢٦٨/١٠ إسناده حسن .

(٢) سورة الحجر ، الآية (٧٥) .

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٩١ .

المبحث الثاني

الحب الإلهي

صار الحب الإلهي - في القرنين الثاني والثالث الهجريين - المعلم الواضح ، والسمة

المميزة للتصوف .

ومعنى الحب والمحبة لله ﷻ ليس جديدا ، إذ تقتضي من أصحابها اتباع الرسول ﷺ وعدم مخالفته ، كما قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ^(١) . وهي أيضا من صفات المؤمنين فقال ﷻ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ^(٢) . وهذا يدل على أن حب الله ﷻ من الصفات المبرزة للإنسان المؤمن ، ولكن لا تكون المحبة الصادقة لله إلا بمتابعة الرسول ﷺ ، فهي الطريق الوحيد للوصول إلى محبة الله ﷻ لعباده المؤمنين .

ومن أحبه الله ﷻ كان عوناً لهم ، كما ورد ذلك في الحديث القدسي " .. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ورجله التي يمشي بها ، ويده التي يبطش بها ، وإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذني لأعيذنه " ^(٣) ، وكان من مآثور دعاء الرسول ﷺ طلبه وسؤاله الحب ، والنظر إلى وجهه ﷻ " .. وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك " ^(٤) ، ويسأله ﷻ فيقول : " وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة " ^(٥) .

(١) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الرقاق باب التواضع ٣٤٨/١١ (ح ٦٥٠٢) .

(٤) أخرجه أحمد بلفظه في المسند ٢٤٣/٥ ، و الترمذي بنحوه في كتاب الدعوات ٣٦٩/٥ ، والحاكم في

المستدرک ٥٢١/١ ، وحسنه الترمذي .

(٥) أخرجه في باب الدعاء بعد الذكر النسائي ٥٤/٣ ، وأحمد ٣٦٤/٤ ، وإسناده جيد ، انظر : صحيح

النسائي ٢٨١ ، ٢٨٠/١ .

فمعنى الحب الإلهي أصيل في الإسلام ، أعانت عليه سهولة حياة المسلمين ويسارتها والتدبر والتأمل في أسرار هذا الكون العجيب ، وآياته الباهرة بالسياحة والضرب في الأرض .^(١)

والحب الإلهي في هذا العهد صار هدفا اتجه إليه أهل التصوف بعد أن كان وسيلة للطاعة والاستسلام لبلوغ الجنة والنجاة من النار عند الزهاد الأوائل ، فإبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـ) يقول : " اللهم إنك تعلم أن الجنة لا ترن عندي جناح بعوضة إذا أنت أنستني بذكرك ، ورزقتني حبك ، وسهلت علي طاعتك " ^(٢) . والحب أصبح دثار الزاهدين يلتقي بإبراهيم بن أدهم فيعلم إبراهيم " إن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الرضا عن الله لباسا ، وحبه دثارا ، والإثرة له شعارا .. " ^(٣) . والمحبة لله ﷻ تتحقق ويبلغ الزاهد غايتها بشرط يذكره الفضيل ابن عياض قائلا : " إذا كان عطاؤه ومنعه إياك عندك سواء فقد بلغت الغاية من حبه " ^(٤)

وفكرة الحب الإلهي قد تحدث عنها أيضا عبد الواحد بن زيد (ت ١٧٧هـ) فهو من أوائل من نادى من الصوفية بالمحبة الإلهية - في القرن الثاني الهجري - حيث كان كثيرا ما يردد هذه الفكرة ، وذلك من خلال عباراته حينما يقول : " ما أحسب شيئا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا ، ولا أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضا وهي رأس المحبة " ويقول أيضا : " من نوى الصبر على طاعة الله صبره الله عليها وقواه لها ، ومن نوى الصبر عن معاصي الله أعانته الله على ذلك وعصمه منها .. يا سيار أترك تصبر لمحبتك عن هواك فيخيب صبرك ؟ لقد أساء بسيدك الظن من ظن به هذا وشبهه قال : ثم بكى عبد الواحد حتى خفت (أي مسمع) أن يغشى عليه ، ثم قال : أتأبى أنت يا مسمع نعمة غادية ورائحة على أهل معصيته فكيف يبأس من رحمته أهل محبته ؟ " ^(٥) .

وقد أورد أبو نعيم رواية أخرى لعبد الواحد بن زيد عن الحسن البصري التي توحى إلى فكرة الحب الإلهي قال : قال رسول الله ﷺ : " يقول الله تعالى إذا كان الغالب على

(١) دراسات في التصوف الإسلامي ٧٤/٢ .

(٢) حلية الأولياء ٣٦/٨ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٣٤ .

(٤) حلية الأولياء ١١٣/٨ .

(٥) حلية الأولياء ١٧٥/٦ .

عبدى الاشتغال بي جعلت نعيمه ولذته في ذكرى ، فإذا جعلت نعيمه ولذته في ذكرى عشقني وعشقتة ، فإذا عشقني وعشقتة رفعت الحجاب فيما بيني وبينه ، وصرت معالم بين عينيه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة وعذابا ذكرتهم فصرفت ذلك عنهم " (١) ثم علق عليه أبو نعيم قائلا : وكذا رواه عبد الواحد عن الحسن مرسلا ، وهذا الحديث خارج من جملة أحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن لمكان محمد بن الفضل وعبد الواحد وما يرجعان إليه من الضعف " (٢) .

وهذا النص - بلا شك - ينص صراحة على فكرة العشق الإلهي ، التي يتمسك بها المتصوفة رغم ما فيها من بطلان أو تصادم مع العقيدة الصحيحة الصافية ، لأن صفات الله ﷻ عند أهل السنة والجماعة منقولة من الكتاب والسنة الصحيحة ، والذي ثبت أن الله ﷻ يحب ، ولم يصف الله ﷻ نفسه ولا وصفه رسوله ﷺ بأنه يعشق .

فإذا كان عبد الواحد بن زيد قد تحدث عن العشق الإلهي في القرن الثاني الهجري فإن أبا الحسين أحمد النوري (ت ٢٩٥ هـ) في القرن الثالث الهجري قد أشار إلى ذلك أيضا ، وقد جاء في كتاب " تلبس إبليس " " قال السراج : وبلغني أن أبا الحسين النوري شهد عليه غلام الخليل أنه سمعه يقول : أنا أعشق الله ﷻ وهو يعشقني ، فقال النوري سمعت الله يقول : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ " (٣) وليس العشق بأكثر من المحبة .

وقد رد ابن الجوزي على ذلك فقال : وهذا جهل منهم من ثلاثة أوجه : أحدها من حيث الاسم فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح ، والثاني : أن صفات الله منقولة فهو يحب ولا يقال يعشق ، ويقال يعلم ولا يقال يعرف ، والثالث : من أين له أن الله تعالى يحبه ؟ فهذه دعوى بلا دليل (٤) .

إذا عدنا إلى عبد الواحد بن زيد فإن أبرز ما يلفتنا إليه أيضا هو إفراطه في البكاء وفي إثارة الوجد عند الآخرين حتى قال حصين بن القاسم الوزان : " لو قسم بث عبد الواحد

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٧٧/٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٥٤) .

(٤) تلبس إبليس ص ٢١١ .

ابن زيد على أهل البصرة لوسعهم " (١) . وقد كان شديد التأثير في الوعظ والنصيحة ، وذلك من خلال طريقة أدائه ، وكثرة تحننه ، وإبداء تأثره وحزنه .

وقد أورد أبو نعيم نماذج هذه الأحوال منها ما يقوله بكر بن معاذ : سمعت عبد الواحد بن زيد يقول : يا إخوانه ! ألا تبكون خوفا من النيران ؟ ألا إنه من بكى خوفا من النار أعاده الله تعالى منها ، يا إخوانه ! ألا تبكون خوفا من شدة العطش يوم القيامة ؟ يا إخوانه ألا تبكون ؟ بلى فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا لعله أن يسقيكموه في حظائر القدس مع خير القدماء والأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . قال : ثم جعل يبكي حتى غشي عليه " (٢) . وذكر أنه كان يعظ يوما فناداه رجل من ناحية المسجد كف عنا يا أبا عبيدة فقد كشفت قناع قلبي ، ولم يقطع عبد الواحد عن موعظة بل استمر فيها فحشرج الرجل حشرجة الموت ثم مات (٣) .

ولعل هذا ما دفع شيخ الإسلام ابن تيمية إلى عده أول صوفي على وجه الحقيقة ، حينما قال رحمه الله : إنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ، ما لم يكن في سائر أهل الأمصار (٤) ، وما دعا الذهبي إلى القول بأنه " شيخ الصوفية وواعظهم " (٥) ، وتردد ذكره كثيرا على لسان أبي سليمان الداراني وتلميذه أحمد بن أبي الحواري وكذلك على الفضيل بن عياض (٦) . كما ذهب الطوسي - أيضا - إلى أن عبد الواحد كان من أوائل من نطق باسم الصوفية ؛ بل وصفهم لما سئل : " من الصوفية عندك ؟ فقال : القائمون بعقولهم على همومهم ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية " (٧) .

(١) حلية الأولياء ١٧٣/٦ .

(٢) المصدر السابق ١٧٢/٦ - ١٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ١٧١/٦ .

(٤) انظر : الصوفية والفقراء ص ١٢ .

(٥) ميزان الاعتدال ٤١٥/٣ .

(٦) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١٧٨/٣ .

(٧) اللمع للطوسي ص ٤٥ .

ومن رواد الحب الإلهي في القرن الثاني عتبة الغلام ^(١) (ت ١٧٧هـ) وقد اشتهر أيضاً بالحزن والخوف ، وأورد لنا أبو نعيم أخبار حزنه وزهده ، حتى اعتبر من نساك البصرة ، لأنه كان من أصحاب الفلق ^(٢) ، حيث قوّت لنفسه سنتين فلفة ، يتعشى كل ليلة بفلفة ويتسحر بأخرى ، وكان يصوم الدهر ، ويأوي السواحل والجبابين ، ^(٣) كما ذكر أبو نعيم ما صدر عنه من فكرة الحب الإلهي لمناجاته لربه فقال : " .. إن تعذبني فإني لك محب ، وإن ترحمني فإني لك محب ، فلم يزل يرددّها ويكي حتى تطلع الفجر " وكان يصلي في الليل الطويل ، فإذا فرغ رفع رأسه قائلاً : " سيدي إن تعذبني فإني أحبك ، وإن تعف عني فإني أحبك " ^(٤) . وقد تساوى عنده أحداث الحياة وتقلباتها وهو في مقام الحب ^(٥) . وقال : " من سكن حبه قلبه فلم يجد حراً ولا برداً ، يعني من سكن حب الله قلبه شغله حتى لا يعرف الحر من البرد ، ولا الحلو من الحامض .. " ^(٦) .

ولكنه يتذكر يوم العرض على الله فيقول : " قطع ذكر يوم العرض على الله أوصال المحبين .. ويقول : تراك مولاي تعذب محبيك وأنت الحي الكريم ؟ .. " . ويخبر بأن طريق المحبة شاق وطويل " سبحان جبار السماء إن المحب لفي عناء " ^(٧) . ويبين عقبة المحب فيقول : " من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه في جواره فطوباه ، وطوباه ، وطوباه .. ! " ^(٨) .

ومن خلال النصوص السابقة تتجلى بجلاء أن قضية الحب الإلهي في القرن الثاني تخيم على أحزان الأعلام الصوفية في هذا القرن نتيجة البكاء المستمر ، والمناجاة الدائمة التي يمارسها الصوفية وينادون ربهم في الليلة الظلماء سائلين منه حبه ومرضاته ، والنجاة من

(١) هو عتبة بن أبان البصري ، الزاهد ، الخاشع ، الخائف ، كان يشبه في حزنه بالحسن البصري (ت ١٧٧هـ) انظر : سير أعلام ٦٢/٧ .

(٢) الفلق : جمع فلفة ، والفلفة : الكسرة من الحفنة ، أو من الخبز ، ويقال : الفلفة من الحفنة : نصفها ، يقال : أعطني فلفة الحفنة ، وقيل أحد شقيها إذا انفلقت . انظر : تاج العروس للزبيدي ٤٠٥/١٣ .

(٣) حلية الأولياء ٢٤٧/٦ .

(٤) المصدر السابق ٢٥٣/٦ .

(٥) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١٨٤/٣ .

(٦) حلية الأولياء ٢٥٤/٦ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) المصدر نفسه .

نيرانه كما حصل ذلك عند عبد الواحد بن زيد ، وقد رأينا خطاءه حينما نادى بفكرة العشق الإلهي التي تتناقض مع العقيدة الصحيحة ، وتكلم بكلام خارج عن المنهج الصحيح في أسماء الله وصفاته ، وكذلك صديقه عتبة الغلام له أحزان ومخاوف ، ومبالغات في التنسك ؛ بل له مخالفات لرسول الله ﷺ في الأدعية والأفعال والتعبد ، فمحنة الله ﷻ تتمثل في العمل بأوامره واجتناب نواهيه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (١) .

وفي أواخر القرن الثاني الهجري ظهرت نظرية الحب الإلهي في مدرسة البصرة عند جماعة لقبوا بالزنادقة أو زنادقة الزهاد ، وهو اسم أطلقه عليهم أبو داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ) (٢) ، ومن هؤلاء :

رابعة العدوية (ت ١٨٥هـ) حيث اعتبرت من أوائل من تغنى بنعمة الحب الإلهي ، التي اتخذت حب الله ﷻ لما يخصها من نعمه وآلائه ، وأحبت الله ﷻ لذاته لا خوفا من ناره ولا طمعا في جنته ، وكان أقصى أمانيتها أن يكشف الله لها عن وجهه الكريم ، ويرفع عن قلبها الحجب التي تحول دون مشاهدته ، وفي هذا تقول في الأبيات الآتية مخاطبة فيها ربها وقائلة :

أحبك حبين حب الهوى	وجبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فكشفك لي الحجب حتى أراكا
وأما الذي أنت أهل له	فلمست أرى الكون حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن الحمد في ذا وذاكا (٣)

وقد عقب الغزالي على هذه الأبيات قائلا : " ولعلها أرادت بحب الهوى : حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، ويحبه لما هو أهل له : الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها ؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما ، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حينما قال حاكيا عن ربه ﷻ : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " (٤) .

(١) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١٨٧/٣ .

(٣) إحياء علوم الدين ٣١٠/٤ .

(٤) سبق تخريجه في ص ٦١ .

ولا شك أن حب الله ﷻ لذاته هو الحب الذي كانت تؤثره رابعة وتأخذ نفسها به كما يدل على ذلك قولها في إحدى مناجاتها ، حين تناجي ربها قائلة : " إلهي إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقني بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فأحرمنيها ، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمي يا إلهي من جمالك الأزلي " ، وكما يدلنا عليه أيضا قصتها مع سفيان الثوري ، وقد سألها عن حقيقة إيمانها فأجابته بقولها : " ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه " وكما يدل عليه بعد هذا كله قولها : " محب الله لا يسكن أئينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه " (١) .

وهذا ما يجعل بعض الباحثين يقولون : بأن رابعة العدوية هي أول من استعمل لفظة الحب استعمالا صريحا في التعبير عن صلتها بالله ﷻ وميلها إليه وإقبالها عليه ، وإن لفظة الحب قد شاعت في أقوال رابعة المتثورة والمنظومة ، ومنذ عهدا أخذت لفظة الحب ولفظة المحبة تشيع في أقوال الزهاد والصوفية على تعاقب طبقاتهم وعصورهم (٢) .

ولكن لو تأملنا في كلمات رابعة السابقة لوجدنا أن رابعة العدوية تحدثت عن مظهر من مظاهر الصوفية ، ذلك المظهر هو إنكار الذات وفناء المحب في المحبوب ، إذ لا تعرف الله حقا ولا يجد الحب الحقيقي - كما تزعمه المتصوفة - وفي النفس أدنى شعور بذاتها وبالعالم المحيط (٣) . وكذلك لو نظرنا إلى قولها " فكشفك لي الحجب حتى أراكا " فإنه قول ذو خطر عظيم على الصوفية المنحرفين الذين جاءوا بعدها ، لأنهم لما عنوا بذلك وطلبوه بالخلوات والأذكار أتاهم الشيطان بتخييلات وتصورات فبدت لهم الكائنات ، وأن الله ﷻ قد ظهر فيها ، فلا يرون إلا الله ﷻ حسب زعمهم ، حتى قال الحلاج أحد غلاتهم :

يا جملة الكل لست غيري فما اعتذاري إذن إلي
أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحاني (٤) .

وهكذا ظهرت نظرية الحب الإلهي بعد رابعة العدوية ، فمنهم من فهم معناها كما دل عليه الكتاب والسنة ، ومنهم من أخطأ فيها وانحرف عن الطريق الصحيح .

(١) الحياة الروحية في الإسلام ص ٧٩ .

(٢) المدخل إلى دراسة الأديان ، لعبد الرزاق محمد أسود ط ١ ، بيروت (دار المسيرة ١٤٠٠ هـ) ٢٢/٢ .

(٣) انظر : التصوف بين الحق والخلق ص ٥٨ .

(٤) أخبار الحلاج ص ٧٨ .

وأما بقية الأعلام الصوفية في القرن الثالث الهجري فقد تحدثوا أيضا عن المحبة الإلهية ،
وذكروا عدة تعريفات يريدون من وراءها تحديد ماهية الحب والكشف عن طبيعته وحقيقة
معانيه .

فهذا الحارث المحاسبي قال : " المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك ، ثم إثارك له على
نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك في حبه " (١) .
ولما سئل سهل التستري عن المحبة فقال : " موافقة القلوب لله ، والتزام الموافقة لله ، واتباع
الرسول ﷺ ، مع دوام الاستهتار " (٢) بذكر الله تعالى ، ووجود حلاوة المناجاة لله ﷻ " (٣)
أما أبو سعيد الخراز لما سئل فقال : طوبى لمن شرب كأسا من محبته ، وذاق نعيما من
مناجاة الجليل وقربه بما وجد من اللذات بحبه فملئ قلبه حبا وطار بالله طربا ، وهام إليه
اشتياقا " (٤) .

وبين أبو سعيد أن الحب قد جعل ذكر الله ﷻ بقلبه ولسانه فرضا على نفسه ، فهو
يتفرغ من الغفلة ، ويستغفر الله ﷻ منها ، وكذلك جوارحه إنما هي وقف لخدمة من أحبه ،
فهو غير ساه ولا لاه ، وإنما همه أن يرضى من أحبه ، فقد بذل المجهود في موافقته ، في أداء
فرائضه واجتناب نواهيه ، فهو مترين له بكل طاقته حذرا من أن يأتي عليه أمر يسقطه من
عين من أحبه " (٥) .

إذا نظرنا في تعريفات كل من المحاسبي والتستري والخراز فإنها تشير إلى جوانب
الصحة والموافقة لما دل عليه الكتاب والسنة وخاصة ما ذكره التستري من أن المحبة لا بد من
موافقة القلوب لله ﷻ ، واتباع سنة رسوله ﷺ ، وكذلك ما أشار إليه الخراز من أن
الإنسان لا بد أن يبذل جهوده في ابتغاء مرضاة الله في أداء فرائضه واجتناب نواهيه ، مع
الحذر الشديد من العمل الذي سيؤدي به إلى سخط الله وعقابه ﷻ .

والحق أن أبا سعيد قد وضع المحبة في القرن الثالث الهجري حينما بين معالمها الصادقة
وضوابطها وأحوالها ، وذلك حينما أشار إلى أن الصدق في المحبة هو " اتباع الرسول ﷺ في

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٢٤ .

(٢) يقال : استهتر بالشيء إذا أولع به .

(٣) اللع للطوسي ص ٨٧ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) كتاب الصدق لأبي سعيد الخراز ص ١٤٣ - ١٤٤ .

هديه وزهده وأخلاقه ، والتأسي به في جميع الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها .. وإيثار محبة الله ﷻ في جميع الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك " (١) .

وأضاف أبو سعيد موضحاً أن لمحبة الله ﷻ علماً فقال : " وبلغنا عن الحسن البصري رحمه الله أن ناساً قالوا على عهد رسول الله ﷺ يا رسول الله ! إنا نحب ربنا حباً شديداً فجعل الله تعالى لمحبتهم علماً ، وأنزل الله ﷻ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢) " (٣) فإن الله ﷻ جعل محمداً ﷺ علماً ودليلاً وحجة على أمته . وقال : " فعلامه الحب : الموافقة للمحبوب ، والتجاري مع طرقاته في كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعنيه " .

ثم شرح حال المحبة فقال : " المحبة بدؤها من ذكر النعم ، ثم على قدر النعم ، ثم على قدر ما يستحق ؛ لأن الحب لله تعالى يجب الله تعالى عند النعم وعند فقدها ، وعلى كل حال حباً صحيحاً منعه أو أعطاه ، أو ابتلاه أو عافاه ، فالمحبة لازمة لقلبه على حالة واحدة في العقد ، ثم إلى الزيادة أقرب ، ولو كانت على قدر النعم لنقصت المحبة إذا نقصت النعم في وقت الشدائد ووقوع البلاء ، لكن الحب لله تعالى الذي وَلِه عقله بربه واشتغل برضاه فكان في شكره لله حيران ، كأنه ليست نعمة على أحد إلا وهي عليه ، وهو مشغول بحبه لله ﷻ عن كل الخلق ، وقد أسقطت المحبة لله تعالى عن قلبه الكبر والغل والحسد والبغى ، وكثيراً مما يعنيه من أمر الدنيا من مصلحة فكيف يذكر ما لا يعنيه ؟ " (٤) .

أما أبو القاسم الجنيد فقد وصف حال الحب في المحبة وصفا ليس في حقيقته إلا تعريفاً للمحب يمكن أن يستخلص منه تعريف للحب ، وذلك على الوجه الذي نتيبناه من قوله : " عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هويته ، وصفا شربه من كأس وده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله والله ومع

(١) المصدر نفسه ص ١٤٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٣) قال في " الدر المنثور " أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ١٧/٢ .

(٤) كتاب الصدق ص ١٤٤ - ١٤٥ .

الله .. " (١) ، بيد أنه قد تحدث عن مفهوم المحبة الحقيقية عند الصوفية بتعريف آخر ؛ وهي المحبة التي يصل فيها الحب إلى استبدال صفاته بصفات المحبوب فيقول : " دخول صفات المحبوب على البديل من صفات المحب " (٢) .

وإذا تأملنا في هذا التعريف فقد رأيناه تعريفاً مجانباً للصواب إن أراد بذلك الجنيد أن على المحب أن يتخلى عن صفاته البشرية ؛ لأن الإنسان مهما كانت منزلته وقربه من الله ﷻ فإنه لا يمكن أن يطلق على أحد محب لله تعالى حتى يخلع صفاته البشرية ويتخلى بالصفات الإلهية ، فالإنسان مهما أحب الله حق محبته فإنه سيظل إنساناً ناقصاً ، ولا يسعه أن يتخلى عن صفاته الآدمية ، ولكن الطوسي قد فسر قول الجنيد السابق بقوله : فهذا على معنى قوله : " .. حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، وسمعه الذي يسمع به ، ويده التي يبطش بها " ، فإن أراد الجنيد هذا التفسير فهو مقبول وإن كان تعريفه لا بد من تعديله وتصحيحه ، لأنه يوحي إلى الحلول كما عند المتصوفة المنحرفة .

وتحدث الحلاج - كذلك - عن حقيقة المحبة فقال : " قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك " (٣) . فإن أراد الحسين بن منصور بذلك أن أحداً لا يصل إلى حقيقة المحبة إلا أن يخلع أوصافه البشرية ويقوم مع الله ﷻ بعد ذلك فإنه تعريف خاطئ ناقص ، لأنه ليس في وسع الإنسان تحقيق ذلك مهما كان محباً لله ﷻ ، كما أن كلام الحلاج أوماً إلى القول بالحلول ، وهو ما اعتقده الصوفية المنحرفة بأن نهاية حب الله هو حلول الله في المحب ، أما دون ذلك فلا يسمى حبا عندهم ، وهذا غير صحيح فإن الرسول ﷺ كان أكثر الناس حبا له ، وكذلك أصحابه الكرام ولم نسمع من أحدهم أنهم ادعوا حلول الله فيهم .

ومن تحدث عن الحب الإلهي في القرن الثالث الهجري ذوالنون المصري وقال في المحبة : " أن تحب ما أحب الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغل عن الله ، وألا تخاف في الله لومة لائم ، مع العطف للمؤمنين ، والغلظة على الكافرين ، واتباع رسول الله ﷺ في الدين " (٤) .

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٢٧ ، ومدارج السالكين ١٨/٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٣٢١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٢٣ .

(٤) طبقات الصوفية ص ١٨ .

وقد تأثر ذوالنون بفكرة رابعة في الحب الإلهي ، حيث إن هذا الحب قد أرقه وأسقمه وهو يقول :

حبك قد أرقني وزاد قلبي سقما
كتمته في القلب والأحشا حتى انكتما
لا تهتك ستري الذي ألبستني تكرما ^(١) .

وهذا الحب إن جر ألما وعذابا فعليه أن يصبر ، قال لرجل زعم أن الحب أحرق قلبه:
لم تشتكي ألم البلاء وأنت تتحل المحبة
إن المحب هو الصبو رعلى البلاء لمن أحبه
حب الإله هو السرو رمع الشقاء لكل كربه ^(٢) .

وبين أحمد بن أبي الحواري علامة حب الله بأن ذلك طاعته ﷺ أو حب ذكره فقال :
" علامة حب الله طاعة الله ، وقيل : حب ذكر الله فإذا أحب الله العبد أحبه .. " ^(٣) .

أما حاتم الأصم ^(٤) فقد وضع صحة أو كذب من يدعي الحب فقال : " من ادعى ثلاثا بغير ثلاث فهو كذاب ؛ من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب ، و من ادعى حب النبي ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب " ^(٥) .

نفهم من كل ذلك أن على الإنسان أن يتجرد عن شهوات الحس ، ويتخلص من نزوات النفس ، ويقبل بجمته على الله ﷻ ، ويعرض عن كل ما سواه ويتجنب عن كل ما يبغضه الله ﷻ ورسوله ﷺ ، فهذه هي المعاني التي ينبغي أن يحققها المحب الإلهي ، وأن يتحقق بها حتى تصح محبته ، ويصبح محبا لله ﷻ على الحقيقة .

على أن الحب الإلهي - عند الصوفية - لكي يكون محبا صادق الحب فلا بد أن يقوم بين يدي حبه طائفة من الرياضات والمجاهدات ، وأن يتخلق ويمارس جملة من الأحوال

(١) حلية الأولياء ٣٩٥/٩ .

(٢) المصدر نفسه ٣٥٨/٩ .

(٣) طبقات الصوفية ص ١٠١ .

(٤) هو أبو عبد الرحمن ، حاتم بن علوان المعروف بالأصم ، من أكابر مشايخ خراسان (ت ٢٣٧هـ) ، انظر :

الرسالة القشيرية ص ٣٩٣ ، وطبقات الصوفية ص ٩١ .

(٥) المصدر السابق ص ٩٧ .

والمقامات - التي ستحدث عنها - حتى إذا بلغ من هذه وتلك المبلغ الذي يحقق له العلم والعمل وصل عند ذلك إلى أرقى الأحوال وأسمى المقامات وهي المحبة . ولهذا يتفاوت الناس في المحبة بتفاوت إيمانهم عندهم وعند السلف الصالح ، فكلما زادت معرفتهم بالله زادت محبتهم قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (١) .

فمحبة الله ﷻ - إذن - وعدم إشراك أحد مع الله ﷻ بالحب الخالص مرتكز هام في العقيدة الإسلامية ؛ لأن من أحب الله مخلصا من قلبه يحب غير الله ورسوله من الأهل وسواهم ولكن يحبهم الله وفي الله ، وذلك لما تحقق في قلبه ووجدانه من لذة الإيمان وحلاوته وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ حينما قال : " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار " (٢) .

فالإنسان الذي يعرف قيمة حب الله ورسوله يتجاوز أعراض الدنيا وزخارفها إذا ما دعاه هذا الحب للجهاد ابتغاء مرضاة الله ﷻ واتباع أوامر النبي ﷺ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

فالحب الإلهي شوق من العبد للقاء ربه ومرضاته ، وهذا يستلزم أن يكون للمؤمن أسوة برسول الله ﷺ ، يأخذ ما جاء به وينتهي عما نهى عنه قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) . وقال تعالى أيضا : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ (٥)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فمن كان الله يحب استعمله فيما يحبه محبوبه ، لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ، ومن فعل الكبائر وأصر عليها

(١) سورة البقرة ، الآية (١٦٥) .

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح، في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ١٧/١ (ح ١٦) .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٢٣) .

(٤) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٥) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

ولم يتب منها فإن الله ييغض منه ذلك كما يحب منه ما يفعله من الخير إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه ، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تناوئه منه بصحة مزاجه " (١) .

إذن فالعبد المؤمن المحب إذا أراد أن يتحقق الحب بينه وبين الله ﷻ فلا بد أن يتجه إلى الله وحده فلا يخالف أمره وأمر رسوله ﷺ ، ولا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضي الله ، ولا ينظر ببصره إلا بما أمر الله به ﷻ ، ولا يسعى بقدميه إلا إلى ما أذن الله به أن يذهب إليه .. وبذلك تتحقق المحبة لله ، ويسهل على العبد السالك إليه .

(١) الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ١٩٨/٥ .

المبحث الثالث

الولاية

إن مادة الولاية تدور في اللغة على القرب ، ثم ما يتصل به من معان مختلفة كالحبة والنصرة والمؤازرة والسلطان وتدبير الأمور والمتابعة ..^(١) . وشاعت الكلمة أول ما شاعت بمعناها العام الجامع للجاني الخير والشر ، وجاء القرآن الكريم فاستعملها بذلك المفهوم كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في جانب أولياء الرحمن وجانب أولياء الشيطان^(٢) ، كما ذاعت أيضا تلك الكلمة في حديث رسول الله ﷺ في جانب أولياء الله ﷻ في الأغلب والأعم ، كما في الحديث القدسي ، وفهمها الصحابة الكرام ومن بعدهم ممن سار على نهجهم واستعملوها في جانب الخير ، على أنها الوصف الذي يجب أن يكون الإنسان عليه في الحدود التي حددها لها القرآن الكريم في جانب أولياء الله ﷻ^(٣) .

هكذا فهم الصدر الأول معنى الولاية بمعناها المشرق الذي يدور بين الحب والقرب والنصرة .. وهو الذي أراده القرآن الكريم حينما قال : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾^(٤) . فأولياء الله عند ابن جرير الطبري هم أنصار الله^(٥) ، لأنهم يؤيدهم الله وينصرون دين الله تبارك وتعالى ، وكما تبين الآية بأن كل مؤمن تقى فهو ولي الله ، وإن كان المؤمنون يتفاوتون في إيمانهم وتقواهم ، فكذلك هم يتفاوتون في ولايتهم لله ﷻ .

وقد ظهر هذا المعنى منذ ابتدأت الدعوة إلى الإسلام ، وظلت النظرة إلى الولاية بهذا المدلول إلى أن دخلتها مفاهيم أخرى ، وأصبحت كلمة " ولي " تطلق على رجل متصوف ، أو من يزعم انتسابه إلى آل بيت النبي ﷺ^(٦) ؛ بل وصل الأمر عند بعض المتصوفة إلى حد الانحراف ، وهذا ما سأبينه وأتطرق إليه مستعرضا أقوال الأعلام الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

(١) انظر : لسان العرب ٤٠٧/١٥ - ٤١٣ .

(٢) في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

(٣) انظر : ولاية الله والطريق إليها ص ٦١ .

(٤) سورة يونس ، الآيتان (٦٢ - ٦٣) .

(٥) انظر : جامع البيان ١٣١/١١ .

(٦) ولاية الله والطريق إليها ص ٦١ .

فالولاية عند مصطلحات المتصوفة هي : " قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه ، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب والتمكين " ^(١) .

ويقول القشيري : " الولي له معنيان : أحدهما : فعيل بمعنى مفعول ، وهو من يتولى الله ﷻ أمره ، قال الله ﷻ : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٢) فلا يكله إلى نفسه لحظة ؛ بل يتولى الحق سبحانه رعايته ، والثاني : فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان ، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي وليا .. " ^(٣) .

فالولاية - إذن - تكون ثمرة لارتباط الجانبين معا ، رعاية إلهية تحيط بالعبد ، فلا تكله إلى نفسه لحظة، ويترتب على هذه الرعاية أن لا يقصر في حق من حقوق الله . ورعاية من العبد لواجباته ، وأداء الطاعات المطلوبة منه ، ولا يمكن أن يصل إلى مرتبة الولاية إذا أهمل أو قصر في هذه الرعاية حسبما يراه المتصوفة .

وأشار الدكتور عبد الفتاح بركة إلى أن الولاية " اختصاص ﷻ لبعض عباده ، وتفضيل بعضهم على بعض بما شاء من فضله ، وهي فكرة دينية ثابتة لكن على أي أساس تقوم ؟ هل هو محض اختيار من الله ؟ أم هو جزاء وفاق لمحض جهد العبد وإرادته ؟ أم أن الأمر قسمة بينهم .. حتى تتم الولاية " ؟ ^(٤) .

وإذا نظرنا في الصوفية المتقدمين في القرن الثاني الهجري وجدناهم قد تعرضوا لذلك، فالفضيل بن عياض ومعروف الكرخي يشيران إلى أن الولاية فضل ومنة من الله ﷻ ، وإن كان كلامهم لا يخلو من الإشارة إلى الجهد والعمل . بينما إبراهيم بن أدهم يشير إلى الناحيتين معا ، ويرى أنها قد تكون بالمنة كما حدث لنفسه حينما هتف به الهاتف وهو في رحلة الصيد ، وقد تكون بالجهد كما روى عنه القشيري أنه قال لرجل في الطواف : وأمره أن يعلم بأنه لا ينال درجة الصالحين حتى يتجاوز ست عقبات .. ^(٥) .

(١) اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص ٧٩ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٩٦) .

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٤) الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية ، الدكتور عبد الفتاح بركة ، القاهرة ، من مطبوعات مجمع البحوث

الإسلامية ٣٥/٢ .

(٥) انظر : ص .

ووجدنا عند إبراهيم بن أدهم - أيضا - ناحية أخرى في طريق الولاية ، تلك هي إشارته إلى ضرورة إسقاط المشيئة وترك التدبير من جانب العبد ، وذلك بالإضافة إلى بذل الجهد ، قال لأخ له في الله : " أتحب أن تكون لله وليا ؟ فقال نعم ، فقال : لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك على الله ليقبل عليك ويواليك " (١) .

فإذا كان طريق الولاية عند إبراهيم بن أدهم هذه الناحية فهو خلاف لما دل عليه الكتاب والسنة ، لكونهما لم يحثا على التخلي نهائيا عن الدنيا والآخرة ، ولأن الدنيا مزرعة للآخرة ، ولم يأمر الإسلام أن يرغب الإنسان عنهما ، وإنما أراد التقلل من الدنيا وعدم الانغماس فيها ، فهو يعتني بالحياة الدنيوية اعتناء معتدلا لإبقاء المصلحة الفردية والجماعية ، ويحث المسلم على أن يأخذ بنصيبه من الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) ، وقال النبي ﷺ : " إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده حسنا " (٣) ، فالإنسان الذي يعمل على ضوء هذه النصوص وكان مؤمنا تقيا لا يبعد أن يكون من جملة أولياء الله ﷻ .

وكذلك لو نظرنا في الأعلام الصوفية في القرن الثالث الهجري لوجدنا أن ذا النون المصري - الذي أول من تكلم بأحوال الصوفية ومقامات الولاية - وأبا يزيد البسطامي وأبا القاسم الجنيد قد أشاروا إلى الطريقتين معا ، بمعنى أن هناك أولياء نالوا ولايتهم بمحض المنة الإلهية ، وآخرين أدركوا بالجهد والعمل ، وتظهر هنا ناحية جديدة هي مقارنة أبي القاسم الجنيد بين الولي الذي نال ولايته ببذل الجهد ، والذي نالها بطريق المنة حيث كان يقول : باب كل علم نفيس جليل بذل المجهود ، وليس من طلب الله ببذل المجهود كمن طلبه من طريق الجود (٤) . أما يحيى بن معاذ الرازي وسهل التستري فيريان ما رآه إبراهيم بن أدهم من قبل ، حيث يوصيان في هذا الصدد بترك المشيئة أيضا ، ويقول : ما دام العبد يتعرف فيقال لا تختبر شيئا ، ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفا فيقال له : إن شئت اختر ، وإن شئت لا تختبر لأنك إذا اخترت فباختيارنا ، وإن تركت

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٦١ .

(٢) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٣) سبق ترجمته ص ٧٥ .

(٤) طبقات الصوفية ص ١٥٧ .

الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار ^(١) . ويقول سهل التستري : ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس معيشتهم ^(٢) . وسئل أي منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟ قال : إذا ترك التدبير والاختيار ^(٣) .

ومع أنهم أسقطوا اعتبار قيمة العمل فإنهم لم يقولوا بإسقاط التكاليف أو التقليل من أهميتها . قال رجل لأبي القاسم الجنيد : من أهل المعرفة أقوام يقولون : إن ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيم ، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة ^(٤) . وبذلك رفض الصوفية المتقدمون رفضا قاطعا ما قال به بعض غلاة الشيعة ، من عدم الحاجة إلى الالتزام بالتكاليف ، واستحلالهم المحرمات ...

ولكن مع ذلك يبدو أن تأثير الشيعة كان واضحا على الصوفية في إطلاق لفظ الولاية على الشيخ والعالم فإن الرافضة هم أول من أطلق الولي على أئمتهم ابتداء بعلي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم بقية الأئمة من بعده ، وأضافوا إلى ذلك دعوى العلم اللدني والعصمة ، وسرت عدواها إلى الصوفية فقالوا : بأن أولياءهم يتلقون عن الله ﷻ مباشرة وأنهم معصومون من الخطأ ^(٥) ؛ بل يزعمون أنهم يتلقون علومهم عن الله ﷻ مشافهة ، وأنهم يعرجون إلى السماوات العلا ، ويتكلمون مع الرب ﷻ ، ويدعون أيضا بأن النبوة مستمرة ، وأن الولاية أفضل من النبوة لأن النبوة قد انقطعت بينما الولاية لم تنقطع . وعلى هذا فالوحي - عندهم - إلى الولي عن الله مستمر ، بل ادعى بعض غلاتهم بأن الأنبياء يوحون إليهم بواسطة الملك ، بينما الأولياء يأخذون علومهم عن الله ﷻ بلا واسطة ، وأنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه جبريل عليه السلام .

(١) عوارف المعارف ص ٣٣٧ .

(٢) طبقات الصوفية ص ٢٠٩ .

(٣) عوارف المعارف ص ٣٣٧ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٣١٤ .

(٥) الصلة بين التصوف والتشيع ١٠/٢ .

ولعل أبا يزيد البسطامي أبرز من زعم من المتصوفة تلقي علومهم عن الله ﷻ ، وعروجهم إليه ومكالمتهم معه ، بل يعتبر أول من يدعي دعوى المعراج الصوفي ، وأول من قال : لي معراج كما كان للنبي ﷺ معراج ، وبذلك أخرج من بسطام .

يقول الدكتور ناصر العقل : " وهذه داهية من دواهي القوم ، وخرافة من خرافاتهم التي راموا بها الإسلام ، وسُلم إلى كثير من العقائد الفاسدة التي يدعوها ^(١) . فأبو يزيد يعد من المشايخ الكبار في الأوساط الصوفية - في القرن الثالث الهجري - في تأسيس عقائد الصوفية المنحرفة ، حيث زعم انه أخذ علمه عن الحي الذي لا يموت ، ومعلوم أن الذي لا يموت هو الله ﷻ فهو المستحق وحده لهذا الوصف ، أما غيره من المخلوقات فلا يوصف بذلك لأن الله ﷻ يقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ^(٢) .

وقد استهزأ البسطامي - أيضا - بعلماء الإسلام الذين يهتمون بعلوم كتاب الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وبسنته المطهرة حينما قال : " أخذتم علمكم ميتا عن ميت ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت " ^(٣) ، وكذلك لما اعتبر العالم بعلمه من أشد المحجوبين عن الله ، بحجة أن جميع ما أبدى الله من العلم سطر واحد من اللوح المحفوظ ، فكم علم هذا العالم من ذلك البسط وكم عمل فيما علم ؟ " ^(٤) .

وعبارات البسطامي السابقة - بلا شك - ليست موفقة ولا مقبولة ، لأن فيها تمكنا واستهزاء واضحا بعلماء سلف هذه الأمة ، الذين نقلوا إلينا تعليم الكتاب والسنة عبر التاريخ الطويل ، لا يحيل تواطؤهم عن الكذب ، تلقوها عن رسول الله ﷺ ، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وأما العلوم الخرافية التي يدعي المتصوفة أنهم أخذوها عن الله ﷻ فإن أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بالكتاب والسنة الصحيحة لا يقبلونها مادامت تدعو إلى الضلال والكفر والبدع .. إذ كيف يقول البسطامي إن العلماء من أشد المحجوبين عن الله ﷻ مع أن العلماء هم أشد الناس خشية لله ؟ قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى

(١) دراسات في الأهواء والفرق .. ص ٢٧١ .

(٢) سورة الرحمن ، الآيتان (٢٦ - ٢٧) .

(٣) الفتوحات المكية ١٣٩/١ .

(٤) حلية الأولياء ٣٧/١٠ .

الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿١﴾ . وقال رسول الله ﷺ : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى ، وما والاه ، وعالما أو متعلما » (٢) ، وكيف يستهزئ بعلم الله ﷻ مع أن الله ﷻ قال في محكم التنزيل : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (٣) ، وقال تعالى أيضا : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤) .

وما يقوله البسطامي متناقض مع ما في الكتاب والسنة ، لأننا نؤمن بأن الله ﷻ متصف بالعلم الذي يليق بجلاله ، كما أننا نؤمن بأنه لا وحي ولا علم يتلقى عن الله ﷻ بعد الرسول ﷺ ، لأن رسالته ﷺ خاتمة لكل الرسالات السابقة ، فهي تسد كل باب من يدعي النبوة والرسالة قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٥) ، وفي حديث ثوبان الطويل عند أبي داود وغيره « وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي » (٦) ، ونفهم من ذلك أن ادعاء الوحي بعد الرسول ﷺ كذب وافتراء ليس له سند ولا أساس من الصحة .

وصرح أبو يزيد بما يدل على ولايته وقربه من الله ﷻ وذلك حينما ادعى أنه عرج به إلى السماوات ، وتكلم مع الرب ﷻ ، وأنه أراه الله ﷻ السبع الأراضي وما فيها ، والسماوات السبع وما فيها ، وأنه رأى الجنان وعرش الرحمن فيقول : " أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في الملكوت السفلى فأراني الأراضي وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السماوات ، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ، ثم أوقفني بين يديه فقال لي : سلمي أي شيء رأيت حتى أهبه ؟ فقلت يا سيدي ما رأيت شيئا

(١) سورة فاطر ، الآية (٢٧) .

(٢) سبق تخريجه في ص ٦٨

(٣) سورة الكهف ، الآية (١٠٩) .

(٤) سورة لقمان ، الآية (٢٧) .

(٥) سورة الأحزاب ، الآية (٤٠) .

(٦) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢) ، والترمذي (٢٢٠٣) ، ومسلم مختصرا في الفتن / ٢٨٨٩ .

استحسنه فأسألك إياه ، فقال : أنت عبيدي حقا تعبدني لأجلي صدقا لأفعلنك بك" (١) .

نجد في هذا النص أن أبا يزيد زعم بأنه تبادل مع الرب ﷻ الحديث مشافهة حيث عرج به إلى السماوات العلا فرأى الجنان ، ومع ذلك لم يجد شيئا يعجبه فلم يسأل الله ﷻ شيئا ، وذلك لأن الجنة لا تساوي عند المتصوفة المنحرفين شيئا لأنهم حسب زعمهم لا يعبدون الله حبا للدخول في الجنة ولا النجاة من النار ، وإنما يعبدونه متجردين عن الرغبة والرغبة ؛ ولا شك أن هذه العبادة مجانبة لما شرعه الله لعباده ، لأن الله تعالى قال في وصف أنبيائه وأوليائه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٢) .

وقال أبو يزيد في نص آخر ما يدل على أنه تبادل الحديث مع الله العلي الكبير المتعال : " رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي : يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك ، فقلت : زيني بوحدا نيتك ، وألبسني أ نيتك ، وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رأيي خلقك قالوا : رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا " (٣) .

كما زعم بأنه خاض بجرا من العلم لم يستطع الأنبياء أن يخوضوه وإنما وقفوا بساحله فقال : " خضنا بجرا وقف الأنبياء بساحله " (٤) . بل ادعى أنه أوتي ما لم يؤت النبيون من العلم حينما صرح " معاشر الأنبياء أوتيتم القلب وأوتينا ما لم تؤتوه " (٥) ، وحينما قال أيضا : " تالله إن لوائي أعظم من لواء محمد ﷺ ، لوائي من نور تحته الجان والجن والإنس كلهم من النبيين " (٦) .

ففي النصوص السابقة تفضيل أبي يزيد نفسه على جميع الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - في العلم واضح ، وهذا مخالف للعقيدة الإسلامية الصحيحة ، فلا ينبغي

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ٧٠/٢ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية (٩٠) .

(٣) اللمع للطوسي ص ٤٦١ .

(٤) جمهرة الأولياء ٢٦٦/١ .

(٥) الإنسان الكامل للجيلي ١٢٤/١ .

(٦) المصدر نفسه ٦/١ .

أن يقوله إنسان يؤمن بالله واليوم الآخر ، بل لا يمكن أن يخرج من شخص يعتبره المتصوفة من كبار أوليائهم .

وأما المقولة أن الأولياء أفضل من الأنبياء فقد ذكر ابن الجوزي أن أول من قال بذلك هو أحمد بن أبي الحواري (ت ٢٤٦هـ) حيث نسب إليه ، وشهد الناس عليه في ذلك ، فهرب من دمشق إلى مكة ^(١) . والمقولة ظهرت آنذاك لكن نسبتها للحواري غير صحيحة ، أو أنه قال بما ثم رجع عنها ، قال الذهبي : " قال أحمد السلمي في محن الصوفية ، أحمد بن أبي الحواري شهد عليهم قوم أنه يفضل الأولياء على الأنبياء ، وبذلوا الخطوط عليه ، فهرب من دمشق إلى مكة ، وجاور حتى كتب إليه السلطان يسأله أن يرجع فرجع .

(قال الذهبي) قلت : إن صحت الحكاية فهذا من كذبهم على أحمد ، هو كان أعلم بالله من أن يقول ذلك ^(٢) .

(١) تليس إبليس ص ٢٠٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩٣/١٢ .

المبحث الرابع الكرامة

الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة ، فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا ، وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة ^(١) ، والمعجزة لا تكون إلا للرسول خاصة ، وتكون دائما مرتبطة بتحدي أمم الرسل لرسولهم .

فالمعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة وكذلك الكرامة في عرف أهل العلم المتقدمين ، ولكن كثيرا من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما فيجعلون المعجزة للنبي والكرامة للولي ^(٢) .

والولي إذا كان من المؤمنين بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، مقيما لما أوجب الله عليه ، تاركا لما نهى الله عنه ، مستكثرا من طاعته فهو من أولياء الله ﷻ ، وما ظهر عليه من الكرامات التي لم تخالف الشرع فهي موهبة من الله ﷻ لا يحل لمسلم أن ينكرها ، ومن كان بعكس هذه الصفات فليس من أولياء الله ﷻ ، وليست ولايته رحمانية بل شيطانية ، وكرامته من تلبيس الشيطان عليه وعلى الناس ^(٣) .

والله ﷻ قد أكرم عباده المتقين وأوليائه الصالحين بكرامات كثيرة ، واصطفاهم وميزهم على غيرهم بأشياء عديدة ، وهذه الكرامات هي ثمرة الإيمان والتقوى ، ومحبة الله ورسوله واتباعه ﷺ فيما أمر ، والانتفاء عما نهى عنه وزجر ، وهي امتداد لمعجزات نبينا محمد ﷺ .

وقد بين الكلاباذي أن أولياء الله ﷻ إذا ظهر لهم من كرامات الله شيء ازدادوا لله تذلا وخضوعا وخشية واستكانة ، وإزراء بنفوسهم وإيجابا لحق الله عليهم ، فيكون ذلك زيادة لهم في أمورهم ، وقوة على مجاهداتهم ، وشكرا لله تعالى على ما أعطاهم ، فالذي للأنبياء معجزات ، وللأولياء كرامات ، وللأعداء مخادعات ^(٤) .

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٨٤ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٨ .

(٣) ولاية الله والطريق إليها ص ٢٥٦ .

(٤) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٨٧ - ٨٩ .

ونحن لو عدنا إلى الأعلام الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين فإننا نجد من قد تحدث عن الكرامة وخوارق العادات ، وذكروا لنا معانيها وما كان متصلا بها .
فهذا سهل بن عبد الله تستري قد بين بأن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود ^(١) . وهون من أمر الكرامة إلى حد أنه قال : " من زهد في الدنيا أربعين يوما صادقا مخلصا في ذلك تظهر له الكرامات من الله ﷻ " ^(٢) .
وبين البسطامي الضوابط للكرامة حينما قال : " لو أن رجلا بسط مضلاه على الماء وتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي " ^(٣) .
وأما الجنيد فقد انتقد من يتكلم في الكرامات دون أن يكون له شيء من ذلك فقال :
من يتكلم في الكرامات ولا يكون له من ذلك شيء مثله مثل من يمشي التبن .. " ^(٤)
وقال أيضا : " حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم والتلذذ بالعطاء والسكون إلى الكرامات .

أما أبو الحسين النوري فقد ذكر أنه وافى ليلة إلى الدجلة قال : فوجدتها وقد الترق الشط بالشط قال : فقلت : وعزتك لا عبرتها إلا في زورق ^(٥) .
نفهم من عبارات هؤلاء الأعلام أن منهم من كره إذا ظهر له شيء من الكرامات خوفا من الفتنة ، ولعل ذلك ما يدل على ورعهم وتقواهم ، ومهما أنكروا ذلك فإن لبعضهم كرامة تدل على صدقهم وسلامة قلوبهم ، تكريما من الله ﷻ وتأييدا لهم .
فهذا معروف الكرخي له خبر عن كرامته ذكره الخطيب البغدادي وذلك حينما سأله بعض الناس فقالوا لمعروف يا أبا محفوظ لو سألت الله أن يمطرنا ؟ وكان يوما شديد الحر ، فقال : ارفعوا إذا ثيابكم ! فما أن يتموا رفع ثيابهم حتى جاء المطر ^(٦) . وقيل له : يا أبا محفوظ بلغني أنك تمشي على الماء ، فقال : ما مشيت قط على الماء ولكن إذا هممت

(١) اللع للطوسي ص ٤٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٠٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٩٠ .

(٥) المصدر نفسه ص ٤٠١ .

(٦) انظر : تاريخ بغداد ٢٠٧/١٣ .

بالعبور جمع لي طرفاه فأخطاه ^(١) . ولكن رغم ذلك كله كان معروف لا يفضل التحدث عن الكرامات ، بل كان يحاول دائما إخفاءها مما كان له أثر كبير في تصوف أبي القاسم الجنيد ، الذي يرى أن الاتكال على الكرامات أحد الحجب التي تمنع المختار من النفاذ إلى الحق ﷻ ^(٢) .

فالحديث عن الحوادث أو الخوارق للعادة التي حدثت في القرنين الثاني والثالث الهجريين طويل ولكن الذي أريد أن أؤكد به أن الكرامة ثابتة بالكتاب والسنة وبإجماع الأمة ، فالأدلة من الكتاب كثيرة منها ما حكاه لنا المولى ﷺ عن مريم عليها السلام قال تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ ^(٣) . وقال تعالى عنها أيضا : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ^(٤) . فقد جاء في تفسير ذلك أنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في القيظ وفاكهة القيظ في الشتاء ، فقال يا مريم أنى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله ^(٥) . وكذلك قصة أصحاب الكهف وما أجراه الله عليهم من النوم قال تعالى : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ ^(٦) . وأما من السنة فما رواه أبو هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : "لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر" ^(٧) .

قال الإمام القرطبي : إن كرامات الأولياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار الثابتة والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا مبتدع جاهد ، أو فاسق حائد . ^(٨)

(١) المصدر نفسه ١٣ / ٢٠٦ .

(٢) انظر : اللمع للطوسي ص ٤٠٠ .

(٣) سورة مريم ، الآيتان (٢٥ - ٢٦) .

(٤) سورة آل عمران ، الآية (٣٧) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٧١ / ٤ .

(٦) سورة الكهف ، الآيتان (١٦ - ١٧) .

(٧) سبق تخريجه في ص ١٥٢ .

(٨) الجامع لأحكام القرآن ٢٨ / ١١ .

وقال ابن أبي العز الحنفي : " وقول المعتزلة في إنكار الكرامة ظاهر البطلان ، فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات ، وقولهم لو صحت لأشبهت المعجزة ، فيؤدي إلى التباس النبي بالولي وذلك لا يجوز ! وهذه الدعوى إنما تصح إذا كان الولي يأتي بالمخارق ويدعي النبوة وهذا لا يقع ، وإذا ادعى النبوة لم يكن وليا بل كان متنبئا كذابا " (١) .

وبهذا نصل إلى أن ما حدث لبعض الأعلام في القرنين من الكرامة ما هي إلا امتداد لما حصل للسلف الصالح من كرامات كتكريم الله ﷺ أم أيمن عندما هاجرت وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش وكانت صائمة ، فلما كان وقت الفطر سمعت حسا على رأسها فإذا دلو معلق فشربت منه ، وكما حدث للبراء بن مالك ؓ كان إذا أقسم على الله أبر قسمه ، وكان سعد بن أبي وقاص ؓ مستجاب الدعوة ، ومشى أمير الجيوش الإسلامية في البحرين العلاء بن الحضرمي وجنوده فوق الماء لما اعترضهم البحر ولم يكن معهم سفن تحملهم ، وألقى أبو مسلم الخولاني في النار فلم تحرقه (٢) .

فأهل السنة والجماعة لا ينكرون الكرامات وهم يعلمون أن الله ﷻ الذي وضع الأسباب ومسبباتها قادر على خرق هذه السنن لعبد من عباده ، ولكن الكرامة ليست شرط الولاية ، ولا دليلا على فضل صاحبها بمجرد وقوعها كما يعتقدونها الصوفية بل " ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل ، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته ، ويكون من هو أكمل ولاية الله منه مستغنيا عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها ، لا لنقص ولايته ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة " (٣) .

وكانت الخوارق تقع في الصحابة دون تكلف منهم أو تطلب لها ، أو نتيجة ممارسة رياضية روحية ، بل تقع إكراما من الله ﷻ لهم ، أو دعاء يرون فيه مصلحة دينية .. أما المتأخرون فيطلبونها ويتكلفون لها لرياضات روحية ، وربما أفسد جسمه ونفسيته بسبب هذا مع أن " طلب الكرامات ليس عليه دليل ، بل الدليل خلاف ذلك فإنما غيب عن الإنسان ، ولا هو من التكاليف لا يطالب به " (٤) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧٩/١١ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٢٣/١١ .

(٤) الموافقات للشاطبي ٢٨٣/٢ .

ثم إن كرامات أولياء الله ﷺ لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى - كما تقدم - والولي لله هو المحافظ على الفرائض والسنن والنوافل ، عالما بأمر الله عاملا بما يعلم ، فمن صفت عقيدته وصح عمله كان وليا لله يستحق إكرام الله له إن شاء ، فهذا إذا خرقت له العادة لا تضر ولا يغتر بذلك ولا تصيبه رعونة ، وقد لا تحصل لمن هو أفضل منه فليست هي بحد ذاتها دليلا على الأفضلية .. كما أنه ليس كل من خرقت له العادة يكون وليا لله ، كما أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة له ، بل قد تحرق العادة لمن يكون تاركا للفرائض مباشرة للفواحش ، فهذه لا تعدو أن تكون إما مساعدة من شياطين الجن ليضلوا الناس عن سبيل الله ، أو استدراج من الله ﷻ ^(١) . ولهذا أشار ابن الجوزي إلى أن كرامات الصوفية إما أن تكون شعوزة ، أو شطحات كاذبة ، أو فتنة شيطانية ^(٢) .

هذا وإن كنا لا ننكر كرامات الأولياء لأنها ثابتة في الكتاب والسنة ، كما قال الله ﷻ : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(٣) إلا أن بعض الأمور الخارقة للعادة قد لا تكون كرامات ، وهي كثيرا ما تظهر على أيدي كثير من الفساق والكفرة . والحق أن الاستقامة على طريق الهدى واتباع السنة هي عين الكرامة فإن حصل بعدئذ خرق العادة إكراما من الله ﷻ لمؤمن صادق متبع للكتاب والسنة فيجب أن يخفيها ولا يذيعها ويشكر الله ﷻ على ما من بها عليه .

(١) انظر : الصوفية نشأتها وتطورها ص ٧٤ - ٧٦ .

(٢) تلبس إبليس ص ٣٨٠ .

(٣) سورة يونس ، الآية (٦٢) .

المبحث الخامس

الفناء ووحدة الشهود

أولا : الفناء

إن أخطر النظريات التي تعرض لها الصوفية وأدخلوها في مقاماتهم هي نظرية الفناء ، فالواصل إلى الله - حسب زعمهم - انطلقت روحه في عالم القرب المشرق بالنور والصفاء في لحظات سكره ، حتى لقد صار الوجود كله بالنسبة إليه نسيا منسيا أمام عظمة الله ﷻ ، وقد استوت أمامه الأشياء وتوحدت ، لتمضي في درب التلاشي أمام ذلك الشعور الذي ينتابه في حالات صحوه بشوق عظيم ، ورغبة جامحة بعلاقة تكون أكثر من التشوق ، وأقوى من المحبة ، لعلها تنتهي به إلى فناء آخر يتحقق له منه أقصى ما يطمح إليه من الشرف والكمال ^(١) .

وحول الفناء نستعرض بعض أقوال الصوفية في تعريفاتهم له :

ذكر الكلاباذي : أن الفناء " هو أن يفنى الشخص عن الحظوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ، ويسقط عنه التمييز فناء عن الأشياء كلها شغلا بما فني به " ^(٢) .
وبين القشيري معناه قائلا : " أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة ، وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف الحمودة " ^(٣) .

أما السهروردي فذكر أن الفناء : " أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ " وذكر بعض أقوالهم في ذلك على النحو الآتي :

قيل : الفناء : " هو الغيبة عن الأشياء ، كما كان فناء موسى ﷺ حين تجلى ربه للجبل " . وقال أبو سعيد الخراز : " الفناء هو التلاشي بالحق " . وقال الجنيد : " الفناء استعجام الكل عن أوصافك ، واشتغال الكل منك بكليته " ^(٤) .

وقال السراج الطوسي : " ومعنى الفناء فناء صفة النفس ، وفناء المنع والاسترواح إلى حال وقع ، والبقاء بقاء العبد على ذلك ، وأشار أيضا إلى أن الفناء هو فناء رؤيا العبد في أفعاله لأفعاله بقيام الله في ذلك " ^(١) .

(١) انظر : نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام ص ١٧٦ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٤٧ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ٦٧ وانظر : التعريفات للجرجاني ص ١٢٠ .

(٤) عوارف المعارف ص ٥٢٠ .

وإذا كان الصوفية لم يتمكنوا من الوصول إلى تحديد معنى دقيق للفناء في ذات الحق وذلك لصعوبة التعبير عن هذه التجربة بكلمات محدودة ، لأنها تجربة داخلية يعيشها الصوفي وهو في حالة غياب عقلي كلي عما سوى الله

فإنهم يكادون يتفقون على تحديد حقيقة الفناء وخلاصة ما قالوه هو : فناء العبد عن رؤية ماسوى الله ﷻ ، والتبرؤ عن كل ما في هذا الوجود من حظوظ ، وهو ما تحدث عنه أبو سعيد الخراز - في القرن الثالث الهجري - الذي يعتبره الهجويري صاحب مذهب الفناء ، والذي يرى أن حقيقة الفناء تكمن في فناء العبد عن رؤية عبوديته وفعله ، بل يكون الفضل لله في كل شيء ، لأن كل ما نسب إلى العبد فقرينه النقصان ، وما نسب إلى الرب فصورته الكمال ، يقول : " الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية ، والبقاء بقاء العبد بشاهد الألوهية ، أي أن العبودية آفة ، ويصل العبد إلى حقيقة العبودية حينما لا يرى فعله ، ويبقى برؤية فضل الله تعالى ، لتكون نسبة معاملته كلها للحق لا لنفسه ، لأن ما هو مقرون بالعبد من فعله يكون كله ناقصا ، وما هو موصول به من الحق يكون كاملا ، فحينما يفنى العبد عن متعلقاته فإنه يبقى بجمال إلهية الحق " (٢) .

ولما تكلم الجنيد عن توحيد الخواص بين أنه مقام من وصل إلى الفناء عن نفسه ، وعن دعوة الحول والقوة بذهاب حسه وحركته بقيام الحق فيما أراد منه .. (٣) وذوالنون المصري حينما تحدث عن المعرفة رأى أنها لا تكمل إلا بالوصول إلى درجة الفناء ، وأن هذا الفناء مستمد من قول الرسول ﷺ : " .. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع بي .. " الخ ، فيصير العارف بهذا - في مظهر الفناء الأكمل - متحركا بحركة الله ، ناطقا بما يجريه على لسانه ، ناظرا بنور الله في بصره (٤) .

ولعل أبا يزيد البسطامي أشهر من يمثل ذلك في القرن الثالث الهجري ، وقد ذكر الشيخ العطار في كتابه تذكرة الأولياء عند شرحه لحال أبي يزيد فيقول : " وكان في الاستغراق بالله بحيث كان له مريد امتدت به الصحبة عشرين سنة ، وكان يسأله كل يوم قائلا : ما اسمك أيها الولد ؟ فقال له المريد ذات يوم : أتهزأ بي أيها الشيخ فأني في

(١) اللمع للطوسي ص ٤١٧ .

(٢) كشف المحجوب ٢/٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ص ٢٩٦ .

(٤) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١١٥ .

خدمتك عشرين سنة ، وتسأل كل يوم عن اسمي ؟ قال الشيخ : إني لا أهزأ بك أيها الولد ولكن جاء اسمه وطرده كل الأسماء عن قلبي ، فقد أعرف اسمك وأنساه مرة ثانية . وسأله أيضا : كيف الوصول إلى الحق ؟ فقال : تنح أنت عن الطريق فقد وصلت إلى الحق ^(١) .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل وصل من هذا الفناء إلى الحلول والاتحاد ، وذلك من خلال قول أبي يزيد الآتي : " شهوتي ومناي أن أقول مرة : لا إله إلا الله بغيبوبة أبي يزيد وحضور أبي يزيد عن أبي يزيد مع لا إله إلا الله .. كما جرى له في القدر مع الله حين أقر ببلى ، فكان إقراره للرب بالربوبية ، والنفس بالعبودية ، ثم غاب عن الإقرار وبقي بالتوحيد مجردا للواحد الفرد " ^(٢) .

قال إبراهيم هلال : " وأبو يزيد يشير بذلك إقرار الذر بالربوبية بقوله " بلى " إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ^(٣) .

وأضاف قائلا : " والصوفية يقولون : إن الناس قد وحدوا الله حق التوحيد وهم في عالم الفناء قبل خروجهم إلى هذا الوجود ، فلا توحيد لهم بعد الخروج إلى ذلك الوجود إلا بالاضمحلال والفناء عنه " ^(٤) . ولكن هذا الذي فهموه في الآية ليس هو المراد منها ، وإنما المراد أنهم وحدوا الله بفطرتهم بعد ولادتهم ، لما دلتهم بخلقه على أنه خالقهم فقامت هذه الدلالة مقام الأشهاد ، كما في الحديث الصحيح : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه .. " ^(٥) وكما تقول الآية الكريمة : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ ^(٦) .

(١) تذكرة الأولياء ٢/٢٥٠ نقلا عن تاريخ التصوف في الإسلام ص ٥٤٢ - ٥٤٣ .

(٢) علم القلوب ص ٦٦ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية (١٧٢) .

(٤) ولاية الله والطريق إليها ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٥) أخرجه البخاري مع الفتح في الجنايز ، باب إذا أسلم الصبي فمات .. ٥٨٢/٣ (ح ١٣٨٥) ، ومسلم في

القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٢٠٤٧/٤ (ح ٢٦٥٨) .

(٦) سورة الروم ، الآية (٣٠) .

ثم ينتقل أبو يزيد عن هذا الفناء إلى الاتحاد بل إلى سؤال ما لله ﷻ من الوجدانية والأحادية فيقول مخاطبا ربه ﷻ: "قربني بوحدانيتك ، وألبسني ربانيتك ، وارفعني إلى أحديتك ، حتى إذا رأي خلقك قالوا رأيناك ، فيكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هنا " (١) .

أما الحلاج زعيم القائلين بالحللول فقد اتخذ الفناء أساسا لهذا المذهب بحجة أن الإنسان لا يصل إلى مرتبة حلول الله فيه إلا بعد أن يفنى عن نفسه فناء كاملا ويحجب عنها بالله ﷻ ، ويتمثل في ذلك الفناء بحديث الأولياء ، فالمحققون عنده بالله هم الذين " أفناهم الله عن أوصافهم الناشئة عن طبائعهم ، ولم يردهم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم .. بل كان الذي هو لساهم الذي به ينطقون ، وبصرهم الذي به يبصرون ، وأسماعهم التي بها يسمعون ، وأيديهم التي بها يبطشون " (٢) .

ولا شك أن استدلال المتصوفة بفكرة الفناء الزاعمة بأن الحديث على حقيقته وأن الحق ﷻ عين العبد استدلالٌ مجانب للصواب ، وقول لا يليق بذات الله ﷻ ، ذلك أن من معاني الحديث كما ذكرها ابن حجر " أن كليته (الولي) مشغولة بي ، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني ، ولا يرى ببصره إلا إلى ما أمرت به " (٣) أي أن الله ﷻ وفق العبد وهده إلى طاعة الله ، وسدده عن الوقوع في شيء من معاصيه .

ففكرة الفناء عند الصوفية - إذن - ذات خطورة عظيمة لأنها تدعو إلى القول بالحللول أو الاتحاد أو وحدة الوجود كما عند البسطامي والحلاج . ولكن الفناء عند بعض صوفية القرن الثالث الهجري لم يصل إلى حد الانحراف كما وصل عند أبي يزيد والحلاج كما رأينا ذلك من أبي سعيد الخراز حيث بين أن العبد إذا رجع وتاب إلى الله ﷻ ، وتقرب إليه بأداء الفرائض والنوافل ، وقام بتزكية نفسه ظاهرا وباطنا فيحدث في قلبه تعلق به ﷻ وحب له وحده . وهذا موافق لمفهوم الفناء الصحيح ؛ بحيث لا يحب العبد ولا يعبد إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرجو ولا يخاف إلا منه ، ولا يتوجه إلا إليه ، فهو صاحب القلب السليم مما سوى الله تعالى .

(١) اللمع للطوسي ص ٤٦١ .

(٢) ولاية الله والطريق إليها ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ٣٥٢/١١ (ح ٦٥٠٢) .

ولفظ الفناء لم يرد في الكتاب ولا في السنة ، ولا في كلام الصحابة والتابعين ، ولا استعملوا لفظه في معنى الفناء عند الصوفية المتقدمين ولا جعلوه غاية ولا مقاما ..^(١) قال شيخ الإسلام : " فإن أكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار لم يقعوا في الفناء الذي اختلط معناه عند الصوفية المتأخرين ، ويعني به مقام الفناء الذي يحدث في غيبة العقل بحيث لا يميز الصوفي بين ما يرد على القلب من أحوال الإيمان ويضطرب في تمييزه .

وعلى هذا ، فإن عصر الصحابة كان خاليا من ظاهرة الغثيان ، أو الصعق أو السكر أو الفناء أو الوله أو الجنون - وهنا نرى شيخ الإسلام لا يتقيد بالفروق الدقيقة لكل من هذه الأحوال والمقامات على حدة التي وضعها أهل التصوف - ويرجع نشأة هذه الظاهرة إلى بعض التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن ، ومنهم من يموت كأبي جهير الضرير ، ووزارة بن قاضي البصرة^(٢) .

وهذا الفناء في مدلوله - كما يرى شيخ الإسلام - ينبغي أن يوجه الباحث إلى أنه ليس دليلا على كمال المحبة وقوة درجات اليقين والإيمان لأنه لو كان كذلك لعرفناه عند الصحابة فضلا عن فوقهم من الأنبياء^(٣) .

ومع ذلك فقد أشار أهل التوحيد والاستقامة بالفناء إلى أمرين : أحدهما أرفع من الآخر كما قال بذلك ابن القيم رحمه الله .

" الأمر الأول : الفناء في شهود الربوبية والقيومية ، فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير ، والخلق والرزق ، والعطاء والمنع ، والنفع والضرر ، وأن جميع الموجودات منفعة لا فاعلة ، وماله منها فعل فهو منفعل في فعله ، محل محض لجريان أحكام الربوبية عليه ، ولا يملك شيئا منها لنفسه ولا لغيره ، فلا يملك ضرا ولا نفعا ، فإذا تحقق العبد بهذا المشهد خمدت منه الخواطر والارادات نظرا إلى القيام الذي بيده تدبير الأمور ، وشخصا منه إلى مشيئته وحكمته ، فهو ناظر منه به إليه ، فإن بشهوده عن شهود ما سواه ، ومع هذا فهو ساع في طلب الوصول إليه ، قائم بالواجبات والنوافل .

(١) انظر : مدارج السالكين ٣/ ٣٥١ .

(٢) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/ ٢٢٠ .

(٣) انظر : نفسه ١٠/ ٢١٩ .

الأمر الثاني : الفناء في مشهد الإلهية ، وحقيقته الفناء عن إرادة ما سوى الله ومحبه ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، وخوفه ورجائه ، فيفنى بحبه عن حب ما سواه ، وبخوفه ورجائه عن خوف ورجاء ما سواه . وحقيقة هذا الفناء : إفراد الرب ﷻ بالحب ، والخوف والرجاء ، والتعظيم والإجلال " (١) .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قسم الفناء إلى ثلاثة أنواع : (٢)

الأول : وهو " الفناء عن إرادة ما سوى الله " بحيث لا يحب ولا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يطلب غيره ، ذلك أن كمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أَرَادَهُ اللهُ ورضيه وأحبه . وهذه المرتبة للفناء تحقق عند الأنبياء والأولياء الكاملين .

النوع الثاني : الفناء عن شهود السوي ، وهذا يحصل لكثير من السالكين فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبه .. فلا يشهدون ولا يشعرون بغير الله ، بحيث يتفق مع حالة أم موسى عليها السلام ، حيث فرغ قلبها إلا من ذكر موسى كما قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ (٣) وهكذا يستغرق صاحب الفناء من هذه الدرجة بدافع الحب أو الخوف أو الطلب ، فإذا زاد في انجذاب قلبه واستغراقه أصبح غائبا بمشهوده عن شهوده وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه ويبقى من لم يزل وهو الرب تبارك وتعالى . والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره ، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدا ، فإذا قوي هذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه ..

ثم قال شيخ الإسلام : وهذا الموضع زل فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد ، وأن المحب يتحد بالمحبيب حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما ، وهذا غلط ؛ فإن الخالق لا يتحد به شيء أصلا " (٤) .

" وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه ، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه ، كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبي يزيد ، وأبي الحسين النوري وأبي بكر الشبلي وأمثالهم .

(١) المرجع نفسه ٣/ ٣٥٢ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/ ٢١٨ - ٢٢٣ .

(٣) سورة القصص ، الآية (١٠) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/ ٢١٩ - ٢٢٠ .

بخلاف أبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والفضيل بن عياض بل وبخلاف الجنيد وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتميزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ^(١) ونحوه ، بل الكل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته ، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ما هي عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له قانتة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيدا وممدا لما في قلوبهم من إخلاص الدين ، وتجريد التوحيد له ، والعبادة له وحده لا شريك له " ^(٢) .

النوع الثالث : الفناء عن وجود السوي ، وهذا الفناء هو فناء الملاحدة ، الذين يزعمون فيه أنهم يتحققون فيه أنه لا موجد إلا الله ، وأن هذا الكون هو الله لا غيره ولا سواه ، فلا فرق بين الرب والعبد فهو فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعيين في الحلول والاتحاد ^(٣) .

ثانيا : وحدة الشهود

هذه حال أو تجربة يعانيتها الصوفي ، ويحاول أن يبرهن عليها ، أو يطالب الغير بتصديقها ، وهي مرادفة لنوع من أنواع التوحيد لديهم .
والظاهر أن وحدة الشهود هي أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية حيث جربوها وأطلقوا عليها ، أو رمزوا إليها بأسماء مختلفة ، وهي الحال التي يسميها الصوفية بالفناء - كما تقدم - وعين التوحيد ، وحال الجمع وهكذا .. ^(٤)
وقول أبي سعيد الخراز - من الصوفية في القرن الثالث الهجري - ما يدلنا على هذه الحال ، وذلك حينما قال : " فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه ما دونه ، وتلاشى كل شيء ، وغاب عند وجود عظمة الله تعالى ، ولم يبق في القلب إلا الله ﷻ " ^(٥) . وقال أيضا :
" أول مقام لمن وجد التوحيد وتحقق بذلك فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراده بالله ﷻ " ^(٦)

(١) هو غيبة بوارد قوي وهو يعطي الطرب والاستلذاذ وهو أقوى من الغيبة . التعريفات ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ٢٢١/١٠ .

(٣) انظر : نفسه ٢٢٢/١٠ .

(٤) انظر : أضواء على التصوف ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٥) اللمع للطوسي ص ١٠٠ .

(٦) الرسالة القشيرية ص ٣٠٢ .

وقال عمرو بن عثمان المكي : " المشاهدة ما لاقت القلوب من الغيب بالغيب ولا يجعلها عيانا ولا يجعلها وجدا . وقال أيضا : المشاهدة وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان ، لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين في زيادة توهم ^(١) .

وبين الطوسي أحوال أهل المشاهدة على ثلاثة :

فالأول منها : الأصاغر وهم المريدون ، وهو ما قال أبو بكر الواسطي ^(٢) : يشاهدون الأشياء بعين العبر ، ويشاهدونها بأعين الفكر . والحال الثاني من المشاهدة : الأوسط وهو الذي أشار إليه أبو سعيد الخراز حيث يقول : الخلق في قبضة الحق وفي ملكه ، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سره ولا في وهمه غير الله تعالى . والحال الثالث : ما أشار إليه عمرو بن المكي فقال : إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت ، فشاهدوه بكل شيء ، وشاهدوا كل الكائنات به ^(٣) .

فنظرية وحدة الشهود - إذن - أصبحت من الغايات التي ينتهي إليها الصوفي في طريقه إلى الله ﷻ ، وتظهر هذه النظرية عند أبي القاسم الجنيد كما هي واضحة في رسالته المسماة " رسائل الجنيد في التصوف والأخلاق الدينية " حيث وضع فيها أصول التوحيد ، والمعرفة والفناء ، والسكر والصحو ، وحقيقة الوجود ، وحقيقة الشهود ، والترقي من أحدهما إلى الآخر ، فيقول الجنيد في التوحيد : " اعلم أن أول عبادة الله ﷻ معرفته ، وأصل معرفة الله توحيده ، ونظام توحيده نفي الصفات عنه بالكيف والأين ، فبه استدلال عليه ، وكان سبب استدلاله به عليه توفيقه ، وتوفيقه وقع التوحيد له ، ومن توحيده وقع التصديق به ، ومن التصديق به وقع التحقيق عليه ، ومن التحقيق جرت المعرفة به ، ومن المعرفة به وقعت الاستجابة له فيما دعا إليه ، ومن الاستجابة له وقع الترقي إليه ، ومن الترقي إليه وقع الاتصال به ، ومن الاتصال به وقع البيان له ، ومن البيان له انقطع عن الوصف له ، وبذهابه عن الوصف وقع في حقيقة الوجود له ، ومن حقيقة الوجود وقع حقيقة الشهود بذهابه عن وجوده ...

(١) اللمع للطوسي ص ١٠٠ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي ، أحد أصحاب الجنيد والنوري ، وأحد المشاركين في وضع الكثير من

أصول التصوف (ت ٣٢١هـ) انظر : طبقات الصوفية ص ٣٠٢ ، والرسالة القشيرية ص ٤٣٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠١ .

وترد عليه المشاهدة لإنزال الأشياء منازلها ووصفها مواصفها لا استدراك صفاته ببقاء آثاره ، والاقتداء بفعله بعد بلوغه غاية ماله منه " (١) .

قال محمد جلال معلقا على هذا النص : " هكذا يلخص لنا الجنيد كل معاني التصوف من مقامات وأحوال ، ولكن بقي معنى هام في هذا النص نلمس فيه فارقا جوهريا بين الصوفي الذي يعاني حالا أو تجربة صوفية ونعني بذلك " وحدة الشهود " وبين الذي لا تتصل أقواله بتجربة روحية ؛ بل هي مجرد نظرية فلسفية لا يقصد بها وحدة الألوهية بل وحدة الحقيقية الوجودية كما هي موجود عند محي الدين ابن عربي ، أي أن هناك اختلافا كبيرا بين وحدة الشهود عند الجنيد وغيره من الصوفية ووحدة الوجود عند ابن عربي وغيره من الإشراقيين (٢) . فوحدة الشهود حال ، وليست علما ولا اعتقادا ، ولا تخضع لوصف ولا لتفسير ، وهي أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية ، وهي الحال التي يسمونها بالفناء وعين التوحيد وحال الجمع (٣) .

والجنيد قد أشار إلى مثل هذا المعنى ، أي حال الفناء والجمع والتفرقة . فالجمع كما يقول القشيري : هو ما سلب عن العبد ، والتفرقة أو الفرق ما نسب إليه ، فمن أشهد الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة ، ومن أشهد الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع ، فإثبات الخلق من باب التفرقة ، وإثبات الحق من نعت الجمع " (٤) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد : " وهم قد يتكلمون في " الفرق والجمع " ويدخل في ذلك من العبارات الملفتة نظير ما دخل في الفناء فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات يبقى قلبه متعلقا بها .. إما محبة وإما خوفا وإما رجاء ؛ فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين ، فصارت محبته لربه وخوفه من ربه ورجاؤه لربه واستعانتة

(١) رسائل الجنيد في التصوف والأخلاق الدينية : ورقة رقم ٦٣ ، مخطوطة شمسية ، تصوير حامد مراد رقم

١٠٣٦ ب مكتبة آداب الإسكندرية ، نقلا عن التصوف الإسلامي ومدارسه ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) الإشراف عند الصوفية هو حدوث الإلهامات من الله للصوفي بطريق مباشر وعلى باطنه أو قلبه .

(٣) التصوف الإسلامي ومدارسه ص ٣١٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٦٤ - ٦٥ .

بربه . وهو في هذا الحال قد لا يسع قلبه النظر إلى المخلوق ليفرق بين الخالق والمخلوق فقد يكون مجتمعاً على الحق معرضاً عن الخلق نظراً وقصداً وهو نظير النوع الثاني من الفناء . ولكن بعد ذلك " الفرق الثاني " وهو : أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله مدبرة بأمره ويشهد كثرتها معدومة بوحداية الله ﷻ وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلهها وخالقها ومالكها فيكون مع اجتماع قلبه على الله ناظراً إلى الفرق بين الخالق والمخلوق مميزاً بين هذا وهذا يشهد تفرق المخلوقات وكثرتها مع شهادته أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وأنه هو الله لا إله إلا هو ، وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته : في حال القلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته " (١) .

ومع ذلك لا بد من الابتعاد من كلمة وحدة الشهود ، لأن هذه الحالة لم يمارسها رسول الله ﷺ ولا نطق باسمها في عبادته لربه ﷻ ، ولا نطق بها أصحابه الكرام ، ومن المأثور عن حالهم أنهم يعبدون الله وهم على أشد ما يكونون من الوجل والخوف أن ترد عليهم أعمالهم مع وجود غاية الطمع والرغبة في نفوسهم لغفو ربهم ﷻ ، فلم تكن لهم حال ما يسمى بوحدة الشهود أو وحدة الوجود (٢) .

وبهذا كما قال الدكتور غالب عواجي : " فينبغي أن نبتعد عن هذه الكلمة - وحدة - أشد البعد فإن الله تعالى هو الواحد القهار لم يشارك أحداً في خلقه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ (٣) ، ولنا في العبادات الطيبة التي تربطنا بربنا مجال واسع كالإسلام والإيمان والإحسان كما جاء في حديث جبريل ، حيث سأله عن تلك الأمور ولم يسأله عن وحدة الشهود ولا وحدة الوجود ولا الحلول ولا الكشف ، ولا غير هذا مما هو من اختراع الصوفية تبعاً لأفكار ضالة ليس بينها وبين الإسلام أي صلة أو تقارب " . ثم " إن وحدة الشهود تؤدي في النهاية إلى القول بالحلول " (٤) . وهذا هو الموقف الصحيح ، فلنبتعد عن استخدام هذه الكلمة لئلا ننحرف عن منهج السلف الصالح .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، للدكتور غالب بن علي عواجي ، طه مصر (دار لينة للنشر ١٤٢١هـ)

٨٥٨/٢ - ٨٥٩ .

(٣) سورة الإخلاص ، الآيتان (٣ - ٤) .

(٤) المرجع نفسه ٨٦٠/٢ .

المبحث السادس

الحقيقة والشرعية

لقد ردد المتصوفة كثيرا مصطلح الحقيقة والشرعية ، وقرنوا بينه وبين مصطلح آخر لهم هو الظاهر والباطن .

فالشرعية - كما يرونها - هي مجموعة الأحكام العلمية التكليفية ، أي ما يسمى بالفقه الإسلامي ، والحقيقة هي ما وراء هذه الأحكام من إشارات وأسرار . فالفقهاء - على حسب قولهم - يعلمون الناس أركان الصلاة وسننها ... والصوفية يهتمون بأعمال القلوب من المحبة والخشية ... وبعبارة أخرى : أن الشرعية التي يجيء بها النص ، بينما الحقيقة التي يأتي بها الكشف ، واعتبارهم الأولى من نصيب العوام ، والثانية من حظ الخواص .

والتقسيم بهذا غير صحيح ، لأن الحقيقة والشرعية كلمتان متفقتان في المعنى ، وإن ثم فرق فهو في المعنى اللغوي فحسب ؛ فالتفريق الذي جرى على ألسنتهم ومن سار بسيرهم من أن الحقيقة غير الشرعية غير مسلم به ، لأنه لم يرد في كتاب الله ولم يجر على لسان رسوله ﷺ ، ولا على ألسنة الخلفاء والصحابة ومن تبعهم بإحسان ، كيف وربنا الله ﷻ يقول : ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ ^(١) ويقول أيضا : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ﴾ ^(٢) ويقول : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ ^(٣) ويقول ﷺ : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ^(٤) ويقول : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) . ويقول الرسول ﷺ : «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» ^(٦) .

(١) سورة يونس ، الآية (٣٢) .

(٢) سورة يونس ، الآية (٣٥) .

(٣) سورة محمد ، الآية (٣) .

(٤) سورة الشورى ، الآية (١٣) .

(٥) سورة الجاثية ، الآية (١٨) .

(٦) أخرجه ابن ماجة في المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١٠/١ (ح ٣٥) .

فتبين من الأدلة أن الحقيقة والشرعية لمسمى واحد وهو الدين ، ولم يجر هذا التفريق إلا على السنة الصوفية ليعينوا على ما يسمونه الحقيقة أو هامهم للناس ، حتى إنهم يسمون علماء الشريعة بأهل الظاهر ، وعلماء الحقيقة بأهل الباطن .

وقد جر الصوفية مصطلح آخر وهو الظاهر والباطن ، حيث يقولون : إن للقرآن ظاهرا وباطنا ، فالظاهر هو ما يؤخذ من ألفاظه حسب الفهم العربي أو السياق أو غير ذلك من الأصول المرعية في التفسير وهو ما يهتم به علماء الظاهر ، أو ما يطلقونه عليهم علماء الرسوم ، وأما الباطن فهو العلم الخفي وراء تلك الألفاظ وهي المراد الحقيقي بها ، وهذا لا يطالع عليه إلا الخواص من أصحاب المقامات السامية ، ويطلقون عليه (الإشارات) وهم يغمزون أهل الفقه بأنهم لا يهتمون بأعمال القلوب ^(١) . ويريدون أن يقولوا بأن علم الباطن هو التصوف بعينه ، وهو ما أشار إليه الكلاباذي نقلا عن عبد الواحد بن زيد أنه قال : " سألت الحسن عن علم الباطن فقال : سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال : سألت رسول الله عن علم الباطن فقال : سألت جبريل عن علم الباطن ، فقال سألت الله ﷻ عن علم الباطن فقال : هو سر من سري ، أجعله في قلب عبدي ، ولا يقف عليه أحد من خلقي " ^(٢) .

إذا نظرنا في هذه الرواية وجدنا أنها جاءت عن طريق عبد الواحد بن زيد وهو رجل صوفي غفل عن الإتيان ، وكثرت المناكير في حديثه ، بل هو متروك الحديث ، ورمي بالقدر ، فالرواية - إذن - باطلة من حيث السند ، كما أنها مرفوضة من حيث المتن ، لأنها توحي بأن الرسول ﷺ على معرفة من علم الباطن وأنه وحي من الله ﷻ ولم يقم بتبليغه للناس ! مع أن الرسول ﷺ مأمور أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ^(٣) والكتمان مستحيل في حقه ﷺ حيث لم يذكر أن هناك علم الباطن إذ لو كان لبلغه إلينا ، والدين قد اكتمل قبل وفاته ﷺ فقال تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ^(٤) .

(١) الصوفية ، نشأتها وتطورها ص ٥٦ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٦٧) .

(٤) سورة المائدة ، الآية (٣) .

قال ابن القيم مستنكرا قول الصوفية بأن هناك علما باطنا وظاهرا : " ومن كيد الشيطان ما ألقاه إلى جهال المتصوفة من الشطح والطامات ، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات ، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات ، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات ، وأوحى إليهم : أن وراء العلم طريقا إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان ، وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن ، فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها ، وتصفية الأخلاق والتجافي عما عليه أهل الدنيا ، وأهل الرياسة والفقهاء وأرباب العلوم ، والعمل على تفرغ القلب وخلوه من كل شيء ، حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلم ، فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الأباطيل ، وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشافا وعيانا ، فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا : لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن ، ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة ، ولكم القشور ولنا اللباب ، فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل من النهار ، ثم أحالها في سلوكهم على تلك الخيالات ، وأوهمهم أنها من الآيات البينات وأنها من قبل الله إلهامات وتعريفات ، فلا تعرض على السنة والقرآن ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان ... وكلما ازدادوا بعدا وإعراضا عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم " (١) .

وقال ابن عقيل منتقدا المتصوفة الذين يعتقدون بهذا المعتقد ومحدرا منهم :
" فالله الله في الإصغاء إلى هؤلاء الفرغ الخالين من الإثبات وإنما هم زنادقة جمعوا بين مداخل العمال مرقعات وصوف ، وبين أعمال الخلاء الملحدة أكل وشرب ورقص وسماع وإهمال لأحكام الشرع ، ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فجاءوا بوضع أهل الخلاعة .

فأول ما وضعوا أسماء وقالوا حقيقة وشريعة ، وهذا قبيح لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق ، فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع " (٢) .

(١) إغاثة اللهفان من مصاديد الشيطان ، لابن القيم ، تحقيق د. السيد الحميلي ، القاهرة (دار الحديث ١٢٧/١)

(٢) تلبس إبليس ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

وقال ابن القيم في معرض النقد للمتصوفة أيضا : " وقد فرق كثير من الصوفية بين الشريعة والحقيقة ، وهذا جهل من قائله لأن الشريعة كلها حقائق " (١) .

وبذلك يتبين أن التفرقة بين الحقيقة والشريعة وبين الظاهر والباطن غير صحيحة ؛ بل هي باطلة بجانب للصواب ، لأن أي تجزئة للإسلام فهي من قبيل اتخاذ القرآن عظيم ، والإسلام كله متكامل كالجسم الواحد ، فلا بد أن ندرك به ونفهمه فهما صحيحا كما فهمه الصحابة عن رسول الله ﷺ .

وقد تنبه بعض الصوفية المتقدمين في القرن الثالث الهجري لهذا الأمر ويشعر بخطأ هذه التفرقة فيحذر وينصح وهو سهل بن عبد الله التستري حيث قال : " احفظوا السواد على البياض (يعني العلم) فما أحد ترك الظاهر إلا تزندق " . وكذلك أبو سعيد الخراز حيث قال : " كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل " (٢) .

وقال سيد الطائفة الجنيد : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، وقال أيضا : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا العلم ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال السري السقطي : التصوف اسم لثلاثة معان وهو : لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بسر باطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمل الكرامات على هتك محارم الله . وقال أيضا : من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غلط . وقال أبو الحسين النوري : من رأته يدعي مع الله تعالى حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربه ، ومن رأته يدعي حالة لا يشهد لها حفظ ظاهر فاتمه على دينه .

ولا شك أن هذه النصوص بمثابة النقد من الصوفية المتقدمين على الصوفية الذين يفرقون بين الشريعة والحقيقة ، وبين الظاهر والباطن ، ودلالة واضحة على موقف بعض الصوفية الأخيار في القرن الثالث الهجري من العلم بأنهم لا يستمدون إلا من كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ ، ولا يعملون إلا بأوامرهما .

وأما الدكتور إحسان ظهير فقد بين بأن فكرة الظاهر والباطن فكرة تسربت من التشيع إلى التصوف فاعتنقتها الصوفية ، وهي فكرة تقسيم الشريعة إلى الظاهر والباطن

(١) نفسه ص ٣٩٤ .

(٢) تليس إبليس ص ٣٩٥ .

والعام والخاص ، ذلك أن الشيعة يعتقدون بأن لكل ظاهر باطنا ، وقد اختص بمعرفة الباطن علي ﷺ وأولاده ، أي أئمتهم المعصومون حسب زعمهم ، فسموا المواليين لهم بالخاصة ، وغير المؤمنين بهذه الفكرة بالعامه ^(١) .

وقالوا : " لا بد لكل محسوس من ظاهر وباطن ، فظاهرة ما تقع الحواس عليه ، وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به بأنه فيه ، وظاهره مشتمل عليه " ^(٢) .

وقالوا : " إن الظاهر هو الشريعة والباطن هو الحقيقة ، وصاحب الشريعة هو الرسول محمد ﷺ ، وصاحب الحقيقة هو الوصي علي بن أبي طالب ﷺ " ^(٣) .

ثم أخذ المتصوفة بدورهم أفكار الشيعة ومعتقداتهم فآمنوا بها ، وجعلوها من الأصول والقواعد لأتباعهم فقالوا ما قاله الشيعة والفرق الباطنية : " العلوم ثلاثة : ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن ، فعلم الشريعة ظاهر ، وعلم الطريقة باطن ، وعلم الحقيقة باطن الباطن " ^(٤) .

وهكذا فالصوفية يزعمون بأن علم الباطن هو المسمى بعلم القلب ويعلم التصوف .. وهو أجل العلوم وأشرفها عندهم ، وهو الزبدة الممخوضة من الشريعة التي لم تبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا لأجلها .. وهو علم طريق الآخرة ، وهو العلم الذي درج عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين . إلا أن الصوفية المتقدمين - كما سبق - لا يرتضون غير العلم الذي يستمد من كلام الله ﷻ وسنة رسوله الأمين ﷺ .

(١) التصوف : المنشأ والمصادر ص ٢٤٣ .

(٢) كتاب أساس التأويل للنعمان القاضي ص ٢٨ ، نقلا عن المرجع السابق ص ٢٤٢ .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) الفتوحات الإلهية لابن عجيبة ص ٣٣٣ نقلا عن المرجع نفسه ص ٢٤٥ .

المبحث السابع

السمع

إن ما يسمونه السماع من الآداب الهامة عند الصوفية ، ويضيفونه إلى موضوع الذكر ، ومعناه في اللغة : الغناء ، وقيل : الذكر المسموع الحسن الجميل ، وكل ما التذته الأذن من صوت حسن السماع ^(١) .

وفي اصطلاح المتصوفة فيعرفه الكلاباذي بأنه " استجمام من تعب الوقت وتنفس لأرباب الأحوال ، واستحضار الأسرار لذوي الأشغال " ^(٢) . ويعرفه ذوالنون المصري بأنه " وارد حق يزعج القلوب إلى الله فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق " ^(٣) . أما أبو بكر الشبلي فالسماع عنده : " ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة ، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية " ^(٤) .

وعند بعضهم مجالسه من مجالس نزول الرحمة كما قال بذلك الجنيد : " تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن ، عند السماع فإنهم لا يسمعون إلا عن حق ولا يقولون إلا عن وجد ، وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند مجارة العلم فإنهم لا يذكرون إلا صفات الأولياء " ^(٥) .

وكان الحارث المحاسبي يقول : ثلاث إذا وجدن متع بهن ، وقد فقدناها : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الصوت مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء ^(٦) .

فمسألة السماع - إذن - كانت معروفة في القرن الثالث الهجري ، وهو عبارة عن اللحن والغناء والاستماع إليه والرقص ، ويبدو أن السماع قد اشتهر منذ وقت مبكر ، ويدل عليه أن معظم المؤلفين المعتبرين في التصوف اهتموا به اهتماما كبيرا ، فعدوا له

(١) لسان العرب لابن منظور ١٦٥/٨ ، والمعجم الوسيط ٤٤٩/١ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٦١ .

(٣) اللمع للطوسي ص ٣٤٣ ، والرسالة القشيرية ص ٣٤٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٢ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٣٤٠ .

(٦) المصدر نفسه .

بابا وفصولا خاصة في مصنفاتهم ، مثل ما صنع أبو نصر السراج في اللمع ^(١) ، والقشيري في رسالته ^(٢) ، والسهروردي في عوارف المعارف ^(٣) والغزالي في الإحياء ^(٤) .

فهذا رويم بن أحمد لما سئل عن وجد الصوفية عند السماع فقال : يشهدون المعاني التي تعذب عن غيرهم فتشير إليهم إلى .. ، فيتنعمون بذلك من الفرح ، ثم يقع الحجاب ، فيعود ذلك الفرح بكاء ، فمنهم من يخرق ثيابه ، ومنهم من يصيح ، ومنهم من يبكي ، كل إنسان على قدره ^(٥) .

وحينما سئل إبراهيم الخواص : ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ولا يجد ذلك في سماع القرآن ؟ فقال : لأن سماع القرآن صدمة ، لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته ، وسماع القول ترويح فيتحرك فيه .

أما أبو سعيد الخراز فيبدو من كلامه أنه انتقد من ادعى أنه غلب عند السماع حينما قال : " من ادعى أنه مغلوب عند الفهم يعني في السماع وأن الحركات مالكة له فعلامته تحسين المجلس الذي هو فيه بوجده " ^(٦) .

وكذلك أبو حفص النيسابوري حينما قال له رجل " إن فلانا من أصحابك ، أبدا يدور حول السماع ، فإذا سمع هاج وبكى ، وفرق ثيابه ، فقال أبو حفص : أيش يعمل الفريق ؟ يتعلق بكل شيء يظن نجاته فيه " ^(٧) .

فنظرا إلى أن السماع قد يكون فيه الذم إذا رافقته الكلمات الخبيثة والبدعية ، وآلات اللهو المعروفة عند أهل البطالة والجون واللغو .. فقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية موقف أهل السنة والجماعة من مسألة السماع لما سئل عنها فأجاب : " السماع الذي أمر الله به ورسوله واتفق عليه سلف الأمة ومشايخ الطريق هو سماع القرآن ، فإنه سماع النبيين ، وسماع العالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين ، قال ﷺ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

(١) انظر : ص ٣٣٨ - ٣٧٤ من الكتاب المذكور .

(٢) انظر : ص ٣٣٥ - ٣٥٠ .

(٣) انظر : ص ١٢٤ - ١٤٧ .

(٤) انظر : ص ١٩٢ - ٢٣٠ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٤٢ .

(٦) المصدر نفسه ص ٣٤٣ .

(٧) طبقات الصوفية ص ١١٩ .

عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٤) " (٥) .

ويكفي للمسلمين شرفاً أن الله مدح أصحاب هذا السماع المتبعين لأحسنه ويفهمونه ، ثم يعملون به كما قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٦) .

وكما أثنى على أهل هذا السماع ذم المعرضين عنه ، الذين إذا تليت عليهم آيات الله لا تزيدهم إيماناً بل أدبروا وأعرضوا كأفهم لم يسمعوها ، لأنهم يتضايقون من سماع كلام الله ﷻ ، إن هؤلاء توعدهم الله بالعذاب الشديد يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٧) .

وأوضح الله ﷻ أن المقبل والمتمسك بهذا السماع المشروع من الفائزين الناجين من الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة ، وأن المعرض عن سماع القرآن واتباعه جزاؤه المعيشة الضنك في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح ل صدره ، بل صدره ضيق حرج لضلالة ، ويحشر يوم القيامة أعمى البصر والبصيرة .

(١) سورة مريم ، الآية (٥٨) .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات (١٠٧ - ١٠٩) .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٨٣) .

(٤) سورة الأنفال ، الآيات (٢ - ٤) .

(٥) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٥٨٨/١١ .

(٦) سورة الزمر ، الآيتان (١٧ - ١٨) .

(٧) سورة لقمان ، الآية (٧) .

ثم إن الاجتماع على السماع المشروع له فوائد وآثار إيمانية ، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام حيث قال رحمه الله : " وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها ، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقتصرار الجلد ، وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن ، وكانت موجودة في أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين أثنى عليهم في القرآن ، ووجد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة : الاضطراب ، والاختلاج ، والإغماء ، أو الموت والهيام ، فأنكر بعض السلف ذلك إما لبدعتهم وإما لحبهم .

وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك فإن السبب إذا لم يكن محظورا كان صاحبه فيما تولد عنه معذورا ، لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم وضعف قلوبهم عن حمله ، فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم . كانوا مذمومين كما ذم الله الذين قال فيهم ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ^(١) وقال ﷺ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ^(٢) ولو أثر فيهم آثارا محمودة لم يجذبهم عن حد العقل لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضا ومعذورين " ^(٣) .

فأما سماع القاصدين لصلاح القلوب في الاجتماع على ذلك ؛ إما نشيد مجرد نظير الغبار ، وإما بالتصفيق ونحو ذلك ، فهو السماع المحدث في الإسلام فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنى عليهم النبي ﷺ حيث قال : " خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " ^(٤) ، وقد كرهه أعيان الأمة ولم يحضره أكابر المشايخ .. ومن هؤلاء المشايخ الصوفية المتقدمون مثل : إبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، ومعروف الكرخي ، والسري السقطي ، وأبو سليمان الداراني .. ثم قال شيخ الإسلام : " وأكثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه في آخر عمرهم ؛ كالجنيد فإنه حضره وهو شاب ، وتركهم في آخر عمره ، وكان يقول : من تكلف السماع فتن به ،

(١) سورة البقرة ، الآية (٧٤) .

(٢) سورة الحديد ، الآية (١٦) .

(٣) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٥٩١/١١ .

(٤) سبق تخريجه .

ومن صادفه السماع استراح به ، فقد ذم من يجتمع له ، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد ولا اعتماد للجلوس له " (١) .

ومما يدل على تراجع قوله : " إذا رأيت المرید يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة " (٢) .

إذن نفهم مما سبق أن السماع إما أن يكون مشروعاً أو ممنوعاً ، فالسماع المشروع هو سماع الوحي وهو سماع النبيين والمؤمنين ، وأن الاجتماع على هذا السماع يحصل للعبد فيه فوائد كثيرة كغشيان الرحمة ، ونزول السكينة ، وحضور الملائكة ، وذكر الله لهم فيمن عنده كما ورد ذلك في الحديث الصحيح " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده " (٣) .

وأما السماع الممنوع فهو الغناء المحرم ، وهو الذي اجتمعت فيه آلات اللهو كدف وشبابة ، ورجال ونساء ، ورافقته الكلمات الخبيثة والبدعية ونحو ذلك .. وقد نهى الشارع الحكيم عن هذا السماع المذموم لما فيه من المفساد العظيمة والعواقب الوخيمة التي تعود على العباد في الدنيا والآخرة .

وهذا النوع من السماع محرم ومحدث ، ولهذا كرهه السلف الصالح من هذه الأمة ولم يستمعوا إليه ، وكذلك مشايخ الصوفية الأخيار كانوا بعيدين عن هذا اللغو ولم يحضروا إليه .

(١) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٥٩١/١١ - ٥٩٢ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٣٤٤ .

(٣) أخرجه مسلم ، في كتاب الدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٢٠٧٤/٤ .

المبحث الثامن

المقامات والأحوال

المقامات في اللغة جمع مقام وهو موضع القيام ، ويشمل الأمر الحسي كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ^(١) والمعنوي كقوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ ^(٢) وهو مقام الشفاعة يوم القيامة .

وفي اصطلاح المتصوفة : " معناه مقام العبد بين يدي الله ﷻ ، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات ، والانقطاع إلى الله ﷻ قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ ^(٤) " ^(٥) .

وبين القشيري بأن المقام : " هو ما يتحقق به العبد بمنزلته من الآداب ، مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق بضرب تطلب ومقاساة تكلف ، فمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشغول بالرياضة له ، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام .. ولا يصح لأحد منازلة مقام إلا بشهود ^(٦) إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة " ^(٧) .

أما الحال فهي معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اكتساب . وقد بينه الطوسي بأن معناه " ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار مستدلاً بما حكى عن الجنيد أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم .. وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات .. " ^(٨) .

وقد اهتم المتصوفة كثيراً بذكر المقامات والأحوال للتدليل على تدرج السالك للطريق الصوفي من مكانة إلى أخرى ، ولما يتعرض له في تدرجه هذا في المقامات من

(١) سورة البقرة ، الآية (١٢٥) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (٧٩) .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية (١٤) .

(٤) سورة الصافات ، الآية (١٦٤) .

(٥) اللمع للطوسي ص ٦٥ .

(٦) أي : أن يرى حظوظ نفسه ، وتقابله الغيبة ، وهي أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها . انظر : معجم

مصطلحات الصوفية ص ١٤٢ .

(٧) الرسالة القشيرية ص ٥٦ - ٥٧ ، والتعريفات ص ١٥٦ .

(٨) اللمع للطوسي ص ٦٦ .

أحوال تأتية من نسمات الرحمة الإلهية ، فإذا دامت واستقرت سميت مقاما ، لأن الأحوال توهب للعبد من الله ﷻ ، بينما المقامات يمكن أن يتوصل إليها العبد باكتسابه وبذل جهده .

وفي التعريفات السابقة والتفريق بين المقام والحال يبدو أن بينهما تشابها وتداخلا ، حيث يترأى للبعض المقام حالا ، ويترأى للآخر الحال مقاما ، وكلتا النظرتين تكاد أن تكون صحيحة لوجود تداخلهما ، ولذا لا بد من ضابط يفرق بينهما من خلال اللفظ والعبارة ، الذي يشعر بالفرق .

وعلى كل ، فالحال سمي حالا لتحوله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره . ولكن للمقام الذي يؤسسه العمل ثمرة هي الحال المستقرة كالرضا مثلا وهو مقام ينتج الأنس بالله ﷻ ، وهو حال الأنس يقتضي الحب ، وهو حال ترقى فتحول معه الأنس إلى حب وهكذا ^(١) .

وبعد هذا الإيضاح يمكننا أن ننتقل إلى شرح بعض المقامات والأحوال .

التوبة :

إن أول مقام من مقامات السالكين إلى الله ﷻ عند الصوفية هو مقام التوبة ، وهي تعني الندم على ما فعل الإنسان من المخالفات ، والعزم على عدم الرجوع إليها ، فالتوبة من الرجوع ، تقول العرب : تاب أي رجع .

فسالك الطريق إلى الله ﷻ عليه أن يطلب التوبة من الله ﷻ في كل وقت من أوقاته ، لأنها ملازمة للعبد السالك إلى الله تعالى حتى يأتيه اليقين ^(٢) ، ولأن الله ﷻ حث عباده المؤمنين على التوبة فقال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٣) وقال تعالى أيضا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ^(٤) .

لهذا عد المتصوفة التوبة منطلقا أساسيا لسلوك الطريق ، وهي شرط لا بد منه ، فالعبد التائب ينتقل من مقام إلى مقام فينسى ذنبه بعد الندم ، وما ينسيه الذنب هو ذكر الله ﷻ ، والتوجه إليه بالكلية ابتغاء مرضاته ﷻ .

(١) انظر : عوارف المعارف ص ٤٦٩ ، وجمهرة الأولياء ١/١٩١ - ١٩٢ .

(٢) مدارج السالكين ١/١٩٦ .

(٣) سورة النور ، الآية (٣١) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (٢٢٢) .

والتوبة بمعنى الرجوع عن المعاصي هي توبة العوام ، أما الخواص فلهم توبة من نوع آخر ، فهم يريدون الحضور مع الحق دائما ، وقلوبهم عامرة بذكره أبدا ، فإذا غفلوا عن ذكره لحظة واحدة سارعوا بالتوبة عن هذه الغفلة . وإلى ذلك أشار ذوالنون المصري بقوله: أن التوبة توبتان : " توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة " ^(١) . وحول هذا المعنى يقول عبد الله بن علي التميمي : " شتان ما بين تائب يتوب من الزلات وتائب يتوب من الغفلات " ^(٢) .

أما الجنيد فيقول في معنى " التوبة على أنها ثلاثة معان : أولها الندم ، وثانيها العزم على ترك المعادة إلى ما نهي الله عنه ، وثالثها السعي في أداء المظالم " ^(٣) .

ولكن أبو سعيد الخراز هو أكثر توضيحا لهذا الأمر حيث قال : " فأول التوبة هو الندم على ما كان من التفريط في أمر الله تعالى ونهيه ، والعزيمة على ترك العود في شيء مما يكرهه الله ﷻ ، ودوام الاستغفار ورد كل مظلمة للعباد من ما لهم ، والاعتراف لله تعالى ولهم ، ولزوم الخوف والحزن ، والإشفاق ألا تكون مصححا ، والخوف أن لا تقبل توبتك ، ولا تأمن أن يكون قد رآك الله تعالى على بعض ما يكره فمقتك . وهكذا يروي عن الحسن البصري أنه قال : ما يؤمني أن يكون قد رآني على بعض ما يكره فقال : اعمل ما شئت فلا غفرت " ^(٤) .

وأضاف أبو سعيد قائلا : " ومن صدق التوبة ترك الأخدان والأصحاب الذين أعانوك على تضييع أمر الله تعالى ، والهرب منهم ، وأن تتخذهم أعداء ، أو يرجعون إلى الله .. ومن صدق التوبة خروج المآثم من القلب ، والحذر من خفايا التطلع إلى ذكر شيء مما أنبت إلى الله منه " ^(٥) .

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١١ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٩٥ .

(٣) نفسه والصفحة .

(٤) كتاب الصدق ص ٨٧ - ٨٨ .

(٥) المصدر نفسه .

ثم قال : " واعلم أن المؤمن كلما صحح وكثر علمه بالله تعالى دقت عليه التوبة أبداً ،
ألا ترى أن النبي ﷺ يقول : " إنه ليغان ^(١) على قلبي فأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم
مائة مرة " ^(٢) .

وكذلك سهل بن عبد الله تستري فقد بين هذا المقام فقال : " أول ما يؤمر به
المبتدئ التوبة ، وهي الندامة والإقلاع والتحول من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة
، ولا تصح التوبة للعبد حتى يلزم نفسه الصمت ، ولا يصح الصمت حتى يلزم الخلوة ، ولا
يلزم الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى ، ولا يصح أداء
حق الله تعالى إلا بحفظ الجوارح ، ولا يصح شيء مما ذكرنا حتى يستعين بالله تعالى على
ذلك كله " ^(٣) .

كما أن أحمد بن أبي الحواري وضع أيضاً الشروط التي لا بد من توفرها لدى التائب
حتى تتحقق توبته ، وأشار إلى أن مقامات وأحوالاً أخرى تتفرع من التوبة حيث كان
يقول : " لا يكون العبد تائباً حتى يندم بالقلب ، ويستغفر باللسان ، ويرد المظالم فيما بينه
وبين الناس ، ويجتهد في العبادة ، ثم يتشعب له من التوبة الاجتهاد والزهد ، ثم يتشعب له
من الزهد الصدق ، ثم يتشعب له من الصدق التوكل ، ثم يتشعب له من التوكل
الاستقامة ، ثم يتشعب له من الاستقامة المعرفة ، ثم يتشعب له من المعرفة الذكر ، ثم يتشعب
له من الذكر الحلاوة والتلذذ ، ثم بعد التلذذ الأنس ، ثم بعد الأنس الحياء ، ثم بعد الحياء
خوف الاستدراج ، ثم بعد الاستدراج الخوف من الحياء ، وفي هذه الأحوال لا يفارق
خوف تحويل هذه الأحوال قلبه دون لقاءه " ^(٤) .

(١) الغين : أي الغيم ، يقال : غينت السماء إذا أطبق عليهم الغيم ، وأراد الرسول ﷺ ما يغشاه من سهو لا يخلو
منه بشر ، لأن قلبه أبداً كان مشغولاً بالله تعالى ، فإن عرض وقتنا ما عارض بشري يشغله عن أمور الأمة
والملة ومصالحها عد ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع إلى الاستغفار . انظر : مجمع بحار الأنوار ٨٥/٤ .

(٢) أخرجه مسلم ، في الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار ، ٢٠٧٥/٤ (ح ٢٧٠٢) .

(٣) تهذيب الأسرار ، لعبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الخركوشي (ت ٤٠٧ هـ) تحقيق بسام محمد

باردو ، أبو ظبي (المجمع الثقافي ١٩٩٩ م) ص ٩٤ .

(٤) نفسه ص ٩٧ - ٩٨ .

الورع :

الورع من المقامات العالية عند السالكين لطريق الله ﷻ ، ويعني الخروج من كل شبهة ^(١) ، وترك الإنسان لما لا يعنيه بوجه عام ، ويقتضي الورع من المتحقق به أن يتحرى كل ما يعرض له من أعراض الدنيا متفحصا ، فإن وجد فيه أدنى شبهة غادره تجنباً للوقوع في الحرام .

قال أبو نصر الطوسي في وصف أهل الورع : " منهم من تورع عن الشبهات التي اشتبهت عليه وهي ما بين الحرام البين والحلال البين ، وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك فيتورع عنهما " ^(٢) .

ولأهمية الورع كان الزهاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين يتحدثون عنه ، ويقومون بتطبيق معانيه .

فهذا الحسن البصري - رحمه الله - قال : " أفضل العلم الورع والتوكل " ^(٣) وقال : " الفقيه الورع الزاهد المقيم على سنة محمد ﷺ ، الذي لا يسخر بمن أسفل منه ، ولا يهزأ بمن فوقه ، ولا يأخذ على علم علمه الله ﷻ خطا " ^(٤) . وما في الأرض شيء أحبه للناس من قيام الليل ، فقال له قائل : فأين الورع ؟ قال : به به ذلك ملاك الأمر " .
ومحمد بن سيرين يقول : " ليس شيء أهون علي من الورع ، إذا رابني شيء تركته " وكذلك إبراهيم بن أدهم يشير إلى أن الورع ترك كل شبهة ، وترك ما لا يعينك هو ترك الفضلات ^(٥) .

والفضيل بن عياض يوضح ما يقوله الناس بأن الورع شديد لقوله ﷺ : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ^(٦) فيقول : فخذ ما حل وطاب من الأشياء ، وابذل المجهود في

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٢) اللمع للطوسي ص ٧٠ .

(٣) الزهد للإمام أحمد ص ٣٢٥ .

(٤) الآداب الشرعية ٤٥/٢ .

(٥) مدارج السالكين ٢٤/٢ .

(٦) صحيح سنن الترمذي ، ٣٠٩/٢ (ح ٢٥٢٠) ، وصحيح سنن النسائي ١١٥٣/٣ (ح ٥٧١١) .

طلب الشيء الصافي من الحلال ، لأن الله ﷻ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ ^(١) .

أما سفيان الثوري فيرى أن الورع أيسر له في الأمر وذلك من خلال قوله : " ما رأيت أسهل من الورع ! ما حاك في نفسك تركته " ^(٢) . ثم يبين أهميته ويحث عليه قائلا : عليك بالورع يخفف الله حسابك ، ودع ما يريك إلى ما لا يريك ، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك ؟ ^(٣) .

وكذلك الحارث المحاسبي كان لا يمد يده إلى طعام فيه شبهة . وبشر الحافي يحكى عنه أنه حمل إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد أن يمد يده إليه فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه ، إن يده لا تمتد إلى طعام حرام أو فيه شبهة . وسئل سهل التستري عن الحلال الصافي فقال : هو الذي لا يعصي الله فيه ، فالورع فيما لا ينسى الله فيه هو الورع الذي سئل عنه الشبلي ف قيل له : يا أبا بكر ما الورع ؟ فقال : أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله ﷻ طرفة عين ^(٤) .

وهكذا فالإنسان الورع هو الذي يقوم على الإنفاق والتصرف بالحلال الطيب وهو ذاكر الله ﷻ ومراقبته له ، فيرعى حق الله ﷻ وحق العباد حتى في حلاله .

الزهد :

قال السراج الطوسي : " والزهد مقام شريف ، وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله ﷻ ، والمنقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، ممن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة " ^(٥) .

ثم قسم الزهاد إلى ثلاث طبقات :

فمنهم المبتدئون ، وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك ، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم كما قال أبو القاسم الجنيد حينما سئل عن الزهد فأجاب بأنه : تخلي أيدي من

(١) سورة المؤمنون ، الآية (٥١) .

(٢) كتاب الصدق ص ١٠٠ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ١١١ .

(٤) اللمع للطوسي ص ٧١ .

(٥) نفسه ص ٧٢ .

الأملاك ، وتخلي القلوب من الطمع ، وكما قال سري السقطي بأنه : خلو قلب الإنسان مما خلّت منه يده .

ومنهم متحققون في الزهد ، وصفهم رويم بن أحمد حينما سئل عن الزهد فقال : ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا وهذا زهد المتحققين ، لما في الزهد في الدنيا من حظ للنفس ، لما في الزهد من الراحة والثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس ، فمن زهد بقلبه في هذه الحظوظ فهو متحقق في زهده .

أما الطبقة الثالثة فقوم علموا وتيقنوا أن لو كانت الدنيا كلها لهم ملكا حلالا ، ولا يحاسبون عليها في الآخرة ، ولا ينقص ذلك مما لهم عند الله شيئا ، ثم زهدوا فيها لله ﷻ ، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة من ماء ، فعند ذلك زهدوا في زهدهم وتابوا من زهدهم كما سئل عنه الشبلي فقال : الزهد غفلة ، لأن الدنيا لا شيء ، والزهد في لا شيء غفلة ^(١) .

ومن خلال عبارات المتصوفة السابقة نفهم أن الزهد - في مفهومهم - هو تخلي الأيدي من الأملاك ، وترك الدنيا والإعراض عنها بالكلية ، وإخلاء الأيدي من كل ما يملكه الإنسان ، وعدم القيام بالأسباب ؛ فهو مفهوم خاطئ مناقض للقرآن الكريم حيث قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) وقال أيضا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٣) .

التوكل :

إن مقام التوكل من مقامات السالكين إلى الله ﷻ ، ويعني بالثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس ^(٤) ، ذلك أن المتوكل على الله الذي يعلم أن الله ﷻ كافل رزقه وأمره ، فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره .

(١) المصدر السابق ص ٧٣ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

(٤) التعريفات ص ٥٢ .

ومقام التوكل على الله مقام جليل القدر ، عظيم الأثر ، أمر الله عباده به ، وحثهم عليه في مواضع كثيرة من كتابه الكريم فقال ﷺ : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) ، وقد جعل الله التوكل سببا لنيل محبته فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ^(٢) ، وضمن الله سبحانه لمن يتوكل عليه القيام بأمره فقال ﷺ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٣) .
أما مفهوم التوكل عند الصوفية فيتضح بما يلي :

قال سري السقطي : التوكل الانخلاع من الحول والقوة ، وقال ابن مسروق : التوكل الاستسلام لجريان القضاء في الأحكام ^(٤) ، وسئل ابن عطاء عن حقيقته فقال : أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فافتك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها ^(٥) .

أما أبو سعيد الخراز فقد تكلم بعبارة جميلة بأن : " المتوكل على الله إذا ملكه الله تعالى شيئا من أمر الدنيا وفضل عنده لم يدخره لغد ، إلا بالنية أن الشيء إنما هو لله ، وموقوف لحقوق الله ، وهو خازن من خزان الله ، فإذا رأى موضع الحاجة شارع إلى الإخراج والبذل والمواساة ، وكان في الذي يملك وإخوانه سواء " ^(٦) .

وأما الحارث المحاسبي فقد انتقد القوم الذين يقعدون ولا يسعون في طلب الرزق قائلا : " وقد زعم قوم أن التوكل لا يثبت لأهله إلا بترك الحركة في طلب الرزق ، والقعود عن الاضطراب ، فمنعوا أن يكون في ذلك إباحة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فجهلوا ما أخبرنا عن إسماعيل بن إبراهيم ، عن الأعمش عن إبراهيم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه " ^(٧) ، وهذا خبر عن رسول الله ﷺ لا يدفعه أهل العلم والنقل ولا أعلمهم يختلفون فيه .. " ^(٨) .

(١) سورة المائدة ، الآية (٢٣) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٥٩) .

(٣) سورة الطلاق ، الآية (٣) .

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٢٠ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ١٦٤ .

(٦) كتاب الصدق ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٧) صحيح سنن ابن ماجه في التجارات ، باب الحث على المكاسب ٥/٢ (٢١٣٨) .

(٨) المسائل في أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل ص ١٨٣ .

وقال ذوالنون المصري عن التوكل بأنه " تدبير النفس والانخلاص من الحول والقوة ، وإنما يقوي العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه " . وعبرة ذي النون تعني المتوكل على الله لا ينبغي له أن يقوم بأي سبب لأنه ينافي التوكل على الله ﷻ ؛ بل عليه أن يقطع الأسباب فهاثيا ، وهو مفهوم خاطئ حيث من الممكن أن يكون هذا تواكلا وليس توكلا ، ويؤيد على هذا قول ذي النون بعبارة أخرى بأن " التوكل خلع الأرباب وقطع الأسباب " (١) .

أما سهل بن عبد الله التستري فقد قال : " إن أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي ﷻ كالملت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء لا يكون له حركة ولا تدبير " (٢) . ونفهم من ذلك - إذن - أن الإنسان المتوكل على الله ينبغي له أن يقعد ولا يتحرك في هذه الحياة لتأمين لوازم الحياة ؛ وإلا لا يوصف بأنه متوكل على الله ، وهذا مفهوم خاطئ للتوكل لأنه ليس من التوكل على الله قطع القيام بالأسباب التي تكون سببا لحصول الإنسان على رزقه الحلال ، أو تناول دواء يكون سببا لشفائه .

الصبر :

إن الصبر مقام ومترل من منازل السالكون ، لا يتم جهد بدونه ، ولا يتوصل إلى هدف بغيره ، ولا يصل بلاء إلى غايته بالنسبة للسالك إلى الله ﷻ ما لم يركب فيه مركب الصبر ، وإذا كان السالك يحتاج إلى الصبر في تحقيقه بكل مقام سابق من التوبة والورع .. فإنه يظل كذلك حتى يصبح الصبر مقاما له ، ويصير مفتاحه في كل شأن من شؤونه . قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣) .

ولأهمية الصبر لدى السالكون إلى الله فقد قام بعض الصوفية بإعطاء تعريف له .

قال إبراهيم الخواص : الصبر هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة . وقال عمرو بن عثمان : الصبر هو الثبات مع الله تعالى ، وتلقي بلائه بالرحب والدعة . وقال ذوالنون

(١) الرسالة القشيرية ص ١٦٥ .

(٢) نفسه ص ١٦٣ .

(٣) سورة الزمر ، الآية (١٠) .

المصري : الصبر هو الاستقامة بالله تعالى ^(١) . وأشار سهل التستري إلى أنه انتظار الفرج من الله ، وهو أفضل الخدمة وأعلاها ^(٢) .

أما أبو سعيد الخراز فبين أن الصبر اسم لمعان ظاهرة وباطنة ؛ وهو الصبر على أداء فرائض الله تعالى ، على كل حال ، في الشدة والرخاء ، والعافية والبلاء ، طوعا وكرها . ثم الصبر عن كل ما نهى الله ﷻ عنه ، ومنع النفس من كل ما مالت إليه بهواها ، مما ليس لله تعالى فيه رضا ، طوعا وكرها ..

ثم الصبر على النوافل وأعمال البر ، مما يقرب العبد إلى الله تعالى فيحمل نفسه على بلوغ الغاية منه ، للذي رجاه من ثواب الله ﷻ .

أما الصبر الرابع فهو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس ، ودعائك إليه بالنصيحة ، فيقبل منه ، لأن الحق رسول من الله جل ذكره إلى العباد ، لا يجوز لهم رده ، فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله تعالى أمره ^(٣) .

ثم قال أبو سعيد : وهذا ظاهر الصبر الواجب على الخلق ، الذي يكون لا يسعهم جهله ، ولا بد لهم منه .

وهذا التقسيم قد يرجع إلى القسمين الإثنين : الأول صبر على ما هو كسب للعبد ، والآخر صبر على ما ليس بكسب له ؛ أما الذي يكتسبه العبد فداخل تحت الأمر والنهي ، وأما الذي لا يكتسبه فهي أحكام الله عليه ، وما قد يناله فيها من مشقة وبلاء ^(٤) .

ولكن لو نظرنا إلى الصبر فإنه ينصرف عادة إلى القسم الثاني أكثر مما ينصرف إلى القسم الأول؛ لأن القسم الثاني وهو الصبر على ما يتزل بالسالك من أنواع البلاء فهو الذي يأخذ أكثر الحديث عن الصبر .

يقول الجنيد : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن ، وهجران الخلق في جنب الله شديد ، والمسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله ﷻ أشد ،

(١) المصدر السابق ص ١٨٣ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١٢-١١٣ .

(٣) كتاب الصدق ص ٨٣-٨٤ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٨٣ .

وحينما سئل عن الصبر فقال : تجرع المرارة من غير تعيس^(١) ، وذلك يشمل الوجهين الذين أوردهما القشيري عن الصبر .

ويعتمد الطوسي على تقسيم ابن سالم للصبر فيقول : " متصبر ، وصابر ، وصبار ؛ فالمتصبر من صبر في الله تعالى ، فمرة يصبر ، ومرة يجزع . والصابر من يصبر في الله والله ، فلا يجزع وقد تقع منه الشكوى . وأما الصبار فهو الذي يصبر في الله وبالله ، وهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ، ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخلقة " (٢) .

والصبر ليس عملاً سلبياً محضاً كما قد يتخيله البعض ؛ فهو في الأمور السلبية عمل سلبى ، ولكنه في الأمور الإيجابية عمل إيجابى ، فهو في كل أمر بحسبه . فالصبر على العبادة عمل سلبى ، والصبر تحت مواقع القضاء عمل سلبى بحسب ظاهره ، ولذلك يستعان على قضاء المصالح وتحقيق الآمال بالصبر ، وهو كفيلاً أن يصل بصاحبه إلى تحقيق أهدافه ، ولذلك يقولون : الصبر على الطلب عنوان الظفر ، والصبر في الحزن عنوان الفرج .

الشكر :

من المقامات التي يتحقق بها السالكون في طريقهم إلى الله ﷻ مقام الشكر ، ويعني تحقق الصوفي بالشكر أن يكون معترفاً بنعمة المنعم عليه مع استشعار الخضوع له ﷻ . ولأهمية الشكر في حياة العبد السالك إلى الله ﷻ فقد تحدث عنه الأعلام الزهاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

قال الحسن البصري : " الخير الذي لا شر فيه العافية مع الشكر ، فكم من منعم عليه غير شاكر " (٣) . وقال : " إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء ، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً ، ولهذا كانوا يسمون الشكر الحافظ لأنه يحفظ النعم الموجودة ، والجالب لأنه يجلب النعم المفقودة " (٤) .

(١) المصدر السابق ص ١٨٣ .

(٢) اللمع للطوسي ص ٧٦ .

(٣) إحياء علوم الدين ١٣٤/٤ .

(٤) عدة الصابرين ص ١٢٢ .

وقال الفضيل بن عياض : " عليكم بملازمة الشكر على النعمة ، فقل نعمته زالت عن قوم فعادت إليهم " . وبين أن من عرف نعمته الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستقم ذلك حتى يرى الزيادة لقوله ﷻ : ﴿ لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ^(١) وإن من شكر النعمة أن يحدث بها " ^(٢)

وقال أبو سليمان الداراني : " جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل في قلبه خصالا : الكرم والسخاء والحلم والرأفة والشكر والبر والصبر " ^(٣) .
أما أبو سعيد الخراز فقد بين أن الشكر على ثلاثة وجوه : شكر القلب ، وشكر اللسان ، وشكر البدن .

فأما شكر القلب فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لا من غيره . وأما شكر اللسان فالحمد والثناء عليه ، ونشر آلائه وذكر إحسانه . وأما شكر البدن فلا تستعمل جارحة منحها الله تعالى وأحسن خلقها في معصية ؛ بل تطيع الله تعالى بها .
وكذلك كل ما خولك وملكك من الدنيا جعلته عوناً لك على طاعته ، ولم تحوله في باطل ، ولم تنفقه في سرف ، ثم تبذل لله - ﷻ ذكره وعز جده - الخدمة ، وتعطيه الجهد من نفسك .. ^(٤) .

والعبد لم يبلغ هذا المبلغ ما لم يكن هناك ما يبعثه على الشكر ، وقد بين المحاسبي ذلك فقال : يبعث على الشكر الحرص على مداومة تذكر النعم وخوف حلول النقم ^(٥) .
وكذلك استكثار العبد من الله ﷻ وشدة الحياء ، حيث لو تذكر إحسان الله وكثرة نعمه عليه استحي من التقصير في حقه ، ودأب في أداء شكره ﷻ .

الرضا :

اعتبره كثير من أئمة الصوفية نهاية ما يتحقق به السالك في طريقه ، ويعنون به أن يكون السالك للطريق راضياً عن الله ﷻ ، وغير معترض على تقديره ﷻ ، ولهذا فهو مقام

(١) سورة إبراهيم ، الآية (٧) .

(٢) إحياء علوم الدين ١٢٧/٤ .

(٣) عدة الصابرين ص ١٢٠ .

(٤) كتاب الصدق ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٥) المسائل في أعمال القلوب والجوارح .. ص ٥٣ .

صعب للغاية ، لأن الإنسان كثير الجزع إذا ما صادفته عقبة أو شدة ، وجزعه يتضمن اعتراض على قضاء الله ﷻ .

يسندون الرضا إلى قوله ﷻ : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ^(١) فواجب العبد السالك أن يرضى بالقضاء الذي أمر بالرضا به فيما عدا المعاصي فلا وجه للرضا بها أو عنها ، وفي هذا المعنى يقول القشيري : " وأعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أمر الرضا به ، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين " ^(٢) . وكذلك فإن رضا العبد عن الله ﷻ فيما يورده سواء كان محنة أو منة هو من علامة رضا الله ﷻ عنه مصداقا لما جاءت به الآية السابقة .

ويستند الرضا كذلك إلى شواهد من السنة منها قول النبي ﷺ : " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا " ^(٣) .

فهذا الحديث يفيد أن من لم يتحقق بالرضا لم يلاق حلاوة الإيمان ، ويكون إيمانه صورة لا روح فيها ، وأما المتحقق بالرضا فهو مستسلم لله منقاد لحكمه ، وواجد لذة العيش وراحة التفويض فهو مؤمن على الحقيقة .

وقد اختلف الصوفية في شأن الرضا ، ففريق منهم يعتبره من جملة المقامات ، وأنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه ، وفريق آخر يعتبره من جملة الأحوال ، وأنه ليس كسبا للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال ، وفريق ثالث يجمع بين الفريقين فيقول : بداية الرضا مكتسبة للعبد ، وهي من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة ، وهذا هو الأقرب إلى الصواب .

ولأهمية مقام الرضا في حياة العبد السالك إلى الله ﷻ نجد بعض الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين قد عبروا عنه ؛

فهذا عبد الواحد بن زيد أشار إلى أن " الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا " ^(٤) .

وقال الفضيل لبشر الحافي : الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته .

(١) سورة المائدة ، الآية (١١٩) .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٩٤ .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله ربا .. ٦٢/١ (ح ٥٦) .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٩٤ .

وسئلت رابعة العدوية متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة .

وقال أبو سليمان الداراني : أرجو أن أكون طرفا من الرضا ، لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضيا .

وقال رويم : الرضا استقبال الأحكام بالفرح . وهذا يشبه ما قاله الحارث المحاسبي من أن الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام ، وما عبر عنه النوري بأنه سرور القلب بمر القضاء . وكذلك ما قاله ذوالنون المصري حينما بين ثلاثة من أعلام الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب في حشو البلاء ^(١) .

ولا شك أن الرضا مما أجمع العلماء على استحبابه واختلفوا في وجوبه ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ممن ذهب إلى القول باستحبابه فيقول رحمه الله : " ولم يجئ الأمر به كما جاء بالصبر وإنما جاء بالثناء على أصحابه ومدحهم " ^(٢) .

الخوف والرجاء :

الخوف والرجاء عند الصوفية مقامان من مقامات السلوك ، وهما يقتسمان نفس السالك في طريقه إلى الله ﷻ .

فالسالك يتحقق بمقام الخوف حينما يخشى أن يسلبه الله ﷻ ما هو عليه من أحوال ومقامات لعلمه بأن الله عليم حكيم ، ذو قدرة ومشیئة ، متى أراد أن يسلبها عنه فعل ذلك ولا يسأل الله عما يفعل وهم يسألون .

على أن خوف العبد من أن تسلب عنه أحواله ومقاماته لا ينبغي أن يستبد به ، وعليه ألا يفقد الرجاء في الله ﷻ ، فهو إذا خوف ينبغي أن يعلم أن من وراء خوفه أوصاف المرجو الذي لا ينبغي أن يقنط من رحمته ، وأنه ﷻ ما خوفه إلا ليجمعه عليه وليرده بذلك إليه ، وبهذا يكون مقام الخوف موصلا إلى مقام الرجاء .

ووردت آثار وأقوال الزهاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين في الخوف والرجاء ؛ عن الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ قال : الخوف الدائم في القلب . وقال : " إن الرجل يذنب الذنب فما ينساه ،

(١) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٤٠/١٠ .

وما يزال متخوفا منه حتى يدخل الجنة " (١) . وقال في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (٢) بأنهم " كانوا يعملون ما عملوا من أعمال البر وهم يخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله " (٣) .

وسئل عبد الله بن المبارك عن رجلين أحدهما خائف والآخر قتيل في سبيل الله ﷺ قال : " أحب إلي أحوفهما " .

وقال الفضيل بن عياض : " الخوف أفضل من الرجاء ما كان الرجل صحيحا ، فإذا نزل الموت فالرجاء أفضل " (٤) .

وقال أبو سليمان الداراني : " أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ﷻ ، وكل قلب ليس فيه خوف فهو قلب خرب " (٥) .

أما أبو علي الرذوباري فقد بين الترابط والعلاقة بين الخوف والرجاء وشبهه بجناحي الطائر فقال : " الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر في حد الموت " (٦) .

وقال أبو سعيد الخراز في كلام له : " شكوت إلى بعض العارفين الخوف فقال لي : إني أشتي أن أرى رجلا يدري أيش الخوف من الله ؟ ثم قال : إن أكثر الخائفين خافوا على أنفسهم من الله بشفقة منهم على أنفسهم وعملا في خلاصها من أمر الله ﷻ " (٧) .

وهكذا فالمؤمنون بالله ﷻ لا يأمنون طرفة عين من مجيء عذاب الله لخطأ أو زلة قد يقعون فيها ، ولذا فالخوف يعطيهم صفة الحذر من النفس ومن وساوس الشيطان ، وحالة الخوف هذه تحفظهم من ارتكاب المعاصي ، وتزيد درجة الورع عندهم ، ويعبرون عن ذلك بالسجود لله ﷻ إعلانا للطاعة ، ويقرنون سجودهم بالبكاء ، وهو التعبير عن الخوف

(١) الزهد للإمام أحمد ص ٣٢٤ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية (٦٠) .

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٩ .

(٤) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار ، لابن رجب ، تحقيق بشير محمد عون ، دمشق ، (مكتبة دار

البيان ١٤١٣هـ) ص ٢٣ .

(٥) نفسه ص ٧ .

(٦) مدارج السالكين ٣٧/٢ .

(٧) اللمع للطوسي ص ٩٠ .

والخشوع فهؤلاء وصفتهم الآية : ﴿ إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا
وَبُكْيًا ۝ ﴾ (١) .

ولأهمية الخوف الذي هو حصن من الوقوع في المعاصي أو الأخطاء حث النبي ﷺ
عليه ورغب فيه وقال : « عينا لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت
تحرس في سبيل الله » (٢) .

وقد كان الخوف والبكاء من الصفات التي عرف بها السلف الصالح كما كانا يخيما
على الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز والحسن البصري ، حتى قيل من شدة خوفهما كأن
النار لم تخلق إلا لهما .

ولكن العبد لو عاش حال الخوف دون الرجاء لسد باب أمله وازدادت وساوسه ،
ولكن الترغيب والوعد بغفران الله ﷻ يشكل حصنا يمنع الإنسان من السقوط والقنوط من
رحمة الله ﷻ .

وهذا ما يجعل القشيري يورد أن من معاني الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله ، أو
ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب (٣) . لذا فإن كل من يتوقع الحسن في المستقبل
يعتبر راجيا مؤملا .

ومن المفيد أن يكون العبد دائما بين حالي الخوف والرجاء ، لأن الخوف يردعه عن
المعصية ، والرجاء يدفعه إلى العمل مما يضبط سلوكه ويحصنه ، ويجعله فيمن رضي عنهم الله
وأحبهم . فالمؤمن يراعي قاعدة الالتزام بفعل المعروف والانتفاء عن المنكر خوفا من النيران
وطمعا بالجنان قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ (٤) .

(١) سورة مريم ، الآية (٥٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في الجهاد ، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله ٢٧٦/٣ . وأورده الألباني في صحيح

الترمذي ١٢٧/٢ (١٣٣٨) .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٤) سورة السجدة ، الآيتان (١٥ - ١٦) .

الباب الثاني

موقف الفقهاء الأربعة من التصوف

وتحته أربعة فصول

الفصل الأول : الإمام أبو حنيفة والتصوف

الفصل الثاني : الإمام مالك بن أنس والتصوف

الفصل الثالث : الإمام الشافعي والتصوف

الفصل الرابع : الإمام أحمد بن حنبل والتصوف

الفصل الأول

الإمام أبو حنيفة والتصوف

وتحت أربعة مباحث

المبحث الأول : عصر الإمام أبي حنيفة وحياته

المبحث الثاني : الإمام أبو حنيفة وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إليه في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

المبحث الأول

عصر الإمام أبي حنيفة وحياته

أولا : عصره

لقد عاش الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - في عهدي الدولة الأموية والعباسية ، وشهد ما كان في تلك الفترة من فتن وأحداث ، كما رأى - كذلك - مشاهد المجادلات والمناقشات بين الفرق المتنازعة من شيعة وخوارج ومعتزلة ومرجئة .. وجماعات من الفقهاء والعباد والزهاد مما أدى ذلك إلى اتخاذ رأيه وموقفه من تلك الظواهر .

واتسعت الحياة المادية والاجتماعية - في عصره - بعد الفتوحات الإسلامية ودخول شعوب مختلفة في دين الله ﷻ ، فأصبح المجتمع يضم أجناسا وأفكارا متعددة ، فتغيرت البيئة وظهرت مسائل وأمور لم تكن قد شاعت في عهد رسول الله ﷺ ، فكثر الأقوال في الفقه الإسلامي ، وبدرت محاولات للتوفيق بين حياة المجتمع والنصوص الدينية ، وظهرت آراء ومذاهب ^(١) تتفق في العقائد وفي أصول الفقه وتختلف في فروعها وفي عدد من تفاصيل العبادات والمعاملات ، وقد أدى الاختلاف في تفسير نصوص القرآن الكريم إلى نشأة المذاهب الأربعة هذا في الفروع ^(٢) .

أما الأصول فمن المعروف أن العراق كان موطناً للفرق المختلفة ومحلاً للأفكار لمدينيات قديمة ، فكان ملتقى الشعوب والأجناس المتباينة ؛ مما أدى ذلك إلى ظهور المذاهب التي كانت تنشر بين المسلمين في الخفاء لإفساد عقيدتهم ، أو للتشكيك في أمور دينهم ، أو لتفكيك وحدتهم ، وإثارة التزعزعات الفكرية بينهم ^(٣) .

ووجدت كذلك في العصر الأموي حركة فكرية نشطة ، وهي حركة الاتصال بالفلسفة اليونانية ، وبدأت ترجمة كتب الطب ، وأخذ المسلمون - أيام المنصور - ينقلون كتب العلوم والفلسفة اليونانية إلى العربية .

وهكذا نشأت حركة علمية في هذا العصر ، ولكن كان أساسها الدين ، الذي يتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وقد كان بحث العلماء يدور حول تفسير آية

(١) الأئمة الأربعة ، لأحمد الشرباصي ، بيروت (دار الجيل) ص ١٥ .

(٢) تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، بيروت (دار القلم ١٣٩٢هـ) ص ٢٢٣ .

(٣) انظر : أبو حنيفة ، لأبي زهرة ، ط ٢ (دار الفكر العربي ١٣٦٤هـ) ص ٩٤-٩٦ .

قرآنية ، أو رواية لحديث مسند يتصل برسول الله ﷺ ، هذا عدا محاولات ترجمة كتب فلسفية والتي قام بها البعض في عصر المنصور وغيره من الخلفاء الذين جاءوا من بعده .

ثانيا : حياته

هو أبو حنيفة النعمان ^(١) بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي الخزاز ، الإمام فقيه الملة ، عالم العراق ، المنتسب إلى أسرة شريفة في قومه ، أسلم جده أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(٢) . ونسب إلى الخزاز ^(٣) لأنه كان يبيع الخبز ، ويأكل منه طلبا للحلال ^(٤) ، وأما نسبته إلى الكوفي فلأن موطنه الذي ولد وعاش فيه هو الكوفة ، وأما كونه تيميا فلأن جده زوطي مولى لبني تيم الله بن ثعلبة من بني ربيعة . وقد نفى إسماعيل بن حماد بن حنيفة أن يكون الرق قد وقع على أجداده ^(٥) . وسواء جرى الرق على جده أم لا فإن هذا الأمر لا ينقص من قدر الإمام أبي حنيفة وعلمه شيئا ، لأن الإسلام قد ساوى بين البشر كلهم لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى .

ولد الإمام أبو حنيفة سنة ثمانين من الهجرة بالكوفة على القول الراجح في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان ^(٦) . ونشأ بها أيضا ، واشتغل في مبدأ أمره تاجرا في الخبز ، وكان آمينا في تجارته ، ثم توسعت تجارته وازدهرت حتى صار له معمل لحياكة الخبز ، وعنده صناع وأجراء ، وقد أخذ أبو حنيفة هذه المهنة عن أبيه . وبهذا يتبين أنه نشأ في بيت إسلامي خالص ^(٧) .

وقد وصفه صاحبه أبو يوسف بأنه اتصف بالخصال الحميدة حينما سأله عنها الخليفة العباسي هارون الرشيد فقال : يا أبا يوسف صف لي أخلاق أبي حنيفة رضي الله عنه فقال : إن الله

(١) انظر ترجمته في : تاريخ بغداد ٣٢٤/١٣ - ٣٥٤ ، والتاريخ الكبير ٨/٨١ ، وطبقات الفقهاء للشيرازي ص

٨٦ ، الجرح والتعديل ٤٤٩/٨ ، وتذكرة الحفاظ ١٦٨/١ ، وسير أعلام النبلاء ٦/٣٩٠ ، ومناقب أبي

حنيفة للمكي ، بيروت ، (دار الكتاب العربي ١٤٠٠هـ) وغيرها .

(٢) سير أعلام ٦/٣٩٠ - ٣٩١ ، ووفيات الأعيان ٥/٤٠٥ .

(٣) تاريخ بغداد ١٣/٣٢٤ .

(٤) الأنساب للسمعاني ٥/٤٠٥ .

(٥) تاريخ بغداد ٣١/٣٢٦ .

(٦) أبو حنيفة النعمان إمام الأئمة الفقهاء ص ٤٧ .

(٧) انظر : أبو حنيفة لأبي زهرة ص ٢١ ، وتاريخ المذاهب الإسلامية ٢/١٣١ .

تعالى يقول : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ^(١) وهو عند لسان كل قائل ، كان علمي بأبي حنيفة أنه كان شديد الذب عن محارم الله ، شديد الورع أن ينطق في دين الله بما لا يعلم ، يجب أن يطيع الله ولا يعصي ، دائم الفكر ، على علم واسع ، لم يكن مهذارا ولا ثرثارا ، إن سئل عن مسألة كان عنده ما فيها علم نطق به وأجاب فيها بما سمع ، وإن كان غير ذلك قاس على الحق واتبعه ، صائنا نفسه ودينه ، بذولا للعلم والمال ، مستغنيا بنفسه عن جميع الناس ، لا يميل إلى طمع ، بعيدا عن الغيبة ، لا يذكر أحدا إلا بخير ، فقال له الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، ثم قال للكاتب اكتب هذه الصفة وارفعها إلى ابني ينظر فيها ^(٢) .

وقد اتسم عصره - رحمه الله - بكثرة العلماء ، فأخذ العلم عن الكثير منهم ، ووصف أبو حنيفة عصره فيقول : " كنت في معدن العلم والفقهاء فجالست أهله ولزمت فقيها من فقهاءهم يقال له حماد بن أبي سليمان فانتفعت به " ^(٣) . كما أخذ العلم عن عدد كبير من التابعين حيث ذكر لنا أنه لقي عطاء بن رباح (ت ١١٤هـ) فسأله أبو حنيفة عن شيء فقال له عطاء من أين أنت ؟ أجابه من أهل الكوفة ، فسأله من أي الأصناف أنت ؟ أجابه فممن لا يسب السلف ، ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحدا بذنوب ، فقال عطاء عرفت فالزم ^(٤) .

كان لأبي حنيفة تلامذة كثيرون ، منهم من كان يرحل إليه ويستمتع أمدا ، ثم يعود إلى بلده بعد أن يأخذ طريقه ومنهاجه ، ومنهم من لازمه ^(٥) .

فمن تلامذته عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ) وداود الطائفي (ت ١٦٥هـ) والفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ) وشقيق البلخي (ت ١٩٤هـ) وغيرهم . وتوفي - رحمه الله - سنة ١٥٠هـ .

(١) سورة ق ، الآية (١٨) .

(٢) أخبار أبي حنيفة وأصحابه ، للصيمري ص ٣١-٣٢ .

(٣) مناقب أبي حنيفة ، للموفق المكي ٥٢/١ .

(٤) مناقب أبي حنيفة للكردي ٨٢/٢-٨٣ .

(٥) المصدر نفسه ١٣١/٢ .

المبحث الثاني

الإمام أبو حنيفة وموضوعات التصوف

١- معرفة الله تعالى

إن معرفة الله تبارك وتعالى في اعتقاد سلفنا الصالح - كما سبق - مودعة في أعماق الإنسان ، ومستقرة في القلوب ، وأن العباد مفطورون على معرفة خالقهم ورازقهم ، وإن الإمام أبا حنيفة ليقرر ذلك ، يتبين من خلال النصوص الآتية :

ذكر الإمام الموفق ^(١) بن أحمد المكي في كتابه " مناقب أبي حنيفة " أن جماعة من الزنادقة يريدون قتل أبي حنيفة فناظرهم النعمان " فقال لهم : على رسلكم حتى تجيئوني عن مسألة ثم أنتم وشأنكم ، فقالوا له هات فقال : ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأمتعة والأثقال قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة وأمواج مختلفة ، وهي من بينها تجري مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها ويسوقها ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟ فقالوا : لا ، هذا شيء لا يقبله العقل ولا يجيزه الوهم ! فقال لهم أبو حنيفة - رحمه الله - : فيا سبحان الله ! إذا لم يجز في العقل وجود سفينة تجري مستوية من غير متعهد ولا بحر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وتغير أمورها وأعمالها ، وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ومحدث لها ؟ فبكوا جميعا وقالوا : صدقت فأغمدوا سيوفهم وتابوا عن غيهم وضلالهم " ^(٢) .

وذكر الملا علي القاري الحنفي هذا الحدث بصيغة أخرى قائلا : " إن قوما من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية فقال لهم : أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلى من الطعام والمتاع وغيره بنفسها وتعود بنفسها ، فترصى بنفسها وتتفرغ بنفسها ، وترجع كل ذلك من غير أن يديرها أحد ، فقالوا : هذا محال لا يمكن أبدا ، فقال لهم : إذا كان هذا محالا في سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله ؟ وما أحسن قول العارف إبراهيم الخواص في هذا المعنى :

لقد وضع الطريق إليك حقا
فما أحد أرادك يستدل ..

(١) الموفق بن أحمد المكي ، فقيه أديب خطيب .. (ت ٥٦٨) ، انظر : معجم المؤلفين ٥٢/١٣ .

(٢) مناقب أبي حنيفة ، ١٥١/١ .

وكذلك قول أبي العتاهية ما أحسنه !

فوا عجباً كيف يعصي الإله
ولله في كل تحريكة
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد ^(١) .

وكذلك ما ذكره الإمام أبو حنيفة أنه قال : " لا عذر لأحد في الجهل بخالقه لما يرى من خلق السماوات والأرض ، وخلق نفسه ، وسائر ما خلقه ربه " ^(٢) . قال الملا علي القاري مبيناً ذلك : " وقد أعرض الإمام عن بحث الوجود ، اكتفاء بما هو ظاهر في مقام الشهود .. فوجود الحق ثابت في فطر الخلق كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ^(٣) ويومئ إليه حديث " ما من مولود إلا يولد على الفطرة " ^(٤) " ^(٥) ومما يؤكد فطرية المعرفة عند الإمام أبي حنيفة - رحمه الله - أن كتب المذهب الحنفي جميعاً تقرر : أن الصبي من أولاد الكفار إذا سبي بدون أبويه ومات عند المسلمين أنه يصلى عليه ، ويدفن في مقابر المسلمين ، وهذا تأكيد على أنه مفطور على فطرة الإسلام ومعرفة ربه ﷻ ^(٦) .

وقد بين الإمام أبو حنيفة أيضاً أن معرفة الله لا بد أن تكون كما وصفه الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ فقال : " نعرف الله تعالى حق معرفته كما وصف الله نفسه في كتابه بجميع صفاته ، وليس يقدر أحد أن يعبد الله تعالى حق عبادته كما هو أهل له ، ولكن يعبد به بأمره كما أمره بكتابه وسنة رسوله " ^(٧) .

(١) شرح كتاب الفقه الأكبر ، للملا علي القاري الحنفي ، ط ١ بيروت (دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ) ص ٢٢

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٧ ، ودرء تعارض العقل والنقل ٦٢/٩ .

(٣) سورة الروم ، الآية (٣٠) .

(٤) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ؟ ٥٨٢/٢ (ح)

(١٣٥٩) ، ومسلم في القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٢٠٤٧/٤ (ح ٢٦٥٨)

(٥) المصدر السابق ص ١٦-١٧ .

(٦) انظر : براءة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين المبتدعة ، د. عبد العزيز أحمد بن محسن الحميدي ، ط ١

القاهرة ، (دار ابن عفا ١٤٢٠هـ) ص ١٤٦ .

(٧) كتاب الفقه الأكبر ص ٥-٦ .

ووضح كذلك أن " المعرفة وحدها لا تكون إيمانا ، لأنها لو كانت إيمانا لكان أهل الكتاب كلهم مؤمنين ، لقوله تعالى في حق أهل الكتاب : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (١) " (٢) .

فمن خلال ما سبق تبين لنا أن معرفة الله ﷻ - عند الإمام أبي حنيفة - فطرية ، وأن العباد مفلطرون جميعا على معرفة خالقهم وبارئهم ، ومن ثم فهم مطالبون أن يحققوا العبودية لله وحده ﷻ . وبذلك وافق الإمام أبو حنيفة ما ذهب إليه أهل الحق من هذه الأمة من أن طريق معرفة وجود الله فطري وأمر بديهي ، لا ينبغي الخوض فيه ، بل هو من القضايا المسلمة ، التي لا تحتاج إلى بحث وعناء ، وهو بذلك خالف - رحمه الله - منهج بعض المتصوفة ، الذي يقول : بأن الحيرة هي أقصى حد يبلغها العارف بالله ، أو أن طريق الوصول إلى معرفة الله لا بد عن طريق الاتحاد بالله أو الجمع به ﷻ .

فمعرفة الله تعالى - إذن - لا تتطلب مجاهدة روحية ، أو رياضة قلبية ، تنشأ عنها حالات نفسية معينة تعرف بالأحوال والمقامات ، حيث يرتقي المريد من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام حتى يصل إلى معرفة الله ﷻ ، أو أن معرفة الله تعالى تكون على فئة خاصة من الناس كما يعتقدونها ذوالنون المصري ، أو أن الإنسان لا يجد المعرفة إلا ببطن جائع .. وأن الذي يشتغل بالإيمان والعبادة لا يصل إلى معرفة الله تبارك وتعالى كما عند البسطامي والحلاج .

(١) سورة البقرة ، الآية (١٤٦) .

(٢) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ١/ ١٥٦ .

٢- العبودية

إن النصوص الواردة عن الإمام أبي حنيفة في عبادته واجتهاده في التقرب إلى الله ﷻ بألوان الطاعات والقربات لتؤكد أنه محب الله ﷻ ، وولي من أوليائه ﷺ .

فقد روى الموفق المكي بسنده إلى بكير بن معروف ^(١) قال : كنت بطانة أبي حنيفة في السفر والحضر ، وأشهدته في الليالي في منزله ، وكان قلّ ما يستتر عليّ أمر من أموره ، فما رأيت أحداً أكثر اجتهداً منه ، صائماً بالنهار ، قائماً بالليل ، تالياً لبيان الله ، خاشعاً دائماً في طاعة الله ، محتسباً في التعليم وفي تنوير ما يشكل على الناس من المعاني .. ^(٢)

وبه إلى حفص بن عبد الرحمن ^(٣) قال : كان أبو حنيفة يحفظ القرآن ، فيختمه في الشهر ثلاثين مرة . وقال أيضاً : كنت شريك أبي حنيفة ثلاثين سنة فكان يختم القرآن في ثلاثة أيام ولياليها ، وكان يتصدق كل يوم بصدقة ^(٤) .

هذا هو الإمام أبو حنيفة العابد القانت لله تعالى ، يتلو كتاب الله ويجعله ديدنه وأنيسه ، - وإن كان في ختمه للقرآن مشقة - يقوم بالليل لله ﷻ خائفاً وجلالاً ، ويصوم الأيام الكثيرة ، ويحج كل عام منذ حج مع والده حجة الإسلام ويتصدق كل يوم بصدقة . وقد مر مسعر ^(٥) بن كدام الزاهد بأبي حنيفة وأصحابه ، فوجدهم قد ارتفعت أصواتهم فأقام ملياً ، ثم قال : هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتجهدين ، هؤلاء يجاهدون في إحياء سنة محمد ﷺ ، ويجتهدون في إخراج الجهال من جهلهم ، هؤلاء أفضل الناس ، ثم اقترب من الحلقة فقال لأصحابه : يا هؤلاء ارفقوا بالشيخ فإنه - مع ما هو فيه - قد أحيا ليالي متواليات ، شهدته الليلة التي مضت منها .

(١) بكير بن معروف الأسدي ، أبو معاذ أو أبو الحسن الدامغاني ، قاضي نيسابور ، ثم نزيل دمشق ، صدوق (ت ١٦٣ هـ) . تقريب التهذيب ١١٦/١ .

(٢) مناقب أبي حنيفة ٢٢١/١ .

(٣) حفص بن عبد الرحمن بن عمر ، أبو عمرو البلخي الفقيه ، النيسابوري قاضياً ، صدوق عابد ، (ت ١٩٩ هـ) . تقريب التهذيب ١٨٦/١ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي العامري ، أبو سلمة ، من ثقات أهل الحديث ، كوفي (ت ١٥٢ هـ) . الأعلام ٢١٦/٧ .

وبذلك وجدنا من العلماء من يمدحونه ويشنون عليه ، فقال الفضل بن سويد ، الذي قدم الكوفة وسئل بعد عن أبي حنيفة : صحبناه كثيرا فما عرفناه إلا صواماً قواماً .
وقال أبو مقاتل : صحبت أبا حنيفة الصعبة الطويلة في حضره وأسفاره ، فما رأيت أحدا أكثر صلاة منه ، ولا أعبد ولا أروع منه ..
وقال عطاء بن جبرة : لم أر أحدا من العلماء يختلف أن أبا حنيفة كان أفقه القوم ، وأروع القوم ، وأكثرهم صلاة وعبادة ^(١) .

فكان الإمام أبو حنيفة - إذن - عابداً من العباد الصالحين ، ولكنه مع كونه مكثراً للعبادة ، ومجتهداً في التقرب إلى الله ﷻ ، وولياً من أوليائه ﷺ كان حريصاً أشد الحرص على حماية جناب التوحيد الخالص لله تعالى ، حريصاً على سد جميع منافذ الشرك بالله ، فقد جاء عنه - رحمه الله - وأتباعه النهي عن كل ما يفضي إلى الشرك ، مما يتعلق بتعظيم القبور وأهلها والغلو فيها كما يفعلها غلاة المتصوفة والمبتدعة ، احتجاجاً منهم أن تلك الأعمال تجعلهم في مصاف العابدين لله المحبين له ، أو أنها عمل من أعمال أولياء الله ﷻ .

قال الألوسي ^(٢) الحنفي واصفاً حال المستغيثين بغير الله ﷻ ، وتعلقهم الشديد بالأموال حيث صرفوا لهم أنواعاً من الطاعات ، كالنذر وغيره ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ ^(٣) إشارة إلى ذم المغالين في أولياء الله تعالى ، حيث يستغيثون بهم في الشدة - أي الأولياء - غافلين عن الله ، وينذرون لهم النذور ، والعقلاء منهم يقولون إنهم وسائلنا إلى الله تعالى - وإنما ننذر الله وحده - ونجعل ثوابه للولي ، ولا يخفى أنهم في دعواهم الأولى أشبه الناس بعبدة الأصنام القائلين : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ^(٤) . ودعواهم الثانية لا بأس بها لو لم يطلبوا منهم بذلك شفاء مريضهم ، أو رد غائبهم أو نحو ذلك ^(٥) .

(١) مناقب أبي حنيفة ٢٢١/١ .

(٢) محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين الألوسي ، أبو المعالي ، مؤرخ ، عالم بالأدب والدين ، من الدعاة

إلى الإصلاح (ت ١٣٤٢ هـ) . الأعلام ١٧٢/٧ .

(٣) سورة الحج ، الآية (٧٣) .

(٤) سورة الزمر ، الآية (٣) .

(٥) روح المعاني ، لمحمود الألوسي ٢١٢/١٧ - ٢١٣ .

وقال أيضا : " ولقد رأيت من يبيح ما يفعله الجهلة في قبور الصالحين من إشرافها وبنائها بالحجر والآجر ، وتعليق القناديل عليها ، والصلاة إليها ، والطواف بها ، واستلامها والاجتماع عندها في أوقات مخصوصة إلى غير ذلك .. وكل ذلك محادة لله تعالى ورسوله ﷺ ، وإبداع دين لم يأذن به الله ﷻ ، وكيفيك في معرفة الحق تتبع ما صنع أصحاب رسول الله ﷺ في قبره عليه الصلاة والسلام ، وهو أفضل قبر على وجه الأرض ، والوقوف على أفعالهم في زيارتهم له ﷺ ، فتتبع ذاك وتأمل ما هنا وما هناك والله ﷻ يتولى هداك " (١)

وقال الإمام ولي الله الدهلوي (٢) : " وإذا كنت - أيها القارئ - تتوقف بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم ، فانظر إلى المنحرفين في هذا العصر ، لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام ، ما هي تصوراتهم عن الولاية ، فرغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين يرون وجود الأولياء في عصرنا هذا من المستحيلات ، ويؤمنون القبور والعتبات ، وقد ابتلوا بأنواع من الشرك والبدع والخرافات ، وتمكن منهم التحريف والتشبيه ، وتغلغل في نفوسهم حتى لم يبق بحكم ما جاء في الحديث الصحيح "لتبتعن سنن من كان قبلكم.. الخ" بلية من البلايا ، ولا فتنة من الفتن إلا وطائفة من طوائف المسلمين - أسما - تخوض فيها وتتعلق بها ، عافانا الله ﷻ عن ذلك " (٣) .

وبهذا الموقف من الإمام أبي حنيفة وأتباعه أقول : إذا كانت الصوفية تتحدث كثيرا عن العبودية والحب الإلهي فقد كان الإمام أبو حنيفة سبقهم في هذا المقام ، وفهم معنى العبودية التي انعكست في حياته ؛ بل حرص كل الحرص على أن تكون العبادة خالصة لله ﷻ ، ونقية من كل شائبة ، وهكذا فهم أئمة سلفنا الصالح الغاية العظمى من الخلق الذي قال الله فيه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٤) فإذا عبدوا الله كانوا في غاية الحب والذل والإحسان لوصف الرسول ﷺ هذه المثلثة "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (٥) .

(١) المرجع نفسه ٢٣٩/١٥ - ٢٤٠ .

(٢) أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي ، الملقب بشاه ولي الله ، فقيه حنفي من المحدثين ،

(ت ١١٧٦هـ) . الأعلام ١/١٤٩ .

(٣) الفوز الكبير ص ٢٦ نقلا عن عقيدة الإمام أبي حنيفة ٤١ - ٤٢ .

(٤) سورة الذاريات ، الآية (٥٦) .

(٥) أخرجه مسلم ، في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والاحسان ٣٦/١٠٠ (ح ١) .

وأدركوا أن الطريق الوحيد الذي يتوصل به العبد إلى تحقيق العبودية لله ﷻ ومحبه هو الطريق الذي شرعه الله ورسوله ﷺ ، حيث أمر الله ﷻ رسوله أن يبين المنهج الصحيح نحو الوصول إلى محبة الله ﷻ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ^(١) ، وقد جعل الله في هذه الآية الشرط الأساسي لحب الله لعباده المؤمنين متابعة الرسول ﷺ واجتناب ما نهى عنه ، وبهذا تتحقق العبودية لله وحده ، ويرتقي فيها العبد إلى درجات تجعله في مصاف أوليائه ﷺ كما جاء في الحديث القدسي ” .. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها “ ^(٢)

٣- العلم

إن فضل العلم وشرفه لا يخفى على أحد ، لأنه وسيلة إلى التقوى ، التي يستحق بها المرء الكرامة عند الله تعالى والسعادة الأبدية في الدار الآخرة .

ونظرا لما للعلم من منزلة رفيعة وأهمية عظيمة فقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على مكانة أهل العلم ومنزلتهم ، منها : قوله ﷻ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ .. يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ^(٤) . وقوله ﷻ : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) . كذلك وردت الأحاديث الكثيرة تدل على قيمته ، منها : قول رسول الله ﷺ : ” من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين “ ^(٦) . وقوله ﷺ : ” ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة “ ^(٧) .

وقد دعا الإمام أبو حنيفة إلى طلب العلم وعدم تركه والابتعاد عنه لأي سبب ، حتى لو كان السبب في بعد الإنسان عن طلب العلم هو البحث عن الرزق ، لما وجد فيه من

(١) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٢) سبق تخريجه في ص ١٥٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٨) .

(٤) سورة المجادلة ، الآية (١١) .

(٥) سورة النحل ، الآية (٤٣) .

(٦) أخرجه البخاري مع الفتح في العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ١٦٤/٢ (٧١) .

(٧) أخرجه مسلم في الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ٢٠٧٤/٤ (ح ٢٦٩٩) .

فائدة ومصلحة يقول : " إن بقيت عشرة سنين بغير كسب ولا قوت فلا تعرض عن العلم فإنك إن أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكا " (١) .

وروى الموفق المكي بسنده إلى شقيق بن إبراهيم قال : قال أبو حنيفة لإبراهيم بن أدهم إنك رزقت من العبادة شيئا صالحا فليكن العلم من بالك فإنه رأس العبادة وبه قوام الأمور " (٢) .

وروى الموفق المكي أيضا بسنده إلى الحسن بن صالح (٣) عن أبي حنيفة - رحمه الله - قال مجيبا لسائله : اعلم أن العمل تبع للعلم كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية بها أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير ، وكذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٤) " (٥) .

ولهذا اعتبر الإمام أبو حنيفة الفقهاء والعلماء أولياء الله وأحباؤه فقد روى الموفق المكي بسنده إلى أبي نعيم بن دكين (٦) بأنه سمع أبا حنيفة يقول : " إن لم يكن أولياء الله تعالى في الدنيا والآخرة الفقهاء والعلماء فليس لله ولي " (٧) .

وبين أبو حنيفة أن الإنسان لا بد أن يمنعه العلم عن ارتكاب المحارم والمعاصي حتى يصير من المفلحين ، وقد سمع زفر بن الهذيل (٨) أبا حنيفة يقول : " من لم يمنعه العلم عن محارم الله ولم يحجزه عن معاصي الله تعالى فهو من الخاسرين " (٩) .

(١) الطبقات السننية ص ١٦٢ .

(٢) مناقب أبي حنيفة ٣٥٠/١ .

(٣) الحسن بن صالح بن حي ، الإمام الكبير ، أحد الأعلام ، أبو عبد الله الحمداني الثوري الكوفي ، الفقيه العابد (ت ١٦٨هـ) . سير أعلام النبلاء ٣٦١/٧ .

(٤) سورة الزمر ، الآية (٩) .

(٥) مناقب أبي حنيفة ٨٦/١ .

(٦) الفضل بن دكين ، الكوفي ، واسم دكين عمرو بن حماد بن زهير التيمي مولاهم ، الأحول ، أبو نعيم الملائي ، ثقة ثبت (ت ٢١٨هـ) . التقريب ١١٦/٢ ، وسير أعلام ١٣٢/١٠ .

(٧) المصدر نفسه ٣٤٠/١ .

(٨) زفر بن الهذيل بن قيس العنبري البصري ، أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة ، وعين من أعيان الأئمة والأعلام ، (ت ١٥٨هـ) . الطبقات السننية ٢٥٤/٣ - ٢٥٥ .

(٩) مناقب أبي حنيفة ٣٤٠/١ .

وذكر الإمام أبو حنيفة أن العلماء لا بد أن يبينوا العلم للناس ولا يكتُمونه ، وأن العلم ليس له خواص وعوام كما يعتقد بعض المتصوفة ، فقد ذكر ذلك الموفق المكي بسنده إلى مكرم بن أحمد أنبأ أحمد أنبأ مليح أنبأ أبي عن أبي حنيفة أن رجلا أتاه بكتاب شفاعة ليحدثه فقال ما هكذا يطلب العلم قد اتخذ الله الميثاق على العلماء لتبينه للناس ولا تكتُمونه ، ولا يكون العلم له خواص وعوام ، ولكن يعلم الناس ويريد الله بتعليمه " (١) . لأن الله ﷻ أوجب على العلماء أن يبلغوا العلم وينشروه بين الناس ، لأن كتمانهم من أعظم الظلم للناس لهذا قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٢) .

كما بين الإمام أبو حنيفة أن ما يقوله مثل ما قاله الرسل عليهم الصلاة والسلام بأنهم لا يعلمون الغيب ، لأن الله وحده ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ (٣) فبيان ذلك ما رواه الموفق المكي بسنده إلى حماد بن أبي حنيفة .. حينما سأله جماعة من الخوارج في أمر جنازتين أحدهما : رجل شرب الخمر حتى كظته وحشرج بها فمات غرقا في الخمر، والأخرى : امرأة زنت حتى إذا أيقنت بالحبل قتلت نفسها فقال لهم أبو حنيفة من أي الملل كانا أمن اليهود ؟ قالوا : لا ، قال : أفمن النصارى ؟ قالوا : لا ، قال : أفمن المجوس ؟ قالوا : لا ، قال : من أي الملل كانا ؟ قالوا : من الملة التي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .. قال : فما سؤلكم إياي عن قوم زعمتم وأقررتهم أنهما كانا مؤمنين ، قالوا : دعنا عنك أمن أهل الجنة هما أم من أهل النار ؟ قال : أما إذا أبيتم فإني أقول فيهما ما قال نبي الله إبراهيم عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرما منهم ، ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) وأقول فيهما ما قال نبي الله عيسى عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرما منهما ﴿ إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ

(١) المصدر السابق ١/١٩٠-١٩١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٥٩) .

(٣) سورة الجن ، الآيتان (٢٦-٢٧) .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية (٣٦) .

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ وأقول فيهما ما قال نبي الله نوح عليه السلام وعليهم أجمعين وعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ..﴾ (٢) " (٣) .

ومن خلال النصوص السابقة يتبين لنا أن الإمام أبا حنيفة له موقف في الدفاع والذب عن عقيدة السلف الصالح ، وأن العلم يأتي عن طريق التعلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إنما العلم بالتعلم" (٤) ولا يأتي عن طريق الخرافات والمنامات والعبادات المبتدعة ، ويكون الاعتماد على الكتاب والسنة ، لا كاعتماد بعض المتصوفة على الإلهام والكشف بحجة أنه يكشف لهم عن أمور مغيبة عما سواهم ، فهي ظاهرة لديهم خافية على غيرهم .

كما أن عبارات الإمام أبي حنيفة ترد على الذين يتزهدون في العلم ، ويستغنون عنه كقول من قال : " نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حي يموت ، وقول من قال : " العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل " ، وترد على من قال : " إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ " أخبرنا " و " حدثنا " فاغسل يدك منه " (٥) .

ولهذا قال ابن القيم - رحمه الله - : " ومن أحالك على غير " أخبرنا " و " حدثنا " فقد أحالك : إما على خيال صوفي ، أو قياس فلسفي ، أو رأي نفسي ، فليس بعد القرآن و " أخبرنا " و " حدثنا " إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحرفين ، وخیالات المتصوفين .. ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة ، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي طريق الجحيم والشيطان الرجيم " (٦) .

(١) سورة المائدة ، الآية (١١٨) .

(٢) سورة هود ، الآية (٣١) .

(٣) المصدر السابق ١/١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٤٢ .

(٥) انظر : مدارج السالكين ٢/٤٣٨ .

(٦) المرجع نفسه ٢/٤٣٩ .

٤ - الزهد

روى أبو عبد الله الصيمري بسنده إلى عبد الله بن المبارك يقول : وذكر أبو حنيفة فقال : ما تقدرون أن تقولوا في رجل عرضت عليه الدنيا والأموال العظيمة فنبذها وراء ظهره فضرب بالسياط ، وقيل له : خذ الدنيا ، فصبر على السراء والضراء ، ولم يدخل فيما كان غيره يطلبه ويتمناه ، والله لقد كان على خلاف من أدركناه يطلبون الدنيا ، والدنيا تهرب منهم ، وتأتيه الدنيا فيهرب منها .

وروى أيضا بسنده إلى أبي يوسف ^(١) قوله : سئل أبو حنيفة بعد صلاة الصبح عن مسائل فأجاب فيها ، فقليل له : أليس كانوا يكرهون الكلام في مثل هذا الوقت إلا بخير ! فقال أبو حنيفة : وأي خير أكبر من أن تقول هذا حلال وهذا حرام ! تتره الله وتحذر الخلق من معاصيه ! .

وروى أيضا بسنده إلى عبد الرزاق ^(٢) كان يقول : كنت إذا رأيت أبا حنيفة رأيت آثار البكاء في عينيه وخديه ^(٣) .

وروى الموفق المكي بسنده إلى خارجة بن مصعب ^(٤) قال : أجاز المنصور أبا حنيفة بعشرة آلاف درهم فدعي ليقبضها فشاوري وقال : هذا رجل إن رددتها عليه غضب ، وإن قبلتها دخل علي في ديني ما أكرهه فقلت : إن هذا المال عظيم في عينيه فإذا دعيت لقبضها فقل لم يكن هذا أملي من أمير المؤمنين ، فدعي ليقبضها فقال ذلك ، فرفع إليه خبره فحبس الجائزة ، قال : وكان أبو حنيفة لا يكاد يشاور في أمره غيري ^(٥) .

وروى أيضا بسنده إلى يحيى بن نصر قال : كان أبو حنيفة - رحمه الله - من أزهد الناس في درهم يأخذه من السلطان لقد أمر له أمير المؤمنين بجائزة مائتي دينار فما قبلها ^(٦) .

(١) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي ، أبو يوسف ، صاحب الإمام أبي حنيفة ، وتلميذه وأول من نشر مذهبه ، كان فقيها علامة ، من حفاظ الحديث . الأعلام ١٩٣/٨ .

(٢) هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري مولاهم ، أبو بكر الصنعائي من حفاظ الحديث الثقات (ت ٢١١ هـ) . الأعلام ٣٥٣/٣ .

(٣) أخبار أبي حنيفة وأصحابه ص ٣٥ .

(٤) خارجة بن مصعب ، الإمام العالم المحدث ، شيخ خراسان (ت ١٦٨ هـ) . سير أعلام ٣٢٦/٧ .

(٥) مناقب أبي حنيفة ١٨٧/١ - ١٨٨ .

(٦) المصدر نفسه ١٨٩/١ .

وروى الصيمري إلى زيد بن أبي الزرقاء ^(١) يقول : قال رجل لأبي حنيفة : تعرض عليك الدنيا ولك عيال ! فقال : الله للعيال ! وإنما قوتي في الشهر درهمان ، فما جمعي لمن يسألني الله عن الجمع له إن أطاعوا الله أو عصوه ، فإن رزق الله غاد ورائح على العصاة والمطيعين ، ثم يقول : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ^(٢) " (٣) .

نفهم من النصوص السابقة أن الإمام أبا حنيفة علّم من الأعلام الزهاد ، ولكن زهده وإعراضه عن الدنيا ومباهجها ليس معناه أنه يقعد عن الكسب والعمل ، أو يهجر المال والعيال .. لأن الإمام أبا حنيفة بجانب كونه زاهداً كان كريماً واسع الكرم ، حسن المواساة لإخوانه ، فهو ينفق ويعاون ويهدي ، ويتفضل بالمعروف على كل من يتصل به قدر طاقته ووسعه ، ولعل غناه قد عاونه على ذلك الكرم كل المعاونة ، فهو إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها ، وإذا لبس ثوباً جديداً كسا بقدر ثمنه ، وكان يتصدق بأكثر من نصف طعامه ^(٤) . وكل ذلك فضل من الله عليه ، لأنه كان يعمل ويسعى في طلب الرزق الحلال في هذه الحياة ، حيث كان خزازاً - كما هو واضح من سيرته - ، ولديه محل ومعمل لحياكة الخبز ، وعنده عمال وأجراء ...

وقد حدثنا الخطيب البغدادي أن أبا حنيفة كان يجمع أرباح التجارة عنده من سنة إلى سنة أخرى ، ثم يشتري بها حوائج الشيوخ والمحدثين وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم ، ثم يدفع باقي الدنانير والأرباح إليهم ويقول : أنفقوا في حوائجكم ، ولا تحمدوا إلا الله ﷻ ، فإني ما أعطيتكم من مالي شيئاً ولكن من فضل الله عليّ فيكم ، وهذه أرباح بضائعكم ، فإنه والله ما يجريه الله لكم على يدي فما في رزق الله حق لغيره ^(٥) .

وحينما رأى أبو حنيفة ملابس بالية على بعض جلسائه فأعطاه الدراهم ، وأمره أن يغير حاله ، كما ذكر ذلك الموفق المكي عن الحسن بن زياد قال : رأى أبو حنيفة على بعض جلسائه ثياباً رثة فأمره أن يجلس فجلس ، حتى تفرق الناس وبقي وحده ، فقال له : ارفع المصلى وخذ ما تحته ، فرفع الرجل المصلى وكان تحته ألف درهم ، فقال له : خذ هذه

(١) زيد بن أبي الزرقاء ، الإمام القدوة ، أبو محمد الموصلي (ت ١٩٧ هـ) . سير أعلام ٣١٧/٩ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية (٢٢) .

(٣) أخبار أبي حنيفة وأصحابه ص ٣٧ .

(٤) مناقب أبي حنيفة ٢٣٧/١ ، ٢٤٠ .

(٥) تاريخ بغداد ١٣ / ٣٦٠ ، ومناقب أبي حنيفة ٢٤١/١ ، وأخبار أبي حنيفة ص ٤٧ .

الدراهم فغير بها حالك؟ فقال الرجل إني موسر وأنا في نعمة ولست أحتاج إليها فقال له :
أما بلغك الحديث «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» ^(١) ؟ فينبغي لك أن تغير
حالك حتى لا يغتم بك صديقك " .

وصرح الإمام أبو حنيفة بأن التقوى ليست أن تترك الدنيا ، وإنما أن تملكها فإذا
ملكته وأنت عبد الله فأنت وما في يدك له ﷺ .

فيرى الإمام أنه ليس من التقوى أن تترك الدنيا أي بما فيها من متع وطيبات ، ولكن
أن تملكها ، أي إن استطعت أن تملكها فلا بأس بذلك ، وذلك سوف يمكنك من القيام
بالعبادات .

وهذا هو الصواب ، لأن العبد إذا كان متمكنا من الدنيا بأن ملك الأشياء والنقود
فإنه يستطيع الوصول إلى الله ﷻ بطرق شتى ، كالصدقة والحج والجهاد في سبيل الله ،
والتيسير على المعسرين ، والتبرع للمساكين والمحتاجين ، وهكذا يكون هو وماله لله تعالى .
ومن هنا نقول : إنه ليس من الزهد ترك الدنيا بل علينا أن نكد ونعمل ما في وسعنا
حتى نقوى على مواجهة الدنيا بما فيها ، ولا نتركها لأعداء الله وأعداء الأمة الإسلامية ،
والله ﷻ يقول : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ
كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(٢) .

٥- الورع

روى المكي بسنده إلى حفص بن عبد الرحمن - شريك أبي حنيفة - وكان أبو
حنيفة يجهز عليه ، فبعث إليه في رفقة بمتاع ، وأعلمه أن في ثوب كذا وكذا عيبا ، فإذا بعته
فبين ، فباع حفص المتاع ونسي أن يبين ، ولم يعلم لمن باعه ، فلما علم أبو حنيفة تصدق
بالمتاع كله ، وكان ثمنه ثلاثين ألف درهم ^(٣) .

وروى بسنده إلى يزيد بن هارون ^(٤) قال : كتبت عن ألف حملت عنهم العلم ، فما
رأيت والله أشد ورعا من أبي حنيفة ولا أحفظ للسانه .

(١) سبق تخريجه في ص ٧٥ .

(٢) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٣) مناقب أبي حنيفة ١/١٦٨ ، وتبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة ص ١١٨ .

(٤) يزيد بن هارون بن زاذي ، الإمام القدوة ، شيخ الإسلام ، أبو خالد السلمي مولاهم الواسطي ، الحافظ ،

(ت ٢٠٦ هـ) سير أعلام النبلاء ٩/٣٥٨ .

ولهذا ، قال حفص بن عبد الرحمن : جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنسك وأهل الورع ، فلم أر أحدا فيهم أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة . وقال أيضا - وقد سبق أنه كان شريكه في التجارة - في طول ما صحبت أبا حنيفة وخالطه لم أره يعلن بخلاف ما يسر ، ولم أر أحدا يتوقى مما لا خطر له مثل ما كان يتوقاه ، وكان إذا دخلت عليه شبهة من أي شيء أخرج من قلبه ذلك ولو بجميع ماله ^(١) .

وقال الحسن بن صالح : كان أبو حنيفة - رحمه الله - شديد الورع ، هائبا للحرام تاركا لكثير من الحلال مخافة الشبهة ، ما رأيت قط أشد صيانة لنفسه وعلمه منه ، وكان جهازه كله إلى قبره ^(٢) .

وقال عبد الله بن المبارك إذا سمعت الرجل ينال من أبي حنيفة لم أحب أن أراه ، ولا أجالسه مخافة أن يتزل به من آيات الله تعالى فيعجل بي معه ، اللهم تعلم أني ما أرضى ما يذكر به ، وما يذكره أحد إلا وهو خير منه ، كان والله ورعا حافظا للسانه ، طيب المطعم مع علم والله كثير واسع ^(٣) .

وقال ابن عيينة : قال ابن جريج بلغني عن النعمان فقيه أهل الكوفة أنه كان شديد الورع ، صائنا لدينه ولعلمه ، ولا يؤثر أهل الدنيا على أهل الآخرة ^(٤) .

وبهذا الخلق الرفيع جعل المعاصرين لأبي حنيفة من الأكابر يمدحون - كما تقدم - فيه ، ويشنون عليه ، ذلك أن الورع مقام شريف يرتقي إليه من كان متصفا بالتقوى وخشية الله ﷻ ، وقد كان الإمام أبو حنيفة - فعلا - أسبق من الصوفية في هذا المقام .

وهذا ليس بغريب على الزهاد الأوائل ، فأبو بكر الصديق ﷺ من الأعلام المشتهرين بالورع الشديد ، فهو الذي لم يكن ليأكل من طعام قبل أن يسأل عنه ويتحرى مصدره ، فإن وجد فيه شبهة امتنع عن تناوله ، كما حدث مع خادمه الذي قدم له طعاما أخذه بدل رقي مارسه لقوم في جاهليته ، وأكل منه أبو بكر لقمة ، ولما عرف تقيأها ، وأقسم أنها لو لم تخرج إلا مع نفسه لأخرجها .

(١) مناقب أبي حنيفة ١/١٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ١/١٨١ .

(٣) المصدر نفسه ١/١٨٠ .

(٤) المصدر نفسه ١/١٨٢ .

وما حصل لأبي حنيفة أنه تصدق بمال حلال خالطه حرام دون علمه - وإن بلغ ذلك آلاف من الدرهم - وأنه إذا دخلت عليه شبهة من أي شيء أخرج ذلك من قلبه ولو بجميع ماله فهو سيرة من سير السلف الصالح ، وثمرة الامتثال لله ﷻ حيث يقول الله في كتابه العزيز : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾^(١) واتباع سنة رسول الله ﷺ حينما حث على الناس فقال : «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا..»^(٢) .

٦- الخوف والرجاء

قال أسد بن عمرو^(٣) : كان بكاء أبو حنيفة يسمع بالليل حتى يرحمه جيرانه^(٤) ، وقال وكيع : كان والله عظيم الأمانة ، وكان الله تعالى في قلبه حليلاً كبيراً ..^(٥) وقال يحيى بن القطان : كنت إذا نظرت إليه عرفت أنه يتقي الله ﷻ^(٦) ، وقام ليلة بهذه الآية يرددها ويبكي ويتضرع ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ ﴾^(٧) وبلغ في ليلة ﴿ الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾^(٨) فرددها حتى أصبح^(٩) .

وقال يزيد بن الليث - وكان من الأخيار - : قرأ الإمام ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ وأبو حنيفة خلفه ، فلما فرغ نظرت إليه فإذا هو جالس يتفكر ويتنفس ، فقامت لئلا ينشغل قلبه ، وتركت القنديل وزيته قليل ، ثم جئت وقد طلع الفجر وهو قائم ، قد أخذ بلحية نفسه وهو يقول : يا من يجزي بمثقال ذرة خيراً ، ويا من يجزي بمثقال ذرة شراً أجز النعمان عندك من النار وما يقرب منها ، وأدخله في سعة رحمتك ، قال : فأتيت فإذا القنديل يزهر وهو قائم ، فلما دخلت قال لي : تريد أن تأخذ القنديل ؟ قلت : قد أذنت لصلاة الغداة ،

(١) سورة المؤمنون ، الآية (٥١) .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ، ٧٠٣/٢ (ح ١٠١٥) .

(٣) هو أسد بن عمرو بن عامر القرشي البجلي ، أبو المنذر ، قاض من أهل الكوفة ، من أصحاب أبي حنيفة ، وهو أول من كتب كتب أبي حنيفة (ت ١٨٨هـ) . الأعلام ١/ ٢٩٨ .

(٤) تاريخ بغداد ١٣/ ٣٥٤ .

(٥) المصدر نفسه ١٣/ ٣٥٨ .

(٦) عقود الجمان ص ٢٢٤ .

(٧) سورة القمر ، الآية (٤٦) .

(٨) سورة التكاثر ، الآية (١) .

(٩) عقود الجمان ص ٢٣٠ .

قال : أكتُم ما رأيْت ، وركع ركعتي الفجر ، وجلس حتى أقيمت الصلاة ، وصلى معنا الغداة على وضوء أول الليل " (١) .

وفي النصوص السابقة دليل واضح على أن أبا حنيفة له حال متقدم على أحوال الصوفية في الخوف والرجاء ، حيث كان - رحمه الله - يخاف الله ﷻ ويرجو لقاءه وسعة رحمته ، وهذا هو منهج سلف هذه الأمة ، وهذا ما فعله الرسول ﷺ حيث كان يدعو بدعاء جامع كدعائه ﷺ » .. اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيتَه لي خيرا « (٢) .

وهكذا ينبغي أن يكون العبد دائما بين حالي الخوف والرجاء ؛ فالخوف يردعه عن المعصية ، والرجاء يدفعه إلى الجد والعمل مما يضبط سلوكه ويحصنه ، ويجعله فيمن رضي عنهم الله وأحبهم ، فالمؤمن يراعي قاعدة الالتزام بفعل المعروف والانتفاء عن المنكر خوفا من النار وطمعا بجنات النعيم .

فالمؤمنون العابدون الذاكرون هم من واطبوا على عبادة الله ﷻ ، وهذه الشعيرة التي جعلت جنوبهم لا تستقر في مضاجعها رغبة ورهبة ، ولقد وصفهم الله ﷻ في قوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣) .

٧- السماع

كان الإمام أبو حنيفة يكره الغناء ويجعل سماعه من الذنوب ، وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة ، كإبراهيم النخعي ، والشعبي ، وحمام بن أبي سليمان ، وسفيان الثوري ، وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك (٤) .

(١) مناقب أبي حنيفة ٢١٥/١ - ٢١٦ .

(٢) صحيح ابن ماجة في الدعاء ، باب الجوامع من الدعاء ٢٥٧/٣ (ح ٣١١٦) .

(٣) سورة السجدة ، الآيتان (١٥ - ١٦) .

(٤) كشف القناع لأبي العباس القرطبي ص ٥٠ - ٥١ ، وتلييس إبليس ص ٢٨٢ .

كما لا يعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهية ذلك والمنع منه ، إلا ما روى عن عبيد الله بن الحسن العنبري ^(١) أنه كان لا يرى به بأساً ^(٢) .
وما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة وأهل الكوفة والبصرة من تحريم السماع الذي هو الغناء موافق لما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة .
فمن نصوص الكتاب ما يلي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ^(٣) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في تفسير هذه الآية : الغناء والذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات ^(٤) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ ^(٥) قال مجاهد في تفسير قوله تعالى : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ الغناء والمزامير ^(٦) .

٣- وقوله ﷻ : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ ^(٧) قال ابن عباس : هو الغناء بالحميرية اسمدي لنا ، أي تغني لنا ^(٨) . وقال مجاهد : هو الغناء ، يقول أهل اليمن سمدي فلان إذا غنى ^(٩) . فذم المعرض عما يجب من استماع المشتغل عنه باستماع الغناء ، كما هو فعل كثير من الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا

(١) هو : عبيد الله بن الحسن العنبري البصري ، ولي قضاء البصرة ، ثقة فقيه ، ذكر ابن حجر أنه أتهم في مسائل ورجع عنها ، وقال أبو العباس القرطبي : مبتدع في اعتقاده غير مرضي في علمه (ت ١٩٨ هـ) انظر : تهذيب التهذيب ٨/٧ - ٩ ، وكشف القناع للقرطبي .

(٢) كشف القناع ص ٥٥ ، وتلخيص إبليس ص ٢٨٢ .

(٣) سورة لقمان ، الآية (٦) .

(٤) رواه ابن جرير الطبري ٦١/٢١ ، وابن أبي شيبة في المصنف ٣٠٩/٦ ، والحاكم في المستدرک وصححه ، ووافقه الذهبي ٤١١/٢ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية (٦٤) .

(٦) رواه ابن جرير الطبري ١١٨/١١ .

(٧) سورة النجم ، الآيات (٥٩ - ٦١) .

(٨) رواه ابن جرير الطبري ١٨/٢٨ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٢٣/١٠ .

(٩) تلخيص إبليس ص ٢٨٥ .

الشهوات ، وحال كثير من المتنسكة في اعتيادهم بسماع المكاء والتصدية عن سماع قول الله تعالى ^(١) .

أما النصوص من السنة فكثيرة منها :

١- عن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري سمع النبي ﷺ يقول : " ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحرّ والحريم والخمر والمعازف ، وليتزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم - يعني الفقير - لحاجة ، فيقولوا : ارجع إلينا غدا فيبيتهم الله ، ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة " ^(٢) .

٢- عن عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " في هذه الأمة خسف ومسح وقذف ، فقال رجل من المسلمين يا رسول الله ومتى ذلك ؟ قال : إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمر " ^(٣) .

٣ - عن نافع مولى ابن عمر أن عمر سمع صوت زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنه ، وعدل راحلته عن الطريق ، وهو يقول : يا نافع أسمع ؟ فأقول : نعم ، فيمضي حتى قلت : لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله ﷺ وسمع صوت زمارة راع فوضع مثل هذا " ^(٤) .

لقد كان الإمام أبو حنيفة - إذن - كغيره من علماء السلف له موقف في الدفاع عن العقيدة الصحيحة ، حيث جعل الاستماع إلى الغناء الصوفي من الذنوب والمعاصي ، وهو مذهب أهل الكوفة أيضا ، فموقف الإمام أبي حنيفة في هذا الموضوع بمثابة الرد على الصوفية الذين اعتقدوا حل هذا الأمر ، لأنه يحيي القلوب على حسب زعمهم .

والحق أن نقول : إنه ينبت النفاق والمعصية في القلب ويميته ، ويدعو إلى الفواحش والظلم ، ويصد عن حقيقة ذكر الله ﷻ ، ولهذا ذم السلف هذا النوع من السماع وآلاته ،

(١) الاستقامة ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢٩/١ .

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح في الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ، ٣٥ / ١١ (ح ٥٥٩٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ، باب ما جاء في أشرار الساعة ٤/٤٩٣ - ٤٩٤ ، وأورده الألباني في صحيح الترمذي ٢٤٢/٢ (١٨٠١) .

(٤) رواه أحمد ٦/٢٤٥ - ٢٤٦ (ح ٤٥٢٥) وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح . وأبو داود ٤/٢٨٠ - ٢٨٢ والبيهقي في السنن ١٠/٢٢٢ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فمذهب الأئمة الأربعة أن آلات اللهو كلها حرام ، فقد ثبت في صحيح البخاري وغيره ، أن النبي ﷺ أخبر أنه سيكون من أمته من يستحل الحر والحرير ، والخمر والمعازف ، وذكر أنهم يمسحون قردة وخنازير " (١) .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥٧٦/١١ .

المبحث الثالث

بطلان ما نسب إلى الإمام أبي حنيفة في التصوف

١- حضور الخضر إلى الإمام أبي حنيفة

" ذكر الشعراني في كتابه : معارج الألباب عن بعض شيوخه أنه ذكر له أن الخضر عليه السلام كان يحضر مجلس فقه أبي حنيفة في كل يوم بعد صلاة الصبح يتعلم منه الشريعة ، فلما مات (أي أبو حنيفة) سأل الخضر ربه أن يرد روح أبي حنيفة إلى قبره ، حيث يتم له علم الشريعة ، وأن الخضر كان يأتي إليه كل يوم على عادته يسمع منه الشريعة داخل القبر ، وأقام على ذلك خمس عشرة سنة حتى أكمل علم الشريعة " ^(١) .

التعليق على النص بالأمر الآتية :

أولا : إذا نظرنا في الرواية فإنها خالية من الاسناد الصحيح ، وقد جاءت عن طريق الصوفي عن شيوخه الصوفية ، فهي رواية مبتدعة لتحويل الأمر الصوفي ، وربما تأثرت بكتابات الحكيم الترمذي الصوفي ، - في أواخر القرن الثالث الهجري - حيث كان له دور في تأليف العلوم الصوفية المنسوبة إلى الخضر عليه السلام ، فقد ذكر في كتابه " ختم الولاية " أن الخضر عليه السلام كان منذ بدء الخلق قد عاين شأن الصوفية وأوليائهم ، فأحب من ذلك الحين أن يدركهم ، فأعطي الحياة حتى يبلغهم ، ويعيش معهم فيحشر في زمركم ، ويكون ذلك تبعا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر أن الخضر رجل من قرن إبراهيم عليه السلام وذو القرنين ، وكان في مقدمة جنده ، حيث طلب ذو القرنين عين الحياة ففاته وأصابها الخضر " ^(٢) .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الخضر رمز التصوف ومرجع القصص الصوفية ، وصارت دعاوى لقياء الخضر مشهورة عندهم ، ويقول محمد أحمد لوج : " فما من صوفي يريد تشريع ذكر من الأذكار ، أو صلاة من الصلوات إلا ويدعي أنه لقي الخضر ، وأنه هو الذي أعطاه إياه ، وما من أحد منهم يرتكب جريمة خلقية أو جنائية ، أو يهمل فريضة من فرائض الله إلا ويواجهه منتقديه بأن صاحب الظاهر ليس من حقه أن ينتقد صاحب المقام

(١) معارج الألباب ص ٤٤ نقلا عن الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) ختم الأولياء لأبي عبد الله الترمذي ، تحقيق عثمان إسماعيل يحي ، ص ١٢٥ .

الخضري ، فمتى ما اشتهر شخص منهم بمخالفة الأوامر والنواهي الشرعية قالوا عنه : كان خضري المقام ، أو كان يسير على سنن الخضر " (١) .

ثانيا : وأما من حيث الموضوع فهو بعيد كل البعد عن العقيدة الإسلامية الصافية ، والمنطق العقلي ، فهو مخالف للنقل والعقل .

ثالثا : في النص سوء أدب مع الرسول ﷺ وأصحابه الكرام - رضوان الله عليهم - الذين هم أعلم الناس بالشرعية ، ونتساءل لماذا لم يتعلم الخضر الشريعة على يد محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين ، إذا كانوا يزعمون أنه كان حيا ذلك الوقت ؟ ولماذا لم يحضر الدروس على أيدي الخلفاء الراشدين وهم أعلم الناس بالشرعية بعد رسول الله ﷺ ، ولقد قال أبو حنيفة نفسه دعوا قولي لقول أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أعلم بالتزويل ، فإذا كان أبو حنيفة يأمرنا أن نترك قوله لقول رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام فكيف يترك الخضر المزعوم تعلم الشريعة عن الرسول ﷺ وأصحابه ، وينتظر حيا حتى يأتي أبو حنيفة ليتعلم منه الشريعة .. (٢)

فالحكاية - إذن - مكذوبة على الإمام أبي حنيفة ، لأنها تذلل مكانته من خاتم الأنبياء والرسول وأصحابه ، بل تحقر من قدره كإمام من الأئمة المشهود لهم بالخير والصلاح والتقوى ، كما أن الحكاية مكذوبة أيضا على الخضر عليه السلام إذ كيف يليق به هذا التلقي عند القبر وهو نبي من أنبياء الله ﷻ على أرجح الأقوال .

رابعا : في النص دليل على أن الخضر عليه السلام ما زال حيا ولم يموت ، وهو مخالف لما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أن الخضر عليه السلام قد مات (٣) .

من هؤلاء العلماء : البخاري وإبراهيم الحربي الذي سئل عن بقائه فقال : " من أحوال علي غائب لم ينتصف منه ، وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان " (٤) ، وكذلك ابن الجوزي (٥) حيث حكم على الأحاديث الواردة في حياته بالبطلان ، وقد ألف كتابا مستقلا

(١) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ، عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة ، لمحمد أحمد لوج ، ط ١ الرياض (دار الهجرة ١٤١٦هـ) ٣٨٦/١ .

(٢) انظر : الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص ١٣٨ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٤١/١١ .

(٤) انظر : المرجع نفسه .

(٥) انظر : الموضوعات ٩٩/١ . وتفسير روح المعاني ٣٢٠/١٥ .

في الموضوع أورد فيه أدلة دامغة على موت الخضر ، والقاضي أبو بكر بن العربي ^(١) وأبو حيان الأندلسي ^(٢) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : " والصواب الذي عليه محققو العلماء أن إلياس والخضر ماتا " ^(٣) .

وأدلة القائلين بموت الخضر عليه السلام كثيرة منها :

١- قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ ^(٤) نقل ابن كثير عن ابن الجوزي قوله : " فالخضر إن كان بشرا فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح " ثم قال ابن كثير : " والأصل عدمه حتى يثبت ، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله " ^(٥) .

٢- قوله ﷺ في آخر حياته : " أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد " ^(٦) .

ولما سئل البخاري عن الخضر وإلياس هل هما حيان ؟ قال : " كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ : أرأيتمكم .. فذكره " ^(٧) .

٣- قوله ﷺ يوم بدر : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض " ^(٨) .

قال ابن القيم : " سئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتي النبي ﷺ ويجاهد بين يديه ويتعلم منه ، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر : " اللهم إن تهلك هذه العصابة .. فذكر الحديث " ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين كان الخضر حينئذ ؟ " ^(٩) .

(١) انظر : الجامع الأحكام ٤١/١١ .

(٢) انظر : البحر المحيط ١٤٧/٦ .

(٣) منهاج السنة النبوية ٩٧/١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية (٣٤) .

(٥) البداية والنهاية ٣٣٤/١ .

(٦) أخرجه البخاري في العلم ، باب السمر في العلم ٥٨/١ (ح ١١٦) ومسلم في فضائل الصحابة باب (٥٣)

١٩٦٥/٤ (ح ٢٥٣٧) .

(٧) المنار المنيف ص ٦٧ .

(٨) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ١٣٨٣/٣ .

(٩) المنار المنيف ص ٦٨ .

ولا شك أن عدم مجيئه إلى النبي ﷺ لمبايعته والصلاة معه ، والانضمام إلى صفه في الجهاد في سبيل الله لمن الأدلة القوية الدالة على موته ، وعلى هذا يكون الخضر صاحب موسى قد مات ، لأنه لو كان حيا للزمه اتباع النبي ﷺ والإيمان به .

وقال ابن حجر : " وذكر ابن الجوزي في جزئه الذي جمعه في ذلك عن أبي يعلى بن الفراء الحنبلي قال : سئل بعض أصحابنا عن الخضر ، هل مات ؟ فقال : نعم ، وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن العبادي ، وكان يحتج بأنه لو كان حيا لجأ إلى النبي ﷺ ..

ثم استدلل بما أخرجه أحمد من طريق مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني " (١) .

قال : فإذا كان هذا هو حق موسى ، فكيف لم يتبعه الخضر لو كان حيا ، فيصلي معه الجمعة والجماعة ، ويجاهد تحت رايته ، كما ثبت أن عيسى يصلي خلف إمام هذه الأمة .. ؟ " (٢) .

وبذلك نصل إلى أن ما ذكر من التقاء الخضر عليه السلام وتعلمه من الإمام أبو حنيفة مخالف للعقل والنقل ، وما ذلك إلا حكاية صوفية يريدون منها تهويل الفكر الصوفي ، ولفت أنظار الناس أن الإمام أبا حنيفة - باعتباره من الأئمة الأربعة - كان واحدا من أقطاب الصوفية وهو منهم بريء ، وهو أيضا بريء من هذه الحكاية المفترى عليه .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٥٠/٥ .

(٢) الزهر النضر في نبأ الخضر ، لابن حجر العسقلاني ، تعليق سمير حسين حلبي ، ط ١ ، بيروت (دار الكتب

٢- الرؤى المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة

" قال أبو عبد الله محمد ^(١) بن الحسن الشافعي في كتابه " مجمع الأخبار " : رأيت في بعض الكتب أن الإمام أبا حنيفة قال : رأيت رب العزة في المنام تسعا وتسعين مرة ^(٢) ، فقلت في نفسي : إن رأيت تمام المائة لأسأله بم ينجو الخلائق من عذابك يوم القيامة ؟ قال : فرأيته تبارك وتعالى فقلت : يا رب جل ثناؤك بم ينجو الخلائق من عذابك يوم القيامة ؟ فقال ﷺ : من قال بالغداة والعشي : " سبحان الله الأبدي الأبد ، سبحان الله الواحد الأحد ، سبحان الله الفرد الصمد ، سبحان الله رافع السماء بغير عمد ، سبحان من بسط الأرض على ماء جمد ، سبحان من قسم الرزق ولم ينس أحدا ، سبحان من خلق الخلق وأحصاهم عددا ، سبحان من لم يتخذ زوجة ولا ولدا ، سبحان الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد نجا من عذابي " ^(٣) .

التعليق على النص بالأمور الآتية :

أولا : هذا الكلام المنسوب إلى أبي حنيفة لا يصح لخلوه من السند ، إذ أخبر القائل من خلال ما رآه في بعض الكتب ، كما لا يصح أيضا من حيث الموضوع ، لأن الأدعية المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة التي رثيت في المنام لا يحتج بها في مجال العقيدة والشريعة ، وإن كانت تتحدث عن بعض أسماء الله وصفاته ، لأن منهج السلف الصالح في أسماء الله وصفاته هو الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه العزيز ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكيف ولا تمثيل ، وكلمة " الأبدي الأبد " لم يصف الله به نفسه ﷻ ولم يصفه به رسوله ﷺ ، وإن صحت الكلمة - معنى - فيبقى الكلام في النص ، لأنه وارد عن الرؤية وهي ليست من الوحي الصحيح .

ثانيا : في النص إشارة إلى أحد المصادر عند الصوفية ، وهي الرؤى والأحلام ، حيث يتلقون الشرع - حسب زعمهم - ممن يرونهم يقظة أو مناما ، وهذا مخالف لما اعتقده

(١) هو محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني ، مفسر ، عالم بأصول الفقه ، من شيوخ الشافعية (ت ٧٧٦ هـ) قال ابن عماد : كتب الكثير بخطه نسخا وتصنيفا بخط حسن ، من كتبه " مجمع الأخبار في مناقب الأخيار " مخطوطة بدار الكتب ، انظر : الأعلام ٨٧/٦ .

(٢) حياة الإمام أبو حنيفة ، للسيد عفيفي ، القاهرة (المطبعة السلفية) ص ٢٢٨ ، وانظر : شرح كتاب الفقه الأكبر ص ٢١٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٨ .

السلف الصالح من هذه الأمة ، لأن الرؤى والأحلام - عندهم - لا تعتبر دليلاً شرعياً ، ولا يحتج بها في إثبات العقيدة ، أو في جواز فعل أو ترك ؛ ذلك أن الشرع قد حدد أدلة الأحكام في الكتاب والسنة ، وما دلا عليه من الإجماع والقياس الصحيح ، ولم يجعل من أدلة أحكامه رؤيا شخص من الناس غير المعصومين ، حيث أمر الله ﷻ أن يتبع ما أنزل منه وما أنزله على رسوله ﷺ فقال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(١) وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ^(٢) .

ثم إن منابع الرؤيا متنوعة : منها ما هو روحاني ، ومنها ما هو نفساني ، ومنها ما هو شيطاني ، لقوله ﷺ : « الرؤيا ثلاث : فبشرى من الله ، وحديث النفس ، وتخويف من الشيطان » ^(٣) ، ولقوله ﷺ في حديث آخر : « الرؤيا ثلاث : منها أهوايل من الشيطان ليحزن ابن آدم ، ومنها ما يهيم به الرجل في يقظته فيراه في منامه ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » ^(٤) .

والتمييز بين هذه الأنواع الثلاثة لا يمكن إلا بميزان الشرع ؛ فالرؤيا الصادقة ، هي من دلائل الهداية ، وهي من الله ﷻ خاصة ، ورؤيا الأنبياء وحي ، وهي حق لأن الوحي لا يدخله خلل ، لأنه محفوظ من الشيطان ، وهذا باتفاق الأمة ^(٥) .

وقال الإمام الشاطبي في هذا الموضوع : " وأضعف هؤلاء (أي المبتدعة) احتجاجا قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المنامات ، وأقبلوا وأعرضوا بسببها ، فيقولون : رأينا فلانا الرجل الصالح (أي في المنام) فقال لنا : اتركوا كذا واعملوا كذا وكذا ، ويتفق مثل هذا كثيرا للمتمرسين برسم التصوف ، وربما قال بعضهم : رأيت النبي ﷺ في النوم ، فقال لي كذا وأمرني بكذا ، فيعمل بها ويترك بها معرضاً عن الحدود الموضوعة في الشريعة وهو خطأ ، لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعاً على حال ، إلا أن تعرض على ما في أيدينا

(١) سورة الأعراف ، الآية (٣) .

(٢) سورة الحشر ، الآية (٧) .

(٣) صحيح سنن ابن ماجه في الرؤيا ، باب الرؤيا ثلاث ٢٧٦/٣ (٣١٦٨) .

(٤) صحيح سنن ابن ماجه في الرؤيا أيضاً ٢٧٦/٣ (٣١٦٩) .

(٥) انظر : موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ... للقرضاوي ص ١٢٤ - ١٢٥ .

من الأحكام الشرعية ، فإن سوغها عمل بمقتضاها ، وإلا وجب تركها والإعراض عنها ، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة ، وأما استفادة الأحكام فلا .

كما يحكى عن الكناني - رحمه الله - قال : رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت : ادع الله ألا يميت قلبي ، فقال : " قل كل يوم أربعين مرة : يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت " . فهذا كلام حسن لا إشكال في صحته ، وكون الذكر يحيي القلب صحيح شرعا ، وفائدة الرؤيا التنبيه على الخير ، وإنما يبقى الكلام في التحديد بالأربعين ، وإذا لم يوجد على اللزوم استقام " (١) .

فلو رأى في النوم قائلا يقول : إن فلانا سرق فاقطعه ، أو عالم فاسأله ، أو اعمل بما يقول لك ، أو فلان زنى فحدّه وما أشبه ذلك .. لم يصح له العمل ، حتى يقوم له الشاهد في اليقظة ، وإلا كان عاملا بغير شريعة ، إذ ليس بعد رسول الله ﷺ وحي (٢) .

وجملة القول : إن الرؤى والأحلام لا يحتج بها في تقرير عقيدة ولا شريعة ، ولا تكفي النجاة في الآخرة من عذاب الله ﷻ بمجرد الأذكار - بصيغة واحدة - يقرأها الإنسان في الغداة والعشي ما لم يكن معه الإيمان والتقوى والعمل الصالح ، مع توفر شروط قبول الأعمال وهما : الإخلاص والموافقة لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ .

فالأذكار المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة هي نوع من الأذكار التي تدخل ضمن التشريعات الصوفية ، والتي بثها مشايخهم على أتباعهم ، فاستبدلوها بالأذكار النبوية الثابتة وانحرفوا عن الطريق الصحيح ، وعن العقيدة الصحيحة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد : " ومن أشد الناس عيبا من يتخذ حزبا ليس بمأثور عن النبي ﷺ وإن كان حزبا لبعض المشايخ ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم ، وإمام الخلق وحجة الله على عباده " (٣) .

ثالثا : في النص كلام عن رؤية الله ﷻ في المنام ؛ وهي قضية اتفق الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون من بعدهم على جوازها ووقوعها ، لورود الأدلة على ذلك حيث روى أهل العلم حديثا من طرق كثيرة أنه ﷻ رأى ربه في المنام ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) انظر : الاعتصام للشاطي ٢٦٠/١ .

(٢) انظر : المرجع نفسه .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥٢٥/٢٢ .

أن النبي ﷺ قال : " رأيت ربي في أحسن صورة فقال : يا محمد ! قلت : لبيك وسعديك قال : فيم يختصم الملائة الأعلى ؟ قلت : يا رب لا أدري ، قال : فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما بين المشرق والمغرب ، فقال : يا محمد ! قلت : لبيك ربي وسعديك ! قال : فيم يختصم الملائة الأعلى ؟ قال قلت يا رب في الكفارات : المشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء على المكاره ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، من حافظ عليهن عاش بخير ومات بخير ، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه " (١) .

قال الدكتور أحمد بن ناصر الحمد معلقا : " في الحديث دليل على رؤية محمد ﷺ لربه مناما .. والذي نقل عن الإمام أحمد من إثبات رؤية النبي ﷺ لربه إنما يعني رؤية المنام فإنه سئل عن ذلك فقال : رآه فإن رؤيا الأنبياء حق ، وكان لفظ أحمد كلفظ ابن عباس رضي الله عنهما ، هذا في حق النبي ﷺ .

ويجوز لغيره من المؤمنين رؤيته في المنام ومخاطبته ، واستدل الدكتور أحمد بقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) حيث قال رحمه الله : " وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صورة منتزعة على قدر إيمانه ويقينه ، فإذا كان إيمانه صحيحا لم يره إلا في صورة حسنة ، وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه ، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة ، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق " (٣) .

وعقب شيخ الإسلام موضحا : " .. ولكن لا بد أن تكون الصورة التي رآه فيها مناسبة ومشابهة لا اعتقاده في ربه ، فإن كان إيمانه واعتقاده مطابقا أتى من الصور وسمع من الكلام ما يناسب ذلك ، وإلا كان بالعكس .

قال بعض المشايخ : إذا رأى العبد ربه في صورة كانت تلك الصورة حجابا بينه وبين الله ، وما زال الصالحون وغيرهم يرون ربهم في المنام ويخاطبهم ، وما أظن عاقلا ينكر ذلك ، فإن وجود هذا مما لا يمكن دفعه ، إذ الرؤيا تقع للإنسان بغير اختياره وهذه مسألة معروفة ، وقد ذكرها العلماء من أصحابنا وغيرهم في أصول الدين ، وحكوا عن طائفة من المعتزلة وغيرهم إنكار رؤية الله والنقل بذلك متواتر عمن رأى ربه في المنام ، ولكن لعلهم

(١) كتاب التوحيد ، لابن خزيمة ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها ، د/ أحمد بن ناصر الحمد ، ط ١ معهد البحوث العلمية وإحياء التراث

الإسلامي بجامعة أم القرى ١٤١١ هـ . ص ١٧٦ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٣٩٠ ، وانظر : شرح الفقه الأكبر ص ١١٣ .

قالوا لا يجوز أن يعتقد أنه رأى ربه في المنام ، فيكونون قد جعلوا مثل هذا من أضغاث الأحلام ، ويكون من فرط سلبهم ونفيهم نفوا أن تكون رؤية الله في المنام رؤية صحيحة كسائر ما يرى في المنام ، فهذا مما يقوله المتجهمه وهو باطل ومخالف لما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . بل ولما اتفق عليه عقلاء بني آدم ، وليس في رؤية في المنام نقص ولا عيب يتعلق به ﷺ ، وإنما ذلك بحسب حال الرائي وصحة إيمانه وفساده واستقامة حاله وانحرافه ، وقول من يقول : ما خطر بالبال أو دار في الخيال فالله بخلافه ، ونحو ذلك إذا حمل على مثل هذا كان محملا صحيحا ، فلا نعتقد أن ما تخيل للإنسان في منامه أو يقظته من الصور أن الله في نفسه مثل ذلك " (١) .

ونصل بذلك إلى أن رؤية الله ﷻ في المنام ومخاطبته من عباده المؤمنين لا غبار عليها، فهي جائزة لهم ، ولكن الرؤيا المنامية والأذكار المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة ليست بصحيحة ، بل هي نوع من الأوراد والرؤى التي تدخل ضمن التشريعات الصوفية .

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لشيخ الإسلام ٧٣/١ - ٧٤ .

٣- الهواتف المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة

ذكر ملا علي القاري بعض مناقب أبي حنيفة فقال : " وكان يقوم كل الليل وسمع هاتفا في الكعبة أن يا أبا حنيفة أخلصت خدمتي وأحسنست معرفتي فقد غفرت لك ولن تبعك إلى قيام الساعة " . وفسر ذلك القاري قائلا : " وفي آخر خزانة المفتين أنه حكى أن أبا حنيفة لما حج حجة الوداع ودخل الكعبة وقام بين العمودين على رجله اليمنى حتى قرأ نصف القرآن ، وركع وسجد ثم قام على رجله اليسرى ، وقد وضع قدمه اليمنى على ظهر رجله اليسرى حتى قرأ القرآن ، فلما سلم بكى وناجى وقال : إلهي ما عبدك هذا العبد الضعيف حق عبادتك ، ولكن عرفك حق معرفتك فهبه نقصان عبادته لكال معرفته ، فهتف هاتف من جانب البيت قد عرفت وأخلصت المعرفة ، وخدمت وأحسنست الخدمة ، فقد غفرناك ولمن تبعك وكان على مذهبك إلى قيام الساعة " (١) .

التعليق على النص بما يلي :

أولا : في النص رائحة من روائح المتصوفة الذين يعتبرون الهواتف وهي الأصوات التي يسمعها الشخص ولا يرى قائلها ، وهي مما لبس على الصوفية به ، حيث جعلوها من المصادر في التلقي عند هؤلاء القوم ، وبنوا عليها بعضا من معتقداهم وأعمالهم .

ولا شك أن هذا مخالف لما ذهب إليه أهل الحق من هذه الأمة ، حيث كان مصدرهم كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة ، وإجماع السلف الصالح .

ثانيا : إذا نظرنا في النص أيضا فإنه بعيد عن روح تعاليم ديننا الحنيف ؛ لأن الإسلام دين يسر ، فلا يكلف نفسا إلا وسعها ، ولم يأمر أن يعذب الإنسان نفسه ، كما أنه لم يحث على الشخص أن يصلي ويقف على رجل واحدة طول الليل ، لأن هذا العمل ما أنزل الله به من سلطان ، فهو من بدع الصوفية ، بل هو من تلاعب الشيطان بهم ، فليس الله بحاجة أن يتقرب الشخص إليه ﷺ بهذه الطريقة الصعبة ، وليس بما سبب الوصول إلى محبة الله ومرضاة الله ﷻ قال تعالى ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢) ، وإنما يرضى الله عن المؤمنين إذا عبدوا الله ﷻ كما أمرهم الله ورسوله ﷺ .

(١) شرح عين العلم أوزين الحلم ، لملا علي القاري ، بيروت (دار المعرفة) ٥٠/١ .

(٢) سورة الحج ، الآية (٧٨) .

ثالثا : إن صدور الأمر عن طريق الهواتف أو عن طريق الأحلام لا تعتبر حجة سواء في باب المعارف والاعتقادات أم في باب الأعمال والتعبادات ، وإنما يكون مصدرا عن الفكر الصوفي ، والشواهد على ذلك كثيرة ، منها : كما مر بنا في النص ، ومنها ما قاله أبو يزيد البسطامي عن نفسه فيقول : " خرجت أول مرة إلى الحج فغلبي الزحام ، وخرجت ثانية فغلبي البيت ، وثالثة ، وخرجت الرابعة فنوديت في بعض المتاهات : إلى أين يا أبا يزيد ؟ فقلت : إليه ، فناداني : خلفته ببسطام ! فنبهت عن غفلي " ^(١) . وهذا الهاتف هتف بأبي يزيد ودله على الشرك ، عياذا بالله ﷻ .

وروى أيضا عنه حيث يقول : " قعدت ليلة في محرابي فمددت رجلي ، فهتف بي هاتف ؛ من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب " ^(٢) .

ولما سئل إبراهيم بن أدهم كيف بدؤك ؟ قال : " كان أبي من ملوك خراسان وكنت شابا ، فركبت إلى الصيد فخرجت يوما على دابة لي ومعني كلب ، فأثرت أرنا أو ثعلبا ، فبينما أنا أطلبه إذ هتف بي هاتف لا أراه ، فقال : يا إبراهيم ألهذا خلقت أم أمرت ؟ ففزعت ووقفت ، ثم عدت فركضت الثانية ، ففعل بي مثل ذلك ثلاث مرات ، ثم هتف بي هاتف من قربوس السرج والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت . قال : فتزلت فصادفت راعيا لأبي يرعى الغنم فأخذت جبته الصوف .. " ^(٣) .

ففي هذا النص تصريح من أبي إسحاق أنه سمع الهاتف ولم يره ، وهو الذي دله على الطريق فالتزم به ، وهذا ليس بغريب على الصوفية الذين جاءوا بعده !

وروى أحمد بن محمد بن أبي سعدان ، وهو من أصحاب الجنيد والنوري قوله : " من سمع بأذنه حكى ، ومن سمع بقلبه وعى ، ومن عمل بما يسمع هدى واهتدى " ^(٤) . والهواتف من سماع الأذن .

وعلى ذلك نفهم من كلامهم أنهم كلما أخطأوا هتف بهم هاتف ليردهم إلى الطريق الصحيح ، وهذا قريب من حالة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) حيث إن الوحي يوجههم إن ارتكبوا محظورا مع أنهم معصومون من الخطأ .

(١) شطحات الصوفية ص ١٢٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٣٠ .

(٤) طبقات الصوفية ص ٤٢١ .

أما الأولياء فليسوا بمعصومين كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ؛ بل قد وقع أولياء الصوفية في الشرك والمعاصي ، فالصوفية حين جعلوا الهواتف من مصادر تلقيهم الشرع - حسب زعمهم - رفعوا منازلهم إلى منزلة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وهذا مناقض للعقيدة الصحيحة ، وغير جائز في الشرع . فالأنبياء لم يتلقوا الهواتف وإنما يتلقون الوحي من عند الله العليم الخبير .

وبهذا نصل إلى أن الهواتف المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة ليست صحيحة لأنها مناقضة لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة ، كما أن العمل الشاق المنسوب إليه ليس بصحيح أيضا لمخالفته لتعاليم ديننا الحنيف ، لأننا لم نأثر من كلام الإمام أبي حنيفة ، ولا من كلام أصحابه الأخيار الذي يحث على ذلك ، وهل من الشرع ختم القرآن كل ليلة كما رويت عن الإمام أبي حنيفة ؟ .

٤ - العبادة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة

قال الخطيب البغدادي :

١- " أخبرنا علي بن المحسن المعدل حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن يعقوب الكاغدي حدثنا أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن يعقوب بن الحارث الحارثي البخاري حدثنا أحمد بن الحسين البلخي حدثنا حماد بن قريش قال : سمعت أسد بن عمرو يقول : صلى أبو حنيفة فيما حفظ عليه صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء أربعين سنة ، فكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة ، وكان سمع بكأؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه ، وحفظ عليه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة " (١) .

وقال الخطيب أيضا :

٢- " أخبرنا الحسين بن علي بن محمد المعدل حدثنا القاضي أبو نصر محمد بن سهل النيسابوري حدثنا أحمد بن هارون الفقيه حدثني محمد بن المنذر بن سعيد الهروي حدثنا محمد بن سهل بن منصور المروزي قال حدثني أحمد بن إبراهيم قال سمعت منصور بن هاشم يقول : كنا مع عبد الله بن المبارك بالقادسية إذ جاءه رجل من أهل الكوفة فوقع في أبي حنيفة فقال له عبد الله : ويحك أتقع في رجل صلى خمسا وأربعين سنة خمس صلوات على وضوء واحد ، وكان يجمع القرآن في ركعتين في ليلة " (٢) .

التعليق :

إذا نظرنا في الرواية الأولى من حيث الإسناد فيه مجاهيل ، لأن كتاب الجرح والتعديل لم يتكلم عنهم ، ولم أعثر على ترجمة حماد بن قريش ، وكذلك أحمد بن الحسين البلخي ، وعلي بن المحسن المعدل ، أما أبو عبد الله بن محمد بن يعقوب ابن الحارث الحارثي (ت ٣٤٠ هـ) فقد ضعفه أبو زرعة - أحمد بن الحسين الحافظ - كما ضعفه الذهبي ، واتهمه الخطيب البغدادي بالكذب ووضع الأسانيد ، والذي دعاهم لتضعيفه أنه كثير التدليس (٣) .

(١) تاريخ بغداد ٣٥٤/١٣ .

(٢) المصدر نفسه ٣٥٥/١٣ .

(٣) انظر : لسان الميزان ٣/٣٤٨ ، وميزان الاعتدال ٢/٤٩٦-٤٩٧ ، وتاريخ بغداد ١٠/١٢٦ ، وشذرات

الذهب ٢/٣٥٨ ، وسير أعلام ١٥/٤٢٥ .

أما الرواية الثانية ففي إسنادها مجاهيل أيضا وضعاف ، لأن أحمد بن إبراهيم مجهول ليس في الرواة عن منصور بن هاشم ، ومنصور بن هاشم مجهول أيضا ليس في الرواة عن عبد الله بن المبارك ، وكذلك لم أعثر على ترجمة بعض الأسانيد في الرواية .

وبهذا يتضح لنا أن الرواية المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة لا تصح من حيث السند .

وأما من حيث المتن والموضوع - في الروايتين - ففيه مبالغة في الدين ، وهي مرفوضة في تعاليم ديننا الحنيف ، إذ كيف حمل أبو حنيفة نفسه بالمشقة خلال أربعين عاما في الصلاة والقيام دون أن ينام من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر .

وأستبعد أن يعمل أبو حنيفة مثل هذه العبادة ، وهو علم من أعلام السلف الصالح ، قريب من عهد النبوة والرسالة ، ولم نعثر على أثر من الرسول ﷺ ولا من أصحابه الكرام أنهم لم يناموا في الليل خلال أربعين سنة ؛ بل عثرنا ما يناقض ذلك حينما جاء ثلاثة نفر إلى رسول الله ﷺ فأنكر عليهم رسول الله ﷺ مبالغتهم في القيام والصيام وترك النكاح ، بل قال لهم الرسول ﷺ أما إني أخشاكم لله ولكني أقوم من الليل وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء^(١) .

وبذلك أقول : إن الرواية باطلة سندا ومتنا ، وخاصة في الحكاية الثانية فهي بعيدة عن الصحة ؛ بل هي مستحيلة إذ كيف يستطيع الإنسان أن يصلي خمسا وأربعين سنة خمس صلوات على وضوء واحد ؟ لا يحدث بنوم ولا بول ولا غائط ولا ريح ! وهذه الاستحالة في العقل والنقل للدليل آخر على صحة ما أثبتناه من أن الإمام أبا حنيفة بريء من طريق العبادة المنسوبة إليه ، وهي المبالغة والتشدد في الدين .

وهذه ليست من عمله - رحمه الله - وإنما هي عقيدة أو بدعة من بدع المتصوفة ، أو مبالغة من المبالغات التي تكثر في كتب المناقب .

(١) سبق ترجمته ، انظر : ص ٢٨ .

٥- الملامة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة

قال الهجويري : " ومدون لدى العلماء أن في عهد أبي جعفر المنصور فكروا في أن ينصبوا رجلا من بين أربعة قاضيا ، أولهم : الإمام الأعظم أبو حنيفة ، وثانيهم : سفيان ، وثالثهم : مسعر بن كدام ، ورابعهم : شريك رحمة الله عليهم .
وكان هؤلاء الأربعة من فحول علماء الدهر ، وبعثوا رسولا لإحضارهم جميعا ، وأثناء سيرهم في الطريق قال أبو حنيفة سأتفرس في كل منا فراسة في ذهابنا هذا قالوا : يستصوب ، قال : أنا أدفع عن نفسي في هذا القضاء بحيلة ، ويفر سفيان ، ويتصنع مسعر الجنون ، ويصير شريك قاضيا .

وفر سفيان في الطريق ، ولجأ إلى سفينة وقال : خبئوني لأنهم يريدون قطع رأسي ، فأخفاه الملاح ، وحمل الثلاثة إلى المنصور ، فقال أولا لأبي حنيفة : ينبغي أن تتولى القضاء ! فقال : يا أمير المؤمنين أنا رجل غير عربي ومن موالي العرب ، ولا يرضى سادات العرب بحكمي ، فقال أبو جعفر : هذا العمل لا يتعلق بالنسب ، وينبغي له العلم وأنت مقدم علماء الزمان ، فقال : أنا لا أليق لهذا العمل ، وفي هذا القول إذ قلت : لا أليق لا يخرج عن اثنين : إن قلت الصدق فقد قلت لنفسي لا أليق ، وإذا كذبت فالكاذب لا يليق للقضاء بين المسلمين ، وأنت لا تجيز أن تأتي بكاذب وتجعله خليفتك ، وتكل إليه أموال المسلمين وفروجهم وأنت خليفة الله قال هذا ونجا .

وعندئذ تقدم مسعر بن كدام وأمسك بيد الخليفة وقال له : كيف حالك وأولادك ؟ وكيف حال دوابك ؟ فقال الخليفة : أخرجوه فإنه مجنون .

وقالوا لشريك : يجب أن تتولى القضاء فقال : أنا رجل سوداوي ورأسي خفيف ، فقال له المنصور : عاج نفسك بالعصائد الموافقة والأنبذة المثلثة ليكمل عقلك ، وعندئذ أسند القضاء إلى شريك ، وقاطعه أبو حنيفة ﷺ ولم يكلمه قط . وهذه علامة على كمال حاله لمعنيين : أولهما : صدق فراسته في كل منهم ، وثانيهما : سلوكه طريق السلامة وصحة الملامة وإقصائه الخلق عن نفسه ، وعدم الاغترار بجاههم " .

ثم قال الهجويري : " وهذه الحكاية دليل قوي على صحة الملامة ، إذ أقصى هؤلاء الشيوخ الثلاثة الكبار أنفسهم عن الخلق بالحيلة ، واليوم لا ينظر جملة العلماء إلى هذا الجنس من المعاملة ، لأنهم ركنوا إلى أهوائهم ، ونفروا من طريق الحق ، وجعلوا ديار الأمراء فيلتهم

وصيروا دور الظلمة بيتهم المعمور ، وجعلوا بساط الجبابة موازيا لمترلة قاب قوسين أو أدنى وينكرون كل ما يخالف هذه المعاني " (١) .

التعليق على النص بما يلي :

نفهم من خلال النص السابق أن الهجويري نسب إلى الإمام أبي حنيفة قضية الملامة والفراسة ، وهما من موضوعات التصوف .

لا شك أن هذه الحكاية أوردها الهجويري تدعيما لمعتقدات الصوفية ، وإيهام الناس بأن الإمام أبا حنيفة كان واحدا منهم ، وهذا مالا أقبله إن أراد الهجويري ذلك ، لأن الملامة قضية ظهرت في القرن الثالث الهجري بعد قرن واحد من وفاة الإمام أبي حنيفة ، كما أستبعد أن تنسب الملامة إلى أبي حنيفة بعد أن تبلور بعض مفاهيمها لدى الصوفية بأنه النفاق ، وهذا مالا ينبغي أن يلصق بإمام من الأئمة الأخيار .

وأما إذا كان يريد من هؤلاء الأئمة بأنهم يفعلون ما يحبه الله ﷻ ورسوله ﷺ ولا يخافون في الله لومة لائم فإن الإمام أبا حنيفة كان من الأعلام الذين لا يخافون في الله لومة لائم في امثال ما أمر الله بهم وانتهاء عما نهى الله عنهم .

أما الملامة - التي يعنيها - الهجويري فهي قضية صوفية ، وأهل الملامة فرقة صوفية ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بمدينة نيسابور بخراسان ، وقد أطلق الهجويري على هذه الفرقة اسم " الفرقة القصارية " أو " الحمدونية " نسبة إلى حمدون القصار (ت ٢٧١) (٢) ، ووصفه السلمي بأنه شيخ أهل الملامة بنيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة (٣) ، وأساسه يقوم على الملامة .

يقول أبو حفص الحداد موضحا حالهم : " أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه ، وكتموا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم .

(١) كشف المحجوب ٣٠٣/١ - ٣٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢٥٩/١ .

(٣) طبقات الصوفية ص ١٢٣ .

وقد وصفهم ابن عربي بأنهم في أعلى درجات السالكين ^(١) ، ووقف السهروردي منهم موقفا وسطا فهو يصف الملامتي بالإخلاص والصدق ، ولكنه يضع الصوفي في مرتبة أعلى ، ويصفه بأنه المخلص الخالص ^(٢) .

أما ابن الجوزي فقد انتقد منهم فوصفهم بأنهم أسقطوا جاههم عند الله تعالى لمخالفة الشرع ^(٣) .

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قسم الملامية إلى قسمين :

١- ملامية يفعلون ما يحبه الله ورسوله ، ولا يخافون لومة لائم في ذلك ، وهؤلاء هم أهل الملام الحمود .

٢- وملامية يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ، ويصرون على الملام في ذلك والصبر عليه ، وهؤلاء هم أهل الملام المذموم .

وقال : " وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ، ولا يخافون لومة لائم في ذلك ، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصرون على الملام في ذلك " ^(٤) .

وأما ما يتعلق بالفراصة فهي قضية معروفة لدى السلف الصالح ، ولها شواهد من الشرع ، منها : قوله ﷺ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(٥) . قال مجاهد : المتفرسين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الناظرين ، وقال قتادة : المعتبرين ، وقال مقاتل : للمتفكرين .

قال ابن القيم : " ولا تنافي بين هذه الأقوال ، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم ، وما آل إليه أمرهم أورثه فراصة وعبرة وفكرة . وقال تعالى في حق

(١) الفتوحات المكية ٤٦/٣ .

(٢) عوارف المعارف ص ٥٤ .

(٣) تلييس إبليس ص ٤٣٨ .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦١/١ .

(٥) سورة الحجر ، الآية (٧٥) .

المنافقين : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ ^(١)
فالأول : فراسة النظر والعين ، والثاني : فراسة الأذن والسمع " ^(٢) .

والفراسة قد قسمها ابن أبي العز الحنفي إلى ثلاثة أنواع :

فراسة إيمانية ، وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده ، وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب بنفي ما يضاده ، يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة ، ومنها اشتقاقها ، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان ، فمن كان أقوى إيمانا فهو أحد فراسة .

وفراسة رياضية ، وهي التي تحصل بالجوع والسهر والتخلي ، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها ، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ، ولا تدل على إيمان ولا على ولاية ، ولا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم ، بل كشفها من جنس فراسة الولاية وأصحاب عبادة الرؤساء والأطناء ونحوهم .

وفراسة خلقية ، وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم ، واستدلوا بالخلق على الخلق لما بينهما من الارتباط ، الذي اقتضته حكمة الله .

والفراسة الإيمانية قد تحدث عنها الصوفية المتقدمون ، فهذا أبو سعيد الخراز يقول :
"من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق ، وتكون مواد علمه مع الحق بلا سهو ولا غفلة ، بل حكم حق جرى على لسان عبده ، وقوله : نظر بنور الحق يعني بنور خصه به الحق ﷺ" ^(٣) .
ويقول عمرو بن نجيد : كان شاه الكرمان حاد الفراسة لا يخطئ ، حيث كان يقول :
من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته .

ويقول أحمد بن عاصم الأنطاكي : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق ، فإنهم جواسيس القلوب ، يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون .
أما الجنيد فقد تكلم على الناس يوما ، فوقف علي شاب نصراني مستكرا فقال :
أيها الشيخ ما معنى قول النبي ﷺ : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " ؟ فأطرق الجنيد ، ثم رفع رأسه إليه وقال : أسلم ، فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الغلام ^(٤) .

(١) سورة محمد ، الآية (٣٠) .

(٢) مدارج السالكين ٤٥٢/٢ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٣ ، ومدارج السالكين ٤٥٣/٢ - ٤٥٦ .

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ومدارج السالكين ٤٥٤/٢ .

إذن فالفراسة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة كانت معروفة عند سلف هذه الأمة ، ليست عند الصوفية المتقدمين فحسب ، بل حتى عند الصحابة الكرام ، حيث " كان الصديق عليه السلام أعظم الأمة فراسة ، وبعده عمر بن الخطاب عليه السلام ، ووقائع فراسته مشهورة ، فإنه ما قال لشيء " أظنه كذا " إلا كان كما قال ، ويكفي في فراسته : موافقته ربه في المواضع المعروفة " ففراسة الصحابة رضوان الله عليهم أصدق الفراسة ^(١) .

وبذلك أقول : إن تأييد الله ونصرته ليست ببعيد على من أكرمهم الله وآل من عباده المؤمنين المخلصين نتيجة استقامتهم على الطريق المستقيم ، وملازمتهم لتقوى الله في كل حال من أحوالهم ، وفي كل شأن من شئوهم ، لقوله عليه السلام : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ^(٢) وقوله عليه السلام : ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ^(٣) وقوله عليه السلام : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ^(٤) .

ولقوله عليه السلام فيما يرويه عن ربه وآل : " .. وما تقرب إلي عبدي أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه .. " ^(٥) .

(١) انظر : مدارج السالكين ٢/ ٤٥٥ .

(٢) سورة الطلاق ، الآيتان (٢ - ٣) .

(٣) سورة الأنفال ، الآية (٢٩) .

(٤) سورة يونس ، الآيات (٦٢ - ٦٤) .

(٥) سبق تخريجه في ص ١٥٥ .

المبحث الرابع

موقفه بعض تلامذته من التصوف

عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ)

تفقه ابن المبارك على أبي حنيفة ، وأخذ عنه علما غزيرا ، وبدا ذلك في ترجمته حيث كان من كبار تلامذته .

وقد كان ابن المبارك شديد الإعجاب بعلم أستاذه أبي حنيفة وعقله وتقواه ، ولذلك كان لا يزال يذكر أبا حنيفة وفقهه وورعه ، وعقله وزهده ، ويدافع عنه ، بل ويرد عنه أقوال المتحاملين والشائنين ، حتى قال يحيى بن معين : ما سمعت أحدا يصف أبا حنيفة ويذكره بمثل ما كان ابن مبارك يصفه ويذكره به من الخير ^(١) ، وذلك أنه كان كثير التحدث عنه ، فمن أقواله في فقهه :

" ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة ، وما رأيت أحدا قط تكلم في الفقه أحسن من أبي حنيفة " ^(٢) .

وكان يقول في عقله وورعه : ما رأيت رجلا أعقل منه ، وما رأيت أورع من أبي حنيفة قد جرب بالسياط والأموال ^(٣) .

ويقول في زهده وتقواه وبعده عن الاغترار بالدنيا : قدمت الكوفة فسألت عن أزهد أهلها ؟ فقالوا : أبا حنيفة .. ما رأيت أحدا أورع منه ، ما تقدر أن تقولوا في رجل عرضت عليه الأموال العظيمة فنبذها ، وضرب بالسياط فعبد على السراء والضراء ، ولم يدخل فيما كان غيره يطلبه ويتمناه ^(٤) .

إن معرفة ابن المبارك الحقيقية لأبي حنيفة وعلمه ، وصلته الوثيقة به ، وأخذ العلم عنه ، كل ذلك جعل من ابن المبارك أكبر المناصرين لشيخه والمدافعين عنه ضد المتحاملين عليه ، فقد ذكر أبو حنيفة مرة عند ابن المبارك فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا

(١) الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان ص ٤١ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٢٠ .

(٣) نفسه ٢/٢٢١ .

(٤) الخيرات الحسان ص ٣٩ .

بجذافيها ففر منها ، وما خالط الظلمة مع سؤلهم له في ذلك وإلحاحهم عليه وتهديده إن لم يفعل ، وما قبل منهم شيئاً قط وإن قلَّ ^(١) .

أما الحديث عن ابن المبارك فقد وصفه أبو نعيم بأنه " السخي الجواد ، الممهد للمعاد المتزود من الوداد ، أليف القرآن والحج والجهاد ، جاد فساد ، وروجع فزاد ، ماله مشارك ، وفعله مبارك ، وقوله مبارك " ^(٢) . وبهذا يعده أبو نعيم من جملة المتصوفة والأولياء .

وذكر الياضي وابن العماد أن ابن المبارك توفي في بعض البراري سائحا مختارا للعزلة والخمول بعد الشهرة والجاه العظيم ، وهو بذلك مات ميتة الصوفية السائحين الذين يؤثرون العزلة وقلة الملاقاة للناس ؛ ولكن هذا الخبر ليس له وجود في الكتب القديمة التي ترجمت لابن المبارك ، ولم يذكر هذا الخبر ابن سعد ، ولا ابن حبان البستي ، ولا الخطيب البغدادي ولا عبد الله الحاكم النيسابوري .

وهذا القول في تصوف ابن المبارك وموته سائحا ومختارا للعزلة مصادم ومناقض لحياته العلمية والعملية ، حيث كانت حياته موزعة بين أداء الحج والجهاد والمراطة في الثغور ، والتجارة والإنفاق على العلماء وطلاب الحديث ، وتصنيف المصنفات ونشر الدين والدعوة إلى الله تعالى ...

وهنا أتساءل كيف يموت من هذا دأبه هذه الميتة الغريبة الخاملة ؟ وكيف يموت هذه الميتة المتواكلة من فرغ نفسه للعمل ابتغاء وجه الله ﷻ ؟ بل وكيف يوصف بذلك وهو يذم الناسك الذي سكن بغداد معلماً إياه أن العبادة عند الثغور ؟ وحثاً عليه أن يجمع العبادة والجهاد والعلم والعمل فيقول ^(٣) :

أيتها الناسك الذي لبس الصو	ف وأضحى يُعدُّ في العباد
الزم الثغر والتعبد فيـه	ليس بغداد مسكن الزهاد
إن بغداد للملوك محل	ومناخ للقارئ الصياد .

وأغلب الظن أن هذا الزعم صدر من أوهام متأخري الصوفية ، لأنهم يعدون ابن المبارك من الأبدال ^(٤) .

(١) المرجع السابق ص ٦ .

(٢) حلية الأولياء ١٧٢/٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٣١/١ .

(٤) انظر : عبد الله بن المبارك المروزي ، د. عبد المجيد المحتسب ، طبعة عمان (١٣٩٢هـ) ص ١٣٦ .

وإذا كان يحلو لبعض المتصوفة أن يفهم الزهد على أنه رفض للدنيا كلية ، واعتزال للناس ، واعتماد على هبات المحسنين والمتصدقين فيعتزل في بيته ، وينطوي على نفسه ليكون متعبدا لله ﷻ ، تاركا الدنيا لا يجد فيها ولا يعمل ، وكأن الدنيا خلقت لغيره ! فإن عبد الله بن المبارك لم يفهم الزهد كذلك ، إنه عرف حقيقة الزهد وفهمه على أن تجد في هذه الحياة ، فتكسب المال وتتاجر وتسعى في مناكب الأرض تبتغي من فضل الله ، فإذا رزقت بالمال أنفقته في سبيل الله ، واستعنت به على طاعة ربك !

بهذا المفهوم فهم عبد الله بن المبارك الزهد ، فكذلك وجد في هذه الحياة ، وتاجر بالبضائع ، وكسب المال الحلال ليصون به وجهه ، ويكرم به عرضه ، ويستعين به على طاعة ربه ﷻ ، وينفقه في وجوه الخير ، وأدرك أن الإسلام لا يحرم على الناس أسباب الغنى ، ولا يمنعهم من البيع والشراء ، لأن الرسول ﷺ - وهو القدوة الحسنة لأمته - قد تاجر واكتسب وأنفق ...

فابن المبارك طلب الدنيا لا لنفسه بل لله ﷻ لينفقه في سبيل الله ، وقد ذكر الخطيب البغدادي بأنه خرج من بغداد يريد المصيصة ^(١) ، فصحبته الصوفية فقال لهم : أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم ، يا غلام هات الطست ؟ فألقى على الطست منديلا ، ثم قال : يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه ، فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم ، والرجل يلقي عشرين ، فأنفق عليهم إلى المصيصة ، فلما بلغ المصيصة قال : هذه بلاد نفير ، فنقسم ما بقي ، فجعل يعطي الرجل عشرين دينارا ، فيقول : يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت درهما ، فيقول : وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته ^(٢) .

وحدث علي بن الفضيل بن عياض قال : سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام كيف ذا ؟ فقال ابن المبارك : يا أبا علي إنما أفعل ذلك لأصون به وجهي ، وأكرم به عرضي ، وأستعين به على طاعة ربي ، لا أرى لله حقا إلا سارعت إليه حتى أقوم به ، فقال له

(١) المصيصة : بالفتح ثم الكسر والتشديد وباء ساكنة ، وهي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم ، تقارب طرطوس ، وكانت من مشهور ثغور الإسلام ، قد رابط بها الصالحون قديما ،

انظر : معجم البلدان ٨ / ٨٠ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ١٠ / ٧٧ .

الفضيل : يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذاك ^(١) ، وكان ﷺ يقول : لا يخرج العبد عن الزهد إمساك الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس ^(٢) .

فقد كان ابن المبارك زاهدا لكنه غني ، وله أموال وفيرة وتجارة واسعة لكنه زاهد ، وكان له رأس مال نحو أربعمئة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم .. وربما أنفق من رأس ماله . وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكولات من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، ثم يطعم الناس وهو صائم في الحر الشديد .

هذا هو الزهد الحقيقي ، زهد الاختيار لا زهد الاضطرار ، وزهد الغنى لا زهد الفاقة والحرمان ، ولرب ثري واسع الغنى كعثمان بن عفان والزبير بن عوام وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهم - كانوا أزهد في الدنيا من كثيرين ممن يلبسون مرقعات الصوف ، ويكتفون بالخبز والملح ، وينامون على التراب وقلوبهم متعلقة بالدنيا ، وأنظارهم شرهة إلى ما في أيدي الأغنياء .

فليس الزهد في الدنيا - إذن - أن يزهد فيها الإنسان وهي عنه مدبرة فهذا زهد الاضطرار ، وكذلك فليس الغنى مانعا من الزهد لأن الزهد محله القلب ، وكم من مدع للزهد والطمع يملك قلبه !

وما أحسن قول ابن القيم في ذلك إذ يقول : " الزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليد منها ، وقد جهل قوم فظنوا أن الزهد تجنب الحلال ، فاعتزلوا الناس ، فضيعوا الحقوق ، وقطعوا الأرحام ، وجفوا الأنام ، واكفهروا في وجوه الأغنياء ، وفي قلوبهم شهوة الغنى أمثال الجبال ، ولم يعلموا أن الزهد إنما هو بالقلب ، وأن أصله موت الشهوة القلبية ، فلما اعزلوها بالجوارح ظنوا أنهم استكملوا الزهد ، فأداهم ذلك إلى الطعن في كثير من الأئمة " ^(٣) .

ولقد دل ابن المبارك علمه الغزير على تفضيل الآخرة وجعل الدنيا طريقا لها ، فوازن بين الدنيا دار الفناء وبين الآخرة دار القرار ، فوجد أن الدنيا الفانية لا تعدل الآخرة الباقية

(١) تاريخ بغداد ١٠/١٦٠ .

(٢) طبقات الشعرائي ١/٦٠ .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤/٧٣ .

الخالدة ، وما فيها ما لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولأجل هذا كان ينشد إذا خرج إلى مكة :

بغض الحياة وخوف الله أخرجني وبيع نفسي بما ليست له ثمنا
إني وزنت الذي يبقى ليعد له ما ليس يبقى فلا والله ماترنا ^(١) .

ومع هذا الزهد كان الإمام عبد الله بن المبارك العالم العامل ، والمؤمن القوي ، فقد كان مع علمه الغزير ، وزهده العجيب ، وورعه وتقواه من أكبر المجاهدين ، كان إماما في ساحة الجهاد ، كما كان إماما في محراب المسجد ، وذلك لأن العلم والتقى والزهد والورع ليست من مبررات القعود عن الجهاد كما رأى البعض في عصرنا الحاضر ، بل كل ذلك يؤكد الجهاد ويدفع إليه ، ويجعله أوجب وأكد .

فمن الطراز الممتاز من العلماء المجاهدين كان ابن المبارك ، وقد قال فيه ابن كثير : وكان كثير الغزو والحج ^(٢) ، وقال عنه الذهبي في تذكرته : فخر المجاهدين ^(٣) ، وكان - وهو في الثغور والجهاد - لا ينسى أن يعلم الناس العلم والحديث ، فكان إذا وصل إلى الثغر اجتمع المجاهدون حوله يتعلمون منه العلم ، ويكتبون عنه الحديث ، كما يتعلمون منه الشجاعة ^(٤) .

وقد بعث ابن المبارك من الثغر أبيات مع محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه إلى الفضيل بن عياض التي يقول فيها :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنجورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنايك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في	أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

(١) شذرات الذهب ١/١٩٦ ، ووفيات الأعيان ٢/٢٣٩ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/١٧٧ .

(٣) تذكرة الحفاظ ١/٢٥٣ .

(٤) انظر : مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٨ .

ولما قرأ الفضيل هذه الآيات بكى وذرفت عيناه بالدموع ، وقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح ^(١) .

قال الدكتور عبد العزيز الحميدي في معرض حديثه عن شمول العبادة وعلق على هذه الآيات قائلاً : " ففي هذه الآيات الشعرية الرائعة بين الإمام عبد الله بن المبارك جانباً من الفهم الصحيح للعبادة ، فليست العبادة محصورة في الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام ، ولكن العبادة الحقة تكون أولاً بأداء الفرائض واجتناب المحرمات كما جاء في قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه : " وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه " ثم تكون بأداء فروض الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حال كونها فرض كفاية ، فإن أداء فروض الكفاية أفضل من أداء النوافل ، لأن فروض الكفاية تدخل في باب الفروض ولكن كونها غير متعينة على إنسان بعينه يجعل تاركها غير ملوم بتركها إذا قام بها من يكفي .

ثم تأتي بعد ذلك النوافل على درجاتها المعروفة ، فعبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض قد قاما - كما هو معروف عن سيرتهما - بأداء فروض الأعيان ، واقتربا في أن ابن المبارك قام بعد ذلك بالإسهام في أداء فروض الكفاية في باب الجهاد ، إلى جانب ما عرف عنه من اجتهاده في النوافل ، أما الفضيل بن عياض فإنه قد اجتهد في النوافل وبالغ في ذلك ، وعوض بذلك ما فاتته من الجهاد ، وإن ابن المبارك في هذه الرسالة الشعرية يلوم الفضيل بن عياض على تقصيره في المشاركة في الجهاد ، ويبين له أنه قد اكتفى بالأقل حيث اشتغل بالنوافل ، وترك الجهاد الذي هو أعلى لأنه فرض كفاية " ^(٢) .

نفهم مما سبق أن عبد الله بن المبارك قد فهم العبادة بشمولها ، وأنه لم يذهب مثلما ذهب إليه الصوفية المنحرفون الذين يقتصرون على العبادة المعينة ويبالغون فيها ، أو الذين يبتعدون عن الناس ، ويمتنعون عن القيام بأي سبب يحصل الإنسان عن طريقه على الرزق الحلال الطيب ؛ الذي يعف به نفسه وعائلته ، ويدعون إلى ترك الأسباب وعدم الالتفات إليها بحجة أنه ينافي التوكل حسب زعمهم ، ومن المعلوم أن الله ﷻ أمر بالإعداد اللازم

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤١٢ - ٤١٣ .

(٢) الرسائل الشمولية ، د . عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ، طبعة دار الدعوة بالإسكندرية ، ودار العيون بمكة

لمواجهة الأعداء من القوة . فقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (١) ، وإعداد القوة اللازمة لمواجهة الأعداء يعتبر من الأسباب ، وقد أمر الله به ﷺ فلو كان مباشرة الأسباب تنافي التوكل لما أمر الله به ولنهي عنه .

ونفهم أيضا أن ما يقوم به عبد الله بن المبارك من المراقبة والجهاد ضد أعداء الإسلام لهو رد صريح على المتصوفة الذين يصرفون الناس عن القتال في سبيل الله ﷻ بحجة أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، وأما جهاد الأعداء فجهاد أصغر .

وبيان ذلك ما ذكره السهروردي - ومن نحا نحوه - حيث فسروا بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن الجهاد من أجل أن يثبتوا بأن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، فمن هذه التفسيرات :

ما روي عن داود بن صالح أنه قال : قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا ابن أخي هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ؟ قلت : لا ، قال : يا ابن أخي لم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يربط فيه الخيل ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة ، فالرباط لجهاد النفس ، والمقيم في الرباط مرابط مجاهد نفسه (٢) .

وقال بعض المتصوفة في قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (٣) هو مجاهدة النفس والهوى ، وذلك حق الجهاد وهو الجهاد الأكبر على ما روي في الخبر عن رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) (٤) .

هذه دعوة باطلة لأن جهاد الأعداء هو الجهاد الأكبر كما فهمه عبد الله بن المبارك وهو من فروض الكفاية ، ومن أفضل الأعمال التي يقوم بها المؤمن ابتغاء مرضات الله ، ثم إن الحديث الذي استدل به المتصوفة فهو كذب وافتراء على رسول الله ﷺ الذي جاء بشريعة الجهاد ، وبذل كل غال ونفيس في سبيل نشر دعوة التوحيد .

(١) سورة الأنفال ، الآية (٦٠) .

(٢) عوارف المعارف ، الملحق بإحياء علوم الدين ٨٢/٥ .

(٣) سورة الحج ، الآية (٧٨) .

(٤) عوارف المعارف الملحق بالإحياء ٨٢/٥ . وسيأتي الحكم عليه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الحديث الذي استدلوا به :

"وأما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) فلا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله .

وجهاد الكفار من أعظم الأعمال ، بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان قال الله ﷻ : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أنه قال : سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال : «إيمان بالله ورسوله» قيل : ثم ماذا؟ قال : «الجهاد في سبيل الله» قيل ثم ماذا؟ قال : «حج مبرور» (٣) .

وبذلك أقول : إن عبد الله بن المبارك خير من فهم الزهد الصحيح لاتباعه شرع الله وسنة رسوله ﷺ ، حيث كان يسير في عبادته وزهده وفي كل شؤونه على هدى وبصيرة ، وقد كان غناه طاعة وعبادة ، كان مجاهدا يربط على الثغور ويسهر للحراسة في سبيل الله ، ولم يفهم من الزهد - كما يفهم بعض المتصوفة - أن يقعد مع القاعدين وأن يكون مع الخوالف ، وقد كان ورعا تقيا عابدا محببا يحاسب نفسه ويطهرها على شرع الله ، وقد سأله رجل عن الرباط فقال : رباط نفسك على الحق حتى تقيمها عليه فذلك أفضل الرباط (٤) .

وتوفي عبد الله بن المبارك سنة (١٨١ هـ) في رمضان لعشر مضين منه في ساعة السحر بعد انصرافه من الجهاد في سبيل الله .

(١) سورة النساء ، الآيتان (٩٥ - ٩٦) .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٩ .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ، في الإيمان ، باب من قال إن الإيمان هو العمل ٧٧/١ (ح ٢٦) ، ومسلم في الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال ٨٨/١ (٨٣) .

وانظر : مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ١٩٧/١١ - ١٩٨ .

(٤) حلية الأولياء ١٨١/٨ .

الفصل الثاني

الإمام مالك بن أنس والتصوف
وتحتة أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام مالك وحياته

المبحث الثاني : الإمام مالك وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إليه في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

المبحث الأول

عصر الإمام مالك وحياته

أولا : عصره :

إن عصر الإمام مالك بن أنس يشبه عهد الإمام أبي حنيفة ، إلا أن الإمام مالك أدرك من الدولة العباسية حظا أوفر ، ورأى حضاراتها قد امتزج في مبادئها الإسلامية بعض مظاهر المدنيات الفارسية والهندية والرومانية ^(١) .

وقد عاش الإمام مالك في عصر كانت المدن الإسلامية تموج بعناصر مختلفة ، وفي وقت اتسعت كذلك رقعة البلاد الإسلامية ، وكثرت الحواضر والعواصم ، فكل يحمل حضارة وثقافة جنسه ، وأصبح المجتمع الذي يكون على مثل هذا الوضع في أمس حاجة إلى الشريعة التي تصدر الحكم في كل الأحداث صغيرها وكبيرها ^(٢) .

وإذا كانت المدن الإسلامية فيها كل هذه المظاهر - المدن الحجازية - التي كانت مأوى أفئدة المسلمين ، ولا زالت كذلك إلى اليوم ترى فيها كل الألوان والصور وأشكال الحياة حيث يأتي الناس إليها من كل فج عميق ؛ فكذلك المدينة المنورة التي كانت إليها الهجرة ، وبها مسجد رسول الله ﷺ صارت مزارا للمسلمين في حجهم وعمرتهم ، فيتمنى بعضهم البقاء أو المكث فيها ، وبهذه الظاهرة ارتضى الإمام مالك أن يتخذ المدينة مقرا له ليعيش بين الناس معلما إياهم شؤون دينهم ودنياهم ، هذه بعض النواحي الاجتماعية ^(٣) .

أما من حيث النواحي الفكرية - في عهد الإمام مالك - فقد اتسمت بها ، والتي نجمت عن اتصال الفكر الإسلامي بالفلسفة اليونانية والفارسية والهندية إثر حركة الترجمة .. مما أدى إلى منازعات فكرية حول عقائد متباينة ، وآراء متناحرة مثل ما حدث في عصر أبي حنيفة ، إلا أن أبا حنيفة كان بالعراق موطن هذا الخلاف ، فتأثر بها تأثرا مباشرا ، بينما كان مالك بالمدينة المنورة التي ابتعدت بمنأى عن هذه الخلافات الفكرية ، ولم يروج في سوقها هذه المذاهب ؛ بل راج فيها علم الكتاب والسنة ^(٤) .

(١) انظر : مالك وحياته وعصره ، لأبي زهرة ، طبعة دار الفكر العربي ص ١٢١ .

(٢) انظر : نفسه ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٣) انظر : نفسه .

(٤) نفسه .

فاستطاع الإمام مالك في جو المدينة الهادئ أن يصون نفسه عن موجة أهل الأهواء العارمة ، التي كادت تشغل أذهان المسلمين عن حقيقة الدين ، كالشيعة والخوارج والقدرية والجهمية والمرجئة وغيرها .

ثانيا : حياته :

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث الأصبحي الحميري المدني ^(١) ، ولد عام (٩٣هـ) على أشهر الأقوال ^(٢) .

ونشأ في بيت علم وصلاح ، وبدأ برحلة علمية منذ الصغر ، وتفرغ لطلب العلم ، وأكثر ملازمة العلماء ، حتى قال الزبير عنه : رأيت مالكا في حلقة ربيعة وفي أذنه شنف ، وهذا يدل على ملازمته طلب العلم منذ نعومة أظفاره ^(٣) .

وبلغ من صبره على العلم وتحمله المشقة في ذلك أنه قال : كنت آتي نافعا نصف النهار ، وما تظلي الشجرة من الشمس أتحين خروجه ، فإذا خرج أتركه ساعة كأني لم أره ، ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه ، حتى إذا دخل أقول له : كيف قال ابن عمر في كذا وكذا ؟ فيجيبني ثم أحبس عنه وكان فيه حدة ، وكنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل ^(٤) .

وقد حرص على الانتفاع وعدم تضييع الوقت أنه كان يسعى في تحصيل العلم حتى في أيام العيد التي يستريح الناس فيها ، قال مالك : شهدت العيد فقلت : هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابي ، فسمعتة يقول لجاريتته : انظري من على الباب ؟ فنظرت ، فسمعتها تقول : مولاك الأشقر مالك ، قال : أدخله ؟ فدخلت ، فقال : ما أراك بعد انصرفت إلى منزلك ؟ قلت : لا ، قال : هل أكلت شيئا ؟

(١) انظر : ترتيب المدارك ١/١٠٤ ، وشذرات الذهب ٢/١٢ ، وحلية الأولياء ٦/٣١٣ ، وصفة الصفوة ٢/٩٩ ومراة الجنان ١/٣٧٣ ، ومروج الذهب ٣/٣٥٠ ، وسير أعلام النبلاء ٨/٤٨ .

(٢) الدياج المذهب ١/٥٥ .

(٣) ترتيب المدارك ١/١٢١ .

(٤) المصدر نفسه .

قلت : لا ، قال : فاطعم ؟ قلت : لا حاجة لي فيه ، قال : فما تريد ؟ قلت : تحدثني ، فحدثني سبعة عشر حديثاً ^(١) .

وكان الإمام مالك يحمل معه خيطاً ، كلما سمع حديثاً من الشيخ عقد عقدة ليستعين بذلك على الحفظ ، وكان يتبع ظلال الشجر ليتفرغ لما يريد ، فقالت أخته لأبيه : هذا أخي لا يأوي مع الناس ، قال : يا بنية إنه يحفظ حديث رسول الله ﷺ ^(٢) .

لم يكن حرصه على طلب العلم وصبره على ذلك وإخلاصه لله ﷻ وحده هو السبب الوحيد لأن يكون إماماً ومعلماً ؛ بل كانت هناك أسباب أخرى - بعد توفيق الله - جعلته يبلغ هذه المكانة العلمية والمترلة العالية ! فهو لا يريد تلقي العلم وسماع الحديث إلا من أهله ، ويشدد انتقاده للرجال ، ويتحرى عن حالهم لأنه كان يرى أن العلم دين ، ولا بد لمن يريد أن يعرف دينه أن يأخذه عن ثقة ^(٣) .

قال ابن أبي أويس : سمعت خالي مالكا بن أنس يقول : " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، لقد أدركت سبعين ممن يحدث ، قال فلان : قال رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئاً ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً لكنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن " ^(٤) .

وفي رواية ابن كنانة عن مالك أنه قال : سمعت مالكا يقول : ربما جلس إلينا الشيخ فيحدث كل نهاره ما نأخذ عنه حديثاً واحداً ، وما بنا أن نتهمه ولكن ليس من أهل الحديث ^(٥) .

وكان الإمام مالك - كذلك - يتبع السنن ويكره المحدثات ، حيث كان يقول : " المرء والجدال في العلم يذهب بنور العلم من قلب العبد ، وقيل له : الرجل له علم بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : لا ولكن ليخبر بالسنة فإن قبل منه وإلا سكت " ^(٦) .

(١) المصدر السابق ١٢١/١ .

(٢) المصدر نفسه ١٩١/١ .

(٣) نفسه ١٢٤/١ .

(٤) نفسه ١٢٣/١ .

(٥) رواه ابن عبد البر في التمهيد ٦٨/١ .

(٦) الديباج المذهب ١١٥/١ .

قال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : إذا جاءه أحد من أهل الأهواء أما أنا فعلى بينة من ربي ، وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه ، ثم قرأ ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) .

وكان يقول : إذا ذكر - عنده - أحد منهم قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : سن رسول الله ﷺ وولاية الأمر بعده سننا الأخذ بها اتباع لكتاب الله تعالى ، واستكمال لطاعة الله تعالى ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ، ولا النظر في شيء خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا ^(٢) ، وكان مالك إذا حدث بها ارتج مسرورا .

وجاء رجل من أهل المغرب فقال : إن الأهواء كثرت ببلادنا فجعلت على نفسي إن أنا رأيتك أن آخذ بما تأمرني به ، فوصف له مالك شرائع الإسلام الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ثم قال : خذ بهذا ولا تخاصم أحدا ^(٣) .

وقد تلقى الإمام مالك العلم عن عدد كثير من المشايخ والعلماء ، قال الزرقاني : أخذ عن تسعمائة شيخ فأكثر ، وما أفتى حتى شهد له سبعون إماما أنه أهل لذلك ^(٤) .

وذكر الذهبي أسماء الذين أخذ عنهم الإمام مالك فبلغ العدد ١٣٥ شيخا ^(٥) . من هؤلاء الشيوخ : ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ت ١٣٦هـ) ، و محمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤هـ) ، ونافع ، أبو عبد الله المدني ، مولى ابن عمر (ت ١١٧هـ) ، وغيرهم .

وتلمذ على الإمام مالك وروى عنه الموطأ كثيرون ، وقد صنف الخطيب البغدادي مؤلفا خاصا بالرواة عن مالك فعده منهم ٩٩٣ رجلا ^(٦) ، أما القاضي عياض فقد عد منهم

(١) سورة يوسف ، الآية (١٠٨) .

(٢) حلية الأولياء ٣٥٤/٦ .

(٣) الديباج المذهب ١١٥/١ - ١١٦ .

(٤) انظر : شرح الموطأ للزرقاني ٢/١ ، وحلية الأولياء ٢٤٥/٦ .

(٥) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٩/٨ - ٥٢ .

(٦) تزيين الممالك ص ١٨ .

١٣٠٠ رجل ، وذكر المشهورين منهم ، وترجم لهم في ترتيب المدارك ورتبهم على البلدان والطبقات ^(١) .

وعد منهم الذهبي في السير ١٢٦ رجلا ^(٢) . من هؤلاء : الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، وعبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) ، وعبد الرحمن بن القاسم (ت ١٩١ هـ) وأشهب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤ هـ) ، وغيرهم .
وتوفي الإمام مالك - رحمه الله - في شهر ربيع الأول سنة ١٩٧ هـ ، وعمره ست وثمانون سنة ، ودفن بالبقيع بالمدينة المنورة ^(٣) .

(١) انظر : ترتيب المدارك ٢٥٤/١ .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ٥٣/٨ - ٥٤ .

(٣) ترتيب المدارك ٢٣٢/٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٣٠/٨ - ١٣٥ .

المبحث الثاني

الإمام مالك وموضوعات التصوف

١ - معرفة الله تعالى

إن معرفة الله تبارك وتعالى عند الإمام مالك شيء فطري ، يشعر بها كل إنسان في هذه الحياة ، وإن كنا لم نعثر على نص صريح عنه - رحمه الله - في هذه المسألة ، ولكن حديث الفطرة الذي روى عنه فيه إشارة إلى هذا الموضوع ، فقد روى أبو داود في سننه حديث : " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه .. " ^(١) الحديث .

ثم روى عن عبد الله بن وهب قال : سمعت مالكا قيل له : إن أهل الأهواء يحتجون علينا بهذا الحديث ، قال مالك : احتج عليهم بآخره ، " قالوا أرأيت من يموت وهو صغير؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين " ^(٢) .

فالقدرية يحتجون بأول الحديث على مذهبهم في نفي القدر ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فالقدرية من المعتزلة وغيرهم يقولون : كل مولود يولد على الإسلام والله لا يضل أحدا ، ولكن أبواه يضللانه " ^(٣) .

فلما سئل مالك عن ذلك بين أن آخر الحديث يرد عليهم . وذلك من وجهين اثنين وضحهما شيخ الإسلام مستفيدا من كلام الإمام مالك السابق .

الوجه الأول : قال رحمه الله : " ولهذا قالوا لمالك بن أنس : إن القدرية يحتجون علينا بأول الحديث ، فقال احتجوا عليهم بآخره ، وهو قوله : الله أعلم بما كانوا عاملين ، فبين الإمام أنه لا حجة فيه للقدرية ، فإنهم لا يقولون إن نفس الأبوين خلقا قهوده وتنصره ، بل هو قهود وتنصر باختياره ، لكن كانا سببا في ذلك بالتعليم والتلقين ، فإذا أضيف إليهما بهذا الاعتبار فلأن يضاف إلى الله الذي هو خالق كل شيء بطريق الأولى ، لأن الله وإن

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في ذراري المبشرين ٨٦/٥ (٤٧١٤) ، وأخرجه - بمعناه من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة - البخاري في الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي ، و في القدر ٨/١٥٣ باب الله أعلم بما كانوا يعملون . ومسلم في القدر (٢٦٨٥) باب معنى " كل مولود يولد على الفطرة " . وأخرجه الترمذي - مختصرا - من حديث أبي صالح عن أبي هريرة في القدر (٢١٣٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، والباب نفسه ٨٨/٥ (ح ٤٧١٥) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٣٧٧/٨ .

خلقه مولودا على الفطرة سليما ، فقد قدر عليه ما سيكون بعد ذلك من تغييره وعلم ذلك " (١) .

الوجه الثاني : قال رحمه الله : " (إنهم القدريّة) يقولون : إن معرفة الله لا تحصل إلا بالنظر المشروط بالعقل ، فيستحيل أن تكون المعرفة عندهم ضرورية ، أو تكون من فعل الله ، وأما آخر الحديث فهو دليل على أن الله تعالى يعلم ما يصيرون إليه بعد ولادتهم على الفطرة ، هل يبقون عليها فيكونون مؤمنين ؟ أو يغيرونها فيصيرون كفارا " (٢) .

وبما أن معرفة الله ﷻ فطرية لدى كل إنسان لم تطمس فطرته السليمة ؛ انتقل الإمام مالك رحمه الله إلى تقرير قضية أخرى ، وهي القضية الشرعية التي كلف الله عباده بها ، بل جعلها أول الواجبات الشرعية عليهم وهي توحيد الله ﷻ ، وأن تعليم الناس قضية التوحيد هو من أهم المهمات التي قام بها النبي ﷺ .

فقد أخرج الهروي عن الشافعي قال : سئل مالك عن التوحيد فقال مالك : " محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد ، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله .." (٣) فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد " (٤) .

فهذا نص الإمام مالك رحمه الله على أن حقيقة التوحيد هي إفراد الله ﷻ بالعبادة ، وهي القضية الشرعية التي يسلم الكافر وبها يعصم الدم والمال ، وإليها دعا الرسول ﷺ وقاتل ، وهي قضية التوحيد ، التي تعني لا مستحق للعبادة إلا الله ﷻ وحده ، ولم يفسر التوحيد بأنه الربوبية ، أو بالقدرة على الاختراع والصنع ونحو ذلك كما هي طريقة أهل الكلام ، أو يقسم التوحيد إلى توحيد العامة ، والخاصة ، وخاصة الخاصة كما هي طريقة أهل التصوف .

لقد قرر الإمام مالك مثلما قرر غيره من أهل السنة والجماعة على أن أول ما يجب على العبد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإفراد الله ﷻ بالعبادة ، وهو

(١) درء تعارض العقل والنقل ٨/٣٦٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة ٣/٢٦٢ (ح ١٣٩٩) ، ومسلم في كتاب الإيمان ،

باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/٥١ (ح ٣٢٤) .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٠/٢٦ .

المقصد الأعظم الذي أرسل لأجله الرسل - عليهم السلام - وأنزلت الكتب وخلق له الجن والإنس .

ووجدنا نصا آخر يبين موقف الإمام مالك رحمه الله من معرفة الله ﷻ ، كما أخرجه أبو داود عن عبد الله بن نافع قال : " قال مالك : الله في السماء وعلمه في كل مكان " (١) .

هذا النص إثبات لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن الله ﷻ في السماء ، وأن علمه شامل لكل الكائنات . ليس كما زعم أهل التعطيل من أن الله تعالى لا فوق العالم ولا تحته ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه . وليس أيضا كما زعمته بعض الجهمية والصوفية من أن الله ﷻ في كل مكان ، أو أن الله تعالى في كل شيء ، أو أن الله ﷻ كل شيء كما يزعمه الحلولية والاتحادية ؛ بل الصحيح الحق الذي يدل عليه النقل والعقل والفطرة والإجماع أن الله تعالى فوق عرشه ، عال على خلقه ، وأن علمه وقدرته ومملكه ﷻ في كل مكان ، له الأسماء الحسنى والصفات العليا ، لا يشبهه شيء من مخلوقاته ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢) ، فهو المتصف بصفات الكمال ، المنزه عن النقائص والعيوب ، فمن اعتقد أن الله ﷻ متحد بمخلوقاته وأن العبد عين الرب ، والرب عين العبد فقد كفر ، وخالف الفطر والشرائع .

لهذا رد شيخ الإسلام ابن تيمية على الذين يعتقدون بوحدة الوجود كما عند الاتحادية الصوفية ، وبين رحمه الله أن كفرهم أشد من كفر أهل الكتاب (٣) ؛ ذلك أن الله ﷻ كفر النصاري الذين قالوا : إن الله ﷻ اتحد بعيسى ابن مريم فقال ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (٤) بينما الاتحادية يقولون : بأن الله ﷻ متحد مع جميع مخلوقاته ، وبهذا يكون كفرهم أشد ، لأنهم يعتقدون بأن الله ﷻ متحد بجميع ما في هذا الكون ، ولأن فطرهم مطموسة في سبيل معرفة الله ﷻ .

ثم ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية بأن الإمام مالك رحمه الله كان من جملة العلماء الذين قالوا بتكفير أهل الوحدة والاتحاد فقال :

(١) أخرجه أبو داود في مسائل الإمام أحمد ص ٢٦٣ ، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ١٠٧/١ .

(٢) سورة الشورى ، الآية (١١) .

(٣) انظر : الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣٠/١ .

(٤) سورة المائدة ، الآية (١٧) .

" من المشايخ الذين قالوا بتكفير الاتحادية هم : سعيد بن المسيب ، والحسن البصري ، وعمر بن عبد العزيز ، ومالك بن أنس ، والأوزاعي ، وإبراهيم بن أدهم ، وسفيان الثوري ، والفضيل بن عياض ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل وغيرهم " .

إلى أن قال رحمه الله : " كل هؤلاء متفقون على تكفير هؤلاء ومن هو أرجح منهم ، وأن الله سبحانه ليس هو خلقه ولا جزءا من خلقه وصفة لخلقه ؛ بل هو ﷻ مميز بنفسه المقدسة بآئن بذاته المعظمة عن مخلوقاته ، وبذلك جاءت الكتب الأربعة الإلهية من التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وعليه فطر الله تعالى عباده وعلى ذلك دلت العقول " ^(١) .

(١) الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٨٦/١ .

٢- العبودية

إن اجتهاد الإمام مالك رحمه الله وحرصه على العبادة ومناجاته ﷻ وبكائه الشديد في صلاة الليل والناس نيام دليل واضح على أنه علّم من الأعلام العابدين الوجلين الخاشعين لله ﷻ في السر والعلانية .

ذكر القاضي عياض عن هذا المشهد في كتابه ترتيب المدارك : " قال المغيرة : خرجت ليلة بعد أن هجع الناس هجعة فمررت بمالك بن أنس ، فإذا أنا به قائم يصلي ، فلما فرغ من الحمد لله ابتداء بسورة التكاثر حتى بلغ ﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ ﴾ ^(١) فبكى بكاء طويلا وجعل يردددها ويكي ، وشغلني ما سمعت ورأيت منه عن حاجتي التي خرجت إليها ، فلم أزل قائما وهو يردددها ويكي حتى طلع الفجر ، فلما تبين له ركع فصرت إلى مترلي فتوضأت ، ثم أتيت المسجد فإذا به في مجلسه والناس حوله ، فلما أصبح نظرت فإذا أنا بوجهه قد علاه نور حسن " ^(٢) .

ولهذا ، قال محمد بن خالد بن عتمة : كنت إذا رأيت وجه مالك رأيت أعلام الآخرة في وجهه ، فإذا تكلم علمت أن الحق يخرج من فيه ^(٣) . وقال ابن مهدي : ما رأيت أحدا الله في قلبه أهيب منه في قلب مالك ، وقال أبو مصعب : كان مالك يطيل الركوع والسجود في ورده ، وإذا وقف في الصلاة كأنه خشبة يابسة لا يتحرك منها شيء ، فلما ضرب قيل له : لو خففت في هذا قليلا ، فقال : ما ينبغي أن يعمل لله عملا إلا إذا أحسنه والله تعالى يقول : ﴿ لِيَلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ^(٤) " ^(٥) .

وكان أكثر عبادته بالسر ، قال ابن وهب : " كان أكثر عبادة مالك في السر بالليل والنهار حيث لا يراه أحد ، وقد كان في كفه - رحمه الله - منديل مطوي على أربع

(١) سورة التكاثر ، الآية (٨) .

(٢) ترتيب المدارك ١/ ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) سورة هود ، الآية (٧) ، وسورة الملك ، (٢) .

(٥) ترتيب المدارك ١/ ١٧٨ .

طاقات ، فإذا سجد سجد عليه فقيل له في ذلك ، فقال : أفعله لئلا يؤثر الخط على جبهتي فيظن الناس أنني أقوم الليل " (١) .

وقال ابن المبارك : رأيت مالكا فرأيت أنه من الخاشعين ، وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبينه ، وذلك أنني كثيرا ما كنت أسمعه يقول : من أحب أن يفتح له فرجه وينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية (٢) .

لقد أثر القرآن الكريم وقول الرسول ﷺ على الإمام مالك - رحمه الله - ذلك أن الله ﷻ فرض على العباد أن يخافوه فقال تعالى : ﴿ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) وقال ﷻ : ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ ﴾ (٤) ، وكذلك الرسول ﷺ قد خوف فقال : " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " (٥) .

فالذي حدث للإمام مالك من خوف وخشية أثناء الصلاة وتلاوة القرآن هو من صفات عباد الله المؤمنين ، الذين قال عنهم ﷻ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٦) ، ﴿ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٧) .

ولئن كان الصوفية يتحدثون كثيرا عن العبودية والخشوع والخوف والمراقبة والحزن والشوق .. فإن حال الإمام مالك يشير إلى أنه من الخاشعين الوجلين ، وأنه أسبق من الصوفية إلى القيام بالعبادة التي يسمونها الأحوال والمقامات .

(١) المصدر السابق ١٧٩/١ - ١٨٠ .

(٢) نفسه ١٧٨/١ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٧٥) .

(٤) سورة النحل ، الآية (٥١) .

(٥) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الرقاق ، باب (٢٧) ١١٥/١٣ (ح ٦٤٨٥ ، ٦٤٨٦) .

(٦) سورة الأنفال ، الآية (٢) .

(٧) سورة مريم ، الآية (٥٨) .

٣- العلم

روى أبو نعيم بسنده إلى ابن وهب " قال مالك : وحق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية ، والعلم حسن لمن رزق خيره ، وهو قسم من الله فلا تمكن الناس من نفسك ، فإن من سعادة المرء أن يوفق للخير ، وإن من شقوة المرء أن لا يزال يخطئ ، وذل وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه .. " (١) .

وقسم الإمام مالك الناس في العلم إلى : " رجل علم فعمل به ، فمثله في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) . ورجل علم به ولم يعلمه فمثله في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى .. ﴾ (٣) ، ورجل علم علما ولم يعمل به فمثله في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾ (٤) " (٥) .

وقيل له : ما تقول في طلب العلم ؟ قال : حسن جميل ، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه ، وقال : العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع (٦) .

وقال : العلم نور يجعله الله حيث يشاء ، ليس بكثرة الرواية وإنما نور يضعه الله في القلوب (٧) .

وذكر الحافظ ابن عبد البر في التمهيد قال : هذا كتبه من حفظي وغاب عني أصلي : أن عبد الله العمري (٨) العابد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل - أي على العزلة والتعبد - فكتب إليه مالك : إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق ، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٤٩/٦ .

(٢) سورة فاطر ، الآية (٢٨) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٥٩) .

(٤) سورة الفرقان ، الآية (٤٤) .

(٥) ترتيب المدارك ١٩٠/١ .

(٦) نفسه ١٨٥/١ ، وحلية الأولياء ٣٤٩/٦ .

(٧) نفسه ١٨٤/١ ، وحلية الأولياء ٣٤٨/٦ .

(٨) عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله ، أبو عبد الرحمن العمري ، الإمام القدوة (ت ١٨٤هـ) انظر : سير أعلام

، وآخر فتح له في الجهاد ، فنشر العلم من أفضل أعمال البر ، وقد رضيت بما فتح لي فيه ، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه ، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر ^(١) .

قال الدكتور عبد العزيز الحميدي : " وهكذا أبان الإمام مالك فضل العلم ، وبين لذلك العابد شمول العبادة ، حيث ذكر أن نشر العلم من أفضل الأعمال الصالحة ، وأن العالم الذي ينشر علمه ليس بأقل عملاً ممن قصر علمه على أداء الشعائر التعبدية " .

ثم أضاف قائلاً : " وهذه نظرة مهمة في بيان شمول العبادة ، حيث تشمل كل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى ، وإن من أفضل الأعمال التي تدخل في ذلك نشر العلم ؛ بل إنه أفضل من الاقتصار على أداء الشعائر التعبدية من النوافل ، لأن هذه نفعها قاصر على فاعلها ، ونشر العلم يصل نفعه إلى من قام به ومن استفاد من نشره " ^(٢) .

وهذا - بلا شك - رد على بعض الأفكار الصوفية التي تفضل العزلة والتعبد من طلب العلم ، كما أنه تصحيح على الذين يقتصرون دورهم في هذه الحياة على المبالغة في أداء النوافل ، دون أن يلتفتوا إلى الغاية العظمى التي خلقوا من أجلها في هذه الدنيا ؛ ألا وهي تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له .

وعلى جانب اهتمام مالك على نشر العلم فقد بين موقفه من تفريق ما يسمونه بعلم الباطن من جانب آخر ، أو الذي اهتم بعلم الباطن ولا يلتفت إلى علم الظاهر ، حيث قال رحمه الله : " شر العلم الغريب ، وخير العلم الظاهر الذي قد رواه الناس " ^(٣) . وحينما " سأل رجل مالكا عن الشيء من علم الباطن فغضب وقال : علم الباطن لا يعرفه إلا من عرف علم الظاهر ، فمتى عرف علم الظاهر وعمل به فتح الله عليه علم الباطن ، ولا يكن ذلك إلا مع فتح قلبه وتنويره . ثم قال للرجل : عليك بالدين المحض ، وإياك وبنيات الطريق ، وعليك بما تعرف وأترك ما لا تعرف " ^(٤) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٠٢/٨ .

(٢) الرسائل الشمولية ص ١٩٤ .

(٣) ترتيب المدارك ١٨٤/١ .

(٤) نفسه ١٧٢/١ .

وهكذا كان موقف الإمام مالك مع أهل الأهواء كما قال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : إذا جاءه بعض أهل الأهواء ، يقول : أما أنا فعلى بينة من ربي ، وأما أنت فشاك ، فاذهب إلى مثلك فخاصمه ، ثم قرأ ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ .. ﴾ ^(١) .

قال مطرف : سمعت مالكا إذا ذكر عنده فلان من أهل الزيغ والأهواء يقول : قال عمر بن العزيز رحمه الله تعالى سن رسول الله ﷺ لولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ، ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ، ولا النظر في شيء خالفها ، من اهتدى بها استنصر ، ومن انتصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا " ^(٢) .

نفهم من النصوص السابقة أن الإمام مالك - رحمه الله - حث على طلب العلم كغيره من علماء السلف الصالح ؛ ذلك أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، كما وجه إلى من يطلب العلم أن يخشى الله ﷻ .

وندرك منه كذلك إنكاره - رحمه الله - على ما يعتقد بعض المتصوفة بأن لديهم علوما خاصة لا يطلع عليها أحد إلا من كان معهم ، وأن للدين ظاهرا وباطنا ، وأن الظاهر للعوام وهو الشريعة عندهم ، وأن الباطن للخواص وهو الحقيقة عندهم .

ولا شك أن هذا المعتقد أثر من آثار المعتقدات الشيعية والباطنية ، لأنهم قاموا بتفسير علومهم تفسيراً باطنياً ، كما قال الغزالي : " وهذه العلوم - علوم المكاشفة - هي علوم سرية لا يجوز الإفشاء بها ، ولا تستطيرها في كتاب .. " ^(٣) ثم قسم العلوم إلى قسمين : العلم الظاهر ، والعلم الباطن ، واستدل بهذا التقسيم بحديث موضوع (العلم علمان ، فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع ..) ^(٤) ، وهو شبيه بالتقسيم الباطني للعلوم ، الذي شجع الباطنية على الإسراف في التأويلات .

(١) سورة يوسف ، الآية (١٠٨) .

(٢) المصدر السابق ١٧٢/١ .

(٣) إحياء علوم الدين ٢٤٦/٤ .

(٤) إتحاف السادة المتقين ٣٤٩/١ ، وأبو حامد الغزالي والتصوف ص ١١٦ .

٤- الزهد

قال الإمام مالك رحمه الله : " الزهد في الدين طيب المكسب ، وقصر الأمل " ^(١)
بمعنى أن يكون كسب الإنسان في هذه الحياة من حلال طيب ، وألا يطول الأمل فيها ، ثم
ذكر لرجل طلب منه الوصية فيقول له : " أوصيك أن تعمل صالحا وتأكل طيبا " ^(٢) .

لا شك أن هذا الموقف وهذه النصيحة موافقة لتوجيهات القرآن الكريم والسنة
النسوية المطهرة ، حيث قال الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا
تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ^(٣) وقال تعالى أيضا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٤) .

وقال الرسول ﷺ : " أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين
بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ^(٥) " ^(٦) .

أما قصر الأمل في هذه الحياة فقد بينه الإمام مالك فيقول : " بغيتك منها ما يكفيك ،
فأقل عيشها يغنيك ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى " ^(٧) .

فهذا توجيه سليم من الإمام مالك - رحمه الله - حيث يعلم الإنسان الرضا والقناعة
، ويرشده كيف يعيش في هذه الحياة القصيرة ، ويبين أن المقصد الأعظم في هذه الحياة هو
عبادة الله جل جلاله مع الانتفاع بما أحل الله له بلا إسراف ولا تقتير ، وليس المراد من
وجوده في هذه الحياة مجرد الانتفاع بما لا يأمر به الله ﷻ وبما لا ينفعه ، ويلهيه الأمل ، لأن
الله ﷻ ذم الذين يتمتعون في هذه الدنيا ويلهيه الأمل فقال سبحانه : ﴿ رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ . ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٨) .

(١) ترتيب المدارك ١/ ١٨٤ .

(٢) نفسه ١/ ١٨٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٦٨) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية (٥١) .

(٦) سبق ترجمه في ص ٢٣٦ .

(٧) ترتيب المدارك ١/ ١٨٧ .

(٨) سورة الحجر ، الآيتان (٢ - ٣) .

لقد اتضح زهد الإمام مالك - رحمه الله - من خلال بعض مواقفه من متع هذه الحياة ، قال الحارث مسكين : " رحم الله مالكا ما كان أصونه للعلم وأصبره على الفقر ولزوم المدينة ! أمر له بجوائز ثلاثة آلاف دينار فما استبدل متزلا غير المنزل الذي كان فيه ، ولا استفاد منه غلة ولا صنعة ولا تجارة " (١) .

ولكن لا بد من التنبيه بأن زهد الإمام مالك لم يكن زهدا منحرفا ، أو كان هجرا للمال والعيال - كما عند الصوفية المنحرفين - وإنما كان زهده نابعا من تعاليم ديننا الحنيف ، التي تأمر بالرضا بالقليل والقناعة بما وهبها الله ﷻ من نعم ، وتحث على العمل والسعي في مناكب هذه المعمورة الواسعة .

وما ذكره القاضي عياض خير بيان وتوضيح لهذا الموقف حيث قال : أن لمالك بن أنس أربعمائة دينار يتجر له بها ، فمنها كان قوام عيشه ومصلحته (٢) ، وكان أخوه النضر يتجر في البز ، فشاركه مالك حيث كان يبيع معه ويتجر فيه .

فلما أفضى به الأمر وشرع بطلب العلم أنفق ما كان يملك ، حتى بلغ به الحال إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه .. (٣) .

إلى جانب هذا الزهد كان الإمام مالك - رحمه الله - يعتنى بلباسه أتم عناية ، وكان يقول : إن مروءة العالم أن يختار الثوب الحسن الذي يرتديه ويظهر به ، فقد كان - رحمه الله - يلبس أجود اللباس وأغلاه وأجمله .

قال القاضي أبو الوليد : استحسن عمر ﷺ لأهل العلم والصلاح حسن الزي والتجمل المباح ، لأن ذلك مشروع ، وقد روى عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " إن الله جميل يحب الجمال ، والكبر من بطر الحق وغمط الناس " (٤) ،

(١) المصدر السابق ١/ ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ١٨٤ .

(٣) الديباج المذهب ص ١٩ .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيان ١/ ٩٣ (ح ٩١) .

ولما سئل الإمام مالك عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ^(١) قال : أن يعيش ويأكل ويشرب غير مضيق عليه ^(٢) .

وحيثما سئل الإمام مالك عن لباس الصوف الغليظ وغيره ؟ فقال : لا خير في لبسه إلا في سفر كما لبسه النبي ﷺ لأنه شهرة - تظاهر بالزهد - ، وإنه لقبيح بالرجل أن يعرف دينه بلباسه ، وقال - رحمه الله - : ما أدركت فقهاء بلدنا إلا وهم يلبسون الثياب الحسان ، وكان يقول : أحب للقارئ - أي الفقيه - أن يكون أبيض الثياب . كما كان يحب لأحد أنعم الله عليه أن يرى أثر نعمته عليه وخاصة أهل العلم ، ينبغي لهم أن يظهروا مروءاتهم في ثيابهم إجلالا للعلم ^(٣) .

وكان - رحمه الله - يكره خلق الثياب ، أي البالي منها ، وقال الضحاك : كان مالك جميل الوجه نقي الثوب ، يكره أخلاق اللباس ^(٤) .

ولا شك أن موقف الإمام مالك مما سبق ذكره يعتبر ردا وتصحيحا لمفهوم الصوفية الخاطيء في الزهد ؛ وهو التخلي عن المال كلية ، وتعذيب الجسد وعدم الاعتناء به . كما أنه أيضا رد على الصوفية التزامهم لبس الصوف ليعرفوا ، ذلك لأن من مبادئه ألا يعرف دين الرجل من ثوبه .

(١) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٢) عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة لابن شاس ، الدكتور محمد أبو الأحفان وغيره ، ط ١ (دار الغرب الإسلامي) ٥٢٢/٣ - ٥٢٢ .

(٣) انظر : ترتيب المدارك ١١٤/١ ، وعقد الجواهر الثمينة ٥٢٢/٣ .

(٤) انظر : الديباج ص ١٨ .

٥- التقوى

روى أبو نعيم بسنده إلى خالد بن خدّاش قال : ودعت مالكا بن أنس فقلت : أوصني يا أبا عبد الله ، قال : تقوى الله ، وطلب الحديث من عند أهله ^(١) .
إذا نظرنا في وصية الإمام مالك وجدناها قصيرة لكنها جماع الخيرات ، ومأخوذة مما دل عليه الكتاب والسنة .

حيث وصى الله ﷺ الأولين والآخرين بالتقوى فهي خير وصية فقال : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ^(٢) .
وأمرنا الله بأن نتزود بالتقوى لأنها خير الزاد قال تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٣) .

وأثنى الله ﷻ على المؤمنين بأبرز صفاتهم العملية وهي التقوى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٤) .

وذكر الله ﷻ محبته لعباده المؤمنين بهذه الصفة ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٥) .

أما من السنة ففيها أحاديث كثيرة تحدثت عن التقوى ، ورفعت من شأن المتقين ، فمن ذلك قول الرسول لأبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما : " اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن " ^(٦) .

وقوله ﷺ لأبي ذر أيضا : " انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى " ^(٧) .

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٤٨/٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية (١٣١) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٩٧) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (٢١٢) .

(٥) سورة آل عمران ، الآية (٧٦) .

(٦) أخرجه الترمذي في البر والصلة ، باب ما جاء في معاشره الناس ٣٥٥/٤ (ح ١٩٨٧) ، والإمام أحمد في

المسند ١٥٣/٥ ، ١٥٨ . وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ١٨١/٢ (١٦١٨) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٥٨/٥ .

ونجد رسول الله ﷺ ينهى عن مصاحبة غير الأتقياء حينما يقول : " لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي " (١) .

ومعلوم أنه ليس المقصود من ذلك مجرد الأكل ؛ وإنما المراد ما يترتب على مجالسة أهل المعاصي في التأثير في مستوى الإيمان .

ثم إن المؤمن التقي لا بد أن يحفظ نفسه عما يشينها ويعرضها لللام أو العذاب ، وذلك بترك أسباب السخط والسخرية والعقوبة ، وفعل الفرائض المنجية المؤدية إلى النعيم والثواب ، وإنما كمل ذلك ويتم بترك بعض المباحات .

وإلى هذا أشار الحديث الشريف الذي يقول : " إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب " (٢) .

وفي هذا الحديث ما يفيد أن تمام التقوى المشار إليه بقوله " اتق الشبهات " مرتبط بطهارة القلب ، ونظافته من الوسوس والهواجس ، ومن سيئ المشاعر وخبيث الخواطر . ولهذا وجدنا بعض الصوفية كأحمد الجريري قد أشار إلى هذا الجانب معتقدا بأن التقوى سبب الوصول إلى الكشف والمشاهدة .

وكذلك أبو القاسم النصر آبادي قد قال : أن من التزم بالتقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا ، لأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

وقال بعضهم : من تحقق في التقوى هون الله على قلبه الإعراض عن الدنيا (٤) . ولكن ينبغي أن نفهم أن التقوى لا يعارض التمتع بزيينة الله تعالى التي أباحها لعباده ، وقد كان خيار السلف يتمتعون بها ويضربون مع ذلك أمثلة للتقوى ، وحسبنا قدوة في

(١) أخرجه أبو داود ، في كتاب الأدب ، باب ١٩ من يؤمر أن يجالس ، والترمذي في كتاب الزهد ، باب صحبة المؤمن (٢٣٩٧) ، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢٨٥/٢ (١٩٥٢) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٢١٩/٣ (ح ١٥٩٩) والبخاري في الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ٢٨/١ (ح ٥٢) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية (٣٢) .

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٠٥ - ١٠٦ .

ذلك الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - فقد كتب إليه يحيى^(١) بن يزيد النوفلي ناصحا إياه لأنه - رحمه الله - قد أخذ مما أباح الله له من نصيب هذه الدنيا فيقول : " ..فقد بلغني أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطئ ، وتجعل على بابك حاجبا ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت إليك المطي ، وارتحل إليك الناس ، واتخذوك إماما ، ورضوا بقولك ، فاتق الله تعالى يا مالك ، وعليك بالتواضع ، كتبت إليك بالنصيحة مني كتابا ما اطلع عليه غير الله ﷻ .. " .

فرد عليه الإمام مالك فيقول : " فقد وصل إلي كتابك ، فوقع مني موضع النصيحة والشفقة والأدب ، أمتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، وأسأل الله تعالى التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، أما ما ذكرت لي إني أكل الرقاق ، وألبس الدقاق وأحتجب ، وألبس الوطئ فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى ، قد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) . وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا .. " ^(٣) .

إذن فالتقوى ليس المراد منها - كما يفهمها بعض الصوفية - هو مفارقة الدنيا أو الإعراض عنها ؛ وإنما أن تملكها وتستفيد فيها ، لكي تستطيع أن تقوم بأداء الواجبات ، وتنفيذ ما أمر الله به في هذه الحياة .

(١) يحيى بن يزيد بن عبد الملك النوفلي ، من عباد أهل المدينة ، انظر : الجرح والتعديل ١٩٧/٩ ، ولسان الميزان ٣٦٤/٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

(٣) انظر : موسوعة أخلاق القرآن ، للدكتور أحمد الشرباصي ٢١١/٢ - ٢١٢ .

٦ - الذكر

روى أبو نعيم بسنده إلى القعني عن مالك أنه بلغه أن عيسى عليه السلام كان يقول : " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتفسد قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، ولكن انظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان ، مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية " ^(١) .

وكان من ضمن وصاياه " ..وعليك بمعالى الأمور وكرائمها ، واتق رذائلها ، وما سف منها ، فإن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفاسفها ، وأكثر تلاوة القرآن ، واجتهد ألا تأتى عليك ساعة من ليل أو نهار إلا ولسانك رطب من ذكر الله .. " ^(٢) .

لاشك أن كلام الإمام مالك - رحمه الله - في الذكر وتلاوة القرآن موافق لما دل عليه الكتاب والسنة ، كما قال الله تعالى مخاطبا أهل الإيمان ، وآمرا لهم بأن يذكروا الله ذكرا كثيرا في الليل والنهار : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ^(٣) . وقال تعالى أيضا : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ ^(٤) .

والذكر له فضل عظيم ، قال الله تعالى مخبرا عن حال الذاكرين والذاكرات وما أعد لهم ﴿ وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(٥) . وقال رسول الله ﷺ : " ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ " قالوا بلى قال : " ذكر الله تعالى " ^(٦) .

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٥٨/٦ .

(٢) الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة ص ٣٣٢ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان (٤١ - ٤٢) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية (٢٠٥) .

(٥) سورة الأحزاب ، الآية (٣٥) .

(٦) أخرجه الترمذي ، في الدعوات ، باب ما جاء في فضل الذكر ٣٨٩/٥ . و أورده الألباني في صحيح سنن

الترمذي ١٣٩/٣ (ح ٣٦١٧) ، وفي صحيح ابن ماجه (ح ٢٧٩٠) .

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به قال : « لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » ^(١) .

وقال رضي الله عنه : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ﴿ الم ﴾ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » ^(٢) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال : « أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم ؟ » فقلنا يا رسول الله نحب ذلك ، قال : « أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم ، أو يقرأ آيتين من كتاب الله ﷻ خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل » ^(٣) .

وقال رضي الله عنه : « من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ، ومن اضطجع مضجعاً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة » ^(٤) .

فالإمام مالك - رحمه الله - كان حريصاً على ذكر الله وأوصى به ، ولكنه - مع ذلك - ينكر الاجتماع للذكر على صوت واحد كما تفعله المتصوفة المنحرفة ؛ ذلك أن الاجتماع على صوت واحد إحدى البدع المحدثات التي لم تكن في زمن رسول الله ﷺ ، ولا في زمن الصحابة ولا من بعدهم من التابعين لهم بإحسان ، ولا عرف ذلك في شريعة محمد ﷺ ، بل هو من البدع التي سماها رسول الله ﷺ ضلالة وهي مردودة .

كما ذكر ذلك رضي الله عنه : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ^(٥) يعني فهو مردود غير مقبول ، وفي رواية : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

(١) أخرجه الترمذي ، في الدعوات ، في فضل الذكر ٣٨٨/٥ . وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/١٣٩ (٣٦١٥) ، وفي صحيح ابن ماجه (ح ٢٧٩٣) .

(٢) أخرجه الترمذي ، في فضائل القرآن ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن (٣٠٨٧) ، وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣٤٠/٥ .

(٣) أخرجه مسلم ، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه ١/٥٥٣ (٨٠٣) .

(٤) أخرجه أبو داود ، في كتاب الأدب ، باب كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله ١٨١/٥ (٤٨٥٦) .

(٥) أخرجه البخاري في الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٢/٢٦٦ (ح ٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية ، باب ٨ (ح ١٧١٨) .

"وعن الحسن البصري أنه سئل وقيل له : ما ترى في مجلسنا هذا ؟ قوم من أهل السنة والجماعة لا يطعنون على أحد نجتمع في بيت هذا يوما ، فنقرأ كتاب الله وندعو الله ربنا ، ونصلي على النبي ﷺ ، وندعو لأنفسنا ولعامة المسلمين ؟ قال : فنهى الحسن عن ذلك أشد النهي ، لأنه لم يكن من عمل الصحابة ولا التابعين ، وكل ما لم يكن عليه عمل السلف الصالح فليس من الدين ، فقد كانوا أحرص الناس على الخير ، ولو كان فيه خير لفعلوه ، وقد قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (١) .

وقال مالك بن أنس : فما لم يكن يومئذ دينا لم يكن اليوم دينا ، وإنما يعبد الله بما شرع ، وهذا الاجتماع لم يكن مشروعاً قط فلا يصح أن يعبد الله به " (٢) .
وهذا دليل على تمسك الإمام مالك - رحمه الله - بما عليه أهل الحق من سلف هذه الأمة ، وحرصه الشديد على أن يكون هذا الدين - كما شرعه الله ﷻ - نقياً من كل شائبة ، وخالياً من بدع المبتدعين ؛ بل تصحيح للصوفية الذين شرعوا أذكارا أو أورادا من عند أنفسهم كما حصل للصوفية المتأخرين .

(١) سورة المائدة ، الآية (٣) .

(٢) انظر : المعيار المعرب والجامع المغرب ٤٠/١١ .

٧- السماع

لقد ادعى الصوفية بأنهم قوم مرهفو الإحساس عاطفيون ، لذلك أحدثوا ما يسمونه السماع ، وهو الاستماع إلى الغناء والرقص والوجد ، اعتقاداً منهم حله لأنه يحيي القلوب حسب زعمهم .

قال أبو العباس القرطبي : كان الصوفية يطلقون السماع على فهم يقع لأحدهم بغته، يكون عنده وجد وغيبة سواء كان ذلك في نظم أو نثر أو غيرهما ^(١) .

وقال ابن الجوزي : " اعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين ، أحدهما : أنه يلهي القلب عن التفكير في عظمة الله سبحانه والقيام بخدمته . والثاني : أنه يميله إلى اللذات العاجلة التي تدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ، ومعظمها النكاح وليس تمام لذته إلا في المتجددات ، ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل فلذلك يحث على الزنا ، فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنا أكبر لذات النفس .. " ^(٢) .

ولا شك أن الغناء الذي يصاحبه شيء من آلات اللهو كالملزامير وغيرها مجمع على تحريمه ، وكذلك الغناء الذي لا يصاحبه شيء من آلات اللهو ولكنه فيه شيء من الغزل وذكر النساء والحب والغرام ، لأن ذلك من أعمال الفساق والزنادقة ، ومن الأمور التي لم يأمر بها الله تعالى ولا رسوله ﷺ ، ولا سلف الأمة ، ولا أعيان مشايخها .

ولعل الحدث الذي حصل في عهد الإمام مالك - رحمه الله - يبين لنا موقفه من السماع لدى الصوفية ، وأن ما تقوم به الصوفية من صناعة الغناء والرقص والوجد .. جديرة بالإنكار لأن هذا العمل ليس من فعل الإسلام .

حكى عياض عن التنيسي ^(٣) أنه قال : كنا عند مالك بن أنس وأصحابه حوله ، فقال رجل من أهل نصيبين ^(٤) : يا أبا عبد الله عندنا قوم يقال لهم الصوفية ، يأكلون كثيراً ثم يأخذون في القصائد ، ثم يقومون فيرقصون ، فقال مالك : أصبيان هم ؟ قال : لا ، فقال

(١) انظر : كشف القناع لأبي العباس القرطبي ص ٥٠ ، وإحياء علوم الدين ٢/٢٦٨ .

(٢) تلبس إبليس ص ٢٧٤ .

(٣) هو : عبد الله بن يوسف التنيسي ، أبو محمد الكلاعي ، أصله من دمشق ، ثقة من أثبت الناس في الموطأ ، (ت ٢١٨هـ) ، انظر : التقريب ١/٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٤) هي : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة العربية على جادة القوافل بين الشام والموصل ، ونصيبين أيضاً قرية من نواحي حلب ، وهي أيضاً مدينة على شاطئ الفرات . انظر : معجم البلدان ٥/٢٨٨ - ٢٨٩ .

مالك : أجماعهم ؟ قال : لا ، قوم مشايخ عقلاء . قال مالك : ما سمعنا أن أحدا من أهل الإسلام يفعل هذا ، فقال الرجل : بل يأكلون ثم يقومون فيرقصون ، يلطم بعضهم رأسه وبعضهم وجهه ، فضحك مالك وقام إلى منزله .

فقال أصحاب مالك للرجل : يا هذا أدخلت والله مشقة على صاحبنا ، لقد جالسناه نيفا وثلاثين سنة فما رأيناه ضحك إلا هذا اليوم ^(١) .

وفي النص رأينا كيف أنكر الإمام مالك - وهو إمام أهل السنة - على أن يكون من أهل الإسلام من يفعل هذا إلا أن يكون مجنونا أو صبيا ، وهذا واضح أنه ليس من تعاليم الإسلام ثم يقال : ولو فعلوه على جهة اللعب كما يفعله الصبي لكان أخف عليهم مع ما فيه من إسقاط الحشمة وإذهاب المروءة وترك هدي الإسلام وأرباب العقول ؛ لكنهم يفعلونه على جهة التقرب إلى الله ﷻ والتعبد به ، ويعتقدون بأن اللهو واللعب عبادة ، والحق أن ذلك من البدع الموقعة في الضلالة .

قال إسحاق بن عيسى الطباع ^(٢) : سألت مالكا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقال : إنما يفعله عندنا الفساق ^(٣) .

وهذا محمول على غناء النساء وأما الرجال فغنائهم مذموم أيضا بحيث إذا داوم أحد على فعله أو سماعه سقطت عدالته ، لما فيه من إسقاط المروءة ومخالفة السلف الصالح .

فموقف الإمام مالك من السماع عند الصوفية هنا واضح ، فهو ينكر وينهى عن ذلك كما هو بين من عباراته ، وقد " قال في المدونة ^(٤) : وأكره الإجارة على تعليم الشعر والنوح وعلى كتابة ذلك ، قال عياض : معناه نوح المتصوفة وإنشادهم على طريق النوح والبكاء ، فمن اعتقد في ذلك أنه قربة لله تعالى فهو ضال مضل ، ولا يعلم مسكين أن الجنة حفت بالمكاره وأن النار حفت بالشهوات ، والله تعالى لم يبعث أحدا من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) باللهو والراحة والغناء ؛ وإنما بعثوا بالبر والتقوى ، وما يخالف الهوى " ^(٥) .

(١) انظر : ترتيب المدارك ١/١٨٠ ، ومناقب مالك للزواوي ص ١٥٨ .

(٢) هو : إسحاق بن عيسى بن نجيح البغدادي ، أبو يعقوب بن الطباع (ت ٢١٤هـ) انظر : التقريب ١/٧٢

(٣) تليس إبليس ص ٢٨٢ .

(٤) انظر : المدونة الكبرى ، طبعة دار صادر ، (بيروت) ٤/٤٢١ .

(٥) المعيار المعرب ١١/٣٣ .

ومما يدل على إنكار الإمام مالك ونفيه عن الغناء واستماعه قوله : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب ، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده ، فإنه قد حكى زكريا الساجي أنه كان لا يرى به بأساً ^(١) .

وممن ذهب إلى تحريمه القاسم بن محمد من علماء أهل المدينة ، وكذلك علماء أهل مكة كمجاهد وعطاء ، وعلماء أهل الشام كمكحول والأوزاعي ، وعلماء أهل مصر كالليث بن سعد ، وعلماء أهل الكوفة وغيرهم ^(٢) .

وأما ما نقله القشيري ^(٣) ومحمد بن طاهر المقدسي ^(٤) عن الإمام مالك بأنه رخص الغناء فذلك لا يصح عنه ، وخلاف المشهور عنه كما تقدم ذكره .

قال أبو العباس القرطبي : وقد حكاه بعض الشافعية والقشيري عن مالك ولا يصح عنه بوجه ، ولا عن أحد من أصحابه ^(٥) .

وقال السمعاني عن محمد بن طاهر المقدسي : له في كتاب إباحة الغناء والرقص واللهو مناكير ، فإنه روي فيه عن مالك وغيره من أئمة الهدى المتقدمين حكايات عنهم منكورة باطلة قطعاً ^(٦) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : " .. وإن نقل عن بعض أهل المدينة وغيرهم أنه سمع الغناء فلم يقل أحد منهم أنه مستحب في الدين ومختار في الشرع أصلاً ، بل كان فاعل ذلك منهم يرى مع ذلك كراهته ، وأن تركه أفضل ، أو يرى أنه من الذنوب ، وغايته أن يطلب سلامته من الإثم أو يراه مباحاً ، كالتوسع في لذات المطاعم والمشارب والملابس والمساكن ، فأما رجاء الثواب بفعله والتقرب إلى الله فهذا لا يحفظ عن أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل المحفوظ عنهم أنهم رأوا هذا من ابتداع الزنادقة " ^(٧) .

(١) تلبس إبليس ص ٢٨٢ .

(٢) نزهة الأسماع لابن رجب ص ٧١ .

(٣) في الرسالة القشيرية ص ٣٣٦ .

(٤) هو : محمد طاهر المقدسي الظاهري الصوفي ، قال الذهبي ليس بالقوي ، فإن له أوهاماً كثيرة في توافيقه ، وله

انحراف عن السنة إلى التصوف غير مرضي ، وهو نفسه صدوق (ت ٥٠٧هـ) انظر : سير أعلام ٣٦١/١٩

وطبقات الأولياء ص ٢٣٥ .

(٥) كشف القناع ص ٥٧ ، ١٦٠ .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) الاستقامة ١/٢٣٧-٢٣٨ .

وقال في موضع آخر : " وأما نقلهم لإباحته عن مالك وأهل الحجاز كلهم فهذا غلط من أسوأ الغلط ، فإن أئمة أهل الحجاز على كراهته وذمه ، ومالك نفسه لم يختلف قوله وقول أصحابه في ذمه وكراهته " (١) .

وقال ابن القيم : قال صاحب القرآن في الرد على صاحب الغناء بقول مالك بإباحة الغناء ، وأما نقلك لإباحته عن مالك بن أنس وأهل الحجاز كلهم فهذا من أقبح الغلط وأفحشه (٢) .

وبهذا يتبين لنا أن ما نسب إلى الإمام مالك من إباحة الغناء كذب وافتراء ، ويلاحظ أن الاتهام مصدره من أهل التصوف الذين يبيحون السماع والغناء المحرم . وقد جاء الاتهام أيضا من أبي الفرج الأصبهاني (٣) في كتابه " الأغاني " ، وهو متهم بالتشيع ، وروى الحكاية التي ذكرها ابن طاهر .

ثم وجدنا نقدا من العلماء المالكية لمذهب الصوفية في الغناء ، فقد قال القرطبي - رحمه الله - في تفسير قوله ﷻ في سورة طه ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى . قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (٤) سئل الإمام الطرطوشي ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية ؟ - واعلم حرس الله مدته - أنه اجتمع جماعة من الرجال ، فيكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد ﷺ .

ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأدم ، ويقوم بعضهم برقص ، ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه ، هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ أفتونا مأجورين ، ومن هذا القول الذي يذكره :

يا شيخ كف عن الذنوب	قبل التفرق والزلل
واعمل لنفسك صالحا	ما دام ينفعك العمل
أما الشباب فقد مضى	ومشيب رأسك قد نزل

(١) الاستقامة ٢٧٢/١ - ٢٧٣ .

(٢) انظر : نزهة الأسماع ص ٦٧ - ٧١ .

(٣) هو : علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصبهاني ، وقال عنه الذهبي : والعجب أنه أموي شيعي .

انظر : سير أعلام النبلاء ٢٠١/١٦ .

(٤) سورة طه ، الآيات (٩١ - ٩٣) .

وفي هذا ونحوه الجواب : - يرحمك الله - مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري ، لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار ، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ، وأما القضيبي فأول من اتخذ الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ، وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضرهم ولا يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق " (١) .

وقال ابن الحاج : " فإن قيل أليس قد روى عن جماعة من الصالحين أنهم سمعوه قلنا ما بلغنا أن أحدا من السلف الصالح سمعه ولا فعله ، وهذه مصنفات أئمة الدين وعلماء المسلمين مثل مصنف مالك بن أنس ، وصحيح البخاري ومسلم ، وسنن أبي داود والنسائي رضي الله عنهم إلى غيرها خالية من دعواكم ، وهذه تصانيف فقهاء المسلمين الذي تدور عليهم الفتوى قديما وحديثا في شرق البلاد وغربها فقد صنف المسلمون على مذهب مالك ابن أنس تصانيف لا تحصى ، وكذلك مصنفات علماء المسلمين على مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من فقهاء المسلمين ، وكلها مشحونة بالذب عن الغناء وتفسيق أهله ، فإن كان فعله أحد من المتأخرين فقد أخطأ ، ولا يلزمنا الاقتداء بقوله ونترك الاقتداء بالأئمة الراشدين .

ومن هنا زل من لا بصيرة له ، نحتج عليهم بالصحابة والتابعين وعلماء المسلمين ، ويحتجون علينا بالتأخرين سيما وكل من يرى هذا الرأي الفاسد عار من الفقه عاطل من العلم لا يعرف مأخذ الأحكام ولا يفصل الحلال من الحرام ، ولا يدرس العلم ولا يصحب أهله ولا يقرأ مصنفاته ودواوينه ، وقد قال النبي ﷺ : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " .. (٢) .

فمن هجر أهل الفقه والحكمة وانقضى عمره في مخالطة أهل اللهو والبطالة كيف يؤمن بهذه المسألة وغيرها ؟ ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فيا من رضي بدينه

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/٢٣٧-٢٣٨ .

(٢) سبق تخريجه في ص ٢٢٨ .

ودنيه وتوثق لآخرته ومثواه باختياره مالك بن أنس وفتواه إن كنت على مذهبه ، وباختيار أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل إن كنت ترى رأيهم كيف هجرت اختيارهم في هذه المسألة وجعلت إمامك فيها شهواتك وبلوغ أوطارك ولذاتك ؟ " (١) .

ومن خلال النصوص السابقة يتبين لنا أن الإمام مالك - رحمه الله - وأتباعه كانوا يكرهون سماع الغناء ، أو السماع المنهي عنه الذي يكون فيه ضرب بالقضيب على شيء من الأدم (كالنوبة والطار) ، والذي يكون مصحوبا بالرقص والتواجد والقصائد الشركية ونحو ذلك .

أما السماع الذي شرعه الله ﷻ لعباده المتقين فلا كراهة فيه ؛ بل كان ذلك أمر مشروع ومطلوب ، وهو سماع آي القرآن الكريم تلاوة وتدبرا وحفظا ، والمواظبة على الأذكار الراتبة التي كان النبي ﷺ يحافظ عليها ، ومذاكرة الحديث والاشتغال به وبالعلوم الشرعية .

وقد كان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ عليهم شيئا من القرآن الكريم والباقون يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى الأشعري ﷺ يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال النبي ﷺ : " اقرأ علي القرآن " قلت : أقرأه عليك وعليك أنزل ؟ فقال : " إني أحب أن أسمع من غيري " فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ قال : " حسبك " فنظرت فإذا عيناه تذرفان (٣) .

(١) المدخل لابن الحاج ١٠٨/٣ .

(٢) أخرجه الدارمي في سننه ٣٣٩/٢ (ح ٣٤٩٦) .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح في فضائل القرآن ، باب البكاء عند قراءة القرآن ١٢١/١٠ (ح ٥٠٥٥) .

المبحث الثالث

بطلان ما نسب إلى الإمام مالك في التصوف

١- ما نسب إليه الكلام في الحقيقة

قال ابن عجيبة ^(١) في " إيقاظ الهمم في شرح الحكم " :

" قال مالك رحمه الله : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق " ^(٢) .

وقال محمد أمين الكردي ^(٣) : بعد أن بين الشريعة والطريقة والحقيقة : " لا بد لسالك طريق الآخرة من الجمع بين هذه الثلاثة وعدم التعطيل لشيء منها ، وذلك لأن الحقيقة بلا شريعة باطلة ، والشريعة بلا حقيقة عاطلة " ثم استدل بقول الإمام مالك : " من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق " ^(٤) .

التعليق :

هذه النصوص لا تصح نسبتها إلى إمام دار الهجرة لعدة أمور :
أولا : إذا نظرنا في النصوص فليس فيها سند يمكن الرجوع إليه ، ذلك أن السند وارد عن أناس لهم ذوق وميل إلى التصوف ، حيث أخذوا يدعمون أفكارهم ومبادئهم بالكلام المصطنع لعلم من الأعلام الكبار ، وهذا ليس بغريب على بعض المتصوفة الذين يحاولون جذب الناس إلى معتقداتهم كما فعل ذلك الشعراي وغيره حيث أدرج الصحابة الكبار والأئمة الأخيار ضمن أعلام التصوف ، وكما ذكر ذلك محمد أبو الفيض المنوفي مؤخرا من أن الأئمة الأربعة كانوا من الصوفية ^(٥) .

(١) هو أحمد بن محمد المهدي بن عجيبة ، صوفي من أهل المغرب ، وله كتب كثيرة في التصوف منها :

الفتوحات الإلهية ، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم ، (ت ١٢٢٤ هـ) انظر : جمهرة الأولياء ١/ ٢٣٤ .

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، لابن عجيبة ، بيروت (دار المعرفة) ٥/ ١ ، ومقدمة التعرف ص ٨ .

(٣) هو محمد أمين بن فتح الله الإربلي الكردي ، واعظ (ت ١٣٣٢ هـ) انظر : الأعلام ٦/ ٤٣ ، ومعجم

المؤلفين ٧٧/ ٩ .

(٤) تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ، لمحمد أمين الكردي ط ١ سوريا (دار القلم ١٤١١ م) ص ٤٦٨ .

(٥) انظر : جمهرة الأولياء وأعلام التصوف ١/ ١٥٥ .

ثانيا : وأما من حيث المتن فإني أبعء أن يصدر مثل هذا المصطلح عن الإمام مالك - رحمه الله - لعدم ورود النصوص في الكتب المعتمدة لدى إمام دار الهجرة وتلامذته ، ولدى كتاب تراجمه من العلماء المشهورين ، وأتساءل كيف يقر الإمام مالك على التصوف وهو من المنكرين أشد الإنكار على أعمال صدرت من الصوفية ؟!

كما حكى لنا عبد الله بن يوسف التنيسي فقال : " كنا عند مالك بن أنس فقال رجل من أهل نصيبين : يا أبا عبد الله ! عندنا قوم يقال لهم الصوفية يأكلون كثيرا ، فإذا أكلوا أخذوا في القصائد ثم يقومون فيرقصون ، فقال مالك : هم مجانين ؟ فقال له : لا ، قال : هم صبيان ؟ قال : لا ، هم مشايخ عقلاء ، قال مالك : ما سمعنا أن أحدا من أهل الإسلام يفعل هكذا .

فقال الرجل : بل يأكلون ثم يقومون فيرقصون ، يلطم بعضهم رأسه ، وبعضهم يلطم وجهه ، فضحك مالك وقام إلى منزله ، فقال أصحاب مالك للرجل : يا هذا أدخلت والله مشقة على صاحبنا ، لقد جالسناه نيفا وثلاثين سنة فما رأيناه ضحك إلا هذا اليوم " . وبذلك فالنصوص المنسوبة إليه التي تتعلق بالتحدث عن التصوف والكلام عن الحقيقة مستبعدة من حيث السند والمتن والموضوع .

ثالثا : أما التحدث عن الزندقة فقد تكلم الإمام مالك عنها ، حيث كان من أشد الناس نفيا عن الاشتغال بعلم الكلام ، وعن مجالسة المتكلمين لأن هذا العمل مؤد إلى الزندقة ، ومخالف لما كان عليه السلف الصالح .

كما أخرج ذلك الهروي عن إسحاق بن عيسى قال : " قال مالك : من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب " (١) . وأخرج أبو نعيم عن يحيى بن الربيع قال : " كنت عند مالك بن أنس ودخل عليه رجل فقال : يا أبا عبد الله ! ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق ؟ فقال مالك : زنديق فاقتلوه ، فقال يا أبا عبد الله إنما أحكي كلاما سمعته ، فقال : لم أسمع من أحد إنما سمعته منك ، وعظم هذا القول " (٢) .

(١) ذم الكلام وأهله للهروي ، تحقيق عبد الرحمن بن عبد العزيز ٧١/٥ .

(٢) حلية الأولياء ٣٥٥/٦ ، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢٤٩/١ من طريق

أبي محمد يحيى بن خلف عن مالك ، وأورده القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤٤/٢ .

وأخرج ابن عبد البر عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال : " كان مالك بن أنس يقول : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه ، نحو الكلام في رأي جهنم والقدر وكل ما أشبه ذلك ، ولا يحب الكلام إلا فيما تحته عمل ، فأما الكلام في دين الله ، وفي الله ﷻ فالسكوت أحب إلي ، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل " (١) .

وأخرج أبو نعيم عن عبد الله بن نافع قال : " سمعت مالكا يقول : لو أن رجلا ركب الكبائر كلها بعد ألا يشرك بالله ثم تخلى من هذه الأهواء والبدع - وذكر كلاما - دخل الجنة " (٢) .

كما أخرج أيضا عن الإمام الشافعي : " كان مالك بن أنس إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال : أما إني فعلى بينة من ربي وديني ، وأما أنت فشاك اذهب إلى شاك فخاصمه " (٣) .

رابعا : أما مصطلح الحقيقة والطريقة - كما يفهمهما المتصوفة - فمصطلح جديد وتقسيم غير صحيح ، ولأنه لم يرد في كتاب الله ﷻ ، ولم يجر على لسان رسول الله ﷺ ، ولا على السنة الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام ، ولا من أئمة الأخيار ، وإنما صدر هذا التفريق وهذا المصطلح من بعض المتصوفة .

والحق أن نقول : إن الشريعة عند أهل السنة هي الحقيقة ، فلا يوجد فصل بينهما ، فالصلاة - مثلا - حركات معينة ولكنها تستلزم الخشية والإنابة ، وهكذا كل الأحكام الشرعية القيام بها يعني الإتيان بها على تمامها كما أراد الله ﷻ .

٢ - ما نسب إلى الإمام مالك في التوسل

روى القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى :

" قال حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأشعري ، وأبو القاسم أحمد بن لقي الحاكم وغير واحد فيما أجازوا فيه قالوا : حدثنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهات ، حدثنا أبو الحسن علي بن فهر ، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرغ ، حدثنا

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٤١٥ .

(٢) حلية الأولياء ٣٥٥/٦ .

(٣) نفسه ٣٥٤/٦ .

أبو الحسن عبد الله بن المنتاب ، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدثنا ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله ﷻ أدب قوما فقال : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ ^(١) ومدح قوما فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) الآية ، وذم قوما فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ .. ﴾ ^(٣) الآية ، وإن حرمة ميتا كحرمة حيا ، فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام ، بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله " ^(٤) .

التعليق :

هذه الحكاية لا تصح نسبتها إلى الإمام مالك - رحمه الله - للأمور الآتية :

١- فمن حيث السند فقد رد عليه العلماء بأن سنده مظلم منقطع ، كما أشار إلى ذلك صاحب كتاب الصارم المنكي قائلا : " وهذه الحكاية التي ذكرها القاضي عياض ورواها بإسناده عن مالك ليست بصحيحة عنه .

وقد ذكر المعترض في موضع من كتابه أن إسناده إسناده جيد وهو مخطئ في هذا القول خطأ فاحشا ؛ بل إسناده إسناده ليس بجيد ، بل هو إسناده مظلم منقطع ، وهو مشتمل على من يتهم بالكذب ، وعلى من يجهل حاله ، وابن حميد هو محمد بن حميد الرازي ، وهو ضعيف كثير المناكير غير متصلة ، وقد ظن المعترض أنه أبو سفيان محمد بن حميد المعمرى أحد الثقات المخرج لهم في صحيح مسلم قال : فإن الخطيب ذكره في الرواية عن مالك ، وقد أخطأ فيما ظنه خطأ فاحشا ووهم وهما قبيحا ، فإن محمد بن حميد المعمرى رجل متقدم لم يدركه يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل راوي الحكاية عن ابن حميد ، بل بينهما مفازة بعيدة ، وقد روى المعمرى عن هشام بن حسان ومعمرو والثوري ، وتوفي سنة اثنتين وثمانين ومائة قبل أن يولد يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل ، وأما محمد بن حميد الرازي فإنه في طبقة الرواة عن المعمرى كأبي خيثمة وابن نمير وعمرو الناقد

(١) سورة الحجرات ، الآية (٢) .

(٢) سورة الحجرات ، الآية (٣) .

(٣) سورة الحجرات ، الآية (٤) .

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، بيروت (دار الكتب العلمية ١٣٩٩هـ) ٤٠/٢ - ٤١ .

وغيرهم ، وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين ومائتين ، فرواية يعقوب بن إسحاق عنه ممكنة بخلاف روايته عن المعمرى فإنها غير ممكنة ، وقد تكلم في محمد بن حميد الرازي وهو الذي رويت عنه هذه الحكاية من غير واحد من الأئمة ونسبه بعضهم إلى الكذب ..

ثم أضاف بعد سرد لأقوال أئمة الجرح فيقول : " فإذا كانت هذه حال محمد بن حميد الرازي عند أئمة هذا الشأن فكيف يقال في حكاية روايتها منقطعة إسنادها جيد مع أن في طريقها إليه من ليس بمعروف " ^(١) .

٢- أما من حيث المتن فيتبين من ركافة اللفظ وأسلوب الألفاظ بغير اللغة العربية الفصيحة ، فإن معنى قوله : " استشفع به فيشفعك الله به " لحن صريح فإن الاستشفاع معناه طلب الشفاعة من المستشفع به ، فمعنى استشفع به اطلب منه الشفاعة يشفع لك الرسول فالرسول شافع ، وإذا كان كذلك كان الصحيح أن يقال : استشفع به فيشفعه الله فيك ، لا أن يقال : استشفع به فيشفعك الله ، فإن المستشفع بالرسول ليس شافعا ، والذي يشفع هو الشافع لا المشفوع له يقينا ، ومثل الإمام مالك العربي مولده ونشأته محال أن يقع في مثل هذا الخطأ .

٣- وأما من حيث الموضوع فإن الرواية تدل على أنها كذب على الإمام مالك ، وذلك مما فيه " بل استقبله " لأن الإمام مالك دون الفقه وروى عنه أصحابه الثقات ، وفيه لا يستقبل القبر وقت الدعاء ^(٢) .

٤- وقوله : " استشفع به " والاستشفاع به لم يؤثر من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعد الممات ، وقد مرت بهم حالات عسيرة فلم يحاولوا الذهاب إلى القبر ، بل يقصدون الزيارة للسلام كما نقل عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه حيث لا يقدم من سفر إلا ذهب وسلم على النبي ﷺ وصاحبيه ولا يزيد على ذلك ، وإن كان جمهور الصحابة لا يفعلون ذلك ، كما أنهم يدخلون في المسجد النبوي في الأوقات كلها للصلوات ولغيرها ، ولم ينقل عنهم لفظ الزيارة بل كره مالك أن يقول : زرنا قبر النبي ﷺ .

(١) الصارم المنكي في الرد على السبكي ، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي ، ط ١ بيروت (دار الكتب العلمية)

ص ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٢) انظر : البصائر للمتوسلين بالمقابر ، للشيخ محمد طاهر ، طبعة الدوحة بقطر (١٤٠٣ هـ) ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

٥- وقد عقد القاضي عياض بابا حرمة ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه ، ثم أورد هذه الواقعة ولم يقل ولم يعقد بابا للاستشفاع به ﷺ فكأنه استنكر هذه الرواية .

٦- ثم إن الله ﷻ قد نزه مالكا عن البدعة حتى استبعد تنحج المؤذن فوق المنارة ، ونهى الذي قال له احرم من عند القبر وقال له : لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة في هذه ، فإنما هي أميال أزيدها قال : وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ .

وذكر الشاطبي في كتابه الاعتصام كثيرا من ذلك فقد علم مما ذكرنا أن هذه الواقعة المنكرة كذب على الإمام مالك - رحمه الله - ، وقد كذبوا عليه في أشياء كثيرة ينسبون إليه مثل أنه كان يأخذ طنبورا يضرب ويغني ... حتى إن كثيرا من المصنفين يقولون في إباحة السماع كأبي عبد الرحمن السلمي والقشيري وأبي حامد ومحمد بن طاهر المقدسي وغيرهم ، يذكرون إباحته عن مالك وأهل المدينة وهو كذب " (١) .

وبذلك نصل إلى أن التوسل المنسوب إلى الإمام مالك - رحمه الله - باطل من حيث السند والمتن والموضوع ، ولأنه توسل غير مشروع ومناقض لعقيدة سلف هذه الأمة ، وخلاف ما اعتقدوا به وعملوا به .

فالتوسل المشروع عندهم هو ما يتقربون به إلى الله ﷻ من الواجبات والمستحبات ، وكان عن طريق العلم والعمل به مع تحري مكارم الشريعة كما قال الراغب الأصبهاني وشيخ الإسلام ابن تيمية .

قال الراغب : " الوسيلة : التوسل إلى الشيء برغبة وهي أخص من الوسيلة لتضمنها لمعنى الرغبة قال تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ (٢) . وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى : مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة وهي كالقربة ، والواصل : الراغب إلى الله تعالى " (٣) .

(١) انظر : المرجع السابق ص ٣٨٨ - ٣٩٠ .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٣٥) .

(٣) المفردات ص ٥٢٣ - ٥٢٤ .

وقال شيخ الإسلام : " فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغي إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغون إليه هي ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات .. وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً " (١) .

فالتوسل الذي شرعه الله ﷻ معروف عند سلف هذه الأمة على النحو الآتي :

١- التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فيذكر الأسماء والصفات

المناسبة لدعائه متوسلاً بها ، وهذا التوسل له شواهد من الكتاب والسنة منها :

أ- قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (٢) أي ادعوه متوسلين إليه

بأسمائه الحسنى ، حسب الرغبة اللاتقة بكل اسم كما قال بذلك القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ : " أي اطلبوا منه بأسمائه فيطلب بكل اسم ما يليق به ، تقول : يا رحيم ارحمني ، يا حكيم احكم لي ، يا رزاق ارزقني ، يا هادي اهديني ، يا فتاح افتح لي ، يا تواب تب علي وهكذا " (٣) .

ب - ما ذكره ﷻ من دعاء سليمان عليه السلام قال : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤) فتوسل برحمة الله التي هي صفة من صفاته ﷻ .

ج - ومن السنة ما قاله الرسول ﷺ : " من كثر همهم فليقل : اللهم إني عبدك ،

وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ... " (٥) رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني .

٢- التوسل إلى الله ﷻ بعمل من أعمال الداعي ، وهذا ثابت أيضاً في الكتاب

والسنة :

(١) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٧٩ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٨٠) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٧/٧ .

(٤) سورة النمل ، الآية (١٩) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٩١/١ ، ٤٥٢ ، والحاكم في المستدرک ٥٠٩/١ ، وأورده الألباني في

سلسلة الأحاديث الصحيحة (ح ١٩٩) .

أ- فمن الكتاب قوله ﷺ : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ^(٢) وهؤلاء يتوجهون إلى ربهم طالبين المغفرة والوقاية من عذاب النار ، ولم يجدوا وسيلة إلى ذلك أقرب من إيمانهم واتباعهم الرسول فتوسلوا بهما .

ب- أما من السنة فالأدلة في هذا الموضوع كثيرة منها :

ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - عن قصة أصحاب الغار - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى آووا المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم ، فقال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بي في طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فلبثت والقدرح على يدي ، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج " .

قال النبي ﷺ : " وقال الآخر : اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني ، حتى أملت بها سنة من السنين فجاءتني ، فأعطيتهما عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ، فتخرجت من الواقع عليها ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي ، وتركك الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها " .

قال النبي ﷺ : " وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أد إلي أجري ؟ فقلت له : كل ما ترى من أجلك - من الإبل والبقر والغنم والرقيق - فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي ، فقلت : إني لا أستهزئ بك ، فأخذه

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٦) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٥٣) .

كله فاستقامه فلم يترك منه شيئا ، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون " (١) .

هذا الحديث دليل واضح على مشروعية التوسل إلى الله ﷻ بكل الأعمال الصالحة ، التي تصدر من العبد سواء كان بفعل المأمورات أم بترك المحظورات .
٣- التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح .

أيد هذا التوسل ما رواه أنس بن مالك ﷺ حيث قال : " أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال : يا رسول الله ! هلك المال وجاع العيال فادع لنا ، فرفع يديه - وما نرى في السماء قزعة - فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم يتزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ .. " (٢) .

وروى أنس بن مالك أيضا : " أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال : فيسقون " (٣) .

هذا هو التوسل المشروع المعروف عند سلف هذه الأمة ، وهو التوسل الذي عرفه الأئمة الأربعة ، وبذلك نجزم بأن التوسل المنسوب إلى الإمام مالك ليس بمشروع ولا بصحيح ؛ بل ذلك من البدع المحدثه في الدين ، وقد نهانا الرسول ﷺ عن ذلك فقال : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " (٤) .

(١) أخرجه البخاري مع الفتح في كتاب الإجارة ، باب من استأجر أجيرا فترك أجره ٢٠٩/٥ - ٢١٠ (٢٢٧٢) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال ٢٠٩٩/٤ (٢٧٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة ٣١٥/١ (٨٩١) ، ومسلم في صلاة الاستسقاء ، باب الدعاء في الاستسقاء ٦١٢/٢ (٨٩٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الاستسقاء ، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ٣٤٢/١ (٩٦٤) .

(٤) سبق تخريجه في ص ٢٩٠ .

المبحث الرابع

موقفه بعض تلامذته من الفكر الصوفي

١- وكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ) .

هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي ، أبو سفيان الكوفي ، ثقة حافظ عابد ^(١) ، أحد الأعلام الذين عاشوا في القرون الموصوفة بالخيرية لقرب عهدهم بعصر النبوة ، وقد امتاز بين أهل العلم لما كرس حياته في نشر المعارف النبوية والآثار السلفية بالتأليف والتحديث والرواية ، وأخذ الرحلات العلمية حيث كان يرى أن هذا العمل أفضل من النوافل والأذكار ^(٢) .

إلى جانب هذا العمل فهو إمام في الدفاع عن العقيدة ، وشديد الإنكار على كل زيغ وضال من أصحاب الفرق الضالة ، مهتم بجانب السلوك والأخلاق والقيم ، حتى اشتهر أمره ووصف براهب الكوفة ، وبأخشع أهل عصره .

قال الإمام أحمد عنه : ما رأيت أحدا أوعى للعلم من وكيع ، ولا أشبه بأهل النسك منه ^(٣) .

فقد كان إماما زاهدا ورعا ، تقيا ، خاشعا ، قانتا ، منيبا لله .

وقال علي بن الحسن الهرثمي : سمعت - وسأله أبو بكر الخراز وغيره - أبا داود البستي : من أفضل من أدركت عندك ؟ فقال : ما أدركت رجلا كان أخشع لله ^(٤) من وكيع .

عبادته وزهده وورعه

لقد كان وكيع بن الجراح قواما صواما ، معتكفا كثير الصلاة .

قال يحيى بن أيوب : حدثني بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يلزمونه ، أن وكيعا كان لا ينام حتى يقرأ جزءه من كل ليلة ثلث القرآن ، ثم يقوم في آخر الليل ، فيقرأ المفصل ، ثم يجلس ، فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر ^(٥) .

(١) تقريب التهذيب ٣٣٨/٢ .

(٢) انظر : ذم الكلام للهروي ١٠٧/١ .

(٣) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٢٠ .

(٤) نفسه ص ٢٢٢ .

(٥) سير أعلام النبلاء ١٤٨/٩ - ١٤٩ .

وكان كثير البكاء أي يخاف الموت ويجزع ، قال يحيى بن معين : سمعت وكيعا يقول كثيرا : وأي يوم لنا من الموت ؟ و رأيته أخذ في كتاب " الزهد " يقرأه ، فلما بلغ حديثا منه ، ترك الكتاب ، ثم قام ، فلم يحدث ، فلما كان من الغد ، وأخذ فيه بلغ ذلك المكان قام أيضا ولم يحدث ، حتى صنع ذلك ثلاثة أيام ، قال عباس ليحي : وأي حديث هو ؟ قال : حديث " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " (١) (٢) .

وقال يحيى بن أكنم : صحبت وكيعا في الحضر والسفر ، وكان يصوم الدهر ، ويختم القرآن كل ليلة .

قال الذهبي معلقا على المبالغة في الإكثار في التعبد على هذا الوصف (قلت) : هذه عبادة يخضع لها ، ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة ، فقد صح نهي عليه السلام عن صوم الدهر ، وصح أنه نهي أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث ، والدين يسر ، ومتابعة السنة أولى ، فرضي الله عن وكيع ، وأين مثل وكيع ... ؟ (٣) .

وكان يتجنب أن يذكر أحدا بالسوء ، فقال عمرو بن علي : ما سمعت وكيعا ذاكرا أحدا بسوء قط (٤) .

وكان يتعفف عن المسألة ويدعو كثيرا أن يصونه الله تبارك وتعالى عن المسألة ، فكان أحمد كثيرا ما يقول في دبر صلاته : " كما صنت وجهي من السجود لغيرك فصن وجهي عن المسألة لغيرك " ، فقال له ابنه عبد الله : أسمعك تكثر من هذا الدعاء فعندك فيه أثر ؟ قال : نعم ، كنت أسمع وكيع بن الجراح كثيرا يقول هذا في سجوده ، فسألته كما سألتني ، فقال لي : كنت أسمع سفيان الثوري يقول هذا في سجوده ، فسألته ، فقال لي : كنت أسمع منصور بن المعتمر يقوله (٥) .

وكان يجتنب الشهرة وما كان يحب أن يطلع الناس على صومه وصلاته وعبادته ، فقال يحيى بن زياد : كنا عند وكيع ومعنا جماعة ، فقدم إلينا طبقا من رطب ، فجعل يرفع التمرة إلى فيه ، يوهنا أنه يأكل ، ولا يأكلها إذ هو صائم .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : " كن في الدنيا كأنك غريب " (ح ٦٠٥٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤٩/٩ .

(٣) نفسه ١٤٢/٩ - ١٤٣ .

(٤) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٢٣ .

(٥) المنهج الأحمد ٢٨/١ .

وكان يقول : ما نعيش إلا في ستره ، ولو كشف الغطاء لكشف أمر عظيم ^(١) .

وروى أبو نعيم بسنده بأن وكيعا جاءه رجل يناظره في شيء من أمر المعاش أو الورع ، فقال له وكيع : من أين تأكل ؟ قال : ميراثا ورثته عن أبي ، ومن أين هو لأبيك ؟ قال : ورثته عن أبيه ، قال : من أين هو كان لجدك ؟ قال : لا أدري ، فقال له وكيع : لو أن رجلا نذر لا يأكل إلا حلالا ، ولا يلبس إلا حلالا ، ولا يمشي إلا في حلال لقلنا له : اخلع ثيابك وارم بنفسك في الفرات ، ولكن لا تجد إلا السعة ، ثم قال وكيع : لو أن رجلا بلغ في ترك الدنيا مثل سلمان وأبي ذر وأبي الدرداء ما قلنا له زاهدا ، لأن الزهد لا يكون إلا على ترك الحلال المحض ، والحلال المحض لا نعرفه اليوم ، فالدنيا عندنا حلال وحرام وشبهات ، فالحلال حساب ، والحرام عذاب ، والشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمثل الميتة ، خذ منها ما يقيمك ، فإن كانت حلالا كنت قد زهدت فيها ، وإن كانت حراما كنت قد أخذت منها ما يقيمك لأنه لا يحل لك من الميتة إلا قدر ما يقيمك ، إن كانت شبهات كان فيها عتاب يسير " ^(٢) .

كما روى أبو نعيم بسنده أيضا إلى أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت وكيعا يقول : إنما العاقل من عقل عن الله أمره ، ليس من عقل أمر دنياه ^(٣) .

وقد كان لزهده وورعه أثر على عينيه ووجهه من نور جمال ملفت للأنظار قال أبو جعفر الجمال : أتينا يوما وكيع بن الجراح فلم يخرج إلينا ، فظننا أنه يغسل ثيابه ، فلما كان بعد غد ، خرج ونحن قعود وعليه ثياب التي غسلت ، فلما بصرنا به ، فزعنا من النور الذي يتلأأ من وجهه ، وقال لي رجل بجني : من هذا ؟ ملك هذا ؟ فتعجبنا من ذلك النور ^(٤) . أما عن حلمه وتواضعه فقد كان الإمام وكيع رجلا كريما حلما متواضعا ، وكان لا يغضب على أحد ، ولا يعنف أحدا وإن أسيء إليه ، فكان لا يثور ولا ينفخ ، بل كان يفكر في نفسه يقومها إذا اعتراها اعوجاج أو نقص .

قال يحيى بن جعفر : كان وكيع لا يغضب بواحد ، فإذا غضب سكن غضبه بالتؤدة والوقار ، وكان وكيع إذا أتى مسجد الجامع يوم الجمعة في يوم مطر كان يخرج ونعلاه في

(١) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٢٣ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤١٤/٨ - ٤١٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) مقدمة الجرح ص ٢٢٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٥٧/٩ .

يده ، يخصوص الطين ثم يدخل فيصلي ، فقليل له : أكان يغسل قدميه ؟ قال : لا ، وكان لا يصحبه أحد إلى المسجد ، فإن سأله أحد في الطريق كان لا يزيد على أن يقول في الطريق على التؤدة ^(١) .

أما الحديث عن ثرائه وسخائه فقد كان رجلا ثريا وسخيا حيث كان ينفق على العلماء وأصحابه وأصدقائه وذوي الحاجات .

قال يحيى بن أيوب : حدثني رجل من أهل بيت وكيع قال : أورثت وكيعا أمه مائة ألف درهم ، قال : وما قاسم وكيع ميراثا قط ، قال يحيى بن أيوب فأخبرني معاوية الهمداني قال : قلت : أيش صنعتكم ؟ قال : كما كنا نصنع في الميراث ، قال : وكان يؤتي بطعامه ولباسه ولا يسأل عن شيء ولا يطلب شيئا وكان لا يستعين بأحد ولا على وضوء ، كان إذا أراد ذلك قام هو ^(٢) .

وكان يدعو الناس إلى مائدة الطعام في مناسبات وغيرها ، وحينما حضره جماعة يقدم ما عنده من طعام وشراب ، ويطعمهم ويسقيهم ، ويلطف معهم .

وبعد ، فمن خلال الدراسة لحياة الإمام وكيع تبين لنا أنه أحد الأعلام الأخيار ، فهو صاحب سنة ، ورجل عقيده ، حيث كان يدافع عن السنة ، ويقضي على البدع والانحرافات ، وينكر أشد الإنكار على أهلها . وقد روى عنه محمد بن سلام البيكندي : سمعت وكيعا يقول : من طلب الحديث كما جاء فهو صاحب سنة ، ومن طلبه ليقوي به رأيه فهو صاحب بدعة ^(٣) .

إلى جانب ذلك فهو أحد الزهاد الذي اهتم أيما اهتمام بجانب السلوك والأخلاق ، فقد جمع ما ورد عن الأحاديث المرفوعة وأقوال الصحابة والتابعين مما يرغب في الآخرة ، ويزهد في الدنيا ، ويرقق القلوب ، وروى عن النبي ﷺ في الزهد ، وعن الدنيا وهوائها ، والاجتهاد في العمل ، والحث على الصبر ، والمحاسبة ، والتوبة ، والحب في الله ﷻ ، وما إلى ذلك .. وكتابه " الزهد " خير دليل وشاهد على ذلك .

(١) تاريخ دمشق ١٧/٤٠٠ .

(٢) تاريخ بغداد ١٣/٣٦٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/١٤٤ .

فـالزهد - عنده - هو الزهد الإيجابي ، حيث نهي عن المبالغة في الامتناع عن استخدام ما أحل الله في هذه الحياة ، ونهي عن تعذيب الجسد إن أدى ذلك إلى هلاكه ، بل على الإنسان أن يأخذ قدر ما يسد به رمقه .

وهذا مبدأ من تعاليم شريعتنا السمحة ، لأن الله ﷻ لا يريد أن يجعل علينا في الدين من حرج ، ولا يكلف نفساً إلا وسعها . قال تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(١) ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(٢) .

وأما ما حرم الله في هذه الحياة فقد استثنى الله ﷻ شيئاً منه في حالة الاضطرار فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة المائدة ، الآية (٦) .

(٢) سورة الحج ، الآية (٧٨) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٧٣) .

(٤) سورة المائدة ، الآية (٣) .

٢- يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٠ هـ) .

هو يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس المصمودي الليثي ^(١) ، رحل إلى المشرق ، فسمع من مالك بن أنس ، وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد ، وابن القاسم ، وابن وهب ، وتفقه بالمدينين والمصريين ، من أكابر أصحاب مالك بعد انتفاعه بمالك وملازمته ، وهو أحد رواة "الموطأ" ، وصفه ابن عبد البر فقال : كان إمام بلده ، المقتدى به ، المنظور إليه ، المعول عليه ، وكان ثقة عاقلاً حسن الهوى والسمت ^(٢) .

كان أحمد بن خالد بن الحباب الحافظ يقول : لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس من الخطوة ، وعظم القدر ، وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى ^(٣) .

وكان مالك يعجبه سمع يحيى وعقله ، روى عنه أنه كان عنده يوماً جالسا في جملة أصحاب مالك ، إذ قال قائل : قد حضر الفيل ، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه ، فقال له مالك : لم لا تخرج فتراه ؟ إذ ليس بأرض الأندلس ؟ فقال له يحيى : إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك ، لا إلى أن أنظر إلى الفيل ، فأعجب به مالك وسماه العاقل ^(٤) .

قال يحيى : لما ودعت مالكا سألته أن يوصيني ، فقال لي : عليك بالنصيحة لله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم ^(٥) .

موقفه من الزهد والتوكل والفقر

ذكر القاضي عياض أن يحيى سئل عن الزهد في الدنيا ، فقال : من لم يرض منها إلا بالحلال فهو فيها زاهد ، وإن كان عليها مكباً حريصاً .

وقال قوم ليحيى : (يا أبا محمد) لو توكلنا على الله حق توكله لآتانا بالرزق إلى بيوتنا كما يأتي الطير ، قال : والله ما كان يأتي عيسى بن مريم البقل البري حيث هو جالس ، حتى يخرج إليه إلى الصحراء يلتمسه .

(١) انظر : ترتيب المدارك ٥٣٤/٢ ، وتاريخ علماء الأندلس ١٧٩/٢ - ١٨١ ، وسير أعلام ٥١٩/١٠ .

(٢) ترتيب المدارك ٥٣٧/٢ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ١٨٠/٢ .

(٤) ترتيب المدارك ٥٣٧/٢ .

(٥) نفسه ٥٣٨/٢ .

وقيل ليحي : إن من مضى كان يتمنى الفقر ، فأنكر يحي ذلك ، وقال : لا ينبغي لمن يعقل أن يتمنى ما تعوذ منه نبيه ﷺ .

وكان يحي يلبس الوشي الرفيع ، يريد القطن ، ثمne المال العظيم في الأعياد والدخول على الأمراء ^(١) .

التعليق :

لقد فهم يحي بن يحي أن الزاهد في هذه الحياة أن لا يقتنع بالحلال فحسب ، أو أن يترك الدنيا لا يجد ولا يكد فيها ؛ بل الزاهد الحقيقي - عنده - من لم يرض من الدنيا إلا بالحلال ، ثم يمشي في مناكب الأرض طلباً للرزق الطيب ، هذا هو الزهد المشروع ، الذي أمر به الإسلام .

فالإسلام لا يحرم على الناس أن يبحثوا عن أسباب الغنى ، ولا يمنعهم من البيع والشراء ، أو من الفلاحة والزراعة .. ! لأن هذا العمل الجليل قد مارسه سلفنا الصالح كما ذكرهم الله في محكم التنزيل : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ، لم ينف عنهم الأسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء ، فلا يخرجهم عن دائرة المدح غناهم إذا قاموا بحقوق الله ﷻ .

هكذا فهم سلف هذه الأمة - رضوان الله عليهم - الزهد ، وهم أزهد الزاهدين ، حيث وجد منهم تجار ، ووجد منهم أغنياء ، ولكنهم مع ذلك كانوا زهاداً ، فهؤلاء هم الزهاد الحقيقيون .

أما موقف يحي من التوكل فهو موقف صحيح ، وهو بمثابة الرد على المفهوم الصوفي الخاطيء ، الذي يعتقد بأن التوكل الحقيقي - عندهم - هو ترك القيام بأي سبب يحصل الإنسان من ورائه على رزقه الطيب .

صحيح أن الرسول ﷺ قد قال : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » ^(٣) ولكن ليس معنى ذلك ترك التكسب

(١) ترتيب المدارك ٥٤٤/٢ .

(٢) سورة النور ، الآيتان (٣٦-٣٧) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣٠/١ ، وفي الزهد ص ٤٢ ، والترمذي (٢٣٤٥) وقال حديث حسن صحيح .

والقيام بأي سبب في هذه الحياة ، والقعود منتظرا إتيان رزقه من الله ﷻ ! لأن هذا المفهوم خاطئ ومخالف للصواب ، ولمعنى الحديث الذي يذكر أن الطير تروح وتغدو أي تعمل وتكد وتأخذ بالأسباب .

وقد كان السلف يكرهون القعود في المساجد وانتظار ما يأتي من الناس من صدقات قال سعيد بن المسيب - رحمه الله - :

" من لزم المسجد وترك الحرفة وقبل ما يأتيه فقد ألحف في السؤال " .

وقال عمر بن الخطاب ؓ :

" يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضع الطريق فاستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالا على المسلمين " ^(١) .

وعن محمد بن عاصم قال : " بلغني أن عمر بن الخطاب ؓ كان إذا رأى غلاما فأعجبه سأل عنه ، هل له حرفة ؟ فإن قيل : لا ، قال : سقط من عيني " ^(٢) .

أما موقف يحيى من الفقر فموقف صحيح أيضا ، حيث استند إلى قول الرسول ﷺ في أدعيته الآتية :

" اللهم إني أعوذ بك من الفقر ، والقلة ، والذلة ، وأعوذ بك من أن أظلم أو أُظلم " ^(٣) .

" اللهم إني أعوذ بك من العجز ، والكسل ، والجبن ، والبخل ، والهزم ، والقسوة ، والغفلة ، والعيالة ، والذلة ، والمسكنة ، وأعوذ بك من الفقر .. " ^(٤) .

(١) تلبس إبليس ص ٣٤٦ .

(٢) نفسه ص ٣٤٧ .

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة من الجوع ٢٦٣/٨ . وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي ١١١١/٣ ،

و في صحيح الجامع ٤٠٧/١ .

(٤) انظر : صحيح الجامع ٤٠٦/١ ، وإرواء الغليل برقم ٨٥٢ .

الفصل الثالث

الإمام الشافعي والتصوف

وتحتة أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام الشافعي وحياته

المبحث الثاني : الإمام الشافعي وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إليه في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

المبحث الأول

عصر الإمام الشافعي وحياته

أولاً : عصره .

لقد عاش الإمام الشافعي في القرن الأول من الحكم العباسي ، العصر الذي يعتبر من أنضر عصور الإسلام حضارة وفكراً وثقافة وعلماً ، حيث تجلت في هذه الفترة قوة الحكم واستقراره كما حدث لدى الإمام مالك .

وازداد الازدهار في هذا العصر حينما شمله رخاء وانبساط بنشاط خلفاء الدولة العباسية في حفر الترع والمصارف ، والسعي على تحسين الزراعة وتنمية الموارد . . . حتى تكسب الإنتاج الزراعي في أسواق بغداد وغيرها من البلدان ، ورخصت الأسعار بصورة أشبه إلى الخيال ، حتى روى أن الرجل من عامة الناس في عهد الرشيد كان يكفيه هو وعائلته ثلاثمائة درهم في السنة ^(١) .

ويشهد لذلك ما روى الخطيب البغدادي بسنده عن داود بن صغير يقول : " رأيت في زمن أبي جعفر كبشاً بدرهم ، وحملأ بأربعة دنانق ، والتمر ستين رطلاً بدرهم ، والزيت تسعة عشر رطلاً بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم " ^(٢) .

وكان الناس في العصر العباسي الأول يقضون أوقات فراغهم في سماع الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية ، كما يلتهون بلعبة الشطرنج والنرد ، ويتسلون بالرمي بالنشاب والصيد بالبندق ولعبة الجوكن والصولجان والجريد ونحوها ، كما كان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية في ذلك العصر ^(٣) .

أما الأغلب من العلماء وطلاب العلم ، فقد كانوا بعيدين عن معظم ما ذكر من الملاهي وأنواع الترفيه ، التي لا تليق مع شرف العلم وكرامته ، بل كانوا منهمكين في طلب العلم ومذاكرته ومدارسته ، وكتب تراجم علماء الإسلام شاهدة لذلك .

وهكذا الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - فقد عاش في هذا العصر بعيداً عن هذه الملاهي مشمراً عن ساعدي الجد في سبيل الحصول على العلم ، وكان يضرب في الأرض

(١) انظر : العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) تاريخ بغداد ٧٠/١ .

(٣) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ٣١٩/٢ - ٤٢٤ ، والعالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٢٢٧ .

ويكثر من الرحلات طلباً للعلم وقياماً بواجب التعليم لما رزقه الله من الفهم والمعرفة بالكتاب والسنة ؛ فكون مدرسة تمثل التربية الإسلامية في صفائها ونقاها دونما تحبط في العقيدة ، أو شطحات في الفكر كما اعتقد بعض الصوفية ومن سلك مسلكهم .

أما من الناحية الدينية فإن الكثرة الكثيرة من جموع المسلمين فقد كانت تابعة لأئمة الدين الذين اجتهدوا أن يكونوا في دينهم وعلمهم على هدي النبي ﷺ وأصحابه الكرام ، حتى وإن نشأت فرق الشيعة والخوارج والمعتزلة ... وكثر الجدل والنقاش بين الفرق المتنازعة فإن الكثيرين كانوا أدنى إلى قلوب المؤمنين الصادقين .

أما إذا تحدثنا عن الزهاد في هذا العصر فإنهم فئة انصرفوا عن الدنيا وزخارفها ، وشغلوا أنفسهم بطاعة الله ﷻ ومراقبته ، وتقللوا ما أمكنهم ذلك من متاع الحياة الدنيا ، وتحروا حلالها ، وشغلتهم أهوال القيامة ورهبة الآخرة ، وكأن وجودهم ردة فعل لخوض الكثرة من الناس في غمرات الدنيا ، ولكنهم كانوا منارة هدى في الدين والورع وخشية الله من هؤلاء : الفضيل بن عياض ومعروف الكرخي وبشر الحافي وغيرهم وهم سلف لمن سموا بالصوفية ^(١) .

ثانياً : حياته .

هو أبو عبد الله ، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي المظلي ، من بني عبد المطلب بن عبد مناف ، جدّ جد النبي ﷺ ، ولد بغزة بالشام في آخر يوم من رجب سنة (١٥٠ هـ) وهي السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة رحمه الله ^(٢) . وأقام أبوه بعسقلان ثم مات فيها وكان بسيط الحال .

ثم حملته أمه (التي هي من أزد) من غزة إلى مكة موطن آبائه ، فنشأ بها يتيماً في حجر أمه ، وكانت - رحمها الله - من العابدات القانتات ، ومن أذكى الخلق فطرة ^(٣) . وفي مكة استظهر القرآن في صباه ، وقد روى المزني عن الشافعي قوله : " حفظت القرآن وأنا ابن سبع ، وحفظت الموطأ - موطأ مالك - وأنا ابن عشر " ^(٤) . حفظه في

(١) انظر : الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر ، لعبد الغني الدقر ، ط ٢ دمشق (دار القلم ١٣٩٦ هـ) ص ٢١ -

٢٢ .

(٢) انظر : مناقب الإمام الشافعي للبيهقي ٧٢/١ ، ومناقبه للرازي ص ٨ ، وتوالي التأسيس لابن حجر ص ٤٩ .

(٣) جمهرة العرب لابن حزم ص ٧٣ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٧٩/٢ .

تسع ليال ، ثم خرج إلى هذيل بالبادية ، وكانوا من أفصح العرب ، فحفظ كثيرا من أشعارهم ، ومكث في البادية عشر سنين ، وعاد من البادية مستفيدا الفصاحة والأدب .

وواصل تلقي العلم في مكة حتى برع في الحديث والفقه والعربية ، ولزم شيخ الحرم المكي مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة وتفقه به ، حتى أذن له بالإفتاء وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقال له : " أفت يا أبا عبد الله ! فقد - والله - آ ن لك أن تفتي " ^(١) ، وبرز فقيها بارعا مفسرا للقرآن ، خبيرا بالعربية وهو غلام ، حتى كان سفيان بن عيينة إذا سئل عن التفسير أو الفتيا قال : " سلوا هذا الغلام " ^(٢) ، وصار معلما في الحرم المكي .

ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة إمام دار الهجرة وهو لا يتجاوز السادسة عشر من عمره فتعلم من الإمام مالك حتى حفظ الموطأ وأتقنه ^(٣) .

ثم اتجهت نفسه إلى عمل يرتزق منه ، فساعدته مصعب بن عبد الله القرشي قاضي اليمن على أن يلي باليمن عملا فولاه في نجران قاضيا ، وأحسن السيرة فيه ^(٤) .

ثم اتهم في سنة ١٨٤هـ بالتشيع بكيد من الوالي ، وقال عنه للرشيد : يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه القاتل بنفسه ، فأحضره الرشيد إلى العراق في هذه السنة مع تسعة آخرين قتلوا ، ونجا الشافعي بقوة حجته وشهادة محمد بن الحسن ، ودفاع الفضل بن الربيع عنه حتى ثبتت براءته ^(٥) .

وبعد أن درس فقه العراقيين وقرأ الكتب مع الإمام محمد بن الحسن عاد الإمام الشافعي إلى مكة ، واتجه نحو الاجتهاد بعد أن حفظ علوم الفقهاء والمحدثين وبعد أن ترك أثرا طيبا في العراق حتى قال عنه يحيى بن أكثم قاضي البصرة ثم بغداد في عهد المأمون : كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة كثيرا ، فكان الشافعي رجلا قرشي العقل والفهم والذهن ، صافي العقل والفهم سريع الإجابة ، ولو كان أمعن في الحديث لا استغنت به أمة محمد ﷺ عن غيره من العلماء ^(٦) .

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٦٥/١ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٧/١ .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٤٧/١ .

(٤) توالي التأسيس ص ٦٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٠ .

(٦) المصدر نفسه ص ٥٦ .

وفي مكة في هذه الآونة وضع قواعد الاستنباط ليميز بين فقه الحجاز وفقه العراق ، وأبان قواعد الاجتهاد ، ثم قام برحلة إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ فمكث فيها حوالي سنتين ناشرا طريقته الجديدة في الاجتهاد ، ومجادلا العلماء ومؤلفا الرسائل والكتب ، وعقد حلقات علمية شهيرة في الجامع الغربي ، وتردد على مجلسه كبار العلماء كأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وحسين بن علي الكرابيسي ، فتأثروا بمذهبه وبدفاعه عن السنة .

ثم عاد إلى مكة فنشر علمه وبشر بمذهبه ، وفي عام ١٩٨ هـ رجع إلى بغداد في رحلة ثالثة ، وأقام فيها نحو ثمانية أشهر ، ثم اتجه إلى مصر عام ١٩٩ هـ ^(١) ، وبدأت حياته مرحلة جديدة حيث غير اجتهاده بسبب اطلاعه على أحاديث وآراء فقهية جديدة ، ورؤيته أعرافا وأحوالا اجتماعية مغيرة لما عرفه في الحجاز والعراق ، فبدأ يقرر فقها جديدا في مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط ، وأملى كتابه (الأم) على تلاميذه ، وأعاد تصنيف كتابه (الرسالة) ^(٢) .

وأما مشايخ الإمام الشافعي فكثيرون في مكة والمدينة واليمن والعراق ، وقد جاء في توالي التأسيس لابن حجر ترتيب شيوخ الشافعي على حروف المعجم وهم واحد وثمانون شيخا .

أما بالنسبة لتلاميذه فكان أكثر بكثير من شيوخه ، لأن مذهب أكثر المذاهب انتشرا ولتنقله في البلاد ، وانبهار الطلاب بعلمه ، وقد رتب ابن حجر أسماء تلامذة الشافعي على حروف المعجم حتى في الآباء والأجداد ، وذكر مائة واثنين وستين تلميذا .

وأما وفاته - رحمه الله - فقد قال عنه الربيع بن سليمان : توفي الشافعي ليلة الجمعة آخر يوم من رجب ، ودفناه يوم الجمعة فانصرفنا فرأينا هلال شعبان سنة أربع ومائتين ^(٣) .

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٤٨/١ .

(٢) مناقب الشافعي للرازي ص ٥٧ .

(٣) انظر : آداب الشافعي ص ٢٦ ، وصفة الصفوة ١٤٧/٢ .

المبحث الثاني

الإمام الشافعي وموضوعات التصوف

١- معرفة الله تعالى

إن الروايات الواردة عن الإمام الشافعي - رحمه الله - في شأن المعرفة لتقرر أن معرفة الله ﷻ فطرية مودعة في فطر الخلق .

من ذلك ما قاله الإمام الشافعي للمزني حينما أتى إليه مستفتياً في أمر التوحيد ، حيث غضب الإمام الشافعي حينما تكلف المزني وتعمق في البحث في أمور التوحيد التي لا يبلغها العقل ، ولأن الرسول ﷺ لم يأمر بالسؤال عن ذلك ، ولم يتكلم فيه الصحابة ! ولما سأله الشافعي عن مسألة في الضوء فأخطأ ، عندئذ قال له الإمام الشافعي : شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه ، وتكلف علم الخالق ! إذا هجس في ضميرك شيء من ذلك فارجع إلى الله وإلى قوله تعالى : ﴿ وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، فاستدل بالمخلوق على الخالق ، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك .. " (٢) .

فهذا الكلام من الإمام الشافعي يجعل الأصل في قلب الإنسان معرفة ربه وخالقه ، على أنه أمر لا يحتمل الشك والريب ، فإذا طرأ هاجس غريب يقدر في هذا الأصل فعليه برده ، ودفعه بالنظر في المخلوقات وآيات الله في كونه ليستدل بالمخلوق على وجود خالقه وقدرته ، وهذه هي طريقة الشرع . فلو أن المتكلمين أو المتصوفين قد عملوا بها ، ولم يتكلفوا علم الغيوب التي لم تبلغها عقولهم لكان خيراً لهم ، ولما حصل فيهم الانحراف عن الطريق الصحيح !

وروى البيهقي عن الإمام الشافعي أنه قال : " فأما فرض الله تعالى على القلب : بالإقرار والمعرفة ، والعقد والرضا ، والتسليم بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له " (٣) .

(١) سورة البقرة ، الآيتان (١٦٣-١٦٤) .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ٣١/١٠ - ٣٢ .

(٣) مناقب الشافعي ٣٧٨/١ ، ٣٩٣ .

وروى البيهقي كذلك عن الإمام الشافعي أنه يقول : بأن أطفال المسلمين إذا ماتوا في المهد فإنهم يدخلون الجنة وذلك يدل على أنهم - عنده - على الفطرة ، وبين البيهقي قوله بأن الإمام الشافعي ذكر في كتاب المناسك ما دل على صحة هذه الطريقة في أولاد المسلمين فقال : إن الله ﷻ بفضل نعمته أثاب الناس على الأعمال أضعافها ، ومن على المؤمنين بأن ألحق بهم ذرياتهم ووفر عليهم أعمالهم فقال : ﴿ الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(١) ، فلما أن من الله على الذراري بإدخالهم الجنة بلا عمل ، كان أن من عليهم بأن كتب لهم عمل البر في الحج .. قال : وقد جاءت الأحاديث في أطفال المسلمين أنهم يدخلون الجنة " ^(٢) .

وبهذا يظهر أن الإمام الشافعي - رحمه الله - يقرر بأن فرض القلوب هو الإقرار والمعرفة والرضا والتسليم ، ويقول بفطرية معرفة الله ﷻ ، وأنه من الأمور الضرورية الملازمة للقلوب ، ويتبين كذلك أن الوصول إلى معرفة الله لا يحتاج إلى كل التعقيدات ، التي أتى بها المتكلمون والمتصوفون ومن نهج نهجهم ، وأفنوا حياتهم في سبيل الوصول إلى معرفة الله ﷻ عن طريقها ؛ بل هو طريق سهل واضح ، لأن معرفة الله فطرة فطرها الله ﷻ النفوس عليها . فالإمام الشافعي اتبع المنهج الشرعي في الاستدلال على معرفة وجود الله تعالى ، حينما استدل بالمخلوق على الخالق ، وهو أصلح طريق لمعرفة الحق ، حيث أرشد تلميذه إليه من الاعتبار بخلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار وما بينهما .

٢- العبودية

إن ما عثر عن الإمام الشافعي من أعمال يتقرب بها إلى الله ﷻ ، وما نقل عن قيامه بنوافل العبادات لتؤكد على أنه عابد من العباد الصالحين ، وهو يقوم بعبادة الله خير قيام ، ويحث غيره على أداء العبادة فقال مرة لأحمد بن صالح المصري : " تعبد من قبل أن ترأس ، فإنك إن ترأس لم تقدر أن تعبد " ^(٣) .

(١) سورة الطور ، الآية (٢١) .

(٢) كتاب الاعتقاد ص ٧٦ ، وانظر أيضا : السنن الكبرى ٢٠٣/٦ ، ١٣٠/٩ .

(٣) توالي التأسيس ص ٦٦ .

روى الحافظ بن عساكر أن الشافعي قرأ يوماً هذه الآية ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ . فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا . وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ^(١) ، فلم يزل يبكي حتى غشي عليه ، رحمه الله ^(٢) .

وكان كثير التلاوة للقرآن ، ولا سيما في شهر رمضان كان يقرأ في اليوم واللييلة ختمتين ، وفيما عداه في كل يوم وليلة ختمة .

روى ذلك الخطيب البغدادي عن علي بن المحسن القاضي ، عن أبي بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصغار ، عن عبد الله بن محمد بن جعفر القزويني عن الربيع به ^(٣) .

فالعبادة من أنجح وسائل التزكية والإصلاح ، ذلك أن المداومة على أدائها تربي الإنسان على جملة من الأخلاق الحميدة ، وتدفعه للعمل في الخيرات ، وتوجهه إلى الإدراك بقيمة وجوده في هذه الحياة ، فيدرك أنه لم يخلق عبثاً بل خلق لعبادة الله ﷻ ، ويعرف أن كل جهده وعمله وكفاحه إنما هو عبادة لله ﷻ ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٤) .

وقد أدرك الإمام الشافعي منزلة العبادة ، ولهذا تقرب إلى الله ﷻ بالفرائض والنوافل حتى يحبه الله ﷻ ، فكان - رحمه الله - يغتنم الليالي ، ويسعد بالخلوات لمناجاة الله ﷻ ، وهذا تلميذه الربيع بن سليمان يقول : بتّ في منزل الشافعي ﷺ ليالي كثيرة فلم يكن ينام الليل إلا يسيراً .

وكان قد قسم الليل ثلاثة أجزاء : فثلثه الأول للأشغال ، والثاني للصلاة ، والثالث للنوم ليقوم إلى صلاة الفجر نشطاً .

رواه البيهقي عن الحاكم وحدثني أبو بكر محمد بن محمد البغدادي : حدثنا أبو الحسن علي بن قربن و عن الربيع فذكره ^(٥) .

(١) سورة المرسلات ، الآيات (٣٨ - ٤٠) .

(٢) انظر : تاريخ دمشق ٤١٢/١٤ ، والمناقب للبيهقي ١٧٥/٢ - ١٧٦ ، والمناقب للرازي ص ١٢٨ .

(٣) انظر : تاريخ بغداد ٦٣/٢ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية (١٦٢) .

(٥) المناقب للبيهقي ١٥٧/٢ ، وللرازي ص ١٢٧ ، وتوالي التأسيس ص ٦٠ ، وحلية الأولياء ١٣٥/٩ ، وصفة الصفوة ١٤٤/٢ .

وقال زكريا الساجي : عن محمد بن إسماعيل : حدثنا حسين الكرايسي قال : بت مع الشافعي فكان نحو ثلث الليل يصلي ، وما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة ، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين ، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ بالله منه ، وسأل النجاة لنفسه ولجميع المؤمنين ، فكأنما جمع له الرجاء والرهبة ^(١) .

وهكذا يكون تمام العبادة أن تجمع الرغبة والرهبة ، كما صح عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا مر بآية عذاب وقف وتعوذ ^(٢) ، قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ^(٣) وقال تعالى أيضا : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٤) أي يأمر الله ﷻ عباده أن يدعوه بهم ومعبودهم خوفا من ناره وعذابه ، وطمعا في جنته ونعيمه .

فموقف الإمام الشافعي في هذا الموضوع يعتبر ردا على المتصوفة الذين يقولون : بأنهم لا يعبدون الله خوفا منه أو رغبة فيما عنده ، لأن الخوف والرغبة من أنواع العبادة ، حيث امتدح الله ﷻ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهم من خيرة البشر فقال ﷻ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ ^(٥) .

٣- التوبة

إذا كان معنى التوبة هو الرجوع إلى الله تعالى بحل عقد الإصرار من القلب ، ثم القيام بحقوق الرب ، أو الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة ^(٦) ، وأنها أول مقام من مقامات السالكين إلى الله لدى الصوفية ؛ فإن الإمام الشافعي قد قام بالاستغفار والتوبة إلى الله ﷻ فيقول في إحدى قصائده :

قلبي برحمتك اللهم ذو أنس	في السر والجهر والإصباح والغلس
وما تقلبت من نومي وفي سنتي	إلا وذكرك بين النفس والنفس
لقد مننت علي قلبي بمعرفة	بأنك الله ذو الآلاء والقـدس

(١) تاريخ بغداد ٦٣/٢ ، والمنقب للبيهقي ١٥٨/٢ ، وللرازي ص ١٢٧ .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ٥٣٦/١ (ح ٢٠٣) .

(٣) سورة الزمر ، الآية (٩) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية (٥٦) .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية (٩٠) .

(٦) انظر : التعريفات ص ٥١ .

وقد رأيت ذنوباً أنت تعلمها ولم تكن فاضحياً فيها بفعل مسي

فأمن علي بذكر الصالحين ولا تجعل علي إذاً في الدين من لبس

وكن معي طول دنياي وآخرتي ويوم حشري بما أنزلت في عبس^(١).

ففي هذه الآيات توضيح لنا أن الإمام الشافعي قام بالتضرع إلى الله تعالى مستغفراً

ومعتزفاً بذنوبه ، وتائباً إلى الله ﷻ ، وطالبا منه العفو والمنة والتوفيق في دنياه وآخره .

ولا شك أن هذا الموقف موافق لما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، لأن الله تعالى

قد حث المؤمنين على التوبة وأحب التوابين ، كما قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا

الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٢) . وقال تعالى أيضاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ

الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(٣) وكما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول

الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ،

فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، وقد أيس

من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح :

اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »^(٤) .

فالإمام الشافعي قد امثل لنداء الله ﷻ لعباده المؤمنين حينما قال لهم ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾^(٥) . واستجاب لتوجيهات

الرسول ﷺ حينما ينادي : « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة

مرة »^(٦) .

(١) ديوان الإمام الشافعي ، جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزغي ، ط ٣ جدة (دار العلم للطباعة ١٣٩٢ هـ)

ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) سورة النور ، الآية (٣١) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (٢٢٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات باب التوبة ٢٣٢٥/٥ (ح ٥٩٥٠) ، ومسلم في التوبة باب الحض على التوبة

والفرح بها ٢١٠٤/٤ (ح ٢٧٤٧) واللفظ له .

(٥) سورة الأحزاب ، الآيتان (٤١ - ٤٢) .

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٢٠٧٦/٤ (ح ٢٧٠٢) .

لقد كان الإمام الشافعي متعبدا ناسكا وأبا ، وعبر عن الكثير من أدعيته وابتهالاته شعرا ذا مغزى عميق ، وكان في ضراسته - رحمه الله - يفرش لنفسه طريق الآخرة بالاستعبار والاستغفار ، وهو على يقين من أن الله قابل التوب وغافر الذنوب .

وحدث للإمام الشافعي - رحمه الله - أن جلس يوما في مدينة الرسول ﷺ بعد صلاة الصبح ، فدخل عليه رجل فقال له : إني خائف من ذنوبي أن أقدم على ربه وليس لي عمل غير التوحيد ، فطيب الشافعي خاطره وأذهب خوفه مستشهدا بقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(١) . وقال له : لو أراد الله عقوبتك في جهنم وتخليدك لما ألهمك معرفتك به وتوحيده لك ^(٢) .

٤ - المجاهدة

سأل رجل الإمام الشافعي فقال : " يا أبا عبد الله ! أيهما أفضل للرجل أن يمكن أو يتلى ؟ فقال الشافعي : لا يمكن حتى يتلى فإن الله قد ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله عليهم أجمعين ، فلما صبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة " ^(٣) .

لقد أراد الإمام الشافعي بأن التمكين لا يمكن إلا بعد المجاهدة والنجاح في الابتلاء والامتحان في هذه الحياة ، وهؤلاء الأنبياء الذين ضرب بهم الإمام الشافعي المثل على التمكين بعد الصبر الطويل والعناء المتواصل في توجيه الأمم هم أكثر الأنبياء تعباً وأشدّهم كفاحاً وبذلاً في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ، حتى سماهم القرآن بأولى العزم ، وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ ^(٤) .

ويكفي أن نعرف أن أولهم وهو نوح ﷺ مكث في قومه يدعوهم إلى الله تسعمائة وخمسين سنة ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ ^(٥) .

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٣٥) .

(٢) الإمام محمد بن إدريس الشافعي للدكتور مصطفى الشكعة ص ٨٢ .

(٣) الفوائد لابن القيم ص ٢٩٨ .

(٤) سورة الأحقاف ، الآية (٣٥) .

(٥) سورة العنكبوت ، الآية (١٤) .

قال الإمام الشافعي : " فحق على طالب العلم بلوغ غاية الجهد في الاستكثار من علمه ، والصبر على كل عارض ، دون طلبه وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصا واستنباطا والرغبة إلى الله في العون عليه ، فإنه لا يدرك خيرا إلا بعونه " (١) .

وقال الإمام الشافعي مؤكدا على هذا الموضوع :

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي
ومن رام العلا من غير كد أضاع العمر في طلب المحال
تروم العز ثم تنام ليلا يغوص البحر من طلب اللائي (٢)

وفي سبيل المجاهدة فقد اهتم رحمه الله بالاعتناء على الجسد ليستطيع أن يقوم بدوره في هذه الحياة ، وحدد نصيبه من الطعام حتى لا يتعب البدن من قلته ، ولا يعاب بالضرر من كثرته ، بل يتعامل معه بقدر ما تتطلبه الحاجة ، ولهذا يقول رحمه الله :

" ما شبعنا منذ خمسة عشر عاما إلا شبعة فطرحتها ، لأن الشبع يثقل البدن ، ويقسي القلب ، ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة " (٣) .

فموقف الإمام الشافعي من الجوع موافق لما دل عليه قول رسول الله ﷺ : " ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه " (٤) .

ومن المعروف أن من الصوفية من قد تحدث عن الجوع - أيضا - واعتبر أحد أركان المجاهدة كما أشار إلى ذلك القشيري فيقول : " ولهذا كان الجوع من صفات القوم ، وهو أحد أركان المجاهدة ، فإن أرباب السلوك قد تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل ، وحددوا ينابيع الحكمة ، وكثرت الحكايات عنهم في ذلك ..

قال يحيى بن معاذ : لو أن الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

(١) الرسالة للإمام الشافعي ص ١٩ .

(٢) ديوان الإمام الشافعي لنعيم زرزور ص ٩١ .

(٣) حلية الأولياء ١٣٥/٩ ، وسير أعلام النبلاء ٣٦/١٠ .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد باب ما جاء في كراهية الأكل ١٨/٤ (ح ٢٤٨٦) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في الأطعمة باب الاقتصاد في الأكل ١١١/٢ (ح ٣٣٤٩) ، والحاكم ٢١/٤ وصححه .

وقال سهل التستري : لما خلق الله تعالى الدنيا جعل في الشيع المعصية والجهل ، وجعل في الجوع العلم والحكمة .

وقال أبو سليمان الداراني : مفتاح الدنيا الشيع ، ومفتاح الآخرة الجوع ^(١) .

إذن فالجوع عند هؤلاء الصوفية مطلب أساسي وأحد أركان المجاهدة ، وهو ممدوح إن لم يريدوا بذلك تعذيباً للنفس أو تحريم ما أحل الله ﷻ ، أما إن أرادوا به فهم في ذلك مخالفون لسنة رسول الله ﷺ ، لأن الرسول ﷺ كان يأكل اللحم ، ويجب الذراع من الشاة ويأكل الدجاج ، ويجب الحلوى ، ويستعذب الماء البارد .

وكان الحسن البصري يشتري كل يوم لحماً وعلى هذا كان السلف .

فموقف الإمام الشافعي من مجاهدة النفس موقف محمود ؛ ولا يعني ذلك أنه يهجر نعم الله تعالى ، فلا يتمتع بها ولا يسعد بالتلذذ بحلاوتها إذ لا رهبانية في الإسلام ، وإلا فلمن خلق الله ﷻ هذه النعم الكثيرة ؟ ! فالإنسان مأمور شرعاً بأن يمشي في الأرض ، ويأكل من رزق الله حتى يؤدي شكر هذه النعم لأن الشكر من الإيمان والله تعالى يقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تُفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) .

لا بأس أن يهتم الإنسان بالأصناف التي يحبها أو التي يكون فيها عناصر الطعام ومكوناته مما يحتاج إليها كل أجزاء الجسم وأعضاؤه ، ولكن المذموم فقط الإسراف في تناوله ، وأخذ كمية كبيرة منه لأنها تتخم المعدة وتملأ الأمعاء وتضر بالجسم .

ولقد كان الإمام الشافعي رحمه الله يهتم بالغذاء كما كان يهتم بالأصناف التي يحبها ، فقد نزل رحمه الله يوماً في بغداد عند صديقه وتلميذه الزعفراني " وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها إلى الجارية ، فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام وألقى بها لونا آخر بخطه ، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر ، وقال : ما أمرت بهذا ، فعرضت الجارية الرقعة ملحقاً فيها خط الشافعي ، فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سروراً باقتراح الشافعي عليه " ^(٣) .

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٢ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

(٣) إحياء علوم الدين ١٢/٢ .

وبهذا يظهر أن موقف الإمام الشافعي من الانتفاع مما أباحها الله لعباده من الطيبات من الرزق موافق لما دل عليه الكتاب والسنة ، ومخالف لما ذهب إليه بعض المتصوفة الذين يعذبون نفوسهم بالتجويع بحرمانها مما أحلها الله ﷻ ، ويجهدون أنفسهم بشتى أنواع الرياضات الشاقة المناقضة لتعاليم الإسلام السمحة .

٥- الزهد

قال الإمام الشافعي : " من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غدا .. كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا ، واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين " (١) .

هذه هي النظرة الثاقبة من الإمام الشافعي لحقيقة الحياة الموصولة بالله ، المدركة لواقع الإنسان وطبيعة ارتباطه بالآخرة وولائه لها ، وعمله من أجل إرضاء الله ﷻ والنجاة في الحياة الدائمة الباقية ، جعلت الإمام الشافعي يصل إلى هدفه المنشود بسهولة ، ويحدد هدفه من الدنيا وتوجهه للآخرة واتخاذ العدة والزاد والصدق مع الله طريقا إلى الفلاح .

ولا شك أن هذا الموقف موافق لما دل عليه حديث رسول الله ﷺ حيث يقول : " من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة . ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قدر له " (٢) . ويقول ﷺ : " من جعل الهموم هما واحدا ، هم المعاد كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك " (٣) .

فالإنسان بحاجة ماسة إلى أن يعرف حقيقة الحياة وهدفه منها ، وأن يدرك سر وجوده وحكمته ﷻ منه ، ومن هذا الكون الذي يعيش فيه ، ويقول في ذلك الشافعي :

إن لله عبادا فطنا تركوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطننا

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٥٦/١ .

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب القيامة ، باب ما جاء في صفة أواني الخوض ٢٥٢/٤ . وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣٠٠/٢ (ح ٢٥٩٦) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ، باب الهم بالدنيا ٤٠٨/٢ . وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٣٩٣/٢ (ح ٤١٠٦) .

جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفناً^(١) .

إن السعادة الحقيقية تكمن في أن يعرف الإنسان سر حياته وسبب خلقه ووجوده ، وأن يحدد دوره في هذه الحياة ووظيفته فيها ، ويرسم هدفه منها ، ويعرف نهايته ومصيره . فالإمام الشافعي قد عرف دوره في هذه الحياة ، وبين أن من زهد في الدنيا رزق الآخرة - كما سبق بيانه - وأضاف قائلاً في إحدى دواوينه :

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها يمسي ويصبح في دنياه سفاراً
هلا تركت لذي الدنيا معانقة حتى تعانق في الفردوس أبكاراً
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها فينبغي لك أن لا تأمن الناراً^(٢) .
وبين أحوال الناس في هذه الحياة قائلاً :

بلوت بني الدنيا فلم أر فيهم سوى من غدا والبخل ملء إهابه
فجردت من غمد القناعة صارماً قطعت رجائي منهم بذبابه
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه ولا ذا يراني قاعداً عند بابـه
غني بلا مال عن الناس كلهم وليس الغني إلا عن الشيء لا به^(٣) .
وقد صور هذه الدنيا بأنها متاع الغرور لمن يغتر بها وينهمك فيها فقال :
ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبا وعذابها
فلم أرها إلا غروراً وباطلاً كما لاح في ظهر الفلاة سراجها
وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أولعت قعر دارها مغلقة الأبواب مرخى حجابها^(٤) .

هكذا كان الإمام الشافعي - رحمه الله - ينظر إلى هذه الحياة ، ويدرك الهدف منها ، ويتخذ العدة والزاد والصدق مع الله ﷻ سبيلاً إلى الدار الآخرة الباقية .

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) ديوان الإمام الشافعي ص ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٣ .

(٤) نفسه ص ٢١ - ٢٢ .

٦- التوكل على الله تعالى

التوكل على الله تعالى سمة من سمات المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) وقال تعالى أيضا : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ^(٢) .
وقد أمر الله نبيه محمدا ﷺ بالتوكل عليه فقال ﷺ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ ^(٣) .

قال الإمام الشافعي : " نزه الله ﷻ نبيه ، ورفع قدره وعلمه وأدبه ، وقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ ، وذلك أن الناس في أحوال شتى : متوكل على نفسه ، أو على ماله ، أو على زرع ، أو على سلطانه ، أو على عطية الناس . وكل مستند إلى حي يموت أو على شيء يفنى يوشك أن ينقطع به ، فتره الله نبيه ﷺ وأمره أن يتوكل على الحي الذي لا يموت " ^(٤) .

ولا شك أن هذا الكلام استلهم نير واستدلال منطقي دقيق من الإمام الشافعي ، يدل على نظرته العميقة ، حيث يشير إلى ينابيع السعادة الحقيقية التي لا تغيض ، تلك الينابيع التي يكتسب استمرارها من صلتها الوثيقة بالله ﷻ فتمنح أصحابها السكينة والطمأنينة والأمل والأمن والراحة والرضا والحب والسعادة ، وقد قيل : ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

فالإمام الشافعي يتوكل على الله ﷻ - كغيره من العلماء السلف - وهو في طلب الرزق متوكل على الله تعالى فيقول :

وأيقنت أن الله لا شك رازقي	توكلت في رزقي على الله خالقي
ولو كان في قاع البحار العوامق	وما يك من رزقي فليس يفوتي
ولو لم يكن مني اللسان بناطق	سيأتي به الله العظيم بفضله
وقد قسم الرحمن رزق الخلائق ^(٥)	ففي أي شيء تذهب النفس حسرة

(١) سورة المائدة ، الآية (٢٣) .

(٢) سورة الأنفال ، الآية (٢) .

(٣) سورة الفرقان ، الآية (٥٨) .

(٤) أحكام القرآن للشافعي ١٨٠/٢ .

(٥) ديوان الإمام الشافعي ص ٦٦ .

ولكن مع ذلك بين الإمام الشافعي أن طلب الرزق لا بد فيه من التأي والتعب والنصب فيقول :

ورزقك ليس ينقصه التأي وليس يزيد في الرزق العناء ^(١) .

ولا غرو أن يفيض معين الشافعي بكل هذا اليقين ، ولا عجب كذلك أن يتعهد طلابه ويربيهم على هذه المعاني الكريمة ، وأن يربيهم حسن الثقة في الله ، وعظيم التوكل عليه سبحانه وتعالى .

يحكي الربيع تلميذ الإمام الشافعي كلاما طيبا دار بين الشافعي وعبد الله بن عبد الحكم " قال عبد الله بن عبد الحكم - من كبار شيوخ المالكية في مصر - للشافعي إذا أردت أن تسكن البلد - يعني مصر - فليكن لك قوت سنة ، ومجلس من السلطان تتعزبه ، فقال له الشافعي : يا أبا محمد ! من لم تعزه التقوى فلا عز له ، ولقد ولدت بغزة ، وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعا قط " ^(٢) وقال رحمه الله : " ما فزعت من الفقر قط " ^(٣) .

هكذا القلب المؤمن الموصول بالله ﷻ ، والذي تغلغل حب الله في أعماقه فعلم أن الله هو الخالق الرازق وهو المعطي المانع ، وهو النافع الضار ، وأن الأمر كله لله لا يهاب مخلوقا ولا يجامل سلطانا ولا يدهن أحدا أبدا " قال الحارث بن شريح : دخلت مع الشافعي على خادم الرشيد وهو في بيت قد فرش بالديباج ، فلما وضع الشافعي رجله على العتبة أبصر الديباج فرجع ولم يدخل ، فقال له الخادم : ادخل فقال : لا يحل افتراش هذا ، فقام الخادم متمشيا حتى دخل بيتا فرش بالأرميني ، ثم دخل الشافعي فأقبل عليه وقال : هذا حلال وذاك حرام ، وهذا أحسن من ذاك وأكثر ثمنا منه ، فتبسم الخادم وسكت " ^(٤) .

هكذا كان الإمام الشافعي حسن الثقة في الله وعظيم التوكل عليه ، عفيفا ورعا راضيا مطمئنا بقضاء الله وقدره ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ^(٥) .

(١) المصدر السابق ص ١٦ .

(٢) توالي التأسيس ص ٦٧ .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٥٤ .

(٤) حلية الأولياء ٩/ ١٣٤ ، وتوالي التأسيس ص ٦٦ .

(٥) سورة الرعد ، الآية (٢٨) .

٧- القناعة

إذا كان الإمام الشافعي يرضى بقضاء الله وقدره فهو يرضى أيضا بالقسمة التي قسمت من عند الله ، ويتجلى ذلك من خلال كلماته حينما يقول :

رأيت القناعة رأس الغنى
فصرت بأذيالها متمسك
فلا ذا يراني على بابه
ولا ذا يراني منهمك
فصرت غنيا بلا درهم
أمر على الناس شبه الملك ^(١) .

وما أتعس الحياة إذا عاشها الإنسان بلا هدف ، وأطلق لنفسه العنان في اقتفاء اللذات واقتناص الشهوات ، إنها حياة تافهة أشبه بحياة البهائم ، يقول الإمام الشافعي " من عفاً أمن ، ومن شرهت نفسه طال همه " ^(٢) .

فما أعظم القناعة ! إنها لتملاً النفس غنى ، وتعطي القلب شعوراً بالأمن والراحة ، والإنسان العاقل الحكيم هو الذي لا تفرح نفسه إلى شيء محرم عليه ، تعجز قدراته وإمكاناته عن الوصول إليه .

ثم إن الإمام الشافعي عرف أن العزة تأتي بالقناعة فيقول :

أمتٌ مطامعي فأرحت نفسي
فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتاً
ففي إحيائه عرض مصون
إذا طمع يحل بقلب عبداً
علته مهانة وعلاه هون ^(٣) .
ويقول رحمه الله أيضاً :

ولا حزن يدوم ولا سرور
ولا يؤس عليك ولا رخاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع
فأنت ومالك الدنيا سواء ^(٤) .

ويقول : " من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع " ^(٥) .

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ٦٨ .

(٢) الإمام الشافعي لعبد الحليم الجندي ص ٤٨ .

(٣) ديوان الإمام الشافعي ص ٨٦ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) تهذيب الأسماء واللغات ٥٥/١ .

وهكذا حين يقتنع الإنسان فلا بد أن يشعر بالراحة والاطمئنان ، وهكذا حين يحس بمعية الله ﷻ ويشعر بالقرب منه ، ويلوذ بجناحه ويعوذ برضاه ، ويتذلل بين يدي الله بعبادته إياه فلا بد أن يشعر بالأمن والأمان .

٨- السخاء

أخرج أبو نعيم بسنده إلى الربيع بن سليمان يقول : سمعت الحميدي يقول : قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار في منديل ف ضرب خباءه في موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه فيه فما برح حتى وهب كلها ^(١) .

وأخرج أبو نعيم أيضا بسنده إلى عمرو بن عثمان قال : قال لي الربيع : سألت رجل الشافعي فقال : إني رجل من أمري كيت وكيت ، تأمرني بشيء ؟ وما كان معه يومئذ إلا دينارا فأعطاه إياه ، فقال له بعض جلسائه : هذا لو أعطيته درهما أو درهمين كان كثيرا ، فقال : إني أستحي أن يطلب مني رجل بيني وبينه معذرة فلا أعطيه ^(٢) .

كما أخرج بسنده إلى المزني الذي يقول : " ما رأيت رجلا أكرم من الشافعي ، خرجت معه ليلة عيد من المسجد وأنا أذاكره في مسألة حتى أتيت باب داره فأتاه غلام بكيس فقال : مولاي يقرئك السلام ويقول لك : خذ هذا الكيس ، فأخذه منه وأدخله في كفه ، فأتاه رجل من الحلقة فقال : يا أبا عبد الله ! ولدت امرأتي الساعة ولا شيء عندي ، فدفع إليه الكيس وصعد وليس معه شيء " ^(٣) .

فالإمام الشافعي يحث على الجود والبذل والعطاء فيقول :

أجود بموجود ولو بت طاويا على الجوع كشحا والحشا يتألم

وأظهر أسباب الغنى بين رفقتي ليخفاهم حالي وإني لمعدم

وبيني وبين الله أشكو فاقني حقيقا فإن الله بالحالي أعلم ^(٤) .

ويحض على البذل قبل أن يفوتهم الأوان وتشغلهم أمور هذه الحياة ، ذلك أن من

يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه الله له فيقول :

إذا لم تجودوا والأمور بكم تمضي وقد ملكت أيديكم البسط والقبضا

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٣٨/٩ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٣٩/٩ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٤٠/٩ .

(٤) ديوان الإمام الشافعي ص ٧٦ .

وعفتكم الدنيا بأنياهما عضا

فما يرجى منكم إن عزلتم

ومن عادة الأيام تسترجع القرضا (١).

وتسترجع الأيام ما وهبتكم

وبين فضل السخاء والكرم بأنهما يستران عيوب الدنيا والآخرة ، كما أخرج ذلك

أبو نعيم بسنده إلى يحيى بن علي يقول : " سمعت الشافعي يقول : السخاء والكرم يغطيان عيوب الدنيا والآخرة بعد أن لا يلحقهما بدعة " (٢).

والسخاء لدى الإمام الشافعي - كما مر - سمة واضحة كما حكى لنا ابن أبي حاتم

فقال : حدثنا الربيع قال : " تزوجت ، فقال لي الشافعي : كم أصدقها ؟ فقلت : ثلاثين

دينارا ، قال : كم أعطيتها ؟ قلت : ستة دنانير ، فصعد داره ، وأرسل إلي بصرة فيها أربعة

وعشرون دينارا " (٣).

وقال ابن أبي حاتم أيضا : حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن روح ،

حدثنا الزبير بن سليمان القرشي عن الشافعي قال : خرج هرثمة فأقرأني سلام أمير المؤمنين

هارون الرشيد ، وقال : قد أمر لك بخمسة آلاف دينار ، قال : فحمل إليه المال ، فدعا

بجوام يأخذ من شعره ، فأعطاه خمسين دينارا ، ثم أخذ رقاعا ، فصر من تلك الدنانير

صررا صررا ، ففرقها في القرشين ، الذين هم في الحضرة ، ومن هم بمكة ، حتى ما رجع إلى

بيته إلا بأقل من مائة دينار (٤).

وقال البيهقي : أخبرنا الحاكم ، أخبرنا نصر بن محمد ، حدثنا أبو علي الحسن بن

حبيب بن عبد الملك - بدمشق - قال : سمعت الربيع بن سليمان يقول : رأيت الشافعي

راكب حمار ، فمر على سوق الحذائين ، فسقط سوطه من يده ، فوثب غلام من الحذائين ،

فأخذ السوط ومسحه بكمه ، وناوله إياه فقال الشافعي لغلامه : ادفع تلك الدنانير التي

معك إلى هذا الفتى ، قال الربيع : فلست أدري كانت تسعة دنانير أو سبعة دنانير " (٥).

(١) المصدر السابق ص ٥٥ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٤٢/٩ ، والمناقب للبيهقي ٢٢٧/٢ .

(٣) المناقب للبيهقي ١٩٥/١ ، وسير أعلام النبلاء ٣٧/١٠ .

(٤) آداب الشافعي ص ١٢٧-١٢٨ ، والمناقب للبيهقي ٢٢٦/٢ ، وتوالي التأسيس ص ٦٨ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٣٧/١٠ .

٩- الخوف والرجاء

روى الخطيب البغدادي بسنده إلى حسين بن علي - يعني الكرابيسي - " قال : بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحو ثلث الليل ، فما رأيت يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فمأثمة ، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين ، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ منها وسأل النجاة لنفسه ولجميع المسلمين ، قال : فكأنما جمع له الرجاء والرغبة جميعا " (١) .

وحدث المزني - وهو أبو إبراهيم بن يحيى - فقال : دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقا ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله جل ذكره واردا ، ولا والله ما أدري روعي تصير إلى الجنة أم إلى النار ؟ فأعزيتها ، ثم بكى وأنشأ يقول مناجيا ربه ويرجو رحمته ويخشى عذابه :

خف الله وارجوه لكل عزيمة	ولا تطع النفس اللجوج فتندما
وكن بين هاتين من الخوف والرجاء	وابشر بعفو الله إن كنت مسلما
ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي	جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاطمني ذني فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تنزل	تجود وتعفو منة وتكرما
فلولاك لم يصمد لإبليس عابد	فكيف وقد أغوى صفيك آدمما
فيا ليت شعري هل أصير لجنة	أهنا وإما للسعير فأندما (٢)

ولقد كان الإمام الشافعي - رحمه الله - لشدة إيمانه بأثر الدعاء وثقته في قبوله ويقينه بالإجابة يدعو ربه ويطلب من غيره أن يدعو له ، كما أخبر بذلك حرمله قائلا : قال لي الشافعي : اذهب إلى إدريس العابد فقل له : يدعو الله ﷻ لي (٣) .

فكان - رحمه الله - يعيش ساعات الليل يتعاهد كتاب الله ﷻ حفظا وتدبرا وتعبدا ، ولما سمع من يقرأ قول الله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (٤) بكى بكاء شديدا ، وتغير لونه واقشعر جلده ، وخر مغشيا عليه ، فلما أفاق جعل

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٦٣/٢ .

(٢) ديوان الإمام الشافعي ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣) توالي التأسيس ص ٨٣ .

(٤) سورة المرسلات ، الآيتان (٣٥ - ٣٦) .

يقول : " أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين ، إلهي فهب لي جودك ، وجللني بسترِكَ واعف عن تقصيري بكرم وجهك " (١) .

وكان إذا مر بآية فيها ذكر النار والعذاب تعوذ بها - كما سبق - أسوة بالرسول ﷺ ، كما حكى لنا عائشة رضي الله عنها قائلة : كنت أقوم الليل مع رسول الله ﷺ ليلة فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء ، فلا يمر بآية فيها تخويف إلا دعا الله ﷻ واستعاذ ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ﷻ ورغب إليه استجابة لقول الله ﷻ : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

فقد كان الإمام الشافعي يدعو الله ﷻ ويناجيه بالمأثور عن رسول الله ﷺ فيستفتح الصلاة قائلاً : " وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين " . وفي الركوع يقول : " اللهم لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت وأنت ربي خشع لك سمعي وبصري وعظمي وشعري وبشري وما استقلت به قدمي لله رب العالمين " .

وإذا رفع من الركوع يقول : " اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد " . فإذا سجد واقترب قال : " اللهم لك سجدت ولك أسلمت وبك آمنت ، أنت ربي سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين " .

فإذا انتهى من صلاته لهج لسانه بذكر ربه قائلاً : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة والفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون " (٣) .

(١) إحياء علوم الدين ٢٦/١ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٥٦) .

(٣) كتاب الأم ١/١٠٦ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٢٦ .

١٠- التغيير^(١)

قال ابن قدامة المقدسي : " قال الحسن بن عبد العزيز الجروي^(٢) : سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول : " تركت بالعراق شيئاً يقال له : التغيير ، أحدثته الزنادقة يصدون به الناس عن القرآن " ^(٣) .

وقال أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري^(٤) : قال الشافعي : الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته ، قال : وكان الشافعي يكره التغيير . قال الطبري : قد أجمع علماء الأمصار على كراهية الغناء والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبري .

وقد قال رسول الله ﷺ : "عليكم بالسواد الأعظم"^(٥) وهي الفرقة الناجية ، كما جاء في رواية الإمام الطبراني حينما سئل رسول الله ﷺ عن نعتهم فقال : السواد الأعظم^(٦) وقال ابن الجوزي : وقد كان رؤساء أصحاب الشافعي رضي الله عنهم ينكرون السماع^(٧) .

" وأما قدمائهم فلا يعرف بينهم خلاف ، وأما أكابر المتأخرين فعلى الإنكار ، منهم أبو الطيب الطبري وله ذم في الغناء والمنع كتاب مصنف ...

قال : لا يجوز الغناء ولا سماعه ولا الضرب بالقضيب ، قال : ومن أضاف إلى الشافعي هذا فقد كذب عليه ، وقد نص الشافعي في كتاب أدب القضاء على أن الرجل إذا دام على سماع الغناء ردت شهادته وبطلت عدالته " ^(٨) .

(١) قال محقق كتاب ذم ما عليه مدعو التصوف : المغيرة : قوم يغيرون بذكر الله ، أي يهللون ويرددون الصوت بالقراءة ونحوها ، سموا بذلك لأنهم يرغبون الناس في الغابة أي الباقية ، والحق أن الترويج بالآخرة يكون بما جاء عن الله ورسوله ﷺ من الوعظ والإرشاد والرقائق المباحة . ص ٧ .

(٢) هو : أبو علي الجروي (ت ٢٥٧هـ) قال أبو حاتم ثقة ، انظر : الجرح ٢٤/٣ ، وتاريخ بغداد ٣٣٨/٧ .

(٣) ذم ما عليه مدعو التصوف ، لابن قدامة المقدسي ، ط ٢ بيروت المكتب الإسلامي ١٤٠٣ هـ ص ٧ .

(٤) فقيه بغداد (ت ٤٥٠هـ) انظر : تاريخ بغداد ٣٥٨/٩ - ٣٥٩ وسير أعلام ٦٦٨/١٧ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٣٧٥/٤ .

(٦) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٤/٦ وقال : رجاله ثقات .

(٧) تلبس إبليس ص ٢٨٣ .

(٨) نفسه ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

ويدل إنكار الإمام الشافعي - أيضا - على السماع ما حكاه أحمد بن مقاتل العكي فيقول : " لما دخل ذو النون المصري بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومعه قوال يقول شيئا ، فاستأذنه بأن يقول بين يديه فأذن له ، فابتدأ يقول :

صغير هواك عذبي فكيف به إذا احسنكا
وأنت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا
أما ترثي لمكتب إذا ضحك الخلي بكى

قال : فقام ذو النون وسقط على وجهه ، والدم يقطر من جبينه .. ثم قام رجل من القوم يتواجد . فقال له ذو النون : ﴿ وَالَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ^(١) فجلس الرجل " ^(٢) .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فهذا ونحوه هو الذي أشار إليه الأئمة ، كالشافعي في قوله : " خلفت بغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن " فيكون ذو النون أحد الذين حضروا التغبير الذي أنكره الأئمة وشيوخ السلف .. " ^(٣) .

١١- تصرف الولي

يقول الإمام الشافعي : " من قال مطرنا بنوء ^(٤) كذا وكذا على ما كان أهل الجاهلية يعنون من إضافة المطر إلى أنه بنوء كذا فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ ، لأن النوء وقت ، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا ، ومن قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا فلا يكون كفرا وغيره من الكلام أحب إليه منه " ^(٥) .
هذا النص يرد على الفكر الصوفي الذي يعتقد بأن للأولياء تصرفا خاصا في أمور لا يقدر عليها إلا الله كما ينسبون إلى الأولياء بأنهم يملكون إنزال المطر ^(٦) . رغم أن هذه الأمور لا تليق إلا بالله ﷻ .

(١) سورة الشعراء ، الآية (٢١٨) .

(٢) الاستقامة ٣٨٤/١ - ٣٨٥ ، وانظر : الرسالة القشيرية ص ٣٤٤ .

(٣) الاستقامة ٣٨٥/١ .

(٤) النوء : النجم مال للغرب ، أو سقوط النجم في المغرب في الفجر ، وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق ،

انظر : القاموس المحيط مادة (نوء) .

(٥) كتاب الأم ٢٥٢/١ .

(٦) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة (أبدال) .

فقد كان الإمام الشافعي حريصا على التمسك باعتقاد سلف هذه الأمة ، والدفاع عنه من كل شائبة قد تشوبه ، فكان يقف موقف المؤمن الذي يعتقد بأن الغيث لا يقدر على إنزاله إلا الله ﷻ ، بل ولا يعلم وقت نزوله غيره ﷻ ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

وكما أن الله ﷻ هو وحده المدبر والمتصرف والمالك لإنزال المطر في الوقت الذي يريده ويختار فكذلك هو وحده المنفرد بمنعه إذا شاء قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ (٢) .

وموقف الإمام الشافعي - رحمه الله - له سند من قول رسول الله ﷺ ، كما في حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ قال : " صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب " رواه الشيخان (٣) .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله : " فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعا في ذلك فكفره كفر شرك ، وإن اعتقد ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك ، ولكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة " (٤) .

وهذا النص يبين بأن ليس هناك فرقا بين من ينسب إيجاد المطر إلى الكوكب وبين من ينسبه إلى المخلوقين سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر ، لأن المخلوق - كما في كلام الشافعي - لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا .

(١) سورة لقمان ، الآية (٣٤) .

(٢) سورة الملك ، الآية (٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صفة الصلاة ، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم ٢٩٠/١ (ح ٨١٠) ، ومسلم في الإيمان

باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ٨٣/١ (ح ٧١) .

(٤) تيسير العزيز الحميد ص ٤٥٩ .

المبحث الثالث

بطلان ما نسب إلى الإمام الشافعي في التصوف

١- الأوتاد

إن كلمة الأوتاد جمع الوتد ، وهو ما رز في الأرض أو الحائط من خشب .
وأوتاد الأرض : الجبال ، وفي التثنية العزيز : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا . وَالْجِبَالَ
أَوْتَادًا ﴾ ^(١) ، وأوتاد البلاد رؤسائها ^(٢) .

أما الأوتاد في المصطلحات الصوفية فهم " الرجال الأربعة الذين على منازلهم الجهات
الأربع من العالم ، أي المشرق والمغرب والجنوب والشمال ، بهم يحفظ الله تلك الجهات
لكونهم محال نظره تعالى " ^(٣) .

وفي الفكر الصوفي كان الإمام الشافعي - رحمه الله - أحد الأوتاد ، وجهات العالم
الأربع ، كما ذكره الشعراني عن شيخه ابن عربي حينما قال : " اعلم أن بالقطب تحفظ
دائرة الوجود كله من عالم الكون والفساد ، وبالإمامين يحفظ الله تعالى عالم الغيب
والشهادة ، وهو ما أدركه الحس ، وبالأوتاد يحفظ الله تعالى الجنوب والشمال والمشرق
والمغرب ، وبالأبدال يحفظ الله الأقاليم السبعة ، وبالقطب يحفظ الله تعالى جميع هؤلاء لأنه
هو الذي يدور عليه عالم الكون كله ، فمن علم هذا الأمر علم كيف يحفظ الله الوجود
على عالم الدنيا ونظيره من الطب علم تقويم الصحة (فإن قلت) : فهل للقطب تصريح
في أن يعطي القطبية لمن يشاء من أصحابه وأولاده ؟ (فالجواب) : ليس له تصريح في
ذلك قد بلغنا أن بعض الأقطاب سأل الله أن تكون القطبية من بعده لولده ، فإذا بالهاتف
يقول له ذلك لا يكون إلا في الإرث الظاهر ، وأما في الإرث الباطن فذلك إلى الله وحده ،
الله أعلم حيث يجعل رسالته .

فعلم أنه ما حفظ من حفظ من الأولياء وغيرهم من جهاته الأربع إلا بالأوتاد ،
الذين كان منهم الإمام الشافعي ، وما حفظ من حفظ في صفاته السبع إلا بالأبدال السبعة

(١) سورة النبأ ، الآيتان (٦ - ٧) .

(٢) انظر : لسان العرب ، والقاموس المحيط مادة (و تد) .

(٣) مصطلحات الصوفية للحفني ص ٢٦٤ .

فكل صفة لها بدل يحفظها على صاحبها من حياة وعلم وقدرة وإرادة وسمع وبصر وكلام انتهى " (١) .

التعليق :

قال عبد الرحمن عبد الخالق معلقا على هذه النصوص :

" وهكذا يريد المتصوف إيهامك أن ما حفظ من سمعك وبصرك وقدرتك وعلمك وحياتك وإرادتك إنما مرجعه إلى بدل من الأبدال السبعة الذين كان منهم الشافعي في زمانه الشافعي هذا ﷺ الذين يكذبون عليه ، والذي قال عن الصوفية بعد أن ارتحل عن العراق إلى مصر قال : " تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئا يسمونه السماع " وقال أيضا : " لا أرى إنسانا يتصوف أول النهار إلا أن يكون أحق في آخره " (٢) .

قلت : فمن خلال النصوص السابقة التي ذكرها الشعراي نرى أن فيها أقوالا وأعمالا شركية ، تتصادم مع تعاليم الكتاب العزيز ، وتخالف عقائد الأئمة الأربعة ؛ بل نرى فيها العمل المنسوب إلى الإمام الشافعي وهو عاجز عنه ، حيث لا أحد يقدر عليه إلا الله ﷻ ، لأن السماوات والأرض وما فيهما ملك لله وحده ﷻ ، وأن حفظهما من خصائص ربوبيته ﷻ ، حيث قال : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) ، وقال تعالى أيضا : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَعِيرٍ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤) .

فجهات العالم الأربع لا دخل للإنسان في حفظها ، فالله وحده ﷻ هو المالك المدبر ، ومصرف الأمور لا يشاركه فيها أحد ، فلا يحفظ العالم بالأوتاد الأربعة ، أو بالأبدال السبعة ، أو بحسب مراتب الترتيب التي يرتبها المتصوفة .

ولعل استخدام هذه المصطلحات من قبل المتصوفة ، وإسنادها إلى أحد الأئمة الكبار ما هو إلا وسيلة من وسائل جذب الناس إلى معتقداتهم .

(١) البواقيت والجواهر ٨٢/٢ .

(٢) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص ٢٤١ .

(٣) سورة المائدة ، الآية (١٢٠) .

(٤) سورة لقمان ، الآيتان (١٠ - ١١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شأنهم : " وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه ، بل هذا الترتيب والأعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية ، والنصيرية ، ونحوهم في السابق والتالي والناطق ، والأساس والجسد وغير ذلك من الترتيب الذي ما نزل الله به من سلطان " (١) .

ولا ننكر أن لفظ " الأوتاد " معروف في اللغة العربية ، وقد استخدمه القرآن الكريم ، الذي يعني تثبيت الأرض بالجمال كي لا تتحرك وتميل إلينا وهذا المعنى لا غبار عليه ، كذلك " يوجد في كلام البعض أنه يقول : فلان من الأوتاد ، يعني أن الله تعالى يثبت به الإيمان ، والدين في قلوب من يهديهم الله به ، كما يثبت الأرض بأوتادها ، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء ، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة ، والجمال الكبيرة ، ومن كان بدونه كان بحسبه ، وليس ذلك محصورا في أربعة ولا أقل ولا أكثر ؛ بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين في أوتاد الأرض " (٢) .

ولكن الصوفية اعتبرت الأوتاد مرتبة من مراتب الأولياء ، وهم الذين يحفظون هذا الكون الذي نعيش فيه - حسب زعمهم - ، وقد وصفهم محي الدين ابن عربي فقال : " واعلم أن هؤلاء يحوون على علوم جمّة كثيرة ، فالذي لا بد لهم من العلم به ، وبه يكونون أوتادا فما زاد من العلوم فمنهم من له خمسة عشر علما ، ومنهم من له ولا بد ثمانية عشر علما ، ومنهم من له واحد وعشرون علما ، ومنهم من له أربعة وعشرون علما ، ولكل وجهة وقد يشفع يوم القيامة فيمن دخل عليه إبليس من جهته " (٣) .

وبهذا المفهوم ننفي ونبعد أن يكون الإمام الشافعي واحدا منهم ، وخاصة أن مصطلح الأوتاد عند الصوفية يصطدم اصطداما واضحا مع العقيدة الصحيحة .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤٣٩/١١ .

(٢) نفسه ٤٤٠/١١ .

(٣) الفتوحات المكية ٤٠١/٢ .

٢- السماع

. قال أبو القاسم القشيري : " وأما الشافعي - رحمه الله - فإنه لا يحرمه (السماع) ويجعله في العوام مكروها ، حتى لو احترف الغناء ، أو اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلهي ترد به الشهادة ، ويجعله مما يسقط المروءة ، ولا يلحقه بالمحرمات ، وليس كلامنا في هذا النوع من السماع فإن هذه الطائفة جلت رتبهم عن أن يستمتعوا بلهو ، أو يقعدوا للسماع بسهو ، أو يكونوا بقلوبهم متفكرين في مضمون لغو ، أو يستمعوا على صفة غير كفاء " (١) .

التعليق على النص :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " لم يختلف قول الشافعي في كراهته والنهي عنه للعوام والخواص ، لكن هل هي كراهة تحريم أو تنزيه ، أو تفضيل بين بعض وبعض ؟ هذا مما يتنازع فيه أصحابه ، وهذا قوله في سماع العامة ، وأما السماع الديني الذي جعله أبو القاسم للخاصة فهو عند الشافعي من فعل الزنادقة ، كما قال : خلفت بغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التبغير ويصدون به الناس عن القرآن .

فعنده أن هذا السماع أعظم من أن يقال فيه مكروه أو حرام ، بل عنده مضاد للإيمان ، وشرع دين لم يأذن به ، ولم يتزل به سلطان ، وإن كان من المشايخ الصالحين من تأول ذلك ، وتأويله واجتهاده يغفر الله له خطأه ، ويثيبه على ما مع التأويل من عمل صالح ، فذلك لا يمنع أن يقال ما في الفعل من الفساد ، إذ التأويل من باب المعارض في حق بعض الناس ، تدفع به عنه العقوبة ، كما تدفع بالتوبة والحسنات الماحية ، وهذا لمن استفرغ في وسعه في طلب الحق " (٢) .

ثم قال رحمه الله : " فقول الشافعي ﷺ في هؤلاء كقوله في أهل الكلام : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام ، وقوله : لأن يتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يتلى بالكلام .

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٣٧ .

(٢) الاستقامة ٢٧٩/١ .

ومع هذا فقد ابتلى البعض بذلك على وجه التأويل من أهل العلم والدين والتصوف والعبادة .

ولهذا كان الكلام في السماع على وجهين :

أحدهما : سماع اللعب والطرب ، فهذا يقال فيه مكروه أم محرم ؟ أو باطل أو مرخص في بعض أنواعه ؟

والثاني : السماع المحدث لأهل الدين والقرب ، فهذا يقال فيه : إنه بدعة وضلالة ، وإنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ، وإجماع السالفين جميعهم ، وإنما حدث في الأمة لما أحدث الكلام ، فكثير هذا في العلماء وهذا في العباد " (١) .

ويمكن إرجاع بدعة العبادة بالرقص وسماع الأغاني إلى بدعة يهودية ، حيث إن النص وارد في أسفار العهد القديم عندهم ، ويدعو إلى عبادة الله بالرقص والدف والغناء كما هو واضح من هذا النص : " هللوا يا غنوا للرب ترنيمة جديدة تسبيحة في جماعة الأتقياء ليفرح إسرائيل بخالقه ، ليتهج بنور صهيون بملكهم ، ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرنموا له الأب راض عن شعبه ... سبحوا برباب وعود سبحوا بدف ورقص سبحوه بأوتار ومزمار " (٢) .

ويؤيد هذا أيضا ما ذكره القرطبي عن أحد العلماء حين سئل عن مذهب الصوفية في الرقص والتواجد حتى يقع أحدهم مغشيا عليه ؟ فأجاب : " مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ... إلى أن قال :

فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل ، وغيرهم من أئمة المسلمين " (٣) .

(١) المصدر السابق ٢٨٠/١ .

(٢) العهد القديم ، المزامير - المزمور (١٤٩ - ١٥٠) .

(٣) جامع الأحكام للقرطبي ٢٣٧/١١ - ٢٣٨ .

كان الإمام القرطبي - إذن - مؤيدا لما ذهب إليه الإمام الشافعي في إنكار السماع المحدث ، الذي ابتدعته الزنادقة واتخذوه ديناً .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " فمن اتخذ نظير هذا السماع عبادة وقرية يتقرب بها إلى الله فقد ضاهى هؤلاء في بعض أمورهم " ^(١) أي أنهم يتشبهون بالمشركين الذين اتخذوا المكاء والتصدية عبادة .

وحكاية أخرى تنسب إلى الإمام الشافعي في السماع .

تقول الحكاية : " وحكى إسماعيل بن عليّة ^(٢) قال : كنت أمشي مع الشافعي - رحمه الله - وقت الهاجرة ، فجزنا بموضع يقول فيه أحد شيئا ، فقال : ملّ بنا إليه ، ثم قال : أيطربك هذا ؟ فقلت : لا ، فقال : مالك حسّ " ^(٣) .

التعليق على النص :

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا النص فيقول : " وقد كان مستغنيا عن أن يستشهد على الأمور الحسية بحكاية مكذوبة على الشافعي ، فإن إسماعيل بن عليّة شيخ الشافعي لم يكن ممن يمشي معه ، ولم يرو هذا عن الشافعي ؛ بل الشافعي الذي روى عنه ، وهو من أجلاء شيوخ الشافعي ...

إلى أن قال رحمه الله : " فهذه الحكاية يعلم أنها مفتراة من له أدنى معرفة بالناس ، ولو صحت عمن صحت عنه لم يكن فيها إلا ما هو مدرك بالإحساس من أن الصوت الطيب لذيذ مطرب ، وهذا يشترك فيه جميع الناس ، ليس هذا من أمور الدين ، حتى يستدل فيه بالشافعي ، بل ذكر الشافعي في مثل هذا غرض من منصبه ، مثل ما ذكر ابن طاهر عن مالك - رحمه الله - حكاية مكذوبة ، وأهل المواخر أعلم بهذه المسألة من أئمة الدين ، ولو حكى مثل هذا عن إسحاق بن إبراهيم النخعي ، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني لكان أنسب من يحكيها عن الشافعي " ^(٤) .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٣٥٩ .

(٢) إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم ، الإمام ، العلامة ، الحافظ .. أبوبشر الأسدي المشهور بابن عليّة ، وهي أم ،

(ت ١٩٣هـ) ، انظر : سير أعلام ٩/١٠٧ ، وتذكرة الحفاظ ١/٣٢٢ .

(٣) الاستقامة ١/٣٣٧

(٤) نفسه ١/٣٣٧ - ٣٣٨ .

ثم يقال : كون الصوت الحسن فيه لذة أمر حسي ، لكن أي شيء في هذا مما يدل على الأحكام الشرعية ، من كونه مباحا أو مكروها أو محرما ؟ ومن كون الغناء قرينة أو طاعة ؟

بل مثل هذا أن يقول القائل : استلذاذ النفوس بالوطء مما لا يمكن جحوده ، واستلذاذها بالمباشرة للجميل من النساء والصبيان مما لا يمكن جحوده ، واستلذاذها بالنظر إلى الصور الجميلة مما لا يمكن جحوده ، فأبي دليل في هذا لمن هداه الله على ما يحبه ويرضاه أو يبيحه ويجيزه ؟ " (١) .

ثم قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : " ومن المعلوم أن هذه الأجناس فيها الحلال والحرام ، والمعروف والمنكر ، بل كان المناسب لطريقة الزهد في الشهوات واللذات ومخالفة الهوى أن يستدل بكون الشيء لذيفا مشتهى على كونه مباحا لطريق الزهد والتصوف ، كما قد يفعل كثير من المشايخ يزهدون بذلك في جنس الشهوات واللذات . وهذا وإن لم يكن في نفسه دليلا صحيحا ، فهو أقرب إلى طريقة الزهد والتصوف من الاستدلال بكون الشيء لذيفا على كونه طريقا إلى الله .

وكل من الاستدلالات باطل ، فلا يستدل على كونه محمودا أو مذموما ، أو حلالا أو حراما ، إلا بالأدلة الشرعية لا بكونه لذيفا في الطبع أو غير لذيف " (٢) .

ولهذا ينكر على من يتقرب إلى الله بترك جنس اللذات ، كما قال النبي ﷺ للذين قال أحدهم : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر : أما أنا فلا أكل اللحم ، فقال النبي ﷺ : " لكنني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء وأكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " (٣) " (٤) .

(١) الاستقامة ٣٣٨/١ - ٣٣٩ .

(٢) نفسه ٣٣٩/١ .

(٣) سبق تخريجه ٢٨ .

(٤) المصدر نفسه ١٤٠/١ .



٣- التبرك بالقبر وبصاحبه

روى الإمام الصيمري أنا عمر بن إبراهيم المقرئ أنبأ مكرم بن أحمد أنبأ عمر بن إسحاق بن إبراهيم أنا علي بن ميمون سمعت الشافعي رحمه الله يقول : إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجىء إلى قبره كل يوم - يعني زائراً - فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد عني حتى تقضي " (١) .

وروى الخطيب البغدادي بإسناده ثم ذكر الرواية السابقة (٢) .

وقال السيد عفيفي : " لم يزل العلماء وذوو الحاجات يزورون قبر الإمام أبي حنيفة ، ويتوسلون إلى الله تعالى عنده في قضاء حوائجهم ويرون نجاح ذلك ، ومن هؤلاء العلماء الإمام الشافعي رحمه الله ثم ذكر الرواية أيضا .. " (٣) .

التعليق بالأمور الآتية :

أولاً : إذا نظرنا في الرواية من حيث السند فإنها رواية ضعيفة ، بل باطلة ، كما قال الشيخ الألباني في (سلسلة الضعيفة ٣١/١) ذلك أن عمر بن إسحاق بن إبراهيم غير معروف ، وليس له ذكر في شيء من كتب الرجال ، ويحتمل أن يكون هو (عمرو) بن إسحاق بن إبراهيم بن حميد بن السكن أبو محمد التونسي ، وقد ترجمه الخطيب (١٢ / ٢٢٦) ، وذكر أنه بخاري قدم حاجاً سنة (٣٤١ هـ) ، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً فهو مجهول الحال ، ويبعد أن يكون هو هذا ، إذ أن وفاة شيخه علي بن ميمون سنة (٢٤٧ هـ) على أكثر الأقوال ، فتبين وفاتها نحو مائة سنة ، فيبعد أن يكون قد أدركه .

ثانياً : أما من حيث المتن فإن الرواية لا تصح نسبتها إلى الإمام الشافعي ، لأن النص معلوم كذبه عند من له معرفة بالنقل ، فإن الإمام الشافعي لما قدم بغداد لم يكن بها قبر ينتاب للدعاء عنده البتة ، وقد رأى الإمام الشافعي بالحجاز واليمن والشام والعراق ومصر ، ومن الأنبياء والصحابة والتابعين من كان أصحابها عنده وعند المسلمين أفضل من أبي حنيفة وأمثاله من العلماء ، فلماذا الإمام الشافعي لم يتوخ الدعاء إلا عنده ؟ ثم إن أصحاب أبي

(١) مناقب أبي حنيفة للموفق المكي ٤٥٣/١ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ١٢٣/١ .

(٣) حياة الإمام أبي حنيفة ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

حنيفة الذين أدركوه مثل أبي يوسف ومحمد وزفر والحسن بن زياد وطبقتهم لم يكونوا يتحرون الدعاء لا عند قبر أبي حنيفة ولا عند قبر غيره .

ثالثا : وأما من حيث الموضوع فقد ابتعد عن الإمام الشافعي لأنه كان من أكثر الناس حرصا على حماية جناب التوحيد والتحذير من وسائل الشرك ، وأشدّهم نفيا عنها ، وكذلك أتباعه ، وقد وردت عنهم في ذلك نصوص كثيرة منها :

قال الإمام الشافعي : " وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا مخافة الفتنة عليه ، وعلى من بعده من الناس " (١) .

وهذا تناقض بين القول والفعل يتره عنه الشافعي ، ولو كان هذا التبرك صحيحا لقال له الناس كيف تخشى على الناس فتنة لا تخشاها على نفسك ؟

وقال أيضا : " وأكره أن يبنى على القبر مسجد وأن يسوى ، أو يصلى عليه وهو غير مسوي ، أو يصلي إليه " (٢) . واستعماله - رحمه الله - للفظ الكراهية إنما يقصد به التحريم كما هو مقتضى النصوص الشرعية ، وليس المقصود بكلامه الكراهة باصطلاح الفقهاء المتأخرين .

كما قال أيضا : " يكره أن يخصص القبر وأن يكتب عليه اسم صاحبه ، أو غير ذلك وأن يبنى عليه " (٣) .

وقال ابن حجر المكي الهيتمي : " الكبيرة الثالثة ، والرابعة ، والخامسة ، والسادسة ، والسابعة ، والثامنة والتسعون اتخاذ القبور مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، واتخاذها أوثانا ، والطواف بها ، واستلامها ، والصلاة إليها ... ثم قال : تنبيه : عدّ هذه الستة من الكبائر وقع في كلام بعض الشافعية ، كأنه أخذ ذلك مما ذكرته من هذه الأحاديث ووجه أخذ القبر مسجدا منها واضح لأنه - يعني النبي ﷺ - لعن من فعل ذلك ، وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه شر الخلق عند الله يوم القيامة ، ففيه تحذير لنا كما في رواية " يحذر ما صنعوا " (٤) أي يحذر أمته بقوله لهم ذلك من أن يصنعوا كصنع أولئك ، فليلعنوا كما

(١) انظر : الأم ٢٧٨/١ ، والمهذب ١٣٩/١ - ١٤٠ ، وروضة الطالبين ٦٥٢/١ ، والمجموع ٢٦٦/٥ .

(٢) الأم ٢٧٨/١ .

(٣) المجموع على شرح المهذب ٢٦٦/٥ .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ، باب مرض النبي ﷺ (ح ٤٤٤٣) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، باب التهي عن بناء المساجد على القبور ٣٧٧/١ (ح ٥٣١) .

لعنوا .." ، إلى أن قال : فإن أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد أو بناءها عليها والقول بالكراهة محمول على غير ذلك ، إذ لا يظن بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبي ﷺ لعن فاعله ، ويجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور ، إذ هي أضر من مسجد الضرار ؛ لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ لأنه نهي عن ذلك ، وأمر ﷺ بهدم القبور المشرفة ، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على القبر ولا يصح وقفه ونذره " (١) .

وقال الإمام النووي : " ولا يجوز أن يطاف بقبره ﷺ ، ويكره لصاق البطن والظهر بجدار القبر ، قاله أبو عبد الله الحليمي وغيره ، قالوا : ويكره مسحه باليد وتقبيله ، بل الأدب أن يبعد منه ، كما يبعد منه من حضره في حياته ﷺ .

هذا هو الصواب الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه ، ولا يغتر بمخالفة كثير من العوام وفعالهم ، وكذلك فإن الإقتداء والعمل إنما يكون بالأحاديث الصحيحة وأقوال العلماء ، ولا يلتفت إلى محدثات العوام وجهالاتهم وغيرها .. ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته ، لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع وكيف يتغنى الفضل في مخالفة الصواب ؟ " (٢) .

قال الرافعي في شرح المنهاج : " وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ أو على اسم من حلها من الأولياء ، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع قصود العامة - تعظيم البقعة أو المشهد أو الزاوية أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بنى على اسم ، فهذا النذر باطل غير منعقد ؛ فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ويرون أنها مما يدفع بها البلاء ويستجلب بها النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم إنه استند إليه عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السرج والزيت ، ويقولون : القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر ، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض ، أو قدوم غائب ، أو سلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازات ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقا ، ومن ذلك نذر

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/١٩٥ .

(٢) المجموع على شرح المذهب ٨/٢٥٧-٢٥٨ .

الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ، فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركا وتعظيما ، ظانا أن ذلك قرينة فهذا مما لا ريب في بطلانه ، والإيقاد المذكور محرم سواء انتفع به هناك منتفع أم لا " (١) .

وقال الإمام النووي : " إذا نذر المشي إلى مسجد غير المساجد الثلاثة ، وهي : المسجد الحرام ، والمدينة ، والأقصى لم يلزمه ولا ينعقد نذره عندنا " (٢) .

ومن خلال النصوص السابقة تبين لنا مدى حرص الإمام الشافعي وأتباعه - رحمهم الله - على حماية التوحيد من كل شوائب ، وكذلك حرصهم الشديد على إبعاد كل مظهر من مظاهر الشرك ، وإغلاق أبوابها ، فحرموا كل ما يؤدي إليه من تعظيم القبور بأي شكل كان .

وبذلك نصل إلى أن ما نسب إلى الإمام الشافعي من تبركه بالقبور أو إتيانه إليه كل يوم ، وطلبه من الله الحاجة عنده ، كل ذلك كذب وافتراء عليه وعلى أتباعه الكرام ، حيث لم نجد واحدا منهم من يخبرنا بأن الإمام الشافعي يتبرك بالقبور وبصاحبه ، بل وجدنا منهم الحرص الشديد على حماية التوحيد من كل مظاهر الشرك والوثنية .

فالتبرك بالأسماء والقبور من بدع القبورية ، وهي طريق واسع سريع إلى الوثنية ، وكذلك زيارة القبور لأجل التوسل بأصحابها لرفع البلاء ، والاستغاثة بهم في قضاء الحوائج وغفران الذنوب هي عين الوثنية الجاهلية ، ولا يمت ذلك بأي صلة للشرع السماوي ودين التوحيد ، والرسول - عليهم الصلاة والسلام - قد بعثوا لقمع هذه التوسلات ، فزيارة القبور إنما شرعت للاعتبار والدعاء للميت ، ولم تشرع للتبرك ودعاء الميت والتوسل به .

وحكاية أخرى منسوبة إلى الإمام الشافعي في التبرك .

روى عن الربيع بن سليمان أن الإمام الشافعي - رحمه الله - بعثه بكتاب من مصر إلى الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - ببغداد ، وذكر فيه أنه رأى النبي ﷺ في نومه ، وأنه أمره أن يبشر أحمد بأنه سيمتحن في القول بخلق القرآن ، وأن الله سيرفع له بذلك علما

(١) فتح المجيد ص ٢١٣ .

(٢) المجموع ٤٧١/٨ .

إلى يوم القيامة ، فرفع إلى الربيع أحد ثوبيه بشارة ، فلما رجع الربيع إلى مصر تبرك الشافعي بغسالة ثوب الإمام أحمد ^(١) .

تعليق :

هذه الحكاية غير صحيحة لما يأتي :

أن الإمام الذهبي قد نص على عدم صحتها ، فقد قال - رحمه الله - عند ترجمته للربيع أنه لم يكن صاحب رحلة ، فأما ما يرى أن الشافعي بعثه إلى بغداد بكتابه إلى أحمد بن حنبل فغير صحيح ، ذلك أن الشافعي لقي من هو أكبر من الإمام أحمد وأفضل ولم يتبرك به ، كالإمام مالك ابن أنس - رحمه الله - وهو شيخه ، وكذا سفيان بن عيينة - رحمه الله - .

ومما يؤيد كلام الذهبي أن الخطيب البغدادي لم يترجم للربيع في تاريخه ، مع التزامه ترجمة كل من ورد بغداد ، ومع أن الربيع كان مشهوراً ، ثم إنه من خلال التأمل لأسانيد هذه الحكاية تبين أن في أحد أسانيدها أبا عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، قال عنه محمد يوسف القطان النيسابوري : كان أبو عبد الرحمن غير ثقة ، وكان يضع للصوفية الأحاديث ^(٢) . وقال الذهبي : ماهو بالقوي في الحديث ، وقال أيضاً : وفي الجملة ففي تصانيفه أحاديث وحكايات موضوعة ، وفي حقائق تفسيره أشياء لا تسوغ أصلاً ^(٣) . أما الأسانيد الأخرى ففيها انقطاع ، وبعض رواها لا يعرف ، وبذلك نصل إلى أن الحكاية المنسوبة إلى الإمام الشافعي باطلة وغير صحيحة .

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٧٠/٧ - ٢٧١ . ومناقب الإمام أحمد ص ٥٥١ - ٥٥٣ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ٢٤٨/٢ .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء ٢٥٠/١٧ - ٢٥٢ .

٤ - الفراسة والنظر في النجوم

قال الربيع بن سليمان : وكان - أي الشافعي - ذا معرفة بالفراسة ^(١) حيث قال رحمه الله : " خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة ، حتى كتبتها جميعا " ^(٢) . وقال ابن حجر العسقلاني : أخرج الحاكم من طريق حرمة قال : كان الشافعي ينظر في كتب النجوم ، وكان له صديق ، فذكر القصة ، وفيها : فقال : تلد إلى سبعة وعشرين يوما ، وقال : في فحذه الأيسر خال أسود ، ويعيش أربعة وعشرين يوما ، ثم يموت فجأة ، وقال فيها : فأحرق الشافعي تلك الكتب ، وما عاد ينظر في شيء من ذلك ^(٣) .

وفي رواية أخرى : كان الشافعي - وهو حدث - ينظر في النجوم وما نظر في شيء إلا تفقه فيه وفهمه ، فجلس يوما - وامرأة رجل تطلق - فحسب ، فقال : تلد جارية عوراء ، على فرجها خال ، وتموت لكذا ، فولدت ، فكان كما قال ، فجعل على نفسه أن لا ينظر في النجوم أبدا ، ودفن تلك الكتب التي كانت عنده ^(٤) .

التعليق :

للإمام ابن القيم - رحمه الله - تعليق على هذه الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعي - رحمه الله - فقال : " .. وأظن الذي غره في ذلك أبو عبد الله الحاكم فإنه صنف في مناقب الشافعي كتابا كبيرا وذكر علومه في أبوابه ، وقال الباب الرابع والعشرون في معرفة تسيير الكواكب من علم النجوم وذكر فيه حكايات عن الشافعي تدل على تصحيحه لأحكام النجوم ، وكان هذا الكتاب وقع للرازي فتصرف فيه وزاد ونقص وصنف مناقب الشافعي من هذا الكتاب ، والذي غر الحاكم من هذه الحكاية تساهله في إسنادها ، ونحن نبين حالها ليتبين أن نسبة ذلك إلى الشافعي كذب عليه ، وأن الصحيح عنه من ذلك ما كانت العرب تعرفه من علم المنازل والاهتداء بنجوم في الطرقات ، وهذا هو الثابت الصحيح عنه بأصح إسناد إليه .

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٦٥/١ .

(٢) الوافي بالوفيات ١٧٥/٢ .

(٣) توالي التأسيس ص ٦٥ .

(٤) المصدر نفسه .

قال الحاكم حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا الربيع بن سليمان قال : قال الشافعي : قال الله ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ^(١) ، وقال : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ^(٢) ، كانت العلامات جبالا يعرفون مواضعها من الأرض ، وشمسا وقمرًا ونجما مما يعرفون من الفلك ورياحا يعرفون صفاتها في الهواء تدل على قصد البيت الحرام " ^(٣) .

ثم قال ابن القيم - رحمه الله - : " وأما الحكايات التي ذكرت عنه في أحكام النجوم فثلاث حكايات :

إحداها : قال الحاكم قرئ على أبي يعلى حمزة بن محمد العلوي - وأكثر ظني أني حضرته - حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن العباس الأزدي في آخرين قالوا : حدثنا محمد بن أبي يعقوب الجوال الدينوري حدثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثني خالي عمارة بن زيد قال : كنت صديقا لمحمد بن الحسن فدخلت معه يوما على هارون الرشيد فسأله ، ثم إني سمعت محمد بن الحسن وهو يقول : إن محمد بن إدريس يزعم أن للخلافة أهلا قال : فاستشاط هارون من قوله غضبا ، ثم قال عليّ به ، فلما مثل بين يديه أطرق ساعة ، ثم رفع رأسه إليه فقال : أيها فقال الشافعي : ما أيها يا أمير المؤمنين ؟ أنت الداعي وأنا المدعو ، وأنت السائل وأنا المجيب ، فذكر حكاية طويلة سأله فيها عن العلوم ومعرفته بها إلى أن قال : كيف علمك بالنجوم ؟ قال : أعرف الفلك الدوائر والنجم السائر والقطب الثابت والمائي والناري ، وما كانت العرب تسميه الأنواء ، ومنازل النيران والشمس والقمر والاستقامة والرجوع والنحوس والسعود وهياتها وطبائعها ، وما استدل به من بري وبحري ، وأستدل في أوقات صلاتي وأعرف ما مضى من الأوقات في كل ممسي ومصبحي ، وظعني في أسفاري ... "

ثم ساق العلوم على هذا النحو في حكاية طويلة يعلم من له علم بالمنقولات أنها كذب مختلق وإفك مفترى على الشافعي ، والبلاء فيها من عند محمد بن عبد الله البلوي هذا فإنه كذاب وضاع ، وهو الذي وضع رحلة الشافعي ، وذكر فيها مناظرته لأبي يوسف

(١) سورة الأنعام ، الآية (٩٧) .

(٢) سورة النحل ، الآية (١٦) .

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ، بيروت (دار الكتب العلمية) ٢١٩/٢ .

بحضرة الرشيد ولم ير الشافعي أبا يوسف ولا اجتمع به قط ، وإنما دخل بغداد بعد موته .. " (١) .

وأما الحكاية الثانية فقال الحاكم : أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرمة قال : كان الشافعي يدم النظر في كتب النجوم وكان له صديق ، وعنده جارية قد حبلت فقال : إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوما ، ويكون في فخذ الولد الأيسر خال أسود ، ويعيش أربعة وعشرين يوما ثم يموت ، فجاءت به على النعت الذي وصف ، وانقضت مدته فمات ، فأحرق الشافعي بعد تلك الكتب ، وما عاود النظر في شيء منها " **التعليق :**

وقال ابن القيم : " وهذا الإسناد رجاله ثقات لكن الشأن فيمن حدث أبا الوليد بهذه الحكاية عن الحسن بن سفيان ، أو فيمن حدث بها الحسن عن حرمة ، لو صحت لوجب أن تثني الخناصر على هذا العلم ونشد به الأيدي لا أن تحرق كتبه ويهان غاية الإهانة ، ويجعل طعمة للنار ، وهذا لا يفعل إلا بكتب المحال والباطل " (٢) .

ثم إنه ليس في العالم طالع للولادة يقتضي هذا كله ... والطالع عند المنجمين طالعان : طالع مسقط النطفة وهو الطالع الأصلي ، وهذا لا سبيل إلى العلم به إلا في أندر النادر الذي لا يقتضيه الوجود ، والثاني طالع الولادة ، وهم معترفون أنه لا يدل على أحوال الولد وجزئيات أمره ، لأنه انتقال الولد من مكان إلى مكان ، وإنما أخذوه بدلا من الطالع الأصلي لما تعذر عليهم اعتباره ، وهذه الحكاية ليس فيها أخذ واحد من الطالعين ، لأن فيها الحكم على المولود قبل خروجه من غير اعتبار طالعه الأصلي .

والمنجم يقطع بأن الحكم على هذا الولد لا سبيل إليه وليس في صناعة النجوم ما يوجب الحكم عليه والحالة هذه ، وهذا يدل على أن هذه الحكاية كذب مختلق على الشافعي على هذا الوجه .

وكذلك الحكاية الثالثة وهي ما رواه الحاكم أيضا قال : أنبأني عبد الرحمن بن الحسن القاضي أن زكريا بن يحيى الساجي حدثهم أخبرني أحمد بن محمد بن بنت الشافعي قال : سمعت أبي يقول : كان الشافعي وهو حدث ينظر في النجوم ، وما نظر في شيء إلا

(١) المرجع السابق ٢٢٠/٢ .

(٢) المرجع نفسه ٢٢٠/٢ .

فاق فيه فجلس يوما وامرأة تلد فحسب ، فقال : تلد جارية عوراء على فرجها خال أسود تموت إلى كذا وكذا ، فولدت فكان كما قال : فجعل على نفسه ألا ينظر فيه أبدا .
وأمر هذه الحكاية كالتى قبلها ، فإن ابن بنت الشافعي لم يلق الشافعي ولا رآه ،
والشأن فيمن حدثه بهذا عنه " (١) .

ثم وضع ابن القيم فيقول : " والذي عندي في هذا أن الناقل إن أحسن به الظن فإنه غلط على الشافعي ، والشافعي كان من أفرس الناس ، وكان قد قرأ كتب الفراسة ، وكانت له فيها اليد الطولى ، فحكم في هذه القضية وأمثالها بالفراسة فأصاب الحكم ، فظن الناقل أن الحكم كان يستند إلى قضايا النجوم وأحكامها ، وقد برأ الله من هو دون الشافعي من ذلك الهذيان فكيف بمثل الشافعي - رحمه الله - في عقله وعلمه ومعرفته حتى يروج عليه هذيان المنجمين ، الذي لا يروج إلا على جاهل ضعيف العقل ؟ ، وتزيه الشافعي عن هذا هو الذي ينبغي أن يكون من مناقبه .

فأما أن يذكر في مناقبه أنه كان منجما يرى القول بأحكام النجوم وتصحيحها فهذا فعل من يذم بما يظنه مدحا ، وإذا كان الشافعي شديد الإنكار على المتكلمين مزرى بهم ، وكان حكمه فيهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل فماذا رأيه في المنجمين وهو أجل وأعلم من أن يحكم على أهل الحق ومن قضاياهم في الصدق .. " (٢) .

ومع ذلك إن صحت الرواية فيؤخذ على أن الإمام الشافعي كان لديه خبر أو علم أو معرفة بالكواكب ومطالعها وأبراجها ؛ وهذا العلم لا يذم الإنسان بسببه ، وإنما المذموم هو التنجيم وإسناد الأفعال إلى النجوم من سعد ونحوه وشقاوة .. وما إلى ذلك من الأعمال المنهية المناقضة للعقيدة الصحيحة .

(١) المرجع نفسه ٢٢١/٢ .

(٢) نفسه ٢٢١/٢ .

٥- القول المنسوب إليه في البدعة

احتج الأحباش ^(١) بقول مأثور عن الشافعي " أن البدعة على ضربين : أحدهما : ما أحدث مما يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا فهذه البدعة الضلالة ، والثانية : ما أحدث من الخير ، لا خلاف فيه لواحد من هذا ، فهذه بدعة غير مذمومة " ^(٢) .

التعليق :

قال عبد الرحمن دمشقية معلقا على ذلك :

١- أنه لا ينبغي القول بأن الشافعي يرى استحسان البدع وهو القائل : " من استحسَن فقد شرع " رد بذلك على من جعلوا الاستحسان أصلا في الشرع . وهو القائل : " إنما الاستحسان تلذذ ، ولو جاز الاستحسان في الدين لجاز ذلك لأهل العقول من غير أهل الإيمان ، ولجاز أن يشرع في الدين في كل باب ، وأن يخرج الإنسان لنفسه شرعا جديدا " ^(٣) .

٢- فهذا الحافظ ابن حجر - وهو من أعرف الناس بالشافعي - يصرح بأن " البدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة فإن كل شيء أحدث على غير مثال ، يسمى بدعة سواء كان محمودا أو مذموما " ^(٤) . قال : " فيشمل لغة ما يحمد ويذم ، ويختص في عرف أهل الشرع بما يذم " ^(٥) . وهو قول ابن حجر الهيتمي أيضا نفسه ^(٦) .

٣- هب أن كلام الشافعي يصرح بتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة فهل يجوز ضرب قول النبي ﷺ : " كل بدعة ضلالة " بقول غيره وتقديم قوله عليه ؟

(١) من الفرق الحديثة أسسها عبد الله الحبشي الهرري في لبنان ، له فتاوى شاذة ، وسعى في نشر مخلفات عقائد المعتزلة ، وجعل علم الكلام هو التوحيد والدفاع عن البدعة هو طريق أهل السنة ، وجعل الإستغاثة بالمخلوق شعار أهل التوحيد ، وسب العلماء ... انظر : موسوعة أهل السنة ٧/١ .

(٢) صريح البيان ص ٧٦ ، نقلا عن موسوعة أهل السنة ٣٢٤/١ .

(٣) الرسالة ، فصل إبطال الاستحسان ، وانظر : كتاب الأم ٧/٢٩٤ - ٢٩٨ نقلا عن موسوعة أهل السنة .

(٤) فتح الباري ١٣/٢٥٢ - ٢٥٤ .

(٥) نفسه ١٣/٢٧٨ .

(٦) فتاوى ابن حجر ص ٢٨٠ .

٤- أن مذهب الشافعي ينص على أنه : " إذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله ﷺ فاضربوا بقولي عرض الحائط " . فقد أخذنا بمذهب الشافعي في إثارة قول النبي ﷺ على قول الشافعي ، وإلا فما لنا نضرب بقول النبي ﷺ عرض الحائط ونميل إلى الشافعي دونه ، هل يرضى الشافعي نفسه ذلك منا " (١) .

وأضاف عبد الرحمن دمشقية قائلاً :

صحيح أن البدعة تنقسم من حيث اللغة إلى نوعين بدعة حسنة ، وبدعة سيئة . غير أن هذا التقسيم لا يجوز من حيث الشرع ، ألا ترى أن الصلاة في اللغة معناها الدعاء ، والإيمان في اللغة معناه مجرد التصديق ، غير أن معناهما في الشرع يختلف تماما ، فالصلاة عبارة عن أقوال وأفعال مخصوصة تبدأ بالتكبير وتختتم بالتسليم ، وأما الإيمان فهو قول وعمل واعتقاد ، وليس مجرد اعتقاد فقط .

والمبتدعون والمخترعون في الدنيا كثيرون ، منهم من تكون بدعته حسنة كاختراع السيارات والطائرات ، مع العلم أن السيارة مقيسة على الدابة ، ولذلك يصح ذكر دعاء ركوب الدابة عند ركوب السيارة ، لأنها دابة اليوم حلت محل دابة الأمس .

ومنهم من تكون بدعته شراً كاختراع القنابل واستحداث وسائل الرذيلة .

وأما مشاركة الناس لله ﷻ ورسوله ﷺ في التشريع فإنه شر كله (٢) .

وذلك بأدلة من السنة والأثر ، فمن السنة :

١- ما رواه جابر بن عبد الله ﷺ قال : " كان رسول الله ﷺ إذا خطب أحمر

عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول : أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة " (٣) .

(١) موسوعة أهل السنة ١/٣٢٤-٣٢٥ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٢٥ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والجمعة ٢/٥٩٢ (٨٦٧) ، والنسائي في كتاب صلاة

العيدين ، باب كيف الخطبة ٣/١٨٨ ، وأحمد في المسند ٣/٣١٠ ، ٣٣٨ ، ٣٧١ .

٢- وعن ابن مسعود مرفوعا وموقوفا أنه كان يقول : إنما هما اثنتان الكلام والهدي ، فأحسن الكلام كلام الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور فإن شر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ^(١) .

٣- وعن العرياض بن سارية قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» ^(٢) .

ومن الآثار :

١- ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «ما أتى على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة ، وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدع وتموت السنن» ^(٣) .

٢- وورد عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم» ^(٤) .

٣- وقال حسان بن عطية : «ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة» ^(٥) .

فكل هذه الأحاديث والآثار تدل على أن البدعة لم ترد في الشرع إلا مذمومة ، ومما يستأنس به في هذا المقام أن المبتدع لا يستعمل غالبا إلا في الذم ^(٦) .

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب اجتناب البدع والجدل ١١/١ (٣٧) وابن أبي عاصم في السنة (٢٥)

(٢) أخرجه الترمذي في العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٤٠٨/٤ . وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢٤١/٢ (٢١٥٧) .

(٣) قال الهيثمي : " رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون " مجمع الزوائد ١٨٨/١ .

(٤) قال الهيثمي : " رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح " مجمع الزوائد ١٨١/١ .

(٥) رواه الدارمي بإسناد صحيح ٤٥/١ .

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر ٦٧/١ .

ثم إن الإمام الشافعي قد حكم في أهل الكلام من أصحاب البدع فيقول : " رأبي ومذهبي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويجلسوا على الجمال ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادي عليهم .. هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام " (١) .

٦ - القول المنسوب إليه في التصوف

ذكر العجلوني في " كشف الخفاء " أن الإمام الشافعي لما وقف على حديث " حُبَّ إلي من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة " قال : " وأنا حب إلي من دنياكم ثلاث : ترك التكلف ، وعشر الخلق بالتلطف ، والاقتداء بطريق أهل التصوف " (٢) .

التعليق :

أولاً : إن الحديث " حب إلي من دنياكم ثلاث .. " فيه إشكالات حيث ذكره كثيرون بدون ذكر " ثلاث " (٣) . ففي صحيح سنن النسائي في كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : " حب إلي من الدنيا ؛ النساء ، والطيب ، وجعل قرّة عيني في الصلاة " (٤) .

وعن أنس أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : " حب إلي النساء ، والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة " (٥) .

ثانياً : قال ابن القيم : وأما ما اشتهر من زيادة ثلاث لم أقف عليها إلا في موضعين من الإحياء (٦) ، وفي تفسير آل عمران من الكشاف ، وما رأيتها في شيء من طرق هذا الحديث بعد مزيد التفهيش ، قال : وبذلك صرح الزركشي ؛ بل قال : زيادتها محيلة للمعنى .

(١) حلية الأولياء ١٢٣/٩ .

(٢) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، لإسماعيل بن محمد العجلوني ، تصحيح وتعليق أحمد القلاش ، ط ٣ بيروت (مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ) ٤٠٨/٢ .

(٣) انظر : المرجع نفسه ٤٠٥/٢ .

(٤) أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ٦١/٧ . وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي ٨٢٧/٣ (ح ٣٦٨٠) .

(٥) أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ٦٢/٧ . وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي ٨٢٧/٣ (ح ٣٦٨١) .

(٦) إحياء علوم الدين ٢١٩/٣ .

" وقال ابن القيم أيضا وغيره : من رواه حجب إلي من دنياكم ثلاث فقد وهم ، بل هي عبادة محضة ، نعم يصح أن تضاف إليها لكونها ظرفا لوقوعها فيها ^(١) .

وقال شيخ الإسلام والحافظ ابن حجر في تاريخ الكشاف إن لفظ " ثلاث " لم يقع في شيء من طرقه ، وزيادته مفسدة للمعنى .. " ^(٢) .

ثالثا : وذكر القسطلاني في " المواهب اللدنية " : أنه ﷺ لما قال : " حجب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة ، قال أبو بكر : وأنا يا رسول الله حجب إلي من الدنيا : النظر إلى وجهك ، وجمع المال للإنفاق عليك ، والتوسل بقربتك إليك ، وقال عمر : وأنا يا رسول الله حجب إلي من الدنيا : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والقيام بأمر الله ، وقال عثمان : وأنا يا رسول الله حجب إلي من الدنيا : إشباع الجائع ، وإرواء الظمآن ، وكسوة العاري ، وقال علي بن أبي طالب : وأنا يا رسول الله حجب إلي من الدنيا : الصوم في الصيف ، وإكرام الضيف ، والضرب بين يديك بالسيف ، قال الطبري : خرج الجندي ، كذا قال : والعهد عليه " ^(٣) .

قال محقق الكتاب المذكور : إن هذا الحديث " حديث مما لا يصح " ^(٤) .

رابعا : إن الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعي مستنبطة من الروايات السابقة ، حيث ذكر العجلوني بعد سرد تلك الروايات فيقول :

" وفي كلام بعضهم : أن أبا حنيفة لما وقف على ذلك قال : وأنا حجب إلي من دنياكم ثلاث : ترك الترفع والتعالي ، وقلب من حين خالي ، والتهجد بالعلم في طول الليالي . وأن مالكا لما وقف عليه أيضا قال : وأنا حجب إلي من دنياكم ثلاث : مجاورة تربة سيد المرسلين ، وإحياء علوم الدين ، والاقتداء بالخلفاء الراشدين . وأن الشافعي لما وقف عليه أيضا قال : وأنا حجب إلي من دنياكم ثلاث : ترك التكلف ، وعشرة الخلق بالتلطف ،

(١) انظر : كشف الخفاء ٢/٢٠٦ ، والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، لأحمد القسطلاني ، تحقيق صالح أحمد

الشامي ، ط ١ بيروت ، (المكتب الإسلامي ١٤١٢هـ) ٢/٤٧٦ - ٤٧٧ .

(٢) المواهب اللدنية ٢/٤٧٧ .

(٣) نفسه ٢/٤٧٨ - ٤٧٩ .

(٤) نفسه .

والاقتداء بطريق أهل التصوف . وأن أحمد لما وقف عليه قال : وأنا حبيب إلي من دنياكم ثلاث : عطاء من غير منة ، ونفس مطمئنة ، والاتباع بالسنة " (١) .

وبناء على ما سبق ذكره من أن الحديث " حبيب إلي من دنياكم ثلاث " فيه وهم وإشكال ، وأن لفظ ثلاث ليس في شيء من طرق الحديث الصحيح ، وأن الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعي خالية من السند ، بل مستفادة من الحديث المذكور ..

أقول : إن الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعي لا تصح بالأمور التالية :

إذا نظرنا في النص فليس فيه سند يمكن الرجوع إليه ، ذلك أن الرواية مستنبطة من الحديث الذي لا يصح فيه .

وأما من حيث المتن والموضوع فإني أستبعد أن يصدر من الإمام الشافعي - رحمه الله - لعدم ورود النص في كتب الإمام الشافعي ومناقبه ، ولا في كتب تلامذته ، ولم يذكره كتاب تراجمه من العلماء المشهورين .

أضف إلى ذلك أن الإمام الشافعي له نقد للتصوف ، كما أخرج ذلك أبو نعيم بسنده إلى يونس بن عبد الأعلى (٢) - تلميذ الإمام الشافعي - قال : " سمعت الشافعي يقول : لو أن رجلا عاقلا تصوف لم يأت الظهر حتى يصير أحرق " (٣) .

وعن يونس بن عبد الأعلى أيضا أنه قال : ما لزم أحد الصوفية أربعين يوما فعاد عقله إليه أبدا ، وأنشد الشافعي :

ودعو الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خلوا كانوا ذئاب حفاف (٤) .

وقد ذكر ابن القيم قول الإمام الشافعي : " صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين ، سمعته يقولون : الوقت سيف فإن قطعتة وإلا قطعك ، ونفسك إن لم تشغله بالحق وإلا شغلتك بالباطل " (٥) .

(١) كشف الخفاء ٤٠٨/٢ .

(٢) هو : يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة ، من كبار الفقهاء ، أتت إليه رئاسة العلم بمصر ، كان عالما بالأخبار والحديث ، وافر العقل ، صحب الشافعي ، وأخذ عنه ، وقال ابن حجر : إنه " ثقة " . انظر :

الأعلام ٢٦١/٨ ، والتقريب ٣٩٥/٢ .

(٣) حلية الأولياء ١٥١/٩ ، وتبلييس إبليس ص ٤٤٧

(٤) تبلييس إبليس ص ٤٤٧ .

(٥) مدارج السالكين ١٢٤/٣ - ١٢٥ .

وعلى ذلك ، إن كان الإمام الشافعي قد أثنى على الصوفية فإن ثناءه محدود على قدر كلماتهم النافعة ، أو بعض أعمالهم الموافقة للكتاب والسنة ، فالإمام الشافعي - رحمه الله - لم يأمر بالإقتداء بطريق أهل التصوف ، وإنما أثر عنه أقوال كثيرة تبين تمسكه بالآثار ، واعتماده عليها ، حيث جعلها أسس اجتهاده ، بل لا يرى الحجة في غيرها إن ثبتت ، فما لأحد من دون رسول الله ﷺ رأي أو اجتهاد أو حجة ، فإذا جاء الأثر وصح ووضحت دلالاته وليس له ناسخ أو مخالف فهو الشرع لا شرع سواه .

والنصوص التي تدل على اتباعه للسنة ومخالفة البدعة كثيرة نذكر منها ما يلي :
قال تلميذه الربيع بن سليمان : قال لي الشافعي : " وأعطيتك جملة تغنيك إن شاء الله تعالى : لا تدع لرسول الله ﷺ حديثاً إلا أن يأتي عنه خلافه ، فتعمل بما قدرت لك من الأحاديث إذا اختلفت " (١) .

وقال المزي : قال الشافعي : " إذا وجدتم سنة صحيحة فاتبعوها ، ولا تلتفتوا إلى قول أحد " (٢) .

وقد شهد له بنصرة الحديث واتباع السنة إمام المحدثين أحمد بن حنبل ، قال عبد الملك بن عبد الحميد بن مهران : قال لي أحمد بن حنبل : " ما لك لا تنظر في كتب الشافعي ؟! فما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعي " (٣) . وقال الإمام أحمد أيضاً : " رحم الله الشافعي لقد كان يذب عن الآثار " (٤) .

وكان الإمام الشافعي يقول - على ما رواه الربيع - : " ما من أحد إلا وتذهب عنه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه ، فمهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل ، فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قال سول الله ﷺ وهو قولي " وجعل يردد هذا الكلام (٥) . ويقول : " إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بها ، ودعوا ما قلته " (٦) . " وكل مسألة تكلمت فيها وصح الخبر فيها عن رسول الله ﷺ عند أهل

(١) توالي التأسيس ص ٦٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) آداب الشافعي ومناقبه ص ٦١ ، وتوالي التأسيس ص ٥٧ .

(٤) توالي التأسيس ص ٥٧ .

(٥) معجم الأدباء ١٧/٣١١ .

(٦) توالي التأسيس ص ٦٣ .

الفقه بخلاف ما قلت ؛ فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي " (١) . ويقول أيضا : " إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط " (٢) .

وهذه النصوص كلها تدل دلالة واضحة على احتياط الإمام الشافعي لدين الله ، خشية أن يدخل فيه ما ليس منه ، وللناس ثقة في دينه وورعه واجتهاده ، فبرئ إلى العلماء أمام الله أن يعترف على قول قاله ، إن لم تدعمه الحجة من كتاب أو سنة صحيحة ، ويعلن أنه رجع عنه ، فقد روى البويطي عن الشافعي قوله : " ألفت هذه الكتب ولم آل فيها ، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٣) فما وجدت في كتي هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه " (٤) .

واشتد غضب الإمام الشافعي إن عرض حجته من السنة على أحد العلماء فطرحها ، والتمس لتأييد قوله رأي غير المعصوم ، ولو كان من كبار الأئمة المجتهدين ، ففي مناظرة لإسحاق بن راهويه مع الشافعي ، سأل الشافعي بعض من عرفه : من هذا ؟ فقال : هذا إسحاق بن إبراهيم بن الحنظلي بن راهويه الخراساني ، فقال له الشافعي : " أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم " ؟ قال إسحاق : هكذا يزعمون ، قال الشافعي : " ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك ، فكنت أمر بعرك أذنيه ، أنا أقول لك : قال رسول الله ﷺ ، وأنت تقول : عطاء ، وطاووس ، ومنصور ، وإبراهيم ، والحسن ، وهؤلاء لا يرون ذلك ؟ هل لأحد مع رسول الله ﷺ حجة ؟ " (٥) .

فخلاصة القول : إذا كان هذا الموقف الصريح من الإمام الشافعي نحو الاتباع والإقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، والتمسك بالآثار الصحيحة ، فإن القول المنسوب إليه بأنه أمر باقتداء طريق أهل التصوف غير صحيح لا يعتمد عليه ، وخاصة أنه - رحمه الله - أمر بالإعراض عن قوله إذا خالف الأحاديث الصحيحة ؛ فالإقتداء المفروض هو الإقتداء

(١) توالي التأسيس .

(٢) الوافي للوفيات ١٧٣/٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية (٨٢)

(٤) توالي التأسيس ص ٦٢ .

(٥) معجم الأدباء ٢٩٥/١٧ .

بالرسول ﷺ وهو القدوة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ (١) .

وهو يوصي هذه الوصية الجامعة : «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة » (٢) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

(٢) سبق تخريجه ٣٥٧ .

المبحث الرابع

موقفه بعض تلامذته من الفكر الصوفي

١- أبو إبراهيم المزني (ت ٢٦٤هـ) .

هو الإمام العلامة ، فقيه الملة ، علم الزهاد ، إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل ابن عمرو مسلم المزني المصري ^(١) .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : أخبرنا محمد بن عبد الله بن شاذان ، سمعت محمد بن علي الكتاني ، وسمعت عمرو بن عثمان المكي يقول : ما رأيت أحدا من المتعبدين في كثرة من لقيت منهم أشد اجتهادا من المزني ، ولا أدوم على العبادة منه ، وما رأيت أحدا أشد تعظيما للعلم وأهله منه ، وكان من أشد الناس تضيقا على نفسه في الورع ، وأوسع في ذلك على الناس ، وكان يقول : أنا خلق من أخلاق الشافعي ^(٢) .

وقد كان زاهدا ورعا ، متقللا من الدنيا ، محاب الدعوة ، وكان إذا فاتته صلاة في جماعة صلاها خمسا وعشرين مرة ، يغسل الموتى تعبدا واحتسابا ^(٣) .

ووصفه أبو إسحاق الشيرازي بأنه : عالم مجتهد مناظر محجاج غواص على المعاني الدقيقة ، حيث صنف كتب كثيرة . حتى قال عنه الإمام الشافعي بأن المزني ناصر مذهبه ^(٤) .

وقد أخذ عنه خلق من العلماء وبه انتشر مذهب الشافعي في الآفاق .

موقفه من الفكر الصوفي ودفاعه عن الشافعي

قال ابن الحاج في المدخل : وقد سئل الإمام أبو إبراهيم المزني - رحمه الله - وكان من كبار أصحاب الشافعي - رحمه الله - فقيل له : ما تقول في الرقص على الطار والشبابة ؟ فقال : هذا لا يجوز في الدين . فقالوا : أما جوزه الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ؟

فأنشد - رحمه الله - قائلا :

(١) سير أعلام النبلاء ٤٩٢/١٢ .

(٢) نفسه ٤٩٤/١٢ .

(٣) انظر : طبقات الشافعية للسبكي ٩٣/٢ .

(٤) نفسه .

أن يبتغي غير معاني نبينه
أو يبتدع في الدين ما ليس فيه
لناسك في دينه يقتدي به
والرقص والتصفيق فعل السفیه
وليس في التزليل ما يقتضيه
ولا صحابي ولا تابعيه
قد ضيع العمر بلهو وتيه
وليس يغشى الموت إذ يعتريه
إلا بما الله له يرتضيه
وآخر الليل لمستغفريه
لا يعرف العلم ولا يبتغيه
ولبسوا الأمر على جاهليه
وكل من دان به تزدريه
فقمّن بالندب على ميتيه
ليس لهم غير النسا من شبيهه
فهم رجال إبليس لا شك فيه
وفقك الله لما يرتضيه .

حاشا الإمام الشافعي النبيه
أو يترك السنة في نسكه
أو يبتدع طارا وشبابه
الضرب بالطارات في ليله
هذا ابتداع وضلال في الهدى
ولا حديث عن نبي الهدى
بل جاهل يلعب في دينه
وراح في اللهو على رسله
إن ولي الله لا يرتضي
بل بصيام وقيام في الدجى
إياك تغتر بأفعال من
قد أكلوا الدنيا بدين لهم
جهل وطيش فعلهم كله
شبه نساء جمعوا مآثما
والضرب في الصدر كما قد ترى
انكر عليهم إن كنت قادرا
ولا تحف في الله من لائم

ثم قال ابن الحاج : وقد تقدم أن من ثبتت عدالته لا ينسب إليه إلا ما يليق بحاله ،
وبطريقته من الخصال الحميدة ، فمن ذكر عنه غير ما يناسبه كُذِّب فيما ادعاه و أنكر
عليه (١) .

فمن خلال هذه الآيات اتضح موقف المزي من الفكر الصوفي ، وتبين أنه من
المدافعين عن الإمام الشافعي من أن ينسب إليه جواز السماع الصوفي ، وأيد ذلك ما قلنا -
سابقا - بأن القول المنسوب إلى الإمام الشافعي في التصوف غير صحيح .

(١) المدخل لابن الحاج ٩٧/٣ - ٩٨ .

٢- محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) .

هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، الإمام المجتهد ، عالم العصر ، أبو جعفر الطبري ^(١) .

وهو من كبار أئمة أهل السنة والجماعة المتبعين منهج وعقيدة السلف الصالح .
 لقد عاش الإمام الطبري - رحمه الله - أعزب ولم يتزوج ، لأنه شغل بالعلم ،
 وشغف بالمعرفة منذ الصغر إلى نهاية العمر الذي وصل إلى ست وثمانين سنة .
 ولا شك أن العزوبة وترك الزواج ليس من الشرع ، وإذا كان متعمدا - وهو
 يستطيع على الزواج - يأثم صاحبه ، لأن رسول الله ﷺ قال : « .. وأتزوج النساء فمن
 رغب عن سنتي فليس مني » ^(٢) .

فالإسلام نهى عن الترهيب والرهبانة ، وهي ترك الزواج وعدم الانتفاع بما أحل الله
 ﷻ في هذه الحياة بحجة الانقطاع إلى العبادة والتركيز على أمور الآخرة ، لأن الرسول ﷺ
 قد دعا إلى الزواج ، ورغب فيه فقال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج
 فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصيام فإنه له وجاء » ^(٣) . وقال
 ﷺ : « تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى » ^(٤) . وقال أيضا
 : « من كان موسرا فلم ينكح فليس منا » ^(٥) .

لم تذكر لنا المصادر التاريخية سبب عزوف الإمام الطبري عن الزواج ، ولكن الشيء
 الثابت أن الطبري - رحمه الله - كان متفرغا لطلب العلم ، منكبا على تحصيله ، وقضى
 معظم شبابه في السفر والترحال والانتقال من بلد إلى بلد ولم يستقر في بلده .
 وأغلب الظن أن الانشغال في طلب العلم والتفرغ له كان هو السبب الأساسي في
 عدم إقباله على الزواج ، فالعلم يشغل صاحبه ويمنحه متعة نادرة ، حيث يصاحب الكتب

(١) انظر : تاريخ بغداد ١٦٢/٢ ، ومعجم الأدباء ٤٠/١٨ ، وطبقات الشيرازي ص ٩٣ ، وتهذيب الأسماء
 واللغات ٧٨/١ - ٧٩ ، وسير أعلام ٢٦٧/١٤ .

(٢) سبق تخريجه في ص ٢٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٦٧٣/٢ (ح ١٨٠٦) .

(٤) أخرجه البيهقي في سننه ٧٨/٧ .

(٥) أخرجه الدارمي في سننه ١٣٣/٢ .

والمجلدات والمخطوطات ، ويشغل وقته بالمطالعة والتصنيف حتى يكثُر إنتاجه ، ويغزر علمه ويعم نفعه ، وهذا ما حصل مع كثير من علمائنا الأعلام كالطبري والنوي وغيرهما .
لذلك وصف مسلمة بن قاسم أبا جعفر الطبري فقال : " كان حصورا لا يعرف النساء ، شغله طلب العلم ، وهو ابنة عشرة سنين ، ولم يزل طالبا للعلم ، مولعا به إلى أن مات " (١) .

زهده وورعه وموقفه من الفقر والتوكل

وأما عن ورعه وزهده فقد كان الطبري - رحمه الله - على جانب كبير من الورع ، والحذر من الوقوع في الحرام ، والبعد عن مواطن الشبه ، واجتناب محارم الله والخوف من الله ﷻ ، والاقتصاد في المعيشة على ما يرده من ريع أرضه وبستانه ، الذي خلفه له أبوه (٢) .

وقد وصفه أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبري فيقول في وصف أبي جعفر :
" كان فيه من الزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال ، وصدق النية وحقائق الأعمال ما دل عليه كتابه في " آداب النفوس " وقال : " وكان عازفا عن الدنيا ، تاركا لها ولأهلها ، يرفع نفسه عن التماسها " (٣) .

" وكان شديد التوقي والحذر والتزاهة والورع ، يدل على ذلك ما أودعه كتابه المذكور ، المنبه على دينه وفضله " (٤) .

وقال ابن كثير : " وكان من العبادة والزهادة والورع ، والقيام في الحق ، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم ، وكان من كبار الصالحين " (٥) . ولما عاش في زمن الفتن وانتشار أهل الأهواء والبدع لم يبال بهم فصنع مبينا للحق ، مقتصدا للرد عليهم ومناظرهم .

كما قلنا : إن الإمام الطبري كان على جانب كبير من سمو الأخلاق ، والتزام الفضائل ، وحسن العشرة والمعاملة ، ورفعة السلوك ، وكان على غاية المعرفة والتطبيق لمحاسن الأخلاق والكرم والعفة والزهد والتواضع والورع ...

(١) لسان الميزان ١٠٢/٥ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١٢٥/٣ .

(٣) معجم الأدباء ٦٠/١٨ - ٦١ .

(٤) نفسه ٨٦/١٨ .

(٥) البداية والنهاية ١٤٦/١١ .

وقد شارك - رحمه الله - في هذا العلم لبيان فضائله ، والترغيب بمحاسنه ، والتحذير من مساوئه ، وبيان الصلة بينه وبين الدين والإيمان ، حيث صنف في ذلك عدة كتب منها :

الموجز في الأصول ، ابتدأ في هذا الكتاب برسالة الأخلاق ، لكنه لم يتمه ، كما ذكره المترجمون له ^(١) .

كتاب آداب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة ، وهو كتاب في التهذيب والتدقيق ، وتربية النفس ، ومات ولم يتمه ، وربما سماه بآداب النفس الشريفة والأخلاق الحميدة .
ووصف ياقوت الحموي ذلك فقال : " ومن جياذ كتبه : كتابه المسمى بكتاب آداب النفوس الجيدة ، والأخلاق النفيسة ، وربما سماه بآداب النفس الشريفة والأخلاق الحميدة " .

وربما زاد في ترجمته المشتملة على علوم الدين ، والفضل والورع ، والإخلاص والشكر ، والكلام في الرياء ، والكبر والتواضع ، والخشوع والصبر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبدأ فيه في الوسوسة وأعمال القلوب .

ثم ذكر شيئا كثيرا من الدعاء وفضل القرآن ، وأوقات الإجابة ودلائلها ، وما روى من السنن وأقوال الصحابة والتابعين في ذلك .. وخرج منه نحو خمسمائة ورقة ، وكان قد عمل أربعة أجزاء .. وكان يقول : إن خرج هذا الكتاب كان فيه جمال ، لأنه كان أراد أن يخرج بعد الكلام في الحقوق اللازمة للإنسان ، إلى ما يفيدنا منه من أهوال القيامة وشروطها ، وأهوال الآخرة وما ورد فيها ، وذكر الجنة والنار ^(٢) .

ووصفه ابن عساكر فقال : " عمله على ما ينوب الإنسان من العرائض في جميع أجزاء جسده ، فبدأ بما ينوب القلب واللسان والبصر والسمع ، على أن يأتي بجميع الأعضاء ، وما روي عن رسول الله ﷺ في ذلك وعن الصحابة والتابعين ، ويذكر كلام المتصوفة وما حكى من أفعالهم ، وإيضاح الصواب في ذلك " ^(٣) .

(١) المرجع السابق ٨١/١٨ .

(٢) نفسه ٧٧-٧٦/١٨ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ٣٥٢/١٨ .

وتوضيحا لذلك فقد ذكر ابن الجوزي في معرض حديثه عن الفقر ، ورده على الصوفية ، الذين يكرهون أن يخلف الفقير شيئا موقف الإمام ابن جرير الطبري من الفكر الصوفي ، لما أورد قول رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ : "إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" (١) ، وقول عمر بن الخطاب ﷺ : حث رسول الله ﷺ على الصدقة ، فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : "وما أبقيت لأهلك" ؟ فقلت : مثله ، فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ .

قال ابن جرير الطبري : " وفي هذا الحديث دليل على بطلان ما يقوله جهلة المتصوفة أن ليس للإنسان ادخار شيء في يومه لغده ، وإن فاعل ذلك قد أساء الظن بربه ، ولم يتوكل عليه حق توكله " .

وقال ابن جرير أيضا : وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام : "اتخذوا الغنم فإنها بركة" . فيه دلالة على فساد قول من زعم من المتصوفة أنه لا يصح لعبد التوكل على ربه إلا بأن يصبح ولا شيء عنده من عين ولا عرض ويمسي كذلك ، ألا ترى كيف ادخر رسول الله ﷺ لأزواجه قوت سنة ؟ (٢) .

فواضح من كلام الإمام الطبري أن له موقفا من المتصوفة المتواكلة ، الذين لا يتوكلون على ربهم ، ولا يأخذون بالأسباب .

فالتوكل عند الإمام الطبري هو الثقة بالله تعالى في كل ما يأتي الإنسان من أموره ، وما يدع ، أو يحاول أو يزاو ، والرضا بقضائه في كل ذلك ، دون آراء سائر خلقه ومعونتهم ، مع الاستسلام لحكمه تعالى في هؤلاء الخلق ، سواء وافق ذلك منهم هدي أو خالفه (٣) .

وبهذا المعنى من التوكل يكفي الله المؤمنين أعداءهم ، ولا يستند لهم من ناوأهم (٤) .

ثم رد الإمام الطبري على معطلي الأسباب فيقول :

" لا يستحق التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف من شيء البتة ، حتى السبع الضاري والعدو العادي ، ولا من لم يسمع في طلب رزق أو مداواة ألم ! والحق أن من وثق بالله

(١) سبق تحريجه في ص ١٨ .

(٢) تليس إبليس ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) انظر : جامع البيان ٣٤٦/٧ .

(٤) نفسه ١٥/١٤ .

وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب ، اتباعا لسنة رسول الله ﷺ ، فقد ظاهر ﷺ في الحرب بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هو ، وتعاطي أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك ، وقال للذي سأله : أعقل ناقتي أو أدعها ؟ قال : "اعقلها وتوكل" ، فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل " (١) .

لقد كان الإمام الطبري - إذن - كغيره من علماء السلف يستعين بالله ويتوكل عليه ، ويحث على الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله العلي القدير .
وهذا المنهج هو ما ذهب إليه أهل الحق من سلف هذه الأمة ، وهو طريق يتمشى مع طبيعة هذا الدين الحنيف .

(١) نقله ابن حجر في الفتح ٢١٢/١٠ .

الفصل الرابع

الإمام أحمد بن حنبل والتصوف

وتحته ستة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام أحمد بن حنبل وحياته

المبحث الثاني : الإمام أحمد وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : موقف الإمام أحمد من أعلام التصوف

المبحث الرابع : بطلان ما نسب إليه في التصوف

المبحث الخامس : موقف بعض تلامذته من التصوف

المبحث الأول

محضر الإمام أحمد بن حنبل وحياته

أولاً : عصره .

عاش الإمام أحمد ما بين عام أربع وستين ومائة إلى عام إحدى وأربعين ومائتين ، حيث عاصر من خلفاء بني العباس المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمستوكل ، الذين امتازت فترة ولايتهم بالقوة والثبات والامتداد في الآفاق ، مع وجود الاختلاف في العناصر والبيئات والعقائد والآراء والاتجاهات .

وقد اتسعت - كذلك - في هذا العهد دوائر الثقافة والعلم والحضارة ، حيث نقل إلى العربية من اليونانية والسريانية كثير من الكتب في الفلسفة ومختلف العلوم ، فأقبل عليها فئات من الناس حينما رأوا فيها شيئاً لم يعرفوه من قبل ، كما دخل العصر الفارسي مع الحكم العباسي ، وحمل معه أفكاراً وعقائد في بعضها الزندقة والإلحاد ، وفي بعضها الآخر انحراف ظاهره الإيمان وباطنه الكفر والمكيدة للإسلام والمسلمين .

ووجدت في بعض الفترات المساندة السياسية كما حصل في عصر المأمون إذ قويت شوكة المعتزلة ، وحاولوا إرغام الناس على القول بخلق القرآن ، وأخذ المأمون ابن أبي دؤاد وأسند إليه مهام القضاء ، فباشر ابن أبي دؤاد العمل ، وأحسن العلاقة بالمأمون ، حتى استطاع أن يعلن عقيدته على الملأ ، ويقنع الخليفة على حمل الناس عليها ، ودعوة كبار الفقهاء والمحدثين للإقرار بعقيدة المعتزلة وهي أن " القرآن كلام الله ولكنه مخلوق " .

وحينما توفي المأمون تولى المعتصم ، وعمل بوصية أخيه في الاحتفاظ بابن أبي دؤاد والاستمرار بالحنئة ، ثم جاء ابنه الواثق وورث الحنة ، فطبع على غرار أبيه المعتصم ، ثم جاء المستوكل فأزال الحنة ، وأعاد للمحدثين حريتهم وقدرهم ، ورجع بسيرته إلى عهد الرشيد ، وانقضت الحنة التي استمرت نحو من خمس عشرة سنة .

ومن المعروف أن الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - كان له موقف مشرف في الذب عن عقيدة السلف الصالح أيام حنة خلق القرآن ، فقد كان ثابتاً في موقفه ، لم يردعه رادع الناس حتى وإن أدى به إلى السجن ، فالسجن أحب إليه مما يدعون إليه من الإقرار بخلق القرآن .

قال علي بن المديني : إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث : أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

وقال إسحاق بن راهويه : لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام ^(١) .

وقال أبو حاتم الرازي : قلت لأحمد بن حنبل : كيف تخلصت من سيف المعتصم وسوط الوثاق ؟ فقال لي : يا أبا زرعة لو جعل الصدق على جرح لبرأ .

وقال ابن حبان في الثقات : أغاث الله بأحمد أمة محمد ﷺ ، وذلك أنه ثبت في المحنة وبذل نفسه لله ، حتى ضرب بالسياط للقتل فعصمه الله تعالى عن الكفر ، وجعله علما يقتدى به ، وملجأ يلجأ إليه .

كما بدأ في عصر الإمام أحمد ظهور التصوف والمتصوفين ، الذي كان يعرف من قبل بالزهد ، إلا أن الزهد كان أقرب إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، حيث كان خاليا من التكلف وتعذيب النفس ومنعها مما تميل إليه ولو كان مباحا حلالا ، وصار للتصوف اتجاه خاص وأصول وقواعد ^(٢) . ثم انقلب مع مرور الزمن إلى فلسفة روحية عميقة لا يفهمها إلا خواص الخواص ..

ويمكن أن يقال : إن هذا العصر كان مجمعا لجميع الأجناس ، ومجمعا لمختلف الملل والنحل والأهواء ، وكان الصراع الفكري بين هؤلاء حادا ومستمرًا ، فكل شديد التعصب لفتته أو لرأيه ..

أما السواد الأعظم من الناس فهم أهل السنة والجماعة ، لهم من السيرة والخلق الحسن مالا يوازيه سيرة أحد غيرهم ^(٣) ، ولهم جهود في الدفاع عن العقيدة الصحيحة ، وإزالة الشوائب التي حاول المبتدعة إلصاقها بها .

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٦ .

(٢) انظر : أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ، لعبد الغني الدقر ، ط ٣ دمشق (دار القلم ١٤١٣هـ) ص ١٤

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٥ .

ثانيا : حياته .

هو أحمد بن محمد بن حنبل ، بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان ، بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان ، بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الشيباني ^(١) ، وكنيته أبو عبد الله .

ولد في شهر ربيع الأول من أربع وستين ومائة ببغداد ، وقيل : بمرو ومنها حمل إلى بغداد ، والأول هو الصحيح ، فقد وفدت أمه إلى بغداد وهي حامل به ، ونشأ يتيما .

وكان مقام أسرته بالبصرة وما حولها ، ووالده من أجناد مرو ، توفي وهو شاب في الثلاثين من عمره ، وجده حنبل تقلد ولاية سرخس في العصر الأموي ، ثم أصبح من المناصرين للدعوة العباسية عند انطلاقها ، ووالدته من بني شيبان أيضا ، وقد تولت تربيته فأحسن ^(٢) ، وكان له - رحمه الله - ولدان عالمان هما : صالح وعبد الله ، وله أيضا من الأولاد غيرهما .

بدأ الإمام أحمد مسيرته العلمية في سن مبكر إذ يقول : اختلفت إلى الكتاب ، ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة ^(٣) ، وطلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة ^(٤) .

واتضح من سيرته العلمية اهتمامه البالغ بالحديث حيث كان له الباع الطويل في هذا الشأن ، وقد رحل في تحصيله إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام وطرطوس ^(٥) . حتى ساد أهل عصره ، ونصر الله به دينه ، وصار أحد الأعلام من أئمة الإسلام ، وكان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر ، وكان الإمام الشافعي يحله ويثني عليه ثناء حسنا .

(١) انظر : تاريخ بغداد ٤/٤١٤ ، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ، ط ٢ بيروت ص ١٦ ، والبداية والنهاية

٣٥/١٠ وسير أعلام النبلاء ١١/١٧٨ .

(٢) انظر : المصادر السابقة .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/١٨٥ .

(٤) مناقب الإمام أحمد ص ٤٦ .

(٥) تاريخ بغداد ٤/٤١٢ .

قال الإمام الشافعي : أحمد إمام في ثمان خصال : إمام في الحديث ، إمام في الفقه ، إمام في اللغة ، إمام في القرآن ، إمام في الفقر ، إمام في الزهد ، إمام في الورع ، وإمام في السنة ^(١) .

وقال أيضا : خرجت من بغداد وما خلفت بها أحدا أتقى وأورع ولا أفقه من أحمد ابن حنبل ^(٢) ، وقال حرمله : سمعت الشافعي يقول عند قدومه إلى مصر من العراق : ما خلفت بالعراق أحدا يشبه أحمد بن حنبل ^(٣) .

وقال أبو زرعة لعبد الله بن أحمد : أبوك يحفظ ألف ألف حديث ^(٤) .

وقد تلقى الإمام أحمد العلم على جملة كبيرة من المشايخ وهم كثر ، ومن أبرزهم : هشيم بن بشير ، وسفيان بن عيينة ، وجريير بن عبد الحميد ، ويحيى بن سعيد القطان ، ووكيعة بن الجراح ، وأبو معاوية الضير ، وعبد الرحمن بن مهدي ، والشافعي ، وعبد الرزاق بن همام ، وعبد الله بن نمير ، وجماعة كثيرون ^(٥) .

قال الذهبي : فعدة شيوخه الذين روى عنهم في المسند مائتان وثمانون ونيف .

وأما الرواة عن الإمام أحمد فكثيرون أيضا ، فمنهم من روى عنه الحديث فقط ، ومنهم من اهتم بنقل مسائله وتدوينها ، ومنهم من جمع بين الأمرين : ومن أبرز من حدث عنه : البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي شيبة وصالح وعبد الله ، وأبو بكر أحمد الأثرم ، وأبو بكر أحمد المروزي ، وأبو زرعة الرازي وغيرهم كثيرون ^(٦) .

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين توفي أبو عبد الله أحد الأعلام الكبار في القرن الثالث الهجري ، وله من العمر سبعة وسبعون سنة وأيام رحمه الله تعالى .

(١) طبقات الحنابلة ٥/١ ، والمنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ٧٣/١ .

(٢) تاريخ بغداد ٤١٩/٤ .

(٣) المنهج الأحمد ٧٣/١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٨٧/١١ .

(٥) مناقب الإمام أحمد ص ٥٨ - ٦١ ، وتاريخ بغداد ٤١٣/٤ ، وسير أعلام النبلاء ١٨٠/١١ .

(٦) انظر : المصادر السابقة .

المبحث الثاني

الإمام أحمد وموضوعات التصوف

١- معرفة الله تعالى

إن ما عثر عن الإمام أحمد في حديثه عن الفطرة يدل على أنه مقر بفطرية المعرفة كبقية الأئمة ، وذلك من خلال إقراره بالفطرة ، وأن كل مولود مفلطح على معرفة الله والإسلام له .

قال بذلك أبو بكر الخلال : " أخبرني عبد الملك بن عبد الحميد قال : قال - أي الإمام أحمد - والذي نقول : كل مولود يولد على الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها ، قلت : فما الفطرة الأولى هي الدين ؟ قال : نعم " (١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية موضحاً كلام الإمام أحمد : " أحمد .. قال : الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها وهي الدين ، وقد قال في غير موضع : إن الكافر (الطفل) إذا مات أبواه أو أحدهما حكم بإسلامه ، واستدل بهذا الحديث بأنه يولد على فطرة الإسلام " (٢) .

وقال أيضاً : " وكلام أحمد في أجوبة أخرى له يدل على أن الفطرة عنده الإسلام " (٣) .

فالإمام أحمد بن حنبل - إذن - موافق لما كان عليه بقية الأئمة من أن معرفة الله ﷻ فطرية مودعة في فطر الخلق ، فكل مولود من بني آدم يولد على هذه المعرفة الفطرية ، التي تدعو إلى التعلق بالله وحده ، هذا ما لم توجد مؤثرات خارجية صارفة .

وهذا خلاف ما عليه بعض الصوفية من أن حصول المعرفة بالله تعالى عسير ومجهد ، كما يقول البسطامي حينما سئل عن السبيل إلى المعرفة ؟ فقال : " ببطن جائع وبدن عار " وقال : " إنما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم والوقوف مع ماله " (٤) . وقال أبو سعيد الخراز : " المعرفة تأتي من عين الجود وبذل الجهود " (٥) .

(١) كتاب السنة للخلال ٣/٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٨/٣٦١ .

(٣) نفسه ٨/٣٨٩ .

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣١٧ .

٢- الزهد

الزهد - كما مر بنا - هو عبارة عن انصراف الرغبة من الشيء إلى ما هو خير منه، أو الإعراض بالقلب عن الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وهو رأس كل طاعة، فيه فراغ من مشاغل الدنيا والاستعزاز بالله وحده ﷻ.

ولهذا قال الإمام أحمد - رحمه الله - إن الزهد في الدنيا قصر الأمل، وإنه عدم فرحه بإقبالها، ولا حزنه على إدبارها، فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهداً؟ فقال: نعم على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت ^(١). وقد أشار إلى مثل هذا سيد الطائفة الجنييد حينما قال: بأن الزهد في قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ^(٢) فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود ^(٣).

والزهد في الدنيا الذي أشار إليه الإمام أحمد له شواهد من الكتاب والسنة. فمن الكتاب مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ ^(٤) وقوله ﷻ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ^(٥) وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ^(٦) وقوله: ﴿وَلَا تُمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ^(٧) وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ^(٨).

ومن السنة النبوية مثل قوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ^(٩). وقوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» ^(١٠). وقول

(١) مدارج السالكين ١٣/٢.

(٢) سورة الحديد، الآية (٢٣).

(٣) مدارج السالكين ١٢/٢.

(٤) سورة النساء، الآية (٧٧).

(٥) سورة النحل، الآية (٩٦).

(٦) سورة الأعلى، الآية (١٦).

(٧) سورة طه، الآية (١٣١).

(٨) سورة الحديد، (٢٠).

(٩) أخرجه مسلم، في الزهد والرفائق ٢٢٧٢/٤ (ح ٢٩٥٦).

(١٠) سبق تخريجه في ص ٧١.

النبى ﷺ : "إن هذا المال حلوة خضرة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكالذي يأكل ولا يشبع" (١) .

وقال ابن القيم : " والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا ، والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها ، والترغيب في الآخرة ، والإخبار بشرفها ودوامها ، فإذا أراد الله بعبده خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار " (٢) .

وقد قسم الإمام أحمد الزهد إلى ثلاثة أوجه ، فقال : " الزهد على ثلاثة أوجه : الأول : ترك الحرام ، وهو زهد العوام .

والثاني : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل عن الله ، وهو زهد العارفين " (٣) .

وقد كان للزهد عند الإمام أحمد - رحمه الله - مكانة عظيمة حيث صنف كتابا في الزهد الذي كتبه على نمط رواية الأحاديث ، وهو كتاب يعطي صورة صادقة لحياة الإمام أحمد وزهده وتقشفه وورعه .

فقد تكلم فيه عن زهد رسول الله ﷺ ، ثم أتبع ذلك بكلام لطيف وأخبار صحاح عن زهد أنبياء الله ورسله كزهد يونس وسليمان وأيوب وآدم ونوح وعيسى وموسى وداود وإبراهيم ويوسف وأيوب .. عليهم الصلاة والسلام .

ثم أتبع ذلك بسرد جميل لزهد الخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وزهد كبار الصحابة الكرام كأبي الدرداء ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله وأبي ذر ، وعمران بن الحصين ، وسلمان الفارسي ، وأبي هريرة ، وابن مسعود ، والسيدة عائشة ، وحذيفة بن اليمان ، ومعاذ بن جبل ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وسعيد بن عامر ، وعمير بن حبيب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر وغيرهم رضي الله عنهم .

(١) أخرجه مسلم ، في الزكاة باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ٧١٧/٤ (ح ١٠٣٥) .

(٢) مدارج السالكين ١٢/٢ .

(٣) المرجع نفسه ١٤/٢ .

ثم أتبع ذلك بأخبار زهد كبار التابعين ومن تبعهم بإحسان كالأحنف بن قيس ،
ومسلم بن يسار ، ومحمد بن سيرين ، وأويس القرني ، وغيرهم ممن تسعد النفوس بذكرهم
وقراءة سيرهم ^(١) .

ومن هنا نقول : كان الإمام أحمد في زهده لا يخرج عن دائرة الزهاد السابقين ، كما
حرص كل الحرص على الاقتداء في سلوكه الشخصي بصفة خاصة بالحسن وابن سيرين
 وإبراهيم بن أدهم ^(٢) كما روى ذلك الخلال فقال : " ثنا أبو بكر المروزي قال حدثني أبو
محمد النسائي جعفر بن محمد قال : قال لي أبو عبد الله يوم عيد : ادخل ، فدخلت فإذا
مائدة وقصعة على الخوان وعليها عراق وقدر إلى جانبه ، فقال لي : كل ، فلما رأى ما بي
قال : إن الحسن كان يقول : والله لتأكلن ، وكان ابن سيرين يقول : إنما وضع الطعام
ليؤكل ، وكان إبراهيم بن أدهم يبيع ثيابه وينفقها على أصحابه ، وكانت الدنيا أهون عليه
من ذاك " ^(٣) .

كذلك أراد - رحمه الله - سواء في آرائه أو سلوكه أن يعارض المظاهر التي اتخذها
الصوفية فلم يكن " لثوبه رقة تنكر ، ولا غلط ينكر " ^(٤) أي أنه توسط في ملبسه ، فيصفه
من رآه بقوله : " فإذا رأيته تعلم أنه لا يظهر النسك ، ورأيت عليه نعلا لا يشبه نعل
القراء " .

وقد علق ابن الجوزي على ذلك مشيراً إلى أنه - رحمه الله - أراد ترك التزي بزي
الفقراء كي يزيل عن نفسه ما يشتهر به ^(٥) .

وبالرغم من وجود أعلام التصوف في عهده فقد أثر الإمام أحمد أن يضع لكتابه في
المضمون الوجداني اسم " الزهد " لا " التصوف " ^(٦) .

وهذا ما جعل شيخ الإسلام ابن تيمية يثني على هذا الكتاب قائلاً : " وأجود ما
صنف فيه (الزهد) كتاب الزهد للإمام أحمد " .

(١) انظر : كتاب الزهد للإمام أحمد .

(٢) مناقب الإمام أحمد ص ٢٤١ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٤ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٨٢ .

(٦) ابن تيمية والتصوف ص ١٧٤ .

وكان من الأسباب التي دفعت الإمام الشافعي إلى القول بإمامته هو الزهد ، حيث عاش - رحمه الله - لا يأكل ولا يطعم إلا من كسب يده ، وكان أساس زهده ترك الحرام وطلب الحلال ، والبعد عن حمى أية شبهة يمكن أن تنال من نزاهة النفوس ، وكان يرى أن الزهد الصادق هو الذي يرقق النفوس ويلين القلوب ، ويزيل عنها غشاوات الغرور والعجب .

وقد شرح العليمي شهادة الإمام الشافعي للإمام أحمد في الزهد فيقول : " فحاله في ذلك أشهر وأظهر ، أته الدنيا فأبأها ، والرياسة فنفاها ، عرضت عليه الأموال وفوضت إليه أحوال وهو يرد ذلك بتعفف وتعلل وتقلل ، ويقول : قليل الدنيا يجزئ ، وكثيرها لا يجزئ ، ويقول : أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء ، ويقول : إنما طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وأيام قلائل .

وعن صالح بن أحمد قال : ربما رأيت أبي يأخذ الكسرة فينفض الغبار عنها ، ثم يصيرها في قصعة ويصب عليها ماء حتى تبتل ثم يأكلها بالملح ، وما رأيت قط اشتري رمانا ولا سفرجلا ولا شيئا من الفاكهة إلا أن يشتري بطيخة فيأكلها بخبز ، أو عبا أو تمرا ، فأما غير ذلك فما رأيت قط اشتراه " (١) .

وقال لي : كانت والدتك في الظلام تغزل غزلا دقيقا ، فتبيع الأستار بدرهمين أقل أو أكثر ، فكان ذلك قوتنا ، وكنا إذا اشترينا الشيء نستره عنه كيلا يراه فيوبخنا ، وكان ربما خبز له ، فيجعل فخارة عدسا وشحما ، وثمرات شهريز ، فيجئ الصبيان فيصوت بعضهم فيدفعه إليهم ، فيضحكون ولا يأكلون ، وكان يأتدّم بالخل كثيرا (٢) .

وعن موسى بن حماد البربري قال : حمل إلى الحسن بن عبد العزيز ميراثه من مصر مائة ألف دينار ، فحمل إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس ، في كل كيس ألف دينار ، وقال : يا أبا عبد الله هذه ميراث حلال فخذها فاستعن بها على عائلتك ؟ قال : لا حاجة لي فيها ، أنا في كفاية ، فردها ولم يقبل منه شيئا (٣) .

(١) المنهج الأحمد في تراجم الإمام أحمد ٧٦/١ . وانظر : سير أعلام النبلاء ٢٠٨/١١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠٩/١١ .

(٣) حلية الأولياء ١٨٧/٩ .

وقال إسحاق بن هانئ : بكرت يوما لأعارض أحمد بالزهد ، فبسطت له حصيرا ومخدة فنظر إلى الحصر والمخدة فقال : ما هذا ؟ قلت لتجلس عليه ، قال : ارفعه ، الزهد لا يحسن إلا بالزهد ، فرفعته وجلس على التراب .

وقال أبو عمير ، عيسى بن محمد بن عيسى النحاس الفلسطيني - وذكر عنده أحمد ابن حنبل - فقال رحمه الله : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، وبالصالحين ما كان ألحقه ، عرضت له الدنيا فأبأها ، والبدع فنفاها ، وخصه الله تعالى بنصرة دينه ، والقيام بحفظ سنته ، ورضيه لإقامة حجته ، ونصر كلامه حين عجز عنه الناس " (١) .

وقال صالح بن أحمد بن حنبل : وقال لي يوما يعني - أباه - أنا إذا لم يكن عندي قطعة - أي من النقد - أفرح (٢) .

وقال أبو بكر المروزي : " سمعت أحمد بن حنبل يقول : ما أعدل بالفقر شيئا ، أتدري الصبر على الفقر أي شيء هو ؟ قد رأيت قوما صالحين ، لقد رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جبة لبود ، وقد أتى عليه السنون والدهور ، ولقد رأيت أبا داود الجعفي وعليه جبة مخرقة وقد خرج القطن منها ، يصلي بين المغرب والعشاء وهو يترجح من الجوع ، ورأيت أيوب النجار بمكة وقد خرج مما كان فيه ومعه رشاء يستقي به بمكة ، وقد خرج من كل ما يملكه وكان من العابدين ، وكان في دنيا فتركها في يدي يحيي القطان ، وقد رأيت ابن بجالة العابد وكنت أسمع صوت خفه في الطواف بالليل ، ولقد كان في المسجد رجل يقال له العرفي يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي ، قال فاشتيت النظر إليه فإذا هو شاب مصفر ، ولقد رأيت حسينا الجعفي ، وكان يشبه بالراهب ، ما رأيت بالكوفة أفضل من حسين الجعفي ، وسعيد بن عامر بالبصرة " (٣) .

ومن عظيم زهده وورعه إعراضه الشديد عن تولي القضاء - مع مسيس حاجته - فقد روى البيهقي من طريق المزني عن الشافعي أنه قال للرشيد : إن اليمن يحتاج إلى قاض ، فقال له : اختر رجلا نوله إياها ، فقال الشافعي لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه في جملة من

(١) المنهج الأحمد ١/ ٧٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٠٩ .

(٣) مناقب الإمام أحمد ص ٥٦ .

يأخذ عنه ، ألا تقبل قضاء اليمن ؟ فامتنع من ذلك امتناعا شديدا ، وقال للشافعي : إني إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهد في الدنيا ، فتأمرني أن ألي القضاء ، ولولا العلم لم أكلّمك بعد اليوم ، فاستحى الشافعي منه ^(١) .

هكذا نرى الزهد والعفة عند الإمام أحمد ، فقد قطع الطمع عما في أيدي الناس من حكام ومحكومين ، ولو كان في شدة الحاجة والفقر ففضل أن يعيش ويأكل من كسب يده ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن زهده ليس زهدا سلبيا بل كان إيجابيا ، يقول أحمد ابن سنان الواسطي : بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه عند خروجه من اليمن ، وعرض عليه عبد الرزاق دراهم صالحة فلم يقبلها منه ^(٢) ، فقد رهن نعله ليأكل ، وأكرى نفسه ، وأبى أن يأخذ حتى من شيخه عبد الرزاق ، وقهرت عفته كل طمع حتى عند أمس الحاجة .

وروى أبو نعيم بسنده إلى الحسين بن محمد التستري يقول : " كان غلام من الصيارفة يختلف إلى أحمد بن حنبل ، فناوله يوما درهمين فقال : اشتر بهما كاغدا ، فخرج الغلام واشترى له ، وجعل في جوف الكاغد خمسمائة دينار وشده وأوصله إلى بيت أحمد ، فسأل وقال : حمل إلينا من البياض فقالوا : بلى ، فوضع بين يديه فلما فتحه تناثرت الدنانير ، فردّها في مكانها ، وسأل عن الغلام حتى دل عليه ، فوضعه بين يديه فتبعه الفتى وهو يقول : الكاغد اشتريته بدرهمك ، خذه فأبى أن يأخذ الكاغد أيضا " ^(٣) .

وروى أيضا بسنده إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال : دخلت على أبي في أيام الواثق - والله أعلم في أي حالة نحن - وقد خرج لصلاة العصر ، وقد كان له لبد يجلس عليه ، وقد أتت عليه سنون كثيرة حتى لقد بلى ، فإذا تحته كتاب كاغد ، وإذا فيه : بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق ، وما عليك من الدين ، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم على يدي فلان لتقضي بها دينك ، وتوسع بها على عيالك ، وما هي من صدقة ولا زكاة ، وإنما شيء ورثته من أبي ^(٤) .

(١) البداية والنهاية ٣٢٨/١٠ .

(٢) انظر : حلية الأولياء ١٨٦/٩ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٨٧/٩ - ١٨٨ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٨٩/٩ .

فقرأت الكتاب ووضعتة ، فلما دخل قلت : يا أبي ما هذا الكتاب ؟ فاحمر وجهه وقال : رفعته منك ، ثم قال : تذهب بجوابه ، فكتب إلى الرجل : وصل كتابك إلي ونحن في عافية ، فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم في نعمة والحمد لله ، فذهبت بالكتاب إلى الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل فقال : ويحك لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلاً في الدجلة كان مأجوراً ، لأن هذا رجل لا يعرف له معروف ، فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك ، فرد عليه الجواب بمثل ما رد ، فلما مضت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها فقال : لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت " (١) فقد رق للإمام أحمد قلب من لا يعرف المعروف ، ومع ذلك لم ير لنفسه مبرراً أن يأخذ مالا لا يد له في كسبه وتحصيله ! .

هذا غيظ من فيض فيما روي عن زهد الإمام أحمد وتعففه رحمه الله ، ولكن مع ذلك لا بد أن نوقن بأن الإمام أحمد لم يكن مبالغاً في الزهد ومفهومه - كما يظن بعض المتصوفة - بأنه ترك الدنيا وما عليها بالكلية ؛ فهذا هو الرهبانية التي ذمها القرآن الكريم حيث قال الله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

إنما كان موقفه من الدنيا أن لا يتركها كلية ، فيأخذ منها قدر الزاد ، فقد كان - رحمه الله - يمنع من المبالغة في الزهد الموصل إلى تحريم ما أحل الله ، والامتناع عما أباحه الله لعباده ، قال أبو يعلى في طبقات الحنابلة مبيناً موقف الإمام أحمد من الزهد : " وكان الإمام أحمد - رحمه الله - يمنع من التزهيد المفضي إلى تحريم ما أحل الله ، والامتناع من المباح الذي رفع الله فيه الحرج ، ويقول : قال النبي ﷺ : " المحرم ما أحل الله كالمحل ما حرم الله " (٣) إلا أن يكون رجلاً يخاف على نفسه الفتنة ، أو يدعو إلى الشهوة فليسررها بذلك ، ويأخذ بالعزائم من غير أن يحرم ذلك فيجوز وقد قال النبي ﷺ : " من ترك شيئاً لله

(١) حلية الأولياء ١٨٩/٩ - ١٩٠ ، ومناقب الإمام أحمد ص ٢٣٣ .

(٢) سورة الحديد ، الآية (٢٧) .

(٣) لم أقف عليه .

عوض الله ما هو خير منه ^(١) ، ولم يزل العلماء يؤدّبون نفوسهم بالمنع من الشهوات المباحات لا على وجه التحريم ^(٢) .

ولعل هذا المفهوم من الأمور التي دفعته إلى الزهد والتعفف من قبول العطايا والأموال من الأمراء والعلماء والعامّة من شيوخه وإخوانه ، وكلهم كان لهم منه جواب واحد أنه بخير ، وأنه في كفاية وفي غنى وسعة .

فالإمام أحمد لا يريد أن يجلس وينتظر مما في أيدي الناس بل يسعى ويعمل لنفسه وعياله ، لا كما يفعله بعض المتصوفة الذين يكونون عالة على الناس وضررا على المجتمع . قال أبو بكر الخلال : أخبرنا عبد الله بن أحمد قال : سمعت أبي - رحمه الله - يقول : الاستغناء عن الناس بطلب - يعني العمل - أعجب إلينا من الجلوس والانتظار مما في أيدي الناس .

وأخبرني محمد بن علي ثنا صالح أنه سأل أباه - رحمه الله - عن التوكل فقال : " التوكل حسن ، ولكن ينبغي للرجل أن لا يكون عيالا على الناس ، ينبغي أن يعمل حتى يغني نفسه وعياله ولا يترك العمل .

قال : وسئل أبي - رحمه الله - وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ، ويقولون : نحن متوكلون فقال : هؤلاء مبتدعة ^(٣) .

نفهم من النصوص السابقة أن الإمام أحمد - رحمه الله - كان على منهج السلف الصالح في شأن الزهد ، وأنه يخالف ما ذهب إليه بعض الصوفية المتقدمين في مفهوم الزهد ، حيث اتجه بعضهم اتجاهها يكون الفقر مطلباً أساسياً فيه مع تجويع البطن وتعرية الجسد . كما يقول أبو يزيد البسطامي : " نلت هذه المعرفة ببطن جائع وجسد عار " ^(٤) ، أو كما يقول

(١) ذكره السيوطي في " الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة " (١٥٧) والعجلوني في كشف الخفا ٣١٢/٢ ، وقال السيوطي في الدرر : رواه أحمد عن بعض أصحابه مرفوعاً بلفظ : " إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله إلا أعطاه خيراً منه... " .

(٢) طبقات الخنابلة ٢٣٩/٢ .

(٣) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة ، للدكتور عبد الإله الأحدي ٢٣٨/٢ .

(٤) انظر : قوت القلوب ١٦٨/٢ ، وطبقات الصوفية ص ٧٤ .

أحدهم : " أحب للمبتدئ أن لا يشغل قلبه بالتكسب وإلا تغير حاله " ^(١) . ونقلوا عن سيد الطائفة قوله : " الزهد هو تخلي الأيدي عن الأملاك " ^(٢) .

وهذه الظاهرة ليست بغريبة على بعض الصوفية المتقدمين حيث سجل لنا التاريخ كثيرا من حكاياتهم وكانوا من ذوي الأموال فتخلوا عنها ، ثم أخذوا في السياحة ^(٣) .
" ويقول سهل بن عبد الله : خمسة أشياء من جوهر النفس : فقير يظهر الغنى ، وجائع يظهر الشبع ، ومحزون يظهر الفرح ، ورجل بينه وبين رجل عداوة يظهر له المحبة ، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يظهر ضعفا ^(٤) .

ويقول بشر بن الحارث : أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر .
ويقول ذوالنون المصري : علامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر " ^(٥) .
ولا شك أن اعتبار الفقر أساسا يبيّن عليه المرء دينه مخالف لتعاليم الرسول ﷺ الذي كان يقول : " اللهم إني أعوذ بك من الفقر " ^(٦) .

هذا إذا لم يكن الهدف من الفقر عندهم الافتقار ، وإنما اللجوء إلى الله ﷻ ، وعدم التسخط على القدر في حالة العدم ، فهذا لا يتنافى مع الدين ، وخاصة أن رسول الله ﷺ قال : " اللهم أحييني مسكينا ، وأمّتي مسكينا ، واحشرنّي في زمرة المساكين " ^(٧) .

(١) قوت القلوب ١٦٧/١ .

(٢) اللمع للطوسي ص ٧٢ .

(٣) انظر : تاريخ بغداد ٢٢١/٧ ، وسير أعلام النبلاء ٢٣١/١٥ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٧٤ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) سبق تخريجه في ص ٣١٤ .

(٧) أخرجه البيهقي في كتاب قسم الصدقات ، باب ما يستدل به على أن الفقير أمس حاجة من المسكين ١٢/٧ .

وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (ح ٣٠٨) .

٣- العلم

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر قال : " كان النبي ﷺ يتعوذ من علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن قلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع " (١) والعلم لا بد أن يكون مقرونا بالعمل .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : " الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب ، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه في كل وقت " (٢) .

إذا كان من الصوفية من ذم العلماء ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة ، وأن منهم من تشاغل بالعلم وكتابته ، ونهى عن طلب العلم الظاهر - كما يقولون - فإن الإمام أحمد رأى غير ذلك حيث كان مهتما بالعلم ، وقام بتعلمه وتعليمه .

قال ابن الجوزي مبينا موقف الإمام أحمد من العلم وطلبه ونشره والعمل به ، ومستشهدا بحديث رسول الله ﷺ وبأعمال أصحابه الكرام :
" واعلم أن الصحابة ضبطت ألفاظ رسول الله ﷺ وحركاته وأفعاله ، واجتمعت الشريعة من رواية هذا ورواية هذا .

وقد قال الرسول ﷺ : " بلغوا عني ولو آية " (٣) . وقال : " نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها .. " (٤) . وتأدية الحديث كما يسمع لا يكاد يحصل إلا من الكتابة لأن الحفظ خوان ، وقد كان أحمد بن حنبل ﷺ يحدث فيقال له : أمله علينا ؟ فيقول : لا بل من الكتاب .

وقال علي بن المديني : أمرني سيدي أحمد بن حنبل أن لا أحدث إلا من الكتاب ، فإذا كانت الصحابة قد روت السنة وتلقها التابعون ، وسافر المحدثون ، وقطعوا شرق الأرض وغربها لتحصيل كلمة من ههنا وكلمة من هننا ، وصححوا ما صح ، وزيفوا ما لم

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٦٧/٢ ، ١٩٨ ، ٣٤٠ ، ٣٦٥ ، ٤٥١ ، ٢٨٣/٣ .

(٢) مفتاح دار السعادة ٨١/١ .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ١٢٧٥/٣ (ح ٣٢٧٤) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٣٧/١ .

يصح ، وجرحوا الرواة وعدلوا وهذبوا السنن وصنفوا ، ثم من يغسل ذلك فيضيع التعب ، ولا يعرف حكم الله في حادثة ، فما عوندت الشريعة بمثل هذا ^(١) .

فهل لشريعة من الشرائع قبلنا إسناد إلى نبيهم ، وإنما هذه خصيصة لهذه الأمة ، وقد رويانا عن الإمام أحمد بن حنبل مع كونه طاف الشرق والغرب في طلب الحديث ! إنه قال لابنه : ما كتبت عن فلان ؟ فذكر له أن النبي ﷺ كان يخرج يوم العيد من طريق ويرجع من أخرى ، فقال الإمام أحمد بن حنبل : إن الله سنة من سنن رسول الله ﷺ لم تبلغني وهذا قوله مع إكثاره وجمعه فكيف بمن لم يكتب ؟ وإذا كتب غسل أفترى إذا غسلت الكتب ودفنت على ما يعتمد في الفتاوى والحوادث على فلان الزاهد ، أو فلان الصوفي ، أو على الخواطر فيما يقع لها نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى ^(٢) .

كما ذكر ابن الجوزي حادثة تبين إنكار بعض الصوفية على الاشتغال بالعلم فقال : بلغني عن أبي سعيد الكندي قال : كنت أنزل رباط الصوفية ، وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون فسقطت الدواة يوما من كمي فقال لي بعض الصوفية : استر عورتك . وذكر أن الحسين بن أحمد الصفار : كان بيده محبرة فقال له الشبلي : غيب سوادك عني يكفيني سواد قلبي .

ثم عقب ابن الجوزي فقال : من أكبر المعاندة لله ﷻ الصد عن سبيل الله ، وأوضح سبيل الله العلم لأنه دليل على الله وبيان لأحكام الله وشرعه ، وإيضاح لما يحبه ويكرهه ، فالمنع منه معاداة لله ولشرعه ..

ثم روى بسنده إلى أبي عبد الله بن خفيف الذي يقول : " اشتغلوا بتعلم العلم ولا يغرنكم كلام الصوفية فإني كنت أحبب محبرتي في جيب مرقعتي والكاغد في حزة سراويلي ، وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم فإذا علموا بي خاصموني ، وقالوا لا تفلح ثم احتاجوا إليّ بعد ذلك ، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول : هذه سرج الإسلام ، وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه فقال له رجل ؟ إلى متى يا أبا عبد الله ؟ فقال : المحبرة إلى المقبرة ، وقال في قوله ﷺ : " لا تزال طائفة من أمتي منصورين

(١) تلبس إبليس ص ٣٩٧ .

(٢) نفسه ص ٣٩٨ .

لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة" ، فقال أحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم ؟ " (١) .

٤- التوبة

قال أبو محمد (٢) رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي - رحمه الله - :
" يقول أحمد بن حنبل - رحمه الله - : إن التوبة واجبة من الذنوب ، وإنها تمحو ما سلف إذا قارنها بالإخلاص ، وهو الندم على ما فات ، وترك المطال ، والعزم على عدم العودة ، وإن الباري لا يجب عليه قبولها لأنه لا يجب عليه شيء ، وإنما يتفضل على عبده بذلك إحساناً منه ، ويتلو ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (٣) ويأمر بالتوبة في كل حال ، ويدعو إليها النساء والرجال من المكلفين ويقول : هي واجبة على الأعيان ، ويتلو : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) وقد توعد الله تعالى على تأخيرها ، وعظم الجرم على من تركها ، فقال : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ (٥) .

ويحث الأمة على وجوب المبادرة بالتوبة ، ويروي عن النبي ﷺ أنه قال : " إنه ليغان على قلبي لأتوب إلى الله في اليوم سبعين مرة " (٦) " (٧) .

ثم يقول الإمام أحمد : " من ترك التوبة وجبت عليه التوبة ، لأنه ترك واجبا فهو كراكب الذنب ، وكان يذهب إلى أن قبولها ليس بواجب على الباري ، وإنما هو تفضل منه ، وترغيب لعباده ولأن الواجب ما ألزمه ملزم ، وليس له سبحانه ملزم .

وكان يجوز التوبة من بعض الذنوب ، حذرا من تنفير المكلف الذي لا يستطيع ترك جميع ما تعود قال الله في قطاع الطريق ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا

(١) تليس إبليس ص ٤٠٠ .

(٢) قال عنه الذهبي : الشيخ الإمام ، المعمر ، الواعظ رئيس الحنابلة (ت ٤٨٨هـ) انظر : سير أعلام ٦٠٩/١٨

(٣) سورة الفرقان ، الآية (٧٠) .

(٤) سورة النور ، الآية (٣١) .

(٥) سورة النساء ، الآية (١٨) .

(٦) أخرجه مسلم في الذكر ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٢٠٧٥/٤ (ح ٢٧٠٢) .

(٧) طبقات الحنابلة ٢٢٧/٢ - ٢٢٨ .

أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١) ولم يشترط في ذلك توبتهم من جميع ذنوبهم ، وكان يجوز توبة من تاب ونقض ، ويقول : من تاب ونقض فهو مؤاخذ بما يأتي إلا أن يعفو الله عنه .

والتوبة عنده : الندم على ما مضى ، والعزم على ترك فعل مثله ، فإن كان عجز عن المثل كفاه الندم على ما مضى ، فقال النبي ﷺ : «الندم توبة»^(٢) ويجب عليه تجديد الندم عند تجدد ذكر ما اجترم ، لأن الأنس بذكر الذنب وتسهيل العبارة به دليل على عدم التألم ، وذلك إصرار فلذلك وجب تجديد الندم " (٣) .

وقال ابن مفلح : في سرد التوبة من البدعة المفسقة والمكفرة أن من تاب من بدعة مفسقة أو مفكرة صح إن اعترف بها وإلا فلا ، فالتوبة من البدعة لا بد من الاعتراف بها والرجوع عنها كما " قال أحمد في رواية المروزي في الرجل يشهد عليه بالبدعة فيجحد ليست له توبة ، إنما التوبة لمن اعترف ، فأما من جحد فلا توبة له " .

وقال في رواية المروزي : وإذا تاب المبتدع يؤجل سنة حتى تصح توبته ، واحتج بحديث إبراهيم التيمي أن القوم تاركوه في صبيغ بعد سنة ، فقال : جالسوه وكونوا على حذر " (٤) .

وقال القاضي أبو الحسين بعد أن ذكر هذه الرواية وغيرها : فظاهر هذه الألفاظ قبول توبته منها بعد الاعتراف والمجانبة لمن كان يقارفه ومضي سنة ، ثم ذكر رواية ثانية : أنها لا تقبل ، واختارها ابن شاقلا ، واحتج لا اختياره بقوله ﷺ : «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(٥) ، وروى أبو حفص العكبري بإسناده عن أنس مرفوعا : «إن الله ﷻ احتجر التوبة عن كل صاحب بدعة»^(٦) " (٧) .

(١) سورة المائدة ، الآية (٣٤) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٣٧٦ ، ٤٢٣ ، ٤٣٣ ، وابن ماجه (٤٢٥٣) ، وصححه ابن حبان برقم (٦١٢) ، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢٧٠ هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(٣) طبقات الحنابلة ٢/٢٢٨ .

(٤) الآداب الشرعية ١/١٣٧ .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ٧٠٥/٢ (ح ١٠١٧) ، وابن حبان (٣٣٠٨) .

(٦) أخرجه أبو الشيخ في تاريخ أصبهان (٧٥٣) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٤٥٧) من طريق هارون بن موسى الفروي ، عن أبي ضمرة أنس بن عياض ، عن حميد ، عن أنس . وأنس بن عياض ذكروا في ترجمته أنه كان أحق يدفع كعبه إلى الناس ، وليس له رواية عن حميد أصلا غير هذا الحديث .

(٧) الآداب الشرعية ١/١٣٨ .

ولكن عقب شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول : " وهذا القول الجامع للمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند جماهير أهل العلم ، وإن كان من الناس من استثنى بعض الذنوب كقول بعضهم إن توبة الداعية إلى البدع لا تقبل باطنا للحديث الإسرائيلي الذي فيه : " فكيف من أضللت ؟ " وهذا غلط ؛ فإن الله قد بين في كتابه وسنة رسوله ﷺ أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع " (١) .

وقد روى الترمذي وحسنه عن أنس ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني ولا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة " (٢) .

فتعليق الغفران على الاستغفار دل على اعتباره ، والمراد أنه استغفر من ذنوبه توبة ، وإلا فالاستغفار بلا توبة لا يوجب الغفران ، وقد سماه ذوالنون المصري بتوبة الكذابين (٣) .

وقبول التوبة مفتوح إلى طلوع الشمس من مغربها ، وقد روى الإمام أحمد من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ : " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها " (٤) .

كما أخرج الإمام أحمد أيضا عن صفوان بن عسال مرفوعا : " باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أربعون أو سبعون سنة ، خلق الله ﷻ يوم خلق السماوات والأرض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه " (٥) .

وأخرج الإمام مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : " من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه " (٦) .

(١) المرجع السابق .

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات ، باب فضل التوبة والاستغفار ٥٠٩/٥ . وأورده الألباني في صحيح

سنن الترمذي ١٧٦/٣ (٢٨٠٥) .

(٣) الآداب الشرعية ١١٥/١ .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب التوبة ٢١١٣/٤ (٢٧٥٩) .

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢٤٠/٤ ، والترمذي (٣٥٣٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ٢٠٧٦/٤ (٢٧٠٣) .

٥- التوكل على الله تعالى

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سألت أبي عن قوم يقولون : نتكل على الله ولا نكتسب ؟ قال أبي : ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَاسْتَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ ^(١) فهذا قد علم أنهم يكتسبون ويعملون ، وقال النبي ﷺ : « من عال ابنتين أو ثلاثة فله الجنة » ^(٢) يعني من قال بخلاف هذا ، فهذا قول إنسان أحمق " ^(٣) .

قال أبو بكر الخلال : أخبرني إبراهيم بن الخليل أن أحمد بن نصر أبا حامد حدثهم أن أبا عبد الله قد سأله رجل : أخرج إلى مكة متوكلا لا يحمل معه شيئا ؟ فقال : لا يعجبني فمن أين يأكل ؟ قال : يتوكل فيعطيه الناس ، قال : فإذا لم يعطوه ، أليس يستشرف لهم حتى يعطوه ؟ لا يعجبني هذا ، لم يبلغني أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين فعل هذا ، ولكن يعمل ويطلب ويتحرى .. ^(٤) .

وقال أبو بكر الخلال أيضا : أخبرنا عبد الله بن أحمد قال : سمعت أبي - رحمه الله - يقول : الاستغناء عن الناس بطلب - يعني العمل - أعجب إلينا من الجلوس والانتظار ما في أيدي الناس .

وأخبرني محمد بن علي ثنا صالح أنه سأل أباه - رحمه الله - عن التوكل فقال : " التوكل حسن ، ولكن ينبغي للرجل أن لا يكون عيالا على الناس ، ينبغي أن يعمل حتى يغني نفسه وعياله ولا يترك العمل .

قال : وسئل أبي - رحمه الله - وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ، ويقولون : نحن متوكلون ، فقال : هؤلاء مبتدعة " ^(٥) .

وقال أبو بكر المروزي : قلت لأبي عبد الله هؤلاء المتوكلون يقولون : نقعد وأرزاقنا على الله ﷻ ، فقال : هذا قول رديء ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿ إِذَا تُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ

(١) سورة الجمعة ، الآية (٩) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٢/٣ .

(٣) مسائل عبد الله بن أحمد ص ٤٤٨ .

(٤) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ٢/٢٣٢ .

(٥) نفسه ٢/٢٣٨ .

يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴿١﴾ . ثم قال : إذا قال لا أعمل وجيء إليه بشيء قد عمل واكتسب لأي شيء يقبله من غيره .

وقال الخلال أخبرنا المروزي قال : سألت أبا عبد الله عن رجل جلس في بيته وقال : أجلس وأصبر وأقعد في البيت ولا أطلع على ذلك أحدا فقال : لو خرج فاحترف كان أحب إلي ، فإذا جلس خفت أن يخرج جלוسته إلى غير هذا ، قلت : إلى أي شيء يخرج جله ؟ قال : يخرج جله إلى أن يكون يتوقع أن يرسل إليه (٢) .

وقال أيضا : حدثنا أبو بكر المروزي قال : سمعت رجلا يقول لأبي عبد الله أحمد بن حنبل إني في كفاية ، قال : الزم السوق تصل به الرحم وتعود به على عيالك ، وقال لرجل آخر : اعمل وتصدق بالفضل على قرابتك ، وقال أحمد بن حنبل قد أمرهم ، يعني أولاده أن يختلفوا إلى الشوق وأن يتعرضوا للتجارة " (٣) .

من خلال النصوص السابقة نرى أن الإمام أحمد كان على مذهب أهل الحق من سلف هذه الأمة ، حيث فهم معنى التوكل بمفهومه الصحيح الإيجابي ، وهو الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله ﷻ ، وهذا يتمشى مع طبيعة هذا الدين الحنيف ، الذي جاء لعمارة الأرض وإصلاحها على أساس الفهم الصحيح لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ . فكان الإمام أحمد يخالف ما عليه بعض الصوفية في مفهوم التوكل ، حيث فهم بعضهم بأن التوكل هو خلع الأسباب وقطعها كما أشار إلى ذلك ذوالنون المصري (٤) . أو أن يكون العبد بين يدي الله ﷻ كالميت بين يدي الغاسل ، يقلبه كيف يشاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير (٥) ، حتى أدى بهم هذا المفهوم الخاطئ إلى ترك العمل والتكسب وترك الاحتراز ، وعدم حمل الزاد... الخ .

وقال ابن الجوزي منتقدا هذا المفهوم ومستدلا بقول الإمام أحمد فيقول : " وقد لبس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ ، قال رجل للإمام أحمد ﷺ أريد أن أخرج إلى مكة من غير زاد ، فقال له أحمد : فأخرج

(١) سورة الجمعة ، الآية (٩) .

(٢) تلبس إبليس ص ٣٤٧ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٤٨ .

(٤) انظر : الغنية للجيلاني ٦٠٨/٢ ، ومدارج السالكين ١١٦/٢ .

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٦٣ ، ومدارج السالكين ١٢١/٢ - ١٢٢ .

في غير قافلة ، قال : لا إلا معهم ، قال : فعلى جراب الناس توكلت ؟ فنسأل الله أن يوفقنا " (١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " وزعم طائفة أن من تمام التوكل أن لا يحمل الزاد ، وقد رد الأكابر هذا القول ، كما رد الحارث المحاسبي في " كتاب التوكل " وحكاه عن شقيق البلخي ، وبالع في الرد على من قال بذلك ، ولكن من الحجج عليهم ما تبين به غلطهم وأنهم غالطون في معرفة حقيقة التوكل ، عاصون لله بما يتركون من طاعته .

وقد حكى لأحمد بن حنبل أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان إذا وضع له الطعام لا يمد يده حتى يوضع في فيه ، وإذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا فيه الطعام فأنكر ذلك أشد الإنكار ، ومن هؤلاء من حرم المكاسب .

وهذا وأمثاله من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره ، فإن الله خلق المخلوقات بأسباب ، وشرع للعباد أسبابا ينالون بها معرفته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة ، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه ، وأن المطالب لا يتوقف على الأسباب التي جعل الله أسبابا لها فهو غالط ، فالله ﷻ وإن كان قد ضمن العبد رزقه ، وهو لا بد أن يرزقه ما عُمّر ، فهذا لا يمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب يحصل من فعل العبد وغير فعله " (٢) .

وأضاف شيخ الإسلام قائلا : " وأما قول القائل : إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقا فليس الأمر كذلك ؛ بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسبابا يحصل بها الرزق ، كما قال نبينا محمد ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : " بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم " (٣) " (٤) .

ولهذا قال الإمام أحمد لرجل جلس في بيته أو في مسجده ، لا يعمل شيئا حتى يأتيه رزقه بأن هذا رجل جهل العلم ، واستدل بالحديث السابق ، والحديث الذي ذكر الطبر

(١) تلييس إبليس ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٢) قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق علي بن عبد العزيز الشبل ، ط ١

الرياض (دار الصميعي ١٤١٦هـ) ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥٠/٢ .

(٤) قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل ص ١٦٥ .

تغدو ، والذي رواه أحمد في مسنده أيضا عن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا " ^(١) ، فذكر أن الطير تغدو في طلب الرزق .

ثم قال : قال تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٣) وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ، ويعملون في نخيلهم ولنا القدوة بهم ^(٤) .

٦- الورع

قال أبو بكر المروزي : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه - وذكر أخلاق الورعين - فقال : أسأل الله أن لا يمقتنا ، أين نحن من هؤلاء ؟ وحينما سئل : هل للورع حد يعرف ؟ فتبسم وقال : ما أعرفه ^(٥) . وهذا دليل على عظيم منزلة الورع عنده . فقد كان - رحمه الله - لا يريد تعريف الورع بحده - تورعا منه - وإنما عرفه بأصحابه ، اتضح ذلك من خلال كتابه الورع ، الذي تحدث فيه عن عدد من الأعلام الورعين ^(٦) .

وقال المروزي : " سألت أبا عبد الله عن الرجل يكون معه ثلاثة دراهم ، منها درهم حرام لا يعرفه ؟ قال : لا يأكل منه شيئا حتى يعرفه ، واحتج أبو عبد الله بحديث عدي بن حاتم أنه سأل النبي ﷺ فقال : إني أرسل كلي فأجد معه كلبا آخر ، فقال : " لا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك عليك " ^(٧) ، قلت له : فإن كانت دراهم كثيرة ؟ فقال : إذا كانت دراهم كثيرة فهو أعجب إلي ، إذا كانت ثلاثين أو نحوها وفيها درهم حرام أخرج الدرهم " ^(٨) .

(١) سبق تخريجه في ص ٣١٣ .

(٢) سورة المزمل ، الآية (٢٠) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٩٨) .

(٤) تلبس إبليس ص ٣٤٧ .

(٥) كتاب الورع للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق دكتور مصطفى محمد حسين الذهبي ، ط ١ (مكتبة نزار مصطفى

البار ١٤١٨هـ) ص ٢١ .

(٦) المصدر نفسه ص ٢١ - ٣١ .

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٢٥٧/٤ .

(٨) كتاب الورع ص ٤٧ .



وذكر لأبي عبد الله عن بعض الناس أنه قال : إذا كان الشيء المستهلك مثل الدهن والزيت ، والذي لا يوصل إليه بعينه أعطي العوض ؟ قال : نعم هكذا هو ، وسمعت سفيان ابن عيينة يقول : لا يصيب العبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزا من الحلال ، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه " (١) .

وسئل الإمام أحمد من أمر الورع فاحتج بحديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه في القيء . عن قيس قال : كان لأبي بكر رضي الله عنه غلام ، فكان إذا جاء بغلته لم يأكل حتى يسأله ، قال : فنسي ليلة فأكل ولم يسأله ، ثم سأله فأخبره أنه من شيء يكرهه ، فأدخل يده في فيه فتقيأ حتى لم يترك شيئا (٢) .

وأبو عبد الله مناولة : عن محمد بن سيرين قال : لم أر أحدا استقاء من طعام غير أبي بكر ، فإنه أتى له بطعام فأكل ، ثم قيل له : جاء به ابن النعيمة قال : فأطعمتموني كهانة ابن النعيمة ، ثم استقاء .. (٣) .

قال أبو بكر المروزي مبينا أيضا موقف الإمام أحمد من الورع : قلت لأبي عبد الله : بعث ثوبا من رجل ، أعني أكره كلامه ومبايعته ، فقال : دعني حتى أنظر فيها ، فلما كان بعد سأله فقال : توق أن تبيعه ، قلت : فإن بعته وأنا لا أعلم ؟ قال : إن قدرت أن تسترد البيع فافعل ، قلت : فإن لم يمكني ، أأتصدق بالثمن ؟ قال : أكره أن أحمل الناس على هذا فتذهب أموالهم ، قلت : فكيف أصنع ؟ قال : ما أدري ، أكره أن أتكلم فيها بشيء ، ولكن أقل ما هاهنا أن يتصدق بالربح ويتوقى مبايعتهم (٤) .

وجاءت أخت بشر الحافي - ذات يوم - إلى أحمد بن حنبل فقالت : إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا أفيجوز لنا الغزل في شعاعها ؟ فقال أحمد : من أنت عافاك الله تعالى ؟ فقالت : أخت بشر الحافي ، فبكى أحمد وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلي في شعاعها (٥) .

(١) المصدر السابق .

(٢) حلية الأولياء ٦٥/١ .

(٣) كتاب الورع ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ١١١ .

ورهن الإمام أحمد سطلا له عند بقال بمكة المكرمة حرسها الله تعالى ، فلما أراد فكاكه أخرج البقال سطلين وقال : خذ أيهما لك ؟ فقال أحمد : أشكل علي سطلي فهو لك والدراهم لك ، فقال البقال : سطلك هذا وأنا أردت أن أجربك ، فقال : لا آخذ ومضى ، وترك السطل عنده تورعا ^(١) .

هذا الموقف من الإمام أحمد - رحمه الله - هو أيضا موقف بعض الصوفية المتقدمين ، فهذا إبراهيم بن أدهم قال في الورع : بأنه ترك كل شبهة ^(٢) . وقال يونس بن عبيد : الورع الخروج من كل شبهة ، ومحاسبة النفس في كل طرفة . والحق أن الإمام أحمد - رحمه الله - كان من أورع الناس كما قال عنه الإمام الشافعي ^(٣) ، ويتجلى ذلك من خلال مواقفه وعباراته في كتابه الورع ، الذي تضمن لكثير من أخباره وتوجيهاته نحو الورع .

قال أبو بكر المروذي : " سمعت أبا عبد الله يقول : سمعت أبا ثعلبة الخشني يقول : قلت : يا رسول الله أخبرني ما يحل لي وما يحرم علي ؟ قال : فصعد النبي ﷺ البصر في صوب ، فقال النبي ﷺ : " البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب ، وإن أفتاك المفتون " ^(٤) " ^(٥) .

لقد أخذ الإمام أحمد بالورع أخذ أصدق الناس زهدا ، فكان - رحمه الله - يدع الشبهة مخافة الوقوع في الحرام ، ولقد عاش فقيرا كثير العيال ، ولم يكن له غلة إلا ملك ورثه من أبيه يؤجره في كل شهر سبعة عشر درهما ينفقها على عياله ، ويقنع بذلك - رحمه الله - صابرا محتسبا ، وربما اضطر ففسخ بالأجرة ^(٦) .

أما من حيث ورعه في الفقه فقد كان ذلك مضرب المثل ، فإنه إذا صحت لديه روايات متعددة عن الصحابة لم يحاول أن يرجح بينها ، بل أثبتها كلها ورويت عنه جميعها

(١) الرسالة القشيرية ص ١١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٠ .

(٣) انظر : تاريخ بغداد ٤/ ٤١٩ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٢٨ ، قال الهيثمي في الجمع : رواه أحمد والطبراني وفي الصحيح طرف من أوله

ورجاله ثقات ١/ ١٧٥ - ١٧٦ .

(٥) كتاب الورع ص ٤٥ .

(٦) أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ص ٢١١ .

من غير ترجيح ، وليس ذلك منه عجزا عن الترجيح ، وإنما كان يتورع أن يلتزم بقول أحد منهم أو عمله ، ويكون الحق والصواب مع آخر .

وكذلك كان ورعه في فتاواه ، فإن كان هناك من يجيب المستفتي فيها ونعمت ، ويكفي الحرج وإلا شدد في الاحتياط لدينه ، ورد الفتوى إلى ما قال الله ورسوله ، فإن لم يجد ردها إلى الصحابة رضي الله عنهم ، أو ردها إلى التابعين ^(١) .

٧- الخوف والرجاء

لقد كان حال السلف الصالح يخافون ربهم ويطمعون في رحمته ورضاه قال تعالى واصفا حالهم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ ^(٢) . ﴿ تَتَخَفَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ^(٣) .

قال الإمام أحمد منتقدا الإنسان المقصر والمتواني في هذه الحياة ، ومبيناً موقفه من الخوف والرجاء : " سبحانك ما أغفل هذا الخلق عما أمامهم ؛ الخائف مقصر ، والراجي متوان ^(٤) .

وبين المروزي حاله من الخوف والرجاء فقال : " سمعت الإمام أحمد يقول : الخوف منعني عن أكل الطعام فما أشتهيه ، فإذا ذكرت الموت هان علي كل شيء " . وقال إبراهيم الحربي : سمعت أحمد يقول : إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدم له على ما يجب ، والخير فيمن لا يرى لنفسه خيرا " ^(٥) .

وقال صالح بن أحمد : كان أبي إذا دعا له رجل يقول : الأعمال بخواتيمها ، وكنت أسمعه كثيرا يقول : اللهم سلم سلم ^(٦) .

وقال أبو بكر المروزي : " دخلت على أحمد يوما فقلت : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف أصبح من ربه يطالبه بأداء الفرض ونبهه يطالبه بأداء السنة ، والمملكان يطالبانه

(١) نفسه ص ٢١٢ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (٥٧) .

(٣) سورة السجدة ، الآية (١٦) .

(٤) الآداب الشرعية ٣١/٢ .

(٥) المرجع نفسه .

(٦) مناقب الإمام أحمد ص ٢٨٣ .

بتصحيح العمل ، ونفسه تطالبه بمواها ، وإبليس يطلبه بالفحشاء ، وملك الموت يطالبه بقبض روحه ، وعياله يطالبونه بالنفقة ^(١) .

ومع ذلك كان الإمام أحمد يقول : يجب أن يكون الخوف والرجاء من الله متوازنين في قلب المؤمن فلا يطغى الخوف على الرجاء ، أو الرجاء على الخوف ، كما بين ذلك إسحاق بن إبراهيم بن هانئ فيقول : قال لي أبو عبد الله : ينبغي للمؤمن أن يكون رجاءه وخوفه واحدا ^(٢) . وقال غيره عنه : فأيهما رجع صاحبه هلك .

وهذا الكلام موافق لما يقوله أبو علي الروذباري الصوفي : " الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه ، وإذا نقص واحد منهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب جميعا صار الطائر في حد الموت " ^(٣) .

ولكن في حال المرض ينبغي أن يكون رجاء المريض أكثر ، وقد قال الإمام أحمد لرجل : لو صححت ما خفت أحدا وقد قيل :

فما في الأرض أشجع من بريء ولا في الأرض أخوف من مريب .

٨- الجوع وترك الشهوة

الجوع كان من صفات المتصوفة ، وهو أحد أركان المجاهدة عندهم ، لذلك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل ليجدوا ينابيع الحكمة فيه ، - حسب زعمهم - وكثرت الحكايات عنهم في ذلك .

قيل : إن سهل بن عبد الله كان لا يأكل الطعام إلا خمسة عشر يوما .

وقال يحيى بن معاذ : لو أن الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره ^(٤) ، وقال أيضا : بأن الجوع نور والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب الذي يتولد منه الاحتراق ، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه ^(٥) .

والجوع الذي لدى المتصوفة لا يعجب به الإمام أحمد - رحمه الله - فقد قال ابن أبي يعلى في ترجمة عقبة بن مكرم قال : - أي عقبة - سألت أبا عبد الله فقلت : هؤلاء

(١) مناقب الإمام أحمد ص ٢٨٤ .

(٢) مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، رواية إسحاق بن إبراهيم هاني ، ت زهير الشاوش ، المكتب الإسلامي ١٧٨/٢

(٣) الآداب الشرعية ٣٢/٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٤١ .

(٥) نفسه ص ١٤٢ .

الذين يأكلون قليلا ويقللون مطعمهم فقال : ما يعجبني سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : فعل قوم هكذا فقطعهم عن الفرض ^(١) .

وقال أبو بكر المروزي : " قلت لأبي عبد الله ، أحمد بن حنبل رحمته الله : إن أصحاب التقليل يقولون : ليس شيء أفضل من القلة والجوع ، وإذا عود الرجل نفسه ألا يأكل إلا في يومين أو ثلاثة أجر له ، وهو بمنزلة من تعود صيام الدهر ؟ قال : إنما يجوز هذا لمن كان وحده ، فأما من كان معيلا فكيف يقوي ؟ " ^(٢) .

وقال ابن الجوزي : " وقد قال أحمد بن حنبل : أكره التقليل من الطعام ، فإن أقواما فعلوه فعجزوا عن الفرائض " ثم علق ابن الجوزي على ذلك فيقول : " وهذا صحيح ، فإن المتقليل لا يزال يتقلل إلى أن يعجز عن النوافل ثم الفرائض ، ثم يعجز عن مباشرة أهله وإعفافهم ، وعن بذل القوى في الكسب لهم ، وعن فعل خير قد كان يفعله ، ولا يهولنك ما تسمعه من الأحاديث ، التي تحت على الجوع ، فإن المراد بها إما الحث على الصوم ، وإما النهي عن مقاومة الشبع ، فأما تنقيص المطعم على الدوام فمؤثر في القوى فلا يجوز " ^(٣) .

لقد كان موقف الإمام أحمد موقفا صحيحا ، لأنه يوافق طبيعة البشر في هذه الدنيا ، ذلك أن ترك ما أحل الله ﷻ من طعام وشراب ونساء ليس مفتاحا للآخرة ولا طريقا إلى الفوز بها ، بل مفتاح ذلك هو الإخلاص في تحقيق العبودية لله وحده على هدي وبصيرة ، وطاعته فيما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، والتقرب إليه بالنوافل وبما يحبه ويرضاه .

فترك ما أحله الله تعالى من الطيبات ليس فيه جنس عبادة أو تقرب إليه تعالى بل هو منهي عنه قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) .

(١) طبقات الخناابلة ٢٤٦/١ - ٢٤٧ ، وتبليس إبليس ص ٢٦٦ .

(٢) كتاب الورع ص ٧٩ .

(٣) صيد الخاطر ص ٣٨ .

(٤) سورة المائدة ، (٨٧) .

(٥) سورة الأعراف ، الآيتان (٣١ - ٣٢) .

ويقول ابن الجوزي في معرض حديثه عن مسلك بعض الزهاد : ومن تلبسه عليهم أنه يوههم أن الزهد ترك المباحات ، فمنهم من لا يزيد على خبز الشعير ، ومنهم من لا يذوق الفاكهة ، ومنهم من يقلل المطعم ، ويعذب نفسه ، وما هذه طريقة الرسول ﷺ ولا طريقة أصحابه وأتباعهم ، وإنما يجوعون إذا لم يجدوا شيئا فإذا وجدوا أكلوا ، وقد كان رسول الله ﷺ يأكل اللحم ويحبه ، ويأكل الدجاج ويحب الحلوى .. (١) .

ويقول ابن الجوزي في موضع آخر : " ونحن لا نأمر بالشبع إنما ننهي عن جوع يضعف القوة ويؤدي البدن ، وإذا ضعف البدن قلت العبادة " (٢) .

ومن المعروف أن الله ﷻ خلقنا في هذه الدنيا لعبادته وحده .

٩- النفور من الزواج

إن النفور من الزواج مظهر من مظاهر التصوف ، وقد كان للإمام أحمد موقف من هذا الأمر ، كما قال المروزي : " سمعت أبا عبد الله يقول : ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء النبي ﷺ تزوج أربع عشرة ومات عن تسع ، ثم قال : لو كان بشر بن الحارث تزوج لكان قد تم أمره كله ، لو ترك الناس النكاح لم يغزوا ولم يحجوا ، ولم يكن كذا ولم يكن كذا ، فقال : كان النبي يصبح وما عندهم شيء ، ويمسي وما عندهم شيء ، ومات عن تسع ، وكان يختار النكاح ويحث عليه " (٣) .

وقال المروزي أيضا : سمعت أبا عبد الله يقول : نهى النبي ﷺ عن التبتل فمن رغب عن فعل النبي ﷺ فهو على غير الحق ، ومن رغب عن فعل أصحاب النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار فليس هو من الدين في شيء ، قال النبي ﷺ : " إني مكاثر بكم الأمم " ويعقوب في حزنه قد تزوج وولد له ، والنبي ﷺ قال : " حب إلي النساء " وأصحاب الرسول ﷺ تزوجوا . قلت : إنهم يقولون : قد ضاق عليهم الكسب من وجهه ، فقال : إن النبي ﷺ قد زوج على خاتم لمن ليس عنده شيء قلت : وعلى سورة ، قال : ينبغي أن يتزوج الرجل ، فإن كان عنده أنفق عليها ، وإن لم يكن عنده صبر ، قلت : أنتم تقولون لي : إن لم أجد ما أنفق أطلق وقع لي عمل ، وكان مهرها ألف درهم وليس عندي شيء فضحك ثم قال :

(١) تلبس إبليس ص ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨ .

(٣) كتاب الورع لأبي بكر أحمد بن محمد المروزي ، ت سمير بن أمين الزميري ط ١ ، الرياض (دار الصميعة)

تزوج على خمسة دراهم ، ابن المسيب زوج ابنته على درهمين ، قلت : لا يرضى أهل بيتي أن أتزوج على خمسة دراهم ، قال : ها جئتني بأمر الدنيا فهذا شيء آخر ، قلت : إن إبراهيم بن أدهم يحكى عنه أنه قال : لروعة صاحب عيال ، فما قدرت أن أتم الحديث ، حتى صاح بي وقال : وقعنا في بنيات ^(١) الطريق ، انظر عافاك الله ما كان عليه محمد وأصحابه " ^(٢) .

وذكر ابن الجوزي ذلك ثم قال : واعلم وفقك الله : أنه لو رفض الأسباب شخص يدعي التزهد وقال : لا أكل ولا أشرب ولا أقوم من الشمس في الحر ، ولا أستدفي من البرد كان عاصيا بالإجماع .

وكذلك لو قال وله عائلة : لا أكتسب ورزقهم على الله تعالى ، فأصابهم أذى كان آثما ، كما قال ﷺ : " كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت " ^(٣) .

وقال يوسف عبد الهادي : " لما ذكر قوله (إبراهيم بن أدهم) لأحمد في النكاح قال : وقعت في بنيات الطريق ، ونقل أبو محمد الشعراني عن أحمد : كان إبراهيم بن أدهم يبيع ثيابه وينفقها على أصحابه ، وكانت الدنيا أهون عليه من ذلك العدد " ^(٤) .

ولعل إنكار الإمام أحمد لإبراهيم بن أدهم بسبب ما أثر من أقواله بأنه ينفر عن الزواج ، وذلك حينما قيل له : لو تزوجت ؟ قال : لو أمكنني أن أطلق نفسي لفعلت ^(٥) . وقال أيضا : " إذا تزوج الفقير فمثله مثل رجل قد ركب السفينة فإذا ولد له ولد قد غرق " ^(٦) .

ونجد من الصوفية في القرن الثالث الهجري قد سلكوا هذا المسلك ، حينما نفروا الناس عن الزواج بحجة الزهد في الدنيا ، ولعل ذلك راجع إلى سوء فهمهم للزهد .

(١) بنيات الطريق : بنيات تصغير بنات ، التي تختلف وتفترق ، فتأخذ في كل ناحية ، انظر لسان العرب ١٠/ ٢٢٠ ، وأراد به الإمام أحمد الإنكار على عدم تزوج إبراهيم بن أدهم .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة ، باب في صلة الرحم (ح ١٦٩٢) والإمام أحمد في المسند ١٦٠/٢ ، ١٩٣ ، انظر صيد الخاطر ص ٦٥ .

(٤) كتاب بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم ، ليوسف عبد الهادي ، تحقيق وتعليق الدكتور وصي الله بن محمد عباس ، ط ١ الرياض (دار الراية ١٤٠٩ هـ) ص ٨١ - ٨٢ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٣٩٧/٧ ، والبداية والنهاية ١٣٨/١٠ .

(٦) اللمع للطوسي ص ١٦٥ .

وهذا بشر بن الحارث لما قيل له : إن الناس يتكلمون فيك فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك للسنّة - يعني النكاح - فقال : قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنّة ، وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلادا على الجسر " (١) .

ولهذا ، لما قيل للإمام أحمد أن بشر بن الحارث قد مات ، قال : مات رحمه الله ، وما له نظير في هذه الأمة إلا عامر بن قيس فإن عامرا مات ولم يترك شيئا ، وهذا قد مات ولم يترك شيئا ، ثم قال : لو تزوج كان قد تم أمره (٢) .

وقال أبو سليمان الداراني : " ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته " وقال أيضا : " ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا من طلب معاشا ، أو تزوج امرأة ، أو كتب الحديث " (٣) .

أما سهل بن عبد الله التستري فيقول : " إياكم والاستمتاع بالنساء والميل إليهن فإن النساء مبعديات من الحكمة ، قريبات من الشيطان وهي مصايد وحظه من بني آدم ، فمن عطف إليهن بكلية فقد عطف على حظ الشيطان ، ومن حاد عنهن يئس منه ، وما مال الشيطان إلى أحد كميله إلى من استرق بالنساء ، وأن الشر معهن حيث كن ، فإذا رأيتم في وقتكم من قدر كن إليهن فأياسوا منه " (٤) .

فمن خلال النصوص السابقة نرى أن فيها تنفيرا عن الزواج ، وأنه من مخالفات الزهد في هذه الحياة ، أو من الموانع عن الوصول إلى ولاية الله حسب زعمهم ، إلا أن الإمام أحمد - رحمه الله - كان له موقف صحيح من أمر النكاح حيث شجع وحث الناس على الزواج متبعا ذلك سنة رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ، وبين بأن التبتل وترك الزواج ليس من أمر الإسلام في شيء .

ولا شك أن هذا الموقف موافق لما دل عليه الكتاب والسنة ، حيث أمر الله ﷻ بالنكاح فقال تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ

(١) عوارف المعارف ص ١٠٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٧/٧٣ .

(٣) عوارف المعارف ص ١٠٤ .

(٤) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ٢/٢٠٩ .

أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا . وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿١﴾ .

وبما أن النكاح من الأشياء التي أحلها الله ﷻ فهو من الطيبات ، وقد نهى الله ﷻ عن تحريم الطيبات في كتابه العزيز فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) .

ولقد حث الرسول ﷺ على الزواج في أحاديث كثيرة ، كما ورد عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « النكاح سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني ، وتزوجوا فإنني مكاتركم الأمم يوم القيامة ، ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء » (٣) .

وعن أبي هريرة ؓ قال : « ثلاثة حق على الله إعانتهم المجاهد في سبيل الله والناكح يريد أن يستعفف والمكاتب يريد الأداء » (٤) .

وعن سعد بن أبي وقاص ؓ أن النبي ﷺ قال : « لم أؤمر بالرهبانية » (٥) . وهذه الأحاديث وغيرها تبين بأن النكاح من الأمور التي أمر بها الله ﷻ ورسوله محمد ﷺ ، ورغب فيه الرسول ﷺ لأهميته وشرعيته ، ولهذا فكل من يدعو الناس إلى البعد عن الزواج والتنفير عنه يعتبر محادا لله ولرسوله ، وهذا ما حصل لبعض المتصوفة قد وقع في هذا المحذور فأصبح يدعو الناس إلى الهروب عن الزواج والبعد عنه مخالفين بذلك قول الله ﷻ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٦) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (٧) .

(١) سورة النساء ، الآيتان (٣ - ٤) .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٨٧) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في أبواب النكاح ٣٤٠/١ ، وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ١٤٩٦) .

(٤) أخرجه النسائي في النكاح ، باب معونة الله الناكح الذي يريد العفاف ٦١/٦

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٢٢٦/٦ ، والدارمي في النكاح ، باب النهي عن التبتل ١٣٢/٢ ، وابن حبان عن عائشة

بلفظ : « إن الرهبانية لم تكتب علينا » ، الإحسان ١٠٦/١ .

(٦) سورة الحشر ، الآية (٧) .

(٧) سورة الأحزاب ، الآية (٣٦) .

ومعارضين أيضا قول نبي الرحمة ﷺ : « فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا » ^(١) .

وتأكيدا على موقف الإمام أحمد من موضوع ترك النكاح فقد روى - رحمه الله - في مسنده قائلا ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن حصين عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو أنه تزوج امرأة من قريش فكان لا يأتيها ، كان يشغله الصوم والصلاة ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فذكر الحديث وفيه : « إن لكل عمل شرة ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك » ^(٢) .

وروى الإمام أحمد أيضا : ثنا يحيى بن سعيد ثنا جرير عن منصور عن مجاهد قال : دخلت أنا ويحيى بن جعدة على رجل من الأنصار عن أصحاب رسول الله ﷺ قال : ذكروا عند رسول الله ﷺ مولاة لبني عبد المطلب فقالوا : إنها تقوم الليل وتصوم النهار ، فقال رسول ﷺ : « لكني أنام وأصلي وأصوم وأفطر ، فمن اقتدى بي فهو مني ، ومن رغب عن سنتي فليس مني ، إن لكل عمل شرة ثم فترة ، فمن كانت فترته إلى بدعة فقد ضل ، ومن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى » ^(٣) . فهذان الحديثان ثابتان عن رسول الله ﷺ . وثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ^(٤) .

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ١/١ وأورده الألباني في صحيح ابن ماجه ١/١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨٨/٢ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٠٩/٥ .

(٤) سبق تخريجه ٢٩٠ .

١٠ - الخلوة والعزلة

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : كان أبي أصبر الناس على الوحدة ، لم يره أحد إلا في مسجد ، أو حضور جنازة ، أو عيادة مريض ، وكان يكره المشي في الأسواق ^(١) .
وكان الإمام أحمد يقول : أشتهي مالا يكون ، أشتهي مكانا لا يكون فيه أحد من الناس ، وكان يقول : رأيت الخلوة أروح لقلبي ^(٢) .

وقال أبو بكر المروزي : ذكرت لأبي عبد الله عبد الوهاب على أن يلتقيا فقال : أليس قد كره بعضهم اللقاء ؟ وقال : يتزين لي وأتزين له ، كفى بالعزلة علما ، الفقيه الذي يخاف الله ، وكان يرحمه الله يمنع من الدخول على الأمراء ويقول : الخلوة أنفع ^(٣) .

وقد تحدث بعض الأعلام الصوفية في القرن الثالث الهجري عن ظاهرة الخلوة والعزلة فقال سهل بن عبد الله التستري : " لا تصح الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله " ^(٤) .

وقال ذوالنون المصري : " لم أر شيئا أبعث على الإخلاص من الخلوة ، من أحب الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص " ^(٥) .

أما أبو القاسم الجنيد فيقول : من أراد أن يسلم له دينه ، ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس ، فإن هذا زمان وحشة ، والعاقل من اختار فيه الوحدة .. " ^(٦) .

ومن خلال النصوص السابقة نرى أن الإمام أحمد وبعض الأعلام الصوفية المتقدمين يتحدثون عن الخلوة والعزلة ، بل ويفعلون ذلك لا عن قصد الوحدة والانفراد والعزلة عن مخالطة الخلق ، ولا عن خلوة محدودة بالزمن كالخلوة الأربعينية ، - كما يفعلها بعض الصوفية - وإنما كانوا يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالا بالعلم والتعب ، وتفرغا للقلب ليشغل بما هو أسمى من القيل والقال ، ولم تكن العزلة تقطعهم عن جمعة ولا جماعة

(١) مناقب الإمام أحمد ص ٢٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٠ .

(٣) نفسه ص ٢٨١ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٠٣ .

(٥) نفسه ص ١٠٣ .

(٦) نفسه ص ١٠٤ .

ولا عيادة مريض ولا شهود جنازة ولا قيام بحق ، وإنما هي عزلة عن الشر وأهله ومخالطة المتعطلين .

ولكن قد لبس إبليس على جماعة من المتصوفة ، فمنهم من اعتزل في جبل كالرهبان يبيت وحده ، ويصبح وحده ففاته الجمعة وصلاة الجماعة ومخالطة أهل العلم ، وفاته السعي إلى المساجد والكسب الحلال ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو مخالف لتعاليم ديننا الحنيف .

وقد بوب الإمام النووي في كتابه (رياض الصالحين) بابا في فضل الخلطة فقال : " باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جمعهم وجماعتهم ومشاهد الخير ومجالس الذكر معهم وعيادة مريضهم ، وحضور جنازتهم ، ومواساة محتاجهم ، وإرشاد جاهلهم وغير ذلك من مصالحهم لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر على الأذى " (١) .

ثم قال موضحا : " واعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته هو المختار ، الذي كان عليه رسول الله ﷺ ، وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وكذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخبارهم ، وهو مذهب أكثر التابعين ومن بعدهم ، وبه قال الشافعي وأحمد وأكثر الفقهاء رضي الله عنهم أجمعين ، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ (٢) والآيات في معنى ما ذكرته كثيرة معلومة " (٣) .

أما من السنة فيشهد له حديث ابن عمر الصحيح : " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم " (٤) .

(١) رياض الصالحين للنووي ط ١٣ طبعة دار المأمون للتراث ص ٢٢٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٢) .

(٣) رياض الصالحين ص ٢٢٦ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الفتن ، باب الصبر على البلاء ٣٨٨/٢ ، وأحمد في المسند ٤٣/٢ ، ٣٦٥/٥ . وأورده

الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٣٧٣/٢ (٣٢٥٧) .

١١ - السياحة

قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ :

" سئل (أي الإمام أحمد) عن الرجل يسيح يتعبد أحب إليك أو المقام في الأمصار ؟

قال : قال : مالمساحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين " (١) .

أراد الإمام أحمد من هذه السياحة ، هي الظاهرة التي اتخذها بعض المتصوفة ديناً

وطريقاً إلى ولاية الله .

ولا شك أن هذا الأمر لم يؤثر عن رسول الله ﷺ ، ولا عن صحابته الكرام ، ومن

تبعهم بإحسان لأنهم كانوا على المسلك الصحيح ، مستمدين عقيدتهم من النبع الصافي

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وليس في ترك الأهل والأولاد والأوطان ، والهيام في كل

مكان نوع عبادة أو تقرب إلى الله تعالى ، إلا أن يكون سفر الإنسان وخروجه لغرض

مشروع كطلب العلم النافع ، والدعوة إلى الله على هدى وبصيرة ، أو الرحلة إلى بيت الله

الحرام لأداء مناسك الحج والعمرة ، فهذا أمر مطلوب ومشروع ، أو تكون السياحة والسير

في الأرض للاعتبار بسنة الله في الأمم أو غير ذلك من الفوائد العلمية والعملية فهي مما أرشد

الله ﷻ إليه في كتابه العزيز كما قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَرًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ

بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .

وقد وافق شيخ الإسلام ابن تيمية على موقف الإمام أحمد من السياحة التي يعنيها

بعض النساك حينما قال في فتاواه : " فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله

ورسوله ، ولا هو من دين الأنبياء ، بل قد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ

(١) مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانئ ١٧٦/١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٣٧) .

(٣) سورة غافر ، الآية (٢١) .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية (٢٠) .

وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴿١﴾ والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجبا تارة ومستحبا أخرى ، فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين ؟

وكذلك السياحة في البلاد لغير مقصود مشروع ، كما يعانيه بعض النساك أمر منهي عنه ، قال الإمام أحمد : ليست السياحة من الإسلام في شيء ، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين .

وأما السياحة المذكورة في القرآن من قوله : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ (٢) ومن قوله تعالى : ﴿ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ (٣) فليس المراد بها هذه السياحة المبتدعة " (٤) .

قال ابن كثير : بيان أن المراد بالسياحة الصيام ، واستدل بقول عبد الله بن مسعود وعائشة بأن سياحة هذه الأمة الصيام ..

ثم قال : وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، وهو ما روي أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة : أن رجلا قال : يارسول الله لي في السياحة ، فقال النبي ﷺ : سياحة أمي الجهاد ، وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة ، أخبرني عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : " أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله ، والتكبير على كل شرف " وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرون " .

ثم قال ابن كثير : وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض ، والتفرد في شواهد الجبال والكهوف والبراري ، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين " (٥) .

(١) سورة الرعد ، الآية (٣٨) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١١٢) .

(٣) سورة التحريم ، الآية (٥) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٦٤٢-٦٤٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ٣/٤٥٩ .

١٢- التغيير والاجتماع لسماع القصائد والمدائح

قال أبو بكر الخلال : حدثنا صالح بن علي الحلبي من آل ميمون بن مهران قال : سمعت أحمد بن حنبل وجعل الناس يسألونه عن التغيير حتى أتى منزله . وأخبرني محمد بن علي أن أبا بكر الأثرم حدثهم قال : سمعت أبا عبد الله يقول : التغيير هو بدعة محدثة .

وأخبرني يوسف بن موسى أنه سأل أبا عبد الله عن التغيير فقال : لا تسمعه ، قيل له هو بدعة ؟ قال : حسبك !

وأخبرني محمد بن أبي هارون ومحمد بن جعفر أن أبا الحارث حدثهم قال : سألت أبا عبد الله : ما ترى في التغيير أنه يرقق القلب ؟ فقال : بدعة ^(١) .

وقال أبو بكر الخلال أيضا : أخبرنا إسماعيل بن إسحاق الثقفي أن أبا عبد الله سئل عن سماع القصائد فقال أكرهه .

وأخبرني محمد بن موسى قال : سمعت عبدان الحذاء قال : سمعت عبد الرحمن المطيب قال : سألت أحمد بن حنبل قلت : ما تقول في أهل القصائد ؟ قال : بدعة لا يجالسون ^(٢)

ومن النصوص السابقة نفهم أن الإمام أحمد كان موقفه من الغناء موقفا صحيحا لما دل عليه الكتاب والسنة - كما سبق - ذلك أن التغيير أو الاجتماع لسماع القصائد والمدائح كما يفعله بعض المتصوفة كان أمرا محدثا ، ولذلك كرهه الإمام أحمد ، وكره أن يجالس من مارس ذلك ، لأنه لا يزيد إيمان الإنسان في شيء ؛ بل ينبت النفاق في القلب ^(٣) .

ولذا حكم يزيد بن هارون ^(٤) على صاحب التغيير بأنه فاسق ، حينما قال : " ما يغبر إلا فاسق ، ومتى كان التغيير ؟ " .

وقال عبد الله بن داود ^(١) : " أرى أن يضرب صاحب التغيير " ^(٢) .

(١) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ٢/٢٧٤-٢٧٥ ، وانظر أيضا : ذم ما عليه مدعو التصوف لابن قدامة المقدسي ، تحقيق زهير الشاوش ط ٣ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٤٠٤ هـ - ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ٢/٢٧٦ .

(٣) تليس إبليس ص ٢٨٠ .

(٤) يزيد بن هارون بن زاذي ، الإمام القدوة شيخ الإسلام الحافظ ، وقد روى عنه الإمام أحمد (ت ٢٠٦ هـ) ، انظر : سير أعلام النبلاء ٩/٣٥٨ ، وتاريخ بغداد ١٤/٣٣٧ .

ثم قال ابن قدامة : " والتغبير اسم لهذا السماع ، وقد كرهه الأئمة كما ترى ، ولم ينضم إليه هذه المكروهات من الدفوف والشابات فكيف به إذا انضمت إليه واتخذوه ديناً ؟ فما أشبههم بالذين عابهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ ^(٣) قيل : المكاء التصفير ، والتصدية التصفيق .

وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ^(٤) ومن المعلوم أن الطريق إلى الله ﷻ إنما تعلم من جهة الله تعالى بواسطة رسوله ﷺ ، فإن الله ﷻ رضي هادياً ومبيناً وبشيراً ونذيراً ، وأمر باتباعه ، وقرن طاعته بطاعته ، ومعصيته بمعصيته ، وجعل اتباعه دليلاً على محبته فقال ﷻ : ﴿ مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ^(٥) وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ^(٦) ثم قال ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٧) وأضاف ابن قدامة قائلاً : " ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ كان شقيقاً على أمته ، حريصاً على هدايتهم رحيماً بهم ، فما ترك طريقاً تهدي إلى الصواب إلا وشرعها لأمرته ، ودلهم عليها بفعله وقوله ، وكان أصحابه - رضوان الله عليهم - من الحرص على الخير والطاعة ، والمصارعة إلى رضوان الله بحيث لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا ساقبوا إليها .

فما نقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من صحابته أنه سلك هذه الطريقة الرديئة ، ولا سهر ليلة في سماع يتقرب به إلى الله ﷻ ، ولا قال : من رقص فله من الأجر كذا ، ولا

(١) عبد الله بن داود بن عامر بن ربيع الإمام الحافظ القدوة ، أبو عبد الرحمن (ت ٢١٣هـ) ، انظر : سير أعلام

النبلاء ٣٤٦/٩ ، وطبقات ابن سعد ٢٩٥/٧ .

(٢) ذم ما عليه مدعو التصوف ص ٧ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية (٣٥) .

(٤) سورة الأنعام ، الآية (٧٠) .

(٥) سورة النساء ، الآية (٨٠) .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية (٣٦) .

(٧) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

قال : الغناء لا يثبت النفاق في القلب ، ولا استمع الشبابة فأصغى إليها وحسنها ، أو جعل في استماعها وفعلها أجرا ، وهذا أمر لا يمكن مكابرتة .. " (١) .

والحق أن نقول : إن من سلك هذه الطريق فقد اتبع الهوى ، وهذا الذي ذمه الأئمة من سلف هذه الأمة وذمه العارفون بالله وبأمره من مشايخ الطريق ، ومجرد طيب القلب ليس دليلا على أنه إنما طاب بما يحبه الله ويرضاه ، بل قد طيب بما لا يحبه الله ولا يرضاه ؛ بل بما يكرهه ويسخطه ، لا سيما القلوب التي أشربت حب الأصوات الملحنة فإنها تطيب بما يثبت النفاق ، وإطلاق القول بأن الصوفي مع قلبه هو من جنس ما ذم به هؤلاء حتى جعلوا من أهل البدع ، لأنهم أحدثوا في طريق الله أشياء لم يشرعها الله ورسوله ﷺ .

وقد ذكر الخلال بإسناده عن عبد الرحمن بن مهدي ، وذكر هؤلاء فقال : " لا تجالسوهم ولا أصحاب الكلام ، وعليكم بأصحاب القماطر فإنهم بمنزلة المعادن والغواصين ، هذا يخرج درة ، وهذا يخرج قطعة ذهب ، وكان الشافعي سيئ الظن بالطائفتين شديد الطعن فيهم طائفة المتكلمين وأهل البدع من الصوفية ، وكلامه فيهما مشهور حتى قال : لو تصوف في أول النهار لم يأت نصف النهار إلا وهو أحمق .

وأما أئمة الصوفية أهل العلم والاتباع والتعبد بالكتاب والسنة فهم من ورثة الأنبياء وأئمة المتقين ، وكلماتهم دواء للقلوب ، وهم حجة على هؤلاء ، وكلامهم في الوصية باتباع الكتاب والسنة كثير ، مثل قول شيخهم أبي القاسم الجنيد : من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث فلا يقتدى به في هذا الشأن . وقوله : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ . وقول أحمد بن أبي الحواري : كل من عمل عملا بلا اتباع سنة فباطل عمله . ومثل هذا كثير (٢) .

(١) ذم ما عليه مدعو التصوف ص ٩ - ١٠ .

(٢) انظر : الكلام على مسألة السماع ص ٤٤٦ .

المبحث الثالث

موقف الإمام أحمد من أعلام التصوف

لقد عاصر الإمام أحمد - رحمه الله - جماعة من الزهاد ، وفئة من أعلام الصوفية المتقدمين ، الذين ظهرت فيهم بعض الأفكار الصوفية .

وقد ارتضى الإمام أحمد لكثير منهم على زهدهم ، وامتدح مسالك بعضهم ، وأثنى عليهم على مواعظهم وأقوالهم ، وألقى بالفتيا في الزهد والورع والعلم إليهم ، ومنع الناس عن الخوض فيهم ؛ إلا ما كان يحدث منهم في بعض المخالفات والمبالغات والانحرافات ، أو يتحدث عن الوسوس والخطرات .. فلم يقبل به الإمام أحمد لأن ذلك يحدث أحدثه أهل الوجد والعشق والخلوات ، وما تكلم فيها الصحابة والتابعون لهم بإحسان .

١- معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ)

كان معروف الكرخي شيخا من شيوخ بغداد ، واشتهر " بالزهد والعزوف عن الدنيا يغشاه الصالحون ، ويتبرك بلباقته العارفون ، وكان يوصف بأنه مجاب الدعوة ، ويحكى عنه كرامات " ^(١) حتى قال عنه إبراهيم الحربي : " قبر معروف الترياق المجرب .. (٢) " (٣) .

(١) انظر : تاريخ بغداد ١٣/١٩٩ ، وطبقات الحنابلة ١/٥٧ .

(٢) قال محقق سير أعلام النبلاء : " هذا الكلام لا يسلم لقائله ، إذ كيف يكون قبر أحد من الأموات الصالحين ترياقا ودواء للأحياء ، وليس ثمة نص من كتاب الله يدل على خصوصية الدعاء عند قبر ما من القبور ، ولم يأمر به النبي ﷺ ، ولا سنه لأمته ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا استحسنة أحد من أئمة المسلمين الذين يقتدون بقولهم ، بل ثبت النهي عن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها .. انظر : سير أعلام ٩/٣٤٣ .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده من طريق عبد الله بن نافع ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبرا عيدا ، وصلوا علي ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم " ٢/٣٦٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/٣٤٣ ، وصفة الصفوة ٢/٣٣٤ .

وجرى ذكر معروف الكرخي يوما في مجلس الإمام أحمد بن حنبل فقال واحد من الجماعة : هو قصير العلم ، فقال الإمام أحمد : أمسك عافاك الله ! وهل يراد من العلم إلا لما وصل إليه معروف ؟! ^(١) .

وهذه العبارة التي وردت على لسان الإمام أحمد في أكثر من مصدر " وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف ؟ " قد بينها الدكتور مصطفى حلمي قائلا :

" هنا يحتمل أحد أمرين :

الأول : وهو أن الإعجاب كان متبادلا بصفة حقيقية بين الشخصين ، فإن القاضي أبا يعلى يذكر أن معروفا وصف الإمام أحمد بعد أن رآه بأنه " فتى عليه آثار النسك " ^(٢) .

أما الاحتمال الثاني : فإنه مما يلفت نظر الباحث — الدكتور حلمي — كثرة الروايات التي تعبر عن المودة المتبادلة بينهما ، والتي قد تعني رغبة كلا الجانبين — الصوفية من ناحية والفقهاء من ناحية أخرى — إلى تضيق شقة الخلاف بينهما " ^(٣) .

ثم أضاف قائلا : " ولكن الاتجاه السلفي الأخير — ومن يعبر عنه الشيخ محمد حامد الفقي — ينقد بشدة بعض النصوص الواردة عن معروف الكرخي إما لأنها تتضمن أقوالا تخالف الأحاديث ، أو تحتوي على أحد مظاهر الشرك كوصف قبر معروف بأنه " الترياق المجرب " ^(٤) .

غير أن معروفا — من خلال الدراسة — كان زاهدا من زهاد بغداد مما جعل الإمام أحمد معجبا به ، وبالإضافة إلى ذلك أن معروفا كان حريصا على التمسك بعقيدة التوحيد الخالص منذ طفولته ، وذلك لرفضه عقيدة التثليث حينما حاول مؤدبه أن يلقنه إياها ، فقال: " بل هو الله أحد " ، وكان ملتزما بما عليه الكتاب والسنة حينما كان يبحث على العمل والأخذ بالأسباب ، الذي يحرص على امتثاله زهاد السلف الصالح ، وقد كان يقول : " طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق " ^(٥) .

(١) تاريخ بغداد ٢٠٢/١٣ ، وطبقات الأولياء ص ٢١٧ ، وطبقات الحنابلة ٣٨٢/١ ، وسير أعلام ٣٤٠/٩ .

(٢) طبقات الحنابلة ٣٨١/١ .

(٣) ابن تيمية والتصوف ص ١٧٧ .

(٤) نفسه ص ٣٧٨ .

(٥) طبقات الصوفية ص ٨٩ .

ولا شك أن هذا الموقف موافق لما ذهب إليه الإمام أحمد لأنه يأمر بالتوكل على الله ، ويحث على العمل والسعي في طلب الرزق الحلال ، وينكر من يخالف ذلك .
أما ظاهرة من ظواهر الشرك التي نقلت عنه فقد حدثت بعد وفاته فليست من معتقداته وتوجيهاته ، فلا وجه لنقد الشيخ محمد حامد الفقي — رحمه الله — للمعروف .

٢- بشر بن الحارث الحافي (ت ٢٢٧هـ)

كان بشر الحافي أحد الأعلام الصوفية المتقدمين ، وفاق أهل عصره في الورع والزهد ، وكان له علاقة طيبة مع إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ، وقد سئل الإمام أحمد عن مسألة في الورع فقال : أستغفر الله لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا أكل من غلة بغداد لو كان بشر بن الحارث صلح أن يجيبك عنه ، فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ، ولا من طعام السواد يصلح أن يتكلم في الورع ^(١) .

وجاءت — ذات يوم — أخت بشر الحافي إلى الإمام أحمد فقالت : إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا أفيجوز لنا الغزل في شعاعها ؟ فقال أحمد : من أنت عافاك الله تعالى ؟ فقالت : أخت بشر الحافي ، فبكى أحمد وقال : من يبتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلي في شعاعها .

وهذا دليل على ثناء الإمام أحمد على بشر الحافي وتقديره منه على علمه وورعه ، كما أن الإمام أحمد قد قام بزيارته حينما مرض ^(٢) .

ونرى في المقابل أن بشر الحافي قد أثنى أيضا على الإمام أحمد وقدر مكانته ، ذلك من خلال العبارات التي وردت على لسان بشر ، عندما طلب منه أصحابه أن يعلن تمسكه بعقيدة الإمام أحمد التي امتحن فيها — وهي مسألة خلق القرآن — فأجاب مقدرا مكانة الإمام أحمد " أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء ؟ " . ثم دعا له فقال : " حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه " ^(٣) .

(١) صفة الصفوة ٢/١٨٧-١٨٨ .

(٢) انظر : الآداب الشرعية ٢/٢٣٨-٢٣٩ .

(٣) مقدمة الجرح والتعديل ص ٣١٠ .

ويذكر لنا أبو نعيم الأصفهاني أن بشر الحارث قال : أدخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهباً أحمر وآل عليه ، فبلغ ذلك أحمد فقال : الحمد لله الذي أرضى بشر بما صنعناه " (١) .

فمن النصوص السابقة نرى أن الحب المتبادل بين الإمام أحمد بن حنبل وبشر الحافي كان مبنيًا على أسس متينة ، بسبب الاتفاق في بعض الآراء والاتجاهات المتمثلة في قضية الزهد والورع وغيرهما ، وذلك في تحري الأكل من المصدر الحلال ، والتورع الشديد من الشبهات ، ووقوفهما في وجه تيار الترف والبذخ في عصرهما ، واتخاذهما من الزهد والورع أداة للمعارضة والنقد والتصحيح .

فقد كان موقف الإمام أحمد — إذن — من بشر الحافي موقف الحب والتقدير ، إلا أن الإمام أحمد قد لا يتفق معه في بعض الأمور مثل مسألة ترك الزواج — لأنه مظهر من مظاهر التصوف — وتمنى الإمام أحمد أن لو كان بشر الحافي قد تزوج قبل موته .

ولهذا لما قيل للإمام أحمد مات بشر بن الحارث قال : مات رحمه الله وماله نظير في هذه الأمة إلا عامر بن عبد قيس فإن عامرا مات ولم يترك شيئا ، وهذا قد مات ولم يترك شيئا ، ثم قال : لو تزوج كان قد تم أمره (٢) .

ومن المعروف أن الإمام أحمد — كما سبق — كان يشجع ويحث الناس على الزواج اتباعا لسنة رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم ، وينكر العزوبية لأنها ليست من أمر الإسلام في شيء .

وقد تنبه بشر الحافي — في الواقع — لمسألة الزواج حيث أورد نصا يجعل الإمام أحمد أفضل منه بسبب أمور ثلاثة فيقول : " فضل علي بثلاث : يطلب الحل لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسه ، واتساعه للنكاح وضيقه منه ، وقد جعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسه " (٣) .

ولما قيل له : لم لا تتزوج ؟ وتخرج عن مخالفة السنة فقال : إني مشغول بالفرض عن السنة ، ولما زاد العتاب نحوه ، عثر في الكتاب على آية يتخذ منها سندا في ترك الزواج

(١) حلية الأولياء ٣٧٩/٨ .

(٢) تاريخ بغداد ٧٣/٧ .

(٣) قوت القلوب ٢٤١/٢ .

وهي : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ^(١) أي أنه خشي ألا يتمكن من أداء الحقوق الزوجية عليه فانصرف عن الزواج لهذا السبب ، ولكنه لم يكن مقلدا لرهبان النصارى ، ولم يكن امتناعه عن الزواج خروجاً عن مبادئ الإسلام أو رفضاً لتعاليمه ، وإنما كان يشعر في قرارة نفسه إنه ليس في حاجة إلى الزواج .

ونقول هنا مثل ما قاله الإمام أحمد : " لو تزوج كان قد تم أمره " . لأن النكاح أمر مشروع فقد أمر الله ﷻ به ، وحث عليه ، وحذر من أن يكون الفقر عائقاً من الإقدام على الزواج ، لأنه ﷻ تعهد بأن يغني الزوجين من فضله فقال تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَثْوَهُمْ مِنَ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) .

وفي الحديث الذي رواه علقمة قال رسول الله ﷺ : " من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " ^(٣) . وقال ﷺ : " تزوجوا الودود الولود فإنني مكاثركم بكم الأمم يوم القيامة " ^(٤) . وقال ﷺ أيضاً : " من كان موسراً فلم ينكح فليس منا " ^(٥) .

٣- أحمد بن أبي الخواري (ت ٢٣٠هـ)

هو الزاهد من أهل دمشق ، أحد الأعلام ، أصله من الكوفة .
وقد قال : سألني أحمد بن حنبل : متى مولدك ؟ قلت : في سنة أربع وستين ومائة ، قال : هي مولدي ^(٦) .

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٢٨) .

(٢) سورة النور ، الآيتان (٣٢ - ٣٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٦٧٣/٢ (ح ١٨٠٦) .

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٧٨/٧ .

(٥) أخرجه الدارمي في سننه ١٣٣/٢ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٨٥/١٢ .

وقد صحب الشيخ أبا سليمان الداراني ، وأخذ عن مروان بن محمد ، وأبي مسهر الغساني وطائفة ، ثم أقبل على العبادة والتأله ^(١) .

قال : " من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه " ^(٢) . وقال : " من عمل بلا اتباع سنة فعمله باطل . وقال : من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحب ، أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه " . وما ابتلى الله العبد بشيء أشد من الغفلة والقسوة " ^(٣) .

وذكر أبو نعيم أنه طلب العلم ثلاثين سنة فلما بلغ الغاية حمل كتبه إلى البحر فغرقها وقال : يا علم ، لم أفعل هذا لك تهاونا بك ، ولا استخفافا بحقك ، ولكن كنت أطلبك لأهتدي بك إلى ربي ، فلما اهتديت بك إلى ربي استغنيت عنك ^(٤) .

قال ابن الملقن معلقا على ذلك : " فإن قلت : هذه إضاعة مال ، قلت : لعله كان فيها شيء لا يرى تعديه إلى الغير ، وقد روى نحو هذا عن سفيان الإمام ، أنه أوصى بدفن كتبه ، وكان ندم على أشياء كتبها عن الضعفاء ، وقال : حملني عليها شهوة الحديث ، فكأنه لما عسر عليه التمييز بين الصحيح وغيره أوصى أن تدفن كلها ، أو أن هذا من باب إلقاء أهل السفينة الأموال رجاء النجاة .. " ^(٥) .

وقال أحمد بن أبي الحواري : قال لي أحمد بن حنبل : يا أحمد ! حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبي سليمان الداراني ، فقال أحمد : سبحان الله بلا عجب ، فقال أحمد بن حنبل : سبحان الله وطولها بلا عجب ! فقال أحمد بن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان يقول : إذا عقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت ، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علما ، فقام أحمد بن حنبل ثلاثا وقعد ثلاثا ، وقال : ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب من هذه إلي ...

ثم قال أحمد بن حنبل لأحمد بن أبي الحواري : صدقت يا أحمد وصدق شيخك ^(٦) .

(١) المرجع ٨٦/١٢ .

(٢) طبقات الصوفية ص ١٠١ .

(٣) طبقات الأولياء ص ٥٥ .

(٤) حلية الأولياء ٤/١٠ .

(٥) طبقات الأولياء ص ٥٦ .

(٦) الآداب الشرعية ٦٠/٢ .

وقال أحمد بن القاسم : سمعت أبا عبد الله ورجل يسأله من أهل الشام رجل غريب ، فذكر أن ابن أبي الحواري وقوما معه هناك يتكلمون بكلام قد وضعوه في كتاب ، ويستذكرونه بينهم ، فقال : ما هو ؟ قال : يقولون : المحبة لله أفضل من الطاعة ، وموضع الحب درجة كذا ، فلم يدعه أبو عبد الله يستتم كلامه ، وقال : هذا ليس من كلام العلماء ، لا يلتفت إلى من قال هذا ، وأنكر ذلك وكرهه ^(١) .

قلت : إن إنكار الإمام أحمد بن حنبل على ابن أبي الحواري راجع إلى كلامه في الوسواس وخطرات الصوفية ، لأنها لم يتكلم فيها الصحابة والتابعون ، وأكد ذلك ما قاله المروزي : سئل أبو عبد الله عن تكلم في الوسواس والخطرات ، فنهى عن مجالستهم ، وقال للسائل : احذرهم ، وقال : سمعت أبا عبد الله يقول : جاءني الأرمنيون بكتاب ذكر الوسواس والخطرات وغيره ، قلت : فأني شيء قلت لهم ؟ قال : قلت : هذا كله مكروه ، وقال في موضع آخر للمروزي : عليك بالعلم ، عليك بالفقه ^(٢) .

أما موقفه من الزهد فقد كان مشابها لموقف الإمام أحمد بن حنبل حينما قال : " إذا مرض قلبك بحب الدنيا وكثرة الذنوب فداوه بالزهد فيها ، وترك الذنوب " ^(٣) .

٤- حاتم الأصم (ت ٢٣٧هـ)

هو أبو عبد الرحمن ، حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي الأصم ، الزاهد القدوة الرباني ، الواعظ الناطق بالحكمة ، له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم ، كان يقال له : لقمان هذه الأمة ^(٤) .

اجتمع بالإمام أحمد بن حنبل ببغداد .

" قيل له : على ما بنيت أمرك في التوكل ؟ قال : على خصال أربع : علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي ، وعلمت أن عملي لا يعمل به غيري فأنا مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتي بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أني لا أخلو من عين الله فأنا مستحي منه " ^(٥) .

(١) الآداب الشرعية ٨٢/٢ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) طبقات الصوفية ص ١٠٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٨٤/١١ .

(٥) حلية الأولياء ٧٧/٨ ، وتاريخ بغداد ٢٣٧/٨ ، وطبقات الأولياء ص ١٤٧ .

" وجاء رجل إلى حاتم الأصم ، فقال : يا أبا عبد الرحمن أي شيء رأس الزهد
ووسط الزهد وآخر الزهد ؟ فقال : رأس الزهد الثقة بالله ، ووسطه الصبر ، وآخره
الإخلاص ، " (١) .

وقيل : إن أحمد بن حنبل خرج إلى حاتم ورحب به ، وقال له : كيف التخلص من
الناس ؟ قال : أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم ، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي أحدا
حقك ، وتحتمل منهم المكروه ولا تحمل أحدا منهم مكروها ، فأطرق أحمد ينكت بأصبعه
الأرض ثم رفع رأسه فقال : يا حاتم : إنها لشديدة ! فقال حاتم : وليتك تسلم وليتك تسلم
وليئك تسلم (٢) .

لقد كانت إجابة الإمام أحمد لحاتم الأصم صحيحة إنها لشديدة ، لأن في القول نوعا
من المبالغة في الدين وهي منهيّة في الإسلام .

ويبدو لي أن اجتماع الإمام أحمد مع حاتم الأصم كان الغرض منه التعلم والاستفسار
عن أمور الزهد في هذه الحياة ، لأن حاتم كان أحد الزهاد المشهورين في عصره .

ونعرف ذلك من خلال أقواله ، وقد كان يقول : " الوائق من رزقه من لا يفرح
بالغنى ، ولا يهتم بالفقر ، ولا يبالي أصبح في يسر أو عسر " (٣) . ويقول : " العباء علم من
أعلام الزهد ، فلا ينبغي لصاحب العباء أن يلبس عباء بثلاثة دراهم ونصف ، وفي قلبه
شهوة بخمسة دراهم ، أما يستحي من الله أن تجاوز شهوة قلبه عباءه ؟! " (٤) . ويقول أيضا :
" تعهد نفسك في ثلاثة مواضع : إذا علمت فاذا ذكر نظر الله إليك ، وإذا تكلمت فاذا ذكر سمع
الله إليك ، وإذا سكنت فاذا ذكر علم الله فيك " (٥) .

وهذه النصوص تدل على زهده وورعه وخوفه من الله تعالى .
وفهم حاتم الأصم للزهد موافق لما فهمه الإمام أحمد بن حنبل حينما سئل عنه
فأجاب بأنه " قصر الأمل " .

(١) حلية الأولياء ٧٩/٨ .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٨٧/١١ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٩٤ .

(٤) نفسه ص ٩٧ .

(٥) نفسه .

٥ - الحارث المحاسبي (٣٤٣هـ)

لقد كان الحارث المحاسبي أحد كبار الصوفية ، شديد الورع ، كثير العبادة ، متقشفا زاهدا ، إلى جانب فقهه وعلمه ، وتمكنه من الوعظ والإرشاد ، والترغيب والترهيب .. غير أن إمام أهل السنة أحمد بن حنبل كان له موقف منه في بعض كلامه ومنهجه وسلوكه . ولعل السبب في ذلك هو كلامه وبحثه في علم الكلام ، وإدخاله في كتبه ، أو عباراته - هو وأصحابه - في التقشف وشدة السلوك ، والمحاسبة الدقيقة ، التي لم يأت بها الشرع ، وأدلتنا على ذلك ما يلي :

قال الخطيب البغدادي : " وكان أحمد بن حنبل يكره لحارث نظره في الكلام وتصانيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه " ^(١) .

وقال أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال : " حذروا من الحارث أشد التحذير ، الحارث أصل البلية ، يعني في حوادث كلام جهنم ذاك جالسهم فلان وفلان وأخرجهم إلى رأي جهنم ما زال مأوى أصحاب الكلام حارث بمثالة الأسد المرباط انظر أي يوم يثب على الناس " ^(٢) .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي أثناء شرحه لحديث : " استفت قلبك وإن أفنك المفتون " ، وإنما ذم أحمد الحارث المحاسبي وغيره من المتكلمين على الوسواس والخطرات من الصوفية ، حيث كان كلامهم في ذلك لا يستند إلى دليل شرعي ، بل إلى مجرد رأي وذوق كما كان ينكر الكلام في مسائل الحلال والحرام بمجرد الرأي من غير دليل شرعي " ^(٣) .

وهذا السبب قد أشار إليه القاضي أبو يعلى أيضا فيقول : أنبأنا المبارك عن الحسن بن محمد الحافظ ، أخبرنا أبو عمر بن حيوية قال : حدثنا أبو محمد عبد الرحمن بن عبيد الله بن سعد الزهري حدثنا يعقوب إسحاق بن حية الأعمش قال : سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الوسواس والخطرات ؟ فقال : ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون " ^(٤) .

أما قول الإمام أحمد الذي لا يرى صحبة الحارث المحاسبي وأصحابه فقد ذكر ابن كثير بأن البيهقي قال : يحتمل أن أحمد كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد وإن كان

(١) انظر : تاريخ بغداد ٢١٤/٨ .

(٢) تلبس إبليس ص ٢٠٧ .

(٣) انظر : جامع العلوم والحكم ص ٢٢٣ .

(٤) طبقات الحنابلة ١١٣/١ ، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٢٣٢ .

زاهدا فإنه كان عنده شيء من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك ، أو كره صحبتهم من أجل لا يطبق سلوك طريقته وما هم عليه من الزهد والورع قلت : - القائل ابن كثير - بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف ، وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع ، والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر ^(١) .

ومن خلال النصوص السابقة يتبين لنا السبب في هجران إمام أهل السنة أحمد للزاهد الحارث المحاسبي ، ذلك أن الإمام أحمد كان حريصا على التقيد بالسنة وأقوال الصحابة ، لأن منهجه يستند إلى هذا الأساس ، ويسعى إلى عدم التعمق والتشدد الذي قد يؤدي إلى الاختلاف .

ويظهر لنا أن الذين حذروا من الحارث بسبب قوله ونشره علم الكلام ، وكذلك حذروا من يعلمون أنهم لا يستطيعون الثبات على مثل سلوكه وصحبته لشدة طريقته ، وإن كان ابن الجوزي يفسر موقف ابن حنبل فيها بالتمسك بالسنة والنهي عن البدعة فيقول : " وقد كان الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل لشدة تمسكه بالسنة ، ونهيه عن البدعة ، يتكلم في جماعة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنة ، وكلامه ذلك محمول على النصيحة في الدين " ^(٢) .

ولكن الحارث المحاسبي - رغم ما قيل عنه بأن له انحرافا في التصوف - كان بعيدا عن شطحات الأقوال والأحوال ، التي صدرت من بعض أعلام الصوفية . قال السراج الطوسي : " وبلغني عن أبي حمزة إنه دخل دار الحارث المحاسبي ، فصاحت الشاة ماع ، فشقق أبو حمزة شهقة ، وقال : لبيك يا سيدي ، فغضب الحارث وعمد إلى سكين ، وقال : إن لم تتب من هذا الذي أنت فيه أذبحك " ^(٣) .

وبذلك نقول : بأن الحارث المحاسبي لم يكن تصوفه كغيره في الغلو والانحراف ، بل كان كثيرا ما يشير إلى وجوب الالتزام بالكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة ^(٤) ، وقد ينكر على بعض متصوفة عصره وعلى انحرافاتهم ، فذكر أنواعا من غرورهم بما عندهم ، وعدم مطابقة أقوالهم وقال بعد كلام طويل عنهم : " وإنما أطلت الوصف في هذه الفرقة لأنها

(١) مناقب الإمام أحمد ص ١٨٥ - ١٨٦ ، وانظر : البداية والنهاية ٣٣٠/١٠ ، وطبقات الشافعية ٢/٢٧٩ .

(٢) مناقب الإمام أحمد ص ١٥٨ .

(٣) اللمع للطوسي ص ٤٩٥ ، وتلبس إبليس ص ٢١٠ .

(٤) رسالة المسترشدين ص ٣٦ .

عظيمة غرقها ، قد غلب ذلك على كثير ممن يتعبد ويرى أنه من النساك العاملين لله ﷻ (١) .

كما يرد على الذين يقعد بهم توكلهم إلى التواكل ، وترك الكسب والعمل مثل شقيق البلخي الذي زعم أن الحركة في الكسب معصية ، كما يرد على من زعم أن القعود وترك العمل أفضل من الحركة .. ثم يعرض لأقوال العلماء في مسائل علمية كثر الجدل حولها مثل الورع وحده ، والعزلة عن الناس و مجانبة الشبهة وجوائز السلطان وغير ذلك (٢) .

٦- سري السقطي (ت ٢٥٣ أو ٢٥٦هـ)

كان سري بن المغلس السقطي تلميذ معروف الكرخي ، وخال الجنيد وأستاذه ، وهو ممن نطق بعلوم الصوفية ، وعبر عن مواجيدهم ، ونشر مقاماتهم ، ووصف أحوالهم (٣) .

وقد تأثر بإمام أهل السنة أحمد بن حنبل في أمر الزهد والورع ، حيث كان يتحرى الحلال ، حتى اشتهر بخصائص ثلاثة كما أشار بذلك أبو نعيم في الحلية ؛ فقد أخرج بسنده إلى أبي علي الحسن البزار الذي يقول : " سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن السري بعد قدومه من الثغر ، فقال أبو عبد الله : أليس الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء ؟ قلت : بلى ، قال : هو على سيره عندنا قبل أن يخرج ، وقد كان السري يعرف بطيب الغذاء ، وتصفية القوت ، وشدة الورع ، حتى انتشر ذلك عنه ، وبلغ ذلك أن أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال : الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء " (٤) .

وبدت نظرية الزهد عنده في الزهادة في الدنيا ، والعزلة والوحدة حيث كان يقول : " من أراد أن يسلم دينه ، ويستريح قلبه وبدنه ، ويقل غمه فليعتزل الناس ، لأن هذا زمان

(١) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٤٥٥ .

(٢) انظر : الكسب للمحاسبي ص ٦١ - ٦٤ ، والمسائل في أعمال القلوب والجوارح ص ١٦٣ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٤٨ ، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١ ، والرسالة القشيرية ص ٤١٧ .

(٤) حلية الأولياء ١٣٠/١٠ .

عزلة ووحدة " (١) . ولأن الدنيا كلها فضول " إلا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره ، وبیت يسكنه ، وعلم يستعمله " (٢) .

وكان السقطي حريصا على اتباع السنة ، حيث كان يحرص على الجمعة والجماعة ، ويقول : " قليل في سنة خير من كثير مع بدعة " (٣) . وإلى جانب حرصه على اتباع السنة فهو يتحرى طيب الغذاء فيقول : " أشتهي أن أكل أكلة ليس لله فيها علي تبعة ، ولا أحد علي فيها منة ، فما أجد إلى ذلك سبيلا " (٤) .

فهو في هذه العبارة يتفق مع الإمام أحمد بن حنبل في مبدأ الحلال والورع ، ويعتبر ذلك أساس الزهد وتركية القلوب تمثلا بأهل الورع السابقين ، لأنهم فرعوا إلى التقليل إذا ضاقت عليهم الأمور .

وكان السقطي يذهب أيضا مثل ما ذهب إليه الإمام أحمد في التوكل على الله ﷻ ، وهذا ما جعل الزهاد يضعون السقطي في مصاف الإمام أحمد وبشر الحافي . ومع هذا الإمام أحمد والسري السقطي ؛ وما رأينا من الإمام أحمد أنه يمدحه ويصفه بطيب المطعم فإننا نجد الإمام أحمد ينكر على بعض كلام السقطي ، لا لإسقاط محاسنه وإظهار عيوبه ، وإنما لبيان الصواب ، والدفاع عن العقيدة الصحيحة .

وبيان ذلك ما ذكره الإمام ابن الجوزي قائلا : " نحن نذكر بعض ما بلغنا من أغلاط القوم والله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلا تزيه الشريعة ، والغيرة عليها من الدخل وما علينا من القائل والفاعل ، وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم ، وما زال العلماء يبين كل واحد منهم غلط صاحبه قصدا لبيان الحق لا لإظهار عيب الغالط ... " (٥) .

ثم قال رحمه الله : " وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يمدح الرجل ويبالغ ثم يذكر غلطه في الشيء بعد الشيء وقال : نعم الرجل فلان لولا أن خلة فيه ، وقال عن السري

(١) طبقات الصوفية ص ٥٠ .

(٢) حلية الأولياء ١٢٣/١٠ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٥٢ ، وصفة الصفوة ٢/٢١٢ ، ٢١٦ .

(٤) حلية الأولياء ١٢٠/١٠ ، ووفيات الأعيان ١/٢٨٣ .

(٥) تلبيس إبليس ص ٢٠٩ .

السقطي : الشيخ المعروف بطيب المطعم ، ثم حكى له عنه أنه قال : إن الله ﷻ لما خلق الحروف سجدت الباء فقال : نفروا الناس عنه " (١) .

وذكر ابن حجر العسقلاني - بعد أن ترجم لسري السقطي - قائلا : " فقرأت في كتاب " الحروف " ليعقوب الحنبلي من تلامذة أبي يعلى الفراء أن أحمد بن حنبل بلغه أن السري قال : لما خلق الله الخلق سجدت الألف ، وقال : لا أسجد حتى أوامر ، فقال أحمد: هذا كفر " (٢) .

قلت : إن صح ما ذكره ابن الجوزي وابن حجر العسقلاني فلعل إنكار الإمام أحمد على منهج السقطي في تأويل القرآن ، حيث سلك المنهج الصوفي في فهم الحروف من كتاب الله ﷻ ، وقد نهج هذا المنهج غيره من الصوفية في القرن الثالث الهجري كسهل بن عبد الله التستري وأبي سعيد الخراز .

ودليلنا على ذلك ما ذكره السراج الطوسي فيقول : " إن جميع ما أدركته العلوم ، وأحقته الفهوم ما عبر عنه وما أشير إليه مستنبط من حرفين من أول كتاب الله وهو قول بسم الله ، والحمد لله ، لأن معناه بالله والله ، والإشارة في ذلك أن جميع ما أحاط به علوم الخلق وأدركه فهمهم ، فليست هي قائمة بذواتها إنما هي بالله والله " (٣) .

ثم ذكر الطوسي : " أن سهل بن عبد الله قال : الألف أول الحروف وأعظم الحروف وهي الإشارة في الألف ، أي الله الذي ألف بين الأشياء وانفرد عن الأشياء " (٤) . كما أشار إلى تفسير أبي سعيد الخراز حين يقول : " كلما بدا حرف من الأحرف من كتاب الله ﷻ على قدر قربك وحضورك عنده ، فله مشرب وفهم غير مخرج الفهم الآخر ، فإذا سمعت بقوله : " آلم ذلك . فالألف علم يظهر في الفهم غير ما يظهر اللام ، وعلى قدر المحبة وصفاء الذكر ووجود القرب يقع التفاوت والفهم " (٥) .

(١) نفسه .

(٢) لسان الميزان ١٨/٣ .

(٣) اللمع للطوسي ص ١٢٤ .

(٤) نفسه ص ١٢٥ .

(٥) نفسه .

٧- أبو حمزة البغدادي الصوفي (ت ٢٨٩هـ)

هو " شيخ الشيوخ ، أبو حمزة ، محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي ، جالس بشرا الحافي ، والإمام أحمد ، وصحب السري بن المغلس " ^(١) ، وكان أول من تكلم ببغداد في المحبة والشوق ، والقرب والأنس على رؤوس الناس ^(٢) .

قد جالسه الإمام أحمد حينما رأى تصوفه لم يصرفه عن تلقي العلم ، لكونه بصيرا بعلم القراءات ، كثير الرباط والغزو ^(٣) .

وكان إذا جرى في مسألة شيء من كلام القوم والإمام أحمد حاضر التفت الإمام أحمد إلى أبي حمزة الصوفي ، وقال : ما تقول في هذه المسألة يا صوفي ؟ ^(٤) غير أن الإمام أحمد لم يكن يهدف بسؤاله الاستفسار عما يجمله بقدر ما يورد تصحيح الرأي الذي يذهب إليه هذا الصوفي ، وهذا ما ذهب إليه القاضي أبو يعلى في تعليقه على الخبر فيقول : " أراد - والله أعلم - بسؤال إن أصاب أقره عليه ، وإن أخطأ بينه له " ^(٥) .

وفي الحقيقة أن أبا حمزة قد تكلم بعبارة معبرة عن علمه ومتابعته للرسول ﷺ حينما قال : " من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله " ^(٦) .

ولكنه قد تكلم أيضا بكلام فيه انحراف وشطح له تأويل ، كما ذكر ذلك الإمام الذهبي فقال : ففي الحلية عن الواحد بن بكر ، حدثنا محمد بن عبد العزيز سمعت أبا عبد الله يقول الرملي يقول : تكلم أبو حمزة في جامع طرسوس فقبلوه ، فصاح غراب ، فزقق أبو حمزة : لبيك لبيك ، فنسبوه إلى الزندقة ، وقالوا : حلوي ، وشهدوا عليه ، وطرده ، وبيع فرسه - بالمنادة على باب الجامع - هذا فرس الزنديق ^(٧) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/١٦٥-١٦٦ .

(٢) تاريخ بغداد ١/٤٠٧ ، والمنتظم لابن الجوزي ١٢/٢٢٦ .

(٣) كشف المحجوب ١/٣٦٥-٣٦٦ . وسير أعلام ١٣/١٦٦ .

(٤) تاريخ بغداد ١/٤٠٧ ، وطبقات الصوفية ص ٢٩٧ ، وطبقات الأولياء ص ١٢٧ .

(٥) طبقات الحنابلة ١/٢٦٨ .

(٦) طبقات الصوفية ص ٢٩٥ ، والرسالة القشيرية ص ٣٩٥ .

(٧) حلية الأولياء ١٠/٣٢١ ، وتلبس إبليس ص ٢١٠ .

وقال أبو علي الروذباري : " أطلق على أبي حمزة أنه حلولي وذلك أنه كان إذا سمع صوتا مثل هبوب الرياح وخرير الماء وصياح الطيور كان يصيح ويقول : لبيك لبيك فرموه بالحلول " (١) .

وقال أبو نصر السراج : " بلغني أنه دخل على الحارث المحاسبي ، فصاحت شاة : ماع فشقق ، وقال : لبيك لبيك يا سيدي ، فغضب الحارث ، وأخذ السكين ، وقال : إن لم تتب أذبحك " (٢) .

وبناء على ذلك فإن كان أبو حمزة الصوفي قد جالس الإمام أحمد وسمح به لكونه متعلما ؛ ولا يعني أن الإمام أحمد بن حنبل أقر بشطحه وانحرافاته .
فلو أن الإمام أحمد سمع ذلك منه لصححه ، لأنه معروف بحرصه على أن يكون الإنسان على معتقد السلف الصالح ، ولو سمع مثلما سمع الحارث المحاسبي لأنكر ذلك مثله .
إذن فالإمام أحمد لم يكن مقرا بالفكر الصوفي عند أبي حمزة ، بينما يقره بأنه صوفي ، وهو دليل أيضا على وجود التصوف في عصر الإمام أحمد - رحمه الله - .

(١) تلبس إبليس ص ٢١٠ .

(٢) اللمع للطوسي ص ١٩٥ ، وسير أعلام ١٣/١٦٧ .

المبحث الرابع

بطلان الروايات المنسوبة إلى الإمام أحمد في التصوف

١- الأبدال

إن كلمة " الأبدال " مصطلح من مصطلحات الصوفية ، التي اخترعها بعضهم ليرتبوا بها طبقاتهم ، وهذه الكلمة قد روى عنها الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ، وروى عنها غيره كذلك ، وورد أن الإمام أحمد قد تكلم بهذا المصطلح ، ونسب إليه أنه من الأبدال .

لذا ، لا بد من الحديث - أولاً - عن معنى الأبدال

فإذا بحثنا في " القاموس المحيط " : نجد أن " الأبدال قوم بهم يقيم الله ﷻ الأرض ، وهم سبعون : أربعون بالشام ، وثلاثون بغيرها ، لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس " (١) .

وفي " المعجم الوسيط " : " لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك عندهم " (٢) . وفي " مختار الصحاح " : " الأبدال قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ، إذا مات منهم أحد أبدل الله مكانه آخر " (٣) .

وفي " التعريفات " قال الجرجاني : " البدلاء هم سبعة رجال ، من سافر من موضع وترك جسدا على صورته حيا بحياته ، ظاهرا بأعمال أصله بحيث لا يعرف أحد أنه فقد ، فذلك هو البدل لا غير " (٤) .

وقال ابن الأثير : " أبدال الشام هم الأولياء والعباد ، الواحد بدل كجمل ، أو بدل كحمل ، سمو بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد بدل بآخر " (٥) .

وقال ابن عربي : " إن ثم رجلا سبعة يقال لهم الأبدال ، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل بدل إقليم ، وإليهم تنظر روحانيات السماوات والأرض " (٦) .

(١) القاموس المحيط ، مادة (بدل) .

(٢) المعجم الوسيط ، مادة (بدل) .

(٣) مختار الصحاح لمحمد الرازي ، مادة (بدل) .

(٤) التعريفات ص ٣٤ .

(٥) النهاية في غريب الحديث ، مادة (بدل) .

(٦) الفتوحات المكية ٣٧٦/٢ .

فهذه بعض التعريفات للأبدال ، وأسوق بعض الأخبار والروايات التي تتحدث عن هذه الكلمة .

قال عبد الله بن الإمام أحمد :

" حدثني أبي ثنا أبو المغيرة ثنا صفوان حدثني شريح - يعني ابن عبيد - قال : ذكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب عليه السلام وهو بالعراق ، فقالوا : العنهم يا أمير المؤمنين ، قال : لا إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث ، وينتصر بهم على الأعداء يصرف عن أهل الشام بهم العذاب " ^(١) .

هذا الحديث قال عنه أحمد شاكر : " إسناده ضعيف لا انقطاعه ، شريح بن عبيد الحضرمي الحمصي لم يدرك عليا بل لم يدرك إلا بعض متأخري الوفاة من الصحابة " ^(٢) . وقال الألباني : " ضعيف " ^(٣) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في حديث آخر :

" حدثني أبي ثنا عبد الوهاب بن عطاء أنا الحسن بن ذكوان عن عبد الواحد بن قيس عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، كلما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلا " قال أبي رحمه الله : فيه - يعني حديث عبد الوهاب - كلام غير هذا ، وهو منكر ، يعني حديث الحسن بن ذكوان " ^(٤) .

الحديث قد حكم عليه الإمام أحمد بأنه منكر وهو راويه .

وقال عنه الألباني : " ضعيف " ^(٥) .

وحديث ثالث لعبادة بلفظ : " الأبدال من أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض ، وهم تمطرون وبهم تنصرون " رواه الطبراني ، وقال الهيثمي : " من طريق عمر ، والبخاري

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ١١٢ .

(٢) التعليق على المسند ١٧١/ ٢ (ح ٨٩٦) .

(٣) ضعيف الجامع الصغير (ح ٢٢٦٦) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٣٢٢ .

(٥) ضعيف الجامع الصغير (ح ٢٢٦٩) .

عن عنبسة الخواص وكلاهما لم أعرفه " (١) .

وقال الألباني : " ضعيف " (٢) .

وحديث رابع في الأبدال من حديث ابن مسعود بلفظ " لا يزال أربعون رجلا من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم ، يدفع الله بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال : إنهم لم يدركوها بصلاة ولا صوم ولا صدقة ، قالوا : يا رسول الله فبم أدركوها ؟ قال : بالسخاء والنصيحة للمسلمين " .

قال الهيثمي : " رواه الطبراني من رواية ثابت بن عياش الأحذب عن رجاء الكلبي وكلاهما لم أعرفه " (٣) .

وقال الألباني : " ضعيف جدا " (٤) . فهذه بعض الأحاديث التي تتحدث عن الأبدال ، وهي أحاديث ضعيفة .

ثم وجدنا بعض الروايات التي تدل على أن الإمام أحمد استخدم كلمة " الأبدال " على بعض الصوفية ، الذي تقابل مع الإمام أحمد .

الرواية الأولى : ما رواها الخطيب البغدادي فقال : " أخبرنا عبد العزيز بن علي الوراق حدثنا علي بن عبد الله بن الحسن الهمداني حدثنا القاسم بن الحسن بن جرير حدثنا محمد بن أبي عتاب عن محمد بن المثني قال : قلت لأحمد بن حنبل ما تقول : في هذا الرجل ؟ فقلت له بشر ، فقال لي : سألتني عن رابع سبعة من الأبدال ، أو عامر بن عبد قيس ، ما مثله عندي إلا مثل رجل ركز رحا في الأرض ، ثم قعد منه على السنان ، فهل ترك لأحد موضعا يقعد فيه ؟ " (٥) .

قلت : في السند رجل صوفي ، وهو علي بن عبد الله بن الحسن بن جهضم الهمداني (ت ٤١٠ هـ) قال الذهبي عنه : " شيخ الصوفية بالحرم لقد أتى بمصائب في كتاب " بهجة

(١) مجمع الزوائد ٦٣/١٠ .

(٢) ضعيف الجامع الصغير (ح ٢٢٦٧) .

(٣) مجمع الزوائد ٦٣/١٠ .

(٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (ح ١٤٧٨) .

(٥) تاريخ بغداد ٧٢/٧ - ٧٣ .

الأسرار " يشهد القلب ببطلانها ، ثم قال الذهبي : ليس بثقة ؛ بل متهم يأتي بمصائب ، وقال ابن خيرون : قيل : إنه يكذب ^(١) .

فالرواية - إذن - في سندها ضعف وهو رجل صوفي متهم بالكذب .

الرواية الثانية : ما ذكره ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد : " قال الخلال وثنا أبو بكر المروذي قال : قدم رجل من الزهاد فأدخلته على أبي عبد الله وعليه فروة خلق ، وعلى رأسه خريقة ، وهو حاف في برد شديد ، فسلم عليه فقال له : يا أبا عبد الله ! قد جئت من موضع بعيد ، وما أردت إلا السلام عليك ، وأريد عبادان ؛ وأريد إن أنا رجعت أمر بك وأسلم عليك ، فقال له أبو عبد الله : إن قدر ، فقام الرجل فسلم وأبو عبد الله قاعد ، قال المروذي : ما رأيت أحدا قط قام من عند أبي عبد الله حتى يقوم أبو عبد الله إلا هذا الرجل ، فقال لي أبو عبد الله : ما ترى ما أشبهه بالأبدال ، أو قال إني لأذكر به الأبدال ، فأخرج إليه أبو عبد الله أربعة أرغفة مشطورة بكافخ ؛ وقال : لو كان عندنا لواسيناك " ^(٢) .

هذه الرواية وإن كانت في سندها تلميذ للإمام أحمد بن حنبل لا تعني أن الأبدال عند الإمام أحمد هم المعترفون بالأبدال الأربعين أو السبعين .. عند المتصوفة ؛ وإنما يعني لفظ الأبدال بالزهاد كما هو واضح من الرواية المذكورة ، أو أن الإمام أحمد - رحمه الله - ذكر ذلك إما أثرا لها عن غيره أو ذاكرا كما يفعله في مسنده ، لم يقر الإمام أحمد بهذا المصطلح الذي اخترعه بعض الصوفية في تصنيف طبقاتهم وأوليائهم .

ومن جملة القول فقد أورد الإمام ابن الجوزي أحاديث الأبدال في كتاب " الموضوعات " وعلق عليها بعد سردها بأسانيدھا فيقول : " ليس في هذه الأحاديث شيء يصح " ^(٣) .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " وكذا كل حديث يروي عن النبي ﷺ في عدة الأولياء ، والأبدال ، والنقباء ، والنجباء ، والأوتاد ، والأقطاب ، مثل أربعة ، أو سبعة ، أو اثني عشر ، أو القطب الواحد ، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ ، ولم ينطق

(١) سير أعلام النبلاء ١٧/٢٧٥ - ٢٧٦ ، وانظر : ميزان الاعتدال ٣/١٤٣ ، ولسان الميزان ٤/٢٣٨ .

(٢) مناقب الإمام أحمد ص ١٤٧ .

(٣) كتاب الموضوعات ٣/١٥٢ .

السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ " الأبدال " . وروى فيه أنهم أربعون رجلا وأنهم بالشام ، وهو في " المسند " من حديث علي ، وهو حديث منقطع ليس بثابت " (١) .

ويقول أيضا : إن الأبدال الأربعين رجلا كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلا ، بأن هذه الأسماء لا توجد في كلام السلف ، كما هي على هذا الترتيب ، ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً تاماً ؛ وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ ، وقد قالها إما آثراً لها عن غيره أو ذاكرة .

" وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله ، ومن الباطل ما يوجب رده ، وصار كثير من الناس على طرفي نقيض .

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل ، وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق ، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل ، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي ﷺ عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة " (٢) .

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٣ - ١٤ . ومجموعة الرسائل والمسائل ٥٧/١ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤٣٤/١١ .

٢- القول بعلم الحقائق

قال ابن الجوزي : " وقد كان الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل لشدة تمسكه بالسنة ، ونهيه عن البدعة ، يتكلم في جماعة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنة ، وكلامه ذلك محمول على النصيحة للدين .

ثم قال : " أخبرنا أبو منصور القزاز ، أنا أحمد بن علي بن ثابت ، قال : أخبرني محمد بن أحمد بن يعقوب ، قال : أنا محمد بن نعيم الضبي ، قال : سمعت أبا بكر أحمد بن إسحاق الصبغي يقول : سمعت إسماعيل بن إسحاق السراج يقول : قال لي أحمد بن حنبل يوماً : بلغني أن الحارث هذا - يعني المحاسبي - يكثر الكون عندك فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث لا يراني فأسمع كلامه ؟ فقلت : السمع والطاعة لك يا أبا عبد الله ! وسرني هذا الابتداء من أبي عبد الله ، فقصدت الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة ، فقلت : وتساءل أصحابك أن يحضروا معك ، فقال : يا إسماعيل فيهم كثرة فلا تردهم على الكسب والتمر وأكثر منهما مهما استطعت ، ففعلت ما أمرني به ، وانصرفت إلى أبي عبد الله وأخبرته ، فحضر بعد المغرب وصعد غرفة في الدار ، واجتهد في ورده إلى أن فرغ .

وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا ، ثم قاموا لصلاة العتمة ولم يصلوا بعدها ، وقعدوا بين الحارث وهم سكوت لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل ، وابتدأ واحد منهم وسأل الحارث عن مسألة فأخذ في الكلام وأصحابه يستمعون كأن على رؤوسهم الطير ، فمنهم من ييكي ، ومنهم من يحنّ ، ومنهم من يزرق ، وهو في كلامه ، فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبد الله ، فوجدته قد بكى حتى غشي عليه ، فانصرفت إليهم ، ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا فقاموا وتفرقوا ، فصعدت إلى أبي عبد الله وهو متغير الحال ، فقلت : كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل ، وعلى ما وصفت من أحوالهم فلا أرى لك صحبتهم ، ثم قام وخرج " (١) .

التعليق :

إذا نظرنا في النص من حيث السند ففيه محمد بن نعيم الضبي فهو مجهول الحال ، غير أن الإمام الذهبي أورد هذه الحكاية في الميزان ، من طريق الحاكم ثم قال : إسماعيل وثقه

(١) مناقب الإمام أحمد ص ١٨٥ - ١٨٦ .

الدار قطني ، وهذه حكاية صحيحة السند ، منكرة لا تقع على قلبي ، أستبعد وقوع هذا من مثل أحمد .

وأما المحاسبي فهو صدوق في نفسه ، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه ^(١) .
وأما من حيث المتن والموضوع فأقول : أستبعد أيضا حدوث ذلك من الإمام أحمد حتى وإن دل ذلك على إنكاره للأعمال التي صدرت من المحاسبي وأصحابه ، وأتساءل لم اختبأ الإمام أحمد منهم ؟ وما الذي يمنعه أن يخرج إليهم فيكلمهم أو ينصحهم ؟ وهو إمام جليل له موقفه المشهور في الذب عن السنة والدفاع عنها ، وإلقاء النصيحة والتوجيه ، والذي لا يخاف في الله لومة لائم ! ولم لم يخرج لصلاة العشاء مع الجماعة ؟ ! وما معنى علم الحقائق في النص ، الذي جاء ذكره في كلام الإمام أحمد ، وهل كان الإمام يقسم العلوم إلى الحقائق والمجازات ، والظاهر والباطن ؟
كلا إنما من بدع التصوف التي لم يتكلم عنها أهل الحق من سلف هذه الأمة ، فالحكاية المنسوبة إلى الإمام أحمد لا أظنها صحيحة وواقعة منه - رحمه الله - .

(١) ميزان الاعتدال ٤٣٠/١ .

٣- القراءة عند القبور وإهداء الثواب

لقد عزا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى الإمام أحمد بن حنبل بأنه قال : إذا ذهبتم إلى المقبرة فاقروا سورة الفاتحة ، وسورة الإخلاص ، والمعوذتين ، وأهدوا ثوابها للمقبورين فإن الثواب يصل إليهم ^(١) .

وهذا القول المنسوب إلى الإمام أحمد له شواهد من رواية أبي بكر الخلال حينما قال :

" أخبرني الحسن بن أحمد الوراق قال : حدثني علي بن موسى الحداد وكان صدوقا ، وكان ابن حماد المقرئ يرشد إليه ، فأخبرني قال : كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهري في جنازة ، فلما دفن الميت جلس رجل ضريحاً يقرأ عند القبر ، فقال له أحمد : يا هذا ! إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد بن حنبل : يا أبا عبد الله ! ما تقول في مبشر الحلبي ؟ قال : ثقة ، قال : كتبت عنه شيئا ؟ قلت : نعم قال : فأخبرني ، قلت : فأخبرني مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال : سمعت ابن عمر يوصي بذلك فقال أحمد : ارجع فقل للرجل يقرأ ^(٢) " ^(٣) .

" وأخبرنا أبو بكر بن صدقة قال : سمعت عثمان بن أحمد بن إبراهيم الموصلي قال : كان أبو عبد الله أحمد بن حنبل في جنازة ، ومعه محمد بن قدامة الجوهري قال : فلما قبر الميت جعل إنسان يقرأ عنده فقال أبو عبد الله لرجل : تمر إلى ذلك الرجل يقرأ فقل له : لا تفعل ، فلما مضى قال له محمد بن قدامة : مبشر الحلبي كيف هو ؟ فذكر القصة بعينها .

(١) فضائل صدقات ص ١١٥ ، نقلا عن جماعة التبليغ في شبه القارة الهندية ، للدكتور أبي أسامة سيد طالب

الرحمن ، ط ١ إسلام آباد (دار البيان للنشر والتوزيع) ص ٢٢٨ .

(٢) قال الدكتور الأحمدى : قال ابن أبي يعلى في ترجمة محمد بن قدامة الجوهري ، نقل عن الإمام أشياء منها :

القراءة على القبور ، واحتج بحديث بن عمر . طبقات الحنابلة ٢٩٩/١ ، وحديث ابن عمر أخرجه الخلال

بسنده إلى بن عمر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : " إذا مات أحدكم فلا تجلسوا وأسرعوا به إلى قبره ، ويقرأ

عند رأسه بفاتحة البقرة ، وعند رجله بخاتمتها في قبره " ، الأمر بالمعروف ص ١٢٢ ، وعزاه الهيثمي للطبراني

في الكبير وقال : فيه يحيى بن عبد الله البجلي وهو ضعيف إهـ . مجمع الزوائد ٤٤/٣ .

(٣) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ١٧٠/٢ .

وقال ابن أبي يعلى في ترجمة : محمد بن أحمد المروروزي ذكره أبو بكر الخلال فقال : روى عن أبي عبد الله مسائل لم تقع إلى غيره ، ثقة من أهل الروذ ، سمعت عنه من بطل ثقة من أهل أصبهان وذكره بجميل ، حدثني الحسن بن مهران بن الوليد الأصبهاني قال : سمعت محمد بن أحمد المروروزي يقول : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إذا دخلتم المقابر فاقروا آية الكرسي ثلاث مرات ، وقل هو الله أحد ، ثم قولوا : اللهم فضله لأهل المقابر " (١) .

ولكن هناك نصوص أخرى تبين موقف الإمام أحمد الرافض من هذه المسألة .

قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ :

سألت أبا عبد الله عن القراءة على القبر ؟ فقال : القراءة على القبر بدعة (٢) .

وقال أبو داود : سمعت أحمد سئل عن القراءة عند القبر ؟ فقال لا (٣) .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل :

سمعت أبي سئل عن رجل يقرأ عند القبر على الميت قال : أرجو ألا يكون به بأس .

وسألت أبي عن الرجل يحمل معه المصحف إلى القبر يقرأ عليه ؟ قال : هذه بدعة ،

قلت لأبي : وإن كان يحفظ القرآن يقرأ ؟ قال : لا ، يجيء ويسلم ، ويدعو وينصرف " (٤) .

التعليق :

قال الدكتور عبد الإله الأحمدى : " الكلام في هذه المسألة على شقين : القراءة عند

القبر وقت الدفن فقط ، والقراءة بصفة عامة .

وقبل الكلام عن كلا الشقين أقول : إنه لم يؤثر عن النبي ﷺ هذا الأمر لا بفعله هو

عليه الصلاة والسلام ولا بإقراره لغيره ، بل إن مجموع الأحاديث التي جاءت عن النبي ﷺ

فيما يتعلق بالقبور وزيارتها يؤخذ منها أن الفعل محدث ، فالنبي ﷺ كان يزور القبور ،

وكان يحضر الدفن غالبا ، ولو كان هذا أمرا حسنا لما سكت عنه ﷺ ولبينه للناس ، بل

(١) قال محقق الكتاب : ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات ص ٢٢٠ من مر بالمقابر فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾

إحدى عشرة مرة ، ثم وهب للأموات أعطى من الأجر بعدد الأموات ، المسائل والرسائل ١٧٢/٢٠٠ .

(٢) مسائل ابن هانئ ١٩٠/١ .

(٣) مسائل أبي داود ص ٥٨١ .

(٤) مسائل عبد الله ص ١٤٥ .

المأثور عنه عليه الصلاة والسلام أنه إذا زار المقابر قال : "السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد " (١) .

وعن بريدة قال : كان رسول الله يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول : "السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله للاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية" (٢) هذا هو الهدي النبوي " .

ثم أضاف قائلا : " أعود إلى الخلاف في المسألة وأقول : إن شارح الطحاوية قد لخصه إذ يقول : " اختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور على ثلاثة أقوال : هل تكره ، أم لا بأس بها وقت الدفن ، وتكره بعد ؟ فمن قال بكراتها كأبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية قالوا : لأنه محدث لم ترد به السنة ، والقراءة تشبه الصلاة ، والصلاة عند القبور منهي عنها فكذلك القراءة . ومن قال : لا بأس بها كمحمد الحسن وأحمد في رواية استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه أوصى أن يقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمتها ، ونقل أيضا من بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة . ومن قال : لا بأس بها وقت الدفن فقط ، وهو رواية عن أحمد ، أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين ، وأما بعد ذلك كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده فهذا مكروه ، فإنه لم تأت به السنة ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلا .. " (٣) .

وقال ابن تيمية فيها ثلاث روايات عن أحمد ..

والثانية : أن ذلك مكروه ، وهذه الرواية هي التي رواها أكثر أصحابه عنه ، وعليها قدماء أصحابه الذين صحبوه كعبد الوهاب الوراق وأبي بكر المروذي ونحوهما ، وهي مذهب جمهور السلف كأبي حنيفة ومالك وهشيم بن بشير وغيرهم ، ولا يحفظ عن الشافعي نفسه في هذه المسألة كلام لأن ذلك عنده بدعة .
وقال مالك : ما علمت أحدا يفعل ذلك (٤) .

(١) أخرجه مسلم ، في الجنائز ، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ٦٦٩/٢ (ح ٩٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم ، في الجنائز أيضا ، والباب نفسه ٦٧١/٢ (ح ٩٧٥) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٥٨ .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ، ٢٦٣/٢ - ٢٦٤ .

قال أبو يعلى الفراء : قال أبو بكر - يعني الحلال - نقل أبو بكر المروزي وأبو داود ومهنا وحنبل وأبو طالب وابن بدينا وإسحاق بن إبراهيم وغيرهم : أن القراءة لا يجوز عند القبر ، وبعضهم يروي أنها بدعة ، وعلى هذا كان مذهبه ، ورجع أبو عبد الله رجوعاً أبان عن نفسه فقال : يقرأ ، وقال أبو حفص بن مسلم العكبري : وقد روى عن أبي عبد الله بضع عشرة نفساً كلهم يقول : بدعة ومحدث فأكرهه وبهذه الرواية أقول " (١) .

قال الدكتور الأحمدي مرجحاً : " وهذا القول الأخير هو الذي يتلاءم مع ما عرف عن الإمام أحمد من كراهة كل محدث .

وأما ما جاء في رواية المروزي عن أحمد : إذا دخلتم المقابر ... فعلى تقدير ثبوت هذه الرواية عن الإمام أحمد فإن هذا لم يرد عن النبي ﷺ وقد تقدم ما كان يقوله عليه الصلاة والسلام عند زيارة المقابر " (٢) .

قلت : وأما إهداء الثواب للمقبورين فلا أصل له أيضاً ، ولم يحفظ عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه - رضوان الله عليهم - أنهم يفعلون ذلك ، إلا ما كان من أدعية الأحياء وصدقاتهم فإنها تنفع الموتى ، وتصل إليهم بإجماع المسلمين .

قال شارح الطحاوية : " وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة ، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة ، وكذا الدعاء له بعد الدفن ، ففي سنن أبي داود ، (٣) من حديث عثمان بن عفان ؓ ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : " استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل " ، وكذا الدعاء لهم عند قبورهم .. " (٤) .

وأما وصول الصدقة ففي " الصحيحين " عن عائشة رضي الله عنهما : أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن أمتي افتللت نفسها ولم توص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : " نعم " (٥) . وفي " صحيح البخاري عن

(١) طبقات الحنابلة ٢١٢/١ .

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ١٧٤/٢ - ١٧٥ .

(٣) أخرجه أبو داود ٥٥٠/٣ (٣٢٢١) وسنده حسن ، وصححه الحاكم ٣٧٠/١ ووافقه الذهبي .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٥٣ .

(٥) أخرجه البخاري في الوصايا ، باب ما يستحب لمن يتوفى فجأة أن يتصدقوا عنه ١٠١٥/٣ (ح ٢٦٠٩)

، ومسلم في الزكاة ، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه ٦٩٦/٢ (ح ١٠٠٤) .

عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - : أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها ،
فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أُمِّي توفيت وأنا غائب عنها ، فهل ينفعها إن
تصدقت عنها ؟ قال : « نعم » ، قال : فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة
عنها ^(١) . وأمثال ذلك كثيرة في السنة " ^(٢) .

وثبت عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا
من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ، باب إذا قال : أَرْضِي أو بستانِي صدقة عن أُمِّي فهو جائز وإن لم يبين
ذلك ١٠١٢/٣ (ح ٢٦٠٥) .

(٢) شرح الطحاوية ص ٤٥٣ .

(٣) أخرجه مسلم ، في الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٢٥٥/٣ (ح ١٦٣١)
والإمام أحمد في المسند ٣٧٢/٢ .

المبحث الخامس

موقفه بعض تلامذته من الفكر الصوفي

١- أبو زرعة الرازي (ت ٢٦٤هـ) .

هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ ، قد سمع من الإمام أحمد بن حنبل ، وجالسه وذاكره ، وكان إماما ربانيا ، حافظا متقنا مكثرا ^(١) .

زهده ومنهجه

لقد أخبرنا أبو زرعة الرازي ووصف لنا زهد النبي ﷺ فقال : " ترك النبي ﷺ الدنيا وهو واجد لها ، وقد ذمها ، وعرضت عليه مفاتيح خزائن الدنيا ، والخلد فيها ثم الجنة ، فأبى ذلك ﷺ وقال ﷺ : " والذي نفسي بيده ، لو شئت لسارت معي جبال الدنيا ذهباً وفضة " (٢) " (٣) .

وهذا العالم الجليل أبو زرعة الرازي أحد الأئمة الذين وصفوا بالزهد والعبادة . يقول الحافظ بن كثير عنه : " كان فقيها ، ورعا ، زاهدا ، عابدا ، متواضعا خاشعا ، أثنى عليه أهل زمانه بالحفظ والديانة ، وشهدوا له بالتقدم على أقرانه " (٤) . ولعل بلوغه إلى هذه الدرجة من الزهد راجع إلى صحبته لكثير من كبار الزهاد في زمانه ، كبشر بن الحارث الحافي ، وأحمد بن حنبل ، وروايته كذلك عن أحمد بن أبي الحواري ، والربيع بن ثعلبة العابد ، وسريح بن يونس ، وسلمة بن عقار البغدادي الذي روى عن معروف الكرخي وفضيل بن عياض وغيرهما ^(٥) ، وكان يحرص على تتبع أخبارهم وأحوالهم وحفظ أقوالهم .

لقد كان منهجه في الزهد معتدلا ، تبين ذلك من خلال قوله الذي سمعه ابن أبي حاتم بأن أبا زرعة يقول : " لو كان لي صحة بدن على ما أريد كنت أتصدق بمالي كله ، وأخرج إلى طرسوس أو إلى ثغر من الثغور ، وأكل من المباحات وألزمها ، ثم قال : إني لألبس الثياب لكي إذا نظر إلي الناس لا يقولون قد ترك أبو زرعة الدنيا ولبس الثياب

(١) انظر : طبقات الحنابلة ١/١٩٩ ، وسير أعلام ١٣/٦٧ .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٧٦) وهو في طبقات ابن سعد ١/٣٨٨ .

(٣) طبقات الحنابلة ١/٢٠٢-٢٠٣ ، والمنهج الأحمد ١/١٥٠ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ١١/٣٧ .

(٥) الجرح والتعديل ١/٣٢٨ .

الدون ، وإني لأكل ما يقدم إلي من الطيبات ، والحلواء لكي لا يقول الناس أن أبا زرعة لا يأكل الطيبات لزهده ، وإني لأكل الشيء الطيب ، وما مجراه عندي ومجرى غيره من الأدم إلا واحد ، و ألبس الثياب الجياد ، ودونه من الثياب عندي واحد ، لأن جميعا يعملان عملا واحدا ، ومن أحب أن يسلم من لبسه الثياب يلبسه لستر عورته فإنه إذا نوى هذا لم ينو غيره سلم " (١) .

ومنهجه هذا يدل على تأثره بسفيان الثوري ، وأحمد بن حنبل ، حيث قال سفيان حينما سئل عن الزهد : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء (٢) ، ولما سئل أحمد بن حنبل : عن الرجل يكون معه ألف دينار ، هل يكون زاهدا ؟ فقال : نعم على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت (٣) .
وقد كان - رحمه الله - يستمع لنصيحة الزهاد الصالحين .

موقفه من الحارث المحاسبي

جاء بعد الإمام أحمد بن حنبل الإمام أبو زرعة فقال أيضا : عن كتب الحارث المحاسبي حينما سأله سائل عنها ؟ إياك وهذه الكتب ! هذه كتب بدع وضلالات ، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب ، قيل له : في هذه الكتب عبرة ، قال : من لم يكن له في كتاب الله ﷻ عبرة فليس في هذه الكتب عبرة ، بلغكم أن مالك بن أنس ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والأئمة المتقدمين صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء ؟ هؤلاء (يعني بعض الصوفية) قوم خالفوا أهل العلم يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي ، ومرة بعبد الرحيم الديلمي ، ومرة بجاتم الأصم ، ومرة بشقيق ، ثم قال : ما أسرع الناس إلى البدع ! (٤) .

وذكر ابن كثير أن أبا زرعة لما وقف على كتاب الحارث المحاسبي المسمى بالرعاية ، قال : هذا بدعة ، ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث ، ودع عنك هذا فإنه بدعة (٥) .

(١) انظر : مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٤٨ .

(٢) مدارج السالكين ١٢/٢ .

(٣) نفسه ١٣/٢ .

(٤) تلبس إبليس ص ٢٠٦ .

(٥) انظر : البداية والنهاية ٣٣٠/١٠ .

ومن هذا يتبين لنا أن أبا زرعة الرازي قد وقف على كتاب " الرعاية " للمحاسبي ، واطلع على ما فيه ، ومن ثم ذم فكرة ومنهج المحاسبي ، ولا شك أن تحذير الإمام أبي زرعة وتنفيذه من كتب المحاسبي كان على علم به ، لذا حذر السائل حينما سأله عن الحارث المحاسبي وكتبه ، وصدق في جوابه لأن علم الأثر هو الصحيح ، وهو الذي يرضي الله ﷻ ، وبه أوصى الرسول الكريم ﷺ ، وكذا الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وبوصيتهم التزم الأئمة الزهاد ، الذين سلكوا طريق الاستقامة ، وأقوالهم مبنوثة معلومة في كتب التاريخ والسير ...

إذن كان السبب وراء التنفير والتحذير من الحارث المحاسبي هو قوله ونشره علم الكلام ، وحديثه عن الوسوس والخطرات التي لم يتحدث عنها من سبقوه من أئمة السلف ، أو كان تحذيرهم ممن يعلمون أنهم لا يستطيعون الثبات على مثل سلوكه وصحبته لشدة طريقتة .. غير أن الحارث المحاسبي - رحمه الله - كان بعيدا عن شطحات الأقوال والأحوال ، كالتي حصلت للصوفية المتأخرين .

ولقد ضرب لنا أبو زرعة مثلاً عظيماً في المحبة للسنّة النبوية ، والحرص على تبليغها أمام أقرانه وتلامذته حينما توقفوا في روايتهم لحديث التلقين ، كما يرويه أبو جعفر محمد بن علي ، وراق أبي زرعة فيقول : " حضرنا أبا زرعة بماشهران ، وهو في السوق ، وعنده أبو حاتم ، وابن وارة ، والمنذر بن شاذان ، وغيرهم ، فذكروا حديث التلقين : " لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله " ، واستحيوا من أبي زرعة أن يلقنوه ، فقالوا : تعالوا نذكر الحديث . فقال ابن وارة : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، وجعل يقول : ابن أبي ، ولم يجاوز . وقال أبو حاتم : حدثنا بندار ، حدثنا أبو عاصم ، عن عبد الحميد بن جعفر (عن صالح) ، ولم يجاوز ، والباقون سكتوا ، فقال أبو زرعة وهو في السوق : حدثنا بندر ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا عبد الحميد ، عن صالح بن أبي عريب ، عن كثير بن مرة ، عن معاذ بن جبل ، قال : قال سول الله ﷺ : " من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة " ، وتوفي رحمه الله ^(١) .

(١) انظر : تاريخ بغداد ٣٢٥/١٠ ، وتقدمة الجرح ٣٤٥ ، وسير أعلام ٧٦/١٣ .

٢ - أحمد بن محمد بن هاني الأثرم (ت ٢٦١هـ) .

قد نقل عن الإمام أحمد مسائل كثيرة ، وتكلم عن الحارث المحاسبي فقال : " كنت عند خلف البزار يوم الجمعة ، فلما قمنا من المجلس صرت إلى قرن الصراة ، فأردت أن أغتسل للجمعة ، فغرقت ، فلم أجد شيئا أتقرب به إلى الله جل ثناؤه أكثر عندي من أن قلت : اللهم إن تحييني لأتوبن من صحبة حارث - يعني المحاسبي " (١) .

وقال : " كان حارث المحاسبي في عرس لقوم ، فجاء يطلع على النساء من فوق الدرابزين ، ثم ذهب يخرج - يعني رأسه - فلم يستطع ، ف قيل له : لم فعلت هذا ؟ قال : أردت أن أعتبر بالخور العين " (٢) .

دفاعه عن السنة ومحاربه البدع

قال في أثناء كتابه إلى الثغر : " أعاذنا الله وإياكم من كل موبقة ، وأنقذنا وإياكم من كل مهلكة ، وسلمنا وإياكم من كل شبهة ، ومسكنا وإياكم بصالح ما مضى عليه أسلافنا وأئمتنا " (٣) .

وذكر نماذج من البدع التي رآها في حياة الإمام أحمد قال : رأيت قوما كانوا يلزمون البيت على أسباب من النسك وقلة من العلم ، فأكرمهم الناس ببعض ما ظهر لهم من حبهم للخير ، فدخلهم العجب من قلة العلم ، فكان لا يزال أحدهم يتكلم بالأمر العجيب ، فيدفع الله ذلك بقول الشيخ ، جزاه الله أفضل ما جرى من تعلمنا منه ، ولا يكون من أحد منهم من ذلك شيء إلا كان سبب فضيحته .. فأنا حافظ من ذلك لأشياء كثيرة ، وإنما هذا من مكاييد إبليس مع جنوده ، يقول لأحدهم : أنت أنت ومن مثلك ؟ فقل : قد قال غيرك ، ثم يلقي في قلبه الشيء ، وليس هناك سعة في علم ، فيزين عنده : أن يتدنه ليشمت به ، وإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار " (٤) .

وأضاف قائلا : " وقد ظننت أن آخرين يلتمسون الشهرة ، ويجنون أن يذكروا ، وقد ذكر قبلهم قوم بألوان من البدع فافتضحوا ، ولأن يكون الرجل تابعا في الخير خير من أن يكون رأسا في الشر .

(١) طبقات الحنابلة ٦٨/١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) طبقات الحنابلة ٦٩/١ .

واستشهد بالأحاديث والآثار الماثورة لتدعيم موقفه من البدع فقال : " وقد قال ابن مسعود : " اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ، كل بدعة ضلالة " .
وقال : " أيها الناس إنكم ستحدثون ويحدث لكم ، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالأمر الأول " . " لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم " .
وقال ابن عمر : " كل بدعة ضلالة ، وإن رآها الناس حسنة " ^(١) .
وقال عمر بن عبد العزيز : " إياك وما أحدث المحدثون ، فإنه لم تكن بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل عليها وعبرة منها ، فعليك بلزوم السنة ، فإنها لك بإذن الله عصمة .. " ^(٢) .

٣ - غلام خليل (ت ٢٧٥هـ) .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء :

" غلام خليل ، العالم ، الزاهد ، الواعظ ، شيخ بغداد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن غالب بن خالد بن مرداس ، الباهلي البصري .
سكن بغداد ، وكان له جلالة عجيبة ، وصولة مهيبة ، وأمر بالمعروف ، وأتباع كثير ، وصحة معتقد ؛ إلا أنه يروي الكذب الفاحش ، ويروي وضع الحديث ، نسأل الله العافية " ، ولكن ابن أبي حاتم قال : " سئل أبي عنه فقال : رجل صالح ، لم يكن عندي ممن يفتعل الحديث " ^(٣) .

يرى بروكلمان : أن غلام خليل هذا كان من الحنابلة الذين نهضوا بالمذهب الحنبلي ، وكان فقيها واعظا ببغداد وتصوف تصوفا حسنا ، فحارب أهل البدع والمعاصي ، وحمل على الخوارج والزنادقة ^(٤) .

ويوافق على ذلك الدكتور حسين القوتلي حيث يرى أن هذا العلم كان حنبليا محدثا فقيها ، مشهورا بالورع والتقوى ، وكان ينكر على الصوفية كلامهم في الحب الإلهي ، والاتصال بالله ﷻ ، وما إلى ذلك من المقالات التي انتشرت في القرن الثالث

(١) المصدر السابق ٦٩/١ .

(٢) المصدر نفسه ٧٠/١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٨٢/١٣ - ٢٨٣ .

(٤) انظر : فهرس المخطوطات ، دار الكتب الظاهرية ، قسم الحديث ص ١٦٩ .

الهجري^(١) . وإن كنا لم نعثر على خبر لقائه وسماعه من الإمام أحمد بن حنبل ، ولم نجد له ترجمة في طبقات الحنابلة .

وذكر ابن النديم : بأن غلام خليل له من الكتب ، ككتاب الدعاء ، وكتاب الانقطاع إلى الله جل اسمه ، وكتاب الصلاة ، وكتاب المواعظ^(٢) .

والمهم في هذا المقام هو الصراع الذي حدث بينه وبين الصوفية ، وهو من أشهر الحوادث في تلك المحنة المعروفة بمحنة غلام خليل ، وكان ذلك سنة ٢٦٢هـ ، إذ جاء غلام خليل واتهم الصوفية بالزندقة ، وشغب عليهم العامة ، وسعى عند الخليفة ، فأمر بالقبض على عدد كبير من الصوفية ، بلغوا نيفا وسبعين ، وانتهت المحنة بقتل بعضهم وهروب البعض وتبرئة البعض الآخر^(٣) .

قال أبو نعيم : " سمعت عمر البناء - البغدادي بمكة - يحكي : لما كانت محنة غلام خليل ونسب الصوفية إلى الزندقة أمر الخليفة (المعتمد) بالقبض عليهم ، فأخذ في جملة من أخذ أبو الحسين النوري في جماعة ، فأدخلوا على الخليفة فأمر بضرب أعناقهم ، فتقدم النوري مبتدرا إلى السيف ليضرب عنقه ، فقال له السيف : ما دعاك إلى الابتدار إلى القتل من بين أصحابك ؟ فقال : آثرت حياتهم على حياتي هذه اللحظة ، فتوقف السيف والحاضرون عن قتله ، ورفع أمره إلى الخليفة ، فرد أمرهم إلى قاضي القضاة - وكان يلي القضاء يومئذ إسماعيل بن إسحاق - فقدم إليه النوري ، فسأله عن مسائل في العبادات والطهارة والصلاة ؟ فأجابه ، ثم قال له : وبعد هذا فله عباد يسمعون بالله وينظرون بالله ، ويرددون بالله ، ويأكلون بالله ، ويلبسون بالله ، فلما سمع إسماعيل كلامه بكى بكاء طويلا ثم دخل على الخليفة ، فقال : إن كان هؤلاء زنادقة فليس في الأرض موحد ، فأمر بتخليتهم ، وسأله السلطان يومئذ : من أين يأكلون ؟ فقال : لسنا نعرف الأسباب التي يستجلب بها الأرزاق ، نحن قوم مدبرون ، وقال : من وصل إلى وده أنس بقربه ، ومن توصل بالوداد فقد اصطفاه من بين العباد " ^(٤) .

وبين الذهبي سبب هذا الصراع أيضا فيقول :

(١) العقل وفهم القرآن ص ٤٨ .

(٢) الفهرست ص ٢٦٣ .

(٣) انظر : ظهر الإسلام ، لأحمد أمين ٣/٣١٣ .

(٤) حلية الأولياء ١٠/٢٦٨ - ٢٦٩ .

" قال ابن الأعرابي : قدم من واسط غلام خليل ، فذكر له هذه الشناعات - يعني خوض الصوفية - ودقائق الأحوال التي يذمها أهل الأثر ، وذكر له قولهم بالحبّة ، ويبلغه قول بعضهم : نحن نحب ربنا ويحبنا ، فأسقط عنا خوفه بغلبة حبه - فكان ينكر هذا الخطأ بخطأ أغلظ منه ، حتى جعل محبة الله بدعة ، وكان يقول : الخوف أولى بنا . قال : وليس كما توهم ، بل المحبة والخوف أصلان ، لا يخلو المؤمن منهما ، فلم يزل يقص بهم ، ويحذر منهم ، ويغري بهم السلطان والعامّة .

ويقول : كان عندنا بالبصرة قوم يقولون بالحلول ، وقوم يقولون بالإباحة ، وقوم يقولون كذا ، فانتشر في الأفواه أن ببغداد قوما يقولون بالزندقة . وكانت تميل إليه والدة الموفق ، وكذلك الدولة والعوام ، لزهده وتقشفه ، فأمرت المحتسب أن يطيع غلام خليل ، فطلب القوم ، وبث الأعوان في طلبهم ، وكتبوا ، فكانوا نيفا وسبعين نفسا ، فاحتفى عامتهم ، وبعضهم خلصتهم العامّة ، وحبس منهم جماعة مدة " (١) .

قال الذهبي : قلت : وهرب النوري إلى الرقة ، وأقام بها مدة متخليا منعزلا ، ثم عاد إلى بغداد .

ولعل السبب الذي جعل غلام خليل يتهم أبا الحسين هو وصفه ﷺ بصفة لا يليق به كما ذكر ذلك ابن الجوزي فيقول : " قال السراج : وبلغني أن أبا الحسين النوري شهد عليه غلام خليل أنه سمعه يقول : أنا أعشق الله ﷻ وهو يعشقني ، فقال النوري : سمعت الله يقول : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (٢) وليس العشق بأكثر من المحبة ، قال القاضي أبو يعلى : وقد ذهبت الحلولية إلى أن الله ﷻ يعشق .

ثم عقب ابن الجوزي فيقول : " وهذا جهل من ثلاثة أوجه : أحدها : من حيث الاسم فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح ، والثاني : أن صفات الله ﷻ منقولة فهو يحب ولا يقال يعشق ، كما يقال يعلم ولا يقال يعرف ، والثالث : من أين له أن الله تعالى يحبه ؟ فهذه دعوى بلا دليل .. " (٣) .

(١) سير أعلام النبلاء ٢٨٤/١٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٥٤) .

(٣) تلييس إبليس ص ٢١١ .

٤- أبو محمد البرهاري (ت ٣٢٨هـ) .

هو الحسن بن علي بن خلف ، أبو محمد البرهاري ، شيخ الطائفة في وقته ، ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع ، والمباينة لهم باليد واللسان ... وكان أحد الأئمة العارفين .

صحب جماعة من أصحاب الإمام أحمد ، وصحب سهل التستري .

قال البرهاري : سمعت سهلا يقول : " إن الله خلق الدنيا ، وجعل فيها جهالا وعلماء ، وأفضل العلم ما عمل به ، والعلم كله حجة إلا ما عمل به ، والعمل به هباء إلا ما صح " (١) .

وقد صنف مصنفات منها : " شرح كتاب السنة " ذكر فيه تمسكه بعقيدة السلف الصالح ، وإنكاره على أهل البدع والانحرافات فقال :

" واحذر صغار المحدثات ، فإن صغار البدع تعود حتى تصير كبارا ، وكذلك كل بدعة أحدثت في هذه الأمة كان أولها صغيرا يُشبه الحق ، فاغتر بذلك من دخل فيها ، ثم لم يستطع المخرج منها ، فعظمت وصارت دينا يدان به ، فخالف الصراط المستقيم ، فخرج من الإسلام ، فانظر - رحمك الله - كل من سمعت كلامه من أهل زمانك خاصة ، فلا تعجلن ، ولا تدخلن في شيء منه حتى تسأل وتنظر هل تكلم فيه أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، أو أحد من العلماء ؟ فإن أصبت فيه أثرا عنهم فتمسك به ، ولا تجاوزه لشيء ، ولا تحتز عليه شيئا فتسقط في النار " (٢) .

وأضاف قائلا : " واعلم أن الخروج عن الطريق وجهان :

أما أحدهما : فرجل قد زل عن الطريق ، وهو لا يريد إلا الخير ، فهو لا يقتدى بزلله ، فإنه هالك .

ورجل عاند الحق ، وخالف من كان قبله من المتقين ، فهو ضال مضل ، شيطان في هذه الأمة ، حقيق على من عرفه أن يحذر الناس منه ، ويبين لهم قصته ، لئلا يقع في بدعته أحد فيهلك " (٣) .

(١) طبقات الحنابلة ١٨/٢ .

(٢) نفسه ١٨/٢ - ١٩ .

(٣) نفسه ١٩/٢ .

موقفه من الفكر الصوفي

قال أبو محمد البرهاري : " وكل علم ادعاه العباد من علم الباطن لم يوجد في الكتاب ولا في السنة فهو بدعة وضلالة ، لا ينبغي لأحد أن يعمل به ، ولا يدعو إليه " (١) .

في هذا النص ردّ على المتصوفة ، الذين يعتقدون بأن لهم علما خاصا وهو علم الباطن ، وهذا العلم - حسب زعمهم - لا يعلمه إلا الخاصة ، وأن من لم يكن له نصيب من هذا العلم يخاف عليه من سوء الخاتمة .

كما أن النص يرد أيضا على مصطلح الظاهر والباطن ، كما عند الباطنية والصوفية المنحرفة ، الذين يقولون : بأن هناك في الإسلام علمين : علم يخص أهل الظاهر ، وهي الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ بكل ما فيها من عقائد وعبادات وأخلاق ... وعلم يعبر عنه الصوفية بالعلم اللدني ، وقد اهتموا بهذا العلم لأنه هو علم الحقيقة ، بحيث لا يتزل هذا العلم - حسب زعمهم - إلا على أولياء الله ؛ وهم من أصحابهم .

وبهذا المعتقد جانب المتصوفة المنحرفة المنهج الصحيح ، وابتعدوا عن الصراط السوي ، وتركوا العلم الذي جاء به الرسول ﷺ من عند الله ، وأصبحوا يبحثون عن الهداية والوصول إلى ولاية الله عن طريق علم الباطن المزعوم ، الذي ما أنزل الله في كتابه ، ولا دعا إليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم .

فقد عدّ البرهاري علم الباطن الذي لا يستند إلى أدلة من الكتاب والسنة بدعة وضلالة ، فموقفه من هذا الأمر موقف سليم وموافق لما ذهب إليه أهل الحق من هذه الأمة ، الذين يجعلون الكتاب والسنة دليلهم في كل شأن من شؤونهم ، فالنصوص القرآنية والحديثية جعلتهم يسرون على الطريق الصحيح . فمن هذه النصوص :

قوله ﷺ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

(١) طبقات الخنابلة ٣٥/٢ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية (١٥٣) .

وقوله ﷺ : "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" ^(١) ، وقوله ﷺ أيضا : " .. ألا وإياكم ومحدثات الأمور فإن شر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة" ^(٢) .

وبين البرهاري موقفه من الصوفية المنحرفة فقال :
 "واعلم أنه ما عبد الله بشيء مثل الخوف من الله ، وطريق الخوف والحذر والشفقات والحياء من الله ، واحذر أن تجلس مع من يدعو إلى الشوق والمحبة ويخلو مع النساء وطريق المذهب ، فإن هؤلاء كلهم على ضلالة" ^(٣) .
 وقال : " وإذا رأيت الرجل عابدا مجتهدا متقشفا ، محترفا بالعبادة صاحب هوى فلا تجلس معه ، ولا تسمع كلامه ، ولا تمش معه ، فإني لا آمن أن تستحلي طريقه فتهلك معه" ^(٤) .
 وقال أيضا : " ولا تقل : أترك المكاسب وآخذ ما أعطوني ، لم يقل هذا الصحابة ، ولا العلماء رضي الله عنهم إلى زماننا " .
 هذا هو الموقف الصحيح من الزهد والتوكل والتعامل مع هذه الحياة لا بد من الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله ﷻ ، وهو موقف الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى .

(١) سبق تخريجه في ص ٢٩٠ .

(٢) سبق تخريجه في ص ٣٥٧ .

(٣) طبقات الحنابلة ٣٤/٢ .

(٤) نفسه ٣٨/٢ .

الخاتمة

- أحمد الله حمداً كثيراً على ما منَّ به عليّ من نعمة الإسلام ، كما أشكره جل وعلا على توفيقه أن أتممت هذه الرسالة ، وتوصلت من خلالها إلى أهم النتائج التالية :
- ١- إن مفهوم التصوف الذي صدر من بعض الأعلام في القرنين الثاني والثالث الهجريين أخذ جانباً من جوانب حسن الخلق ، وتركيز النفوس ، والزهد والتقشف ، وحب العزلة والانقطاع للعبادة ، والبعد عن هذه الحياة الطاغية المطغية ، وإن كان في مفهومهم بعض المآخذ والانحرافات .
 - ٢- إن رجال الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين كان منهم من يوافق ما يقولونه وما يمارسونه من أعمال القلوب مع ما في الكتاب والسنة ، حتى وإن كانوا على انحراف ومبالغة في بعض الأمور ، وخاصة ما يكون منهم من خطأ واضح ، وتشدد زائد ، وانحراف خطير يمس العقيدة الصحيحة ، كما حدث للحارث المحاسبي ، ولأبي يزيد البسطامي ، وابن منصور الحلّاج .
 - ٣- إن الهدف من التصوف في القرن الثالث الهجري هو الاتصال بالله ، كما أن الحب الإلهي أصبح معلماً مبرزاً وهدفاً اتجه إليه أهل التصوف .
 - ٤- إن زهد الإمام أبي حنيفة كان زهداً إيجابياً ، حيث كان - رحمه الله - لا يقعد عن الكسب والعمل ، أو يهجر المال والعيال ، فهو بجانب كونه زاهداً كان كريماً واسع الكرم .
 - ٥- إن كثيراً من الروايات والأعمال المنسوبة في التصوف إلى الإمام أبي حنيفة لا تصح ، لأنها حكاية صوفية مختلفة ، يريدون منها تهويل الفكر الصوفي ، ولفت أنظار الناس أن أبا حنيفة كان واحداً من أقطاب الصوفية وهو منهم بريء ، بل المعروف أن للإمام موقفاً في الدفاع عن العقيدة الصحيحة ، حتى جعل الاستماع إلى الغناء الصوفي من الذنوب والمعاصي .
 - ٦- لقد أنكر الإمام مالك الاجتماع للذكر على صوت واحد ، لأنه إحدى المحدثات التي لم تكن في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا في زمن الصحابة الكرام ... كما أنكر - رحمه الله - وأتباعه سماع الغناء ، الذي يكون مصحوباً بالرقص والتواجد والقصائد الشركية ونحوها ، وتبين بذلك بطلان ما نسب إليه من إباحته للغناء .

- ٧- إن الروايات والأعمال المنسوبة في التصوف إلى الإمام مالك ليست بصحيحة ، كما أن التوسل المنسوب إليه باطل ؛ لأنه توسل غير مشروع ، ومناقض لعقيدة السلف الصالح .
- ٨- إن موقف الإمام الشافعي من مجاهدة النفس موقف محمود ، لا يعني ذلك أنه يهجر نعم الله تعالى ، فلا يتمتع بها ولا يسعد بالتلذذ بجلاوتها ، إذ لا رهبانية في الإسلام .
- ٩- لقد أنكر الإمام الشافعي التعبير لأنه سماع منهجي عنه ، أحدثته الزنادقة ليصدوا به الناس عن السماع المشروع ، كما حرص - رحمه الله - وأتباعه على حماية التوحيد من كل شائبة .
- ١٠- إن ما نسب إلى الإمام الشافعي من الأعمال الصوفية كذب وافتراء ، فهو لم يأمر باقتداء طريق أهل التصوف ، وإنما أثر عنه أقوال كثيرة تبين تمسكه بالآثار ، وأمر بالإعراض عن قوله إذا خالف الأحاديث الصحيحة .
- ١١- إن الإمام أحمد كان على منهج السلف الصالح في شأن الزهد ، فقد كان موقفه من الدنيا أن لا يتركها كلية ، فيمنع من الزهد الموصل إلى تحريم ما أحل الله والامتناع عما أباحه الله لعباده ، وبذلك يخالف ما ذهب إليه بعض الصوفية المتقدمين في مفهوم الزهد حينما اتجهوا اتجاها يكون الفقر مطلباً أساسياً فيه .
- ١٢- إن الإمام أحمد على منهج السلف في إدراك معنى التوكل ، حيث فهم بمفهومه الصحيح الإيجابي ، وهو الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله عز وجل ، وبذلك يخالف ما عليه الصوفية حينما فهموا بأن التوكل هو خلع الأسباب وقطعها ، وترك العمل والتكسب وعدم حمل الزاد .. إلخ .
- ١٣- لقد كره الإمام أحمد التعبير أو الاجتماع لسماع القصائد والمدائح كما يفعله المتصوفة ، وكره أن يجالس من مارس ذلك ، كما أنكر أشد الإنكار على ما حدث للصوفية من مخالفات لعقيدة السلف الصالح .

الفهارس

- ١- فهرس الآيات القرآنية.
- ٢- فهرس الأحاديث والآثار.
- ٣- فهرس المصطلحات والكلمات الغريبة.
- ٤- فهرس الأعلام.
- ٥- فهرس المصادر والمراجع.
- ٦- فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾	٧٤	١٩٩
﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ ﴾	٧٩	١٥١
﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾	١٢٥	٢٠١
﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾	١٤٦	٢٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٣
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾	١٥٩	٢٨٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠
﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾	١٦٣-١٦٤	٣٢٠
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾	١٦٥	١٦٦ ، ١٥٥
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾	١٦٨	٢٨٣
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ ﴾	١٧٢	٧٨ ، ٣٢ ، ١٦
		٢٨٣ ، ٢٠٧
﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ ﴾	١٧٣	٣١١
﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾	١٩٧	٢٨٦
﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾	١٩٨	٣٩٥
﴿ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾	٢١٢	٢٨٦
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾	٢٢٢	٣٢٤ ، ٢٠٢
﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾	٢٢٨	٤١٧
﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾	٢٦٩	١٤٩

سورة آل عمران

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا بِمَا فَاغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾	١٦	٣٠٥
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾	١٨	٢٢٨
﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ﴾	٣١	١٦٠ ، ١٥٥
		٤١١ ، ١٦٦ ، ١٦٣
﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾	٣٧	١٧٨



٣٠٥	٥٣	﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾
٢٨٦	٧٦	﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .. ﴾
١٥١	٧٨	﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾
ب	١٠٢	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾
٥٦	١٠٤	﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ ﴾
٣٢٥	١٣٥	﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا ﴾
٤٠٨	١٣٧	﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾
١٢٥	١٤٤	﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ... ﴾
٢٠٨	١٥٩	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾
٢٨٩	١٧٥	﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
٦٦	١٩١	﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾

سورة النساء

ب	١	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾
٤٠٤	٤-٣	﴿ فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾
٨٢	٥	﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾
٨٢	٦	﴿ فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾
٣٨٩	١٨	﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾
٣٧٨	٧٧	﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾
٤١١	٨٠	﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾
٣٢٧	٨٢	﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ﴾
٢٦٧	٩٦-٩٥	﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
٦٧	١١٠	﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾
٢٨٦	١٣١	﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾

سورة المائدة

٤٠٧	٢	﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾
ب، ١٥٠، ١٥٢	٣	﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ... ﴾
٣١١، ٢٩٠، ١٩٢		



٣١١	٦	﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾
١٧٥	١٧	﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... ﴾
٣٣٠، ٢٠٨، ١١٩	٢٣	﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
٣٩٠	٣٤	﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾
٣٠٣	٣٥	﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ﴾
٣٤٦، ١٥٧	٥٤	﴿ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾
١٩٢	٦٧	﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾
١١٨	٧٧	﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾
٥٦	٧٩-٧٨	﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾
١٣٣، ٤٩	٨٢	﴿ ذَلِكَ بِأَنْ مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهَبَانًا ﴾
١٩٣	٨٣	﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى ﴾
٤٠٤، ٢٨، ٣٩٩	٨٧	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ ﴾
٢٨	٨٨	﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾
٢٣١	١١٨	﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ ﴾
٢١٣	١١٩	﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾
٣٤١	١٢٠	﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾

سورة الأنعام

٢٨٧	٣٢	﴿ وَلِلذَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾
١٤٠	٥٧	﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾
٤١١	٧٠	﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾
١٣٩	٧١	﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا ﴾
١٥٢	٩٣	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾
٣٥٣	٩٧	﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا ﴾
٤٤٩	١٥٣	﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾
٣٢٢	١٦٢	﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ ﴾

سورة الأعراف

٢٤٦	٣	﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾
-----	---	---



٣٩٨	٥٧	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾
٢٣٨	٦٤	﴿ وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾
٢٠١	٧٩	﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾
١٩٨	١٠٩-١٠٧	﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾

سورة الكهف

١٧٨	١٧-١٦	﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾
٦٧	٢٨	﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾
٦٥ ، ٣٤	٤٦	﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
١٥٠ ، ١٤٩	٦٥	﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾
١٧٣	١٠٩	﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي ﴾
١٢٥	١١٠	﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾

سورة مريم

١٧٨	٢٦-٢٥	﴿ وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ﴾
١٩٨	٥٨	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾
٢٧٩ ، ٢١٦	٥٨	﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾

سورة طه

٢٩٥	٩٣-٩١	﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى . ﴾
٣٧٩	١٣١	﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا ﴾

سورة الأنبياء

٢٤٣	٣٤	﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾
٣٢٣ ، ١٧٤	٩٠	﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾

سورة الحج

٢٢٦	٧٣	﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾
٣١٠ ، ٢٥٠	٧٨	﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. ﴾
٢٦٦	٧٨	﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾

سورة المؤمنون

٢٨٣ ، ٢٣٦ ، ٢٠٦	٥١	﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾
-----------------	----	--



﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ ٦٠ ٢١٥

سورة النور

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ٣١ ٣٢٤ ، ٢٠٢ ، ٣٨٩

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ ﴾ ٣٣-٣٢ ٤١٧

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ ٣٧-٣٦ ٣١٣

﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ ٥٤ ١٢٨

سورة الفرقان

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ٤٤ ٢٨٠

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ ٥٨ ٣٣٠

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ ٧٠ ٣٨٩

سورة الشعراء

﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ٢١٨ ٣٣٨

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ٢٢٣-٢٢١ ١٥٣

سورة النمل

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ ﴾ ١٩ ٣٠٤

سورة القصص

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ ١٠ ١٨٦

﴿ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ ٢٧ ٨١

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ ٧٧ ٧٧ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٣٤ ، ١٧٠

سورة العنكبوت

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ١٤ ٣٢٥

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾ ٢٠ ٤٠٧

سورة الروم

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ٣٠ ٢٢٣ ، ١٨٣

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ٥٠ ١٣٦

سورة لقمان

٢٣٨	٦	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾
١٩٨	٧	﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكَلَّمَ مُسْتَكْبِرًا ﴾
٣٤١	١١-١٠	﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾
١٧٣	٢٧	﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾
٦٤	٣٣	﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾
٣٣٨	٣٤	﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾

سورة السجدة

٢٣٧، ٢١٦	١٦-١٥	﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾
٣٩٨	١٦	﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾

سورة الأحزاب

٣٦٣، ١٦٦، ١٢٠	٢١	﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾
٢٨٩، ٦٦	٣٥	﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾
٢٥٥، ١١٨	٣٦	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ ﴾
٤١١، ٤٠٤		
١٧٣	٤٠	﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾
٣٢٤، ٢٨٩	٤٢-٤١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾
ب	٧١-٧٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

سورة فاطر

١٤٠، ١٣٤	٢٨	﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾
٢٨٠، ١٧٣		

سورة الصافات

٢٠١	١٦٤	﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾
-----	-----	---

سورة الزمر

٢٢٦	٣	﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾
٣٢٣، ٧٠	٩	﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾
٢٢٩، ١٣٣	٩	﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾

٢٠٩	١٠	﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾
١٩٨	١٨-١٧	﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ﴾
١٢٥	٣١-٣٠	﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾

سورة غافر

٤٠٨	٢١	﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾
-----	----	---

سورة الشورى

٢٧٦، ١٤٦، ١٣٤	١١	﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾
١٩١	١٣	﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾

سورة الزخرف

٦٥	٧١-٧٠	﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾
----	-------	---

سورة الجاثية

٢٣	١٧	﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾
١٩١، ٢٣	١٨	﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾

سورة الأحقاف

٣٢٥	٣٥	﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ ﴾
-----	----	--

سورة محمد

١٩١	٣	﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾
٦٥	١٥	﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾
٢٥٨	٣٠	﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾

سورة الحجرات

٣٠١	٢	﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾
٣٠١	٣	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾
٣٠١	٤	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾

سورة ق

٢٢١	١٨	﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾
٦٥	٣١	﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾

٦٥ ٣٢ ﴿ هَذَا مَا تُوعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴾

سورة الذاريات

٦٦ ١٨-١٧ ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾

٢٣٣ ٢٢ ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعِدُونَ ﴾

٢٢٧، ١٣٢ ٥٦ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴾

سورة الطور

٣٢١ ٢١ ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم ﴾

سورة النجم

١٤٠ ٤-١ ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾

٧٩ ٤-٣ ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾

٢٣٨ ٦١-٥٩ ﴿ أَفَمَن هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجِبُونَ ﴾

سورة القمر

٢٣٦ ٤٦ ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَر ﴾

سورة الرحمن

١٧٣ ٢٧-٢٦ ﴿ كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَانٍ ﴾

سورة الحديد

١٩٩، ١٠١ ١٦ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾

٦٥، ٦٣، ٣٤ ٢٠ ﴿ اْعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾

٣٧٨ ٢٠ ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

٣٧٨، ٧٤، ٦١ ٢٣ ﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾

٣٨٤ ٢٧ ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾

سورة المجادلة

٢٢٨ ١١ ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾

سورة الحشر

٤٠٤، ٢٤٦ ٧ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

سورة الجمعة

٣٩٢	٩	﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾
٣٩٣	٩	﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ . ﴾
٨٠ ، ٢٩	١٠	﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

سورة المنافقون

٦٥	٩	﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴾
----	---	---

سورة التغابن

٦٧	١٣	﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾
----	----	--

سورة الطلاق

٣٢٩ ، ٢٥٩ ، ١١٩	٢	﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾
٢٠٨	٣	﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾

سورة التحريم

٤٠٩	٥	﴿ مُسْلِمَاتٌ مُؤْمِنَاتٌ قَانِتَاتٌ ﴾
٦٦	٦	﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

سورة الملك

٦٥	٢	﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾
٨٠	١٥	﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا ﴾
٣٣٨	٣٠	﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾

سورة المزمل

٦٦	٨-١	﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾
٣٩٥	٢٠	﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

سورة الجن

٢٣٠	٢٧-٢٦	﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾
-----	-------	--

سورة المدثر

٣٠	٨	﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾
----	---	--

سورة القيامة

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ ٢٣-٢٢ ١٤٧

سورة المرسلات

﴿ لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ ١٥-١٢ ٩٨

﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ ٣٦-٣٥ ٣٣٥

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ ٤٠-٣٨ ٣٢١

سورة النبأ

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ ٧-٦ ٣٤٠

سورة الأعلى

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ١٦ ٣٧٨

سورة الغاشية

﴿ فِيهَا سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ ﴾ ١٦-١٣ ٦٥

سورة العلق

﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ٥ ١٥١

سورة التكاثر

﴿ الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ١ ٢٣٦

﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ٨ ٢٧٨

سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ٤-١ ١٤٦

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ٤-٣ ١٩٠

فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة

١ - فهرس الأحاديث

٤٢٩ الأبدال في هذه الأمة ثلاثون
٤٢٩ الأبدال من أمتي ثلاثون
٤٢٩ الأبدال يكونون بالشام
٢٨٦ اتق الله حيثما كنت
١٥٤ اتقوا فراسة المؤمن
٤٣٩ إذا مات الإنسان انقطع عمله
٢٤٣ أرأيتم ليلتكم هذه ؟
٣٧٨ ، ٧١ ازهد في الدنيا يحبك الله
٤٢٨ استغفروا لأخيكم
٣٠٣ أصابت الناس سنة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
٣٣٩ أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر
٧٢ أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة
٢٩٧ اقرأ عليّ القرآن
٢٨٩ ألا أنبئكم بخير أعمالكم
٢٧٥ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله
٧٥ أمسك بعض مالك فهو خير لك
٢٢٧ أن تعبد الله كأنك تراه
١١١ ، ٨٠ ، ٢٨ أنتم الذين قلتم كذا وكذا
٣٤٦ إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه
٢٠٨ إن الحلال بين
٢٨٧ أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم
٤٣٨ أن سعد بن عبادة

٣٠٦ انطلق ثلاثة رهط
٢٨٦ انظر فإنك لست بخير
٣٧٠ ، ١٨ إنك أن تدع ورثتك
١٨ إن لربك عليك حقا
٦٨ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا
٤٠٥ إن لكل عمل شرة
٢٨٤ إن الله جميل يحب الجمال
٨٢ إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات
٣٩٠ إن الله عز وجل احتجر التوبة
٣٩١ إن الله ييسط يده بالليل
٢٣٤ ، ١٧٠ ، ٧٥ إن الله يحب أن يرى أثر نعمته
١٢٥ إنما أنا بشر مثلكم
٢٣١ إنما العلم بالتعلم
٣٥٧ إنما هما اثنتان الكلام والهدى
٣٧٩ إن هذا المال حلوة خضرة
٣٨٩ ، ٢٠٤ إنه ليغان على قلبي
٣٦٤ ، ٣٥٨ أوصيكم بتقوى الله والسمع
٣٩٠ أيكم يحب أن يغدو كل يوم
٢٨٣ ، ٢٣٦ أيها الناس إن الله طيب
٣٩١ باب من قبل المغرب مسيرة عنه
٣٩٧ البر ما سكنت إليه النفس
٣٩٤ بعثت بالسيف بين يدي الساعة
٣٨٧ بلغوا عني ولو آية
١٩١ تركتكم على البيضاء
٣٦٧ تزوجوا فإني مكاثركم الأمم
٤١٧ تزوجوا الولود الودود
٤٠٤ ثلاثة حق على الله إعانتهم

٧٥ الثالث والثالث كثير
١٦٦ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان
٣٥٩ حُبَّ إليَّ من الدنيا
٣٥٩ حُبَّ إليَّ النساء والطيب
١٩٩ خير القرون القرن الذي بعثت فيه
١١٩ ، ١٠٦ خير الناس قرني
٢٠٥ دع ما يريك إلى ما لا يريك
٣٧٨ الدنيا سجن المؤمن
١٧٣ ، ٦٨ الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى
٢١٣ ذاق طعم الإيمان
٢٤٨ رأيت ربي في أحسن صورة
٢٤٦ الرؤيا ثلاث : فبشري من الله
٢٤٦ الرؤيا ثلاث : منها أهوئل الشيطان
٢٧ رد رسول الله من التبتل على عثمان بن مظعون
٢٦٧ سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل ؟
٣٧ ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم
٤٣٧ السلام عليكم أهل الديار
٤٣٧ السلام عليكم دار قوم مؤمنين
٣٣٨ صلى بنا رسول ﷺ
٣٣٧ عليكم بالسواد الأعظم
٢١٦ عيان لا تمسهما النار
٤٠٥ فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه
٢٣٩ في هذه الأمة خسف ومسح
١٥٣ قد كان في الأمم قبلكم محدثون
١٦٠ ، ٦٨ قال تعالى : ((أعددت لعبادي الصالحين))
٣٩٤ قال تعالى : ((يا ابن آدم إنك))
٢٧٤ قالوا أرأيت من يموت وهو صغير

- ١٢ كان أحب الثياب إلى النبي ﷺ أن يلبسها الحبرة
- ٤٤٢ كان رسول الله ﷺ إذا خرج من دفن الميت
- ٧٢ كنت نهيتمكم عن زيارة القبور
- ٢٧٤ ، ١٨٣ كل مولود يولد على الفطرة
- ٣٠٨ كن في الدنيا كأنك غريب
- ٣٢١ كان إذا مر بآية عذاب وقف وتعوذ
- ٣٥٧ كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه
- ٦٠ كان طعامه التمر والماء
- ٣٨٧ كان النبي ﷺ يتعوذ من علم لا ينفع
- ٤٠٢ كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت
- ١٤٠ لا أحصى ثناء عليك
- ٣٩٥ لا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك عليك
- ١١٨ لا تشددوا على أنفسكم
- ٢٨٤ لا تصاحب إلا مؤمناً
- ٣٨٨ لا تزال طائفة من أمتي منصورين
- ١١٨ لا يختلجن في نفسك شيئاً
- ٤٣٠ لا يزال أربعون رجلاً من أمتي
- ٢٩٠ لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله
- ١٥٣ لقد كان فيمن كان قبلكم
- ٤٠٥ لكني أنام وأصلي وأصوم
- ٣٢٤ لله أفرح بتوبة عبده
- ٣٨٦ اللهم أحيني مسكيناً
- ٢٣٧ اللهم إني أسألك الجنة
- ٢٤٣ اللهم إن قهلك هذه العصابة
- ٨٠ اللهم أكثر ما له وولده
- ١٠٩ اللهم إني أعوذ بك من الجوع
- ٣٨٦ ، ٣١٤ اللهم إني أعوذ بك من الفقر

٣١٤، ٣١ اللهم إني أعوذ بك من العجز
٣٨٤ المحرم ما أحل الله كالحل ما حرم الله
٣٩٥، ٣١٣ لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله
٤٠٤ لم أؤمر بالرهبانية
٢٧٩ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا
٦٧ لو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة
٢٣٩ ليكونن من أمتي
٦١ ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال
٢٠٠ ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله
٨٠، ١٧ ما أكل أحد طعاما خيرا
٤٠٧ المؤمن الذي يخالط الناس
٦٨، ٦٣ ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أصبعه
٦٧ مالي وللدنيا وما أنا في الدنيا إلا كراكب
٥٦ ما من رجل يكون في قوم
٣٢٦، ١١٠ ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه
٢٢٣ ما من مولود إلا ويولد على الفطرة
٣٠٣، ٢٩٠ من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد
٤٥٣، ٤٠٧	
١٥٠ من أخلص لله أربعين صباحاً
٤١٧ من استطاع منكم الباءة فليتزوج
٣٩١ من تاب قبل أن تطلع الشمس
٣٨٥ من ترك شيئاً لله عوض الله
٣٢٨ من جعل الهموم هما واحداً
٣٩٠ من سن سنة سيئة
٣٩٢ من عال ابنتين أو ثلاثة
١٥٠ من عمل بما علم أورثه الله
٢٨٨ من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد

- ٢٩٠ من قرأ حرفاً من كتاب الله
- ٢٩٠ من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه
- ٣٢٨ من كانت الآخرة همه
- ٤١٧ ، ٣٦٧ من كان موسراً فلم ينكح
- ١٠٠ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
- ٣٠٤ من كثر همه فليقل : اللهم إني عبدك
- ٦٨ منهم من تأخذه النار إلى كعبيه
- ٢٢٨ من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين
- ٢٩٠ الندم توبة
- ٢٨٧ نضر الله امرءاً سمع مقالتي
- ٧٥ نعم المال الصالح للمرء الصالح
- ٤٠٤ النكاح سنتي
- ١٥٥ وأسألك حبك وحب من يحبك
- ١٥٥ وأسألك لذة النظر إلى وجهك
- ٦٧ وخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير
- ٦٧ وكان ﷺ يطوي الأيام
- ٤٤٤ والذي نفسي بيده لو شئت
- ٢٤٤ والذي نفسي بيده لو أن موسى
- ١٧٣ وأنه سيكون في أمي
- ٦٨ وإن أهون أهل النار عذاباً
- ١٨ ولكني بعثت بالحنيفية
- ٢٢٨ ، ١٥٥ وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي
- ٢٢٨ ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً
- ٣٢٣ يا أيها الناس توبوا إلى الله
- ٣٤٧ يحذر ما صنعوا
- ١٥٧ يقول الله تعالى إذا كان الغالب
- ٦٨ يؤتى بجهنم يومئذ

الصفحة

٢ - فهرس الآثار

٣٥٨	اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم (ابن مسعود)
١٤٨	اقتربوا من أفواه المطيعين (عمر بن الخطاب)
٧٠	ألا إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة (علي بن أبي طالب)
٦٣	إن أخوف ما أخاف عليكم (علي بن أبي طالب)
٣٠٣	أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا .. (أنس بن مالك)
٢٢٩	أن عمر سمع صوت زمارة راع (نافع مولى بن عمر)
١٢	جعلت للنبي ﷺ بردة سوداء فلبسها (عائشة)
٦٣	دار صدق لمن صدقها (علي بن أبي طالب)
٦٩	رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده (عمر بن الخطاب)
٢٣٤	الغناء والذي لا إله إلا هو (عبد الله بن مسعود)
٦٤	فإني أوصيك بتقوى الله والزهد في الدنيا (أبو الدرداء)
٦٤	كم شهوة ساعة أورثت صاحبها (حذيفة بن اليمان)
٦٩	لم يبق على غناه درهم واحد (أبو بكر)
٧١، ٣٣	ليس خيركم الذين يتركون الدنيا للآخرة (حذيفة بن اليمان)
٣٥٨	ما ابتدع قوم بدعة في دينه (حسان بن عطية)
٣٥٨	ما أتى علي الناس عام إلا أحدثوا (ابن عباس)
٦٢	نظرت في هذا الأمر فجعلت (عمر ابن الخطاب)
٢٣٤	هو الغناء بالحميرية : اسمدي لنا (ابن عباس)
٢٩٧	يا أبا موسى ذكرنا ربنا (عمر بن الخطاب)
٣١٤	يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم (عمر بن الخطاب)

فهرس المصطلحات والكلمات الغريبة

الصفحة

٢٩	الاتحادُ
٣٤١	التَّغْيِيرُ
٢٩	الحُلُولُ
١٦٢	الاستهتارُ
١٨٧	السُّكْرُ
١٨٩	الإشراقُ
٦٨	الشُّرَاكُ
١٥٩	الفلقُ
١٨١	الفناءُ
٩	القوهيُّ
١٢١	الكشفُ الصوفي
٣٣٩	النَّوْءُ
٤٠٣	بُنياتُ الطريق
١٠٨	تَمَلَّقَ
٣٩	فيدانيت
٢٠٤	قَرَبُوسٌ
١٣	نُقْرَةٌ
٤٠	وحدةُ الوجودِ
٢٠٤	يُغَانُ
١٠٩	يَفْتُ

فهرس الأعلام

الصفحة	اسم العلم
٩٦ ، ٨	إبراهيم بن أدهم
١٣٤	أحمد بن عاصم الأنطاكي
٤٢٦ ، ٨٦ ، ١٩	أبو حمزة البغدادي
٢٣٦	أسد بن عمرو
٢٩٥	الأصبهاني : علي بن الحسين بن محمد
٢٢٦	الألوسي ، محمود شكري
٨٩	أبو طالب المكي
٢٤	أبو هاشم الصوفي
٤٤	أفلوطين
٧٦	البرجلاني : محمد بن الحسين
٤١	براون ، إدورد غرنفيل
١١٦ ، ٣٩	البسطامي : أبو يزيد
٢٢٥	بكير بن معروف
٦	البيروني ، محمد بن أحمد أبو الريحان
١١٨ ، ١٥	التستري : سهل بن عبد الله
٢٩٢	التنيسي : عبد الله بن يوسف
٢٤	الثوري : سفيان بن سعيد
١٠	الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن عمر
٢١	الجرجاني : علي بن محمد
١٨	الجريري : أبو محمد
١١٩ ، ١٥	الجنيد بن محمد
٥	الجوزي : أبو الفرح عبد الرحمن
٣٣٧	الجروي : الحسن بن عبد العزيز
٤١٩ ، ١٦٥	حاتم الأصم

١١٢، ٤٢١، ٨٩ الحارث المحاسبي
١١٠، ١٥ الحافي : بشر بن الحارث
٢٠ الحسن البصري
٢٢٩ الحسن بن صالح
٢٤١ الحسيبي : محمد بن الحسن بن عبد الله
٢٢٥ حفص بن عبد الرحمن
٧٨ أبو حفص النيسابوري
١٢١، ٢٦ الحلاج ، الحسين بن منصور
١٠ حماد بن أبي سليمان
٢٣٢ خارجة بن مصعب
٨٧ الخرار : أبو سعيد
٩ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد
١٠٧، ٩ الداراني : أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية
٩٩، ٧٧ داود الطائي : أبو سليمان
٢٢٧ الدهلوي ، أحمد بن عبد الرحيم
٩٤ الدينوري : أحمد بن محمد
١١٤، ١٥ ذوالنون المصري ، أبو الفيض
٨٨ رابعة العدوية
٣٨٩ رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز
٨ الروذباري : أحمد بن محمد
١٩ رويم بن أحمد
٢٢٩ زفر بن الهذيل
٢٣٣ زيد بن أبي الزرقاء
٤٢٣، ٣٨ سري السقطي
٨ ابن سعد : محمد بن سعد
٧٣ سفيان بن عيينة
١٦ سمنون بن حمزة الحب

٤	السهروردي : أبو حفص شهاب الدين
٢٢	الشاطبي : أبو إسحاق إبراهيم بن موسى
١٣٦	شاه بن شجاع الكرمانى
٤٠	الشبلي : أبوبكر
٩٥	شقيق البلخي
٣٠	صالح المري
٣٣٧	طاهر بن عبدالله الطبري
٢٩٣	الطباع : إسحاق بن عيسى بن نجيح
٧	الطوسي : أبو نصر السراج
٢٣٢	عبد الرزاق بن همام
٤١٣	عبد الله بن داود بن عامر بن ربيع
٣٧	عبد الله بن سبأ
٢٥٦ ، ٧٣	عبدالله بن المبارك
٣٠	عبد الواحد بن زيد
١٥٩	عتبة الغلام
٢٩٨	ابن عجيبة : أحمد بن محمد المهدي
٧٨	أبو عثمان : سعيد بن إسماعيل الحيري
١٤٠	ابن عربي : محمد بن علي بن محمد بن عربي ، أبو بكر
١١٠	علي بن خشرم
٩٥	علي بن محمد بن أحمد البغدادي
٣٤٥	ابن عليّة : إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم
٢٨٠	العمرى : عبد الله بن العزيز بن عبدالله
٢٣٨	العنبري : عبيد الله بن الحسن
٤٩	الغزالي : أبو حامد
١٠١ ، ٧٣	الفضيل بن عياض
١١	فرقد السبخي
٨	ابن قتيبة



٣	القشيري : أبو القاسم عبد الكريم
٤١٣ ، ١٠٣ ، ٩	الكرخي : أبو محفوظ معروف بن فيروز
٢٩٨	الكردي : محمد أمين بن فتح الله
٣	الكلاباذي : أبو بكر محمد
١٠	ماسينيون لويس
٩٤	محمد بن علي الحكيم الترمذي
٢٩٤	محمد طاهر المقدسي الظاهري
١٣٦	محمد بن واسع
٢٢٥	مسعر بن كدام
٩٣	منصور بن عمار
٢٢٢	الموفق بن أحمد المكي
٢٢٩	أبو نعيم ، الفضل بن دكين
٩	النضر بن شميل
١٦	النوري ، أبو الحسين
٦	نو كولد ثيودور
١١	نيكولسون : رينولد ألين
٢٨٧	النوفلي : يحيى بن يزيد بن عبد الملك
١٨٨	الواسطي ، محمد بن موسى ، أبو بكر
٨٩	الهجويري : علي بن عثمان
٢٣	الهروي : عبد الله بن محمد
٤١٥	هشيم بن بشير
٨	اليافعي : عبد الله أسعد بن علي
٧٩	يحيى بن معاذ الرازي
٢٣٤	يزيد بن هارون بن زاذي
٢٣٢	يعقوب بن إبراهيم ، أبو يوسف
٧٤	يوسف بن أسباط
١٣٧	يوسف بن حسين الرازي
٣٦٠	يونس بن عبد الأعلى

فهرس المصادر والمراجع

- ❖ أبحاث في التصوف دراسات عن الإمام الغزالي . د/ عبد الحليم محمود ، الطبعة الثانية، القاهرة ، ١٣٩٤هـ .
- ❖ ابن تيمية والتصوف . د/ مصطفى حلمي ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، دار الدعوة، ١٩٨٢م .
- ❖ أبو حامد الغزالي والتصوف ، عبد الرحمن دمشقية ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار طيبة، ١٤١٦هـ .
- ❖ أبوحنيفة . محمد أبوزهرة ، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٤هـ .
- ❖ أبوحنيفة النعمان إمام الأئمة الفقهاء . وهي سليمان غاوجي ، الطبعة الخامسة ، دمشق ، دار القلم ، ١٤١٣هـ .
- ❖ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان . للأمر علاء الدين بن بلبان ، تحقيق / كمال يوسف الحوت ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ .
- ❖ أحمد بن حنبل إمام أهل السنة . لعبد الغني الدقر ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، دار القلم ، ١٤١٣هـ .
- ❖ أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا . أحمد عبد الجواد الدومي ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٧٢م .
- ❖ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي . بيروت ، دارالمعرفة ، بهامشه المغني للعراقي .
- ❖ أخبار أبي حنيفة وأصحابه . لأبي عبد الله حسين بن علي الصيمري ، الهند ، حيدرآباد، مطبعة المعارف الشرقية ، ١٣٩٤هـ .
- ❖ أخبار الحلاج . باريس ، مطبعة العلم ، ١٩٣٦م .
- ❖ آداب الشافعي ومناقبه . لأبي حاتم الرازي ، سوريا ، مكتبة التراث الإسلامي .
- ❖ الآداب الشرعية . لابن مفلح المقدسي ، تحقيق / شعيب الأرناؤوط ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٩هـ .
- ❖ آداب النفوس . للحارث المحاسبي . تحقيق / عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٨هـ .

- ❖ أديان الهند الكبرى . د/ أحمد شلي ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨١ م .
- ❖ الاستقامة . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د / محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١١ هـ .
- ❖ الإسلام والتصوف . مصطفى عبدالرزاق وماسينيون ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٣٩٩ هـ .
- ❖ اصطلاحات الصوفية . كمال الدين عبد الرزاق القاشاني ، تحقيق / محمد كمال إبراهيم جعفر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١ م .
- ❖ أصول الدين عند الأئمة الأربعة واحدة . د/ ناصر بن عبد الله القفاري ، الطبعة الأولى، الرياض ، دار الوطن ١٤١٤ هـ .
- ❖ أصول الدين . لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠١ هـ .
- ❖ أضواء على التصوف . د / طلعت أحمد غنام ، القاهرة ، عالم الكتب ، بدون ذكر الطبع والتاريخ .
- ❖ الاعتصام . لأبي إسحاق إبراهيم الشاطبي ، تحقيق / عبد الرزاق المهدي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤١٧ هـ .
- ❖ الأعلام . خير الدين الزركلي ، الطبعة التاسعة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٩٠ م .
- ❖ أعلام النساء . لعمر رضا كحالة ، الطبعة الثالثة ، المطبعة الهاشمية ، ١٣٧٩ هـ .
- ❖ إغاثة اللفهان من مصاديد الشيطان . ابن القيم الجوزية ، تحقيق / الدكتور السيد الجميلي ، القاهرة ، دار الحديث ، بدون ذكر الطبع والتاريخ .
- ❖ اقتضاء الصراط المستقيم . شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د/ ناصر العقل ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ هـ .
- ❖ الإمام الأعظم أبو حنيفة المتكلم . عناية الله إبلاغ ، مصر ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٩٧١ م .
- ❖ الأم . للإمام الشافعي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٣٩٣ هـ .

- ❖ الإمام الجنيد والتصوف في القرن الثالث الهجري . زهير ظاظا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الخير ، ١٤١٤هـ .
- ❖ الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر . لعبد الغني الدقر ، الطبعة الثانية ، دمشق ، دارالقيم ، ١٣٩٦هـ .
- ❖ الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول . عبد الحليم الجندي ، القاهرة ، دارالمعارف ، ١٩٧٧م .
- ❖ الأنساب . لعبد الكريم السمعاني ، الطبعة الأولى ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية .
- ❖ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل . عبد الكريم الجيلي ، مصر ، مطبعة الحلبي .
- ❖ الأئمة الأربعة ، لأحمد الشرباصي ، بيروت ، دار الجيل .
- ❖ إيقاظ الهمم في شرح الحكم . لابن عجيبة ، بيروت ، دار المعرفة ، وبهامشه الفتوحات الإلهية له .
- ❖ البحر المحيط . لمحمد بن يوسف المعروف بأبي حيان ، الرياض ، مكتبة النصر الحديثة .
- ❖ البداية والنهاية . أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مكتبة المعارف ، ١٩٧٧م .
- ❖ براءة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين المبتدعة . د/ عبد العزيز أحمد بن محسن الحميدي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار ابن عفان ، ١٤٢٠هـ .
- ❖ بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز . لمجد الدين الفيروزآبادي ، تحقيق / محمد علي النجار ، القاهرة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٣٨٣هـ .
- ❖ البصائر للمتوسلين بالمقابر . للشيخ محمد طاهر ، طبعة الدوحة بقطر ، ١٤٠٣هـ .
- ❖ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تصحيح وتكميل وتعليق / محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، مطبعة الحكومة ١٣٩١هـ .
- ❖ تاريخ بغداد . أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، بيروت ، دار الكتاب العربي .
- ❖ التصوف في الإسلام : منابعه وأطواره . محمد الصادق عرجون ، مكتبة الكليات الأزهرية .

- ❖ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . للدكتور حسن إبراهيم حسن ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤ م .
- ❖ تاريخ التصوف في الإسلام . د/ قاسم غني ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م .
- ❖ تاريخ التصوف الإسلامي منذ البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري . د/ عبد الرحمن بدوي ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٩٣ م .
- ❖ تاريخ الطبري . لأبي جعفر الطبري ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار المعارف .
- ❖ تاريخ علماء الأندلس . لابن الفرضي ، الدار المصرية ، للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م .
- ❖ تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون عمر فروخ ، بيروت ، دار القلم ، ١٣٩٢ هـ .
- ❖ تاريخ الفلسفة الإسلامية . د/ ماجد فخري ، بيروت ، الدار المتحدة ، ١٩٨٤ م .
- ❖ التاريخ الكبير . للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ❖ تبسيط الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان . للإمام السيوطي ، تعليق/ محمد عاشق إلهي ، بيروت ، دار الأرقم .
- ❖ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردوذة . لأبي الريحان البيروني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٤٠٣ هـ .
- ❖ التجانية . لعلي بن محمد الدخيل الله ، الرياض ، دار طيبة .
- ❖ التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار . لابن رجب الحنبلي ، تحقيق / بشير محمد عون ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، مكتبة دار البيان ، ١٤١٣ هـ .
- ❖ تذكرة الحفاظ . للإمام شمس الدين الذهبي ، دار إحياء التراث العربي .
- ❖ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . للقاضي عياض ، تحقيق د/ أحمد بكير محمود ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .
- ❖ تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف . ترتيب وتعليق الشيخ / محمد كنعان ، بيروت ، دار القلم .
- ❖ التصوف الإسلامي : تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره . أحمد توفيق عياد ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٠ م .
- ❖ التصوف الإسلامي ومدارسه . د/ محمد جلال شرف ، الإسكندرية ، دار المطبوعات الجامعية .

- ❖ التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق . الدكتور / زكي مبارك ، بيروت ، دار الجليل .
- ❖ التصوف بين الحق والخلق . محمد فهد شفقة ، الطبعة الثالثة ، تونس ، الدارالسلفية ، ١٩٨٣ م .
- ❖ التصوف الثورة الروحية في الإسلام . د/ أبو العلا عفيفي ، بيروت ، دار الشعب .
- ❖ التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث . د/ مصطفى حلمي ، الإسكندرية ، دار الدعوة .
- ❖ التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام . لعبد الكريم الخطيب ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٠ م .
- ❖ التصوف : المنشأ والمصادر . إحسان إلهي ظهير ، الطبعة الأولى ، لاهور ، إدارة ترجمان السنة ١٤٠٦ هـ .
- ❖ التصوف منشؤه ومصطلحاته . الدكتور / أسعد السحمراني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار النفائس للطباعة والنشر ، ١٤٠٧ هـ .
- ❖ التعرف لمذهب أهل التصوف . لأبي بكر محمد بن إبراهيم الكلاباذي ن طبع مكتبة الكلية الأزهرية ، بدون تاريخ .
- ❖ تفسير الإمام الشافعي . للإمام الشافعي ، جمعه وحققه / مجدي بن منصور بن سيد الشوري ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦ هـ .
- ❖ تفسير القرآن العظيم . لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٨ هـ .
- ❖ تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ، عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة . لمحمد أحمد لوج ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار الهجرة ، ١٤١٦ هـ .
- ❖ تقريب التهذيب . لابن حجر العسقلاني ، تحقيق الشيخ / خليل مأمون شيخا ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٤١٧ هـ .
- ❖ تلبس إبليس . لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق الدكتور / السيد الجميلي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤١٥ هـ .
- ❖ تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب . لمحمد أمين كردي ، الطبعة الأولى ، سوريا ، دار القلم العربي ، ١٤١١ هـ .

- ❖ تهذيب الأسرار . لعبد الله بن محمد النيسابوري المركوشي ، تحقيق / بسام محمد بارود، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، ١٩٩٩ م .
- ❖ تهذيب الأسماء واللغات . للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ، القاهرة ، إدار الطباعة المنيرية .
- ❖ توالي التأسيس . لابن حجر العسقلاني . طبعة القاهرة ١٣٠١هـ ، طبع مع كتاب الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية .
- ❖ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد . للشيخ سليمان بن عبد الله ، بيروت ، المكتب الإسلامي .
- ❖ التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول . مجاهد مصطفى بهجت ، الطبعة الأولى، العراق ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، ١٩٨٢ م .
- ❖ جامع البيان عن تأويل القرآن . لابن جرير الطبري ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
- ❖ جامع بيان العلم وفضله . لأبي عمر يوسف بن عبد البر ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ❖ الجامع الصغير . للأمام جلال الدين السيوطي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ .
- ❖ جامع العلوم والحكم . لابن رجب الحنبلي ، بيروت ، دار المعرفة .
- ❖ الجامع لأحكام القرآن . للإمام أبي عبد الله القرطبي ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دارالكاتب العربي .
- ❖ الجرح والتعديل . للإمام الرازي ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ❖ جماعة التبليغ في شبه القارة الهندية . د/ أبو أسامة سيد طالب الرحمن ، الطبعة الأولى ، إسلام آباد ، دار البيان للنشر والتوزيع ، ١٤١٩هـ .
- ❖ جمهرة الأولياء وأعلام التصوف . لمحمد أبو الفيض المنوفي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٦٧ م .
- ❖ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية . د/ عبد الفتاح عبد الله بركة ، القاهرة ، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية .



- ❖ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . لأبي نعيم أحمد الأصفهاني ، دراسة وتحقيق / مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ .
- ❖ حياة الإمام أبي حنيفة ، للسيد عفيف ، القاهرة ، المطبعة السلفية .
- ❖ الحياة الروحية في الإسلام . د/ محمد مصطفى حلمي ، الهيئ المصرية للنشر ، ١٩٧٠م .
- ❖ الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان . لابن حجر الهيتمي ، تعليق عاشق إلهي ، بيروت ، دار العلم .
- ❖ دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين " الخوارج والشيعة " د/ أحمد جلي ، الطبعة الثانية ، الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٠٨هـ .
- ❖ دراسات في الأهواء الفرق والبدع وموقف الإسلام منها . د/ ناصر عبد الكريم العقل ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار أشبيليا ، ١٤١٨هـ .
- ❖ دراسات في التصوف الإسلامي ظلاله في الأدب العربي . محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ، دار الطباعة المحمدية .
- ❖ دراسات في الفلسفة الإسلامية . د/ محمود قاسم ، الطبعة الخامسة ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٧٣م .
- ❖ درء تعارض العقل والنقل . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د. / محمد رشاد سالم ، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٠هـ .
- ❖ الديباج المذهب . لابن فرحون المالكي ، تحقيق / محمد الأحمد أبو النور ، القاهرة دار التراث للطبع والنشر .
- ❖ الديانات والعقائد في مختلف العصور . لأحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، ١٤٠١هـ .
- ❖ ديوان الإمام الشافعي . جمعه وعلق عليه / محمد عفيف الزغي ، الطبعة الثالثة ، جدة دار العلم للطباعة ، ١٣٩٢هـ .
- ❖ ديوان الإمام الشافعي . جمعه وشرحه نعيم زوزور ، تقديم د. / مفيد قميحة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، الكتب العلمية ، ١٤٠٤هـ .
- ❖ ذم الكلام . لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي ، تحقيق / عبد الرحمن بن عبد العزيز الشبل ، الطبعة الأولى ، المدينة المنورة ، مكتة العلوم والحكم ١٤١٦هـ .

- ❖ ذم ما عليه مدعو التصوف . لابن قدامة المقدسي ، تحقيق / زهير الشاوش ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، المكتب الإسلامي .
- ❖ ذم الملاهي . لابن أبي الدنيا ، نشر دار الإعتصام .
- ❖ الرد على المنطقيين . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة الثانية ، لاهور ، مطبعة معارف ، ١٣٩٦هـ .
- ❖ الرسالة . للإمام الشافعي ، تحقيق / أحمد محمد شاكر ، بيروت ، المكتبة العلمية .
- ❖ الرعاية لحقوق الله . للحارث المحاسبي ، تحقيق / عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٠هـ .
- ❖ الرسالة القيشيرية . لأبي القاسم عبد الكريم القيشري ، تحقيق / معروف زريف ، وعلي عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الخير ، ١٤١٦هـ .
- ❖ الرسالة اللدنية ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي . الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ .
- ❖ رسالة المسترشددين . للحارث المحاسبي ، تحقيق / عبدالفتاح أبو غدة ، الطبعة الثانية ، حلب ، مكتب المطبوعات الإسلامية .
- ❖ الرسائل الشمولية . د. / عبد العزيز بن عبدالله الحميدي ، دار الدعوة بالإسكندرية ، ودار العيون بمكة المكرمة .
- ❖ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . محمود شكري الألوسي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .
- ❖ روضة التعريف بالحب الشريف . للسان الدين الخطيب ، تحقيق وتعليق / عبد القادر أحمد عطا ، طبع دار الفكر العربي .
- ❖ روضة الطالبين وعمدة السالكين . ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ .
- ❖ رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها . د. / أحمد بن ناصر الحمد ، الطبعة الأولى ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ١٤١١هـ .
- ❖ روضة الطالبين . لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي ، بيروت ، الكتب الإسلامي .
- ❖ رياض الصالحين . للإمام النووي ، تحقيق / عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق ، الطبعة الثالثة عشر ، دمشق ، دار المأمون للتراث ، ١٤١٢هـ .



- ❖ الزهد . للإمام أحمد بن حنبل ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤ هـ .
- ❖ الرهد . للإمام هناد بن السري ، تحقيق / محمد أبو الليث الخير آبادي ، قطر ، مطابع الدوحة الحديثة .
- ❖ الزهر النضر في نبأ الخضر . لابن حجر العسقلاني ، تعليق / سمير حسين حلي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨ هـ .
- ❖ الزواجر عن اقتراف الكبائر . لمحمد بن علي بن حجر الهيثمي ، بيروت ، دار المعرفة ١٤٠٨ هـ .
- ❖ السبق التربوي في فكر الإمام الشافعي . بدر محمد مالك وغيره ، الكويت ، مكتبة المنار الإسلامية ، ١٤٠٩ هـ .
- ❖ سلسلة الأحاديث الصحيحة . للشيخ الألباني ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، والرياض، مكتبة المعارف .
- ❖ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة . للشيخ الألباني ، بيروت ، المكتب الإسلامي والرياض مكتبة المعارف ١٤٩٨ هـ .
- ❖ سنن ابن ماجه . لمحمد يزيد القزويني ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٢ هـ ، وكذلك تحقيق/ محمد مصطفى الأعظمي ، بالكمبيوتر .
- ❖ سنن أبي داود ، لأبي داود سليمان السبتي ، تحقيق عزت الدعاس ، بيروت ، دار الحديث للطباعة ، ١٣٨٨ هـ .
- ❖ سنن الترمذي . لأبي عيسى محمد الترمذي ، تحقيق / عبد الرحمن عثمان ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، ١٣٩٤ هـ .
- ❖ سنن الدارمي . لعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، نشر دار إحياء السنة النبوية .
- ❖ سنن النسائي . لأحمد بن شعيب النسائي ، بهامشه حاشية السيوطي والسندي ، دار الكتب العلمية .
- ❖ السنن الكبرى . لأحمد بن الحسن البیهقي ، بيروت ، دار المعرفة .
- ❖ سير أعلام النبلاء . للإمام الذهبي ، الطبعة الحادية عشرة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٩ هـ .
- ❖ سيرة عمر بن العزيز . لابن الجوزي ، طبعة بيروت ، دار الفكر .

- ❖ شخصيات قلقة في الإسلام . د./ عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٨ م .
- ❖ شذرات الذهب . لابن العماد ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٩ هـ .
- ❖ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة . للألكائي ، تحقيق د./ أحمد سعد حمدان ، الطبعة الثالثة ، الرياض ، دار طيبة ١٤١٥ هـ .
- ❖ شرح عين العلم وزين الحلم. للملا علي القاري ، بيروت ، دار المعرفة .
- ❖ شرح العقيدة الطحاوية . لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق الشيخ الألباني ، دار الفكر العربي .
- ❖ شرح كتاب الفقه الأكبر . للملا علي القاري ، تحقيق / علي محمد دندل ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦ هـ .
- ❖ شطحات الصوفية . د./ عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثانية ، الكويت ، نشر وكالات المطبوعات ، ١٩٧٦ م .
- ❖ شعب الإيمان . للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسن بن علي البيهقي .
- ❖ شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث الهجريين . عطوي علي نجيب ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٩٨١ م .
- ❖ الشفا بتعريف حقوق المصطفى . للقاضي عياض ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٩ هـ .
- ❖ شفاء السائل في تهذيب المسائل . لابن خلدون ، بحوث ودراسات بمعهد الآداب الشرقية في بيروت ، المطبعة الكاثوليكية .
- ❖ شيخ الأمة أحمد بن حنبل . عبد العزيز سيد الأهدل ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٢ م .
- ❖ الصارم المنكي في الرد على السبكي . لمحمد بن أحمد عبد الهادي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ❖ الصحاح . إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٣٩٩ م .
- ❖ صحيح البخاري . للإمام إسماعيل البخاري ، ضبط وتخرّيج د./ مصطفى ديب البغا ، الطبعة الأولى ، دمشق ، وبيروت ، دار القلم ، ١٤٠١ هـ .



- ❖ صحيح الجامع الصغير وزيادته . للشيخ الألباني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٤٠٦هـ .
- ❖ صحيح سنن ابن ماجه . للشيخ الألباني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٧هـ .
- ❖ صحيح سنن الترمذي . للشيخ الألباني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٨هـ .
- ❖ صحيح سنن النسائي . للشيخ الألباني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٨هـ .
- ❖ صحيح مسلم . للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٣هـ .
- ❖ صفة الصفوة . لأبي الفرج ابن الجوزي ، طبعة الهند ، ١٣٨٨هـ .
- ❖ الصوفية في نظر الإسلام . سميح عاطف الدين ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني .
- ❖ الصوفية في الإسلام . لينكولسون ، ترجمة نور الدين شريعة ، طبعة مكتبة الخانجي ، ١٩٥١م .
- ❖ الصوفية (معتقدا ومسلكا) . د. / صابر طعيمة ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار عالم الكتب ، ١٤٠٥هـ .
- ❖ الصوفية : نشأتها وتطورها . محمد العبد وطارق عبد الحليم ، الطبعة الرابعة ، الرياض ، مكتبة الكوثر ، ١٤٢٢هـ .
- ❖ الصوفية والعقل . د. / محمد عبد الله الشرقاوي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الجيل ١٤١٦هـ .
- ❖ الصوفية والفقراء . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تقديم د. / محمد جميل غازي ، القاهرة ، مطبعة المدني .
- ❖ الصلة بين التصوف والتشيع . د. / كامل شيب ، الطبعة الثانية ، مصر ، دار المعارف .
- ❖ صلة الله بالكون في التصوف الفلسفي . لسعيد سراج عقيل ، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى . ١٤١٤هـ .

- ❖ صيد الخاطر . لأبي الفرج ابن الجوزي ، تحقيق / محمد عبد الرحمن عوض ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤١٧هـ .
- ❖ ضعيف الجامع الصغير وزيادته . للشيخ الألباني ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٣٩٩هـ .
- ❖ طبقات ابن سعد . محمد بن سعد ، بيروت ، دار صادر ١٣٨٠هـ .
- ❖ طبقات الأولياء . لابن الملقن ، تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ .
- ❖ طبقات الحنابلة . للقاضي أبي يعلى ، تحقيق / محمد حامد الفقي ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧١هـ .
- ❖ الطبقات السنية في تراجم الحنفية . لثقي الدين التميمي الغزي ، تحقيق د. / عبد الفتاح محمد الحلف ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار الرفاعي ، ١٤٠٣هـ .
- ❖ طبقات الشافعية . تاج الدين أبو نصر السبكي . تحقيق / محمود محمد الطناحي ، وعبد الفتاح محمد حلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٨٣هـ .
- ❖ طبقات الصوفية . لأبي عبد الرحمن السلمي ، تحقيق / نورالدين شريية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٤٠٦هـ .
- ❖ طبقات الفقهاء . لأبي إسحاق الشيرازي ، تحقيق / إحسان عباس ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٧٠م .
- ❖ الطبقات الكبرى . عبد الوهاب الشعراني ، الطبعة الأولى ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي ، ١٣٧٣هـ .
- ❖ الطريق إلى ولاية الله . الأمين الحاج محمد أحمد ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار المطبوعات الحديث ، ١٤١٠هـ .
- ❖ طريق المهجرتين وباب السعادتين . لابن القيم الجوزية ، تحقيق / أبي الزهراء حازم القاضي ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، مكتة نزار مصطفى الباز ، ١٤١٥هـ .
- ❖ ظهر الإسلام . لأحمد أمين ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار الكتاب العربي .
- ❖ العالم الإسلامي في العصر العباسي . د. / حسن أحمد محمود ود. / أحمد إبراهيم الشريف ، الطبعة الخامسة ، دار الفكر .

- ❖ عبد الله بن المبارك الإمام القدوة . محمد عثمان جمال ، الطبعة الرابعة ، دمشق ، دار العلم ، ١٤١٠هـ .
- ❖ عبد الله بن المبارك المروزي . د. / عبد الحميد المحتسب ، طبعة عمان ، ١٣٩٢هـ .
- ❖ عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة . لابن شاس ، تحقيق د. / محمد أبو الأحفان وغيره ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي .
- ❖ العقل وفهم القرآن . للحارث المحاسبي ، تحقيق / حسين القوثلي ، طبعة بيروت ، ١٩٧١م .
- ❖ عقود الجمان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان . محمد بن يوسف الصالحی ، الهند ، مطبعة المعارف الشرقية ، ١٣٩٤هـ .
- ❖ علم القلوب . لأبي طالب المكي ، تحقيق / عبد القادر عطا ، مكتبة القاهرة .
- ❖ عوارف العارف . أبو حفص شهاب الدين السهروردي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٦م .
- ❖ عيون الأخبار . لابن قتيبة ، القاهرة ، دار الكتب ، ١٣٤٣هـ .
- ❖ الغنية لطالبي طريق الحق . عبد القادر الجيلاني ، الطبعة الثالثة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
- ❖ غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية . محمد إبراهيم النفري ، تحقيق / عبد الحليم محمود ، ود. / محمود الشريف ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ، ١٣٩٠هـ .
- ❖ الفتاوى الكبرى . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق وتعليق / محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ .
- ❖ فتح الباري شرح صحيح البخاري . لابن حجر العسقلاني ، تحقيق وتصحيح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٤هـ .
- ❖ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد . عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، الطبعة السادسة ، طبعة دار الفكر ، ١٣٩٧هـ .
- ❖ في التصوف الإسلامي وتاريخه . لرينولدنيكولسون ، ترجمة أبي العلا عفيفي ، طبعة القاهرة ، ١٣٨٨هـ .
- ❖ في التصوف والأخلاق . د. / عبد الفتاح عبد الله بركة ، الطبعة الأولى ، الكويت ، دار القلم ، ١٤٠٣هـ .

- ❖ الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأهلية . لابن عجيبة الحسني ، بيروت ، دار المعرفة
- ❖ الفتوحات المكية . لابن عربي ، تحقيق د./ عثمان يحيى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ م .
- ❖ فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام . د./ غالب بن علي عواجي ، الطبعة الخامسة ، مصر ، دار لينة النشر ١٤٢١ هـ .
- ❖ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٣٩٧ هـ .
- ❖ فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها . د/ أحمد سعد حمدان ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار طيبة ، ١٤١٥ هـ .
- ❖ الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة . لعبد الرحمن عبد الخالق ، الطبعة لثانية ، الكويت ، مكتبة ابن تيمية .
- ❖ فلسفة الحياة الروحية . د./ مقداد يالجن ، الطبعة الثانية ، الرياض ن دار عالم الكتب ١٤١٠ هـ .
- ❖ الفلسفة الصوفية في الإسلام . د./ عبد القادر محمود ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م .
- ❖ الفهرست . لابن النديم ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦ هـ .
- ❖ الفوائد . لابن القيم الجوزية ، تحقيق / بشير محمد عون ، الطبعة الأولى ، دمشق ، مكتبة دارالبيان ، ١٤٠٧ هـ .
- ❖ قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / علي بن عبد العزيز الشبل ، الطبعة الأولى ، الرياض دار الصميعي ١٤١٦ هـ .
- ❖ القاموس المحيط . لفيروزآبادي ، بيروت ، طبعة المؤسسة العربية للطباعة والنشر .
- ❖ قصة الحضارة . ول ديوزانت ، ترجمة زكي نجيت محمود ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨ م
- ❖ قوت القلوب . لأبي طالب المكي ، القاهرة ، المطبعة المصرية ، ١٩٣٢ م .
- ❖ كتاب بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم . ليوسف عبد الهادي ، تحقيق د./ وصي الله عباس . الطبعة الأولى ، الرياض ، دار الراية ١٤٠٩ هـ .
- ❖ كتاب التعريفات . للجرجاني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٨ هـ .
- ❖ كتاب التوحيد . محمد إسحاق بن خزيمة ، بيروت ، دار الجليل ، ١٤٠٨ هـ .



- ❖ كتاب ختم الأولياء . محمد بن علي الحكيم الترمذي ، تحقيق / عثمان إسماعيل يحيى ، بيروت ، الطبعة الكاتوليكية .
- ❖ كتاب الزهد . للإمام وكيع بن الجراح ، تحقيق / عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي ، الطبعة الثانية ، الرياض ، دار الصميعي، ١٤١٥هـ .
- ❖ كتاب الزهد والرقائق . عبد الله بن المبارك ، تحقيق / حبيب الرحمن الأعظمي ، بيروت، دار الكتب العلمية .
- ❖ كتاب الزهد الكبير . للبيهقي ، تحقيق د./ تقي الدين الندوي ، الطبعة الثانية ، الكويت ، دار القلم ، ١٤٠٣هـ .
- ❖ كتاب الصدق . لأبي سعيد الخراز . تصحيح وتعليق حسن السماحي سويدان ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار القادري ، ١٤١٨هـ .
- ❖ كتاب السنة . لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال . تحقيق د./ عطية بن عتيق الزهراني ، الطبعة الثانية ، الرياض ، دار الراية ، ١٤١٥هـ .
- ❖ كتاب الصفدية . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / محمد رشاد سالم . الطبعة الأولى منصوره ، دار الهدى ، والرياض ، دار الفضيلة ، ١٤٢١هـ .
- ❖ كتاب الفقه الأكبر . للإمام أبي حنيفة ، الطبعة الثانية ، الهند ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٧٣هـ .
- ❖ الكتاب المقدس - العهد القديم والعهد الجديد - ترجمة من اللغات الأصلية ، القاهرة، دار الكتاب المقدس .
- ❖ كتاب الورع . للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق د./ مصطفى محمد حسين الذهبي ، الطبعة الأولى ، مكة ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، ١٤١٨هـ .
- ❖ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس . لإسماعيل ابن العجلوني ، تصحيح وتعليق / أحمد القلاش ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ .
- ❖ الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ . محمود عبدالرؤوف قاسم ، الطبعة الثانية ، عمان ، المكتبة الإسلامية ، ١٤١٣هـ .
- ❖ كشف القناع عن حكم الوجد والسماع . لأحمد بن عمر القرطبي ، تحقيق / عبد الله محمد الطريقي ، الرياض ، ١٤١١هـ .

- ❖ كشف المحجوب . عثمان بن سعيد الهجويري ، ترجمة د. / سعاد عبد الهادي ، مصر ، ١٣٩٥هـ .
- ❖ الكلام على مسألة السماع . لابن القيم الجوزية ، تحقيق / راشد بن عبد العزيز الحمد ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤٠٩هـ .
- ❖ كمياء السعادة . ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي . الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ .
- ❖ لسان العرب . لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور ، بيروت ، دار صادر .
- ❖ لسان الميزان . لابن حجر العسقلاني . الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦هـ .
- ❖ اللمع . لأبي نصر السرج الطوسي ، تحقيق د. / عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور ، مصر ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٠هـ .
- ❖ مالك بن أنس إمام دار الهجرة . عبد الحليم الجندي ، مصر ، دار المعارف .
- ❖ مالك ، حياته وعصره . لمحمد أبو زهرة ، طبع دار الفكر العربي .
- ❖ مجلة الإسلام و التصوف ، السنة الثالثة ، العددان ، ٩ ، ١٠ ، مصر ، ١٩٦١م .
- ❖ المجموع شرح المذهب . للإمام أبي زكريا النووي ، بيروت ، دار الفكر .
- ❖ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . لأبي بكر الهيثمي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ .
- ❖ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، طبعة الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين .
- ❖ مجموعة الرسائل والمسائل . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ❖ مختار الصحاح . لمحمد أبي بكر الرازي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ .
- ❖ مختصر منهاج القاصدين . لابن قدامة المقدسي ، تحقيق / عبد الله الليث الأنصاري ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٤٠٩هـ .
- ❖ مدارج السالكين . لابن القيم الجوزية ، تحقيق / محمد معتصم بالله البغدادي ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤١٧هـ .
- ❖ المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب . لعبد الرزاق محمد أسود ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العربية للموسوعات ، ١٩٨١م .



- ❖ مدخل إلى التصوف الإسلامي . د. / أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر ١٩٨٣ م .
- ❖ المدخل . لابن الحاج المالكي . بيروت ، دار الفكر .
- ❖ المدهش . لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، بيروت ، المؤسسة العالمية ، ١٩٧٣ م
- ❖ المدونة الكبرى . للإمام مالك ، رواية سحنون ، القاهرة ، مطبعة السعادة .
- ❖ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر به من حوادث الزمان . لليافعي ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي ، ١٩٧٠ م .
- ❖ مروج الذهب . علي بن الحسين المسعودي ، تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، دار الفكر ، ١٣٣٣ هـ .
- ❖ المسائل في أعمال القلوب والجوارح . للحارث المحاسبي . تحقيق / عبد القادر أحمد عطا ، القاهرة ، عالم الكتب .
- ❖ مسائل الإمام أحمد . رواية ابن هانئ ، تحقيق / زهير الشاوش ، بيروت ، المكتب الإسلامي .
- ❖ مستدرک الحاكم على الصحيحين . لأبي عبد الله الحاكم ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ❖ مسائل الإمام أحمد . رواية عن عبد الله بن أحمد ، تحقيق / زهير الشاوش ، بيروت ، المكتب الإسلامي .
- ❖ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة . د. / عبد الإله الأحمد ، الطبعة الثانية ، دار طيبة ، ١٤١٦ هـ .
- ❖ المسند . للإمام أحمد بن حنبل ، بيروت ، الكتب الإسلامي .
- ❖ مشكاة المصابيح . لمحمد عبد الله التريزي ، تحقيق الشيخ الألباني ، الطبعة الأولى ، بيروت ودمشق ، المكتب الإسلامي ، ١٣٨٩ هـ .
- ❖ المصباح المنير . لأحمد المقري ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤ هـ .
- ❖ مصرع الشرك والخرافة . خالد محمد علي الحاج ، تحقيق / عبد الله إبراهيم الأنصاري ، قطر ، إدارة الشؤون الدينية ، ١٣٩٨ هـ .
- ❖ مصادر التلقي عند الصوفية . هارون بن بشير أحمد صديقي ، الطبعة الأولى ، الرياض دار الراية ، ١٤١٧ هـ .

- ❖ مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيئ على الأمة الإسلامية . إدريس محمود إدريس ، الطبعة الأولى ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤١٩هـ .
- ❖ مع المسلمين الأوائل في نظرهم للحياة والقيم . د. / مصطفى حلمي ، الطبعة الثانية ، دار الدعوة ، ١٩٨٩م .
- ❖ معالم في السلوك وتركية النفوس . لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار الوطن ، ١٤١٤هـ .
- ❖ معجم مقاييس اللغة . لأبي الحسن أحمد بن فارس ، تحقيق / عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠هـ .
- ❖ معجم المؤلفين . لعمر رضا كحالة ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .
- ❖ معجم الأدباء . ليقوت الحموي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٠هـ .
- ❖ معجم مصطلحات الصوفية . د. / عبد المنعم الحفني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار المسيرة ، ١٤٠٠هـ .
- ❖ المعيار المعرب والجامع المغرب . لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي ، خرجه جماعة من الفقهاء ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي .
- ❖ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . لابن القيم الجوزية ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ❖ مقدمة ابن خلدون من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخير . لعبد الرحمن بن خلدون ، القاهرة ، دار المصحف .
- ❖ مكانة الإمام أبي حنيفة بين المحدثين . د. / محمد قاسم عبده الحارثي ، الطبعة الأولى ، مكة ، مطابع الصفاء ، ١٤١٣هـ .
- ❖ الملل والنحل . لمحمد عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق / عبد العزيز محمد الوكيل ، بيروت ، دار الفكر .
- ❖ مناقب الإمام أحمد بن حنبل . لابن الجوزي ، الطبعة الثانية ، بتصحيح ناشره محمد أمين الخانجي الكتبي ، بيروت .
- ❖ مناقب الإمام الشافعي . لأبي بكر أحمد البيهقي ، تحقيق / السيد أحمد صقر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة دار التراث ، ١٩٧١م .



- ❖ مناقب أبي حنيفة . للموفق بن أحمد المكي ، وحافظ الدين الكردي ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨١ م .
- ❖ المنقذ من الضلال . أبو حامد الغزالي ، دار العلم للجميع .
- ❖ المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد . لأبي اليمن العليمي ، تحقيق / عبد القادر ومحمود الأرناؤوط ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار صادر . ١٩٩٧ م .
- ❖ المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم الجوزية ، تحقيق / أبو غدة ، الطبعة الثانية ، حلب ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، ١٤٠٢ هـ .
- ❖ منهاج السنة النبوية . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / محمد رشاد سالم ، الرياض ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٦ هـ .
- ❖ منهج الإمام مالك في إثبات العقيدة . سعود بن عبد العزيز الدعجان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤١٦ هـ .
- ❖ مواعظ الإمام أبي سليمان الداراني . صالح أحمد الشامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤١٩ هـ .
- ❖ مواعظ الإمام الشافعي . صالح أحمد الشامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤١٩ هـ .
- ❖ الموافقات في أصول الشريعة . لإبراهيم الشاطبي ، بيروت ، دار المعرفة .
- ❖ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية . لأحمد العشقلاني ، تحقيق / صالح أحمد الشامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤١٢ هـ .
- ❖ موسوعة أهل السنة والجماعة . لعبد الرحمن دمشقية ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار المسلم ، ١٤١٨ هـ .
- ❖ موسوعة أخلاق القرآن . للدكتور / أحمد الشرباصي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٤٠١ هـ .
- ❖ موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، بإشراف د. / صالح بن عبد الله بن حميد وغيره ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار الوسيلة ، ١٤١٨ هـ .
- ❖ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٩ هـ .

- ❖ الموضوعات . لابن الجوزي ، تحقيق / عبد الرحمن محمد عثمان ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤٠٧هـ .
- ❖ الموفي بمعرفة التصوف والصوفي . لكمال الدين الأذفوي ، تحقيق د./ محمد عيسى صالحية ، الطبعة الأولى ، الكويت ، مكتبة دار العروبة ، ١٤٠٨هـ .
- ❖ موقف الإسلام من الإلهام " والكشف " والرؤي ومن التمايم والكهانة والرقي . للدكتور / يوسف القرضاوي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٧هـ .
- ❖ موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية . د./ أحمد محمد الباني ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار العلم ، ١٤٠٦هـ .
- ❖ ميزان الاعتدال في نقد الرجال . للحافظ الذهبي ، بيروت ، دار المعرفة .
- ❖ نشأة التصوف الإسلامي . الدكتور/ إبراهيم بسيوني ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٦٩م
- ❖ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . د./ علي سامي النشار ، الطبعة السابعة ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٧٨م .
- ❖ نظرية الاتصال عند الصوفية في نظر الإسلام . سارة بنت عبد المحسن بن عبد الله بن جلوى آل سعود ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار المنارة ، ١٤١١هـ .
- ❖ النور من كلمات أبي طيفور ، لأبي الفضل الفلكي ، تحقيق د./ عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثانية ، الكويت ، وكالة المطبوعات مع شطحات الصوفية ، ١٩٧٦م .
- ❖ النهاية في غريب الحديث . لابن الأثير ، بيروت ، دار الفكر .
- ❖ وفيات الأعيان . لشمس الدين ابن خلكان ، تحقيق د./ إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٧م .
- ❖ ولاية الله والطريق إليها . الدكتور / إبراهيم هلال ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة .
- ❖ هذه هي الصوفية . لعبد الرحمن الوكيل ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤م .
- ❖ اليواقيت والجواهر . لعبد الوهاب الشعراني ، القاهرة ، المطبعة الحجازية ، ١٣٥٣هـ ، بهامشه الكبرى الأحمر للشعراني .

فهرس الموضوعات

ب	المقدمة
ز	كلمة شكر وتقدير
٢١٦-١	الباب الأول : التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين
٥٩-٢	الفصل الأول : مفهوم التصوف ونشأته ومصادره
٣	المبحث الأول : تعريف التصوف
٣	اشتقاق كلمة التصوف
١١	خلاصة الكلام في كلمة التصوف
١٤	تعريف التصوف لدى الصوفية
٢٠	تعريف التصوف عند علماء الإسلام
٢٤	المبحث الثاني : نشأة التصوف
٢٤	إن التصوف إسلامي النشأة
٢٩	إن التصوف ليس إسلامي النشأة
٣٠	أكثر الآراء وأعد لها حكما على التصوف
٣٣	الخلاصة في نشأة التصوف
٣٤	المبحث الثالث : عوامل نشأة التصوف
٣٤	١- المبالغة في التنسك والتعبد
٣٥	٢- عامل نزعة الزهد في الإسلام
٣٦	٣- العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية
٣٧	٤- عامل التشيع
٣٧	٥- دخول النظريات الفلسفية والدينية الأخرى
٣٩	المبحث الرابع : مصادر التصوف
٣٩	١- المصدر الأول : أديان الهند الوثنية
٤٥	٢- المصدر الثاني : الأفكار اليونانية
٤٨	٣- المصدر الثالث : اليهودية المحرفة
٤٩	٤- المصدر الرابع : النصرانية المحرفة

٥٠	٥- المصدر الخامس : المصدر الشيعي
٥٢	٦- المصدر السادس : المصدر الإسلامي
٥٣	أرجح الآراء حول مصادر التصوف
٥٤	المبحث الخامس : آثار التصوف
٥٤	١ - انتشار الوثنية والشرك
٥٦	٢ - تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٥٧	٣ - انتشار الأذكار والأدعية والصلوات المبتدعة
١٢٩-٥٢	الفصل الثاني : مراحل تطور التصوف حتى نهاية القرن الثالث الهجري.
٦١	المبحث الأول : الزهد في المفهوم الشرعي وصلته بالتصوف
٦١	أولاً : مفهوم الزهد لغة واصطلاحاً
٦٢	ثانياً : أقسام الزهد ومراتبه وحكمه
٦٤	توجيهات قرآنية للبشرية إلى الزهد
٦٧	توجيهات نبوية للبشرية إلى الزهد
٦٩	نماذج من زهد الجيل الأول
٧٢	أقوال الزهاد والصوفية المتقدمين حول الزهد
٧٦	معنى الزهد الصحيح
٧٦	الانحراف في مفهوم الزهد لدى بعض الأعلام الصوفية في القرنين الثاني.
٧٦	والثالث الهجريين
٨٢	ثالثاً : صلة الزهد بالتصوف
٨٥	خلاصة القول في الزهد
٨٦	المبحث الثاني : خاصية تصوف القرن الثالث الهجري
٩١	المبحث الثالث : ظهور التدوين في التصوف في القرن الثالث الهجري ..
٩٦	المبحث الرابع : أهم رجال التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين.
٩٦	١- إبراهيم بن أدهم
٩٩	٢- داود الطائي
١٠١	٣- الفضيل بن عياض

١٠٢	٤- شقيق البلخي
١٠٣	٥- معروف الكرخي
١٠٧	٦- أبو سليمان الداراني
١١٠	٧- بشر الحافي
١١٢	٨- الحارث المحاسبي
١١٤	٩- ذو النون المصري
١١٦	١٠- أبو يزيد البسطامي
١١٨	١١- سهل بن عبد الله التستري
١١٩	١٢- أبو القاسم الجنيد
١٢١	١٣- الحسين بن منصور الحلاج
٢١٦-١٣٠	الفصل الثالث : أهم قضايا التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين
١٣١	المبحث الأول : معرفة الله تعالى
١٣٣	حديث أعلام التصوف عن معرفة الله عز وجل
١٣٧	أشهر من غلب عليهم الكلام في المعرفة
١٣٧	١- ذوالنون المصري
١٤١	٢- أبو يزيد البسطامي
١٤٣	٣- الحسين بن منصور الحلاج
١٤٦	الكلام عن العلم اللدني
١٥٥	المبحث الثاني : الحب الإلهي
١٥٦	من رواد الحب الإلهي الأوائل
١٥٦	عبد الواحد بن زيد
١٥٧	أبو الحسين أحمد النوري
١٥٩	عتبة الغلام
١٦٠	رابعة العدوية
١٦٨	المبحث الثالث : الولاية
١٧٦	المبحث الرابع : الكرامة

١٨١	المبحث الخامس : الفناء ووحدة الشهود
١٩١	المبحث السادس : الحقيقة والشرعية
١٩٦	المبحث السابع : السماع
٢٠١	المبحث الثامن : المقامات والأحوال
٢٠٢	التوبة
٢٠٥	الورع
٢٠٦	الزهد
٢٠٧	التوكل
٢٠٩	الصبر
٢١١	الشكر
٢١٢	الرضا
٢١٤	الخوف والرجاء
٤٤٨-٢١٧	الباب الثاني : موقف الفقهاء الأربعة من التصوف
٢٦٦-٢١٧	الفصل الأول : الإمام أبوحنيفة والتصوف
٢١٩	المبحث الأول : عصر الإمام أبي حنيفة وحياته
٢٢٢	المبحث الثاني : الإمام أبوحنيفة وموضوعات التصوف
٢٢٢	١- معرفة الله تعالى
٢٢٥	٢- العبودية
٢٢٨	٣- العلم
٢٣٢	٤- الزهد
٢٣٤	٥- الورع
٢٣٦	٦- خوف والرجاء
٢٣٧	٧- السماع
٢٤١	المبحث الثالث : بطلان ما نسب إلى الإمام أبي حنيفة في التصوف
٢٤١	١- حضور الخضر إلى الإمام أبي حنيفة
٢٤٥	٢- الرؤي المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة

٢٥٠	٣- الهواتف المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة
٢٥٣	٤- العبادة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة
٢٥٥	٥- الملامة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة
٢٦٠	المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من الفكر الصوفي
٢٦٠	عبد الله بن مبارك
٢٦٢	فهمه الواسع للزهد
٢٦٥	شمولية فهمه للعبادة
٣١٤-٢٦٨	الفصل الثاني : الإمام مالك بن أنس والتصوف
٢٦٩	المبحث الأول : عصر الإمام مالك وحياته
٢٧٤	المبحث الثاني : الإمام مالك وموضوعات التصوف
٢٧٤	١- معرفة الله تعالى
٢٧٨	٢- العبودية
٢٨٠	٣- العلم
٢٨٣	٣- الزهد
٢٨٦	٥- التقوى
٢٨٩	٦- الذكر
٢٩٢	٧- السماع
٢٩٨	المبحث الثالث : بطلان ما نسب إلى الإمام مالك في التصوف
٢٩٨	١- ما نسب إليه الكلام في الحقيقة
٣٠٠	٢- ما نسب إليه في التوسل
٣٠٧	المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من الفكر الصوفي
٣٠٧	١- وكيع بن الجراح
٣٠٧	عبادته وزهده وورعه
٣١٢	٢- يحيى بن يحيى الليثي
٣١٢	موقفه من الزهد والتوكل والفقر
٣٧١-٣١٥	الفصل الثالث : الإمام الشافعي والتصوف

٣١٦	المبحث الأول : عصر الإمام الشافعي وحياته
٣٢٠	المبحث الثاني : الإمام الشافعي وموضوعات التصوف
٣٢٠	١- معرفة الله تعالى
٣٢١	٢- العبودية
٣٢٣	٣- التوبة
٣٢٥	٤- المجاهدة
٣٢٨	٥- الزهد
٣٢٩	٦- التوكل على الله تعالى
٣٣٢	٧- القناعة
٣٣٣	٨- السخاء
٣٣٥	٩- الخوف والرجاء
٣٣٧	١٠- التغيير
٣٣٨	١١- تصرف الولي
٣٤٠	المبحث الثالث : بطلان ما نسب إلى الإمام الشافعي في التصوف
٣٤٠	١- الأوتاد
٣٤٣	٢- السماع
٣٤٧	٣- التبرك بالقبر وبصاحبه
٣٥٢	٤- الفراسة والنظر في النجوم
٣٥٦	٥- القول المنسوب إليه في البدعة
٣٥٩	٦- القول المنسوب إليه في التصوف
٣٦٥	المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته في الفكر الصوفي
٣٦٥	١- أبو إبراهيم المزني
٣٦٥	موقفه من الفكر الصوفي ودفاعه عن الشافعي
٣٦٧	٢- محمد بن جرير الطبري
٣٦٧	زهده وورعه وموقفه من الفقر والتوكل
٤٤٩-٣٧٢	الفصل الرابع : الإمام أحمد بن حنبل والتصوف



٣٧٣	المبحث الأول : عصر الإمام أحمد وحياته
٣٧٧	المبحث الثاني : الإمام أحمد وموضوعات التصوف
٣٧٧	١- معرفة الله تعالى
٣٧٨	٢- الزهد
٣٨٧	٣- العلم
٣٨٩	٤- التوبة
٣٩٢	٥- التوكل على الله تعالى
٣٩٥	٦- الورع
٣٩٨	٧- الخوف والرجاء
٣٩٩	٨- الجوع وترك الشهوة
٤٠١	٩- النفور من الزواج
٤٠٦	١٠- الخلوة والعزلة
٤٠٨	١١- السياحة
٤١٠	١٢- التغيير والاجتماع لسماع القصائد والمدائح
٤١٣	المبحث الثالث : موقف الإمام أحمد من أعلام التصوف
٤١٣	١- معروف الكرخي
٤١٥	٢- بشر الحافي
٤١٧	٣- أحمد بن أبي الحواري
٤١٩	٤- حاتم الأصم
٤٢١	٥- الحارث المحاسبي
٤٢٣	٦- سري السقطي
٤٢٦	٧- أبو حمزة الصوفي
٤٢٨	المبحث الرابع : بطلان الروايات المنسوبة إلى الإمام أحمد في التصوف .
٤٢٨	١- الأبدال
٤٣٣	٢- القول بعلم الحقائق
٤٣٥	٣- القراءة عند القبور وإهداء الثواب

٤٤٠	المبحث الخامس : موقف بعض تلامذته من الفكر الصوفي
٤٤٠	١- أبو زرعة الرازي وموقفه من الحارث المحاسبي
٤٤٣	٢- أحمد بن محمد الأثرم ودفاعه عن السنة ومحاربته للبدع
٤٤٤	٣- غلام خليل وإنكاره على الصوفية في الحب الإلهي
٤٤٧	٤- أبو محمد البرهماري وموقفه من الفكر الصوفي
٤٥٠	الخاتمة
٥٠٤-٤٥٢	الفهارس
٤٥٣	فهرس الآيات القرآنية
٤٦٥	فهرس الأحاديث والآثار
٤٧٢	فهرس المصطلحات والكلمات الغريبة
٤٧٣	فهرس الأعلام
٤٧٧	فهرس المصادر والمراجع
٤٩٧	فهرس الموضوعات